

معارج التفكر ودقائق التدبر

تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول
وفق منهج كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل»

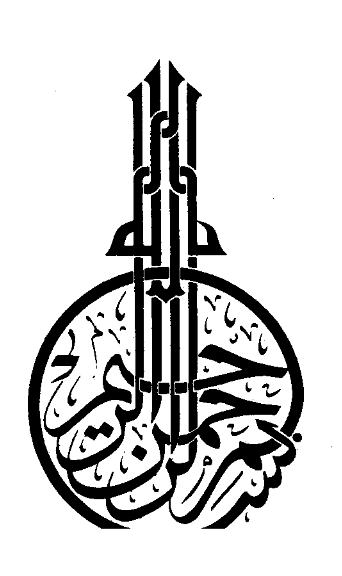
المجلد الأول

تفسير سور

العلق (١) - المدثر (٢) - المزمل (٣) - القلم (٤) - الفاتحة (٥) - المسد (٦)
التكوير (٧) - الأعلى (٨) - الليل (٩) - الفجر (١٠) - الضحى (١١) - الشرح (١٢)
العصر (١٣) - العاديات (١٤) - الكوثر (١٥) - التكاثر (١٦) - الماعون (١٧) - الكافرون (١٨)

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم
دمشق


بسم الله الرحمن الرحيم

مَعارِجُ التَّفكُّرِ
وَدَقائِقُ التَّدبُّرِ

الطّبْعَة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

تُطلبُ جميعُ كتبنا مِنْ :
دَارُ القَلَم - دمَشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدّار الشاميّة - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعُوديّة عن طريق
دَارُ البَشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

المقدّمة العامّة للكتاب

الحمد لله الجليل الكريم الوهّاب المنّان، مُنَزِّل القرآن، أتمّ ما أنزل من كتاب، والجامع لزُبْدَةِ مَا فِي زُبُر الأوّلين، على خاتم النبيّين والمرسَلِين، مُحمَّد بن عبد اللّهِ الَّذِي آتاهُ ربُّه الحكمةَ وفصْلَ الخطاب، وجعلَهُ سيِّدَ الأولين والآخِرين، وآتاه ما لَمْ يُؤْتِ أحداً من العالمين، وجعل القرآن الّذِي اصطفاه لخاتمة رسالاته كتاباً مُعْجِزاً في مبانيه ومعانيه، لا تفنىٰ عجائبه، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرَّدّ، بحراً عظيماً زاخراً بالمعاني مع عُذُوبَةِ تلاوة، وقُوَّةِ تأثير، وحُسْنِ بَيَان.

وبَعْدُ فقد فَتَحَ اللّهُ عزّ وجلّ عَلَيَّ خِلَال تَدبُّرِي الطَّوِيل لكتابه المجيد، باسْتِخْراج أرْبَعِينَ قَاعِدَةً من قواعد التدبُّرِ الأمْثَل لكتابه، قابلةٍ للزيادة عليها، وهذه القواعِدُ تُقَدِّمُ للمتدبّرين أصول التفسير الأقوم للقرآن الكريم.

وقد دَوَّنْتُ هٰذهِ القواعد مقرونةً بأَمثلتها، في كتابي: «قواعد التدبّر الأمثل لكتاب اللّهِ عزّ وجلّ» الذي زادت صفحاته على (٨٠٠) صفحة، ولم أجدْ في المفسِّرِين من اهتَمَّ بالتزام مضمونها، ولا بالْتِزام كثيرٍ منها.

وقد رأَيْتُ من الواجب عليَّ أنْ أُقدِّمَ ما أستطِيعُ تقديمَهُ من تدبُّرٍ لِسُوَرِ هذا الكتاب العزيز المعجز، الذي لا يأتيه الباطِلُ من بين يدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِه، ملتزماً على مقدار استطاعَتِي بمَضْمُونِ القواعِدِ الّتي فتح اللّهُ بها عليَّ، مع الاعتراف بأنّ التزامها التزاماً دقيقاً وشاملاً عَسِيرٌ جدّاً، بل قد يكونُ بالنّسبة إلى متدبّرٍ واحدٍ متعذّراً، وأَسألُ اللّهَ أن يُمِدَّني بعَوْنِهِ وتوفيقه وفتحه المبين.

وقد ألحَّ عليَّ ناشِرُ كتبي حفظه اللَّهُ بأنْ أبْدَأَ بنَشْرِ ما يُنْجِزُهُ اللّه لي مِنْ مُجَلَّدَاتٍ في هذا التدبُّر، الّذي ترجَّحَ لديَّ فيه أن أُتابع تدبُّرَ السُّورِ على ما ذكر الْعُلَماء بعُلُومِ القرآن الكريم، مِنْ ترتيبِ نزولها، لا على وفق ترتيبها الاجتهادي في المصاحف، التزاماً بترتيب المصحف الذي وُزِّعَتْ نُسَخٌ منه على معظم أمْصَارِ المسلمين في عَهْدِ عثمان رضي اللَّهُ عنه، فَمِنَ الثّابتِ قطعاً أنَّ كثيراً من السُّور، مثل: «البقرة وآل عمران والنساء والأنفال» هي من التنزيل المدني، وأنّ كثيراً من السُّور هي من التنزيل المكّي قطعاً مثل سورة «العلق» وقد رأيْتُ بالتدبُّر الميْدَاني للسُّوَرِ أنَّ مَا ذَكَرَهُ المختصُّون بعُلُومِ القرآن الكريم من تَرْتيب نزول، هو في مُعْظَمِه حقٌّ، أخْذاً من تَسَلْسُل البناء المعرفيّ التكامُلِيّ، وتَسَلْسُل التكامُلِ التربوي، واكتَشَفْتُ في هذا التدبّر أموراً جَلِيلةً تتعلَّقُ بحَرَكةِ البناء المعرفيّ لِأُمور الدّين، وحركَةِ المعالجات التربويّة الرَّبّانيَّةِ الشّاملة للرَّسُولِ ﷺ، وللذين آمنوا به واتَّبَعُوه، وللّذِين لم يَسْتَجِيبُوا لدعوة الرَّسُولِ مُتَرَيِّثين أو مُكَذِّبينَ كافِرِين.

وإذا لم تُسْعِفِ القدراتُ أوْ لم يُسْعِفِ الْعُمر باستكمال هذا التَّدَبّر لكلِّ القرآن المجيد، فإنّ من المفيد جدّاً أنْ أُقدِّم ما يفتح اللَّهُ الوهّابُ لي فيه، عسَىٰ يُتِمَّ الْعَمَلَ متَدَبِّرونَ لاحِقُونَ، مُحْتَذِين أو مُضِيفين أو مُعَدِّلين.

والله الهادي إلى سواء السبيل، وهو الفتاحُ الوهاب.

مكة المكرمة ٥/ ١١/ ١٤١٨هـ
و٣/ ٣/ ١٩٩٨م

عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني

مُقدمات حول

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

و

بسم الله الرحمن الرحيم



مفهومات تتعلَّق بالاستعاذة والبسملة

(١)

الاستعاذة

الاستعاذة: عنوان لجملة: «أعوذ باللّهِ من الشيطان الرجيم» أو «أعُوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم» أو نحوهما.

قال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾.

وهذه الاستعاذة قبل الشروع بقراءة القرآن عمَلٌ مندُوبٌ إليه عند جمهور العلماء، فالأمر بقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ هُوَ للنَّدْب لا لِلْوُجوب.

ورُوي عن «عطاء» وجوبُ الاستعاذة أخْذاً بظاهر الأمْرِ.

أَعُوذ: أي: أَلُوذ وأعْتَصِم مُلْتَجِئاً طَالِباً الحمايةَ والوقاية.

يقال لغة: عَاذَ بِهِ عَوْذاً وعِياذاً ومَعاذاً، أي: لاَذَ به، واعْتَصَم، ولجأ إلَيْه، طالباً حِمَايَتَهُ وَوِقايَتَهُ.

ويقال: مَعَاذَ اللّهِ، أي: عِيَاذاً باللّه.

باللّه: اللّهُ، اسْمٌ علَمٌ عَلَىٰ الخالِقِ الرَّبُّ الأَزَلِيّ الأبَدِيّ واجبِ الوجود عقلاً، المتَّصِفِ بكلِّ صفاتِ الكمال، والمنزَّهِ عن كُلِّ صِفةٍ لا تَلِيقُ بكمالاتِه السّاميات وأسمائه الحسنىٰ.

السَّمِيع: من أسماء الله الحُسْنَىٰ الوصْفِيَّة، وهو من صِيغِ المبالغةِ فاسم الفاعل «سَامع» ومبالغته «سَمِيع» و«ال» في «السميع» للكمال، أي هو السميع لكلِّ صَوْتٍ مهما كان خافتاً، ولو كان حركَةَ القلوب والنفوس الّتي لا يَسْمَعُها صاحبها، أو أحاديث الأفكار.

العليم: هو من أسماء الله الحسنىٰ الوصْفِيّة أيضاً، وهو أيضاً من صِيغ المبالغة، ويقالُ في «العليم» ما سبق بيانه في السّميع.

فهو سبحانه محيط بكلّ شيءٍ علماً، ومنه ما توسوس به الشياطين في الصدور.

من الشيطان: الشيطان: اسم جنس يقع على كلّ مُغْوٍ مُضِلٍّ متمرّدٍ مُفْسدٍ، من الجنّ والإنس، وإبليسُ إمام الشياطين ورئيسُهم.

يقال لُغةً: شَطَنَ يشْطُنُ شَطْناً، وهذا الفعل يأتي بمعنَيَيْنِ:

المعنى الأولى: شطَنَ عنه، أي: بَعُد عنه. وأشطنَهُ، أي: أبْعَدَه.

المعنى الثاني: شَطَنَهُ، أي شدَّهُ بالشَّطَن، وهو الحبْلُ الّذي يُشْطَنُ بِهِ الدَّلْو في البئر. وكُلُّ حَبْلٍ يُسمَّىٰ شطناً، ويجمع على أشطان.

ولـمّا كان المغوي المضلُّ المتمرّدُ المفسد بعيداً عن الحق والخير والْهُدَىٰ، ومُبْعِداً عنها، وَلـمَّا كانَتْ له أشطان «=حبائل» للإغواء والإغراء، كان حريًا بأن يسمَّىٰ شَيْطاناً.

الرجيم: الملعون المطرود، والأصل فيه أنّ المطرود يُرْجَمُ بالحجارة، أي: يُرْمَىٰ بها، لإبعاده أو قتله والتخلُّص من شرّه.

والرَّجْمُ: مَا يُرْجَمُ به من حجارةٍ وَغيرها، والجمع رُجُوم.

ولـمّا عصَىٰ إبليس رَبَّهُ وأصَرَّ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ، ورفض طاعَةَ اللّه، طرَدَهُ اللّهُ وَلَعَنَهُ وأبْعَدَهُ عَنْ منازِلِ الملائكة، وجعله رجيماً دواماً، وكلُّ من اتّخذَ إبليسَ إماماً له، وصَارَ مُغْوِياً مُضِلاً لعباد الله، فَهُوَ شيطانٌ رَجيم.

وقد أوصى اللّهُ عبْدَهُ المؤمِنَ أَنْ يَسْتَعِيذَ باللّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ من الشَّيْطَانِ، كلَّما تَعَرَّضَ لِنَزْغٍ في صَدْرِهِ منه، وهَذَا النزغ يُحِسُّ به عَلىٰ صورة وساوس وخواطِر فكرية، أو تحرُّكاتٍ نفسيَّة تُوَجِّهُه لمعصِيَةِ اللّهِ، وتُزَيِّنُها في نفسه.

فأنزل الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قوله:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾.

ثم أنزل الله عزّ وجل قوله في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾.

فزاد في العبارة تأكيداً وحَصْراً بأنَّهُ هو وَحْدَهُ السّميعُ، أي: والمجيبُ لاسْتِعاذَة مَن اسْتَعَاذَ بِه، وهو وحْدَهُ العليم بِهِ وبِمَا يُوسْوِسُ به الشيطان في صَدْرِه، مهما أخفى الشيطانُ وساوِسَهُ ونزَغاتِهِ، أي: وهو وحْدَهُ القادِرُ على إعاذته.

وأدعيَةُ الاستعاذة باللّهِ في السُّنَّةِ كَثِيرة.

وفي الملحق الثالث مِنْ ملاحِقِ سورتي الفلَقِ والنّاس بيانٌ مُفَصَّلٌ لكل ما جاء في القرآن حول الاستعاذة.



(٢)
حكم الاستعاذة قبل القراءة في الصلاة

● قال الشافعيَّةُ والحنابلة: تُسَنُّ الاستعاذةُ سِرّاً في أوَّلِ كلِّ رَكعة قبل القراءة، بأن يقول المصلي: أعوذُ باللّه من الشيطان الرجيم، عملاً بعموم قول اللّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾.

ورُوِي عن الإمام أحمد أنّه يقول: «أعوذ باللَّهِ السَّمِيعِ العليم من الشيطان الرجيم».

والدليل ما رواهُ أحمد والترمذيُّ عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ:

«أَنَّهُ كَانَ إذا قام إلى الصلاة استفتح، ثُمَّ يَقُولُ: أعوذ باللَّهِ السَّمِيع الْعَلِيم من الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ من هَمْزِه ونَفْخِه ونَفْثِهِ».

- وقال الحنفيّة: تُسَنُّ الاستعاذة في الركعة الأولىٰ فقط.

- وقال المالكيّة: تُكْرَهُ الاستعاذة والْبَسْمَلَةُ قبل الفاتحة والسورة، لما رواهُ مسلم وأبو داود والنسائي عن أنس بن مالك من طرقٍ كثيرة، أَنَّهُ قالَ: صَلَّيْتُ خَلْفَ رسول الله ﷺ وأبي بكر وعُمَرَ، فَكَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ بالحمدُ للّهِ ربِّ العالمين، لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم، لا في أول قراءة ولا في آخرها.

أقول: ما دلَّ عليه هذا الحديث لا يمنَعُ من احتمال ذكْرِ شيءٍ آخر سِرّاً غير الفاتحة، كدعاء الاستفتاح الثابت عن الرَّسُولِ ﷺ.



(٣)
البسملة

هذه كلمةٌ منحوتَةٌ من جُمْلَةٍ: «بسم الله الرحمن الرحيم» ولهَا نظائر من الكلمات المنحوتة.

- فمنها: **«السَّبْحلَةُ»** نحتاً من جملة: «سبحان الله».

● ومنها: «**الْحَيْعَلَة**» نحتاً من جملة: «حيَّ على الصلاة» أو «حيَّ على الفلاح».

● ومنها: «**الْحَوْقَلَة**» نحتاً من جملة: «لا حَوْلَ ولاَ قُوَّةَ إلاَّ باللَّهِ».

● ومنها: «**الحَمْدَلَة**» نحتاً من جملة: «الْحَمْدُ لِلَّه».

● ومنها: «**التَّهْلِيلُ**» نحتاً من جملة: «لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ».

ومن هذا النحت ما رُوي عن عليّ بْنِ أبي طالبٍ رضي اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَال:

● «ما تَسَرْوَلْقَمْتُ قَطُّ» أي: ما لبسْتُ السَّرَاوِيلَ قَائماً قَطُّ.

● و«ما تَعَمْقَعْدَتُّ قَطُّ» أي: ما لبسْتُ العمامة قاعداً قطُّ.

ومن الاختصارات الّتي يُكَنَّىٰ بها عن الْجُمَلِ، ما ورَدَ في السُّنَّة، من الترغيب في التسبيح، والتحميد، والتكبير، عقب الصلوات المكتوبة، كنايَةً عن ذِكْر: «سُبْحان اللّه، والحمدُ للّهِ، واللّهُ أكبر».

أمّا جُمْلَة «بسم اللَّهِ الرحْمٰنِ الرَّحِيم» فهي آيَةٌ حتْماً من سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) بلا خلاف، وقد جاءت في الآية الثلاثين منها، في قول الله عزّ وجلّ، حكايةً لما جاء في كتاب سليمان عليه السّلام، لِبِلْقِيسَ مَلِكَة «سبأ» في اليمن:

﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

واختلف العلماء في كَوْنِها جزْءاً مِنْ أَوّلِ سُورَةِ الفاتحة، وفي كونها جزءاً مِنْ أَوَّل سَائِر سُوَر القرآنِ باسْتِثْناء سُورَةِ «براءة» أو هِيَ للْفَصْلِ بين السُّورَةِ والسُّورَة.

● فقال الشافعية وقُرَّاءُ مكةَ والكوفة وفقهاؤُهما وابْنُ المبارك:

هي جُزءٌ مِنْ أوَّلِ سُورَةِ الفاتحة، ومن أوَّل سائر سُوَر القرآن غيرِ سورة (براءة) علَىٰ الصحيح، وللشافعيّ قولان بالنسبة إلَىٰ غير الفاتحة، أصَحُّهما أنَّها جُزْءٌ من أوائل سائر سُور القرآن غير سورة (براءة).

واستدلُّوا بما يلي:

(١) أنَّها مكتوبة سَطْراً قبل كل سورة غير سورة براءة، في نسخ المصحف الإمام الّتي وُزِّعَتْ على الأمصار في عَهْدِ عثمان رضي اللَّهُ عنه.

مع إجْمَاع الصحابة على أنّ مَا بَيْنَ دُفَّتَي المصحفِ كِتَابُ اللَّهِ.

(٢) رَوَىٰ أبو داود بإسناد صحيح عن ابْنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، «أن رسول الله ﷺ كان لا يَعْرِفُ فَصْلَ السُّورَةِ حتَّىٰ يَنْزِلَ عليه بسْمِ الله الرحمن الرحيم». وأخْرَجَهُ الحاكم في المستَدْرَكِ.

(٣) وروىٰ النَّسَائيُّ في سُنَنِه، وابْنُ خزيمَةَ وابْنُ حِبَّانَ في صحيحيهما، والحاكم في المستَدْرَكِ، عنْ أبي هُرَيْرة: «أنَّهُ صَلَّىٰ فَجَهَرَ في قِرَاءَتِهِ بالْبَسْمَلَةِ، وقالَ بَعْدَ أنْ فَرَغَ: إنِّي لأَشْبَهُكُمْ صَلاَةً برسُولُ اللَّهِ ﷺ». وصحَّحه الدارقُطْنِي والخطيبُ والبيهَقِيُّ وغيرهُمْ.

(٤) وروىٰ الحاكم في المستدركِ عن ابْنِ عباس قال:

«كان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْهَرُ بِبِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم». ثمّ قال: صحيح.

(٥) وروىٰ البخاريُّ في صحيحهِ عَنْ أنَسٍ رضي اللَّهُ عَنْهُ، أنَّهُ سُئِلَ عن قراءة رسُولِ اللَّهِ ﷺ، فقال:

«كانَتْ قراءَتُهُ مَدًّا، ثُمَّ قَرأَ بِسْمِ اللَّهِ الرحْمٰنِ الرحِيمِ، يَمُدُّ بِسْمِ اللَّهِ، ويَمُدُّ الرَّحْمٰن، ويَمُدُّ الرَّحِيم».

فأشْعَرَ هذا الحديث بأنَّ الرَّسُولَ ﷺ كان يعْتَبِرُ «بسم اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ» جُزْءاً مِنَ الْقُرْآنِ لدَىٰ تِلاَوةِ السُّوَر.

(٦) وروى الإمام أحمد في مُسْنَده، وأبو دَاوُد في السُّنَنِ، وابْنُ خزيمَةَ في صحيحه، والحاكم في مُسْتَدْرَكِه، عن أُمّ سلَمَةَ، أنَّها قالت:

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ: بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيم. الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الرحْمٰنِ الرَّحِيمِ. مالِكِ يَوْمِ الدِّين».

قال الدارقُطْنِي: إسناده صحيح.

● وقال الإمام أحمد، وأبو ثور، إنَّها آيَةٌ من الفاتحة فقط، لوضوح الأدلَّة بالنسبة إليها.

● وقال الإمام مالك والإمام الأوزاعي وقُرَّاءُ المدينة والبصْرَةِ والشَّام: إنَّ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ» لَيْسَتْ بآيَةٍ من سُورَةِ الفاتحة، ولا مِنْ سَائِرِ سُوَرِ الْقُرْآن.

وحُجَّتُهُمْ عَدَمُ ثُبُوتِ كَوْنِهَا جُزءاً مِنْ أَوَّلِ سورة الفاتحة أوْ غيرها من السُّوَرِ بالتواتُرِ، والْقُرْآنُ لاَ يثبُتُ إلاَّ بالتَّوَاتُر.

● ولَمْ يُنْقَلْ عن أبي حنيفة في هٰذِهِ المسألة شيءٌ، لكنَّهُ رأىٰ عدم الجهر بها مع الفاتحة في الصَّلاَة الجهريَّة، وكَرِهَ قراءتها في أوائل السُّورِ الموصولة بالفاتحة في الرّكعتَيْن الأولَيَيْنِ.

وقيلَ: إنَّ الأصحَّ المقبول عند الحنفيّة، أنّ البسمَلَةَ آيةٌ فذَّةٌ أُنْزِلَتْ للفَصْلِ والتَّبرُّكِ بالابتداء بها، ولهذا أُخِّرَتْ عَنِ الاستعاذةِ، وكُتِبَتْ بقَلَمِ الْوَحْي وحِبْرِهِ وخطِّهِ، في نسخ المصحف الإمام بخلاف الاستعاذَةِ.

وأوْرَدَ الذين نَصَرُوا الْقَوْلَ بأنّ البسملَة ليست جزءاً من أوَّل سُورَةِ الفاتحة، أو غَيْرِها من سُوَرِ القرآن، أحاديثَ يُشْعِرُ ظَاهرُها بما ذَهَبُوا إليه، وهي الأحاديث التالية:

(١) ما روى البخاري ومسلم ومالك في الموطأ عن أبَيّ بْنِ كعب، أنّ رسول الله ﷺ قال له:

«ألا أُعَلِّمُكَ سُورَةً لَمْ يُنْزَلْ في التوراةِ ولا في الإِنْجِيلِ مِثْلُهَا قبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ؟».

قال: بلىٰ، فلَمَّا قاربَ الخُروجَ قَالَ له:

«كَيْفَ تَقْرَأُ إِذَا افْتَتَحْتَ الصَّلاَةَ؟».

قال أُبَيّ: فَقَرَأْتُ: الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِين، حتَّىٰ أَتَيْتُ عَلَىٰ آخِرِها.

قالُوا: فهذا دليلٌ على أَنَّه لَمْ يَقْرَأْ مِنها الْبَسْمَلَة.

أقول: هذا دليلٌ احتماليٌّ غَيْرُ لازِم، لاحْتِمَالِ أن يكُونَ أُبَيٌّ يَرَىٰ أَنَّهَا آيَةٌ فَذَّةٌ تُتْلَىٰ قبل البدء بالسُّورَةِ، أَوْ أَنَّها لتكرُّرِها في أوائِلِ السُّوَرِ لا تُمَيِّزُ السُّورَةُ إلاَّ بمَا تَبْدأُ بِهِ السُّورَةُ بَعْدَها، أو أَنَّهُ تَلَىٰ السُّورَة الَّتِي تُسَمَّىٰ «الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين».

(٢) وما روىٰ مسلم وأبو داود في سُنَنِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْها قَالَتْ:

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَفْتِحُ الصَّلاَةَ بالتكْبِير، والْقِرَاءَةَ بالْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين».

قالوا: وَهٰذا دَلِيلٌ على أَنَّ البسملة ليسَتْ جزءاً من الفاتِحَة.

أقول: يَحْتمل أن تكون قد أرادت السُّورةَ الَّتي تُسَمَّىٰ «الحمدُ للَّهِ رَبِّ العالَمِين».

(٣) ما رَواه مُسْلِمٌ وأبو داود والنَّسائي عن أَنَسِ بن مالِكٍ من طُرُقٍ كثيرة أَنَّهُ قَالَ: صَلَّيْتُ خَلْفَ رسُولِ اللَّهِ وأبي بَكْرٍ وعُمَرَ فكانوا يَسْتَفْتِحُونَ بالْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العالمين، لا يَذْكُرُونَ بسم اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ لاَ في أَوَّلِ قراءَةٍ وَلاَ فِي آخِرِها».

ونظيره عن عبد اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ في سُنَنِ الترمذي، وسُنَنِ النسائي.

وذَكَرُوا في الاستدلال عَمَلَ أَهْلِ المدينَةِ إلى زمَنِ الإمَامِ مالك، أنَّهُ لَمْ يُسْمَعْ أَحَدٌ منهُمْ قَرَأ بسم اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيم في الصَّلاَةِ الْجَهْرِيَّة.

أقول: هذه الأدلَّة لاَ تَنفِي كَوْن بسم الله الرحمن الرحيم آيَةً مِنْ سُورَةِ الفاتِحَةِ، أَوْ آيَةً فَذَّةً تُتلَىٰ قَبْلَ الفاتِحَة، بَلْ تُثْبِتُ أَنَّهُمْ لَمْ يكُونُوا يَجْهَرُونَ بها كما يَجْهَرُونَ بالآيات الأُخرى من السُّورَةِ.

فالموضوع بين الجهْرِ وعَدَم الْجَهْرِ بتلاوة بسم الله الرحمن الرحيم، وأدلَّةُ عَدَمِ الْجَهْرِ مُعَارِضَةٌ بأدِلَّةِ الْجَهْرِ بها الَّتِي سَبَقَ ذِكْرُها، ولاَ شَكَّ أنَّ أدِلَّةَ عَدَمِ الْجَهْرِ بها أقْوَىٰ، إلاَّ أَنَّهَا عَمَلٌ يُمْكِنُ أَنْ يُحْمَلَ على أفْضَلِيَّةِ عَدَمِ الْجَهْرِ بها، لاَ عَلَىٰ وُجُوبِهِ، وقد الْتَزَمَ أبُو بكر وعُمَرُ وعُثْمَانُ وأهْلُ مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ بما هُوَ الأفضل.

والأمْرُ يَسِيرٌ فَمَنْ جَهَرَ بِهَا في الصلاة الجهْرِيَّةِ فقد اتَّبَعَ السُّنَّة، ومَنْ لَمْ يَجْهَرْ بها فقد اتَّبَعَ السُّنَّةَ، وعَمِلَ بما هو الأفضل.

ويبدُو أنَّ إثبات كونِ «بسم الله الرحمن الرحيم» جزءاً مِنْ أوَّلِ كلِّ سورة غيْر سُورَةِ «براءة» أَوْ كَوْنِها آيَةً فَذَّةً تُتلَىٰ قَبْلَ السُّورِ الَّتِي كُتِبَتْ «بسْمِ اللَّه الرحمن الرَّحيم» في مطالِعِها سَطْراً مُنْفَصِلاً، في نُسَخِ المصحف الإمام الَّتي وُزِّعَتْ في عَهْدِ عثمان على الأمْصَارِ، هو الأرْجَحُ.

فكِتَابَتُهَا في المصاحفِ المذكورة، الَّتِي لم يُكْتَبْ فيها شيءٌ غَيْرُ الْقُرْآنِ، مَعَ الأَحَادِيثِ الَّتِي جَاءَ فِيهَا ما يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ الرَّسُولَ تَلاَها قَبْلَ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ إلى آخر فاتحة الكتاب، ومَعَ الإجماع علىٰ أَنَّ ما بين دُفَّتَي المصحف كتابُ الله، كافيَةٌ لإثباتِهَا قُرْآناً، لأنَّها مُجْتَمعةٌ بقُوَّة المتواتِرِ.



(٤)
التدبُّر التحليليّ للبسملة

قول الله عزّ وجلّ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾.

جُمْلَةٌ عظيمة عَلَّمَنا اللَّهُ أن نَسْتَفْتِحَ التلاوَةَ والقِرَاءَةَ بِهَا، وعلَّمنا الرَّسُول ﷺ أن نَسْتَفْتِح كُلَّ أمْرٍ ذي بالٍ بها.

﴿بِسْمِ﴾: الْبَاءُ حَرْفُ جَرٍّ، ومن معانيه الاستعانَةُ والإلْصَاق، ووجود هذا الحرف يسْتَدْعي عاملاً جالباً له، وإذْ لَمْ يُوجَدْ هذا العاملُ ملفوظاً فلا بُدَّ من تقديره ملحوظاً حتَّىٰ تَتِمَّ جملة البسملة.

ويختلف تقدير هذا العامل باختلاف حال الناطق بالبسملة، فإنْ كانت حالُه حالَ قراءة أو تلاوة قدَّرَ العامل من أحدهما، وإنْ كانت عملاً ما كقيام أو قعودٍ أو سَيْر أو طعامٍ أو نومٍ أو أي أمْرٍ آخر ذي بالٍ قَدَّرَ العامل ممّا يُناسب العمل الذي يريد أن يعمله، وهو يشمل كلّ عَمَلٍ فكرِيّ أو قلبيّ أو لسانيّ أو بدنيّ.

واحتمالات تقدير العامل تأتي في أربعة أوجُهٍ، وذلك أنَّه إمَّا أن يُقَدَّرَ العامل فِعلاً، فتكون الجملة فعليَّةً، وإمَّا يُقَدَّرَ اسْماً مُشْتقّاً يعمَلُ عَمَلَ الفعل، فتكُونَ الجملة اسميّة، وَكُلٌّ منهما إمَّا أن يُقَدَّرَ مُتَقَدِّماً على معموله، وإمَّا أن يُقَدَّرَ مُتَأَخِّراً عنه، والمقدَّرُ في مقام تلاوة القرآن أو قراءته مشتقٌّ من التلاوة أو من القراءة، فالوجوه الأربعة تأتي كما يلي:

(١) أتْلو بسم الله الرحمن الرحيم.

(٢) بسم الله الرحمن الرحيم أتلو.

(٣) تلاوتي كائنةٌ بسم الله الرحمن الرحيم.

(٤) بسم الله الرحمٰن الرحيم كائنةٌ تلاوتي.

وأبلَغُ هذه الاحتمالات أنْ نُقَدِّر الْعَامِلَ فِعْلاً مُتأَخِّراً، والسَّبب في هذا أنّ تقديم المعْمُول على عامله يفيد عند البلاغيّين الحصر، والحصْرُ في هذا المقام أنسَبُ إلَىٰ عقيدة المؤمن، لأنَّهُ إذا كانت الباء للاستعانة فإنّ المؤمن لا يستعينُ إلاّ بالله وصفاته، وإذا كانت للإلْصَاق فإنَّ المؤمِنَ لا يلْتَصِقُ التصاقَ التجاءٍ وتبرُّكٍ إلاّ باللَّهِ وَصِفَاته، فيكون تقدير العامل متأخِّراً نَصًّا مُعْلِناً عَنْ عقيدته.

والغرض من حذف المتعَلَّق أن يعُمَّ كلَّ ما يَصْلُحَ لأنْ يُقْصَد شرعاً، والتَّعْمِيم غرضٌ بيانيّ من أغراض الحذف، ولا سيما ما يتكرّر اسْتِعْماله في مناسباتٍ لا تُحْصَر.

والاسم: ما يُعْرَفُ به ذاتُ الشيْء، وأصل لفظة «اسم» كما ذكر علماء العربية «سِمْوٌ» بدلالة قول العرب في الجمْعِ «أسماء» وقولهم في التصغير «سُمَيّ».

وهو مشتقٌّ مِن السُّمُوّ بمعنى الارتفاع، فمعنى «الاسم» بحسَبِ الاشتقاق لفظ رُفِعَ بِهِ ذِكْرُ المسمَّىٰ ليُعْرَفَ به.

وقيل: أصْلُ «اسم» هو «وَسْم» بمعنى العلامة، حُذِفَتِ الواو ثُمَّ تُوُصِّل إلى الابتداءِ بالسَّاكِنِ بزيادة همزة الوصْلِ، فالاسم على هذا علامَةٌ دالَّةٌ على المسمَّىٰ.

﴿ٱللَّهِ﴾: اسْمٌ علَمٌ في اللُّغة العربيَّةِ على ذاتِ الخالق الرَّبِّ جلَّ جلالُهُ، الجامع لكلّ صِفاتِ الكمال، والمنزَّه عَنْ كُلِّ صِفَةٍ من صِفات النقصان الَّتي لا تَلِيقُ بذاتِ الرَّبِّ الخالق الأزليّ الأبديّ.

قيل: ولهذا فلَفْظُ «اللَّه» هو أعظم أسْماء الله الْحُسْنَىٰ، ومن خواصّ هذا الاسْم أنَّهُ لم يُسَمَّ بِه غيْرُ الخالِقِ الأزليّ الأبدِيّ الرَّبِّ جلَّ جلالُهُ، لاَ عَلَىٰ سبيل الحقيقة ولا على سبيل المجاز.

وحاوَلَ بعض عُلَماء العَرَبيّة بيَانَ أصل لفظة «اللّه» فقالوا: أصلُها «إلَه» على وزْنِ «إمام» ثُمَّ أدْخَلُوا عليه الألف واللاّم للتعْرِيف، فصارت: «الإلَه» ثُمَّ حُذِفَتِ الهمزةُ ونُقِلَتْ حرَكَتُهَا إلَىٰ لاَم التعريف قَبْلَهَا، فصارت الكَلِمَةُ: «الِلَه» ثُمَّ استثْقِلتِ الكَسْرَةُ علىٰ اللاَّم، فَسُكِّنَتْ، وأُدْغِمَتِ اللاَّمُ الأولى بالثانية، فصارَتِ (اللَّه) ومن ثَمَّ صارت علماً على الخالِقِ الرّبّ الأزليّ الأبَديّ جلَّ جلالُه.

أقول: هذا بحثٌ في منشأ الكلمة وَتَطَوُّرِها، يهْتَمُّ بِه الباحثون في أصول الكلمات ونَشأَتِها، وفي تَطَوُّرِ اللُّغاتِ، وهُوَ من التَّرَفِ الَّذِي لا يَحْتَاج إليه مُتَدَبِّرُ كِتاب اللَّهِ، إذْ يَجِبُ أنْ يَنْصَبَّ كُلُّ اهْتِمَامِهِ عَلَىٰ مَعَاني الكلماتِ القرآنيَّةِ، الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْها في لُغَةِ الْعَربِ إبَّانَ نزول القرآن.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: صفةٌ مُشَبَّهَةٌ مأخوذة مِنَ الرَّحْمَةِ، يقالُ لُغَةً: رَحِمَ المؤمِنُ أخاه المؤمِنَ رَحْمَةً، ورُحْماً، ومَرْحَمَةً، أي: رقَّ لَهُ، وعطَفَ عليه.

والرَّحْمٰن: من صيَغِ المبالغة، فمعناهُ: الكثير الرحْمَة، وصِيغَ اللَّفْظُ عل وزْنِ «فَعْلاَن» للمبالغة.

قالوا: ولفظ «الرحمن» خاصٌّ بالله عزّ وجلّ، فلا يُسْتَعْمَلُ فِي وصف غيره، فأشبه أن يكون علماً.

ومعنى الرحمة في المخلوق رِقَّةٌ في القلْبِ، ولكنّ هذا المعنى لا يليق بالخالِقِ سبحانه، فالرَّحْمَةُ صفَةٌ من صفاتِ الرَّبّ على ما يليق به جلَّ جلالُهُ، وهي تسْتَلْزِمُ الإنعام والإكرام.

وهل لفظ «رَحْمٰن» مصروفٌ أو غيرُ مصروف؟

فيه قولان، ومال السَّعْد التفتازَانِي إلَىٰ جواز الأمْرَيْنِ فيه.

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: صفةٌ مشبَّهةٌ أيضاً مأخوذة من الرحمة، وهي مبنيَّةٌ على وزْنِ «فَعِيل» للمبالغة أيضاً، فمعنى «الرحيم» الكثير الرَّحْمَةِ أيضاً.

وجُمِعَ في البسملَةِ وَفي سورة (الفاتحة) بين اسْمَي اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ والرَّحِيم لأمور، منها:

(١) تأكيدُ الثناء على الله بصفة رحمته.

(٢) الطَّمَعُ بإنعامه وإحسانه، وهو ما يُشْعِر به حشْدُ أسماء اللّٰهِ الحسنىٰ المشتقة من الرحمة، في مقام الاستعانة به، والتبرُّكِ بذكْرِ بعض أسمائه الحسنىٰ، واستعطافه للاستزادة من فيوض عطاءاته.

(٣) الإشارة إلى شمول رحمته جلائل النِّعَمِ ودَقائِقَها الّتِي يتفضَّلُ بها على عباده في الدنيا وفي الآخرة.

قالوا: والرَّحْمٰنُ يُسْتَعْمَلُ في الأغلَب للدّلالَةِ على عموم رحمته تعالى المؤمنين والكافرين في الدنيا، والرَّحيم يُسْتَعْمَل في الأغلب للدّلالَةِ على خصوص رحمته تعالى المؤمنين في الآخرة.

أقول:

لقد تتبَّعْتُ بالاستقراء الآيات التي جاء فيها اسم اللّٰه «الرحْمٰن» واسْمُ اللّٰه «الرحيم» فوجَدْتُ أنَّ الآياتِ الّتي تُشِيرُ إلَىٰ رحْمَةِ الله عباده في الدُّنيا، وَحتَّىٰ آخِرِ مَوْقِفِ الحساب وفَصْل القضاء وتنفيذ الجزاء يوم الدّين، قَدْ جاء فيها استعمال اسم الله «الرَّحْمٰن» منفرداً في الغالب، أو مَعَ ذِكْرِ اسم اللّٰه «الرحيم».

أمَّا الآياتُ الَّتي فيها الحديثُ عَنْ رَحْمَةِ اللّٰهِ عِبادَهُ المتقينَ في الجنَّة، فقد جاء فيها استعمال اسم اللّٰه «الرَّحيم» فقط.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ اللّٰهَ رحْمَانٌ لجميع عباده المؤمنين والكافِرين والعاصين، حتَّىٰ دُخولِ آخِرِ داخلِ جنَّةَ النّعيم، ولو كان من أهل العذابِ في دارِ العذاب بِصفةٍ مُؤَقَّتَةٍ.

لكِنَّهُ بالنِّسْبَةِ إلى أَهْلِ جنَّاتِ النعيم فَهُوَ بِهِمْ «رَحِيمٌ» أي: كثير فيوضاتِ الإسعادِ والإِنْعَامِ والإِكْرَام.

ونَسْتطيع أن نفهم من هذا أَنّ صيغَةَ: «رَحِيم» أبْلَغُ من صيغة: «رَحْمَان» ولهذا جاءَ في البسملة والفاتحة ذِكْرُ اسم اللّه: «الرحْمٰن» والارتقاء إلى الأبْلغِ الذي هو اسم اللّهِ «الرحيم».

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: صِفتان مجْرُورتان تابعتان في الإعراب للفظ الجلالة (اللّه) ولا أرىٰ مانِعاً من اعتبارِهِمَا من أسماء اللّهِ الحسنىٰ، وإعرابِهِمَا على البدليَّة من اسْمِ، أو عطف بيان.

وجملة «بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ» جملَةٌ ابتدائيَّةٌ لاَ مَحَلَّ لَهَا مِنَ الإِعْرَابِ.

❁ ❁ ❁

(٥)
مناقشة حول كون لفظة «اسم» مُقْحَمةً في البسملة أو لا

أوْرَد بعضُ المتأوّلين أنّ لفظة «اسم» مقْحَمةٌ في جملة: «بسم الله الرحمن الرحيم» وأنَّ الأصْلَ: «باللّهِ رَبّ العالمين» مُسْتَدِلاً بأَنَّ الاستعانة إنَّما تكونُ باللّهِ لا بالاسم، وأوْرَدَ له نظيراً قَوْلَ لبيد بن ربيعة العامري[١]:

إِلَىٰ الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلاَمِ عَلَيْكُمَا ... ومَنْ يَبْكِ حَوْلاً كَامِلاً فَقَدِ اعْتَذَرَ

قال: ومُرَادُ لبيد، ثُمَّ السَّلاَمُ عَلَيْكُمَا.

ورَدَّ الطبَرِيُّ هذا الكلامَ حتَّىٰ في بيتِ لبيد، وخرَّجَهُ في بيت لبيد على أحد وَجْهَيْن:

---

(١) شاعر أدرك الجاهلية والإسلام، وفد على الرسول ﷺ وأسْلَمَ، وكان من المؤلّفة قلوبهم، ولم يقل بعد إسلامه إلاّ بيتاً واحداً، توفي سنة ٤١ هجرية.

الوجه الأوّل: أنَّ السَّلامَ اسمٌ من أسماءِ اللَّه عزّ وجلّ، فجائزٌ أن يكون لبيد عَنَىٰ بقوله: «ثُمَّ اسمُ السَّلام عليكما» ثُمَّ الزَمَا اسمَ اللَّهِ وَذِكْرَهُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَدَعَا ذِكْرِي والبُكَاءَ عَلَيَّ، فرفَعَ «الاسم» إذْ أَخَّرَ الحرفَ الَّذِي يأتي بمعنى الإغراء، وقد تَفْعَلُ العربُ ذَلِكَ إذَا أَخَّرَتِ الإغراءَ وقَدَّمَتِ المُغْرَىٰ بِهِ، وإِنْ كانت قد تنصبُ به وهو مؤخّر، ومن ذلك قول الشاعر:

أَيُّهَا الْمَائِحُ دَلْوِي دُونَكَا إِنِّي رأَيْتُ النَّاسَ يَحْمَدُونَكَا

فأغْرَىٰ بـ«دُونَكَ» وهيَ مؤخَّرَةٌ، وإِنَّما مَعْنَاهُ دونَكَ دلْوِي، فكذَلِكَ قول لَبِيد: «إِلَىٰ الْحَوْلِ ثُمَّ اسمُ السَّلاَمِ عَلَيْكُمَا» يَعْنِي: عَلَيْكُمَا اسمَ السَّلاَم، أي: الْزَمَا ذِكْرَ اللَّهِ وَدَعا ذكري، والْوَجْدَ بي، لأَنَّ مَنْ بكَىٰ حَوْلاً كاملاً على ميِّتٍ فَقَدِ اعْتَذَر.

الوجه الثاني: أن يكون «اسْمُ السَّلاَمِ عَلَيْكُمَا» ثُمَّ تَسْمِيَتِي اللَّهَ عليكما، كما يقولُ القائل للشيء يَرَاهُ فيُعْجِبُهُ: «اسْمُ اللَّهِ عَلَيْكَ» يُعَوِّذُه بذلك من السُّوء.

هذا ما ذكره الطبري، والحقُّ ما ذكر، فالذي أراه أَنَّ كلمة «اسم» في جملة: «بسم الله الرحمٰن الرحيم» هيَ ذاتُ معنىً مُراد، وذلِكَ لأنَّ الذَّاكِرَ إنَّمَا يَبْدَأُ ذِكْرَه باسْمِ اللَّهِ، لاَ بذات اللَّهِ جلّ جلالُه، فالاسْمُ هُوَ الَّذِي يُلْفَظُ ويُتْلَىٰ.

ويُمْكِنُ أنْ يُقَالَ: إنَّ الاسْتِعَانَةَ حَاصِلَةٌ باسْمِ اللَّهِ الذي هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحيم، على الوجْهِ الذي اعتَبَرْنَا فيه «الرحمٰن الرحيم» على البدليّة من «اسم» أو عطف البيان.

ويخْطُرُ لي أنّه لا مانع من اعتبار «الاسم» بمعنى الصفة، رجُوعاً به إلى أصْلِ الاشتِقاقِ المأخُوذِ مِنَ الْوَسْمِ، وهِيَ العلامة، وعلى هذا يكونُ المراد بعبارَةِ «بسْمِ اللَّهِ» بِصِفَةِ اللَّهِ أستعين، أيْ: بصِفَاتِ اللَّهِ أسْتَعِينُ، لأنّ

الأصْل في المضافِ إلى المعرفةِ أنْ يَعُمَّ، ما لم تَرِدْ قَرِينَةٌ صارفَةٌ عن إرَادَةِ العموم.

وإنَّما كانَتِ الاسْتِعَانَةُ بالصِّفَاتِ، لأنَّ صفات اللَّهِ عزّ وجلَّ هِي الَّتِي تتعلَّقُ بمَخْلُوقاتِهِ، ويكُونُ لَهَا فيهم آثارٌ خلْقٍ وتكوين، ويضافُ إلَىٰ هذا أنّ أفهام المخلوقات لا تستطِيعُ أن تَصِلَ إلى إدْراكِ ذَاتِ الخالِقِ العليَّةِ، فغايَةُ المدىٰ الذي يُمْكِنُ أنْ تتطاوَلَ إليه مداركُ المخلوقات، إنّما هو إدْراكُ مقاديرَ مَحْدُودَةٍ من صفاتِ الخالِقِ الرَّبِّ جلّ جلالُهُ، وطائِفةٍ من أسْمائه، وفي هذا الميدان يجب أن تقف أفهامُهُم، ومِنْ أجْلِ ذَلِكَ نَقُولُ متبرّكين ومُسْتَعينين: «بسم الله» أي: بصِفَاتِ اللَّهِ وأسمائه الحسْنَىٰ نَسْتَعِينُ، أو نلْتَصِقُ، وإليها نَلْتَجِئ، واللَّهُ أعلم.

ولا بُدَّ أنْ نُلَاحِظَ أنَّ أَسْمَاءَ اللَّهِ الْحُسْنَىٰ باستثناءِ لَفْظِ الجلالَةِ الَّذِي هُوَ عَلَمٌ علىٰ الذَّاتِ، كُلَّهَا أَسْمَاءٌ وصْفِيَّةٌ، أي: هي أَسْمَاءٌ تُلَاحَظُ فيها الصِّفَاتُ الّتي تَدُلُّ عليها الكلماتُ الأُصُولُ التي اشتُقَّتْ منها، فالرَّحْمٰنُ، والرَّحِيمُ، هُمَا بمعْنَىٰ ذِي الرَّحْمَةِ الكثيرة العظيمة، والقدير، هُوَ بمعنى ذي القدرَةِ العظيمة، والسَّمِيعُ، هو بمعْنَىٰ ذي السَّمْعِ الذي لا يفُوتُهُ صَوْتٌ، مَهْما كان ضئِيلاً وخافتاً، والبَصِيرُ، هُوَ بِمَعْنَىٰ الذي يَرَىٰ كُلَّ شيءٍ قابلٍ لأنْ يُرَىٰ.

فإذا أُطْلِقَ «الاسم» كان من الْمُمْكِنِ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْوَصْفُ، وعلَىٰ هذا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ في: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ وعَلَّمَهُ صفاتِ الأَشْيَاءِ، والأَلْفَاظَ الَّتِي يُمَيَّزُ بِهَا كُلُّ جنْسٍ أو نَوْعٍ، أَوْ شَيْءٍ عَمَّا سِوَاه، وَوَصْفُ أَسْمَاءِ اللَّهِ بالحُسْنَىٰ، يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْمُراد صفاتُهُ.

ويُمْكِنُ أنْ يُفْهَمَ مِنْ قوله تَعالَىٰ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾: هَلْ تَعلَمُ لَهُ شبِيهاً في صِفَاتِهِ، وهكذا إلَىٰ نُصُوصٍ كثيرةٍ يُمْكِنُ تفسير الاسْم فيها

بالوصْفِ، ومنها قولُهُ تَعالَىٰ: ﴿بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: بئْسَ الوصْفُ الّذِي هُوَ الفُسُوقُ، بَعْدَ الوَصْفِ بالإيمان، بالنّسْبَةِ إلَىٰ المؤمنين.



(٦)
الشرح العام للاستعاذة والبسملة

لمّا كان المؤمِنُ يعتقد بأنّ اللّهَ هُو وحْدَهُ الذي بيدِه ملكوت السّماوَاتِ والأرض، وهو وحده الذي يُعِيذُ مَنْ شَاءَ أَنْ يُعِيذَهُ مِنْ عبادِه، وهو وحْدَهُ الذي يُعِينُ بمعونَاتٍ غير منظورة مَنْ شَاءَ أَنْ يُعِينَهُ مِنْ عبادِه، وهو وحْدَهُ الذي لَدَيْهِ الْخَيْرُ والبركة، فلا غَرْوَ أن يَتَوَجَّهُ قلْبُهُ لَهُ دائماً، ملْتَمِساً منه ما يَرْجُو مِنْ إعَاذَةٍ، وعَوْنٍ، وخَيْرٍ وَبركَةٍ في أَمْرِهِ كُلِّه.

ولمّا كانت الوقايَةُ سابقةً في ترتيبها الطبيعيّ المنطقي، للقيام بالأعمال الّتِي تُكْتَسَبُ بها المنافِعُ والخيراتُ والصّالِحَاتُ، كانت الاستعاذةُ باللّهِ مِنَ الشيطان الرجيم وشروره ووساوسه وتَسْوِيلاَتِهِ وهَمْزِهِ ونفْخِهِ ونَفْثِهِ وَنَزَغَاتِهِ، سابقَةً للاستعانَةِ باللّهِ عَلَىٰ القيام بأيّ عَمَلٍ مُفِيدٍ نافِعٍ ذي شأنٍ، وسابقَةً للبَدْءِ باسْمِ اللّهِ تتويجاً وتَبْريكاً وتَنْوِيراً لأيّ عَمَلٍ مفيدٍ نافِعٍ ذِي شَأنٍ.

وجاء فيما رُوي عن الرسول ﷺ:

«كُلُّ أمْرٍ ذِي بال لاَ يُبْدَأُ فيهِ بِبِسْمِ اللّهِ فَهُوَ أبْتَرُ، أو فَهُوَ أقْطَعُ».

أي: قُطِعَ مِنْهُ مَا يَنْبغي أنْ يكُونَ بمثابَةِ رَأْسِهِ، أو المحيط بِهِ، والْمُمِدُّ لَهُ بالْعَوْنِ والبركَةِ والْخَيْر.

والاستعاذَةُ هي طَلَبُ اللُّجوء للحمايَةِ والحفظ، فالاستعَاذَةُ باللّهِ هي طلَبُ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ أن يَلْجَأَ إليه، ويحْتَمِيَ بِحِماهُ، لِيكْلأَهُ بحفظه، ويحْمِيَهُ بحمايتِه، ويَرْعَاه بِرِعَايَتِهِ، ويَقِيَهُ شَرَّ وأذىٰ مَنْ استعاذ بِهِ منه، أو ما استعاذ بِهِ منه.

وذِكْرُ اسْمَي السّمِيعِ العليم مِنْ أسماء اللّهِ الحسْنَىٰ وصفاته العظمىٰ، لدىٰ الاستعاذةِ به، له ثلاثة أهْداف:

الأول: التعبيرُ عن جُزْءٍ من عناصر الاعتقادِ في اللّه، تستدعيه الاستعاذة به، فهو سميعٌ لدعاء المستعيذِ، وهو عليم بحاله وبحال من يستعيذ به منه، أو ما يستعيذ به منه.

أمّا صِفَةُ القدرَةِ الّتي بها يكونُ العوذُ فقد دلّتْ عَلَيْها الاستعاذة نفسها، لأنَّ المستعيذ لا يلْجأُ إلاّ إلىٰ ذي قدرة تحميه، فلم يأتِ في التعليم لنصّ الاستعاذة باللّهِ اسم الله «القدير». وفي هذا التعبير عبادةٌ للّه عزّ وجلّ.

الثاني: الثناء على اللَّهِ وحَمْدُه وتمجيدُه بأنّه السَّمِيع العليم، مع المناسبة الّتي تسْتَدْعِي تَذكُّرَ هٰذَيْنِ الاسمَيْن، من أَسْمَاء الله الحسنى، وفي هذا الثناء عبادة للّهِ عزّ وجلّ.

الثالث: استِعْطَافُ اللّهِ واسْتِرْحامُهُ لِتَوجيه إرادَتِهِ لحمايَةِ عبْدِهِ المستعيذِ به، ورِعَايَتِهِ، والعنايَةِ به، وإحاطَتِه من كلّ جوانِبهِ بالحفظ، مكافأَةً لَهُ على صِدْقِ إيمانِهِ بِهِ، وبقدْرَتِهِ، وبأَنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيم، لا يَخْفَىٰ عليه شيءٌ، جلَّ شانُه وعظم سلطانُهُ. وهذا الاستعطاف هو من عناصِرِ عبادة العبْدِ لرَبّه.

أمّا المستعاذُ باللّهِ منْهُ فَهُو الشيطانُ الرَّجيم المغوي المضِلُّ الصَّادُّ عن طاعَةِ اللّهِ والإيمانِ به إن استطاع.

وَوُصِفَ الشيطانُ بأنّه رَجيمٌ، لأَنَّهُ مطْرُودٌ مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ، مَرْجُومٌ مَعْ طَرْدِهِ، مُلاَحَقٌ بالعقوبات المادّيَّةِ والمعنويَّة.

وفي كلّ الرسالات الرَّبّانيَّةِ حذَّرَ اللَّهُ عزّ وجلّ بني آدَمَ من الشيطان. كما حذَّرَ آدم وزوجَهُ منه مُنْذُ أسْكَنَهُما الجنَّةَ، قال اللّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) مبيّناً ما قاله لهما:

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾.

وأبان اللَّهُ عزَّ وجلَّ فيها أَنَّهُ قَدْ خَاطَبَ بَنِي آدَمَ جميعاً بقوله:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ... ﴿٢٧﴾﴾.

فَدَلَّ هذا عَلَىٰ أَنَّ جَمِيعَ الرِّسَالاَتِ الرَّبَّانِيَّةَ قد اشتملَتْ على هٰذَا التَّحْذِير.

أمّا الْبَدْءُ بجملة «بسم الله الرحمن الرحيم» بعد الاستعاذة باللَّهِ السّميع العليم من الشيطان الرجيم، فيَعُمُّ كُلَّ ما يَصْلُحُ أن يُقْصَدَ شرعاً، كالاستعانَةِ والتَّبرُّكِ والتمجيد، أي: باسْمِ الله أستعين في أَمْرِي، أو أتبرَّكُ، أو أُمَجِّدُ باسم اللَّهِ مع بَدْءِ أمْرِي وعَمَلِي.

وعلَّمَنا اللَّهُ أن نَقُول: باسْمِ اللّه، لا أن نقولَ: باللّه، إشارةً إلى أنَّ حظَّ عقولنا وأفكارِنا من اللَّهِ أن نتفكَّرَ في أسمائه وصفاته، لا أَنْ نتفكّر في ذاته، أو أَنْ نَسْعَىٰ لإدْراك شيءٍ منها، فبيْنَنا وبَيْنَ إدْرَاكِ ذَاتِهِ تَعَالَىٰ أو شيءٍ منها حاجِزُ الْعَجْزِ الكامل.

أمّا ما نستطيعُهُ فمحصُورٌ في التفكّر في أسمائه وصفاتِهِ، وأسماؤُهُ غَيْرُ اسم الذّات وهو لفظ الجلالة (اللَّه) كُلُّهَا من صِفَاته عزَّ وجلّ، وحسبُنَا أَنْ نُدْرِكَ قَدْراً من صفاتِ اللَّهِ عزّ وجلّ.

فحَظُّنَا مِنه تبارَكَ وتعالى هو حظُّنَا مِنْ صفاتِهِ، من قُدْرَتِه، من عِلْمِهِ، مِنْ إرَادَته، من حكْمَته، من عدْلِهِ، من فضْلِهِ، من رحمتِهِ، من عَفْوِه، من غُفْرانِهِ، من كونه رازقاً مُحْيِياً مميتاً، محاسباً، وقاضياً بيْنَ عبادِهِ، ومجازِياً لهم، وفَعَّالاً لِمَا يُرِيد.

فما لَنَا وللبحْثِ في ذاته الّتي لا سبيلَ في الحياة الدُّنيا إلَىٰ إدْراكِ شيءٍ منها.

(٧)
من وجوه البلاغة في البسملة

في البسملة طائفة من الوجوه البلاغيّة، بَيَانُها فيما يلي:

(١) فيها قصْرُ الابتداء والتبرّك والاستعانة، وجعلُها خاصَّةً باللّه عزّ وجلّ وصفاته العليَّة، وذلك على تقدير العامل في: «بسم الله» فِعْلاً متأخّراً، عملاً بالقاعدة البلاغيَّة التي تبيّنُ أنَّ من أغراض تقديم المعمول على العامل إفادةَ القصْرِ والاختصاص.

(٢) وفيها الإيجاز بحذف العامل ليَعُمَّ، ولتكونَ الجملةُ صالحة لبداية كلّ أمْرٍ ذي بالٍ بها، ويُقَدَّرُ لكلّ أَمْرٍ ما يُنَاسِبُه.

(٣) وفيها حُسْنُ اختيار صِفَتَي الرَّحْمنِ الرَّحيم لمزِيَّةٍ فيهما، وهي مناسبتُها لموضوع التسميةِ المتضمّن الالتصاق والاستعانة بالله تبارك وتعالىٰ، ففي ذِكْر هاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ تَعْرِيضٌ بالمقتضي الذي دفع المؤمِنَ للاستعانةِ باللّهِ وحْدَه، إذِ الكلامُ إجمالٌ وإيجازٌ لقول القائل: لا أَبْتَدِئ مُسْتَعِيناً إلاّ باللّهِ لأنَّهُ هو الرحمٰنُ الرَّحيم. ففي هذا سَوْقٌ للمعنَىٰ مُقْتَرِناً بدليله وهو ما يُسَمَّىٰ عند البلاغيّين: «المذهب الكلامي» وهو أن يساق المعنى مقترناً بدليله.



سُورَة العَلَق

أو سُورَة «اقرأ باسم ربك»

٩٦ مصحف ١ نزول



(١)

بحث حول نزولها:

هي مكية باتفاق، ولا شيء منها مدنيّ، نزلَتْ بمكّة، وقَدْ نزل صَدْرُها، مِنْ قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ①﴾ حتَّىٰ غايَة الآية الخامِسَةِ مِنها: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ مع بَدْءِ الوحي إلىٰ الرسُولِ ﷺ حينما كان يتعَبَّد رَبَّهُ في غار حِراء على الموروثِ في العَرَبِ من ديانة إسماعِيل وإبراهيم عليهما السَّلامُ، وهذا من أرجح الآرَاءِ الاستنباطِيَّة.

وبعد نزول هذه الآيات الخمس من هذه السورة فتر الوحي، واختلفت الروايات في مُدَّة فترة الوحْي بعدها فقيل: أربعون يوماً. وقيل: ستة أشهر. وقيل: سنتان. وقيل: سنتان ونصف. وقيل: ثلاث سنين، وليس في الصحيح ما يثبت قولاً من هذه الأقوال، لكن الفترة قد حصلت.

أمّا سائر السورة فقد نزل في مكة بعد المدثر، وربّما بعد غيرها أيضاً والله أعلم.



(٢)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

سورة العلق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

---

١ - [اِقْرَأْ] في الموضعين أبدل أبو جعفر الهمزة مطلقاً.

- وأبدلها في الوقف حمزة.
- والباقون بتحقيق الهمزة.

٧ - [أَنْ رَءَاهُ] لجمهور القرّاء العشرة.

- [أَنْ رَأَهُ] لقُنبل بخلف عنه. والوجه الثاني له كالجمهور.

٩ - [أَرَأَيْتَ] في المواضع الثلاثة من السورة.

- قرأ نافع وأبو جعفر، بتسهيل الهمزة الثانية.
- وقرأ ورش بإبدالها ألفاً مع المدّ المشبع في الوصل فقط.
- وقرأ الكسائي [أَرَيْتَ].
- ووقف حمزة بالتسهيل.

١٦ - [خاطِئَةٍ] قراءة جمهور القرّاء العشرة.

- وقرأ أبو جعفر [خَاطِيَة]. وكذلك حمزة في الوقف.

(٣)
ما جاء في السُّنَّةِ حول سورة (العلق)

روى البخاريُّ وغَيْرُهُ بسَندِهِ عَنْ عائِشَةَ أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أنَّهَا قَالَتْ:

«أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَىٰ رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ[١].

ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ[٢] فِيهِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ[٣] إِلَىٰ أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدَ لِمِثْلِهَا، حَتَّىٰ جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ، فَقَالَ: اقْرَأْ. قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ[٤]، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فقالَ: اقرَأْ. قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾.

---

(١) مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ: أي: مِثْلَ انْشَقَاقِ الصُّبْحِ مِنْ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ.
(٢) فيتحنَّثُ: أي: فيتَعبَّدُ.
(٣) قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ: أي: قبل أَنْ يَشْتَاقَ إلىٰ أَهْلِهِ ويَعُودَ إليهم
(٤) أي: فَضَمَّنِي إِلَىٰ صَدْرِهِ ضَماً شَدِيداً حتَّىٰ بَلَغَ غَايَةَ طَاقَتِي واحْتِمَالِي، يقال لغة: غَطَّ الشيْءَ إذا كَبَسَهُ وعَصَرَهُ عَصراً شَدِيداً.

وجاء في رواية أخرى عند البخاري إضافة: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَىٰ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ ـ رضي اللَّهُ عَنْهَا ـ فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي[١]، فَزَمَّلُوهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ[٢].

فَقَالَ لِخَدِيجَةَ ـ وأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ ـ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي.

فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ، مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَداً، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ[٣]، وتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ[٤]، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ[٥].

فَانطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ، حَتَّىٰ أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْعُزَّىٰ ـ ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ ـ وَكَانَ امْرأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَان شَيْخاً كَبِيراً قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ.

فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَىٰ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَىٰ.

فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَـٰذَا النَّامُوسُ[٦] الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ، يَا لَيتَنِي فِيهَا جَذَعاً[٧]، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيّاً إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ.

---

(١) **زَمِّلُوني**: أي: غطُّوني ولُفُّوني.
(٢) **الرَّوْع**: الْخَوْفُ.
(٣) **الْكَلُّ**: مَنْ لاَ وَلَدَ له وَلا والِدَ، ومَنْ هُوَ عِبْءٌ عَلَىٰ غَيْرِهِ.
(٤) **تَكْسِبُ المعدومَ**: أي: تُنِيلُهُ وتُعْطِيه.
(٥) **النوائب**: جمع نائبة، وهي ما ينزل بالإنسان من الكوارثِ والحوادث المؤلمة.
(٦) **الناموس**: صاحبُ سِرِّ الرَّجُلِ، ومَلَكُ الوحي.
(٧) **جَذَعاً**: أي: صغير السِّنِّ أَقْدِرُ على الدِّفاع عَنْكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟.

قال: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً[1].

ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّي، وفَتَرَ الْوَحْي».

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ في كتابهِ «فَتْح البَارِي» في مَعْرِض حديثه عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾: وقَعَ عِنْدَ ابْنِ إسْحَاقِ: فِي مُرْسَلِ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال:

«أَتَانِي جِبْرِيلُ بِنَمَطٍ مِنْ دِيباج[2]، فِيهِ كِتَابٌ[3]، قَالَ: اِقْرَأْ. قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ».

أي: أَنَا لاَ أَعْرِفُ الْقِرَاءَةَ لِمَا هُوَ مَكْتُوبٌ، إِذْ لَمْ أَتَعَلَّمْهَا.

أَصْلُ الْقِرَاءَةِ مُتَابَعَةُ النُّطْقِ بِكَلَامٍ مَكْتُوبٍ عَلَىٰ وَفْقِ الخطِّ الَّذِي رُسِمَ بِهِ هٰذَا الكلام.

أقولُ: لَوْ كَانَ الْمُرَادُ تِلَاوَةَ مَا يُمْلِيهِ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ مِنْ قَوْلٍ، لَكَانَ الْمُنَاسِبُ أَنْ يَقُولَ الرَّسُولُ لَهُ: مَاذَا أَقْرَأُ؟، لا أَنْ يَقُولَ لَهُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَهذَا الْحَدِيثُ الْمُرْسَلُ يُبَيِّنُ لَنَا المراد من الحديث الصحيح المرفوع.

وما جاء في الحديث منْ تكرار قولِهِ ﷺ: مَا أَنَا بِقَارئ، إِنَّمَا هو تَأْكِيدٌ لبَيَانِ وَاقِعِ حَالِهِ أَنَّهُ لَمْ يَتَعَلَّمْ قراءَةَ الْخُطُوطِ، الَّتِي هي رُمُوزُ كلماتٍ تُنْطَقُ.

ودَلَّ الْخِطَابُ بالأَمْرِ بالْقِراءةِ مَعَ أَوَّلِ التنزيلِ، عَلَىٰ أَنَّ المقصودَ هو

---

(١) **مُؤَزَّراً**: أَزَّرَ فُلانٌ فُلاناً، وآزَرَهُ، وأَزرَهُ، إذا عاونَهُ وَقَوَّاهُ وَدعَمَهُ، والنَّصرُ الْمُؤَزَّرُ: هُوَ النَّصرُ الْمُتَابَعُ بِالْمَعُونَةِ والتَّقْوِيَةِ والدَّعْم.

(٢) **النَّمَطُ**: قُمَاشٌ لَهُ خَمْلٌ رقيقٌ، **والدِّيبَاجُ**: ضَرْبٌ مِنَ الثياب، سَدَاهِ ولُحْمَتُهُ حَرِير.

(٣) أي: فيه كتابةٌ.

أنَّ أُمَّةَ هذا النبيِّ الأُمِّيِّ مُطالَبَةٌ بِأَنْ تَتَعَلَّمَ الكتابَة والقِرَاءَةَ، وَتَتخلَّصَ من الأُمِّيَّة، وَتَبْدأَ مَسِيرتَها العِلْمِيَّة مُتَرَقِّيَةً فِي كُلِّ مَجالاَتِ العُلُومِ، فالكِتَابَةُ وَالقِرَاءَةُ مِنْ أَعْظَمِ وَسَائِلِ التَرَقِّي العِلميّ، فِي قضايا الدِّينِ والدُّنيا.

وَإِذَا كَانَتِ الأُمِّيَّةُ فضِيلَةً خاصَّةً بالرَّسُولِ محمّد ﷺ، لِأَنَّهَا إِحْدَىٰ عَنَاصِرِ معجزاتِ نُبُوَّتِهِ، فَلَيْسَتْ فَضِيلَةً لِأَحَدٍ مِنْ أُمَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ، بَلْ هِي نقيصةٌ، إِذْ أُمَّتُهُ مأمُورَةٌ بِالقِرَاءَةِ لِلْكَلاَمِ المكتُوب، وَمَأْمُورَةٌ بتَعَلُّمِ صَنْعَةِ الكِتَابَةِ، مَعَ أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنْ قُرْآنٍ، عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ محمّد ﷺ.

فَعَلَىٰ أجيالِ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ المحمّديَّة أَنْ تُرَدِّدَ النَّشِيدَ التالي الذي قُلْتُ فِيه:

إِنَّـــنَـــا أُمَّـــةُ «اِقْــرَأْ» أَمْــرُ مَــنْ سَــوَّىٰ الــنَّــسَــمْ
لِــنَــبِــيٍّ مَــنْ بِــهِ مَــوْكِــبُ الــرُّسْــلِ خُــتِــمْ
أَوَّلُ الــتَّــنْــزِيــلِ «اِقْــرَأْ» ثُــمَّ دِيــنُ الــلَّــهِ تَــمّ
فَــانْــبِــذُوا أُمِّــيَّــةَ الْــغَــا بِــرِ فِــي بَــالِــي الــرِّمَــمْ

❁ ❁ ❁

نَــحْــنُ بِــالْــقُــرْآنِ صِــرْنَــا أَهْــلَ عِــلْــمٍ وَقَــلَــمْ
قَــدْ طَــرَحْــنَــا الْــجَــهْــلَ والْــقَــفْــرَ وَأَرْبَــاضَ الــنَّــعَــمْ
وارْتَــقَــيْــنَــا ذُرُوَاتٍ وَجَــثَــمْــنَــا فِــي الْــقِــمَــمْ

❁ ❁ ❁

فَــانْــهَــلُــوا الْــعِــلْــمَ وَكُــونُــوا فِــي الْــبَــرَايَــا عُــلَــمَــاءْ
دَوِّنُــوا الْــعِــلْــمَ بِــأَقْــلاَ مِ خُــلُــودٍ وبَــهَــاءْ
نَــقِّــبُــوا بَــحْــثــاً عَــنِ الْــحَــقِّ وَكُــونُــوا فُــقَــهَــاءْ
واجْــعَــلُــوا الْــعِــلْــمَ سَــبِــيــلاً لاِنْــتِــشَــارٍ وَارْتِــقَــاءْ
وَلِــمَــجْــدٍ وَلِــقُــوَّةْ وَلِــسَــعْــدٍ وهَــنَــاءْ
وَلِــنُــرْضِــي الــلَّــهَ فِــي أَعْــمَــالِــنَــا كَــيْــفَ يَــشَــاءْ

❁ ❁ ❁

(٤)
موضوع السورة

بالتَّأَمُّلِ الدَّقيق، مع صَبْرٍ وَأَنَاةٍ، نَسْتَطِيع اكْتشافَ موضوع سورة (العلق) من خلالِ تدبُّرِ دُرُوسِها الثلاثة، وإبرازِ المطويّاتِ في ثنايا آيَاتِها.

فالدّرس الأوّل منها الذي يتألف من خمس آيات، هو قول الله عزَّ وجل:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

ويتضمن هذا الدرسُ الدّعوة إلى اكتساب العلم بوسائله التي أتاحها الربُّ الْخَالق للإنسان، ومكَّنَهُ مِن استعمالها، وهَدَاهُ إلى كيفيَّة ذلك، وَأهمُّ وسائله القراءةُ لِمَا هو مُدَوَّنٌ بالكِتَابَةِ مِنْ عُلُومٍ صَحِيحةٍ نافعةٍ في الدنيا والآخِرَة، وتدوينُ المكتَسَباتِ العلميَّةِ المدركة بالعقول، أو بالحواسِّ الظَّاهِرَةِ والباطنة، أو بالتجربَات، أو بالأخبار الصادقة، ومنها الوحيُ المنزّلُ من عند اللّهِ، وأهم وسائل التدوين الكتابة على اختلاف صورها وأشكالها القديمة والحديثة، وأحْدَثُها الآنَ «الكومبيوتر».

ولا يتمّ ذلك إلاّ بتعلُّم صَنْعةِ القراءة والكتابة، والعمل على تدوين المكتسباتِ العلميَّةِ، ليَسْهُل حفظُها، ونَقْلُها من سلَفٍ إلى خلَفٍ، وبهذا تتنامَىٰ وتتعاظَمُ جبالُ المعْرِفةِ لدى النّاسِ، إذْ تتراكَمُ الْمُدَوَّنَاتُ مِنْ مسائلِ العلومِ مصنَّفَةً مُبَوَّبَةً مُفَصَّلةً مُفَهْرسة.

وأجَلُّ العلُومِ الَّتِي يدْعو القرآنُ إلى اكتسابها عُلُومُ الدّين، لأنّها تَهدِي الإنسانَ إلىٰ سبيل سعادَتِهِ في دار البقاء الخالِدَةِ، مع هدايته إلَىٰ سبيل سعادَتِهِ الأفضل في دار الفناء، دار الحياة الدّنيا.

ويدعو القرآنُ أيضاً إلَىٰ اكتسَاب العلومِ الَّتِي تَخْدُمُ مَطَالِبَ ولَذَّاتِ

النَّاسِ في الحياة الدنيا، بشَرْطِ اقترانِها بإدْراك دَلاَئِلِ الإيمانِ فيها، وابْتِغاءِ الدَّارِ الآخِرَةِ فيما آتَىٰ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ الإنسانَ من آثارِها وثمَراتِها النّافعاتِ، مَعَ الأخْذِ بنصِيبِهِ النافع مِنْها لِمَتَاعِ الحياة الدُّنيا.

وهُنَا يَرِدُ سؤالٌ يتطلَّبُ جواباً، وهو: ما هِيَ الحاجَةُ الشَّدِيدَةُ الَّتِي تَفْرِضُ على الإنسانِ أَنْ يكُونَ مُلِمًّا بِعُلُومِ الدِّين، وتَجْعَلُ من مقتضياتِ حِكْمَةِ الرَّبِّ الْخَالِقِ، أَنْ يُوَجِّهَ للنَّاسِ رِسَالاَتٍ مِنْهُ، يصطَفِي لحَمْلِها وَلِتَبليغِها للنَّاسِ خِيرَةً مِنْ عِبَادِهِ، وهٰذِهِ الرّسالاَتُ تتضَمَّنُ تَعْرِيفَهُمْ بالحقّ والصّراطِ المستقيم الّذِي يُحقِّقُ لهم إذا اتَّبَعُوهُ واهْتَدَوْا بهَدْيِه سعادةَ الدُّنيا والآخرة؟

ويأتي الجوابُ في الدَّرْسِ الثَّانِي من دُرُوس السورة الثلاثة، مُشِيراً إِلَىٰ السَّبَب الدَّاعي إِلَىٰ إرْسَالِ رُسُلٍ وفي خاتمتهم مُحَمَّدُ بن عبد الله ﷺ، ليبلِّغُوا رِسَالاَتِ رَبّهم لعباده، وهذا السَّبب يشْتَمِلُ عَلَىٰ عنصُرَيْنِ:

العنصر الأول: أَنّ الإنسانَ في الحياةِ الدُّنيا متَىٰ شَعَرَ باستِغْنَائِهِ بأسبابِهِ الَّتِي أَتَاحَهَا اللَّهُ له طَغَىٰ، فغطَّىٰ طُغْيانُهُ عَلَىٰ بَصِيرَتِهِ، فكفَرَ برَبِّهِ، وجَحَدَ الحقَّ، فظَلَمَ وَبَغَىٰ، وزَيَّنَ ظُلْمَهُ وَبَغْيَهُ بزُخْرُفِ الْقَوْل، والدَّعَاوَىٰ الكاذِبَة الباطلة، وسخَّرَ ما لديه من قوىً وأنصار، لتحقِيقِ مطالب نَفْسِه الجائرة الظَّالمة الآثمة.

العنصر الثاني: أَن الإِنسانَ لاَ يستطيعُ بنَفْسِهِ إدْراكَ الحياةِ الأخرى، وَمَا فِيها مِنْ حسابٍ وفَصْلِ قضاء وتنفيذ جزاءٍ، في دار النعيم الجنَّة، أوْ في دار العذابِ النَّارِ، ولو أدْرَكَ بِعَقْلِهِ ضرورةَ تَحقُّق الجزاء، لكنَّهُ لاَ يستطيعُ تَصوُّرَ عَنَاصِرِهِ وكيْفَ يكون، فاحتاج إلى رسالة من الرَّبِّ الْخَالِقِ تُبيِّنُ لَهُ الدَّار الآخِرَةَ وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ فِيها مِنْ جزاء.

وهَذَا الدَّرْس الثاني يتألَّفُ مِنْ ثَلاث آياتٍ، هِيَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيها:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾.

هذا الدَّرْسُ يتضمَّن أَنَّ الإنسانَ في مُعْظَمِ أفرادِه، إذا لم يكُنْ لَهُ هادٍ يَهْدِيهِ ويُحَذِّرُه ويُنْذِرُه وَيُرَغِّبُهُ حتَّىٰ يختار لنفسه الظَّفر بسعادتِه في دنْيَاه وفي أُخْراه، والنجاةَ مِن عذابِ اللَّهِ فيها، فإنَّ امْتِلاكَهُ للوسائل والأسْبابِ المتاحَةِ لَهُ في العاجلة، والَّتي يَشْعُرُ بأنَّها تُهَيِّئُ لَهُ السَّعادَةَ في دُنْياه، يجْعَلُهُ يَشْعُرُ بالاسْتِغْنَاءِ عَنْ رَبِّهِ، إذْ لاَ يَرَىٰ بعينَيْهِ أَنَّ كُلَّ أحداثِ الكَوْنِ هِيَ مِنْ تَصارِيفِهِ جلّ جلاله، وهذا الشُّعُورُ بالاستغناءِ يُوَلِّدُ لَدَيْهِ اسْتِعلاءً واسْتِكْباراً وَطُغْيَاناً. ثُمَّ يَنْسَىٰ مَعَ هذا الطغيانِ الَّذِي تشبَّعَتْ بِهِ نَفْسُهُ أَنَّهُ فِي حَيَاةٍ دُنْيَا قَصِيرَةٍ عاجلة، وأَنَّهُ عَبْدٌ لِرَبِّهِ الخَالِقِ له، وأنّه في هذه الحياة مُمْتَحَنٌ مُبْتَلَىٰ، وأنَّ الامتحانَ يَسْتَلْزِمُ المحاسبةَ والجزاءَ عقلاً، وقَدْ جعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ يوْمَ الدِّينِ، حِينَ يَبْعثُ اللَّهُ الموتىٰ، ويكونُ مَصِيرهُم إلى حِسَابِ رَبِّهم وفَصْلِ قضائه وتنفيذِ جزائِهِ.

وَهُنَا يَرِدُ سُؤَالٌ، وهُوَ: مَا هُو حالُ النّاسِ عُمُوماً فِي الحياة الدُّنيا تُجاهَ عُلُومِ الدّين الَّتي تَهْدِيهِم إِلَىٰ سَبِيلِ سعادتهم في الدنيا والآخِرَة، وتُجاهَ دَعْوَتِهِم للاستجابة لنداء رَبِّهِم لهم.

ويأتي الدرس الثالثُ الأَخير من دُروسِ السُّورَةِ لِيُجِيبَ ضِمْناً عَلَىٰ هٰذا السؤال، وهو قولُ اللّهِ عزّ وجلّ فيها:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾.

ومَعَ بَيَانِ أَصْنَافِ النّاسِ تُجاهَ الرِّسالَةِ الرَّبّانِيَّةِ جاء في هذا الدَّرْسِ تحْذِيرٌ ووعيدٌ للضالّينَ ولِلْمُضِلّين، وَوَعْدٌ للمهتدين والدّاعِينَ إِلَىٰ الْهُدَىٰ، وتَثْبِيتٌ لَهُمْ على ما هُمْ فِيهِ مِنْ خَيْرٍ وخضوعٍ لربّهم متقرّبينَ لَهُ بالسُّجُودِ.

أمَّا أَصْنَافُ النَّاسِ الَّذِينَ أَشَارَ إِلَيْهِمْ هٰذَا الدَّرْسُ بأُسْلوبِ الرَّمْزِ والكِنَايَةِ، فَهُمُ الأَصْنَافُ الأَرْبَعَةُ التالية:

الصّنفُ الأوّل: الْمُصَدِّقُونَ برسالةِ الرسولِ المهتدون بأَنْفُسِهِمْ، دون أَنْ يَحْمِلُوا رِسَالَةَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللَّهِ وصراطِهِ المستقيم.

الصّنفُ الثاني: المصَدِّقُون برسالة الرَّسُولِ الدَّاعُونَ إِلَىٰ اللَّهِ، والآمِرُونَ بالتَّقْوَىٰ، أي: الآمرونَ بالمعروفِ والناهون عن المنكر.

الصنف الثالث: المكذِّبُونَ بالرَّسُولِ وَرِسالته التي يُبَلِّغُها عن رَبّه، والمتولُّون عَنْها، دُونَ أَنْ يَقُومُوا بالدَّعْوَةِ إِلَىٰ الباطِلِ والشَّرِّ، ومُجَانَبةِ طاعَةِ اللَّهِ، وتَنكُّبِ صراطِهِ المستقيم.

الصنف الرابع: المكذِّبُونَ المتولُّونَ الدَّاعُونَ إلىٰ التكذيب برسالة الرَّسُول، والنَّاهُونَ عَنْ فِعْلِ الصالحاتِ والخيراتِ الّتي أمر الله بها، والآمِرُونَ بفِعْلِ الشُّرُورِ والقبائحِ والجرائم والآثَامِ الّتِي نَهَىٰ اللَّهُ عنها.

وتَضمَّنَ هٰذا الدَّرْسُ الْوَعْدَ الضِّمْنِيَّ للصنفَيْنِ الأوّلَيْن، والوعيد الضمْنِيَّ والصَّرِيحَ للصّنفَيْنِ الأَخِيرَين.

وَجاء في خَاتِمَتِهِ تَثْبِيتُ الصِّنفَينِ الأَوَّلَيْنِ عَلَىٰ الإيمانِ والطَّاعَةِ لِلّهِ، وَعلى زيادة التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بالسُّجودِ، لنَيْلِ فيوضِ عطاءات اللَّهِ لهم بالاقتراب إِلَيْهِ بِكَمَالِ الخضوع.

ولدىٰ تأمُّل هٰذِهِ الدُّرُوسِ الثَّلاثَةِ المُتَرَابطَةِ تَرَابُطاً تَعاقُبِيًّا حَكِيماً، نَسْتَطِيعُ أَنْ نَضَعَ عُنواناً لِمَوْضُوعِ السُّورَةِ مأخُوذاً مِنْ دُرُوسِهَا الثَّلاثَة، ويمكنُ أَنْ نَصُوغ هٰذا العنوان بأنْ نَقول:

أوّل فقراتِ رسالة الرَّسُولِ مُحمَّدٍ ﷺ في هذا الدين الخاتم، التوجيه للانتفاع بوسائل تحصيل العلم الذي يَهْدِي إلى مَصَالِحِ الدُّنيا والآخِرَة،

وسعادةِ النّاسِ فيهما، مع بيان حاجَةِ الإنسانِ إِلَىٰ هٰذِهِ الرّسالة، وَبيان واقع أحوال الناس تجاه مبادئ هذا الدين وأحكامه وشرائِعِهِ، مقروناً بلمحاتٍ من الترغيب والترهيب.

واعتمدت السُّورَةُ في معظم عناصرها على استخدام الأُسْلوب غير المباشر، وعدم ذِكْر دلائل الترابط بَيْنَ فقراتها وآيَاتها، وتركِ ذلك لذكاء المتدبّر الذي يستخرج بنفسهِ المطويّات.



(٥)
التدبُّر التحليلي للدرس الأوّل

الآيات من (١ ـ ٥)

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وجل: بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

قولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾.

﴿ٱقْرَأْ﴾: فِعْلُ أَمْرٍ من القراءة، والأصْلُ في الْقِرَاءَةِ أَنّها مُتابَعَةُ النُّطْقِ بِمَا يَرَىٰ القارِئ مِنْ مكتوبٍ بالخطّ على صحيفَةٍ أَوْ أيِّ شَيْءٍ يُمْكِن أنْ يُكتَبَ عليه، وفقَ دلالَةِ ما اصْطَلَحَ الْكَاتِبون أنْ يَدُلَّ عليه الرَّسْمُ من حُروفٍ وَكَلِمَاتٍ وأَرْقامٍ وغير ذلِك.

وهٰذهِ هي القراءةُ المطلوبة فِي النّصِّ هُنَا، بدليل ما جاء في مُرْسَل عبيد بن عُمير، من أَنَّ جبريل عليه السّلام عَرَضَ على الرسُولِ ﷺ عنْدَ بَدْءِ الْوَحْي نَمَطاً مِنْ ديباج فيه كلامٌ مكتوبٌ، وقال له: اِقْرأ.

وبدليل أنّ الرسول ﷺ قال لجبريل عليه السلام: ما أنا بقارئ، أي: لم أَتعلَّم القراءة، ولم يقُلْ لَهُ ماذا أَقْرأ.

وبدليل أنَّه جاء في الآية الرابعة مِنْ هٰذا الّذي طلَبَ جبريلُ من الرَّسُولِ قراءتَهُ قولُ اللَّهِ عزّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾. فذِكْرُ التعليم بالقلم يدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ المطلوبَ القراءةُ لخطٍّ مَكْتُوبٍ، لا مجرّد مُتابَعَةِ تلاوَةِ ما يُمْلَىٰ عليه من قول.

وقَدْ تُطْلَقُ القراءة على مجَرَّدِ التلاوَةِ ولو لمسْمُوعٍ يُمْلَىٰ، أو لمحفوظ، وأَرَىٰ هذا من التوسُّعِ في الاستعمال، ولَيْسَ من أَصْلِ وضْعِ اللّغة.

﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾: الاسْمُ يُطْلَقُ على اللّفظ الذي يُعْرَفُ بِهِ ذَاتُ الشيْءِ الْمُسَمَّىٰ بِه.

ويُعْجبني قولُ من قال من أئمَّةِ اللُّغَةِ أَنَّ لفظ «اسم» أصْلُهُ «وسْمٌ» بمعنى العلامة، حُذِفَتِ الواو، ثُمَّ حَصَلَ التوصُّل إلى الابتداء بالسَّاكن بزيادة همزة الوصل، فالاسم علامَةٌ دالَّة على المسمَّىٰ.

وأسماءُ اللّهِ هي الألفاظ الدّالَّةُ على ذَاتِهِ جَلَّ جلالُهُ، أَوْ على صفاته الحسنىٰ.

وصفاتُهُ التي تدلُّ عليها آثارُهُ في خلْقِهِ هي علاماتٌ تَدُلُّ عَلَىٰ وُجُود ذاتِه تباركَ وتعالى.

وحينَ نقول: «باسْمِ اللّهِ» أو «باسْم الرّبّ» فالمقصودُ مجموعُ صفاتِ اللّهِ، أو مجموعُ صِفَاتِ الربّ الْحُسْنَىٰ الدالّةِ عليه، لأنَّ المفرد النكرة المضاف إلى مَعْرِفَةٍ يَعُمُّ، فيكونُ بمثابة جمع النكرة المضاف إلى معرفة، فعبارة: «باسم الله» أو «باسْمِ الرَّبّ» مثل عبارة: «بأسْمَاءِ اللّهِ» أو «بأسْمَاء الرَّبّ». أي: بِكُلِّ الصفات الحسنىٰ التي هي لله، أو للرَّبّ.

واختير هنا من أسماء اللَّهِ الحسنىٰ لفظ «رَبّ» لاستثارة دواعي حَقِّ الرَّبِّ الْخَالِقِ عَلَىٰ عَبْدِهِ المخلوق، الخاضع لربوبيَّة اللَّه دواماً، ولإشْعارِ المطالَبِ بالقراءة بأنَّ رَبَّهُ يُمِدُّهُ بفضل معوناته وعطاءاته إذا استعان به بغية الوصول إلى المعارفِ النافعة لَهُ في دُنياهُ وأُخْراهُ.

الرَّبّ: كلمة هي في الأصل مصدَرُ فعل «رَبّ» يقالُ لغة: ربَّ فُلَانٌ الولَدَ أو الصّبِيَّ أو الْمُهْرَ مثلاً يَرُبُّهُ رَبّاً. كَما يُقالُ: رَبَّاهُ يُرَبِّيهِ تَرْبِيَةً ورَبَّبَهُ يُرَبِّبُهُ تَرْبِيباً.

فكلمات: «الرَّبّ ـ والتَّرْبِية ـ والتَّرْبِيب» مصادر لأفعالٍ مختلفة في صِيَغِها وَمَعْنَاهَا واحد، وهو الإنْشَاءُ المتدرّجُ للشيْء، حيّاً كانَ أو غير ذي حياة، وتعَهُّد الشيء حالاً فحالاً، وطوراً فَطَوْراً، بِحَسَبِ فِطْرَته واستعداداته، فيشْمَلُ هذا التعهُّد بِعُمُومِ مَعْناه التغذية، والتنميَةَ، والإرشاد، والإصْلَاحَ، والتقويم، والحفظ، والرّعاية، والتأديب، والتهذيب، والتعليم إذا كان المُرَبَّىٰ يحتاج تأديباً أَوْ تهذيباً أو تعليماً، ويشْمَلُ أيضاً الإمْدَادَ المستمرَّ بما يحتاج إليه لبقائِه وسلامته، إلى غير ذلك من مفاهيم يدرِكُها الباحثون في مجالاَتِ التربية والتعليم.

وَهٰذهِ التربية تتناول الأحياءَ والنَّبَاتَاتِ والأشياءَ غير ذاتِ الحياة، من كلِّ ما يحتاج لبقائه أو سلامَتِه تعهُّداً وإمداداً، أو رِعايَةً وحفظاً.

ثُمَّ استُعِيرَتْ كلِمَةُ «الرَّبّ» من المصدريَّةِ إلى اسم الفاعل، فصارتْ تُطْلَقُ كلمة «الرَّبّ» بمَعْنَى «الْمُرَبِّي».

ونظراً إلى معنىٰ التربية ولوازمها أُطلقت كلمة «الرّب» في لسان العرب على معانٍ كثيرة، منها: «الْمَلِك ـ الأمير ـ السيد المطاع ـ مالِكُ الشيءِ أو مستحقه ـ المدبّر ـ القيّم ـ المُنْعِم ـ المُصْلِحُ للشيء ـ المنمّي للشيء» إلى غير هذه المعاني ممّا يُشْبِهُها وَيَدْخُل ضمْن المفهوم العامّ للتربية.

ولمّا كانت التربية الحقيقيّة لكُلّ شيءٍ في الوجود سوى اللّهِ عزّ وجلّ صفةً مِنْ صفاتِ اللّهِ عزّ وجلّ، كان سبحانه هو رَبَّ العالَمينَ، وَرَبَّ كُلّ شيءٍ.

ولهذا جاء وصْفُهُ في القرآنِ المجيد بأنّه: «رَبُّ العالَمِين ـ وَرَبُّ كُلّ شيءٍ ـ وَرَبُّ السَّماواتِ والأَرْضِ ـ وَرَبُّ السَّمَاوات السَّبعِ، وَرَبُّ العرشِ العظيم ـ وربُّ الشِّعْرَىٰ (= نجم كان يُعْبَدُ في الجاهلية) ـ وربُّ المشرقِ والمغرب ـ وَرَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ والمَغْرِبَيْنِ ـ وربُّ المشارِقِ والمغاربِ ـ وربُّ الفلق ـ وربُّ الناس، وَرَبُّ البيت (= الكعبة المشرفة)».

فالرُّبُوبيَّة هي الوصف الجامع لكلّ صفات الله ذات العلاقة والأثر في مخلوقاته، واسْمُ «الرَّبّ» هو الاسم الدّالُّ على كلّ هٰذِه الصفات.

وهنا نُلاحِظُ أَنَّ اللّهَ جلَّ جلالُه قد اختار بعلمه وحكمته لعمليّاتِ خلْقِهِ وإبداعِهِ لمخلوقاتِهِ، وهيمنَتِهِ علَىٰ كُلِّ ما خَلَقَ بَدْءاً وَدَوَاماً أَنْ يكونَ على نظام التربية التي سبق شرحُ معانيها، لا على نظام الخلْقِ دفعةً واحِدَةً، ثُمَّ تَرْكِ المخلوقِ يسير وفْقَ البرنامج الموضوع له، دون إمْدادٍ وَرِعايةٍ وحِفْظٍ وَتَعَهُّدٍ مِنْ خالِقِه، بَلْ خَلَقَ الْخَلْقَ وفْقَ نظامٍ لا يستغني فيه المخلوقُ عن خالقِهِ طَرْفَةَ عينٍ، ولا أقَلَّ مِنْ ذلك، فِي صغير وكبيرٍ مِنْ ذَاتِهِ وَمِنْ صفاته، فلو رَفَعَ إمداده عَنْ كَوْنه، وإمساكَهُ لَهُ فِي الوجود خلال أقْصَرِ زَمنٍ، لعادَتِ الموجوداتُ إلى أصْلِها وَهُوَ الْعَدَمُ.

هذا هو نظامُ التربية، فَلِلّهِ عزَّ وجلَّ الرُّبوبيَّةُ المستمرّة الَّتِي لاَ تَنْقَطع، والمؤثّرة بكُلِّ شيْءٍ في الكَوْنِ مِنْ غَيْبِيٍّ ومَشْهُودٍ، مادّيّ أو معنويّ، دلَّ على هٰذه الحقيقة قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٥٣ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

فاللَّهُ عَزَّ وجلَّ فِي رُبُوبِيَّتِهِ المستمرّة بلا انقطاع، لاَ تأخُذُهُ سِنَةٌ ولا نومٌ، فلا يخْرُجُ عَنْ عِلْمِهِ وَهَيْمَنَتِهِ وسلطانه وسائر عناصِرِ رُبوبيَّتِهِ صَغِيرٌ في الوجود مهما صغُرَ، وكبير مهما عظم وكبُرَ.

لذا فاللَّهُ وحْدَهُ هو رَبُّ العالمين، وربُّ كلّ شيءٍ، وهُوَ المالِكُ والْمَلِكُ، والسيِّد الذي يجب أَنْ يُطَاعَ والإلَه المستحقُّ لِأَنْ يُعْبَدَ دُونَ سِوَاهُ.

فإذا أُطْلِقَتْ كلمةُ «الرَّب» لم يجُزْ أَنْ يُرَادَ بها غَيْرُ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ.

وأسماءُ اللَّهِ الْحُسْنَىٰ الَّتِي تَدُلُّ على عناصر رُبُوبيَّةِ اللَّهِ الرَّبّ جلّ جلالُه: كثيرة، منها الأسماءُ التالية:

«الخالق ـ الرازق ـ الرحمٰن الرحيم ـ الْمَلِك ـ الْمُهَيْمن ـ العزيز ـ الجبّارُ ـ البارئ ـ المصوّر ـ العفوّ ـ الغفّار ـ الغفورُ ـ القهّارُ ـ الوهّابُ ـ الفتاح ـ العليم ـ القابض ـ الباسط ـ الخافض ـ الرافع ـ المعزُّ ـ المذلُّ ـ السميع ـ البصير ـ الحكَمُ ـ العدْلُ ـ اللَّطِيفُ ـ الْخَبِيرُ ـ الحليمُ ـ الصَّبُور ـ الحميد ـ الشكور ـ الحفيظ ـ الْمُغِيثُ ـ الرَّقِيب ـ الحسيب ـ المجيب ـ الحكيم ـ الودود ـ الباعث ـ الشهيد ـ الوكيل ـ الوليُّ ـ الْمُحْصِي ـ المبدئ ـ المعيد ـ المحيي ـ المميت ـ القادر ـ المقتدر ـ المقدّم ـ المؤخِّرُ ـ البرُّ ـ التوّاب ـ المنتقم ـ الرّؤوف ـ مالك الملك ـ الْمُقْسِط ـ الجامع ـ المانع ـ المغني ـ الضارّ ـ النافع ـ الهادي ـ البديع».

إنّ هذه الأسماء وأشباهها تدخل تحت مفهوم كلمة «الرّبّ» لأنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ يتصرَّفُ بمَخْلُوقاتِهِ ويُعَامِلُها من خلال اتّصافِهِ بما تَدُلُّ عليه هذهِ الأسْمَاءُ الحسنَىٰ، فربُوبيَّةُ اللَّهِ لها تَشْتَمِلُ على كُلِّ معانِيها.

فاسم اللَّه «الرَّب» إحدى أسماء اللّه الكليَّةِ العامّةِ، الَّتِي تَنْضوِي تَحْتَها أسماءُ حُسْنَىٰ كثيرَة، ورُبُوبيَّةُ اللَّهِ هِي الَّتِي تَجْعَلُ مَنْ تَتَعَلَّقُ بِهِ عَبْداً لَهُ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤه.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾: لَمْ يُذْكَرْ معمولُ فِعْلِ «خَلَق» ليَعُمَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ في الوجود، وإرادةُ العموم من أغْراضِ حَذْفِ المعمول عند البلاغيين، وهو من الإِيجاز البديع المحمود.

الخلْقُ: يأتي بمعنىٰ الإبداعِ من العدم، والإيجاد على غير مثالٍ سبَق. ويأتي بمعنَىٰ التقدير للعناصر والأجْزَاءِ للشيء الذي يُرادُ إحداثُهُ، وهذا المعنى يتَحقَّق في أمور كثيرة، مِنْهَا جَعْلُ الشيء في صورة مَا على وفْقِ المقادير المعدَّةِ لَهُ فِي الْخِطَّة، كجَعْلِ طينَةٍ لَزِجَةٍ على شكْلِ طائر، ولا تكونُ على شكل طائرٍ ما لم يَسْبقِ العملَ أو يقْتَرِنْ به تَحْدِيدُ المقادير والأجزاء، ووضع كُلِّ شيءٍ في موضعِه حتَّىٰ تكتمل الصورة المقدّرة.

فاللَّهُ عزَّ وجلَّ هو الخالق، ولا يُعْجِزُهُ شيءٌ يُرِيدُ خَلْقَه، وَكُلُّ ما سِوَاه في الوجود خَلْقُه.

والخطاب بقوله تعالَىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ مُوَجَّهٌ أوّلاً للرّسُولِ محمّد ﷺ، باعتباره أوّلَ المخاطَبِينَ بِمَطَالِبِ اللَّهِ من عِبادِهِ، وبتعلِيماتِهِ وَوصَاياهُ وبيَاناتِه لهم.

وهُوَ مُوَجَّهٌ مِنْ بَعْدِهِ لكلّ العالَمِينَ الصالِحينَ للخطابِ التكليفيّ، الموضوعين في الحياة الدّنيا مَوْضعَ الامتحان.

ودَلَّتْ نُصُوصٌ أُخرىٰ على أنّ الرّسُولَ محمّداً ﷺ مُسْتَثْنَىٰ مِنَ التوجيه لتعلُّم صنْعَةِ القراءة والكِتَابَةِ، لتبقَىٰ أُمِّيَّتُهُ إِحْدَىٰ مُعْجِزَاتِ نُبُوَّتِهِ، غَيْرَ أَنْ هذا التوجيهَ لاَ يُسْتَثْنَىٰ مِنْهُ أَحَدٌ من بَعْدِهِ، إلاَّ العاجِزُونَ من أُمَّتِهِ عَنْ تعلُّمِ القراءة والكتابة.

فمعنى قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ اِقْرَأْ أيُّها الموضوعُ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابتلاءِ، لاكتساب المعارف والعلوم الدينيَّة والدنيوية، قراءَةً مقترنَةً ومُلْتَبِسةً بالتفكُّرِ فِي صفات رَبِّك الّذِي خَلَقَ كُلَّ

مَخْلُوقٍ فِي الوجود، فَمِنْ آثَارِ صفاتِهِ خَلْقُ كُلِّ مَا سِوَاه جَلَّ جَلاَلَهُ. وأَنْتَ أَيُّها المدعُوُّ للقراءة واحِدٌ ممّا خَلَقَ، واقرأ مُسْتعيناً باللّهِ الذي يُمِدُّ بعطاءات ربوبيته.

وظاهِرٌ أَنَّ التوجيه للقراءة إنما هو توجيه لتحصيل المعارف والعلوم النافعةِ الدّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، الَّتِي تُعْتَبَرُ القراءة والكتابة من كبريات أسباب هذا التَّحْصِيل، ولا شَكَّ أنَّ المعارفَ الدينيَّةَ مطلوبَةٌ بالدّرجَةِ الأُولىٰ، فهي المطلوبُ الأَوَّلُ من العباد.

❁ ❁ ❁

قولُهُ تَعَالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾.

العلَقُ: الدّم الغليظ، أو الجامد. وهو اسم جنس، والقطعةُ منه علقة. والعلقة طورٌ من أطوار الجنين، وهي قطعةُ الدّم الّتي يتكوّنُ الجنينُ منها.

بعد بيان أنّ اللّه عزّ وجلّ خَلَق كُلَّ مَخْلُوقٍ في الوجود، وهو ما جاء في الآية الأولىٰ من السورة، جاءتْ هذه الآيةُ لتُوَجّه نظر الإنْسَان المطالَبِ بأنْ يقرأ باسم ربِّه الّذِي خَلَقَ إلى طَوْرٍ من أطوار خلْقِه، وهُوَ طَوْرُ العلَقة الَّتي يكونُ عليها وهو في رَحِم أُمِّه.

ومُمَارِسُ تَدَبُّرِ كتاب اللّهِ يُلاحظُ أنَّ أُسْلوبَ القرآن قائِمٌ على توزيع عناصر موضوعٍ واحدٍ في سُوَرٍ متعدّدةٍ، فإذا جُمِعتْ هٰذِهِ العناصِرُ تكامَلَ مِنْها الموضوعُ الْكُلِّيُّ المرادُ بيانُه، وهذا الأسلوبُ مع التكامُلِ الدقيق هو من عناصر إعجاز القرآن. ومن فوائِدِ هذا التوزيع التركيزُ على العنصر المختار في البيان الذي يُسَاقُ فيه، مع التذكير بأصْلِ الموضوع الكلّيّ الموزّع، والتخلُّص من ركاكة التكرير، وإبعادِ المتدبِّرِ عن الْمَلَلِ والسّأمِ فيما لو جُمِعَتْ لَهُ كُلُّ العناصر حول موضوعٍ واحدٍ فِي نصٍّ واحِدٍ.

وبتَتَبُّعِ النُّصُوصِ القرآنيَّة حَوْلَ مَرَاحِلِ خَلْقِ الإنسان وجدْتُ أنَّها تسْعَةَ

عشَرَ نصّاً، فجاء في هٰذِهِ النّصوصِ بيانُ مَرْحَلَةِ خلْق الإنسان من تراب، ومرحلة خلقه من طين لازب، ومرحلة خَلْقه من صلصالٍ من حمإٍ مَسْنُون، ومَرْحَلَةُ خلقه من صَلْصَالٍ كالفخّار، ومرحلة اشتقاقه من نفس واحدة هي نفس آدم، ومرحلَةُ خلقه من ماءٍ مهينٍ في النطفة، ومَرْحَلَةُ خَلْقِهِ من علقة، ثمّ من مضغةٍ مخلّقَةٍ وغير مخلّقة، مع تتابع أطوار خلقه في بطْنِ أُمّه خَلْقاً من بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاث.

ودراسةُ هذه النصوص دراسةً تدبُّرِيَّة تتطلَّبُ بَحْثاً خاصّاً متكاملَ العناصر.

❀ ❀ ❀

قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾.

جاء في هٰذِهِ الآيَةِ تَكْرير الأمْرِ بالقراءة للإشعار بحاجَةِ الإنسان لمتابَعَةِ القراءة في حياته لتغذيةِ فكره وقلبه ونفسه بالمعارف والعلوم والمفهومات الصحيحات.

إنّ نفس الإنسان بحاجَةٍ إلى زادٍ يُغَذّيها بالمعارف والعلوم، لتبقَىٰ لها حياةٌ معنويَّةٌ متنامية، كما أَنَّ جَسَدَهُ بحاجَةٍ إلى الطعامِ والشّرابِ والتنفُّس، لاستمرار حياته إلى أَجَلِهِ.

﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾: أي: الأَكْرَمُ مِنْ كُلّ كريم، فلفظُ «أكْرَم» أفْعَلُ تفضيل، يقالُ: فلانٌ أكْرَمُ مِنْ فُلَانٍ، ولكن لاَ يُقالُ: «الأكْرَمُ» بالإطلاق العامّ دُونَ إضافةٍ إلَىٰ شيءٍ إلاَّ في جانب اللَّهِ عزَّ وجلَّ، كالأكْبر، فَهُو سبحانه الأكْرَمُ من كُلّ كريم، والأكْبَرُ من كلّ كبير.

وجاءت عبارة ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ لإشعار المُطَالَب بالقراءَةِ بأنّ رَبَّهُ الذي يُمِدُّهُ دواماً بعطاءاتِ رُبوبيّته، سيُمدُّهُ بفيوض المعارف كُلَّما ازداد من القراءة طلباً للمعارف النافعة، وسَيُعطيه معارفَ زائدةً على المعاني الّتي تَدُلُّ عليها

المكتُوباتُ الَّتِي يَقْرَؤُها، لأنّ فِقراتِ المعرفةِ الّتي يستفيدها القارئ من قراءاته تفتح له بمعونة اللّهِ وإلهامه وتوفيقه أَبواباً ومَسالكَ لاكتساب معارفَ أخرى، لا تدلُّ عليها المكتوبات، ولكن تجُرُّ إليها السلاسل الفكريّةُ المترابطة الّتي يُتَابِعُها الذهن، متَىٰ أمسك بحلْقَةٍ من حلَقاتها، ويكونُ هذا ضِمْنَ أَنْظِمَةِ اللّهِ السببيّة.

فاللّهُ سُبحانَهُ هو الأَكْرَمُ من كُلّ كريم، فلا يقتصر عطاؤه على حُدُود ما يَطْلُبُ القارئ الوصُول إليه من المعاني الّتي تَدُلُّ عليها الأَلْفَاظُ المكْتُوبَةُ، بل يزيدُهُ من كرمه العظيم فيوضاً من المعارف فَوْقَها، على مقدار ما تستوعبُ آنيتُه الفكريّة.

❁ ❁ ❁

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾.

أي: الَّذِي جعل مِنْ وسَائِلِ اكتساب المعارف والعلوم وسيلةَ القلم، فبالقلم تُدوَّنُ المعارفُ والعلومُ المكتسبَة بالإدراكِ الحسّيّ، أو الاستنتاجِ العقليّ بالتأمُّل الفكري، أو الخبرِ الصادق، فتكونُ جاهزةً للقراءة، فيستفيد القارئونَ ما سَبَقَ أن دُوِّنَ بالقلم، ويستذكِرُ بالقراءة الّذِين سبقت لهم المعرفة، ولكن نَسُوها أَوْ نَسُوا شيئاً مِنها، إذ الكتابَةُ المحفوظَةُ من فَسَاد خُطوطِها أو صُحُفها لا تتعرّضُ للنسيان، لكنّ الأذهان والذاكراتِ الإنسانيّة تنسَىٰ ما سبَقَ أنْ تعلَّمتْهُ، فهي بحاجَةٍ إلى مكتُوبٍ محفوظٍ لا يتعرَّض للنسيان.

وتعليم اللّهِ بالقَلَمِ قد حصل بخَلْقِ الناسِ مستعدّين لاكتساب وابتكار صنعة الكتابة والقراءة، وبإلْهامِهِمْ أَنْ يضَعُوا الرُّموز الخطِيّة للحروف والكلمات والأعداد، أوْ بالوحْي إلى بعض أنبيائه أن يكتُبَ ويقرأَ ويُعلّم قومه أصول الكتابة والقراءة.

وورد في بعض الآثار أنَّ اللَّهَ تعالى أَنْزَل على آدم عشْرَ صحائف، وعلى شيث خمسين صحيفة، وعلى إدْريسَ ثلاثين صَحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف.

فإنْ صَحَّ هذا فإنَّ التعليم الأوّل بالقلم كان عن طريق الوحي.

روَىٰ أبو إدْريس الخولاني، عن أبي ذَرٍّ الغفاريّ قال: قُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ، كَمْ كتاباً أنزل اللَّهُ تعالَىٰ؟ قال:

«مِائَةَ صَحِيفَةٍ وَأَرْبَعَةَ كُتُبٍ، أنزل اللَّهُ تَعَالَىٰ على آدَمَ عشْرَ صَحَائِفَ، وعلى شِيثٍ خَمْسِينَ صَحِيفَةً، وَعَلَىٰ إدْرِيسَ ثلاثين صَحِيفَةً، وَعَلَىٰ إبْرَاهِيمَ عَشْرَ صَحَائِفَ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ والإِنْجِيلَ والزَّبُورَ والْفُرْقَان».

❁ ❁ ❁

قَولُهُ تعالَىٰ: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

أيْ: هيَّأَ للإنْسَانِ الوسائِلَ الأُخْرىٰ لاكتساب الْعِلْم، كالإدْراكِ الحسِّيّ للأشياء، والإدْرَاكِ العقْلِيّ الْقَائِم على استخدام الأُصُولِ الْفِكْرِيَّة الَّتِي فَطَرَهُ عَلَيْهَا، والّتي بها يسْتَنْبِطُ ويسْتَخْرِجُ من البواطن، عن طريق لوازم الأَشْياءِ الَّتِي يُدْرِكُ بِهَا الذِّهْنُ البواطنَ غير المدركة بالحسِّ، كإدْراكِ وُجُودِ نارٍ عند رُؤيَةِ دُخانٍ صاعِدٍ في السَّمَاء، وإدْرَاكِ مُرور حَيَّةٍ على الأرض عند مشاهدةِ أثَرِ حَرَكَةِ جِسْمِها على الأرض.

إنَّ الإنسانَ يتعلَّم بحواسّه الظَّاهرة المرئيّاتِ والمسموعاتِ والمشموماتِ والمذوقَاتِ والملموسات الّتي أَوْجَدَها اللَّهُ في كونه ومكَّنَهُ من استعمال حواسِّه لمعرفتها، وهذا تعليمٌ من الله لعلومٍ لم يكن الإنسانُ على علم بها.

ويتعلَّمُ بحواسِّهِ الباطنة العواطف والإحساسات والمشاعرَ الداخليّة،

كالحبّ والكراهية، والغضب والرّضا، واللّذة والألم. ولو لَمْ يجعلِ الله لدى الإنسان الاستعدادَ للمعرفة، ولم يَضَعْهُ في بيئةٍ تجريبيَّةٍ تَجْعلُهُ يتذَوَّقُ هٰذِهِ الإحْسَاسات، لبقيَ صفحةً بيضَاءَ جاهلةً، فما يكتسِبُهُ الإنسانُ من ذلك هو تعليمٌ من اللّهِ لعلومٍ لم يكُنْ على عِلْمٍ بها.



(٦)
نظرةٌ إجماليّة عامّة للدرس الأول

بدأَتْ أوّل سورة من القرآن نزلَتْ على الرسول محمّد ﷺ بالأَمْرِ بالقراءة، نظراً إلى أنّ القراءة وسيلةُ اقتباس المعارف المدوّنة الّتي سبَقَ توصُّلُ الناسُ إليها بوسائلهم الحسيّةِ والتجريبيّة والعقليّة الاستنباطية والخبريّة البشرية، أوْ سبق أن تنزّل بها وحْيُ اللّهِ على أنبيائه ورُسُلِهِ السابقين.

ولمّا كان الهدف من القراءة تحصيلَ المعارف النافعة، وأهمُّها المعارف الدينيَّةُ، الَّتي تَهْدِي الناسَ إلى سعادتهم في دُنْياهم وآخرتهم، كان لا بُدّ من ملاحظةِ الاستعانة باللّهِ فيها، ومصاحَبَتِها بالتفكر بأسماء اللّهِ وصفاتِه الحسنىٰ، إذ الكون كلُّه من آثارها، لاستبصار الحقّ، والتوفيق للإيمان، ثم الارتقاء في درجاته ومراتبه، والتزامِ العمل بمقتضاه، إسلاماً وطاعةً للَّهِ في أوامره ونواهيه ونصائحه ووصاياه، وإرْشاداته.

فكانت الجملة الأولَىٰ خطاباً للرَّسُولِ أوّلاً، فلكُلِّ مَوْضوع في الحياة الدنيا موضع الابتلاء والتكليف: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ أي: اِقْرأ مستعيناً بما لربّك من صفاتٍ حُسْنىٰ عظيمات جليلات، ومُبْتَدِئاً بذكْرِ اسم ربّك، ومُسْتَصْحِباً التفكّرَ بأسماء الله الحسنىٰ، الملائمة للموضوع الذي تقرأ فيه، فمَا من موضوعٍ فكريٍّ إلاّ لَهُ صِلَةٌ باسْم أَوْ أَكْثَرَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الحسنى، إذْ ما مِنْ شيءٍ فِي الكونِ إلاّ هو أثَرٌ من آثَارِ اسْمٍ فأكْثر من أسمائه جلَّ جلاله.

إنَّكَ أيُّها الكائنُ المدركُ لوجود ذَاتِك وصفاتِك، لَكَ رَبٌّ رَبَّاكَ وَنَشَّأَكَ حَتَّىٰ صِرْت كائِناً حيًّا مُدْرِكاً سَوِيًّا، فانظُرْ إلى ذَاتِكَ كَيْفَ بَدَأْتَ، وكَيْفَ تَنَقَّلْتَ في أَطوار خَلْقِكَ، مِنْ نُطْفَةٍ إلَىٰ عَلَقَةٍ إلى مُضْغَةٍ، وهكذا نُشِّئْتَ تَنْشِيئاً صاعداً حتى بَلَغْتَ دَرَجَةَ كمالِكَ المقدَّرَةَ لك، فصِرْتَ حيّاً ذَا إدْرَاكٍ وإرادَةٍ وقوَّةٍ إلى سائر صفاتك النفسيّةِ والجسديّة.

فهلْ كُنتَ أنتَ الْمُنْشِئَ لذاتِكَ، والمختار لصفاتِكَ وخصائِصِكَ؟ وهَلْ كانَ أَبَوَاكَ هُمَا اللَّذَانِ بَنَيَا ذَاتَكَ، وَمَنَحَاكَ صفاتك؟ إنَّهُما لم يفْعلا شيئاً إلاَّ أَنْ كانَا وَسِيلَةً ما بَيْنَ مُسْتَقَرٍّ ومُسْتَوْدَعٍ، ثُمَّ سَاعَدَاكَ علَىٰ تقديم بَعْضِ وسَائِلِ حياتِكَ وَحِمَايَتِك، لكنَّهُمَا لَمْ يَبْنِيَا فيكَ شيئاً، ولمْ يخلُقَا فيكَ خَلْقاً ما.

إذَنْ: فآمِنْ بأنَّ لَكَ رَبًّا، والْتَمِسْ مِنْهُ عوناً، وتفكَّرْ في أسمائه وصفاته دواماً مَعَ كلِّ حقيقة كونيَّةٍ تتعلَّمُهَا، ومَجِّدْهُ في نَفْسِك وقَوْلِك، ونادِهِ وادْعُه، واقْرأ مَا أنْزَلَ إلَيْكَ، حَتَّىٰ تَعْلَم واجِبَكَ تُجاهه، وتَعْمَلَ بِمَا يُوصِيكَ بِهِ، وتُطِيعَ أَوَامرَهُ ونواهِيه.

لَقَدْ أَدْرَكْتَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ بُمُلاَحَظَتِكَ لِذَاتِكَ، وصِفَاتك، ومُلاحظتك لأَمْثَالِكَ، أَنَّكَ تَدَرَّجْتَ فِي نشْأَتِكَ مِنَ النُطفة حتَّىٰ صِرْت علقةً فَمُضْغَةً فَجَنِيناً يتَحَرَّكُ بحَيَاةٍ، فوليداً، فَغُلاَماً، فشابًّاً، فكَهْلاً، وهكذا.

أفلا تبحَثُ عَمَّنْ رَبَّاكَ؟ أَفَلا تتفكّر في صفاتِهِ وأسمائه الحسنَىٰ، ولَوْ لَمْ يكُنْ مَرْئِيّاً لكَ بعينيْكَ؟!

إنَّكَ تستطيعُ أَنْ تُدْرِكَ وُجُودَهُ، بجِهَازٍ فيك، هُوَ أَجَلُّ من بَصَرِكَ وسَمْعِكَ وسائِرِ حواسِّكَ وأعظم، هُوَ فِكْرُكَ، هُوَ قُوَّةُ إدْرَاكِ المعارفِ فيكَ، هُو عَقْلُك الّذي يُدْرِكُ مَا غابَ عَنْ حِسِّك، ويشارِكُهُ وِجْدَانُكَ الداخِلِيُّ وضميرُك.

هٰذا الّذِي رَبَّاكَ هُوَ الْخَالِقُ في الوجود، هو الذي خَلَقَ كُلَّ مَا تُشَاهِدُ في ذَاتِكَ وَحَوْلَ ذَاتِكَ، مِنْ كُلّ ظَاهِرٍ وباطِنٍ في الْكَوْنِ، فَهُوَ الّذِي خَلَقَ.

فاقْرأ ما نزل بِهِ الوحْيُ باسْمِ رَبِّك الذي خَلَقَكَ وخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ في الكَوْنِ مِنْ حَوْلِكَ.

واذْكُرْ أيُّهَا الإنْسَانُ أنَّكَ كُنتَ في بَعْضِ أَطْوَارِ خلْقِكَ عَلَقَةً، وهكذا كُلُّ إنسانٍ بَعْدَ آدم وزَوْجِهِ.

ودليلُ هذه الظاهرة ما أثبتَتْهُ دلائل المعرفة الحسيَّةِ الإنسانيّة.

هذا هو بَدْءُ الدَّعْوَةِ إلى دين الله، إنَّها دعْوَةٌ إلى الإيمان بالرَّبِّ الْخَالِقِ، وإلى الإصغاءِ لما يَنْزِلُ به الوحْيُ، وكتابَتِهِ وقراءتِه لتدبُّر دلالاته، وطلَبِ الاستعانة بصفاته ومصاحَبَةِ التفكُّر فيها، للوصُول إلى فَهْمِ ما يَنْزِلُ بِهِ الْوَحْيُ، ولمتابَعَةِ اكتساب المعرفَةِ الهاديَةِ إلى الحقائقِ الكُبْرىٰ، والإسْلامِ للَّهِ والْعَمَل بمراضِيهِ.

كُلُّ هٰذِهِ المعاني قَدْ جاءَت مُوجَزَةً أَرْوَعَ إيجازٍ فِي آيَتَيْنِ قَصِيرَتَيْن هُمَا قَوْلُ اللّهِ عَزّ وجلّ:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾.

وهُنَا تَظْهَرُ مُشْكِلَةُ الْقَارِئِ لمَا نَزَلَ بِهِ الوحْيُ، الَّذِي قَدْ تخْفَىٰ عَلَيْهِ مَعَانٍ كثيرة مِنْ دلاَلات نُصُوصِ الوحي ولوازِمِهَا، لِمَا فِيهَا مِنْ إيجاز، ولما اقْتَضَاهُ تنزيلُها من إعجاز.

فماذا يَفْعَلُ هٰذَا الْقَارِئ؟. هَلْ يَقْرأُ وَيَقْرأُ وَلَوْ لَمْ يَفْهَمْ كُلَّ مَا دَلَّ عَلَيْهِ النَّصُّ الْمُوحَىٰ بِهِ؟.

والجواب: أنَّ ما يَفْهَمُهُ ممَّا يَقْرَؤُهُ يَهْدِيه وينفعُهُ، ومِنْ جَهْلِ كثيرِ يرفَعُه، ولكِنَّ علَيْه أَنْ يتدَبَّر، ويُتَابعَ التَّأمُّلَ والتدبُّر، ولْيَضَعْ في حسابِهِ أنَّهُ مأجُورٌ، سَواءٌ أَفَهِمَ أَمْ لم يَفْهَم، ففي كُلِّ حَرْفٍ من التنزيلِ يَتْلُوهُ لَهُ به عشْرُ حسنات.

ثمَّ إنَّه بمُتَابَعَةِ القراءة والتّدبُّر مع الاستعانَةِ بربِّهِ يُنَوِّرُ اللَّهُ بَصيرَتَهُ، فَيَفْتَح لَهُ أبواباً من الْفَهْم، تُشْرِقُ لَهُ مِنها معارِفُ ربَّانِيَّة، اشْتَمَلَ عَلَيْها النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ الموحَىٰ به.

فاقْرأْ أَيُّها الإنسانُ ما نزل بِه وحْيُ رَبِّكَ، وتَدَبَّرْهُ، ثُمَّ اقْرأْ وتَدَبَّرْ، فإنَّكَ إذَا وَجَّهْتَ همَّتَكَ لِفَهْمِ ما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كَلامُ رَبِّكَ، وَصَدَقَتْ عزِيمَتُكَ، أَكْرَمَكَ رَبُّكَ، فأشْرَقَتْ عَلَيْكَ أَنْوَارُ المعارف.

إذَنْ: فَتَابِع قراءَتَكَ وَتَدبُّرَكَ يُكْرِمُكَ اللَّهُ بالمعرفة ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾.

واجْعَلْ مِنْ وَسَائِلِكَ أَيُّها الإِنْسَانُ الْقَارِئُ لما نَزَل بِهِ الوحْيُ من عند ربّك وسِيلَةَ الْقَلم، فَدَوِّنْ بِهِ وارِدَاتِ المعرفَةِ الّتِي تَرِدُ عَلَيْكَ عنْدَ قراءَتِكَ وَتَدَبُّرِكَ لِكلاَمِ رَبّك، فوارِدَاتُ المعارِفِ شَرُودٌ، إذا لَمْ تُدَوِّنْهَا بالْقَلَم نَسِيتَهَا، فضاعَتْ، وقد يَصْعُبُ أَنْ تَعُودَ مرَّةً أُخرىٰ، فَتَخْسَرُ الوارِدَ، إذْ لم تُقيّدْهُ بالْقَلَمِ، فَرَبُّكَ الَّذي خَلَقَ، وأكْرَمَكَ بوَسائِلِ المعرفَةِ عَلَّمَ بالْقَلم.

إنَّ وارِدَ المعرفةِ غَيْثٌ، والقلَمُ ميزابُ هٰذَا الغيثِ، والقرْطاسُ هو الوعاءُ الَّذي تَجْمَعُ به غيْثَ رَبِّكَ من المعارف، وَبِهِ يسْتَقِرُّ الْعِلْمُ، ويُنَقَّحُ وَيُصَنَّف.

هكذَا خَلَقَ اللَّهُ الإنسان، وهكذا جَعَلَ إحدى وسائل معرفتهِ بعْدَ أن خلقه جهازاً خالياً من العلم قابلاً له.

إنّ رَبَّكَ أَيُّها الإنسانُ بوصْفِ أَنَّهُ الأَكْرَمُ مِنْ كُلِّ كريم، يُغيثُ بوارداتِ المعارف، وبسنَّتِهِ فِي خَلْقِ الإِنْسَان جعل القلمَ وسيلة سهلةً متاحةً لِجَمْع هذه الواردات وتنقيحها وتصْنيفها.

وبهذه الوسيلة وبغيرها من وسائل اكتساب المعرفة علَّمَ الإنْسانَ ما لم يَعْلَم.

هذه المعاني مع معانٍ أُخرَىٰ أَوْجَزَهَا أَرْوَعَ إيجازٍ قولُ اللَّهِ عَزَّ وجلَّ:

﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

وبهذا ينتهي الكلامُ حَوْلَ الدَّرسِ الأَوَّل مِنْ دُروسِ سورة (الْعَلَق).



(٧)
التدبُّر التحليليُّ للدَّرسِ الثاني من دروس السورة

الآيات من (٦ ـ ٨)

قال اللّه عزّ وجل:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾.

تضمَّن الدرسُ الأَوَّلُ من السورة تكليفَ النّاس أن يتلَقَّوا الرّسالة الرَّبَّانيَّةَ المنزَّلَة على محمد ﷺ، وأن يقرؤوا كتابَها آناً فآناً بعد تدوينه بالقلم، ضِمْنَ مَسِيرتهم العلميّة.

وهذا الدّرْسُ يُثِيرُ لدى رافضي الاستجابة لهذه الرّسالة ورافضي الإيمان بالرّسُولِ واتّباعه، اعْتِراضاً مُفَادُهُ ما يلي:

مَا حاجةُ الناسِ إلى إنْزال رِسَالة رَبَّانِيَّة؟ إنَّ باستطاعة النَّاسِ أَنْ يَتَوَصَّلُوا إِلَىٰ مَعْرِفَةِ ما يُصْلِحُ شُؤُونَهُمْ، ويُنَظِّمُ حياتهم، ويُبيِّن لهم السُّلوكَ الأَقْوَمَ، عَنْ طَرِيقِ عقولهم وتجرباتهم.

فجاء الدّرْسُ الثاني من السّورة زَاجراً ودافعاً لهذا الاعْتِراض. فبدَأَ بِكَلِمَةِ زَجْرٍ لِلْمُعْتَرِضِينَ، وهي كلمة: «كَلَّا». وبعدها أَشَار الدَّرْسُ إِلَى حاجَةَ النَّاسِ الماسَّةِ إلى إِنْزَالِ رِسَالةٍ رَبَّانيَّةٍ يُدْعَوْنَ فيها إلى سُلُوكِ صراطِ اللَّهِ المبيَّنِ فيها، بَعْدَ دَعْوتِهم إلى الإيمانِ بالحقائق الَّتِي تَشْتَمِلُ عليها أَرْكانُ الإيمان، وما في هذه الأركان من عناصر وتفصيلات.

﴿كَلَّآ﴾: أداة رَدْعٍ وزَجْر، هذا هو الأصل فيها.

أقول: والزّجْرُ الْمُوجَّهُ من اللّهِ عزّ وجلّ هُنَا يقتضي مزجوراً ومزجوراً عنه، ولا يُعْقَلُ أَنْ يكون الزَّجْرُ مُوَجّهاً لِلرَّسُولِ ولا للذين يؤمنون به ويتّبِعُونه، فلا بُدَّ أَنْ يكونَ الزّجْرُ للذين يرفضُون الاستجابة لهذه الرسالة ويَعْتَرِضُون عليها، فإيرادُ أداة الزّجْرِ يتضمَّن الإشارة إليهم.

ومن تدبُّرِ ما جاء بعد عبارة الزَّجْرِ مِنْ بيانٍ نُدْرِكُ أَنَّه قد جاء رَدًّا على الاعتراضِ الذي يُوجِّهُهُ الرّافضون، ومِنْ مضمون الرّدّ نُدْرِكُ مضمون الاعتراضِ المطويّ الذي لم يُفْصِحْ عنهُ النّصّ.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾.

هٰذَا النصُّ قد جاء بمثابة التعليلِ للحكمة من إنْزَالِ رِسَالَةٍ رَبَّانِيَّةٍ، عَلَىٰ رَسُولٍ مِنَ الْبَشَرِ، ودَعْوَةِ النَّاسِ لاتِّباعها، بقيادة الرَّسُول، أي: فلولا إِنْزَالُ الرّسَالَةِ الّتي تَتَضمَّن تَعْرِيفَ الناسِ بالْحَقِّ والباطل، والخير والشَّرِ، وتَعْرِيفَهُمْ بالصّراطِ المستقيم، لَطَغَىٰ مَنْ يَشْعُر بالاستغناءِ مِنهُمْ، ولم يَجِدْ رادِعاً يَرْدَعُهُ عَنْ طُغْيانه، وبالطُّغيانِ الّذِي تتعدَّدُ جِهَاتُهُ في النَّاسِ يَحْدُثُ التَّقَاتُلُ وسَفْكُ الدِّماء، وفسادٌ في الأرضِ عريضٌ، وظُلْمٌ وبغيٌ وعُدْوان، وهذا يحتاجُ إلى جَيْشٍ من المؤمنين برسالة اللّه لعباده، يُوقِفون شُرُورَ الطغيان، ويَحُدُّون من تفاقُم العدوان، ويحتاج إلى بياناتٍ تُحَذِّرُ من عقاب الله في الدنيا والآخرة، وتبيّن للناس أنّهم ممتَحَنُونَ في الحياة الدنيا، وأَنَّهُمْ لاَ بُدَّ أَنْ يَرْجِعُوا يوم الدين إلى بارئهم، ليحاسبهم، ويفصل القضاء فيهم، ويجازِيَهُمْ على أعمالهم، إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شرّاً فَشَرٌّ.

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾: الفاعلُ والمفعولُ به في عبارة «رآه» واحد، أي: رأَىٰ من ذاته أَنّه استَغْنَى، وهذا من أفعال القلوب الّتي يصحُّ فيها أَنْ يكون ضميرا الفاعل والمفعولِ به واحداً، ومنها: «حَسِبْتُنِي ـ وظَنَنْتُنِي ـ».

فدلَّ هذا النصُّ على أَنَّ من ظواهر السلوك الإنسانيّ، أَنَّهُ يطْغَىٰ إِذا رأَىٰ أَنّه استغنَىٰ، وهٰذِهِ الظّاهِرَة مشاهَدَةٌ في الواقِع الإنسانيّ بنِسْبَةٍ غَالِبَةٍ جدًّا.

والحكم في هذا النّصّ القرآنيّ حُكْمٌ على الْجِنْسِ، والحكْمُ عَلَىٰ الْجِنْسِ لاَ يَعْنِي اسْتِغْرَاقَ جَمِيعِ أَفْرَاده.

الطغيان في اللّغة: هُو تجاوُزُ حُدودِ الْحَقِّ والْعَدْلِ، أو الخير والمصلَحَةِ والمنفَعَة، أَوْ مستوىٰ الأَمْرِ الحكيم.

تقولُ لغة: طغَىٰ الْبَحْرُ، إِذَا هاجَتْ أَمْوَاجُه. وطَغَىٰ الماءُ، إذا ارتَفَعَ وعَلاَ عَنْ حَدِّهِ النافِع فأغْرَقَ وأتْلَفَ. وطَغَىٰ فرعون: أي: ظلَمَ وَعَتَا وَتَجَبَّر. وطغَىٰ الكافرُ: أي: أمْعَنَ في جحودِهِ لخالقه ومعصيته أوامِرَه ونواهِيَه.

﴿ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾: الاستغناء هو في الأصل امْتلاكُ الْأَشْيَاءِ الّتِي تَجْعَلُ مالِكَها غَنِيًّا بِها عن غيره، غير محتاج إلى أحد.

وهذا الاستغناء يكونُ بالمال، ويكونُ بالْقُوَّةِ والسلطان، ويكون بالصحّة والعافية، ويكونُ بالأَتباعِ والأنصار، ويكون بامتلاكِ كلّ ما يُحتَاجُ إليه، ويكونُ الاستغناء عن الشيء أيضاً بعَدَمِ الحاجَةِ إِلَيْهِ أَصْلاً.

والاسْتغناء قَدْ يكونُ حقيقيّاً، وهو للّهِ تعالى وحده، فاللّهُ عزّ وجلّ هو الغني في ذاته، بصفاتِ الكمال التي هي له، وهو المالك لكُلّ شيءٍ، وَهُو الغنيُّ فِي ذَاتِه عن كلّ شيءٍ من دونه.

وقَدْ يكونُ الاستغناء شُعُوراً نَفسيّاً كاذِباً، يراه الإنْسَانُ لنفسه، وهو في حقيقة حاله فقيرٌ لربّه، محتاجٌ إِلَيْهِ في كُلّ مطلَبٍ من مطالبه، وقَدْ جَعَلَهُ رَبُّهُ مُحْتاجاً لأشياءَ كثيرة، واللّهُ وحده هو الذي يخْلُقُها ويهيّئُها له، ضمن سُنَنِهِ فِي كونه.

إنَّ شعور الإنسان بالاستغناء وهو غارقٌ في الفقرِ إلى الله عزَّ وجلَّ شُعورٌ فاسِدٌ، مُسْتَنِدٌ إلى وهْمٍ كاذبٍ، وهَذا الشُّعُورُ لاَ يكونُ لدىٰ المؤمنين الصّادقِينَ، المراقبين لربّهم.

إنَّ هٰذِهِ الصِّفَةَ في الإنسانِ صِفَةٌ شَرْطِيَّةٌ، إذْ لَيْسَ كُلُّ إنْسَانٍ طاغياً بالْفِعْلِ، ولكِنْ من رأىٰ أَنَّهُ اسْتَغْنَىٰ طَغَى، ولزُومُ الطغيَانِ للشُّعُورِ بالاسْتِغْنَاءِ في مُرَكَّب هذا الإِنْسَانِ يَكَادُ يكُونُ قاعدةً مطّرِدَةً.

هـذا الـواقـع الإنـسانيُّ يكْشِفُ أَنَّ النَّاسَ بحَاجَةٍ إِلَىٰ رِسالَةٍ رَبَّانِيَّة يُنَزِّلُهَا اللّه لِعِبَادِهِ.

يُضَافُ إِلَىٰ هَـٰذَا أَنَّ خَلْقَ الإنْسَانِ للابْتِلاَءِ فِي ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنيا يَسْتَدْعِي باللُّزومِ الْعَقْلِيِّ المحاسَبَةَ وفَصْلَ الْقَضَاءِ وتَنْفِيذَ الْجَزَاء.

وبما أنَّ الصُّورةَ الْمُثْلَىٰ لِهَـٰذِهِ الأُمورِ لا تتحقَّقُ في ظروفِ هٰذه الحياة الدُّنيا، فَلاَ بُدَّ مِنْ ظُرُوفِ حَيَاةٍ أُخْرَىٰ تَتَحقَّقُ فِيها، إلاَّ أَنَّ الْعُقُولَ البشريَّة عاجِزَةٌ عَنْ تَصوُّرِ هٰذِهِ الحياةِ الأخْرَىٰ، فَلاَ بُدَّ لَهَا مِنْ رِسالَةٍ رَبَّانِيَّةٍ تبيِّن لَهَا المعالم الكبرى لهٰذِهِ الحياة الأُخرىٰ، وقد أشار إلى هذه الحكمة قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾.

الرُّجْعَىٰ: مَصْدَرٌ كالرُّجُوع.

فتبيّن من هذا الرَّدّ المشتمل على عنصرين:

١ ـ كَوْنِ الإنسانِ يطْغَىٰ إذا رأىٰ نفسه اسْتَغْنَىٰ.

٢ ـ وكَوْنِ الناسِ سَيُبْعَثونَ بَعْدَ الموت، ويرجعون إلَىٰ ربهم، ليحاسِبَهُمْ، ويقضِيَ بَيْنَهُمْ، ويجازِيَهُمْ عَلَىٰ أعمالهم.

أنَّ الاعتراض الذي زجَرَ اللَّهُ المعترضِينَ مِنْ أَجْلِهِ، هو تَصَوُّرُهم أَنّ النَّاسَ يَسْتَطِيعُونَ بعقولهم وتجرباتهم، التَّوصُّلَ إلَىٰ ما يُعَرِّفُهُمْ بالْحَقِّ

والْخَيْرِ، وَيضبطُ مسيرتَهُمْ في حياتِهِمْ عَلَى الصراط المستقيم الّذِي فِيه خيرهم جميعاً، وسعادتهم جميعاً.

وقَدْ أثبت الواقع الإنسانيّ أنّ المذاهب الْإِنسانية الَّتِي وضعها رافِضُو الاستجابَةِ لِدِينِ اللّهِ، قَدْ باءَت بالخيبة وشقاء المجتمع البشري، وهذا دليلٌ تجريبيٌ على سُقُوط اعتراضِ المعترِضينَ، وحَاجَةِ نُفُوسِهِمْ إلى الزَّجْرِ، الذي بدأ به الدّرْسُ الثاني من دروسِ سُورَةِ (العلق) إذْ قال الله لهم: ﴿كَلَّآ﴾.



(٨)
نظرة إجمالية عامّةٌ للدرس الثاني

زَجْراً لَكَ أيُّها الإنسان المعرضُ عن دعْوَةِ رَبّك لك، لقراءة ما نزل به الوحي عند رَبّك لهدايتك.

زَجْراً لكَ أيُها الإنسانُ الرافِضُ لهَـٰذِهِ الدعْوَةِ، المعتَرِضُ على إنزال رسالَةٍ من رَبّك على الرسُول الذي اختاره ليبلّغ الناسَ رسالته إليهم.

إنَّ هذا الرّبّ هو الذي خَلَقَ كُلَّ ما في الكون، وأنْتَ خَلْقٌ من خَلْقِهِ، مَرَرْتَ في أطوارٍ من الخلْقِ مِنها طَوْرُ العلقة.

أتَدْرِي أيُّها الإنسانُ المستنكِفُ عن الاستجابة لدعوةِ ربِّكَ لك، ما هِيَ عِلَّةُ دَائِكَ ودَاءِ أمثالك في استكْبَارِكَ وطغيانك؟

إنَّ توافُرَ نِعَم اللّهِ عليكَ في حَيَاتك وتوافُرَ أسبابها، جعَلك تشْعُرُ بأنّكَ غَنِيٌّ، مُسْتَغْنٍ بوسائلك الّتي جعلَها رَبُّكَ بيْنَ يَدَيْك ليمْتَحِنَك في ظروفِ هذِه الحياة الدنيا.

إنَّ طُولُ ممارَسَتِكَ لِلأَسْبَابِ الَّتِي تأتِيكَ بمسبَّبَاتِها بخَلْقِ الله، جعلَك تَزْعُم أنّها مُتَاحَةٌ لك دواماً، وجَعَلَكَ تَنْسَى الرَّبّ الخالق الذي سخَّرَها لَكَ

ليَبْلُوك، وتنسَىٰ أنّه مَتَىٰ سلَبَها بأَسْبابٍ خفيَّةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ لاَ تَمْلِكُ دَفْعَهَا ولا رَفْعَها، فإنَّك لا تستطيع اسْتِعادتها.

ومَعَ نَزْعَةِ اسْتكْبَارٍ فيك جعلَكَ تشْعُر بالاستغناءِ، وهذا الاستغناء نفخ فيك الكِبْرَ، فغشَّىٰ عَلَىٰ بَصِيرَتِكَ، فنَسِيتَ نَشْأَتَكَ، ونسيت رَبّكَ، ووجَدْتَ الْقُوىٰ بَيْنَ يَدَيْكَ فطغَيْتَ، في فكرِكَ ونَفْسِكَ وعَمَلِكَ.

ومن طغيانك في فِكْرِكَ رَفْضُكَ دعوةَ رَبِّكَ لَكَ، لتدبُّرِ ما نزل به الوحْيُ لهدايتكَ، والاستجابَةَ لمضمونها، والْعَمَلَ بما فِيها من أوامر ونواهِيَ ووصايا ونصائح. ومن طغيانِك في فِكْرِكَ اسْتِكْبارُكَ بما لَدَيْكَ من أفكارٍ ومفهوماتٍ ورثتها مِمَّنْ سلَف، أَوْ أَوْصَلَتْكَ إِلَيْها تجاربُك، أو انْتَهَىٰ إليها ذكاؤك.

ولو أزحْتَ الغشاوَةَ عن نَفْسِك، وتبصَّرْتَ بأصْلِ نَشْأَتِكَ، ونَفَّسْتَ ما في نَفْسِك من كبر نَفَخَتْهُ فِيها الأوهام، لخَشَعْتَ لِرَبّك، وعُدْتَ إِلَىٰ رُشْدِكَ، ودَخَلْتَ ضِمْنَ تَلامِيذِ مَدْرَسةِ الرَّبِّ جلَّ جلالُه، تتدَبَّرُ ما ينزل به الوحْيُ، فَتَقْرأ كلامَ اللَّهِ، وتتدَبَّرُ آياته، وتتعَلَّم الكتابَةَ، وتُقَيِّدُ بالْقَلمِ ما يَهْدِيكَ إليه تَدَبُّرُكَ الواعي، ثُمَّ تَعْمَلُ بوصايا رَبِّك، وتُطِيعُ أوامِرَه وَنواهِيَهُ، لِأَنَّك تُدْرِكُ حينئِذٍ أَنَّ كُلَّ ما بين يَدَيْكَ من أسْبابٍ هي من عطائه، وضَعَها بَيْنَ يَدَيْكَ ليبلُوَكَ بها، وتُدْرِكُ أنَّه متَىٰ شاء سلَبَها، وتُدْرِكُ أَنَّ مَسْؤُوليَّتَك فِي هٰذِهِ الحياةِ إيمانٌ به، وإسلامٌ لَهُ، وسَمْعٌ وطاعَةٌ، فهو رَبُّ كُلِّ شيء، والمهيْمِنُ علىٰ كُلّ شيءٍ.

إِنَّكَ إذا عرفتَ أَنَّكَ مخلُوقٌ لخالقٍ عظيم، وأَنَّ هذا الخالق هو رَبُّكَ دَوَاماً، الَّذِي يمنَحُكَ كُلَّ أَسْباب نَمائِك وبقائِك، ويشمَلُك بعطاءات رُبوبيّته، فلا بُدَّ أَنْ يخطُرَ فِي بالِكَ سؤالٌ مُلِحٌّ فِي نَفْسِكَ تبْحَثُ لَهُ عَنْ جواب.

هذا السؤال هو: لماذا خلقني رَبِّي مُزَوَّداً بصفاتي التي فيها جهازٌ

العِلْم، وإدْرَاكِ حقائق الأشياء، وفيها أجهزة الأهواء والشهواتِ والغرائِز، وفيها نوازع للخير، ونوازِعُ للشرّ، وفيها الإرَادةُ الحرّةُ الّتي باستطاعتها أن تُريد فِعْلَ الخير وفِعْلَ الشرّ، وتَمْلِكُ تَنْفِيذَ كُلٍّ منهما، بما سَخَّرَ اللَّهُ لَكَ في ذَاتِكَ، وبما سخَّرَ لَكَ ولِأَمْثَالِكَ في الكونِ. لماذا؟

هل خلقني عبثاً؟

هل خلقني ومكّنَنِي من فِعْلِ الظُّلْم والعدوانِ وجُحُودِ الْحَقِّ ونحو ذٰلِكَ، على خلافِ مَخْلُوقاتِه المجبورَةِ عَلَىٰ أَعْمَالِهَا وتَصَرُّفاتِها، دون أَنْ يكُونَ فِي خِطَّتِهِ محاسَبَتِي ومُجَازَاتي، ووضْعِي في هذه الحياة الَّتِي أَنَا فيها موْضِعَ المسؤوليَّة؟

إنَّكَ لاَ بُدَّ أَنْ تَقُولَ في نَفْسِك: إنَّ مَنْ خلقني بحِكْمَةٍ وإتْقَانٍ، وخَلَق كُلَّ شيءٍ وأتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ، لا يُمْكِنُ إلاَّ أنْ يكونَ قَدْ خَلَقَنِي بصِفَاتِي هٰذِه ليمْتَحِنَني، ثُمَّ ليُحَاسِبَنِي على عَمَلِي، ثُمَّ لِيُجَازِيَنِي.

هذا ما يَهْدِي إليه العقل السَّوِيُّ السّليم، ويَرْتَاحُ إلَيْهِ الوجدان.

إذَنْ: فَمِنْ أجلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الوحْيَ بكلامِهِ، ليهدِيني إلى المنهج الذي يجبُ عَلَيَّ أن أَسْلُكَهُ فِي رِحْلَةِ امتحاني.

أمّا مُحَاسَبَتِي وَمُجَازَاتي فلا بُدَّ لهما من حياةٍ أُخْرَىٰ بَعْدَ رِحْلَةِ هٰذِهِ الحياة، ألا يُنَبِّهُنِي إلَىٰ هذا قَوْلُ اللَّهِ عَزّ وجلّ: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾.



(٩)
التدبُّر التحليلي للدرس الثالث

الآيات من (٩ ـ ١٩)

قال اللَّهُ عزّ وجل:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾.

تمهيد:

بعد أن استكمل الدرسُ الثاني عناصره يَرِد في ذِهْنِ المُتَلَقِّي سؤال حول أصناف الناس تجاه الرّسالة الرّبّانيّة، الّتِي دَلَّ الدرسُ الثاني على حاجة النّاسِ إليها.

وكانت الإجابَةُ التّلْقَائِيَّةُ الّتي يختارُها أَحْسَنُ الْأُدَبَاءِ وأفضلُ المفكِّرين أن يقول: الناسُ تجاه الرِّسالَةِ الرّبّانِيَّةِ الْمُنَزَّلَةِ أصنافٌ أربعةٌ:

الصنف الأَوَّل: مُسْتجيب بنفسِه مُتَّبعٌ، ويحْمِلُ هَمَّ الدَّعْوَةِ إلى هذه الرّسالة، وهداية الناسِ إلى الاستجابة لها واتّباعها.

الصنف الثاني: مُسْتجيبٌ بنفسه متّبع، ولكنَّهُ غير مُهْتَمٍّ بالدّعوة إليها، وهداية الناس إلى الاستجابة لها واتّباعها، ولا يقوم بهذه الوظيفة الشريفة.

الصنف الثالث: مكَذِّبٌ بهذه الرسالة ومكذّبٌ للرسول المبلّغ لها، ومتولٍّ مُدْبرٌ عنها رافضٌ لاتّباعِ ما جاء فيها، لكنَّهُ لاَ يحاربُها ولاَ يُقَاوِمُها، ولا يَدْعو الناس إلى عدم الاستجابة لها.

الصنف الرابع: مكذّبٌ يُعْلِنُ تولّيَهُ وإدْبارَهُ ورفضه اتّباع ما جاء فيها، ويُعْلِنُ مُحَاربتَهُ لها، وينْهَىٰ الناس عَنِ اتباعها والْعَمَلِ بما جاء فيها، وقد يؤدّي به هذا الموقف إلى اضطهاد دُعاتِها والمؤمنين بها، وهذا أخسُّ الأقسام وشرُّهم.

ولكِنَّ النَّصّ في هذا الدرسِ الّذِي ختم اللّه به السورة لم يأْتِ بهذا

الأسلوب الساذج، بَلْ بدَأ بالتعجيب مِنْ واقع حال شَرّ الأَقْسَامِ وأخَسّهِمْ، بأُسْلُوبِ طَرْح الاستفهَام التَّعْجِيبيّ الموجَّهِ لكُلّ مَنْ يَصْلُحُ لخطابٍ بكلام ذي مضمونٍ فكريّ، فقال الله عزَّ وَجل:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾.

أي: أرأيْتَ أيُّها الرّائي المتفكر هذا الصنف من النّاس، ذا السُّلُوكِ الّذِي يَتعَجَّبُ منهُ العقلاء المتفكّرونَ أولوا الألباب، إذا كنتَ لم تَرَهُ لِيُثِيرَ لدَيْكَ العجبَ من أمْرِه، فانْظُرْ إليه لتَرَىٰ مِنْ أَمْرِهِ عجباً يَدْفَعُكَ إلى الاستنكار الشديد، إنَّهُ يُكذِّبُ بالحقّ ويرفضُ دعوةَ رسالَةِ الله، ثم يَنْهَىٰ عبداً من عباد اللّهِ لِأَنَّهُ قامَ بَيْنَ يَدَيْ رَبّه يُصَلّي له، ولا يَتعَرَّضُ لأحَدٍ مِنَ الناسِ بأذىً.

أليس حَالُ هذا النّاهي أمراً يُثِيرُ الْعَجبَ والاستغرابَ والاستنكارَ؟!

ما ورد في سبب النزول:

(١) أخرج ابْنُ أبي شيبة، وأحمد والترمذيُّ، وابْنُ جريرٍ، وابْنُ المنذر، والطبراني وصحّحَهُ، وابْنُ مَرْدَويه، وأبو نُعَيم، والبيهقي عن ابْنِ عباسٍ قال:

«كانَ النبيُّ ﷺ يُصَلّي، فجاء أبو جَهْلٍ فقَالَ: أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَـٰذَا؟ إنَّكَ لتَعْلَمُ أنَّ ما بِهَا رَجُلٌ أكْثَرُ نَادِياً مِنّي، فأنزل اللّه: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾.

فجاء النبيُّ ﷺ يُصلّي، فقيل (أي: لأبي جهل): ما يَمْنَعُكَ؟ فقالَ: اسْوَدَّ ما بَيْني وبَيْنَهُ.

قال ابْنُ عَبّاسٍ: «واللّهِ لو تحرَّكَ لَأَخَذَتْهُ الْمَلائِكَةُ والنَّاسُ ينْظُرُونَ إلَيْه».

(٢) وعند البخاريّ وغيره عن ابن عبّاسٍ قالَ: قَال أبو جَهْلٍ: لَئِنْ رَأَيْتُ محمّداً يُصَلّي عِنْدَ الكَعْبَةِ لَأَطَأَنَّ عُنُقَهُ، فَبَلَغَ النبيَّ ﷺ، فقال:

«لَوْ فَعَلَ لأَخَذَتْهُ الْمَلائِكَةُ عِياناً».

(٣) وأخرج الإمام أحمد ومسلم والنّسائيّ وغيرهم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هَلْ يُعَفِّرُ محمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قالوا: نعم. قال: واللَّاتِ والعزَّىٰ لَئِنْ رَأَيْتُهُ كذٰلِكَ لأَطَأَنَّ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ، وَلأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، فأتَىٰ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وهُوَ يُصَلِّي لِيَطَأَ على رقَبَتِهِ. قَالَ: فما فَجَأَهُمْ مِنْهُ إلاَّ وَهُوَ ينكُصُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ، ويتَّقِي بِيَدِهِ، فقيلَ لَهُ: ما لَكَ؟. فقال: إِنَّ بَيْنِي وَبينَهُ خَنْدَقاً من نارٍ، وهَوْلاً، وأَجْنِحَة، فقال رسولُ الله ﷺ:

«لَوْ دَنَا مِنِّي لاخْتَطَفَتْهُ الْمَلائِكَةُ عُضواً عُضواً» وأنْزَلَ اللَّهُ عَزّ وجل:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ إلى آخر السورة.

وما ورَدَ من أسباب النزول لا يُخرِجُ النَّصَّ عَنْ كونِهِ ذَا دَلالَةٍ عامَّة، فالْعِبْرَةُ بِعُمُومِ النَّصّ لاَ بخُصُوصِ السَّبب، كما هُو مقرّرٌ عِنْدَ عُلَمَاءِ أُصُولِ الْفِقْهِ.

إنَّ هٰذا الصنف الطَّاغِيَ الجبّارَ، الذي يتدخَّل في عقائد الناس وعباداتهم، والذي يمْنَعُ المصلّين عن صلاتِهِمْ بحَسَب معتقداتِهِمْ فيضْطَهِدُهُمْ ويُنْزِلَ بِهِمْ عذاباً مِنْ أَجْلِ معتقداتهم وعباداتهم، صِنْفٌ موجُودٌ في كُلِّ عَصْرٍ، وبَلَدٍ ومِصْرٍ، وعُمُومُ النَّصّ يَشْمَلُهُمْ، والوعِيدُ الَّذِي جاء في السُّورَة يَعُمُّهُمْ جميعاً، ولا يخُصُّ أبا جَهْلٍ وَلاَ نُظَرَاءَه من الطُّغَاةِ الَّذِينَ كانُوا فِي عصر الرسول ﷺ، ولكن قد يؤجّل اللَّهُ العقابَ إلى أجَلٍ ما في الحياة الدنيا، أو إلى يوم الدّين.

ما أَبْدَعَ عَرْضَ هذا الصِّنف الذي هو شرُّ النَّاسِ بِعِبَارَة:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾.

هذه العبارة تَتَضَمَّنُ أنَّ حُرِّيَّةَ الاعتقادِ والعبادة لدى جميع العقلاء من الناس، ينبغي أنْ تكُونَ مصونَةً في المجتمع البشري، ولا يصِحُّ أَنْ تكُونَ عُرْضَةً لِلإِكْرَاهِ فِعْلاً وَلاَ تَرْكاً.

وبعد هذا ثَنَّىٰ النَّصُّ بالتعجيب من حالِ هَـٰذا الطَّاغِي الجبار حينما يَنْهَىٰ ويضطهدُ صِنْفَيْنِ من الناس:

- صنفَ المهتدي بنفسه الذي لا يَحْمِلُ رِسالَةَ الدَّعْوَةِ إلى الْهُدَىٰ.
- وصنفَ المهتدى الداعي إلى الْهُدىٰ.

فقال اللَّهُ عَزَّ وجلَّ:

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾.

أي: أَرأَيْتَ أيُّها الرَّائِي الْمُتَفَكِّرُ هٰذَا الصنفَ الطَّاغِيَ الجبَّارَ ذَا السُّلوكِ الّذِي يَتَعَجَّبُ منه العقلاءُ أولوا الألباب، حِينَما يَنْهَى ويضطهدُ المهتَدِي بنفسه الذي يؤمِنُ بالْحَقِّ ويَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ بَصِيرَة، ويَنْهَىٰ وَيضطّهد المهتدي بنَفْسِهِ ويَدْعُو الناسَ إلى سُلُوكِ سبيلِ الْهُدَىٰ، دُونَ إِكْرَاهٍ وَلاَ إلْزَام، ويقولُ لهم اتَّقُوا عَذَابَ اللَّهِ وعقابَهُ بالإيمانِ بالْحَقِّ الّذِي جاءَ في رِسَالَةِ اللَّهِ لِعِبادِهِ، وبِطَاعَتِهِ في أوامرِه ونواهيه ووصاياه.

إنَّ مَنْ يتدبَّر هاتَيْنِ الآيتَيْنِ يَسْتَخْرِجُ وُجُودَ صنفين من الناس:

- صِنْفِ المهتدي بنفسه، الذي لا يحمل أعباء هداية غيره.
- وصنفِ المهتدي بنفسه الذي يحمل أعباء هداية غيره إلى ما اهتدىٰ هو إليه.

إنَّ النّصَّ لم يَدُلَّ عليهما دلالةً مُبَاشِرَةً ساذجَةً، بَلْ يَسْتَخْرِجُهُما المتدبِّرُ اسْتِنْبَاطاً منه.

والمعنى: أرَأَيْتَ إنْ كَانَ المنهيُّ عن الصَّلاةِ الّتِي يُصَلّيها، الذي يَتَعَرّضُ لاضطهاد الجبَّارِ الطاغي، علَىٰ الْهُدَىٰ عقيدةً وعبادة، فَهُوَ مُتَمَكِّنٌ من الهدى (وهذا صنف من الناس).

أو كَانَ اضطهادُهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ دَعَا الناسَ إلى الْهُدَى وأمَرَهُمْ بأنْ يتّقوا

عذابَ ربِّهِمْ بالإيمان به والإسلام له والسَّمْع والطاعة، ولاَ يكونُ كذلِكَ إلاَّ إذا كانَ على هُدىً في نفسه (وهذا صنف آخر من الناس).

فما أَبْدَعَ التعريف بهٰذيْنِ القسمين عن طريق هذا الأسلوب البالغ الإيجاز.

وأخيراً جاء بيان القسم الرابع، الضّالّ بنفسه، المكذّب برسالة رَبِّه، دون أَنْ يكون طاغياً باغياً داعياً إلى الكُفْرِ وهَجْرِ سبيلِ الهداية، بقول اللّهِ عزَّ وجلّ:

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾.

أي: أَرَأَيْتَ أَيُّهَا الرَّائِي المتفكِّرُ صنْفاً آخر من النَّاسِ، وهُو صنْفٌ اقْتَصَرَ على أَنْ كذَّبَ بالرِّسَالَةِ الرَّبَّانِيَّةِ وتَولَّىٰ عنها، دون أَنْ يكون مُغْوِياً طاغِياً ناهياً عن الإيمان باللّه والإسلام له، إنَّهُ أيضاً ينبغي أن يَتَعَجَّبَ من أمره أولوا الألباب، لأنه يُعرض نفسه لعقاب الله والشقاء الأبدي.

تَوَلَّىٰ: يأتي بمعنى «نأى» أي: ابْتَعد، ويأتي بمعنى «أدبر». ومن تولَّىٰ عن الاستجابة للدعوة إلى دين الله الحقّ فلا بُدَّ أن يُدْبِر لزوماً.

وبعد استيفاء عرض الأقسام اقتضت الحكمة التربويّةُ التلويح بتحذير المكذّب المتولّي من عقاب اللّهِ وعذابه، بأسلوب استثارة مَعْرِفته بأنَّ اللّهَ يراه، ومَنْ يَعْلَمُ بأَنَّ اللّه ربَّه يراه، وكان ذا بصيرةٍ فلا بُدَّ أن يخاف عقابه، على تكذيبه برسالاَتِهِ، وتولّيه عن رسولِ ربّه، فذو البصيرة يعلَمُ أَنَّ اللّهَ ربّه قديرٌ وحكيم، والحكيم لا بُدّ أن يعاقب الجاحد الكافر المكذّب، ولا بُدَّ أن يثيب المؤمن المصدِّق السميع المطيع لأوامره ونواهيه، فقال الله عزّ وجلّ في هٰذَا التلْوِيح:

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾؟!

استفهام فيه معنى التعجيب مِنْ أمْرِ المكذِّبِ المتولّي، وهو يعْلَمُ أنّ اللّه رَبَّهُ يراه، والرَّبُّ الذي يَرَىٰ عبْدَهُ يُكذِّبُ رسُولَهُ ويُكذِّب بما جاء به الرَّسُول عن ربّه لا بُدَّ أن يُجازِيَهُ على تكذيبه كما جاء في بياناته.

واقتصر البيان القرآني في أوائل التنزيل على التلويح بعقاب المكذب المتولّي دون تفصيل، التزاماً بحكْمَةِ التدرّج، والأخذ بالترفُّق في البدايات، إذْ لم تَسْتَقِرَّ بَعْدُ في أذهان المتلَقّين مفاهيم الدّين، ولا مفاهيم الجزاء بالعدل أو بالفضل، ولا نزلت التفصيلات المتعلّقة باليوم الآخر.

ولكنّ اشتدّ النصُّ في توجيه التحذير والتهديد والزَّجْرِ للطاغي الباغي الذي ينْهَىٰ عبداً إذا صلَّىٰ، فقال الله عزّ وجلّ عقب التلويح الذي سبق:

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨)﴾.

﴿كَلَّا﴾: أداة زجْرٍ ورَدْعٍ موجّهةٌ للطاغي الباغي الْمُضِلِّ الَّذِي ينْهَىٰ عبادَ الله عن الإيمان به والصلاة له، ويُحَاول إيذاءهم ومَنْعَهُمْ عن عبادَةِ ربّهم بالْإِكراه واستخدام القوّة المادّيَّةِ أو المعنويّة.

﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾: في هذِهِ الجملةِ وعيدٌ وتهديدٌ لهذا الصنف من النّاس الطاغي الباغي المضلّ، إنْ لَمْ يَنْتَهِ عن تَعَدّيه على المؤمنين الذين يعبدون ربَّهُمْ، لمَنْعِهم من عبادته.

﴿لَنَسْفَعًا﴾: اللام واقعة في جوابِ قسم مَحْذوف، واللاّمُ في ﴿لَئِن﴾ موطئَةٌ للقَسَم، و«نَسْفَعاً» فعْلٌ مضارعٌ مُؤَكَّدٌ بنون التوكيد الخفيفة.

يقالُ لغةً: سَفَعَهُ على وجْهِهِ إذَا لطَمَهُ براحَتِهِ، **وسَفَعَهُ** بالعصا إذا ضَرَبَهُ بِها. وسفَعَهُ بنَاصِيَتِه وَرِجْلِهِ إِذَا قَبَضَ عَلَيْهِما قَبْضاً شَدِيداً بعُنُفٍ، وجذَبَهُ مِنْهُما وأَخَذَهُ.

ويُمْكِنُ أَنْ تَجْتَمِع هٰذِهِ المعاني هُنَا، فَهٰذَا الطاغي الباغي لَئِنْ لم يَنْتَهِ عَنْ أعمالِ العدوان الّتي يقومُ بها لَنُجَازِيَنَّهُ بالضَّرْبِ عَلَىٰ نَاصِيَتِهِ، والقبضِ عليها، وأَخْذِهِ مِنْهَا، وجذبِهِ إلى حَيْثُ يَنْزِلُ بِهِ العذاب.

النَاصيَةُ: مُقَدَّمُ الرَّأْسِ، وشَعَرُ مقدَّم الرأسِ إذا طال، وتُجْمَعُ على نَوَاصٍ وناصِيات.

وجاء في سورة (الرَّحْمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول) بَيَانُ أَنَّ المجرمين يَوْمَ القيامَة يؤْخَذُونَ إلى دار العذاب بنواصِيهِمْ وأقدامهم لِقَذْفِهِمْ فيها، ولا يخْفَىٰ ما في هذا من إهانةٍ وإذلالٍ لهم، فقالَ عزّ وجلّ فِيها:

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾: جَاءَ وصْفُ ناصِيَةِ هذا الطاغي الباغي الْمُجْرِم بأَنَّها كاذِبَةٌ خَاطِئَةٌ، والمرادُ أَنَّهُ هو فِي هُوِّيَتِهِ الدَّاخِلِيَّة كاذِبٌ خاطِئٌ، وهذا مجاز مرسَلٌ، وهو من إطلاقِ بعض الظاهر وإرَادَةِ الباطِنِ، ولَمَّا كانَتِ الناصيَةُ الّتِي هِيَ مُقَدَّمُ الرأسِ مَكَانَ التكْرِيم الأعْلَىٰ من الإنسان، وكانَ في باطِنِ الرأسِ من بَعْدِها جهازُ الفهم والتفكُّر، ومَنَابِعُ الإِرادات ومَنَاطُ المسؤوليّات، نَاسَبَ أَنْ تُطْلَقَ الناصِيَةُ وَيُرَادَ مَا يَحْتَوِي الرَّأْسُ بَعْدَها، الْمُشْتَمِلُ على الجهاز المركزيّ للوعْيِ والإرادة.

الخاطِئ: المذنب العاصي.

ولمّا كان هذا النّصّ قد نزَلَ بمناسبة قول أبي جهل للنبيِّ محمّدٍ ﷺ وهو يُصَلّي: أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَـٰذا؟ إِنَّكَ لتَعْلَمُ أَنَّه ما بِهَا رَجُلٌ أَكْثَرُ نَادِياً مِنّي.

كَانَ مِنَ المناسِبِ أَنْ يُوجَّهَ لَهُ النَّصُّ التَّحَدِّي بأَنْ يَدْعُو كُلَّ أَهْلِ نَادِيه، أي: بأَنْ يَدْعُو كُلَّ أَنْصارِهِ مُسْتَظْهِراً بِهِمْ عَلَىٰ رسُولِ اللّهِ ﷺ، فإنَّ اللّهَ سَيَمْنَعُ رَسُولَهُ ويحفَظُهُ مِنْهُمْ، إذْ سَيُرْسِلُ الزَّبانِيَةَ، وهُمْ مَلاَئِكَةُ إِهْلاَكِ

وتَعْذيب، فيُنْزِلُونَ بِهِ وبأنْصَارِهِ الَّذِينَ يَدْعُوهم تَعْذِيباً شدِيداً وَإِهْلاكاً، ويمنَعُونَ رَسُولَ اللَّهِ منهم، فقال اللَّهُ عزّ وجَلّ:

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾.

ويظهر أَنَّ أبا جهل ذُعِرَ مِنْ هَـٰذَا التَّحدِّي والْوَعِيد الرَّبّاني فَلَمْ يَسْتَنْصِرْ بأَحَدٍ من أهل نَادِيهِ على الرسول محمّد ﷺ، وأعْرَضَ عَنْ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ في عباداته، ولا سيما بَعْدَ أَنْ ظهر له ما خَلَعَ قلبه حين حاول أَنْ يَقْتَرِبَ من الرسول وهو ساجدٌ ليَطَأَ على عُنُقِهِ ويعفِّرَ وجْهَهُ بالتراب.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾: أَمْرُ تَحدٍّ بأُسْلُوبِ خِطَابِ الغائب، احتقاراً له وازْدِرَاءً به.

النادي: يُطْلَقُ على المكان الذي يَجْتَمِعُ فيه القوم، ويُطْلَقُ على أَهْلِ المكان، فيقَعُ على المجلِسِ وأهْلِهِ، ويُطْلَقُ على أهل الرجُلِ وعَشِيرَتِه، وهذا المعنىٰ الأخير هو الملائم لقول أبي جهل للرسول ﷺ: إنَّكَ لتَعْلَمُ أَنَّهُ مَا بِها رَجُلٌ أَكْثَرُ نادِياً منِّي، أي: ما بها أَكْثَرُ أَهْلاً وعَشِيرَةً وأنصاراً مِنِّي.

وإذا كان المقصود ما بها رجُلٌ أكثر أهل نادٍ مِنِّي، على معنى إطلاق لفظ النادي على المكان، فهو من إطلاق لفظ المكان على أَهْلِهِ ومُرْتَاديه، على طريقة المجاز المرسل بإطلاق المحل وإرادة الحالّ فيه.

الزَّبانِيَة: قال قتادة: الزّبانِيَةُ عِنْدَ العَرَبِ الشُّرَطُ. وجاء في كتب اللّغة أَنَّ الزَّبَانِيَةَ هُمُ الَّذِين يَزْبِنُون النَّاسَ، أَيْ يَدْفَعُونَهُمْ.

وسمَّىٰ اللَّهُ بعْضَ ملائِكَتِهِ زَبانِيَةً، لِأَنَّهُمْ يَدفَعُونَ أَهْلَ الكُفرِ والتكذِيب والعنادِ عن أولياءِ اللَّهِ، ويدفَعُونَهُمْ إلى النار والعذاب فِيها يوْمَ الدِّين.

وأخيراً أعاد النّصّ زَجْرَ هذا الصنف الطاغي الباغي الضّالّ الْمُضِلّ، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ: ﴿كَلَّا﴾.

وبَعْدَهُ الْتَفَتَ الْخِطَابُ إِلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ فَقَالَ لَهُ: ﴿لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾.

وهذا الخطابُ مُوَجَّهٌ لكلِّ مُؤْمِنٍ يَعْبُدُ ربَّه، ويَجِدُ مَنْ يَنْهَاهُ عن إيمانه وعبادته، ويَضْطّهِدُهُ من أجل ذلِكَ.

أي: لا تُطِعْ مَنْ ينْهَاكَ عن إيمانِكَ بالحقّ، وصَلاتِكَ لِرَبِّك، ويَضْطّهدُكَ لِتُطِيعَهُ، واسْجُدْ لِلَّهِ واقْتَرِبْ بِسُجُودِكَ منه.

وقد دلَّ هذا الْخِتَامُ على أنّ السُّجُودَ للَّهِ عزَّ وجَلَّ يُمَثِّلُ فِي حَرَكَةِ الْجِسْمِ غايةَ الخضوع للَّهِ، الَّذِي يُعَبِّرُ عَنْ غاية الخضوع القلْبِي والنفسيِّ له جلّ جلالُهُ، وكلما زاد المؤمِنُ خُضُوعاً لرَبِّهِ وذُلاً وتَضَرُّعاً زَادَ اقْتِرَاباً إِلَيْهِ، حَتَّىٰ يَكُونَ لديه مِنَ المحبوبين.



(١٠)
نظرة إجمالية عامة

جواباً على سؤال مقدّر غير مذكورٍ في النّصّ جاء في الدرس الثالث من دروس السورة بيان أنّ الناس تُجاه الرّسالة الرّبانية أربعة أصناف:

فصنفان منهما استجابا لدعوة الرّبّ الخالق، أمّا أحدهما فاهتدى بنفسه، وقبل نداء الدعوة، لكنّهُ لم يكن داعياً هادياً، وأمّا الآخر فاهتدى بنفسه وحمل مهمّة دعوة غيره إلى أن يسْتجيب لنداء الدَّعْوَة الرّبّانية، فمشَىٰ بين الناس يأمُرُ بالحقِّ ويأمر بتقوىٰ اللّه.

وصنفان منهما لم يستجيبا لدعوة الرّبّ الخالق، وكانَ داؤُهما داءَ الطغيانِ النّفْسِيّ، الّذي ولَّدَهما في نُفُوسهما الشُّعُورُ بالاسْتغناء بما لديهما من أسبابٍ، عن خالقها ومسبِّبها، والذي يُمِدُّ بها، وهو القادر على سلبها متَىٰ شاء.

أَمّا أحدهما فضَلَّ في نفسه، لكنَّهُ لم يجعل من نفسه مُضِلاً، ينْهَىٰ عن عبادة الله والإيمان به.

وأمّا الآخَرُ فضَلَّ في نفسه، وحَمَلَ مُهمَّةَ إضلالِ النَّاسِ ومَنْعِهم عن الإيمانِ باللَّهِ وعبادَته، فإذا رأى عبداً من عباد اللَّهِ يُصَلِّي لِرَبّه نَهَاهُ عَنِ الصَّلاة، ودعاهُ إلى الكُفْر، فهو بَيْنَ الناس شيْطانُ تَضْلِيلٍ وإغْواءٍ، وإمَامٌ مِنْ أئمَّةِ التَّضْلِيلِ، والفتنة عن دين الله، أو داعٍ من دُعاةِ الضَّلالِ في الأرض.

هؤلاء الأصناف الأربعة قد جاء بيانهم في الدرس الثالث من دروس سورة العلق.

لقد كان الدرس الأوّلُ دعْوَة الْمُدْرِكِ المتفكِّر المسؤول عن تصرُّفاتِهِ في الحياة إلى قراءة وتدبُّرِ ما ينزل به الوحي من عند الرَّبّ الخالق، وإلى تثبيت ما يهديه إليه التَّلَقِّي والتدبُّر بالقلم، الذي هو من كبرياتِ وسائل التعلُّم وتقييد العلم.

وجاء الدرس الثاني جواباً على سؤال مطويٍّ مقدّر، فأبانَ العلّة النفسية لدى الذين يرفضون دعوة الرّبّ الخالق، وهي الطغيان بسبب مشاعر الاستغناء.

وجاء الدّرْسُ الثالث أيضاً جواباً على سؤال مطْوِيٍّ مقدّرٍ أيضاً، فأبان أصناف الناس الأربعة تجاه الدعوة إلى الاستجابة لدين الله الذي ينزل به الوحي من عند الرّب الخالق جلّ جلالُه.

فظهر لنا أنَّ الدعوة إلى القراءة هي المفتاحُ الأوّل الذي يُفْتَح به باب العلم، وأَنّ لفْتَ النَّظَر إلى رُبوبيَّةِ الرّبّ الخالق هو المفتاحُ الأول الذي يُفْتَحُ به بابُ الدّين.

وظهر لنا أَنَّ رفض الدَّعْوَةِ الرَّبانِيَّةِ طُغْيانٌ نَفسِيٌّ يُوَلِّدُهُ الشُّعُور بالاستغناءِ عمَّا تَشْتَمِلُ عليه هذه الدعوة الرَّبَّانيّة، أمّا من كان لديه الشُّعُورُ بالحاجَةِ لما تشتمل عليه فإنّه يسْتَجيبُ ولا يَرْفُض.

وموعظةُ الرافِض تكون ببيان مسؤوليّتِه في هٰذهِ الحياة، وبأنّه سوْفَ يُحَاسَبُ ويُجَازىٰ على ما قدّم وأخّر يَوْم الدِّين.

وظهَر أنّ الذينَ يسْتجيبون صنفان: مُهْتَدٍ بنفسه، ومهتدٍ بنفسه داعٍ إلى الهداية.

وأنَّ الذين يرفضون صنفان أيضاً: ضالٌّ بنفسه، وضالٌّ داعٍ إلى الضلالة.

وقد جاء بيان الأصناف الأَرْبَعَةِ في الدرس الثالث بطريقة من البيان عجيبة، فيها دعوةٌ إلى رُؤيَةِ الواقع وإحصائه وسَبْرِهِ، فقال الله عزّ وجل:

١ ـ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾.

٢ ـ ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

٣ ـ ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾.

٤ ـ ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾.

فالصنف الضالُّ المضِلّ قَدْ جاء التعبير عنه بقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾ بصيغَةِ التعجيب من قَبِيح أَمْرِهِ، وظاهِرٌ أَنَّ الذي ينْهَىٰ المصلّي عن عبادة رَبِّه أَسْوأُ أفراد هَـٰذَا الصنف السافل، لأنَّ صلاة المؤمن حين يُصَلِّي لربِّه لاَ تَضُرُّ الكافِرَ الجاحدَ شيئاً، فما بالُهُ يتَدَخَّلُ في حُرِّيَّتِهِ الشخصيَّةِ، فينْهَاهُ عن الصلاة، ويُحَاوِلُ إكراهَهُ على تركِهَا، إِنَّ هَـٰذَا لَهُو أَشْنَعُ وأَظْلَمُ صُوَرِ التضليل والإغواء.

والصنف الذي اهتدى بنفسه، دون أن يَحْمِل مُهِمَّةَ هِدايَةِ غيره، هو الّذِي يكونُ في العادَةِ مُعَرَّضاً لتضليل صِنْفِ الضَّالِّ الْمُضِلّ، وقد جاء بيانُه في النَّصّ عَقِبَه، وجاء التعبير عنه بقول الله عزّ وجل: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ أي: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ مُتَمَكّناً من الْهُدَىٰ، وهذا التمكُّن دلَّ عليه حرف الجرّ «على».

والصنف الّذي اهتدىٰ بنفسه، وقام يدعو الناس إلى الْهُدَىٰ ويَأْمُرُهُمْ بتَقْوَى اللَّهِ والْحَذَرِ من عقابِه يومَ الدِّين، قد جَاءَ التَّعْبِيرُ عَنْهُ بقول الله عزَّ وجلّ: ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢﴾ أيْ: أو كان عَلَىٰ الْهُدَىٰ وَأَمَرَ بالتَّقْوىٰ، فهو متمكّنٌ من الْهُدَىٰ وحامل مسؤولية الهداية.

والصنف الذي ضَلَّ بنفسه دُونَ أَنْ يَحْمِلَ مُهِمَّةَ إِضْلَالِ المهتدين، قد جاء التعبيرُ عَنْهُ بقول الله عزَّ وجلّ: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣﴾ أي: كذَّبَ النبيَّ وكذَّبَ بما نزَلَ بِهِ الوحْيُ، وَتَوَلَّىٰ مُدْبراً منصرفاً لِأُمُورِهِ الْخَاصَّةِ مِنْ أُمُورِ دُنْيَاه.

وهَكَذَا استوفىٰ البيان البديعُ أصْنَاف الناس أجمعين تُجاه دَعْوَةِ الْحَقِّ والْهُدَىٰ الَّتِي جاءتْ بها الرِّسَالةُ الرَّبَّانيّة.

ولا بُدَّ أَنْ نُدْرِكَ أَنَّ كُلَّ صِنْفٍ من هؤلاء الأصنافِ الْأَرْبَعَةِ يقَعُ في درجاتٍ أو دركاتٍ متفاوتات صاعداتٍ أو نازلات.

فالمهتدون في أنفسهم على درجات، فمنهم السابقون في الخيرات، ومنهم المقتصِدُون الّذين خلَطُوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، ومنهم الظالِمُونَ لأنفسهم بالمعاصي الَّتي أَسْرَفوا في ارتكابها.

والمهتدون الداعون إلى الهداية الآمرون بالتقوىٰ على درجاتٍ أيضاً، هدايةً في أنفُسِهم، وقياماً بِرسالَةِ الدَّعْوَةِ إلى الله.

والضَّالُّونَ المضلُّونَ في دَرَكات، فبعضُهُمْ أَسْوَأُ مِنْ بَعْضٍ، وأخَسُّ وأحطُّ في الدّرَكات، وأقبحُهم وأشْنَعُهم أَئِمَّةُ الضَّلَالِ في الْأَرْضِ، ولا سيما إذا كانوا يملكونَ قُوَّةً وسُلْطَاناً، ومنازِلُهُمْ يوم الدّينِ في الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ من النار.

والضَّالُّون في أنفسهم دون أن يَحْمِلُوا مُهِمَّاتِ إِضْلَالِ غيرهم، هُمْ في دَرَكَاتٍ أيضاً، ودركاتُهُمْ تَنْحطُّ بِحَسَبِ شِدَّةِ ضَلَالِهِمْ، ومُمَارَسَاتِهِمْ للشُّرُور،

وَمُلاَحِظُ مَفْهُومَاتِهِمْ وأنْوَاعَ سُلُوكِهِمْ فِي الحَياةِ، يُدْرِكُ أَنَّ بعضَهُمْ أَضَلُّ وَأَظْلَمَ مِنْ بَعْضٍ.

وبعد بيان الأصنافِ الأَرْبَعَةِ تَوَجَّهَ النَّصُّ لإنْذَارِ الضَّالِّينَ إلماحاً وَتَلْوِيحاً، إذْ ما زَالَ البيانُ القرآنِيُّ فِي أوائِلِ التَّنْزِيلِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى بأُسلوب الخطاب الإفرادي: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾.

وبعده تَوَجَّهَ النَّصُّ لِتَهْدِيدِ الْمُضِلِّينَ الطُّغَاةِ بصَرِيح العبارة، فقال اللَّهُ تَعَالَىٰ بأسلوبِ الخطاب الإفرادي: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾

وأخيراً كرَّرَ الْخِطَابُ زَجْر المضلّين الطُّغَاةِ وتوجَّهَ لتثبيت المهتدين بأسلوب الخطاب الإفرادي، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾.

أي: اقترب من ربِّكَ بسُجُودِكَ في صلاتك له، فإنَّ أَقْرَبَ ما يكون العبْدُ مِن ربّه وهو ساجد.



سُورَةُ المُدَّثِّر

٧٤ مُصْحَف ٢ نزول



(١)
بحث حول نزولها:

بعد الدراسة التحليليّة ترجّح لديّ أنّ صدر سورة (المدثر) قد نزل بعد سورة (العلق) فهي باعتبار صدرها ثاني سورة مكيّة، وهي على وجه العموم من أوائل التنزيل المكيّ باتفاق، وجاءَ في الصحيح تأكيدُ أنَّ أوّلَ ما نزل على الرسُولِ ﷺ من القرآن بعد أنْ فتر الوحي قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾.

فهي بعد الآيات الخمس الأولى من سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ حتماً، وقد يكون ما جاء في أثناء سورة (المدّثر) قَدْ نزَلَ متأخّراً ضمْنَ أوائل العهد المكي بعد أن نزل من القرآن ما استثار دهشة الوليد بن المغيرة حتّىٰ قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾.



(٢)

نص سورة المدثر

وما فيها من قراءات من الفرش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟

٥ - [والرُّجْزَ] بضم الراء قراءة حفص وأبي جعفر ويعقوب.
[والرِّجْزَ] بكسرِ الراء قراءة باقي القراء العشرة.

٣٠ - [تِسْعَةَ عَشَرَ] قراءة جمهور القراء العشَرَة.
[تسْعَةَ عْشَرَ] قراءة أبي جعفر، بإسكان عين عشر.

لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةِۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْأَخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

٣٣ ـ [إِذَا أَدْبَرَ] قراءة نافع، وحفص، وحمزة، ويعقوب، وخلف.
[إِذَا دَبَرَ] لباقي القراء العشرة.

٥٠ ـ [مُسْتَنفِرَةٌ] لجمهور القراء العشرة.
[مُسْتَنفَرَةٌ] لنافع، وابنِ عامر، وأبي جَعْفر.

٥٦ ـ [وَمَا يَذْكُرُونَ] لجمهور القراء العشرة.
[وَمَا تَذْكُرُونَ] بتاء الخطاب، لنافع فقط.

(٣)
مما جاء في السُّنَّةِ حوْل سُورَة (المدّثّر)

(١) قال البخاريُّ في صحيحه: حدَّثَنا عبْدُ اللَّهِ بْنُ يوسُفَ، حدَّثَنا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيل، قال ابْنُ شِهَابٍ: سَمِعْتُ أَبَا سَلَمَةَ قَال: أَخْبَرَنِي جَابِرُ بْنُ عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْي:

«فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ قَاعِدٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، فَجُئِثْتُ مِنْهُ[١] حتَّىٰ هَوَيْتُ إِلَىٰ الأَرْضِ. فَجِئْتُ أَهْلِي فقُلْتُ: زَمِّلُوني زَمِّلُوني[٢]، فأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾.

ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ»[٣].

ويظهر أنّ بقيَّةَ السُورَةِ نَزَلَ على مَرَاحِلَ في أوائل العهد المكيّ.

(٢) وفي رواية أخرى عند البخاريّ أيضاً عن جابر بن عبد الله ـ

---

(١) فَجُئِثْتُ مِنْهُ: أي: ففزعتُ مِنه، يُقَالُ لُغَةً: جُئِثَ يَجْأَثُ جُؤُوثاً، إذا فَزِعَ فهو مَجْؤُوث.

(٢) أي: غَطُّوني ولُفُّوني بالثيابِ والأَغْطِيَةِ.

(٣) انظر الحديث رقم (٤٩٢٦) من فتح الباري ج(٨).

رضي الله عنهما ـ قال: سمعت النبي ﷺ وهو يحدّث عن فترة الوحي فقال في حديثه:

«فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّمَاءِ فرفَعْتُ رَأسِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَني بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ فَجُئِثْتُ مِنْهُ رُعْباً، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُوني زَمِّلُوني، فَدَثِّرُوني»، فأنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ ـ إلى ـ ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾. [فتح الباري الحديث (٤٩٢٥) ج ٨].

(٤)
موضوع السُّورة ودروسُها

١ ـ تكليفاتٌ للرسُولِ محمّد ﷺ بالْبَيَانِ والإِنْذَارِ بعذاب اللَّهِ يوم الدين للذَّينَ يُكَذِّبُونَ وَلاَ يُؤْمِنُون، وأَمْرٌ لَهُ ببَعْضِ ما يَنبغي له أن يتحلَّىٰ به هو وَكُلُّ من يُؤْمِنُ بِهِ وَيَتَّبعه ويدعو إلى سبيل ربِّه.

٢ ـ ومعالجاتٌ لِلْمكَذِّبين بِرِسَالَتِهِ، في الأَزْمَانِ الَّتِي تَتَابَعَ فِيهَا إِنْزَالُ نُجُومِ السُّورَة، وهٰذهِ المعالجاتُ قد رُوعِيَتْ فيها مَوَاقِفُهُمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْها إِبَّانَ التَّنْزِيل.

وقد اشتمَلتْ هذه السورة عَلَىٰ خَمْسةِ دُرُوس متكاملة متعانقة حول موضوع واحد:

الدرس الأوّل: الآيات من (١ ـ ٧):

بدأَت السورة بتكليفِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يُبَلِّغَ رِسالةَ رَبِّه، وَيُنْذِر الَّذِين يكَذِّبُونَهُ وَيُكذِّبُونَ بِبَلاَغَاتِهِ عَنْ رَبِّهِ، بأَنَّهُمْ إذا أَصَرُّوا عَلَىٰ تكْذِيبهم فَسَيُعَذَّبُون يوم الدّين في دار العذاب النّار عذاباً أَبَدِيًّا خالداً.

وأبان هذا الدّرْس للرَّسُولِ ﷺ بعض التعليمات الأوّليَّةِ الّتي عَلَيْهِ أَنْ يلْتَزِمَ بها، ليكونَ أُسْوَةً حَسَنَةً لِمَنْ يُؤْمنُ بِه ويتَّبِعُه.

الدرس الثاني: الآيات من (٨ ـ ١٠):

تضمَّنَ هذا الدرس بيان لقْطَةٍ تَصْوِيريَّةٍ من لقَطاتِ يَوْمِ القيامة، استدعَىٰ إيرادها ما جاء في الدرس الأوّل من تكليف الرسول ﷺ أنْ يُنْذِر قومه المكذبين بجزاء ربّهم الذي سينالونَهُ يوم الدين.

الدرس الثالث: الآيات من (١١ ـ ٣٧):

تضمّن هذا الدرس معالجةَ أَعْتَىٰ كُبَراءِ المشركين معارضَةً لدعوة الرسول ﷺ، في مراحل نُزول هذه السورة، وهو الوليد بن المغيرة، وتحذيراً من دار العذاب «سقر» مقروناً ببيان ما فيها من عظائم وكبريات مرهباتٍ مخيفاتٍ، تَخْلَعُ قُلوب أُولى الألْبابِ، إذَا تَرَجَّحَ في تَصَوُّرِهِمْ احتمالُ صِدْق نَبأ الوعيدِ الّذي نَطَقَ بِهِ القُرْآنُ، وبلَّغَهُ الرسول عن رَبِّه جلَّ جلالُه، فكيف بهم إذا اسْتَيْقنوه.

الدرس الرابع: **الآيات من (٣٨ ـ ٤٨)**:

تضمَّن هذا الدرسُ بيانَ أَنَّ كلَّ نَفْسٍ سَتَكُونُ رهينَةً مَحْبُوسةً يَوْمَ الدّين، بما كسبَتْ في الحياة الدنيا من جرائم كبريات، باستثناء المؤمنين أصحاب اليمين، الَّذِينَ يأخذونَ صحائفَ أعمالهم بأيمانهم، فهم في جنّاتِ النعيم.

وفي هذا الدّرْس تقديمُ لوحةٍ تُصوِّرُ حواراً يجرِي بين أصحاب الجنَّةِ وَبين أصحاب النَّار، بوسيلَةٍ ما تجعلهم يتخاطَبُونَ وَهُمْ في مواقعهم من دار العذاب أو دار النعيم، فيجيبونهم على أسئلتهم.

وفي الدرس تعقيبٌ بأنّ الكافرينَ أهْلَ النارِ لا يكونُ لَهُمْ أمَلٌ بالخلاَصِ ممّا هُمْ فيه من عَذَابٍ عن طريقِ أَعْمَالِهِمْ وَمَا قَدَّمُوا في الحياة الدُّنيا، ولم يَبْقَ لهم إلاَّ الطَّمَعُ بأنْ يَجِدُوا مَنْ يَشْفَعُ لهم عند رَبّهم، ولكنَّ النّصّ يبيّنُ أَنَّ شفاعَةَ الشافِعينَ لا تَنْفَعُهُمْ، ولو وَجَدُوا مَنْ يَشْفَعُ لَهُم.

وقد دلَّتْ نصوصٌ أخرىٰ علىٰ أنّه لا يشفَعُ أحَدٌ عِنْدَ اللّٰهِ يوم الدّينِ إلاّ بإذنه، فلا أَمَلَ لهم بشفاعةٍ مطلقاً، فَقَدْ كانوا في الحياة الدّنيا كفَرَةً مُكَذِّبينَ.

الدرس الخامس: الآيات من (٤٩ ـ ٥٦):

تضمَّن هذا الدرس معالجةَ الكافرين، بطرح التعجيب مِنْ إعراضهم عن بيانات اللّٰهِ في القرآنِ الّذِي يُنزّله على رسوله، وعن بيانات الرسولِ الّذِي يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ وَيَشْرَحُ ما أنزل عَلَيْه، مع أنَّ دَعْوَةَ الرَّسُولِ لهم لا إكْراهَ فيها ولا قَهْرَ، بَلْ هي مُجَرَّدُ تَذْكِرَةٍ بيانيَّةٍ للإقناع بمضمونها فمن شاء أنْ يُؤمن بها فلْيُؤمِن إذْ هو ممكَّنٌ من أن يؤمن باختياره الحرّ، ومن شاء أن يكفر بها فَلْيَكْفُرْ، إذْ هو مُمَكَّنٌ من أن يكفر باختياره الحرّ، ولكن عليه أن يتحمَّل نَتِيجة اختياره الكُفْرَ عذاباً أليماً خالداً في دار العذاب النار، في طبقة «سقر».

وتضمَّن هذا الدرسُ بيان سببِ إعراض المكذِّبين وَتكْذِيبهم رسولَ رَبّهم، وهو الكِبْرُ في نفوسهم عن اتّباع الرسولِ الذي اصطفاه الله رسولاً ليبلّغ رسالاتِه لعباده، وعَدَمُ خَوْفِهِمْ من عذاب اللّٰهِ يوم الدّين، لأنّهم لا يؤمِنُون بالآخِرَة.

وأخيراً أبان هذا الدرس أَنَّ القرآن لا يتضَمَّن سوقاً بالإجْبَار والإكْراه، وإنَّما يتضَمَّن تَذْكِرَةً فِكْرِيَّةً لمن شاء أَنْ يتذكَّر.

فمن شاء باختياره الحرّ وضَعَهُ في ذاكِرَته واستفاد من بياناته وعِظَاتِه وما فيه من وعْدٍ ووعيد، وترغيبٍ وتَرْهيب.



(٥)
التدبر التحليلي للدرس الأول

الآيات من (١ ـ ٧)

قال اللَّهُ عزَّ وجلّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

تمهيد:

هذه الآيات القِصَار عناوين موضوعاتٍ طِوالٍ تحتاج شرحاً مستفيضاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ نِداءٌ مُوَجَّهٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بَعْدَ أَنْ فَزِعَ من مشاهدةِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ قاعِداً عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ، لمَّا سَمِعَ صَوْتاً من السَّمَاءِ فَرَفَعَ بَصَرَه إلى جِهَتِهِ، فإذا الْمَلَكُ الذي جاءه بحراء، وأمْلَىٰ عليه الآيات الخمس من صدر سورة (العلق).

ومن شِدَّةِ فَزَعِ الرسول ﷺ هَوىٰ إلى الأرْضِ، فنهض وجاء إلى أهله مذعوراً، وَقَالَ: زَمِّلُوني زَمِّلُوني، دَثِّرُوني.

فَدَثَّرُوهُ وَزَمَّلُوه، وقَبعَ جالساً في بيتِهِ يتَرَقَّبُ الأحداثَ الَّتي ستَأْتِيه من قِبَلِ رَبِّه، فجاءَهُ الوحيُ وقال لَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ حتَّىٰ قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

المدَّثِّرُ: أصْلُهَا «المتَدَثِّر» أدْغِمَتِ التّاء بالدّال فصارتا دالاً مُشدّدة.

يُقَال لغة: **تَدَثَّر يتَدَثَّر تَدَثراً**، إذا لَبِسَ الدِّثَار، أَوْ تغطَّىٰ بِه. **الدِّثارُ**: الثوب الذي يكونُ فوقَ الشِّعَارِ، ويُطْلَقُ أيضاً على الغطاء، ويجمع على دُثُر، أمَّا الشِّعَارُ فَهُو الثوب الذي يلي جَسَدَ الإنسان، دونَ ما سواه من الثِّياب.

● ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾: أي: يَا أَيُّها المتَدَثِّر بثيابه، القابع في بَيْتِه، الْمَذْعُور من رُؤْية الْمَلَكِ جبريل على هيئةٍ عظيمةٍ بين السّماء والأرض جالساً عَلَىٰ كُرْسِيٍّ، أَنْتَ مدْعوٌّ للقيام بمهمَّةٍ جليلةٍ خطيرة.

● ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾: أي: دَعِ الجلوسَ والسُّكُونَ قابعاً فِي داركَ عَنْد أَهْلِك، وقُمْ ناهضاً لِتُؤَدِّيَ وَظَائِفَ رسالَتِكَ الّتي يكلِّفُكَ رَبُّكَ أَنْ تُؤَدِّيها.

فأنْذِرْ: الإنْذَارُ: الإعْلَامُ والإخْبَارُ بعواقِبَ غَيْرِ سارّة، كَشَرٍّ قادم، أو عُقُوبَةٍ على مُكْتَسبٍ إراديّ من قولٍ أو عملٍ أو اعتقاد، وكذلِكَ التحذيرُ من مَخُوفٍ منْهُ ماديٍّ أَوْ معنويّ.

والإنذارُ بعقاب اللَّهِ يوْمَ القيامة يكون بَعْدَ بَلاغِ مَسائل الدِّين للمنذَرين، وتَعْرِيفهم بأركانِ الإيمان، ودعوتهم إلى الإيمان بربِّهم لا شريك له، وإلى عبادته وحده لا شريك له، فإذا كذَّبَ المبلَّغُونَ رسُولَ ربّهم وكذَّبُوا بما يأتيهم به عَنْ ربّه أنْذَرَهُمْ بعقابه يوم الدين.

لهذا كان علينا أن نفهم باللّزوم الْعَقليِّ أَنَّ جُمْلَةَ ﴿فَأَنذِرْ﴾ تَطْوي في داخلها جُملاً كثيرةً تَدُلُّ عَلَىٰ الوظَائفِ الَّتي يجب على الرسول ﷺ أنْ يقوم بها قَبْلَ الإنْذَارِ، ولمّا كان الإنذار يأتي في آخِرِها بمقتضىٰ التَّسَلْسُل الفكريّ والتربويّ، كان الاقتصار على ذِكْر عبارة: ﴿فَأَنذِرْ﴾ دليلاً عليها.

أي: قُمْ فَبَلِّغْ رِسَالَةَ رَبِّكَ، واشْرَحْها، وأقِمِ الدليل على عناصرها، للإقناع بها، وبيِّنْ للناس واجباتهم تُجاه ربّهم، وبشِّرْهم بالأجْرِ العظيم الذي أعَدَّهُ لمن يستجيب لدعْوة الحقّ التي جئتهم بها، في جنات النعيم يومَ الدين، وأخيراً أنْذِرْ الكفرةَ المكذبين بعذابِ أليم خالِدٍ في دار العذاب النّارِ يوْمَ الدّين.

وهذا من الإيجاز بحذف ما يُعْلَم عن طريق اللُّزوم العقلي، نظيره أن يقول السلطان الكبير لوزير التموين عنده الذي أصدر قراراً بمنع زراعة

الشعير في ضاحية العاصمة والقرى من حولها: دَعْ خيولنا تأكُلُ من شعير هذه الضاحية وما حولها، أي: دع الناس يزرعون فيها الشعير، ويحصدونه، ويدرسونه، ويُذَرُّونه، ويجلبونه بالأوعية إلى العاصمة، ويبيعونه، لِنَشْتَرِي منه، ونُطْعمَهُ خُيُولنا.

وهكذا نفهم قول الله لرسوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ أي: انْهَضْ يا محمّدُ إلى أداء واجبات الرسالة التي اصطفاك الله ربُّكَ لها، وحمَّلَك مهمّاتها، ومنحَكَ شرفها، فخصَّكَ من قومك بالوحي إليك، فإنَّه لَيْسَ مِنْ شَأْنِ مِثْلِك وقَدْ كنْتَ مَشُوقاً إلى عودة الملَكِ بعْدَ أن فَتَرَ عَنْكَ، أنْ تُصَابَ بالفزع إذْ شَهِدْته على صورته العظيمة المالئة للأفق، فتذهبَ إلى أهلِك مذعوراً تقولُ زمّلوني زمّلُوني دَثّروني، قم يا محمّد، فبلّغ رسالة ربّك، وأدّ الأمانةَ الّتِي حمّلَك إيّاها، فادعُ الناسَ إلى الإيمان بالله، وإلى توحيده، وإلى عبادته وحده، وطاعَتِهِ في أوامره ونواهيه، وبَشِّرْهُمْ بالسعادة الأبديَّةِ إذا استجابوا لدعوتك.

أمّا من أعرضْ، أو كذّبَ واستكْبَر فأنْذِرْهُ بعذاب اللّهِ وعقابِهِ في جهنّم يوم القيامة.

ولمّا كان الإنذار بالعقاب يقع آخِراً بحسب مقتضيات الحكمةِ، بعْدَ التّبليغ والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظةِ الحسنة، والجدالِ بالّتي هي أحْسَنُ، حَسُن في إيجاز عنوان الموضوع للرسول ﷺ أن يقول له: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾.

● قول الله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ أي: وخُصَّ رَبَّكَ وحْدَهُ بالتَّكْبِير والتعظيم، فَأَبِنْ أنّه هو الأكْبَرُ مِنْ كُلِّ كبير، والأعْظَمُ من كُلِّ ذي عِظَمٍ، إذْ هُو خالِقُ كلِّ شيءٍ، فلا بُدَّ أَنْ يكونَ أكْبَرَ وأعْظَم مِنْ كلّ شيء، واستُفيد هذا التخصيص من تقديم المفعول به «رَبَّكَ» على الفعل «كَبِّرْ».

والفاء في «فَكَبِّرْ» جيء بها للإشعار بأنّ الجملة واقعةٌ جواباً لشرطٍ محذوفٍ تقديره، ومهما يكُنْ منْ شيءٍ فكبِّرْ رَبَّكَ. أو: ومهما استَطَعْتَ في كلِّ أحوالك فكبِّر ربَّك.

هذه الآية يُمكن اعتبارُها عنواناً لكلّ مسائل الرُّبوبيَّةِ وقضاياها، ولكلّ صفات الرّبّ الخالق، إنّ تكْبِيرَ الرَّبِّ يتضمَّن بيانَ عظيم صفاته وأسمائه الحسنى، ويتضمَّنُ توحيده في رُبوبيّته الَّذِي يسْتَلْزم عقلاً توحيدَهُ في إِلَهيته جلّ جلاله، ويتضمَّنُ كلَّ ما يَدْخل في إثبات الرُّبوبيّة الواحدة لله عزّ وجلَّ من أدلّة، وكلَّ ما يدخلُ في إثبات صفات الرّبّ الخالق وأسمائه الحسنى، من أدلّة وحُجَج وبراهين، كلُّ هذا يمكنُ اعتبارهُ مشمولاً بعُنْوان: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾﴾.

ومن تكبِيرِ الرَّبّ ذكْرُهُ القلبيُّ والنَّفسِيُّ بالإجلال والتعظيم، وذكره باللّسان الذي هو إعلانٌ عمَّا في القلْب من اعتقادٍ نحو الرّب الخالق جلّ جلاله، ومن تكبيره إعلانُ عبارَةِ «اللَّهُ أكْبَر» الّتِي شُرِعَتْ فيما بَعْدُ لافتتاح الصَّلاةِ بها، وتَرْديدِها عند البَدْء بالركوع والْبَدْء بالسجود، والبدء بالرفع منه، وشُرِع إعلانُها في الأذانِ والإقامة، وفي صلاتي العيدين وخُطْبَتَي كلٍّ منهما وفي غَيْر ذلِك، فشعارُ هذا الدِّين: «اللَّهُ أكْبَر» وعبارة الدخول فيه والانتماء إليه: لا إلَه إلاَّ الله محمَّدٌ رسول الله.

ونلْمَحُ في هذِه الآية التَّوطئةَ والتمهيدَ لكلّ هذا الذي شُرِعَ فيه تَرْدِيدُ عبارة: «الله أكْبر» مع التوجيه للتأَمُّل والتَّدَبُّرِ في مضمون هذا الشعار العظيم دواماً، فبملاحظة أنَّ اللَّهَ جَلَّ جلالُه أكْبَرُ مِنْ كُلِّ شيء تَتَصَاغَرُ في نفوس المؤمنين به السماوات والأرض وسائر مخلوقات الله، ويتصاغَرُ الطُّغاة والجبابرةُ والعظماء من الإنسِ والجنّ، وتتضاءَلُ الْمُرْعباتُ والمخيفاتُ والأهوالُ العظْمَىٰ، إذْ هِيَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِه، وَمظاهِرُ لتصاريفه في كونه،

وبالانتماء إليه، والالتجاء إليه، والاستعَاذَةِ به، يحْصُلُ الأَمْنُ في القلُوب والسّكينَةُ في النفوس، والاعْتِزَازُ بسلطانِه وهيمنَتِه على كلِّ شيء، فَمَهْمَا يكُنْ شيءٌ في الوجُودِ كبيراً فاللَّهُ أكْبر.

● قول اللَّهِ عزّ وجلَّ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ أي: ومهما استطَعْتَ في كلّ أحوالك فطَهّرْ ثِيَابَكَ، وخُصَّهَا بالعناية بالطّهارة، لأنّها مصاحبَةٌ لكَ، أمّا تَطْهِيرُ الأماكِن والمجالِسِ ولا سيما المساجدُ ومواطِنُ العبادة فقد جاء التوجيه له فيما بَعْدُ.

والأمْرُ بطهارة الثياب يتضَمّن الأمْرَ بطهارة لابِسيها، إذْ طَهَارَةُ أبدانهم أولى من طهارة ثيابهم، فإذا أُمِرَ الإنسان بطهارة ثَوْبه فهو مأمورٌ بطهارة جسمه من باب أولى.

وقد نفهم من هذه الآية الأمْرَ الترغيبيَّ بطهارة الثياب بصورة عامّةٍ ولَوْ في غير الصَّلاة.

هذه الآية يُمْكن اعتبارها عنواناً للطهارة المادّيّة منْ كلّ النجاسات، إذِ الطهارةُ من العناصر الأولى في السُّلُوكِ الدينيّ للإنسانِ المسلم، ومعلومٌ أنَّ الرسول في أُمّتِهِ أوّلُ المؤمنين وأوّل المسلمين، فهو أوّلُهُمْ تكليفاً، وأوّلهم حرصاً علَىٰ تطبيق ما أَمَرَ اللَّهُ به أو نهىٰ عنْهُ إلْزَاماً أَوْ تَرْغيباً.

وقد جاء في بيانات الرَّسُول ﷺ بعد هذا التوجيه الرَّبّاني للطهارة بِعِدَّة سنين، قولُهُ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمان» إلاَّ أنَّ هذا الحديث يشْمَلُ الطهارة من النجاسات المادّيّة، والطَّهارَة مِنَ النجاساتِ المعنويَّة، كالشِّرْك وارتكاب الكبائر الّتي أبان الله عزّ وجلّ أنَّها رجْسٌ من عمل الشيطان.

● قول الله عزّ وجل: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ بضمّ راء «الرُّجز» في قراءَة حفص عن عاصم، وأبي جَعْفَرَ، ويَعْقُوب، وبِكَسْرِ الرَّاءِ «الرِّجْزِ» في قراءة باقي القراءات المتواترات.

وجاء في تفسير «الرُّجْزِ» بضَمِّ الرَّاءِ أنَّهُ عبادةُ الأَوْثَان، أمّا «الرِّجْزُ» بكسر الراء، فقد أخرج ابن جرير وابْنُ أبي حاتم عن ابْنِ عبّاس قال: «كُلُّ شيءٍ في كتاب الله من الرِّجْزِ يَعْنِي به الْعَذاب».

وأخرج مسلمٌ وغَيْرُهُ من حديثِ أسامة بن زيد، وسَعْد بْنِ مالِكٍ، وخُزَيمَةَ بْنِ ثابتٍ، قالوا: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّ هَذَا الطَّاعُونَ رِجْزٌ، وبَقِيَّةُ عَذَابٍ عُذِّبَ بِهِ أُنَاسٌ مِنْ قَبْلِكُمْ».

والْهَجْرُ أَبْلَغُ من التَّرْكِ، إِذْ فيه معْنَى الابتعاد عن مواطنِ المهجور.

أمّا هَجْرُ «الرُّجْزِ» بمعْنَىٰ عبادةِ الأَوْثَانِ فَهُو ظاهرٌ، وخِطَابُ الرَّسُولِ بهذا هو في الحقيقةِ خطابٌ لكلِّ فردٍ من أفرادِ الأمَّةِ الّتي يُوجَّه لها دعوته، لأنَّهُ ﷺ كانَ هاجراً لَهَا، فلَمْ يَسْبِقْ لَهُ أَنْ عَبَدَهَا أوْ عَبَدَ شيئاً منها على طريقةِ مُشْركي قومه، ولا يُعْقَلُ أن تحدّثه نفسه بعبادتها بعد اصطفائه بالنبوة والرسالة.

وأمَّا هَجْرُ «الرِّجْزِ» بكَسْرِ الرَّاءِ الذي هو بمعنى العذاب، فالمرادُ من هَجْرِهِ هَجْرُ كُلِّ اعتقادٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ منْ شأنِهِ أَنْ يُفْضِي إلى سَخَطِ اللَّهِ وعَذَابه، فمعنَىٰ هجْرِ العذابِ هَجْرُ أسْبابه.

فالأَمْرُ بِهَجْر الرِّجْزِ «بكسر الراء» معناهُ الأمْرُ بهجر المعاصي والمخالفات المسبِّبة لعذاب الله.

وهذا الخطابُ موجَّهٌ في الحقيقة لكلِّ فردٍ من أفراد الأُمَّةِ التي يوجَّهُ لها دَعْوَتَهُ، إذ الرَّسُولُ ﷺ معصومٌ عَنِ المعاصي، إلاَّ أَنَّ له نصيباً من هذا التكليفِ في حدود مرتبتي البرِّ والإحسان وكلِّ ما لا يتعارضُ مع العصمة.

● قول الله عزَّ وجل: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝﴾.

المنُّ: الإنعامُ والإحسان، يقال لغة: منَّ فلانٌ على فلان إذا أنعم عليه نعْمةً طيّبة.

تَسْتَكْثِر: أي: تَطْلُبُ لنفسك الكثرة.

والمعنى عند جمهور أهل التفسير من السَّلَف: لا تُعْطِ العطيَّةَ ملتمساً ممَّنْ أعطيته أن يعوِّضَك أكثر منها وأفضل.

وعلى هذا فالآيَةُ تتضَمَّنُ أصْلاً عظيماً من أصول الأخلاق الاجتماعية، الّتي جاء بها الإسلام، إذ المطلوبُ من المسلم أن يُعامل ربَّه من خلال معاملة عباده، لا أن يُعامِل العباد بالمعروف طالباً منهم المكافأة، فذلك يُحْبِط عند الله عمله، ويخيّبُ أَمَله.

أقول: إنّ النَّهْيَ عن الاستكثار عِنْدَ المنّ يُشْعِر ضِمْناً بالتَّرغيبِ في المنّ على عباد الله، ولكِنْ دُونَ طلَبِ الكَثْرة من جِهتِهم، لأنَّ طلَبَ الكَثْرَةِ مِنْ جِهَتِهم تُحْبِطُ فضيلَةَ المنّ، فَيُحْرَمُ المنْعِم من ثواب اللّهِ على العمل الذي قامَ به، والترغيبُ في المحافظة على ثواب اللّهِ على عَمَلٍ مَا يَتَضَمَّنُ التَّرْغيب في أصل العمل الذي يُثيب اللّهُ عليه، وعلى هذا تكونُ العبارة بمعنَىٰ: امْنُنْ على عِبَادِ اللّهِ غَيْرَ مُسْتَكْثِرٍ مِنْهُمْ ثواباً وَلاَ رِبحاً.

● قول الله عزّ وجل: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾ أي: وَلأَجْلِ ابتغاء مرضاة رَبِّكَ وَثوابِهِ وحْدَهُ لاَ شريكَ له فَاصْبِرْ علَىٰ القيام بالأعمال المطلوبة منك في حياتك، وعلَىٰ تَرْكِ ما تحبُّ وتهوى وتشتهي ممَّا نهاكَ الله ربُّكَ عَنْهُ.

والفاء في «فاصْبِر» نظيرها في: «فكبّر ـ فطَهّر ـ فاهْجُرْ» واقعة في جواب شرط محذوف، ويمكن تقديره نظير ما سبق بيانه في: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾.

وهذه الآية: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾ تتضَمَّنُ بيانَ أصْلٍ عظيمٍ من أصول الأخلاق في الإسلام، وهو الصَّبْرُ ابتغاء مَرْضاة اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ولمَّا كانَ هذا الدرسُ الأولُ من دروس السورة مُوجّهاً بالدَّرَجَةِ الأولىٰ

للرَّسُولِ مُحَمَّد ﷺ، وقد جاء في الآية الثانية منه تكليفُهُ أن يبلّغ دين ربِّه، وَأن يقومَ بوظائفِ رسالته حتَّىٰ الفقْرة الأَخِيرَةِ مِنْهَا، وَهي إِنْذَارُ من كذَّبَهُ وكذَّبَ بما جاء بِهِ عَنْ رَبِّه، ولم يستجب لدعوة الحق الرَّبَّانِيَّةِ الّتي حَمَلَها للناسِ نبيًّا ورسُولاً.

ولمَّا كان من شأن الأكثر من النّاس أن يقابلوه بالتكذيب والإعراض والإدبار، وأنْ يُوجِّهُوا له الاتّهامات والشتائم وأنواع الأذَىٰ، في حروب دعائيَّة، ثُمَّ في حروبٍ عسكريَّة.

كان من الحكمة الرَّبّانيَّة أنْ يُوجِّه الله لَهُ مع بدايات تكليفه أن يقوم بأداء وظائف رسالَتِه، الأَمْرَ بأنْ يَصْبِرَ لأَجْلِ مَرْضَاةِ رَبِّه، غيْرَ مُبَالٍ بالنَّاسِ، وَلا مُكْتَرِثٍ لمَا يَنالُهُ مِنْ جهَتِهم منْ مكْرُوهٍ وأنواعٍ مِنَ الأذىٰ المعنويّ أو المادّيّ.



(٦)
نظرة إجمالية عامة إلى الدرس الأول

● لقد كان الوحْيُ إلى الرسول ﷺ في غار حراء أوّل الأمر، فأنزل الله عليه الأمر بالقراءة، والأخذ بوسائل العلم والمعرفة.

● ثمَّ انقطع عنه الوحي لاستثارة أشواقه إليه.

● ثم ناداه جبريل من جهة السماء فرفع بصره إليه، فرآه على هيئة عظيمة جدّاً جالساً على كرسيٍّ بين السماء والأرض، فنالَهُ من هذا المشهد ذُعْرٌ أسقطه إلى الأرض، ورَجَع إلى أهله يقول: زمّلوني دَثِّروني.

كلُّ هذا كان من التربية الرّبّانيّة له، والإعداد والتهيئةِ النفسيةِ لتلقّي مهمّات رسالته الّتي يجب عليه أن يحْملَها للناس.

● ثُمَّ كان من الحكمة أَنْ يُنَزِّل الله عليه نجماً قُرْآنيًا يتَضَمَّنُ تكليفَهُ أَنْ يَحْمِلَ رسالَةَ رَبِّه ويقوم بوظَائِفها في الناسِ، حتَّىٰ آخِرِ وظيفَةٍ من وظَائِفها وهي توجيه الإِنْذار للمكذبين الذين يُصِرُّونَ على رفض الاستجابة لدعوته، على الرُّغْمِ من استخدام كلّ وسائل الاقناع والتربية والعلاج النفسي.

ويتضَمَّن هذا النَّجْمُ أيضاً بيان بعْضِ المبادئ الكليّة العامّة لهذا الدين، على شكْل عناوين كبرى لموضوعات سيأتي في مراحل التنزيل القرآنيّ والبيان النبويّ تفصيلها.

الموضوع الأول: عنوانُه: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾.

الموضوع الثاني: عنوانُه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾.

الموضوع الثالث: عنوانُه: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾.

الموضوع الرابع: عنوانُه: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾.

الموضوع الخامس: عنوانُه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

هذه الموضوعات يمكن شرحها وتفصيلها في بحوثٍ مستفيضة.



(٧)
التدبر التحليلي للدرس الثاني

الآيات من (٨ ـ ١٠)

قال الله عزّ وجل:

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.

الناقور: الصُّور، وهو بوقٌ عظيم يُشبِهُ الْقَرْنَ المجوَّف، ذكر المفسّرون أنَّه قَرْنٌ من نورٍ يُجْعَلُ فيه الأرْواح.

نَقَرَ: يأتي بمعنَىٰ: «صَوَّت» يُقالُ لُغةً: نَقَرَ فلانٌ بلسانِه، أي: صوَّت به. ويقالُ: نقر بالدّابَّةِ: أيْ: صَوَّتَ بها لتسير، ويُقالُ: نَقَرَ بفُلَانٍ: أي: دعاهُ من بين القوم.

فالنَّقْرُ في الصُّور هو إطلاق الصوت منه، وهذا الإطلاقُ يكونُ بالنفخ.

هذه الأداة الرَّبَّانيَّةُ جَاءَ تسمِيَتُها هُنَا «النّاقُور» وجاء تَسْمِيَتُها «الصور» في عشْرَةِ مواضع من القرآن الكريم، وجاء فيها بيانُ أنَّ إطلاق الصوت منه يكُون بالنفخ، فمنها قول الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

والملَكُ الموكَّلُ بالصور الذي ينفُخُ فيه بأمْرِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ هُوَ «إسرافيل» عليه السلام، وهو ينفخ فيه النفخة الأولى لقيام السّاعَة الأولى الّتي تموتُ بها الأحياء، والنفخة الثانية لقيام السّاعَةِ الثانية الّتي يُبْعَثُ بها الخلائِقُ إلى الْحَياة مرَّةً أُخرَىٰ، لاستكمال الخطّةِ الرَّبَّانيَّةِ المقرّرة للحياتين، في الدُّنْيا دار الابتلاء، وفي الآخرة دار السّؤال والحساب وفصْلِ القضاء وتنفِيذِ الجزاء.

والمرادُ من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾﴾ النفخةُ الثانيةُ الّتي تنطلق بها الأرْواح إلى أجسادها عِنْدَ البعث إلى الحياة الأخرىٰ للمحاسبة وفصل القضاء والجزاء.

ودلَّ علَىٰ النَّفْخَتين قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (الزّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

● ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾﴾ أي: فإذا نُفِخَ في الصُّور فأطْلَقَ صَوْتاً عظيماً لبَعْثِ الأحياء وإعادة الأرْواح إلى أجسادها يوم القيامَة.

● ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ أي: فذلِكَ اليومُ الّذِي تُبْعَثُ فِيه الأحْيَاءُ للمحاسبة وفَصْل القضاء والجزاء، يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَىٰ الكَافرين، غَيْرُ يَسِيرٍ، إذ فيه شِدَّةٌ وهَوْلٌ على الكافِرين.

عَسِيرٌ: صَعْبٌ شَدِيد، يُقَالُ لُغةً: عَسُرَ ـ عَسِرَ ـ عَسَرَ الأمْرُ أو الزَّمَانُ يَعْسُرُ ـ يَعْسِرُ عَسْراً وعَسَراً وعُسْراً وعُسُراً وعَسَارَةً، أي: اشْتَدَّ وصَعُبَ، فهُوَ عَسِيرٌ وَعَسِرٌ. فالْعَسِيرُ ضدُّ الْيَسيرِ.

وفي بيان كون هذا اليوم عَسِيراً على الكافرين دلالةٌ على أنّ الله عزّ وجلّ يُيَسِّرُ أَمْرَ هذا اليوم الْعَصِيبِ على المؤمنين.

وجاء في بيان أنّ يوم القيامة يومٌ عَسِيرٌ على الكافرين، نصّان آخران:

فجاء في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بشأن يوم القيامة:

﴿...يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾.

إلى شَيْءٍ نُكُرٍ: أي: إلى شيءٍ شديدٍ صَعْبٍ، هُو الحسابِ لفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء، ﴿نُّكُرٍ﴾ بضم الكاف قراءة جمهور القرّاء، وقرأ ابْنُ كثير: [نُكْرٍ] بإسكان الكاف.

مُهْطِعِين: خاضعين أذلاّء يَنْظُرُونَ بانكسارٍ.

وجاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بشأن يوم القيامة أيضاً:

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

هذا الدّرس من دُرُوسِ السورة قَدَّمَ لَقْطَةً بيانيّة من لقطاتِ يَوْمِ الدِّين، فأبانَ أَنَّهُ يكون بَعْدَ نَفْخَةٍ في النّاقور الذي هو الصُّور، وأنّهُ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَىٰ الْكَافِرين.

وقولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ جاء تأكيداً لمعنَىٰ ﴿عَسِيرٌ﴾ وهذا الأسلوب من التأكيد هو من قبيل تأكيدِ الشيء بنفي نقيضه أوْ ضدِّه، نظير قولهم: منحْتُكَ كذا عاجلاً غير آجل، ومنه: حيٌّ غير ميّت، وموجودٌ غير معدوم.

وهو في المعنىٰ مُرْتَبطٌ بما جاء في الدرس الأوّل من دُرُوسِ السورة، من تكليف الرَّسُولِ أَنْ يُنْذِرَ المكذّبين، الّذِين يُصِرُّونَ على رفْضِ الاستجابَةِ لدعوة الحق الرَّبَّانيَّةِ الّتي جاءهم بها، ودَعاهم إلى الإيمان بقاعدتها الإيمانية، والإسلام والطاعة لأوامر الله ونواهيه فيها.



(٨)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث

الآيات من (١١ ـ ٣٧)

قال الله عزّ وجل:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾.

مَا وَرَدَ في سَببِ النزول:

(١) جاء في سيرة ابْنِ هشامٍ عمّا رواه ابْنُ إسْحاق:

أنّ الوليد بْنَ المغيرة اجْتَمَعَ إليه نَفَرٌ مِنْ قُريش، وَكانَ ذَا سِنٍّ فيهم، وقَدْ حَضَر الْموسِمُ[١]، فقال لهم: يا مَعْشَر قُرَيْش، إنَّهُ قَدْ حَضَرَ هذا الموسم، وإنّ وفودَ الْعَرب ستَقْدَمُ عَلَيْكُم فيه، وقَدْ سَمِعُوا بأمْرِ صاحِبِكُمْ هذا، فأَجْمِعُوا فيه رأياً واحداً، ولاَ تَخْتَلِفُوا فَيُكَذِّبَ بَعْضُكُمْ بعضاً، ويَرُدَّ قولكُم بعضُه بعْضاً.

قالوا: فأنْتَ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْس، فقُلْ، وأَقِمْ لَنا رأْياً نَقُلْ به.

قال: بلْ أنْتُم فقولُوا أسْمَعْ.

قالوا: نقولُ: كاهنٌ.

قال: لاَ واللَّهِ ما هُوَ بكاهِنٍ، لقَدْ رأيْنَا الكُهَّانَ فما هُوَ بِزَمْزَمَةِ[٢] الكاهن وَلاَ سَجْعِه.

قالوا: فنَقُولُ: مَجْنُون.

قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فَمَا هُوَ بخَنْقِه، وَلاَ تَخالُجِهِ، ولاَ وَسْوَسَتِهِ[٣].

---

(١) أي: موسم الحج.

(٢) **الزمزمة**: الكلام الخفيُّ الذي لا يُسْمَع.

(٣) **الْخَنْق**: عصر الحلْق. **التخالُج**: التحرُّك والاضطراب بدون اتّزان. **الوسوسة**: التكلّم بكلامٍ خفيّ مختلط غير ظاهر الدلالات.

قالوا: فنقولُ: شاعر.

قال: ما هو بشاعر، لقَدْ عَرَفْنَا الشّعْرَ كلَّه، رجَزَهُ، وهَزَجَهُ، وقَرِيضَهُ، ومَقْبُوضَهُ، ومَبْسُوطَهُ[1]، فما هو بالشّعر.

قالوا: فنقول: ساحر.

قال: ما هو بساحر، لقد رأَينا السُّحَّارَ وسِحْرَهُمْ، فما هُوَ بنفثهم، ولا عَقْدِهِم.

قالوا: فَمَا نقول: يا أبا عَبْدِ شمس؟

قال: واللَّهِ إِنَّ لقولِهِ لحلاوَةً، وإِنَّ أَصْلَهُ لَعَذَق[2]، وإِنَّ فَرْعَهُ لَجَناة، ومَا أَنْتُمْ بقائلين من هذا شيئاً إلاَّ عُرِفَ أَنَّهُ باطل، وإِنَّ أَقْرَبَ القولِ فِيه لأَنْ تَقُولُوا: ساحِرٌ، جاء بقولٍ هو سِحْرٌ، يُفَرِّقُ بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته.

فتفرّقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسُبُلِ الناس حينَ قَدِموا الموْسِمَ، لا يمُرُّ بهِمْ أحَدٌ إلاَّ حذّروه إيّاه، وذكروا له أمْرَه، فأنْزَل الله تعالى في الوليد بن المغيرة:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ...﴾ الآيات حتّىٰ قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

وجاء الوعيد الرّبّانيّ له ولأمثاله في الآيات من (٢٦ ـ ٣٠).

(٢) وجاء عند الطبريّ عَنْ عِكْرِمة، أنّ الوليد بن المغيرة جاء إِلَىٰ

(١) **الرّجز**: بحرٌ من بحور الشعر على وزن «مستفعلن ست مرات» **والهَزَجُ**: بحر آخر على وَزن «مفاعيلن ست مرات» **القريض، والمقبوض، والمبسوط**: لعلّها أنواع من بحور الشعر كانَ العرب يسمونها بذلك.

(٢) **العذَق**: النخلة. وفي رواية: لغَدَق، أي: لذو ماء كثير.

النبيّ ﷺ، فقرأ عليه الْقُرآنَ، فكأنّه رقَّ له، فبلَغَ ذَلَك أَبَا جَهْلٍ، فقال: أيْ عمّ، إنَّ قَوْمَكَ يُريدُونَ أنْ يجمعوا لكَ مالاً، قال: لِمَ؟. قَال: يُعْطُونَكَهُ، فإنَّكَ أَتَيْتَ محمّداً تتعَرَّضُ لما قِبَلَهُ. قال: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنّي أكْثَرُها مالاً. قال: فقُلْ فيه قولاً يَعْلَمُ قومُكَ منْهُ أَنَّكَ منْكِرٌ لما قال، وأنَّكَ كارِهٌ له، قال: فما أقول فيه، فوالله ما منكم رجُلٌ أعْلَم بالأَشعارِ مِنّي، وَلاَ أَعْلم برجزه منّي، ولا بقصيدِه، ولا بأشعار الجنّ، واللَّهِ ما يُشْبه الذي يقولُ شيئاً منْ هذا، وواللَّهِ إنَّ لقَوْلِه لَحَلاَوَةً، وإنَّه ليَحْطِمُ مَا تَحْتَه، وإنَّهُ لَيَعْلُو وَلاَ يُعْلَىٰ. قال: واللَّهِ لاَ يَرْضَىٰ قَوْمُكَ حتَّىٰ تقول فيه. قال: فدعْنِي حتَّىٰ أُفَكِّرَ فيه، فلَمَّا فكَّرَ قَالَ: هَذَا سِحْرٌ يَأْثُرُهُ عن غَيْرِه، فنزلَتْ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ . . .﴾ الآيات.

(٣) وجاء عند الطبريّ أيضاً عن ابن عباس، قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قُحافَة ـ رضي الله عنه ـ يَسْأَلُهُ عن القرآن، فلَمَّا أخبره خرج على قريش، فقال: يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشَة، فوالله ما هو بشعر، ولا بسِحر، ولا بهَذْي من الجنون، وإنّ قوله لَمِنْ كلام الله، فلمَّا سَمِعَ بذلك النَّفر منْ قريشٍ ائْتَمَرُوا وقالُوا: واللَّهِ لَئِن صَبَأَ الوليد، لتَصْبَأَنَّ قريش.

فلمَّا سمع بذلك أبو جهل قال: أنا والله أكفيكُمْ شأنه، فانْطلق حتّىٰ دخَلَ عليه بيته، فقال للوليد: أَلَمْ تر قومك قد جَمَعُوا لكَ الصَّدَقَة؟

قال الوليد: أَلَسْتُ أكْثَرَهُمْ مالاً وَوَلَداً؟

فقال له أبو جهل: يتحدّثونَ أنَّكَ إنَّمَا تَدْخُلُ على ابْنِ أبي قُحَافَةَ لتُصِيبَ من طعامه.

قال الوليد: أَقَدْ تَحَدَّثَتْ بِهِ عَشِيرَتي، فلا واللَّهِ لاَ أَقربُ أبا بكر ولا عُمر ولا ابْنَ أبي كبْشَة، وَمَا قولُهُ إلاَّ سِحْرٌ يُؤثر، فأنزل الله على نبيه ﷺ:

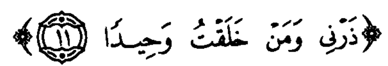
﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ . . .﴾ ـ إلى ـ ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾.

إلى غيرها من روايات تؤكّد أنّها نزلَت الآيات بمناسبة ما كان من الوليد بن المغيرة، ووعيده بعذاب اللّهِ في سَقَر.

أقول: ويُلْحَق بالوليد من كان مثْلَهُ في كفره وعناده، ومخالفته لقناعاته، وإصراره على الباطل، على الرّغم من وضوح الحق له، فسُنَّةُ الله في عباده واحِدَة.

وقد جاء هذا الدّرسُ الثالث موصولاً بالدرسَيْن السابقَيْن، منْ جهة تضمُّنهما إنذار المكذبين المعاندين، وعلاجاً تربويّاً لبَعْض كبرائهم وَأئمتهم في مكّة إبّان تَنْزيل السُّورة، مع علاج تَرْبوي للرسول وللدعاة من أُمّتِه.

● قولُ اللّهِ عزَّ وجلّ:


﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾

أي: دَعْنِي مع مَنْ خَلقْتُهُ وحيداً لا أنْصَارَ لَهُ وَلاَ أبْنَاءَ ولا أعوان، ولا مالَ ولا قوّة، فَأنا الّذي أمْدَدْتُه بذلك، وأَنا القادر على تجريده من كلِّ شيء، حتَّىٰ أجْعَلَهُ وَحِيداً كمَا بدأتْ مَسِيرَةَ حياته.

هذا الأسلوبُ من التعبير يَتَضَمَّنُ تَهْدِيداً وَوَعِيداً شَدِيداً لِمَنْ يُرادُ تهديدُهُ ووعِيدُه، وهذا التهديد مُوجَّهُ من الرّبّ الخالق جل جلاله، لا من الرّسول ﷺ.

ويتضمّنُ أيضاً وَصِيَّةً للرّسُولِ ﷺ، ويُلْحِقُ به المؤمِنُون، ويلحق به كُلُّ داعٍ إلَىٰ اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، إذَا وَاجَهَ مَنْ يُعَانِدُ ويكابِرُ ويَقِفُ في سبيلِ الدَّعْوَةِ صاداً مُعَارضاً مُقَاوماً بحرْبِ إعلاميَّةٍ، أَوْ حَرْبِ جَسَدِيَّةٍ إيذائِيّة، إذا كان في مِثْلِ المرحَلَةِ الّتِي نزلَ فيها هذا النّصّ على الرسول ﷺ.

هٰذِه الوصيَّةُ تقولُ للرّسول: دَعْ مواجهة هذا الصنف من الجاحدين المعاندين، فلا تتصارعْ معه صراعاً كلاميًا ولا صراعاً جَسَدِيًا، بَلْ تابع

مسيرتَكَ في دعوتِكَ دُونَ أَنْ تَشغَلَكَ مُصَارعَتُه عن القيام بواجبات رسالَتِك التبليغيَّةِ البيانيّة والإقناعيَّة والترغيبيَّةِ بثواب الله والترهيبيَّة من عقابه، فأنْتَ في المراحل الابتدائيَّة لمسيرة دعوتك لا ينبغي لكَ أن تَشْغَلَكَ المصارعة، إذْ تُعَوِّقُ مَسِيرتَك، ورُبَّما تؤلِّبُ عليك جماهير الناس، فَتُوقِفُ حركتك في القيام بوظائف رسالَتِك.

وهذا المعنى مُرْتبطٌ بقول الله عزّ وجلّ في الدرس الأول: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾.

﴿ذَرۡنِي﴾: بمعنى: دَعْنِي، واتْرُكْنِي، وقد استعمل العربُ من هذه المادّة المضارعَ والأمرَ، فقالوا: «يَذَرُ» بمعنى يَدَعُ ويترك، وقالوا: «ذَرْ» بمعنى دَعْ واتْرُك، أمّا الماضي: «وَذِرَ» والمصْدَرُ: «وَذْراً» فقد أهْمَلوا وأماتوا استعمالهما، إلاّ نادراً.

﴿وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾: أي: ومن خلقْتُهُ حالة كونِهِ وَحِيداً لا نَصِيرَ له وَلا مُعِينَ ولاَ شيءَ يَعْتَزُّ به، وتدُلُّ هٰذِه العبارة باللُّزوم الذّهْنِي على مَعْنَىٰ: وَبَعْدَ ذَلِكَ أَمْدَدْتُهُ بالأنصار والأعوان والأبناء والأموال، وأنا القادر على سَلْبِه ما أمدَدْتُه بِه، فلا تَشْغَلْ نفسَكَ بمقاومته ومقارَعتِه حتّىٰ آذنَ لَكَ.

الوحيد: المنْفَردُ بنفسِهِ، والأنْثَىٰ: وحيدة.

هذه العبارة تَنطَبِقُ عَلَىٰ كلّ إنسان، وكلّ ذي حياة، وكلّ مخلوق، وقد جاءتْ هُنَا بمناسبة ما كان من الوليد بن المغيرة، فَهُو المقصودُ الأوّلُ مِنها، ويُلْحَق به مَنْ كانَ مثله، فكُلُّ مخلوقٍ من الإنس والجنّ وغيرِهِمَا قَدْ خَلَقَهُ اللّهُ عاجزاً فقيراً وَحيداً لا نَصِيرَ لَهُ ولا مُعِينَ، محتاجاً في أسباب حياته وبقائِه مَدَداً من قُوَىً غيبيَّةٍ غيرِ منظورة، لا يَمْلِكُ الإمدادَ بها إلاّ الرَّبُّ الخالق الّذي لا تراه الْعُيون، ولكن تُدْرِكُ العقول بعض صفاته من آثارها في خلقه.

وقد تكرّر استعمال هذا الأسلوب الّذي تضمَّنَ التَّهْدِيد للكافرين المكذِّبين، والوصيَّةَ للرَّسُولِ بترك مواجهتهم في صراعٍ كلاميٍّ أو جَسَدِيّ، في عدّة نصوصٍ نزلت في المراحل الأولى من مراحل الدعوة، قبل الإِذْنِ بالقتال.

فجاء في سورة (المزمل) قولُ اللّهِ عزّ وجلّ خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾.

وجاء في سورة (القلم) قول الله عزّ وجلّ خطاباً للرسول ﷺ:

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

● قول الله عزّ وجل:

﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾:

أي: وجَعَلْتُ له مالاً كثيراً، يَزْدادُ بالْمَدَدِ حِيناً فَحِيناً، فهو مالٌ يُزَادُ فِيه فينْمُو، كبِرْكَةِ الْمَاءِ يأتيها الْمَدَدُ من السواقي والأمطار، فلَهُ غَلَّةٌ من فيض عَطَاء الله.

يُقَالُ لُغَةً: مالٌ مَمْدُودٌ، أي: كثير. ويُقَالُ: مَدَّ فُلَانٌ الشَّيْءَ إِذَا زَادَ فِيه مَدَداً. الْمَدَدُ: مَا يُمَدُّ بهِ الشيء، كمَاءِ النَّهْرِ يُمَدُّ بماءِ السّواقي الَّتي تَصُبُّ فِيه، وكالجيْشِ يُضَافُ إِلَيْهِ مَدَدٌ من الجنود لتَقْويته، ويقال: مَدَّ الدَّواةَ، إذا زَاد مِدَادَها.

والمدّ أيضاً: التوسعة والإطالة والبسط، ومدَّ اللّهُ الأرض يمُدّها مدّاً، أي: بسطها وجعل فيها خيراً كثيراً.

رُوي عن ابن عبّاس أنّه قال: كان مالُ الوليد بن المغيرة بين مكّةَ

والطائف من الإبل والغنم والعبيد والجواري والجنان، وكانت غَلَّةُ ماله أَلْفَ دينار (أي: في السنة)[١].

قول اللَّهِ عزَّ وجلّ:

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣﴾:

أي: وجَعَلْتُ له بنين شاهدين حاضرين ليسوا غائبين عن مكان إقامَتِهِ، فَهُمْ أعوانُه وأنصارُهُ يستعين بهم، ويستدعيهم لنصرته في كُلِّ وَقْتٍ يحتاج فيه إلى النُّصْرَةِ، ويعتَزُّ بهم ويفتخر إذْ هم شهودُ مجالسه.

شُهُود: جمع «شاهد» بمعنى «حاضر» غير غائب، ونظير هذا الجمع: «سُجُود» جمع: «سَاجد».

قيل: كان للوليد بن المغيرة عشرة بنين، وقيل: ثلاثة عشر ابناً، وكانوا يشهدون معه المحافل، فكانوا له عزّاً وفخراً، والمذكور منهم في التاريخ سبعة فقط.

● قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤﴾:

التمهيد: البسط، والتسويَةُ والتسهيل، يقالُ لغة: مَهَّدَ الفراشَ أي: بسَطَهُ ووَطَّأَهُ، ومَهَّدَ الأرضَ، أي: سَوّاها وسَهَّلَ الجلوسَ أو المشي عليها، بإزالة ما فيها من منخفضات ومُرْتفعات، وأحجارٍ وصخور. ويُقَالُ: مَهَّدَ الأَمْرَ إذَا وَطَّأَهُ وسَهَّلَه.

تمهيداً: مفعول مطلق مؤكدٌ لفعله، وفيهِ معنى تحقيق التمهيد والعناية به.

---

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور.

ودَلّتْ هٰذِهِ الآيَةُ على أنَّ اللّهَ عَزَّ وجلَّ جَعَلَ بقضائِهِ وقَدَرِهِ أُمُورَ الوليد بْنِ المغيرة مُيَسَّرَة سَهْلَةً، لاَ يَسُوؤُه فيها عُسْرٌ، ولا تَعْتَرِضُهُ فِيها عقباتٌ ولا مُشكلات، لِيَبْلُوَهُ فيما آتاه.

لكنَّهُ لم يَشْكُرِ الله على ما آتاه، بل جعَلَتْهُ النِّعَمُ الّتِي أَوْلاَهُ اللّهُ إيَّاها يَزْداد كُفْراً وعِناداً وطُغياناً، وكِبْراً وَعِصْياناً.

● قول الله عزَّ وجلّ:

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾﴾:

الطمع: تعلُّق النَّفسِ بمحْبُوبٍ لدَيْها مرغوبٍ فيه، مع رجاء حصوله.

وقد كان الوليد بن المغيرة يطمع بأنْ يزداد ما لَدَيْه من مالٍ وبنين وأنصارٍ وسائر محابّه من الحياة الدُّنيا، لأنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ جعَلَ مطالِبَهُ من الحياة الدنيا ميسَّرَةً مُسَهَّلَة، لا عُسْرَ عليه في تحصيلها، إذْ مهَّدَ لَهُ سُبُلَه تمهيداً محقَّقاً زائداً عن نظرائه.

ولمّا كانت الزيادة من مطالب الحياة الدنيا لا تكون إلاَّ عطاءً من الرّبِّ الخالق، كان من بيان الواقع أَنْ يَنْسُب اللّهُ الزِّيَادَةَ إلىٰ نفسه، سواءٌ أكان الوليد من الّذِين يؤمِنُونَ بأنَّ الله هو المحقّق لمطامعه مع شِرْكه بربه، أم كان من الذين يعتقدون بأنَّ الشركاء هي الّتي تُحقِّقُ له مطامعه، وفي هذا تنبيهٌ لَهُ ولنظرائِهِ على أنّ كلَّ مطالب الحياة لا يحقِّقُ شيئاً منها للعباد إلاَّ اللّهُ الرَّبُّ الخالق.

وهذا الطمع الموجودُ عِنْد الوليد موجودٌ عِنْدَ كُلِّ طُلاَّب الحياة الدنيا وزينتها، ولا سيَّما الذين يُيَسِّرُ اللّهُ أُمُورَهم ويُمَهِّدُ لهم في الحياة سُبُل تحقيق مطامعهم العاجلة من دُنياهم، فالكلام الموجّه للوليد بن المغيرة مُوجَّهٌ ضِمْناً لأمْثالِه وَنُظَرائِه.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾:

﴿كَلَّآ﴾ كَلِمَةُ رَدْعٍ وَزَجْرٍ، مُوجَّهَة للوليد، والمزْجُورُ عَنْه الطَّمَعُ بالزِّيادة، وهٰذَا وعِيدٌ من اللَّهِ لَهُ بأنّ اللَّهَ لن يُحقّق لَهُ مطامعه الّتي يرجو تحقيقها في المستقبل.

وجاء تعليل هذا الرَّدْعِ والزَّجْرِ في قَوْلِهِ تعالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ هذا بيانٌ يتَضَمَّنُ مَعْنَىٰ التعليل لما سبقه، فهي جملةٌ استئنافية لا محلَّ لها من الإعراب، والجملة التعليلية تأتي جواباً لسؤالٍ مقدّر، وتقديره هنا: لم هذا الردْع والزجر؟! والجواب: إنَّه كان لآياتنا عنيداً.

العنيد: المستكبِر الذي يتجاوز الحدّ المألوفَ في العصيان، والذي يجْحَدُ الحقَّ ويَرُدُّه ويخالِفُه مع أنَّه يَعْرِفُ أنّه حقٌّ.

يقال لغة: عَنَدَ فلانٌ يعْنِدُ عَنداً وعُنُوداً فهو عَانِدٌ وَعَنُودٌ وعَنِيدٌ.

لقَدْ دَلَّتْ روايات أسباب النُّزُول على أنّ الوليد بن المغيرة قد أَدْرَكَ عظمة ما سَمِع من آياتِ القرآنِ المجيد، وأنَّهَا ليْسَتْ من قولِ البشر، وعبَّرَ عن دهشته، ولكنَّه استكْبَر عن اتّباع الرسول ﷺ، وجَحَدَ أن يكون القرآن منزَّلاً من عِنْدِ الله، وعانَدَ ما سَمِعَ من آياتِ الله، فخالَفَها وردّهَا ورفَضَ الإيمانَ بها، وله نظراء من قومه كأبي جَهْل.

وقد جاءَتِ العبارةُ القرآنيَّةُ المنزَّلَة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ بياناً مُطابقاً لواقع حاله، إنَّه على الرغم من معرفته الحقَّ جَحَدَهُ مُعانداً له.

﴿لِءَايَٰتِنَا﴾ جار ومجرور معمولٌ لكلمة ﴿عَنِيدًا﴾ فهو متعلّق به، وقُدِّمَ لمراعاةِ رُؤُوسِ الآي، ولمراعاة أسْلُوبِ بناء الْجُمَل، وقَدْ يكُون لإرادة التخصيصِ أيضاً، فَهُو قَدْ خصَّ آيات اللَّهِ بمعانَدَتها، مع أنَّه لَيْسَ من طبعه

في قومه أن يُعَانِدَ، لئلاَّ يخْسَرَ مكانته الاجتماعيَّة فيهم، فقد كان في وقته ذا رياسة.

ثُمَّ لم تَطُلْ حياةُ الوليد بْنِ المغيرة، إذْ كَفىٰ اللّٰهُ رسُولَهُ المستهزئين وأنْزَل عليه قوله في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

وكان الوليد أَحَدَ أَرْبَعةٍ أَهْلَكَهُمُ اللّٰهُ بإشاراتٍ أَشَارَ بها جبريل عليه السَّلام إليهم وهم يطوفون، ورسُول الله ﷺ قائِمٌ إلى جنبه كما جاء في السِّيرة عند ابْن هشام، فقد جاء فيها أنَّ جبريل عليه السلام أشار إلى أثر جُرْح بأسفَلِ كعب رِجله، كان قد أصابه قبل سنتين، وليس بشيءٍ، فانْتَقضَ الْجُرْحُ فقتله.

ومن الحكمة التربويّة في حصر المواجهة بالوليد بن المغيرة إمام المعاندة في هذه المرحلة تخفيفُ نسبة الأعداء، وعدم إحراجهم أن يقفوا موقف العداء، ولعلّ فريقاً منهم يؤثر السلامة والتواري، أو يهتدي فلا يجد نفسه مُحْرجةً بالتنازل عن موقفه السابق.

● قول الله عزّ وجل:

﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾:

هذه الآية تضمّنَتْ وَعِيداً للوليد بن المغيرة ولمن كان مثله في عناده لآياتِ الله بعذابٍ يوم الدين في جهَنَّمَ ذِي صفَةٍ خاصَّةٍ، وهو تَحْمِيلُهُ ما لا يُطِيقُ صاعداً على عَقَبةٍ كَؤُودٍ.

يقالُ لغة: أرْهَقَ فُلانٌ فلاناً إذا حمَّلَهُ ما لا يُطِيق.

الصَّعُود: العقبَةُ الشَّاقَّة، والمشَقَّةُ، والطريقُ الصَّاعِدَة، ورُوي عن النبي ﷺ: «أنَّ الصَّعُودَ جَبَلٌ من نارٍ يُصْعَدُ فيه سبعين خرِيفاً، ثُمَّ يَهْوِي كذلِكَ مِنْهُ أبداً».

واللَّهُ أَعْلَمُ.

فمعنى «سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً» سأُحَمِّلُه مشقَّةً عظيمةً لاَ يُطِيقُ حملها. أو سأُحمِّلُهُ مشقَّةَ الارتقَاءِ على عَقَبَةٍ شاقَّةٍ، أو طريقٍ صاعِدَةٍ، أَوْ جَبَلٍ من نارٍ على ما رُوي في الحديث.

ويقال: لَأُرْهِقَنَّكَ صَعُوداً: أي: لأُجشِّمنَّكَ مشقَّةً من الأمْرِ.

وهنا يَرِدُ سؤَالٌ وهو: لِمَ هٰذا التَّعْذِيبُ الشَّدِيدُ الَّذِي يُخَصُّ به الوليدُ ونُظَراؤه، وجاء الجوابُ في عِدَّةِ آياتٍ تُبيِّنُ عِلَّةَ تَكليفهِ هذا العذابَ الشَّاقَّ، فهو جوابٌ مُسْتأْنَفٌ يُبيِّن العلَّة، في القول التالي:

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

في هذِهِ الآياتِ وصْفٌ دقِيقٌ لِمَا كانَ مِنْهُ بَعْدَ أَنْ أدْرَكَ عظمة ما سَمِعَ من آيات القرآن المجيد، وأنها لا يمكن أن تكون من قولِ البشر، بل هي تنزيلٌ من ربّ العالمين، ولكنّه جحدها وعاندها، ورفض أن يُؤْمِنَ بها مستكبراً عن اتّباع الرسول محمّد ﷺ، وأخذ يُفكِّرُ ويُقدِّر، ويُجْهِدُ نفسه في استدعاء الاحتمالاَتِ الَّتِي يُزَيِّفُ بها الحقيقة، لتقديم المقولَةِ الَّتِي يُمْكِنُ أن تقْبَلَها الجماهِيرُ، وتُرَوِّجها لتَصُدّ الناس عن التَّأَثُّرِ بالقرآن، واتّباعِ محمّد ﷺ، والإيمان بهذا الدّين.

● ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾:

فَكَّرَ: أي: أعْمَلَ فِكْرَه، واجْتَهَد في التفكير في مختلف الوجوه والاحتمالات، ليبتكر مَقُولةً يُزَيِّنُها وَيُزَخْرِفُهَا حتَّىٰ تكونَ مقبولة، لَدَىٰ

الجماهير، ومتضمِّنَةً وصْفَ آيات القرآن بوصْفٍ يُوهِمُ أنّها قولٌ بَشَرِيٌّ، وليس كلاماً مُنَزّلاً من لدن حكيم عليم.

وقَدَّرَ: أي: وتَمَهّل، فلم يَتسَرَّعْ، يقالُ لُغَةً: قَدَّرَ فُلاَنٌ، إذا تمهَّل متفكراً في تَسْوِيَةِ أَمْرٍ وتَهْيِئَتِه، لكنّ تفكير الوليد وتقديرَهُ قَدْ كَانَا لإبطال الحقّ وإحقاق الباطل.

• ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: فَطُرِدَ طَرْداً مُمِيتاً على أَيَّةِ حالَةٍ كان عليها تفْكِيرُهُ وَتَقْدِيرُهُ، لأَنَّهُ قَدْ صَمَّم على تَسْخِيرِ ما وَهَبَهُ اللَّهُ مِنْ قُدْرَاتِ تفكيرٍ بأناةٍ وتَمَهُّلٍ لتَزْيين الكُفْرِ بآياتِ اللَّهِ.

كيفَ: اسم استفهام مبهم مبني على الفتح يُسْتَفْهَمُ به عن حالة الشيء، ومحلُّهَا النصب على الحال هنا، والعامل فعل «قَدَّرَ».

وتَرَيَّثَ طوِيلاً وَزَادَ في تَمَهُّلِهِ وَتَفْكيرِه، فلم يخْرُجْ عمّا هو فيه من مُحَاوَلاَتٍ لتزيين الكُفْرِ بالقرآن، فاسْتَحَقَ أن تُكَرَّرَ لَهُ عبارَةُ الطَّرْدِ فقال تَعَالَىٰ:

• ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾.

وأضافَ تَرَيُّثاً وَتَمَهُّلاً، وهُوَ يَتَفَكَّرُ ويَنْظُر نظراً فكريًّا في الاحتمالاتِ الَّتِي يُمكِنُ أَنْ يُزَيّن بها باطِلَهُ، لإبعاد كون القرآن كلاماً مُنَزَّلاً من عند الله، ولِصَرْفِ هَذَا عَنْ تصوُّرَات جماهير قومه، فقال اللَّهُ تَعَالَىٰ كاشفاً هذا التريُّثَ المضاف ليُعَمّق النَّظَر:

• ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾:

أي: ثُمَّ بَعْدَ تأمُّلٍ طويلٍ ثبَّتَ نَظَرَهُ على فِكْرَةٍ رَجاءَ أنْ تكون مُقْنِعةً لدَىٰ جماهِيرِ قَوْمِهِ، على الرَّغْمِ من ضَعْفِها وَعَدَمِ كِفَايَتِها للإِقْنَاعِ.

إلاَّ أَنَّهُ قَدْ أدرَكَ فِي قرارة قَلْبِهِ وَنَفْسِه أنَّ الفكرةَ الَّتِي تَوَصَّلَ إليها وَرَأَىٰ أنَّها أَقْرَبُ كلِّ الأفكار المحتملة للقبول، غَيْرُ كافِيَةٍ للاقناع بما يُرِيدُ اتِّهَامَ القرآنِ به، فَظَهَر أَثَرُ هَذا الذي اعْتلجَ في قلبه ونفسِه على وجْهِهِ، فعَبَسَ وبَسَرَ، وقَدْ كَشَفَ الله عزّ وجلَّ هٰذا مِنْ حالِهِ، فقال تَعالَىٰ:

● ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾

عَبَسَ: أي: جمع جِلْدَ مَا بَيْنَ عينيْهِ وَجِلْدَ جبهته، وتَجَهَّمَ، وهذا دَلِيلٌ على سَخَطِه وعدم رضاه، يقال لغة: عَبَسَ يَعْبِسُ عبْساً وعُبُوساً.

وبَسَرَ: أي: وكَلَحَ، يُقَال لغة: بَسَرَ الرَّجُلُ وَجْهَهُ بُسُوراً، أي: ظَهَر عليه الكَلَحُ، وهو شحوبٌ في الوجه، من أثَرِ الاستياءِ في النفس، ويُطْلَقُ الْبُسُورُ على العبوسِ.

ثم لمَّا لم يَجدْ فِكْرَةً مُضَلِّلَةً أكْثَر قبولاً مِنَ الْفِكْرَةِ الّتي توصَّلَ إليها، أدْبَر واسْتَكْبَر، وقَدْ كشَفَ اللّهُ عزّ وجَلَّ هذا من حالِهِ، فقال تَعالَىٰ:

● ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: أدْبَرَ عَنْ مُتابَعَةِ النظر والتَّفكُّر، إذْ لَمْ يَجِدْ مَا يُقنِعُ به أقْوَىٰ ممّا تَوَصَّلَ إليه، واسْتَكْبَر عَنِ الإيمانِ بالقرآن وبالرسول محمّد ﷺ.

وعندئذٍ أعْلَنَ مقولَتَهُ الَّتِي تَوَصَّلَ إلَيْها فقَالَ كَما جَاءَ فِي الآيَتَيْنِ التَّالِيَتَيْن:

● قولُ الله عزَّ وجل:

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: فقال الوليد بن المغيرة: مَا هَذا القرآنُ الذي يتْلُوهُ مُحَمَّدٌ إلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ.

«إِنْ» هُنَا أداةُ نفي مثل: «ما». ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا الْقُرآنُ. ﴿إِلَّا

سِحْرٌ﴾ أي: إلاَّ كلاَمٌ هو من قَبِيلِ السِّحْرِ الّذِي يُؤَثِّرُ فِي النفوس ويَسْتَوْلِي عليها.

﴿يُؤْثَرُ﴾: أي: يُنقَلُ عَنْ أهْلِ القرون الأولى، والمعنَىٰ أنَّ مُحَمَّداً وجَدَ وسِيلةً يَنقُلُ بِها هذا الكلامَ السِّحْرِيَّ عَنِ الأَوَّلين، فكلَّما اطّلَعَ علَىٰ شيءٍ منه حفظه وتلاه على الناس وزعم أنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ يُوحِي اللَّهُ به إلَيْهِ، وهذه فريةٌ مفضوحةٌ لا شُبْهَة تؤيِّدها من واقع حَال الرّسول محمد ﷺ.

وَبَعْدَ هذا القرار النِّهَائِي الَّذِي توصَّلَ إليه الوليد بَعْدَ مَراحِلِ تفكيره الَّذِي تَرَيَّثَ فيه وتمَهَّلَ طويلاً، اقتضت الحكمة الرَّبَّانيَّةُ أن يُوجِّهَ اللَّهُ لَهُ ولِنُظَرائِهِ الإنْذَارَ بعذابٍ في سَقَرَ يَشْتَمِلُ على لقَطَاتٍ فِيهَا بَعْضُ تَصْوِيرٍ لعذابِ المكذِّبين المستكْبِرين فِيها.

● قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾.

سَأُصْلِيهِ: أي: سأعذِّبه بالحريقِ، يُقال لغة: صَلِيَ النَّارَ، وصَلِيَ بهَا، إذا احترق فيها، ولامَسَ لهَبُها جسَدَهُ مُحْرِقاً، ويقال أيضاً: أصْلاهُ في النّار وأصلاهُ بها، أي: أدْخَلَهُ فيها ليحترق، وكذلِكَ يقالُ: صَلاَّهُ، ومنه: ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾.

سَقَرَ: اسْمُ علَمٌ من أسماء جَهَنَّم دار العذاب يوْمَ الدِّين، وسمِّيث جهنَّمُ باسْم «سَقَر» لبُعْدِ قَعْرها وشدَّة حَرِّها، فالسَّقْرُ البُعْد، ويقال لغةً: سَقَرَتْه الشمسُ إذا ضربَتْ دِماغَهُ بحرِّها وأذابته. ولفظ «سَقَرَ» ممنوعٌ من الصرف للعلمية والتأنيث.

فمعنَىٰ: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾: سأُدْخِلُهُ جهَنَّم ليحترقَ فيها، ويَذُوقَ عذابَ الحريقِ بالنَّار.

ورُوي عن ابْن عبّاسٍ أنّ «سَقَرَ» اسْمٌ للطبقة السادسة من النار. وقيل: هي الطبقة الخامسة.

فقَدْ وَرَدَ أنّ دركاتِ جهنَّم سبْعَةٌ: ١ ـ جهنم ٢ ـ لظى ٣ ـ الحطمة ٤ ـ السّعير ٥ ـ سَقَر ٦ ـ الجحيم ٧ ـ الهاوية.

واللَّهُ أعلم.

● ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ هذه العبارَةُ وأَشْبَاهُهَا في القرآن صيغَةٌ منْ صيغ التَّعْجِيب القرآنيَّة المبتَكَرَة ضمْن قواعد اللّسانِ العربيّ. والمعنى: أعظم بأَمْرِ سَقَرَ إعظاماً لا تَصِلُ إلَيْه درايَتُكَ مهما فكَّرْتَ وسبَحْتَ في تصوُّراتك، لأنّه لم يمرَّ في خبراتِكَ ولا في تصوُّراتك شيءٌ، يَجْعَلُكَ تقيسُ هذا الأَمْرَ عليه. والخطابُ في ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ موجَّهٌ بالإفراد لكلّ صالحٍ للخطاب.

وتحليلُ هٰذه العبارة ونظائرها على الوجه التالي:

وأيُّ شيءٍ أعْلَمَكَ ما سَقَرُ؟!. أيّ: أنت لا تدري عظمة سَقَر وهَوْلَ أَمْرِها إلاّ إذا أَعْلَمْنَاكَ بذلك. «ما» استفهامية، يُسْتَفهم بها عن حقيقة الشيء وماهيَّته، وهو هنا استفهام يرادُ به التعجيب من شِدَّةِ هَوْل «سَقَرَ» وعَظَمتها.

● ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾: ما المراد بأنّ «سَقَرَ» لاَ تُبْقِي ولا تَذَرُ؟

هل المراد: لا تُبْقِي ولاَ تَذَرُ شيئاً دَخَلَها إلاّ أحْرَقَتْهُ وأَفْنَتْه لِشدَّةِ حَرَارتها؟، وعلى هذا فهُوَ تَعْبِيرٌ يرادُ به بَيَانُ شِدَّةِ حرارتها الَّتِي تأكُلُ كُلَّ شيءٍ وتُفْنِي كلَّ شيءٍ دَخلَ فِيها، فَيزيدها حرّاً، ويُستَثنى من الداخل فيها المعذَّبون، إذْ يُجدِّدُ اللَّهُ خَلْقَ جُلُودِهم ليذوقوا العذاب، وهذا الاستثناء جاء في بيانٍ غير هذا البيان من القرآن، ومنه ما جاء في الآية التالية:

● ﴿لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾: أيْ: مُسَوِّدَةٌ بِحَرِيقها لِجُلُودِ المعذَّبِينَ فِيها، يقال لغة: لَوَّحَتِ الشَّمْسُ فُلاناً إذا غَيَّرَتْ لَوْنَ جِلْدِهِ وَسَوَّدَتْهُ، أي: فهي لا تفنيهم.

ومنه أيضاً قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾﴾.

فَهُمْ دَاخلَها في مَوْقِعٍ يَمَسُّهُمْ لَهَبُ النَّارِ فَيَذُوقُونَ عَذابَ الحريق، ولَكِنَّهَا لاَ تأكُلُهم، إنَّما تُنْضِجُ جلودَهُمْ فَيبَدِّلُهم اللَّهُ جُلُوداً ذاتَ إحساسٍ ليذوقوا العذاب.

ويحتمل أن يكون المراد بعبارة: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾: لا تَبْقِي فيها أحداً يحْيَا حياةً سالمة منَ العذاب بالْحَرِيق، ولا تَذَرُ فيها أحداً يتخلَّصُ بالموْت من هذا العذاب، وهذا المعنى يؤيِّدهُ ما جاء في قول الله عزّ وجل في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول) في وصْفِ عذاب الأشقَىٰ، وهو الكافر المكذّب بما جاء به الرسُول الأمين عن ربّه:

﴿ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾﴾:

أي: لا يموتُ فَيَسْتَرِيحُ بالموْتِ من العذابِ، ولا يحْيَا حياةً فيها راحَةٌ من عذابِ الْحَرِيقِ بالنّار.

- ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: يُشْرِفُ عَلَىٰ تَعْذِيب المعذَّبِينَ في سَقَرَ تِسْعَة عَشَرَ منَ الملائِكَةِ، أَمَّا كَوْنُهُمْ من الملائكة فقد دلَّتْ نُصُوصٌ كثيرة جدّاً في القرآن والسُّنَّةِ على أنَّ المكَلفين بتَعْذِيبِ أَهْل النّارِ يوْمَ الدّين هُمْ من الملائكة الّذين لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ.

والآيَةُ الأخيرَةُ من هذا الدرس الثالث من دروس السورة تُبيِّن أَنَّهُمْ من الملائكة كما سيأتي إن شاء الله.

ولكن ما المراد بعبارة: «تِسْعَةَ عَشَرَ».

هل هم «تسعة عَشَرَ» مَلَكاً فرداً؟ أو هم «تسعة عشر» صِنْفاً؟ أو هُمْ «تِسْعَةَ عَشَرَ» صَفًّا؟

اللَّهُ أَعْلَمُ بمراده، إذْ لَمْ يَرِد بيانٌ صريح عن الرسول ﷺ في هذا الأمر، وإنْ كان الظّاهِرُ ممَّا ورَدَ من تعليقات المشركين على هذا العدد أنّهم تسعَةَ عشَرَ ملكاً فرداً.

أمَّا الْمُؤْمِنُونَ بما جاء عن الله على لسان رسول الله ﷺ، فلا يَجِدونَ أيَّ إشكالٍ حول أيّ بيان عن الله عزّ وجلّ في بيان أعداد المكلّفِين من الملائكةِ للقيام بأعمالٍ يأمُرُهم الله بها، فلَوْ كانَ المكلَّفُ ملكاً واحداً لكان كافياً في تصوُّرِهِم الإيمانيّ للقيام بكلّ ما يأمُرُهُ اللَّهُ به من أعمالٍ جَليلة، لأنّ الله عزّ وجلّ يعطيه حينئذٍ القدرة علىٰ ما يُكلِّفُه القيامَ به من عَمَل، وما الملائكة في مقادير الله عزّ وجلّ إلاَّ مخلوقات مدركة حيّة مطيعة لله، وهي تَدْخُل ضمن الأنظمة السببية التي جعلها الله في كونه، والتي قضت بها حكمته، وَسَتَرَ بها أعمالَهُ التكوينيَّة الَّتِي يجريها ضِمْنَ قانونه الذي دَلَّ عليه قوله تعالى في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

لَكِنْ ثَبَتَ أنّ الملائكة كثيرونَ جدًّا، وأنّهم أصنافٌ وأنواعٌ، وأنّ لبعْضِهم وظائِفَ يَقُومون بها في أعمال الخلْقِ، أو المراقبة والتسجيل، أو التعذيب، أو التنعيم والتكريم، أو الحفظ والحماية، أو غير ذلِكَ من أُمُورٍ لا تُحصَىٰ، بذلك قضَتْ حكمةُ اللَّهِ في الْخَلْقِ، فنَحْن نُؤْمِنُ بما يأتينا حوْلَهم من بيانٍ عن اللَّهِ أَوْ عَنْ رسُولِهِ مُسَلِّمينَ، ولا نَجِدُ في أيّ شيءٍ من ذَلِكَ أيّ إشكالٍ فِكْرِيّ، فالأَمْرُ من أُمُورِ الغيب، وهو يقَعُ ضمْن الجائزات العقليّة، وقد وَرَدَ عن الصادقِ الأمين المؤيَّد بالمعجزاتِ الرَّبَّانِيَّةِ، فالواجِبُ

التَّسْلِيمُ به، وكُلُّ بيانٍ لم نَكُنْ على عِلْمٍ بِه يزيدُنا معارفَ إيمانيَّةً عَنْ أُمُورٍ غيبيَّة.

لكِنَّ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾ قَدْ أثار هُزْءَ سُفَهاءِ الكافرين وسُخْرِيَتَهُمْ، إذْ تَصَوَّرُوا أَنَّ هؤلاء المكلَّفِينَ لِتَعْذِيبِ الكافرين في سَقَرَ، هُمْ من الْبَشَر أو من أشباه البشر، فكَانَ من تعليقاتهم ما يلي:

(١) روى الطبريُّ عن ابْنِ عبّاسٍ وقتادة أنَّ أبا جهل قال لقريش: ثكلَتْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ أَسْمَعُ ابْنَ أبي كبْشَةَ يُخْبِرُكُمْ أَنَّ خَزَنَةَ النَّارِ تسعَةَ عَشَرَ، وأَنْتُمُ الدَّهْمُ[1]، أفيعْجِزُ كُلُّ عَشَرَةٍ مِنْكُمْ أَنْ يَبْطِشُوا بِرَجُلٍ مِنْ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ؟!

فأنزل الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ . . .﴾ الآية.

(٢) وَجَاءَ في تفسير الْقُرطبيّ عن السُّدِّي، أنَّ أَبَا الأَشَدِّ بن كَلَدَةَ الْجُمَحيّ قَالَ مُسْتَهْزِئاً: «لاَ يَهُولَنَّكُمُ التِّسْعَةَ عَشَرَ، أَنَا أَدْفَعُ بمَنْكِبي الأيْمَنِ عَشَرَةً، وبمَنْكِبي الأَيْسَرِ تِسْعَةً، ثُمَّ تَمُرُّونَ إلى الجنَّةِ».

(٣) وقيل: قالَ الحارثُ بْنُ كَلَدَةَ: «أنا أكفيكُمْ سَبْعَةَ عَشَرَ، واكْفُوني أَنْتُمُ اثنين».

يريد التهكُّم وإظهارَ قوَّته بين قومه.

إنَّ أمثال هذه الأقوال لا تَصْدُرُ إلاَّ عن جاهلٍ ذي حماقة، أو كافِرٍ مستهزئ.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ

(١) الدَّهْم: أي: العدد الكثير.

لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

سبق بيان سبب نزول هذه الآية، وقد جاء في هذه الآية دفعٌ لأوهام المستهزئين بكون عدد خزنة «سَقَرَ» تِسْعَةَ عشر، وبيانٌ للحكمةِ من ذكْرِ عدَدِهِمْ في التنزيل، ولِلْغاية من وراء تحقيق الحكمة.

● أمّا دفع أوهام المستهزئين فقد جاء في قول الله تعالى فيها:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾.

أي: ليس خزنة «سَقَرَ» بشراً ولا أشباه البشر، حتَّىٰ تَسْتَهْزِئوا بكون عددهم تسعةَ عشر، بل هم ملائكة، والمشركون يَعْلَمُون ممّا لديْهم من ميراث النبوّات الأولى أنَّ من الملائكة مَنْ ينْسِفُ الجبال، ويُزَلْزِلُ الأرض، ويكفي لتعذيب الأُلوف المؤلّفة من البشر.

أصحاب النار: المراد من أصحاب النار هنا الملائكة المشرفون على تعذيب المعذبين فيها، والملازمون لمواقعهم فيها.

الصاحب: الرفيق الملازم للشيء، ويأتي بمَعْنَىٰ القائم على أَمْرِهِ، أو الموجود فيه، أو الموجود معه، وهذه المعاني مأخوذة من معنَىٰ الملازمة.

● وأَمَّا بَيَانُ الحكمةِ من ذكْرِ عَدَدِهِمْ فِي التنزيل، فهو يشتمل على ذِكْرِ أصْنَافِ الْمُتَلَقِّينَ للتنزيل القرآني، وأَثَرِ بيانِ عَدَدِهم لدَىٰ كُلِّ صنف مِنْهُمْ، والأصناف هم:

الصنف الأوّل: الذين كفَرُوا بمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحمَّدٍ وغيرِه من الرُّسُل.

الصنف الثاني: الذين أُوتُوا الكتاب من قَبْلُ.

الصنف الثالث: الّذين آمَنُوا بالله ورسوله وبما أُنْزِل عليه.

الصنف الرابع: الَّذِين في قُلوبهم مرَضٌ لم يَبْلُغْ مَبْلَغَ الكُفر.

فبيان كَوْنِ عَدَدِ المشرِفين على تَعْذيب المعذّبين في «سَقَرَ» تسْعَةَ عَشَرَ له عدّة حِكم ربّانيّة:

(١) إنّ هذا البيان هو بالنسبة إلى الكافرين فتنة لهم، أي: امتحانٌ لعُقولهم وإراداتهم، فالكافر المعاند حين يَسْمَعُ أنَّ خَزَنَةَ دارِ العذاب يوم الدين تسعةَ عَشَرَ. . . يَزِيدُ في غَيِّهِ وكُفْرِهِ، ولو أَنَّهُ اسْتَخدم ما مَنَحَهُ الله عزّ وجلّ من عَقْلٍ وتفكير لَعَلِمَ أنّ هذا تنزيلٌ من عند الله، الّذي بيده ملكوتُ السماواتِ والأرض، وأنّه ليس من كلامِ محمّد ﷺ، ولو أنّه كان من كلامه لما اقتصر على أنْ يخوّفَهُمْ بملائكة عذاب عددهم تسْعَةَ عشر، فهو امتحانٌ يجعلُهم أكثَرَ ميْلاً إلىٰ الإصرار على الكُفر، مع أنّه في حقيقته يوقظ فيهم إدْراكَ أنَّ هَذا البيان تنزيلٌ من عند الله، وقد كان الكُفَّارُ بيَوْمِ الدّين من المشركين يُؤْمِنُونَ بالرّبّ الخالق، فالرَّأْيُ الحصيف يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن وبأنباء الغيب الّتي جاء بها، فَهُمْ بهذا البيان يُفْتَنُونَ، أي: يُمْتَحَنُونَ، لكِنَّهُمْ بحماقتهم وسفاهتهم يسْقُطُونَ في الفتنة، فيكْتَوُونَ بنار العذاب.

وقد دلَّ على هذه الحكمة قول الله عزّ وجلّ في الآية:

﴿. . وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا . . .﴾:

أي: وما جعلْنَا ذِكْر عِدَّتِهِمْ إلاّ مَادَّة امتحانٍ بالنسبة إلى الذين كَفَروا بما أُنزِلَ على محمّد والرُّسُل من قبله. لفظ: «فتنةً» مفعول به ثان لفعل: «جَعَلْنَا»، والقصر هنا قَصْرٌ إضافي، أي: بالنسبة إلى الذين كفروا.

وينتج عن هذا الامتحان لدَىٰ هؤلاء الكافرين ظاهرتان:

الظَّاهِرَةُ الأُولى: أَنْ يُعْلِنُوا اسْتهزاءَهم وكُفْرَهُمْ، كالذي كان من أبي جهل، وأَبي الأشدّ بن كَلَدَة، والحارثِ بْنِ كَلَدة، على ما وَرَدَ في سبب النزول.

الظَّاهِرَة الثانية: أَنْ يَقُولُوا على سبيل الاستهزاء والسّخْرِيَةِ والإنكار: مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مثَلاً؟! أي: لا يُعْقَلُ أَنْ يكون ذكر عددهم هذا من كلام اللّهِ، بل هو من كلام محمد، إذْ لا فائدةَ تُدْرَكُ مِنْ ذِكْرِ هٰذا الْعَدَدِ بالذّاتِ.

وقَدْ دَلَّ عَلَىٰ هذه الظّاهرة، قولُ الله عزَّ وجلَّ في الآيَة:

﴿. . . وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا . . .﴾.

أي: ماذا أراد اللّهُ عزَّ وجلَّ بِذِكْرِ هذا الوصْفِ، وهو كونُ عدد خزنة «سَقَر» تِسْعَةَ عشر.

كلمة «مَثَلاً» جاءت هنا بمعنى «وصف» وهو أحد معاني هذه الكلمة.

يقولون هذا على سبيل الاستهزاء لإنكار أن يكون القرآن منزَّلاً من عند الله، لأن الله عزّ وجلّ لا يُنَزِّل كلاماً لا فائدةَ مِنْه مثْلَ هذا الكلام، أي: فَمُحمَّد هو الذي جاء به من عنده.

(٢) وهذا البيان هو بالنّسبةِ إلى الّذين أوتوا الكتابَ مِنْ قَبْلُ وكانُوا عَلَىٰ عِلْمٍ بما جاء في كتُبِهِمْ أو على ألسِنةِ رسُلهِم منْ أنّ خَزَنَة «سَقَرَ» تِسْعَةَ عَشَرَ. . . يُعْطِيهِم يَقِيناً بصِدْقِ مُحَمَّدٍ فيما يُبلِّغُ عن رَبِّهِ، وأنّه رسول الله حقّاً، بِسَبَبِ أنَّ هٰذِه المعلُومَةَ هي من كُنُوز المعلوماتِ لديهم عن عالم الآخرة، لاَ يعلَمُ بها إلاَّ خواصُّ عُلَمائِهِمْ، وهذا اليقينُ العلميُّ يَدْفَعُ طالِبي الحقّ من عُلَمائِهِم إلى الإيمان بمحمّدٍ واتّباعِه، أمّا غير طالبي الحقّ فإنَّهُمْ يَجْحَدُونَ، مَعَ أنَّ نُفوسَهُمْ قَدْ اسْتَقَرَّ لَدَيْها اليقين.

دلَّ على هذه الحكمة قول اللّهِ عزَّ وجلَّ فِي الآية:

﴿. . . لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ . . .﴾.

أي: وجعلْنَا هذا البيانَ بالنسبة إلى عُلماءِ أهل الكتاب دليلاً يستيقنون

به أَنّ محمّداً رسولُ الله، يُبَلِّغ عن ربِّه حقائقَ غيبيَّةً لا يَعْلَمُها إلاَّ نبيٌّ يُوحَىٰ إليه.

ولا يقتضي هذا الاستيقانُ إيمانَ من استَيْقَن، فكثيرٌ من الناس يجحدون، مع أنّهم في أنفسهم مستيقنون.

(٣) وهذا البيانُ هو بالنسبة إلى الذين آمنوا بمحمَّدٍ ﷺ وبمَا يُنَزِّلُ اللَّهُ عليه من القرآن وغيره يزيدُهُمْ إيماناً.

دلَّ على هٰذه الحكمة قول الله عزّ وجلّ في الآية:

﴿. . . وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا . . .﴾.

أي: وجعَلْنا هَذَا البيانَ بالنِّسْبَةِ إلى الذين آمنوا بمحمد ﷺ وبما يُبَلِّغُهُ عن ربِّه ليزدادوا إيماناً.

وبالتَّدَبُّر نلاحِظُ أَنَّ زيادَةَ إيمانهم ذاتُ ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أَنْ تَزْدَادَ لَدَيْهِمُ العناصر الغيبيَّةُ الَّتِي يُؤْمِنُونَ بها، إذْ جاء في هذا البيانُ مَعْلُومَةٌ جَدِيدَةٌ لم يكُونُوا على عِلْمٍ بها.

الوجه الثاني: أنْ يزداد إيمانُهُمْ بِصدْقِ الْقُرْآنِ وصِدْقِ الرَّسُولِ، بسبب التطابُقِ بيْنَ ما جاء في القرآن، وما هو مِنْ كُنُوزِ الْعِلْمِ عن الآخِرَةِ لَدىٰ عُلَماءِ أَهْلِ الكتاب.

الوجه الثالث: أنَّ عِلْمَهُمْ بملائكة العذاب المشرفين على تَعْذِيب الكُفَّار في النار يوم الدّين، وعلْمَهُمْ بعددهم، يهُزُّ في قُلُوبهم الوجَلَ، فيزيدُ إيمانهم بعدلِ اللَّهِ وعقابه، ويزيدُهُمْ خوفاً وحذراً من الكُفْرِ، ويزيدُ الْتزامَهُمْ بطاعة اللَّهِ عزّ وجلَّ وحِرْصَهُمْ على العمل بمراضيه، إذْ تَدُورُ الحركةُ الفاعلة والْمُنْفَعِلَةُ بين الإيمان والْعَمَلِ، وبِهَذِهِ الحركة يزداد الإيمانُ رُسُوخاً وعُمْقاً وثباتاً، نتيجة تأثير وضوح الرُّؤيةِ الإيمانيَّة، في التوجيه لصالح العمل، وتأثير

الأعمال الصالحات في ترسيخ الإيمان وتثبيته وتعميقه، نظير التأثير والتأثُّرِ بين جُذُور الشجرة وفروعها.

(٤) وهذا البيان هو بالنسبة إلى الّذين في قُلُوبهم مرضٌ من أمراض الشّكّ لم يَبْلُغْ مَبْلَغَ الكُفر... يَجْعَلُهم يتساءلُون مستفهمين أو باحثين متشككينَ، إذ هُمْ في منْزِلَةٍ وُسْطَىٰ بين الإيمان والكُفر، فيقولون: ماذا أراد اللّهُ ببيان كون عدد خَزَنَةِ النار تِسْعَةَ عشر؟! على سبيل الاستفهام والبحثِ عن الحكمةِ والتعجُّب وطلب معرفة الحق لا على سبيل الاستهزاء والإنكار.

دلَّ على هذا قول اللّهِ عزَّ وجلَّ في الآية:

﴿.. وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ...﴾.

إنّ عبارَة: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾؟! تَصْدُرُ مِنَ الكافِرين على معنَىٰ الاستهزاءِ والسخرِيَة وَإنْكار أَنْ يَكُونَ القرآن مُنَزَّلاً من عِنْدِ الله، واتّهامِ الرَّسُولِ بأَنَّهُ يتقَوَّلُهُ من عنده، وقد سبق الاستشهاد بها لدىٰ بيان موقف الذين كفروا.

وتَصْدُرُ أيْضاً من الشَّاكِينَ الذين في قُلوبهم مرضُ الشَّكِّ، فلَمْ يبلُغُوا مبْلَغَ الإيمانِ المستَقِرّ، ولا مبْلَغ الكُفْرِ الثابت، على سبيل الاستفهام والبحث عن الحكمة والتعجب وطلَب معرفة الحقّ، وقد جاء الاستشهاد بها هنا لبيان موقف الذين في قلوبهم مرض.

وهؤلاء إمّا أنْ تميل بهم كفّةُ الإيمانِ فَيُذْكِرُوا أَنَّهُ الحقُّ من ربّهم، وإمّا أنْ يَتأَثَّرُوا بوساوس الشيطان ونزغات وشبهات الكافرين، فتميلَ بهم الكفّةُ الأُخْرَىٰ إلَىٰ الكُفر، بدافع من أهواء نفوسهم وتعلُّقِهم بالحياة الدنيا وزينتها، وإيثارهم العاجلة على الآجلة.

فَهُمْ يُشَارِكُون الكافرين في كون هذا البيان فتنةً لهم واختباراً لإرَادَاتهم.

(٥) ويستفيد أيضاً المؤمِنُونَ وَعُلَمَاءُ أَهْلِ الكِتَاب من هذا البيان الّذِي تحقَّقُوا بِهِ أنّ القرآن مُنَزَّلٌ من عند اللّه، أن يَأْخُذُوا كُلَّ مَا سَيَأْتي به الرسول محمد ﷺ عن ربّه مستقبلاً هو حقٌّ لاَ رَيْبَ فِيه، فمتَى ثبتَتِ النُّبُوَّةُ والرِّسَالَةُ لِعَبْدٍ من عبادِ اللّهِ فلا سبيلَ للتَّشَكُّكِ والارْتِيابِ بها بَعْدَ ذلك، لأنَّ اللّهَ عَزَّ وَجلَّ لاَ يَسْلُبُ المصطَفَيْنَ من عباده للنبوّة والرّسَالَةِ مَا سَبَقَ أن اصطفاهُمْ له، واخْتَصَّهُمْ لحَمْل رسَالاته، فالرَّبُّ حكيم، وحكمته تأبَىٰ سلْبَ الاصطفاء للتبليغ عنه، إنه لم يصطفهم لذلك إلاَّ وهو عالمٌ بهم وعاصمهم.

دلَّ على هذه الحكمة قولُ اللّه عزّ وجلَّ في الآية:

﴿. . وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ . . .﴾.

أي: وحتَّىٰ لا يرْتَاب مستقبلاً علماءُ الّذين أُوتُوا الكتاب من قَبْلُ والمؤمِنُونَ بمحمَّد ﷺ وبما جاء به عَنْ رَبّه في أيِّ بلاغٍ يُبَلِّغُهُ عن رَبِّه، بل سَيَأْخُذونَهُ بالتَّسْلِيم الْمُطْلَق الذي لا يُصاحِبُهُ ارْتيابٌ ولا شكٌّ، ويتقصرُ بَحْثُهُم على فَهمِ الْمُرادِ مِنَ البيانِ الْمُنَزَّلِ على الرسُول.

❁ ❁ ❁

وبعد بيان هٰذِهِ الحِكَمِ الرَّبَّانيَّةِ الْخَمْسِ الّتِي اشْتَمَلَتْ عليها الآيَةُ، لا بُدَّ أَنْ يُدْرِكَ المتدبّرُ أَنَّ أحكامَ اللّهِ القضائيّةَ سَتُلاَحِقُ كُلَّ صِنْفٍ مِنَ النَّاسِ بِمَا يَسْتَحِقُّ مِنْ عَدْلٍ أَوْ فَضْل.

أمَّا مَنْ ضَلَّ باختياره الْحُرّ فَسَيَحْكُمُ اللّهُ عليه بالضلالة، ثم يجازِيهِ بحَسَبِ ضلاله.

وأمَّا من اهتدَىٰ باخْتِيارِهِ الحرّ فآمَنَ وَسَمِعَ وأطاع وأسْلَم، فَسَيَحْكُمُ اللّهُ له بالهداية، ثم يُثِيبُهُ ثواباً عظيماً، بمقتضىٰ واسِعِ منّتِهِ على عباده.

دلَّ على هذه الحقيقة من حقائق صفاتِ اللَّهِ في معاملة الممتَحَنِين من عباده بالعدل أو بالفضل، قول الله عزّ وجلّ في الآية:

﴿... كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ...﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ المشارُ إليه باسم الإشارة [ذَلِكَ] مخاطباً به كُلُّ صالحٍ للخطاب على سبيل التناوب، مواقف أصناف الناس تجاه قضايا دين الله الحق.

والكاف من ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تَدُلُّ على أنّ أحكام اللَّهِ عزّ وجلَّ القضائيَّة مماثِلَةٌ لأفْعَالِ العباد الاختياريَّةِ في الضلالَةِ وفي الهداية، فالإضلال تقتضيه حكْمَةُ العدْل، والهداية تقتضيها حِكْمَةُ الْعَدْلِ والْفَضْلِ معاً، ومَشيئَةُ اللَّه المطلقة لا تفارقُ حكمته.

فالمعنى: مثْلَ مَواقف أصناف المكلفين تأتي أحكامُ الله القضائيَّة، بمشيئته المطلقة الّتي لا تفارقُ حكمته عَدْلاً أو فَضْلاً، فَهُوَ بهذه المشيئة الحكيمة يَحْكُمُ بضلال مَنْ اجتاز رحلة امتحانه ضالاً باختياره، ويَحْكُمُ بهدايةِ من اجتاز رِحْلَةَ امتحانِهِ مهتدياً باختياره.

ومعلومٌ أَنَّ الحكْمَ القضائي يتْبَعُه الجزاءُ بالعدْلِ أو بالْفَضْل.

❁ ❁ ❁

وبَعْدَ كلّ البيانات التوضيحيَّة السابقة بقي حول مَوْضوع الآية سؤالان، يحتاجُ كُلُّ واحدٍ مِنهما إلى إجابَةٍ حكيمةٍ من بيانٍ رَبَّانيّ:

السُّؤال الأوَّل: إذا كان الملائكة المشرفُون بالتكليف الربَّاني على تَعْذِيب المعذّبين في سَقَرَ تِسْعَةَ عشَرَ فرداً، أو صنْفاً، أو صَفًّا، أفَلَيْسَ لله عزّ وجلّ جنُودٌ غَيْرُهم؟.

وجَاء الجواب على هذا السؤال بقول اللَّه عزَّ وجلّ:

﴿... وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ...﴾.

أي: وإِنَّ جُنودَ رَبِّكَ أيّها الصالحُ للخطاب أيَّ مُخاطَبٍ كنْتَ كثيرون جدًّا، ما يَعْلَمُهُم في أشخاصهم ولاَ في أعدادهم إلاَّ رَبُّكَ وحْدَه جلَّ جلاله، الذي هو رَبُّ كلّ شيء، فلا يعلَمُهُمْ جميعاً مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا نبيٌّ مرسل.

فلا تَحْسَبُوا أيّها المستهزئون بعِدَّةِ خَزَنَةِ «سَقَرَ» أنَّ جُنُودَ اللَّهِ جلَّ جلالُهُ مُنْحَصِرُونَ في التِّسْعَةَ عشر المأمُورين بالإشرافِ على التعذيب فيها، فجُنُودُ اللَّهِ لا يَعْلَمُهم إحصاءً إلاَّ الرَّبُّ جلّ جلاله.

ويُدْرِكُ المتدَبِّر أنَّ كُلَّ أنواعِ الرِّجْزِ الَّتِي عذّب اللَّهُ بها بعْضَ عباده في الحياة الدنيا، كالجراد، والْقُمَّل، والطاعون، والفيروسات المضنيات والقاتلات، هي من جُنُودِ اللّهِ.

والعاقل يقيسُ أحوال الآخِرَةِ على أحوالِ الدُّنيا، في الحدود الدُّنيا، ثُمَّ يُطْلِقُ للتَّصَوُّرِ أَنْ يَزيد في أحوالِ الآخرة دون حدود تقف عندها الزيادات التصوُّرِيَّةِ أو التخيُّلِيَّة.

السؤال الثاني: إنَّ ذِكْرَ «سَقَرَ» الَّتي خَوَّف اللَّهُ عباده الكافرين من عذابها، وما اقترنَ بذِكْرِها مِن عِدَّة الملائكةِ المشرفين على التعذيب فيها، ومن كوْنِهَا لوَّاحَةً لِجُلُودِ المعذّبين بِلَهَبِها، بيانٌ خَبَرِيٌّ غَيْرُ مَشْهُودِ الذَّاتِ، وغَيْرُ مُدْرَكٍ بالحواسّ الظاهرة، فهِيَ أَمْرٌ من أمُورِ المستقبلِ غير المشهود، وهي بيانٌ نظريٌّ غَيْرُ مُقْتَرِنٍ بالتطبيق المشاهد، فمَا قيمةُ التَّخْوِيفِ بشيءٍ مَهُولٍ غير مَنْظُورٍ؟؟!

وجاء الجوابُ القرآنيُّ على هَذا السُّؤالِ بقول اللّهِ عزَّ وجلّ:

- ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾.

أي: وليست البيانَاتُ القرآنيَّةُ عن «سَقَرَ» وما فيها من عذابٍ شديدٍ للكافرين، بياناتٍ لمخلُوقاتٍ لا تفكيرَ لديها، وَلاَ عَقْلَ يَعْقِلُ تَصَرُّفاتها، كالأنعام والبغال والحمير وغيرها من البهائم والدّوابّ الّتي تنحَصِرُ مُدركاتُها غالباً بالْحِسيّات.

بَلْ هذه البيانات عنها تَذْكِيرٌ للبَشَرِ، الّذِين يُدْرِكُونَ بأجْهِزَةِ التفكير لدَيْهم كثيراً من الغيبيَّاتِ الموجودة في هذا الكَوْنِ العظيم الواسع جدًّا، بأدلّةٍ فكريَّةٍ عقليَّة، ويُدْرِكُونَ الغيْبِيَّات المستقبليَّة الَّتي تأْتيهم بها الأخبارُ الصادقَةُ عن الرَّبِّ الّذِي آمَنُوا بِهِ رَبًّا خالقاً، وَتَدُلُّهُمُ الأدِلَّةُ الفكريَّةُ العقليَّةُ على وجوب الإيمان بِرُسُلِهِ المؤيَّدين منه بالمعجزاتِ الباهرات، ووجوب الإيمانِ بما يُبَلّغُونه عن رَبِّهم جلَّ جلالُه.

فهٰذِهِ البيانات بياناتٌ للبشر، لا للحمير والبقر وأمثالهما، فَمَنْ عَلِمَ أنّه بشَرٌ خلَقَهُ اللَّهُ في أَحْسَنِ تقويم، فإنَّ عليه أنْ يَجْعَل هذه البيانات الرَّبَّانيّةَ مُذَكِّرَةً لَهُ دَواماً.

كلمة ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ تأتي دالَّةً على ثلاثة معاني:

(١) إنّها تأتي بمعنى «التذكير» إذ هيَ اسْمٌ له، ومعلومٌ، أنَّ البيان في القرآن عن «سَقَرَ» فيه معنَىٰ التذكير آخِراً، بَعْدَ الإخبارِ أوّلاً، أي: يأتي الإخبار بمضمونِ البيان أوّلاً، والمطلوبُ من المتلقّي أنْ يكون مُتَذَكِّراً له دَوَاماً، ليأخذ حِذْرَهُ، ويبتَعِدَ عن مُسَبِّبات دُخول «سَقَرَ» في كلّ أحواله وتصرُّفاتِه الإراديَّة.

(٢) وَتأتي «الذكرى» بمعنىٰ «التَّذكُّر» ومعلومٌ أنَّ العاقل الرشيد الذي يُدْرِك بأدواتِ المعرفةِ لدَيْه ما هو مخيف مُرْعِبٌ، يترَصَّدُ السالِكَ في أَحَدِ سُبُلِ الضلالة، فإنَّهُ يجعلُه دائماً في ذاكرَتِه، فيَحْذَرُ سُلُوكَ سبُلِ الضلالة.

(٣) وتأتي «الذكْرَىٰ» اسْماً للتَّذْكِرَة، وهي الوسيلة الَّتي تُتَّخَذُ للتذكيرِ، كالبطاقة الَّتِي تُذَكِّرُ بموعدٍ أو شيءٍ ما، وَكالرَّتيمة التي توضع في الإصبع للتذكير.

وكلّ هذه المعاني الثلاثَة تَصْلُح هنا، وتذكُّرُ المخاوف والتذكيرُ بها من الوسائلِ الرادعة الزاجرة الحاجزة عما يوقع بشرورها.

❁ ❁ ❁

● قول الله عزّ وجل:

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾.

اشتملت هذه الآياتُ على زَجْرٍ لمنكري «سَقَر» وللشاكّين فيها، وأُتْبع هذا الزَّجْر بتوكيد صحَّةِ الخبر الوارد بشأن سَقَر، وقد جاء هذا التوكيد بصيغَة قَسَم مُوَجَّهٍ من الرَّبّ الخالق، واختير للمُقْسَم به بَعْضُ ظواهر الكون المشهود بالحواسّ، الَّتِي هي من آثار خَلْقِ اللّه عزّ وجلّ، أمّا الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ فَهُو كوْنُ «سَقَرَ» لَإِحْدَىٰ الكائِنَاتِ العظيماتِ الْكُبَرِ الَّتِي ستكُونُ مَشْهُودَةً للنَّاسِ بحواسِّهِمْ يوْمَ الدّين، مثل الظواهر الكونيّةِ المشهودة الآن في الحياة الدنيا، فكلُّ ذَلِكَ من خَلْقِ الله، وآثارٌ من آثار قدرته وعِلْمِهِ وحكمته، والقسم بالمشهودِ منها من قِبَلِ الْخَالِقِ دليلٌ على صحَّةِ خَبَرِ الغيبيّ غَيْرِ الْمَشْهُودِ لهم الآن، لكِنَّهُ سيكون مشهوداً لَهُمْ يومَ الدين.

وتحليل هذا الْقَسَمِ وأمثاله يكونُ على الوجه التالي:

أُقْسِمُ بصفاتي الَّتِي تَرَوْنَ من آثارها في الكَوْنِ ظَواهِر الْقَمَرِ واللَّيْلِ والصُّبْحِ على أنَّ «سَقَرَ» إحدَىٰ الْكَائِنَاتِ الكُبَرِ في دار العذاب المعدَّة للكافِرِينَ المجرمين يوم الدّين. إنَّكُمْ إذا تدَبَّرْتُمْ قَسَمِي أَدْرَكْتُمْ أَنِّي كَمَا خَلَقْتُ الظَّواهِرَ العظيمة الَّتي تشهدونها، فقد أعْدَدْتُ في خطَّةِ التكوين داراً عظيمةً لعذاب المعذَّبين يوم الدّين، وفيها دركةُ «سَقَرَ» وأدْرَكْتُمْ أَنِّي على ما أشاء قدير، وإنّهُ ليس من صفاتي أَن أُخْلِفَ وَعِيدِي ولاَ وَعْدِي.

إنّ «سَقَرَ» الَّتي أَعْدَدْتُها ليوم الدّين، وأخبرتكم الآن بِها، وَأُحذِّرُكُمْ

مِنها، وأقول لكم بشأنِها: إنَّها لَإحدَىٰ الكائناتِ الكُبَرِ هي نَذِيرٌ لِلْبَشَرِ، أي: إنَّ الإعلام بها يتضمَّن إنذاراً للْبَشَر جميعاً، وكُلٌّ مِنهُمْ يختارُ بمشيئته الحرَّةِ ما يَشَاءُ من إيمان أو كُفر، وعليه أن يتحمَّلَ نتيجة اختياره، فَمَنْ شاء الكُفْرَ والجحود تَقَدَّم إلى «سَقَرَ» غَيْرَ مُكترِثٍ للإنْذار، ومن شاء الإيمانَ والإسْلاَمَ خَوْفاً من الإنْذار تأخَّرَ إلى مواقع النجاة فَسَلِم.

﴿كَلَّا﴾ أداةُ زَجْرٍ ورَدْع، وهُما موجَّهان لمنكِري «سَقَرَ» وللشَّاكِين في وُجودها، وللمستهزئين بأنَّ خَزَنَتَهَا تسْعَةَ عشر.

﴿وَالْقَمَرِ﴾ الواو واو القسم، **القَمر**: ظاهرة كونيّة مشهودة هي من آثار خلْق الله، وآثار هذا الخلق تظهر في ذات القمر وفي صفاته، وفي إتقان نظام حركته، وفي منافِعِهِ للنَّاسِ في الأَرْضِ، وفي جَعْلِهِ مسخَّراً لتحقيق منافع كثيرة لهم، ومعلوم أنَّ منافع القمر ظاهرة مشهودة، أَمّا ما فيه من إتقانٍ وإحكامٍ في حجمه، ووضعه في مداره ومنازله فَلِعُلَمَاءِ الْفَلَك في شأنها بُحُوثٌ مستفيضة تَدُلُّ على عظمة الخالق الذي أتقن كلَّ شيءٍ صُنْعاً.

● ﴿وَالَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: وأُقسِمُ باللَّيْلِ إِذْ يكُونُ مُدْبِراً، تَظْهَرُ مَعَ إدْبارِهِ بدايَاتُ نُور الْفَجْر، وإدبار اللّيل وظهور الفجر إحدىٰ آياتَ الله في كونه.

﴿إِذْ أَدْبَرَ﴾ قراءة نافع، وحَفْصٍ عن عاصم، وحَمْزَة، ويعقوبُ وخَلَف، وقرأ باقي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِذَا دبَرَ].

أَدْبَرَ، ودَبَرَ: بمَعْنَىٰ: ذَهَب، فالقراءتانِ لُغَتَانِ متكافئتان.

إذْ، وإذا: كلاَهُمَا ظَرْفُ زَمانٍ متعلّقٌ بمحذوف حالٍ، فَهُما متكافئتان أيضاً.

● ﴿وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: وأُقسِمُ بالصُّبْحِ إذَا وضَح وانكشَفَ نُورُه.

أَسْفَر: أي: وضَحَ وانكشفَ، وهٰذه الظاهرة إحدى آيات الله في كونه أيضاً.

اختار اللّٰهُ هنا الْقَسَم بالْقَمَرِ الّذي يُمِدُّ الأَرْض بالنُّور، وباللَّيْلِ في وَقْت إدْبَاره وظُهُورِ نُورِ الْفَجْر، وبالصُّبْحِ في وقْتِ إسْفارِه وانْكشافِ نُورِهِ، إيثاراً للقَسَمِ بالنّور الّذِي يُشَابِهُ العِلْمَ والْهُدىٰ، وابْتَعَدَ عن الْقَسَم بالظُّلْمَةِ الّتي تُشَابه الْجَهْلَ والضَّلاَلَة، ومعلومٌ أنَّ رِسالَةَ اللّٰهِ في القرآن تتضمَّنُ الدَّعْوَة إلى العلم والهدى، والخروج من الْجَهْلِ والكُفْرِ، فتمّ التناسُبُ والتلاؤم.

يُضافُ إلى ذلِكَ أَنَّ الظُّلُماتِ تتحقَّقُ تِلْقَائِيّاً عِنْدَ انْعِدَامِ النُّورِ وانسِلاَخِهِ، أَمَّا النُّورُ فَيُوجَدُ بمصادِرِ نُورٍ أَوْ ضِيَاءٍ يَخْلُقُهَا اللّٰه جلّ جلاله، فهي الدالَّةُ على كَمَالِ الْقُدْرة وإحْكام الخلْقِ وإتْقَانِ الصُّنْع.

● ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥﴾: تضمّن معنى هذه الآية الْمُقْسَمَ عليه، أي: إنَّ دَرَكَةَ «سَقَرَ» من دَرَكاتِ جهَنَّمَ، لَإِحْدَىٰ الْكَائِنَاتِ العظيماتِ الْكُبْرَيَات.

الْكُبَرُ: جَمْعُ مُفْرَدُهُ «الْكُبْرَىٰ».

وقد جاء تأكيد هذه الجملة بأربَعةِ مؤكّدات: «الْقَسم ـ والجملة الاسميّة ـ وَحرف «إنَّ» المشبَّه بالفعل ـ واللاّم المزحلَقة في لَإِحْدَىٰ».

● ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦﴾:

لفظ: **«نذير»** يأتي اسماً للإنذار الذي هو مصْدَرُ أنذر، **والإنْذار**: هو الإعلام والإخبارُ بعواقب غير سارَّة، وهذه العواقب قد تكون جزاءَ ارْتكابِ ذنبٍ أو معصيةٍ أو جُرْم أو سلوك طريقٍ ما، أو تخويفاً من ارتكاب شيءٍ من ذَلِك، أو تخويفاً من ظالم يَغْدُو بَشَرّ: لاتّخاذ الحذَر والوقاية، والمخوفُ منه قد يكون مادّياً أو معنويّاً.

ويأتي لفظ: «نذيرٍ» بمعنى «مُنْذِر».

والجمْعُ لكلٍّ من المعنيَيْنِ «نُذُر».

والنَّذَارَة: الإنْذَارُ بشَرٍ أَوْ سُوءٍ.

فمعنى: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾ أَنَّ سَقَرَ لَإِحْدَى الْكُبَرِ حَالَةَ كَوْنِ الْحَديث عنها في القرآن وما فيها مِنْ هَوْلٍ عظيم، وعذابٍ أليم، إنْذَاراً لِلْبَشَرِ حَتَّىٰ لا يَذْهَبُوا مَذاهِبَ الكُفْرِ والتكذيب بما أنزل اللّهُ على رَسُوله، وهذا الإنذارُ مُوَجَّهٌ لكلّ البشر، إلاَّ أنَّ المُنْتَفِعَ به من استجاب لدعوة الرَّسُولِ وصَدَّقَ ببلاغاته عن ربّه، مختاراً بمشيئته الحرّةِ الإيمانَ والعمل الصالح.

● ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾:

كان الحديث عن البشر بأسلوب الحديث عن الغائب، فالتفت النصّ إلى أسلوب خطاب البشر بهذه الآية، خطاباً مباشراً، ليحمّل المكلفين مسؤولية اختياراتهم الحرَّة.

أي: إنّ الحديث عن «سَقَرَ» إنذاراً للبشر، موجّهٌ لذوي المشيئة الحرّة والاختيار منهم، وهم أهل التكليف:

فمن شاء أن يتقدّم منكم أيّها البشر إلى مُقْتَضِيَاتِ العذاب بسَقَرَ، بأنْ يكْفُرَ ويُكَذِّبَ الرَّسُول ويُكذِّبَ بما جاء به عن ربّه، غَيْرَ مكترِثٍ للإنذار ولا عَابئٍ به تَقَدَّمَ غَيْرَ مُكْرَهٍ بِدَفْعٍ ولاَ مَنع، وعَلَيْهِ أنْ يتحمَّلَ نتائِجَ اختيارِه بمَشيئته الحرّة خُلوداً في العذاب الأليم في «سقر».

ومنْ شاء أنْ يتأخّر إلى مواقع النجاةِ والسَّلامَة بالإيمان والعمل الصالح، تأخَّرَ باختياره الحرّ غَيْرَ مُكْرَهٍ بدفعٍ ولا مَنعٍ، فَسَلِم وَنَجا وظَفِرَ.

هذا المعنى للتقدُّم والتأخُّرِ هُو المعنى الذي ذكَرَهُ السُّدّي، وهو الأكْثَرُ ملاءمة لكون سقر إنذاراً للبشر، فالحديث عنها، والتقدُّم يكون إليها،

والتأخُّرُ يكُونُ حَذراً منها. ورأىٰ بعض أهل التأويل أنّ المراد بالتقدم التقدُّمُ للإيمان والإسلام، وأن التأخر هو التأخُّرُ عنهما تأثُّراً بإيحاء لفظ التقدم المشعر بالمدح، وبلفظ التأخر المشعر بالذمّ.



(٩)
التدبُّر التحليليّ للدّرس الرابع

الآيات من (٣٨ ـ ٤٨)

قال الله عزّ وجلّ:

● ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩ فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ۝٤٧ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾.

نظرة عامة حول هذا الدرس:

الحديث عن الإنْذار الذي جاء في صدر السورة، ثم التهديدُ بِسَقَرَ إحدى طبقات دار العذاب يوم الدّين، مَعَ بيان عدد الملائكة المشرفين على تَعْذِيب المعذّبين في النّار عموماً، ثُمّ التأكيدُ بالْقَسَم على أَنَّ سَقَرَ لَإِحْدَىٰ الكائنات العظيمات المهولات الكُبْرَيات، يُثير لدى المتلقّين سؤالاً حوْلَ أحْوَالِ المكلَّفِينَ بالنّسبة إلى دار العذاب يوم الدين، وقد أجابَ هذا الدَّرْسُ الرَّابعُ جواباً كُلّيًا فيه بعضُ تفصيل يتعلّقُ بالمجرمين، أمّا المؤمنون أصحابُ اليمين فقد جاء الحديث عَنْهُمْ مجملاً، وتُرِكَ تفصيل أحوالهم لما سينزل بَعْدَ المدَّثِرِ من نجومِ التنزيل في سُوَرِ القرآن.

فالكافرون المكذبون بيوم الدّين الذين يَجُرُّهم تكذيبهم لارتكاب

الجرائم الكبرى، فَسَيَكونُونَ مُرْتَهَنِينَ محبوسين حبساً أبديًا في دار العذاب يوم الدّين.

وأمَّا المؤمنون أصْحَابُ اليمين فَهُمْ مُسْتَثْنَوْن من هذا الحبس الأبدي في دار العذاب.

وقد دَلَّت سائر النصوص على أنَّهُمْ يكونون يوم الدّين بحَسَب أحوالهم ارْتقاءً فوق الحَبْسِ الأَبدي، وهذا يشْمَلُ دَرَجَاتِ الحبْسِ المؤقَّت، ويشْمَلُ مَرْتَبَةَ النَّجاة من عذاب اللَّهِ مطْلقاً، ومَرَاتِبَ النَّعِيم المقيم في جنّاتِ النعيم على اختلاف دَرَجاتها حتَّىٰ أعْلَىٰ دَرَجَاتِ الْفِرْدَوْسِ، حيْثُ منازلُ نَعِيمِ المصطَفَيْن الأخيارِ من المرسَلِين.

وقَدَّمَ هذا الدرس الرابع من دُرُوس السّورة صُورَةَ تساؤُلٍ سيَحْدُثُ بين أصحاب الجنَّةِ وهُمْ في الجنَّةِ يومَ الدِّين، عن معارفهم في الدنيا من المجرمين، فلا يَجِدُ بعضُهُمْ عند بعضٍ جواباً شافياً، فيُتِيحُ اللَّهُ لهم وسيلَةً يُشَاهِدُونَ بها المجرمين يُعَذَّبُونَ في سَقَرَ، ويتحدّثون بها معهم.

واقتطع النصّ من أحداث المستقبل حواراً سيَجْرِي بين بَعْضِ أصحاب الجنَّة ومعارفهم في الدُّنيا من نُزَلاَءِ سقَرَ، وعرضَهُ كأنَّهُ حَدَثٌ جرَىٰ في زمانٍ مضىٰ، وهَذَا مِن بدائع القرآن الفنيَّة، الّتِي يكون التعبير فيها عمَّا سيَحْدُث في المستقبل حتماً، بعبارات الأَحْدَاثِ الماضية.

قال المتسائلُون من أصحاب الجنة، لمعارفهم في الدنيا من نُزَلاَء سَقَرَ:

ما هو العمل الإجرامي الّذِي أدْخَلَكُمْ في «سَقَر»؟!

قال المسؤولون: لَمْ نَكُ مِنَ المصلّين، ولم نَكُ نُطْعِمُ المسكين، وكُنَّا نخوضُ مع الخائضين في كُلِّ إثْمٍ وجُرْمٍ، وكُنَّا نُكَذِّبُ بيَوْمِ الدِّين، واسْتَمَرَّ حالُنَا كذلِكَ حتَّىٰ أتَانا يَقِينُ الموت، وانقطعَتْ عنَّا أَسبابُ النجاة من العذاب الأبديّ.

التدبُّر التحليلي:

قولُ اللّه عزّ وجل متحدّثاً عن يوم الدين:

● ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾: قضيَّةٌ كُلّيَّةٌ يَدْخُلُ في أفْرَادِها النفوسُ المكلّفَة الكاسِبَةُ لأعمالها باختيارها الحرّ في الحياة الدُّنيا، وغيرها من النفوس.

﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾: قرينَةٌ دلّتْ على قَيْدٍ يُخَصِّصُ عُمُومَ عبارة: «كلُّ نفس» بالنفوسِ المكلّفَةِ في الدُّنيا، الكاسبَةِ لأعمالها باختيارها الحرّ، والمسؤولَةِ عند الله عَمَّا كَسَبَتْ لمحاسبتها ومُجَازَاتها.

﴿رَهِينَةٌ﴾: بمَعْنَىٰ مَحْبُوسة، ورَهِين: بمعنىٰ مَحْبُوس، وهو ممّا شاع في الاستعمال، وأصْلُ الرَّهينَةِ الرَّهْنُ مصدراً بوزن «فَعِيلَة» كالشّتيمة والشَّتْمِ.

وجاء في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) قولُ الله عزّ وجَلَّ:

﴿... كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

أي: محبوسٌ في دار العذاب بسبب ما كسب من جرائم تستوجب في عدل الله حبْسَهُ فيها حَبْساً أبدِيًّا.

﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾: جاء في القرآن وصْفُ أصحاب اليمين، بأنَّهُمْ يُعْطَوْنَ صحُفَ أعمالهم يوم القيامة بأيمانهم، وهم الذين ماتوا على إيمانٍ صحيح.

أمّا أصحابُ الشمال فإنَّهم يُعْطَوْن صحُفَ أعمال بشمائلهم، وهم الذين أتاهم الموتُ وهم كافِرُون.

وجاء فيه أنَّ أصحاب اليمين هم أصْحَابُ الْمَيْمَنة، **الميمنَةُ**: هي البركة، والجهةُ الّتي تكونُ شَطْرَ اليمين، فموقِعُهم يَوْمَ القيامة يكونُ شَطْرَ اليمين، ويكون ميموناً مباركاً. أمّا أصحاب الشمال فهم أصحاب الْمَشْأَمَة.

المشأَمَةُ: الشُّؤمُ، والجهة الَّتي تكون شَطْرَ الشمال، فموقعهم يوم القيامة يكون شطر الشمال، ويكون مشؤوماً.

وجاء فيه أنَّ أصحاب اليمين يوم القيامة يَسْعَىٰ نورُهم بين أيديهم وَبأيمانهم.

أمّا أصحاب الشمال فلا نور لهم بل هم يوم القيامة يتَخَبَّطُونَ في الظلمات.

ولمَّا كان من أصحاب اليمين طوائفُ يُعذَّبُون في دار العذاب يوم الدين، كما جاء في نصوصٍ قاطعات متعدّدات، كَانَ علينا أَنْ نفهم أَنّ المرادَ من كون كُلِّ نفسٍ بما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ، وأنَّ كُلَّ امرئٍ بما كَسَبَ رَهِينٌ، استمرارِيَّةُ السِّجْنِ الأَبَدِيِّ في دار العذاب لخصوص الكافرين، إذِ المعذَّبُون من أَهْلِ اليمين يَنَالُونَ مَا قُضِيَ عليهم منْ عذابٍ مؤقّتٍ فيها، ثُمّ يُخْرَجُونَ منها، ويكونُ مَصِيرُهُمْ إلى الجنَّةِ دار النعيم، بما في قلوبهم من إيمانٍ صحيح مقبولٍ عند الله، وقد ماتُوا عليه ولَقُوا اللَّهَ رَبَّهُمْ به.

فيكونُ معنىٰ قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾.

كُلُّ نَفْسٍ مُكَلَّفَةٍ كَاسِبَةٍ لأعمالها باختيارِها الحرّ، مسؤولَةٍ عنْدَ اللَّهِ عمَّا كَسَبَتْ لمحاسبتها ومجازاتها، ستكون مَحْبُوسَةً بمَا كَسَبَتْ يوم الدّين في دار الْعَذَابِ النَّار حَبْساً أَبدِيًا لا نِهَايَةَ له، باستثناء أَصْحَابِ اليمين، وهُمُ الّذِينَ ماتُوا على إيمانٍ صحيحٍ مَقْبُولٍ عنْد اللَّه، فإنَّ من يُجَازَىٰ منهم بالدُّخُول في دار العذاب لا يكون سِجْنُه فيها أبديًا، ولا يَسْتَمِرُّ رهيناً فيها إلى ما لا نهاية له.

قول اللَّه عزَّ وجلَّ يَعْرِضُ لقطَةً من لقَطَات أحداث أهل الْيَمِين وهم في جنَّاتِ النعيم يوم الدِّين:

• ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤١﴾.

﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾: أي: هُمْ في جنَّاتٍ، فالعبارةُ خَبَرُ مبتدأٍ محذوف تقدير «هُمْ» وهو ضميرٌ يعودُ على «أصحاب اليمين».

وجاء لفظ «جنَّاتٍ» منكّراً للتنويع والتكثير، أي: في جنَّاتٍ كثيراتٍ ومُتَنوّعَاتٍ مُتَفَاضلات بحسَبِ أحوال أهل دار النعيم، ووصفَها اللّه عزّ وجلّ بأنّها جنّاتٌ مع أنّها جميعاً في دار واحدة كبرى للمؤمنين المتقين على مراتبهم ودرجاتهم، للإشعار بأنَّ كلَّ قسْمٍ من أقسامها يصْلُح بمفرده لأنْ يكون جنّةً عظيمةً جدّاً.

ويَدُلُّ ذِكْرُ لفظ «جنَّاتٍ» على أنَّ المشهد المعروض في النَّصّ يتكَرَّرُ حدوثُهُ لدى نُزَلاَءِ هذه الجنَّاتِ على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم، فجماعات في جناتِ عدنٍ يتساءلون، وجماعات أُخَر في جناتَ الفردوس يتساءلون، وهكذا.

• ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤١﴾.

أي: يَسْأَلُ أصْحَابُ الْيمين بَعْضُهُمْ بَعْضاً عن معارفهم من الّذِين كانُوا مُجْرِمِين في الدُّنيا، ويقتضي هذا وُجودَ مشاهدَ متعدِّدةٍ كثيرةٍ موزَّعَةٍ في جنَّاتٍ كثيراتٍ متنوّعاتٍ، وهذه المشاهِدُ مُتَماثلَةٌ في مضمونها، فَيُعَبَّرُ عنْها بتعبير واحد.

لكِنَّ المتسائلين لا يَجدُ بعضُهُمْ عند بعضٍ جواباً شافياً عمّا صار إليه المجرمون، وعن الأسباب التي جعلتهم خالدين في عذاب السّعير.

ولعلّهم يرغبون في أن يُطْلِعَهم اللّهُ على أحوالهم، فيُتِيح اللّه عزّ وجلّ لهم وسيلَةً يُشَاهدونَ بها معارفهم من المجرمين وهم يُعَذّبونَ في سَقَر، ويَتَحدَّثُونَ بها معهم، ويَتلَقَّوْنَ بها إجاباتهم، وقَدْ غدا مثل هذا أمراً ميسوراً في مبتكرات الناسِ في الحياة الدّنيا، السلكيّةِ وغير السلكيّة.

وإذْ يتمّ الاتصالُ بين أهل اليمين والمجرمين وهم في داريهما على الرُّغم من المسافات الشاسعات بين الفريقين، فإنه يجري الحوار بينهما، وقد جاء التعبير القرآنيُّ على شكل حوار جرىٰ فعلاً ومضىٰ زمانه، لتأكيد تحقُّق أنَّهُ سَيَقَعُ في المستقبل حتماً، فالآتي في المستقبل حتماً كالواقع فيما مضىٰ، كلاهما ينطبقُ عليه أنّه صدْقٌ وحقٌّ.

ويكون الحوار كما يلي:

● قال أصحابُ اليمين للمجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾؟! أي: ما أَدْخَلَكُمْ في دار العذاب «سَقَرَ»؟

السُّلوك في الشيء الدخولُ فيه وعُبُورُه، ويُقَالُ أيضاً: سَلَكَ الشيءَ في الشيءِ إذا أدخله فيه، وجعَلَهُ يَعْبُرُه.

● قال المجرمون وهم في سقر: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾.

● ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾:

أي: لم نَكُنْ منَ المؤمنين الذين يُصَلُّون لربّهم، وهذا البيان هو بمثابة اعْترافٍ منهم بأنّهم لم يكونُوا يَعْرفون الصّلَة باللّهِ رَبّهم، ولاَ يُؤَدُّونَ واجب الخضوع له في قيام بين يديه، وركوعٍ وسُجودٍ له، ولم يكونوا يدعُونَه إلاَّ وهُمْ به مشركون.

ونُدْرِكُ من هذا أنَّ الصَّلاة للّهِ عزّ وجلّ ذاتُ أهميَّةٍ عُظْمَىٰ في الدين، إذْ أَوّلُ مَا يَذْكُرُهُ أهْلُ سَقَرَ مُبَيِّنين سبب دخولهم فيها أَنَّهُمْ لم يكونوا من المؤمنين المصلين.

وبالتأمُّل نُدْرِكُ أنَّ أوّل تعبيرٍ عَمَلِيٍّ عن إيمان المؤمن بربه وإسلامه له أنْ يكون من المصلّين، الذين يَدْعُونَه لاَ يُشْركون به شيئاً، ويُعْلِنُون خضوعهم له بالوقوف أذلاَّء بين يديه، والركوع والسجود له.

ودلّ حذف النون من «لم نَكُنْ» وهو وجه جائز في العربية، على أنّهم في منازلهم في سَقَرَ يوجزون عباراتهم إيجازاً شديداً، حتّى بحذْف حرْفٍ لا يؤثّر حذفه على المعنى الذي يريدون التّعبير عنه، فحالُ من يكونُ في العذاب حالُ ضَجَرٍ وتذمُّرٍ وعدم رغبةٍ في القول إلاَّ عند مقتضٍ شديدٍ يقتضي منهم أن يَطْلُبُوا شيئاً أو يُجِيبوا على سؤالٍ مُهِمٍّ.

● ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: ويَعْتَرِفون بأنَّهُمْ كانوا في علاقاتهم الاجتماعيّة وواجباتهم الإنسانيّةِ تجاه الجائعين المساكِينَ أَشِحَّاء بخلاء، لا تتحرَّك قُلُوبُهم نحوهم بعاطفةٍ إنسانيّة، ولا تندَى برحْمَةٍ.

إنّ حاجةَ الجائِعِ إلى الطعام من أشدّ حاجات الحياة، ويَشْعُر بها كلُّ إنسان، فإذا وجَدَ من عِنْدَهُ طعامٌ إنساناً جائِعاً حقًّا، وهذا الجائع لا يَمْلِكُ ما يَسُدُّ به جوعه وحاجته إلى الطعام، كمسكينٍ يُعْلِنُ عن حاجته وجوعه، ويظْهَرُ من حاله فقرُه وحاجته، ثُمَّ لم يُسْعِفْه بالإطعام، فإنّه يكُونُ أبْخلَ النّاس، لا رَحْمَةَ في قَلْبِه، فهو يستَحِقُّ أَنْ يُعَامَلَ بالمثلِ فلا يَرْحَمه رَبُّه يوم الدين.

ومَنْ لا يَجِدُ في نفسه دافعاً لإطعام المسكين دون مكافأةٍ يرجوها منه، فإنّه لن يكون لديه دافع لعطاء نافع ينفع به غَيْرَهُ من الناس ابتغاء وجه الله، وطلَبَ مرضاته.

فدلّت هذه العبارة على أنّهم لم يكن منهم خيْرٌ للنّاس في علاقاتهم الاجتماعية.

واختير الإطعام لأنّه من أَشدّ حاجات الناس الضرورية.

واختير الجائع المسكين لأنَّهُ كاشِفٌ نفسَه، مُتَعَرِّضٌ لمن يُطْعِمُه، يَسْتَعْطِفُ قُلوبَ الرحماء، وليس هو من الفقراء المتعفّفين الّذِين لا يسألون

الناس، فيحسبهُمُ الجاهلون أغنياء من التعفُّف، فالفقير المستور الجائع المجهولُ الحال قد يُعْذَرُ عند الله من لم يطعمه ولو كان قريباً منه.

المسكين: هو من يُظْهر الفقر، ولو لم يكن في واقع حاله الخفيّ فقيراً.

أمّا الفقير: فهو من كان في واقع حاله فقيراً، ولو لم يَكُنْ يُظْهر فقْرَه وحاجته.

هذا ما انتهيت إليه في التفريق بين الفقير والمسكين(١).

وجاء هنا أيضاً حَذْفُ نون «ولم نَكُنْ» فجاءت: ﴿وَلَمْ نَكُ﴾ وقد سبق بيان الحكمة البلاغيَّة في هذا الحذف.

● ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

الخوض: هو في الأصل المشيُ في الماء وتحريكه، وبهذا التحريك تختلط الرواسب الراكدة بالماء، فيذهَبُ صفاؤُه، وتَسُوءُ حالُه.

ثُمَّ اسْتُعْمِلَ الْخَوضُ بمعنىٰ التلَبُّسِ بالأمر والتصرُّفِ فيه بطريقة تُشْبِهُ الخوض في الماء، والْخَوْضُ من الكلام ما فيه الكَذِبُ والباطل.

إنَّ نزلاء سَقَرَ يومَ الدّين يَعْتَرِفُونَ بأنّهم كانُوا في الحياة الدُّنْيَا يخوضُونَ مَعَ الخائضين، فيخلِطُونَ الكذِبَ والباطلَ في أقوالهم، ويخوضون في مَخَاضَات المعاصي والآثام، ومحرَّمات المظالم في الأَنْفُسِ والأَمْوَالِ والأعراض، مع الخائضين من الظالمين والطغاة وقادَةِ الشرّ والضلال في الأرض، ويشاركون أهل الشرّ والضُّرّ والضَّلالِ والفساد.

والتعبير بهذا الخوض يدُلُّ على أَنَّهم كانُوا يَقْتَرِفُونَ كُلَّ الجرائم والآثام

---

(١) انظر القاعدة (١٦) من كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ وجل» للمؤلف.

السّلوكية، التي كان الخائضون في الدنيا يقترفونها، دون خوف ولا وجَلٍ ولا حَذَرٍ من عاقبةٍ وخيمةٍ، ولا عذاب أليم عند ربّهم.

• ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: وكُنّا نُكَذِّبُ بِمَا جَاءَ عَنْ رَبّنا من أَخْبَارِ يَوْمِ الدِّين، يوم القيامة، والْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقِضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، الّذِي يكون به الإدانةُ على الأعمال الّتِي سلَفَتْ أيّامَ رحلة الابتلاء.

إنَّ تَكْذِيبَهُمْ رَسُولَ رَبِّهِمْ بِنَبأ يَوْم الدّين هو السَّبَبُ الرئيسُ الّذي جعلَهُمْ يقطَعُونَ الصِّلَة بِرَبِّهِم فلا يُصَلُّونَ لَهُ، وهو السَّبَبُ الذي جَفَّفَ منابع الرَّحْمَةِ فِي نفوسهم فجعلهم لا يطعمون المسكين، فضلاً عن بذلِ أي عَوْنٍ فَوْقَ ذلِكَ لمجتمعهم الإنسانيّ، وهو السبب الذي جعلهم يخوضُون في المعاصي والآثام وكبريات الجرائم مع أصناف الخائضين.

• ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: حتَّىٰ أتَانا يَقِينُ الْمَوْتِ الذي انكشفَ لَنَا عنْدَهُ يَقِين يوم الدين الذي كنَّا نُكَذِّبُ به.

فهم يعترفُونَ بأَنَّهُم اسْتَمَرُّوا على أحوالهم التي وصفوها طَوال رحلة امتحانهم، حتَّىٰ نزل بهم الموت، وانتهت مُدَّة الابتلاء، وبدأَتْ رحلة زمن الدّينونة والجزاء.

وبما أَنَّهُم قَدْ مَاتُوا دُونَ أَنْ يُقَدِّمُوا لأنفسهم في رحلة امتحانهم ما يُنْجِيهم من عذابِ ربّهم يوم الدّين، فإنَّ نفوسَهُمْ لاَ تَجِدُ مَا تتعلَّقُ به غَيْرَ احْتِمَال أَنْ تَنْفَعَهُمْ عِنْدَ رَبّهم شفاعة شافِعِينَ لهم من إنْسٍ أو جنٍّ أَوْ مَلاَئِكة، لكنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا مَنْ يَشْفَعُ لهم عند ربّهم، ولو وجَدُوا مَنْ يَشْفَعُ لهم فشفاعته لهم لا تنفعهم.

● ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

لأنَّهم قضوا رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، ولَقُوا ربَّهُمْ وهم مكذبون بيوم الدّين، وبما بلَّغهم إياه رسُولُ ربّ العالمين.

إنَّ أحداً لا يسْتطيع أن يشفع لأحد يومئذٍ إلاَّ بإذن الله، واللَّهُ جلّ جلالُهُ لاَ يأذَنُ لِأَحدٍ بأن يَشْفَعَ لِمَنْ لَقِيَ رَبَّهُ كافِراً، ولو كان كُفْرُهُ من أَخَفّ دَرَكَاتِ الْكُفرِ، كَدَرَكَةِ أخَفّ أنواع الشرك في توحيدِ الرُّبوبية، أو توحيدِ الإلَهيَّة للَّهِ عزّ وجل، قال تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾.



(١٠)
التدبر التحليلي للدرس الخامس

الآيات من (٤٩ ـ ٥٦)

قال الله عزّ وجلّ:

● ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

● قرأ جُمْهور القرّاءِ الْعَشَرة: ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ بِكَسْرِ الْفَاءِ اسْمِ فاعل من «استَنْفَرَ».

وقرأ نافعٌ، وابْنُ عامر، وأبو جَعْفر: [مُسْتَنْفَرَةٌ] بفتح الفاء اسم مفعول. وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى.

● وقرأ جمهور القرّاء العشَرَة: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ بياء الغائب.

وقرأ نافع فقط: [وَمَا تَذْكُرُونَ] بتاء الخطاب. وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني.

نظرة عامّةٌ حول هذا الدرس:

● بعد عرْضٍ لقطةٍ من لقطات أحوال المجرمين في سَقَرَ يوم الدّين، في الدَّرْس الرابع السابق، وما قدَّمَهُ هذا الدَّرْسُ من مثيراتِ رهْبَةٍ وإقناعٍ معاً لهم ولغيرهم لو كانوا من أولي الألْباب.

● جاء الدرسُ الخامسُ مُتَابِعاً الحديث عن المجرمين، وناظراً إلَىٰ أحوالهم في ظروف الحياة الدنيا، ولكنّ الحديث عنهم ليس فيه مواجهةٌ لهم بالخطاب.

● فبدأ بتوجيه التعجيب من إعراضهم عن دَعْوة الرسول والقرآن لهم، ونُفُورِهم كَحُمُرِ الوحْشِ النافرة الخائفة من قُوَّةٍ مُكْرِهَةٍ متسلِّطَةٍ قاسِرَةٍ ذَاتِ قوة، مع أن دعوة القرآن والرسُولِ لَهُمْ دَعْوَةُ تَذْكِرَة، أي: دعوة بيان كلاميّ ينبغي أَنْ يَعُوهُ ويفهموهُ ويضَعُوهُ في ذَاكرتِهم دواماً، ولَيْسَتْ قضيَّة إكراه ولا جَبْرٍ ولا قَسْرٍ من قِبَلِ ذِي قُوَّة مُتَسلِّطَةٍ قَاسِرَةٍ تسوقُ بالْقَهْر.

● وبعد هذا التعجيب من أَمْرِ نُفُورِهم دُونَ مقتضٍ لهذا النفور، عَرَض الدّرْس علَّةَ نفوسهم في رفضهم الاستجابة للدّعْوَة أو التفكير في جوهرها، وفي العناصر التي تدعو للإيمان بها، فأبان قضيتَيْن:

القضيَّةُ الأولى: أنَّهُمْ مُسْتكْبِرُون عن الاستجابة لدعوة الرسول

محمّد ﷺ، واتّباعه نبيًّا رسُولاً، على أنَّ رسُولَهُمْ لَوْ كان زعيماً من زعمائهم لمَا استجابوا له، لأَنَّ كلَّ امْرِئٍ مِنْهُم يُرِيدُ أنْ يكُونَ نبيًّا، وأنْ يؤتِيَهُ اللَّهُ صُحُفاً مُنَشَّرَةً مَقْرُوءَةً لكُلِّ مَنْ يَطَّلِعُ عليها.

القضيّة الثانية: أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُون بالبعث والجزاء والدَّارِ الآخِرَة بَعْدَ هٰذِهِ الحياة الدنيا، فهم بسبب عدم إيمانهم لا يخافون الآخِرةَ وَما أعَدَّ اللَّهُ فيها من دار عذابٍ خالدٍ للمجرمين.

● وبعد بيان علَّةِ نُفُوسهم وَجّهَ اللَّهُ عز وجلَّ لهم عبارة الرَّدْع والزَّجْرِ: ﴿كَلَّآ﴾ وَأتْبَعَهَا بتأكيد أَنَّ مَا جاء في البيان القرآني هو مُجَرَّدُ تَذْكِرَةٍ للموضوعين في الحياة الدُّنيا موضع الابتلاء. وهذه التذكرَةُ مُوجّهةٌ لهم دون إكراه ولا جَبْرٍ وَلاَ قَسْرٍ، فلَهُمْ باختيارهم الحرِّ أَنْ يَعُوها ويَحْفَظُوها ويَذْكُرُوها إذا شَاءُوا ذلك، ولهم أَنْ يُعْرِضُوا عَنْهَا، ولا يَلْتَفِتُوا إلَيْها ولاَ يَعُوها ولا يَحْفَظُوها ولا يَذْكُروها، وَلَكِنْ عَلَيْهِم أن يتحمَّلُوا مسؤوليّةَ إعراضهم عنْدَ رَبِّهِمْ عذاباً أليماً في سَقَرَ، كما سَبَقَ به الإنْذَارُ في ثنايا السُّورَة.

● وأخيراً أَبانَ اللَّه عزّ وجلَّ أصْلاً من أُصول الإيمان، وهو أصْلٌ يَتَعَلَّقُ بموضوع القضاء والقدر، وحرِّيّة المكلَّفين ذوي الاختيار الحرّ في ظروف الحياة الدنيا، وهو يتضَمَّنُ أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلّ بمشيئته الحكيمة قَدْ جعل عباده المكلفين الممتحنين مختَارِين، يملكُونَ مشيئَةَ التَّذَكُّرِ والاستجابة للدّعوة، ومشيئة الإعراض والرفْضِ، وقَدْ منَحَهُمْ ذَلِكَ بحكْمَتِهِ ليبلُوَهم فيما آتاهم خلال ظروف الحياة الدنيا، ولو شاء سُبْحانه لسَلَبَهُمُ القُدْرَةَ على أنْ يشاءُوا، ولجَعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ لا اختيار لهم ولا مشيئة، كما جَعَلَ السَّمَاواتِ والأرضَ مجبورَةً لا تَمْلِكُ اختياراً في حركةٍ من حركاتها، وكَمَا جَعَلَ كلَّ مَا فِي جَسَدِ الإنْسَانِ مَجْبُوراً باستثناء إرادتِهِ وَمَا يَخْضَعُ لها من عَمَلٍ وتصرّفات.

ولو جَعَلَ اللَّهُ الناسُ مجبورِينَ حتَّىٰ في إرادتِهِم ومشيئاتهم الَّتِي يشاءُونها لَمَا جَعَلَهُمْ ممتحنين في ظروف الحياة الدنيا، ولَمَا كلَّفَهُمْ بالإيمان والطاعة، ولَما وَجَّهَ لهم الأوامر والنواهي، ولما مكَّنَهُمْ من المعصية.

● وخَتَم اللَّه عزّ وجلَّ السُّورةَ بعبارَةِ ثناءٍ على اللَّه جلَّ جلالُهُ، فيها تخويفٌ من عقابه، وفيها إطماعٌ بِمَغْفِرَته، فأبانَ تَعالَىٰ أنَّهُ أَهْلٌ لأنْ يُتَّقَىٰ عذَابُهُ، فهو العظيم الجليل القدير المنتقم الجبار، وأهلٌ لأَنْ تُرْجَىٰ مَغْفِرَتهُ، فهو العظيم الجليل الرحيم الْغَفَّارُ. فمن أصَرَّ على كُفْرِهِ عاقبه بعدله، ومن تاب إليه واسْتَغْفَرَهُ رَحِمَهُ فغفر له.

التدبُّر التحليلي:

قولُهُ تعالى:

● ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

الفاء: دلَّتْ هنا على أنَّ الكلام الذي جاء بعدها مبنيٌّ بناءً تفريعيًّا على الكلام الذي جاء قبلها.

«ما»: اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ. **«لَهُمْ»** متعلق بمحذوف خبر، والضمير عائد على الكفَّار المجرمين الذين تتحدّث السورة عنهم.

التَّذْكِرَةُ: ما يُسْتَذْكَرُ به الشيءُ المطلوبُ تَذَكُّرُهُ، كالرتيمة، والبطاقة الَّتِي تُذَكِّرُ بموعد اللّقاء أو الاجتماع أو نحو ذلك.

والقرآن المنزَّلُ على الرسول ﷺ يُثْبَتُ في الصُّحُف، لتكونَ هذه الصُّحفُ تَذْكِرَةً، أي: مُذَكِّرَةً بالحقائِقِ والبيانات والوصايا والتكاليف الرَّبَّانِيَّةِ المنَزَّلَة، ومن أجل هذا أطلق الله عزّ وجل عليه اسْمَ تَذْكِرَة.

وشأنُ التذكِرَة أن لا تُكرِهَ ولاَ تُجْبِرَ أحداً على ما لا يُريد هو فعلَه، بَلْ هي مُذَكِّرَةٌ تَذْكِيراً فِكْرِيّاً فقط، والقُرآنُ يُذَكِّرُ بالحقّ والواجب والنصيحة والخير والشرّ والوعد والوعيد.

مُعْرِضِين: الإعراضُ: إعطاءُ العارض وهو الجانب، وهو منزلةٌ وُسْطَىٰ بين الإقبال والإدْبار.

عارضا الإنسان: هما صفحتا خَدَّيه.

(عن التذكِرَة) معمول لـ**(معرضين)** متقدّمٌ عليه، وكلمةُ «معرضين» حال.

فالمعنى: أيُّ شيٍ هو للمجرمين المكذبين بما جاء به الرسُول محمَّد ﷺ إليهم، من حقّ أَو حُجَّةٍ أو حماية، أو مُسَوِّغ حالَةَ كونهم عن التَّذْكِرة معرضين، حتى يكون هذا الذي هو لهم أمراً يُسَوِّغُ لَهُم إعراضهم عن التذكرة، ويجْعَلُهُم معذُورين عند باريهم.

الجملة استفهامية، والغرض من الاستفهام هنا التعجيبُ من حالهم، مع الإشعار بأنّهم لا يملكُونَ شيئاً يُسَوِّغُ لهم الإعراضَ عن التَّذْكِرَة الرّبّانيّة، وإذا كانوا لا يملكُونَ مُسَوِّغاً فلا بُدَّ أَنْ يَقَعُوا تحْتَ طائلة المسؤوليّة والمحاسَبَةِ وفصل القضاء والجزاء بالعقاب الأليم يوم الدين.

● ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾:

حُمُرٌ: الْمُرادُ حُمُر الوحْش، لأَنّها هي الّتي تَنْفِرُ من الأسد أو من الصَّيَّادِين ذُعْراً إذا أحسَّتْ بأَحَدِهما.

مسْتَنْفِرَة: أي: نافِرَةٌ نفاراً شديداً، فالسِّين والتاء لبيان شدّة الحدَثِ الذي دلَّ عليه الفعل، والنّافر بشدّة يَعْدُو فارّاً بسرعته القصوىٰ.

وجاءَ في القراءة الأُخرى: «مُسْتَنْفَرَةٌ» على البناء لغير المعلوم، أي: نَفَّرَها مُنَفِّرٌ ما، كالأسَدِ.

قَسْوَرَة: جاء في كُتُب اللُّغَةِ أَنَّ الْقَسْوَرَة اسم من أسماء الأسد، وأنّه يُطْلَق على جماعة الرُّماة والصَّيادِين. والكلمةُ مأخوذة من الْقَسْرِ، وهو الْقَهْرُ على الكُرْهِ بالغَلَبَة، والمعنيان صالحان هنا معاً.

هذا النصُّ يشبّه المجرمين المعرضين بنفورٍ عن تذكِرَةِ القرآنِ الّتِي لا قَهْرَ فيها ولاَ غلَبَة وَلاَ قَسْرَ، بحُمُرِ الْوَحْشِ الّتِي تَشْتَدُّ فِي النُّفُورِ، إِذَا أَحَسَّتْ بأسَدٍ يتَرَصَّدُها لافتراسها، أو أحَسَّتْ بجماعةٍ من الرُّماة الصَّيَّادِين الّذِين يتَرصَّدُونَ صَيْدها.

وفي تَشْبِيهِ عَامَّتِهِمْ بالْحُمُر إيماءٌ إلى ضَعْفِ عقولهم، وقلّةِ إدْراكهم لحقائق الأمور، وسُخْفِ تَصَرُّفِهم تُجاه بيانات القرآن ودعوة الرسول ﷺ، إذْ هُمْ مُخَيَّرُون غير مَقْهُورِين ولا مقْسُورِين على الالتزام بما جاء في القرآن الذي هو بمثابَةِ التَّذْكِرةِ، فَلَيْسَ القرآنُ شيئاً مُكْرِهاً قاسراً بقوّةٍ مادّيّةٍ.

ونُلاحظ في هذا التشبيه أنّه قَدْ شُبِّهَتْ حالَةُ نفورِهِمْ النفسيّ عن القرآن، وعن دعوة الرَّسُولِ ﷺ بحالة النُّفور الحسّيّ الذي يكون من حُمُرِ الوحْشِ إذا أَحَسَّتْ بالأسد، أو بجماعة الرُّماة.

ونُلاحظُ في اختيار لفظ «الْقَسْوَرَة» المأْخُوذِ من الْقَسْر، إيماءً إلى أنّ أذكياءهم يَشْعُرُونَ بأنّ سُلْطان البراهين والحججِ والإقناعات والترغيبات القرآنية قادرةٌ على قَسْرِ عُقُولهم ونفوسهم وقلوبهم ومحاصرتهم من كلّ جانبٍ، فتُوقِعُهُمْ في أَسْرِ الإيمان، وهو أمْرٌ لا يريدونه، إذْ لا يُريدون مخالَفَةَ أهوائهم وشهواتهم ونوازعِ كِبْرِهِمْ، ورغباتهم في الفجور، فَهُمْ يَنْفرون منْهُ فارِّين.

وقد قرأتُ لبعض الملاحدة توصيةً لقرّائه بأنْ لا يقبلوا البحث في بعض الأوليّاتِ الفكريّة، التي تَتعلّقُ بقضايا أَصْل الْوُجود ونشأة الكَوْن، لئلا تَجُرَّهم هذه البحوث إلى الوقوع في براثِن الإيمان.

ما أعْجَبَ هذا الجنوح عن الحقّ والنُّفور عمّا يُوصِلُ إليه.

قولُهُ تعالى:

• ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ۝٥٣﴾.

في هاتين الآيتَيْن بيانٌ لعلّتِهم النفسيّة التي جعلَتْهُمْ ينفرون من تَذْكِرَةِ القرآن وبياناته، فجرَّتْهُمْ إلى الكفر الذي هم فيه، وهي تتلخّص بأمْرَين: ١ ـ الكِبْر. ٢ ـ وعدم الإيمان بالآخرة الّذي جعلهم لا يخافون من عقاب الله فيها.

• ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢﴾.

بل: هذه «بل» الابتدائية، وهي تتضمَّن معنى الإضراب عمّا سَبقها، والإضرابُ هنا فيه معنى إبطال معاذيرهم، لعدم الاستجابة لتذكِرَة القرآن، وما جاء به الرّسُولُ من بيان، إذْ كان من ادّعاءاتهم في معاذيرهم أنَّ القرآن سِحْرٌ يُؤْثر، وأنَّه قولُ البشر.

وفي قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ بيانٌ لعلّة الكِبْرِ في نفوسهم، الذي جعلهم يتطاولون إلى أن يكونَ كلُّ امْرِئٍ منهم ذي مكانةٍ فيهم نبيًا يُؤْتَىٰ من قبل ربِّه صُحُفاً تُنَزَّلُ عليه، وهٰذه الصُّحُف ينبغي أن تكون مُنَشَّرة.

مُنَشَّرَةً: النَّشْرُ خلاف الطيّ، يقال لغة: نَشَرَ الصَّحيفة يَنْشُرُها نَشْراً، أيْ: بسَطَهَا ولم يجْعَلْها مطويَّةً. ونَشَّرَ الصُّحُفَ بتَشْدِيد الشّين، أي: زادَ في بَسْطِها.

والمعنى أنّهم يُريدون أن تكونَ الصُّحُف الّتِي يُؤْتيهم اللَّهُ إيَّاها مُنَشَّرَة غير مطوية، رغبةً منهم في أن يكُون لها مظهر مُعْلَنٌ يَراهُ الناس، فيكون لهم به مَجْدُ الشهرة بأنّ الله نزّل عليهم هذه الصُّحُفَ مُكَرَّماً لهم بها، وهذا من فَرْطِ الكبْر في نفوسهم

● ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾: «بل» نظير سابقتها، أي: هُمْ لا يؤمنون بالآخرة حتَّىٰ يخافوا عقاب اللَّهِ عزّ وجل الذي أعَدَّهُ للمجرمين المكذبين فيها، وفي هذا بيان لعلّتِهم النفسيَّة الثانية.

فكِبْرُهُمْ وعدم خَوْفهم من الآخرة عِلّتَان كانتا السبب في إعراضهم ونفورهم عن القرآن.

قولُه تعالى:

● ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

● قرأ جمهور القراء العشرة: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ بياء الغائبين.

وقرأ نافع: [وَمَا تَذْكُرُونَ] بتاء المخاطبين.

وفي هاتين القراءتين تكامل بياني، فقراءة «نافع» تخاطب الناس المكلفين جميعاً، وقراءة الجمهور تتحدّث عنهم بالحديث عن الغائب.

﴿كَلَّآ﴾: كلمةُ رَدْعٍ وزَجْرٍ للّذين هم معرضون عن التذكرة كالْحُمُر المستنْفرة التي فرَّتْ من قَسْوَرَة، وردعٌ وزجْرٌ لهم عن أن يُؤْتَوْا صُحُفاً مُنَشَّرَة.

وجاء بعدها تأكيدُ كون القرآن الذي يفرُّون عنه مُجَرَّدَ تَذْكِرَةٍ غَير مقترنَةٍ بقُوَّةٍ ماديَّةٍ مُكْرِهةٍ مُجْبِرةٍ بِقَسْر.

● ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ الضمير يعود على القرآن الذي قال بشأنه الوليد بن المغيرة كما جاء في الدرس الثالث من دروس السورة: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

● ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: إنَّ الْقرآن تَذْكِرَةٌ مُوجَّهَةٌ لِمَشِيئَة الموضوعين في الحياة الدنيا

موضع الابتلاء، فَمَنْ شاءَ باخْتِيارِهِ الْحُرِّ أَنْ يَعِيَهُ ويتفَهَّمَهُ وَيَضَعَهُ في ذَاكِرَتِهِ فَهُوَ مُمَكَّنٌ مِنْ ذَلِكَ بقضاء اللّه وقَدَرِهِ، لأنّ الله منحه الإرادة الحرَّةَ، وسَخَّرَ لَهُ الأدوات الَّتِي يَذْكُرُ بها ما يشاءُ أَنْ يَذْكره، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَه، لاَ تَقِفُ دون تحقيق مشيئته قُوَّةٌ قاهِرَةٌ، صادّةٌ ولا صارفة ولا مُعَوّقة ولا مُلْغِيةٌ ولا سَالِبَةٌ.

ولئلاّ يتَوَهَّم مُتَوَهِّمٌ أَنَّ مَشيئَةَ الناس الْحُرَّةَ مَوْجُودة فيهم ذاتِيًا دون خَلْق خالِقٍ وَتَمْكِينِهِ وَتَسخِيره، قال اللَّهُ عزّ وجلّ في الآيَةِ الأخيرة:

- ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ . . .﴾:

أي: وما يَذْكُرُونَ بِمَشِيئتهم الحرَّة في أيّة حال من الأحوال إلاَّ في حالة مَشيئَةِ اللَّهِ أَنْ يمْنَحَهُم القدرةَ على المشيئة الحرّة، ويُسَخِّرَ لَهُم الأسبابَ الّتِي بها يَذْكُرُونَ، فجهاز المشيئة الحرَّة خَلْقٌ من خَلْقِهِ، والْقُدْرات التي بها يَشاءُون ويذكُرُون وَيَعْمَلُونَ أعمالهم كُلُّها لاَ تُوجَدُ إلاَّ بِخَلْقِهِ، والتَّمْكِينُ من استعمالها يكون منه، وبإذْنِه، وحُرِّيَّتُهُم مع كلّ ذلِكَ لا تتأثَّرُ بجبر ولا قسر، لكنْ من شاء الحقّ والخير والْهُدى صادقاً منحه اللّه توفيقاً ومعونة وأوزعه وزاده اندفاعاً وسداداً.

ولَمَّا كان الأمر يتعلَّقُ بابتلاء الناس في ظروف الحياة الدنيا، والابتلاءُ يقتضي المحاسبةَ وفصلَ القضاء والجزاء، ومن الجزاء العقاب على السيّئات، ولمَّا كانَ كُلُّ بني آدم خطّائين، ومنهم من يتوب ويستغفر، ومنهم من يُصِرُّ على معاصيه ويستكبر، ناسب أن يختم اللَّهُ عزّ وجل السورة بقوله:

- ﴿. . .هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾.

عبارة: فلانٌ أَهْلٌ لِكَذا تأتي بمعنى أَنَّه مستَحِقٌ لكذا، فالأَهْلُ للشيء هو المستحقُّ له، يُطْلَق لفظ «أهل» بالإفراد على الواحد وغيره، مثل: هُمَا أهل لكذا، وهُمْ أهْلٌ لكذا.

﴿ٱلتَّقْوَىٰ﴾ اسْمُ للاتقاء، وللتُّقَى، تقولُ لغة: اتَّقَيْتُ اتِّقَاءً، وتَوَقَّيْتُ

تَوَقِّياً، وتُقًى وَتَقِيَّةً وَتِقَاءً، إذا جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ما فيه أذىً أو ضُرٌّ أو عُقُوبَةٌ وِقَايَةً، أي: ما يقيكَ ويَحْمِيك ويحفظك.

ويُطْلَقُ المصدر واسْمُه توسُّعاً على من يَتَّقِي «أي: على اسم الفاعل» وعَلَىٰ مَنْ يُتَّقَىٰ «أي: على اسم المفعول» فَنَقُول: السلطان أهل للتَّقْوَىٰ، أي: لأنْ يُتَّقَىٰ عِقَابُهُ، وكلّ فرد من أفراد رعيَّةِ السُّلطان أَهْلٌ للتقوىٰ، أي: أهل لأنْ يتَّقِيَ عِقَابَ السُّلْطانِ.

ونظيره أن تقول: السُّلطانُ أهل للضَّرْبِ، أي: لأنِ يَضْرِب المذنبين، والمذنب أهل للضَّرْب، أي: لأنْ يُضْرَبَ عَلَى ما جَنَىٰ.

﴿ٱلْمَغْفِرَةِ﴾: مصْدَرُ غَفَر الشيءَ، إذا ستَرَهُ، تقولُ لُغَةً: غَفَرَ الشيْءَ يَغْفِرُهُ غَفْراً وَغُفْرَاناً وَمَغْفِرَةً، أي: سَتَرَه.

فوصف اللَّه عزّ وجلّ نفْسَه بأنَّهُ هو أهل التَّقْوىٰ وأهل المغفرة، معناهُ: أنّه هو المستَحِقُّ لأنْ يُتَّقَىٰ عذابُهُ وعِقَابُهُ، إذْ هو العليم الحكيم القدير على كلّ شيء، الْعَدْلُ الشّديد العقاب، الذي وضَعَ عباده في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الابتلاء. وهو الْمُسْتَحقُّ لأن تُرْجَىٰ رَحْمَتُه ومَغْفِرَتُهُ، إذْ هو الرحيم بعباده، الذي يقبل توبة من تاب من عباده وأناب إليه، والذي يغفر ذنوب من استغفره مستمطراً رحمته، وهو ما زال في رحلة الابتلاء.

وإثباتُ أَنَّ اللَّهَ جلَّ جَلاَلُهُ هو وحْدَهُ المستَحِقُّ لكُلِّ عناصر التقوى ومفرداتها، والمستحقُّ لكلّ عناصر المغفرة ومفرداتها، لا يَنْفِي أَنْ يكونَ لبَعْضِ عبادِهِ نَصِيبٌ ما ممّا يَنْبَغِي أَنْ يُتَّقَىٰ، ونَصِيبٌ ما من المغفرة، لمن أسَاءَ إليهم، فعبارة: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ لا تنفي ذلك.

بيان أدبيّ حول مضامين الدرس الخامس:

حقائق الدين الكبرىٰ أمُورٌ فَطَر اللَّهُ أفكارَ النّاس وعقولَهُمْ وأعْمَاقَ نفوسهم ووجداناتهم عليها.

أمَّا أهْواؤهم وَشهواتُهم وَرَغباتُهم من دنياهم فهي نزَّاعَةٌ إلى مخالَفَةِ مقتضياتها، وهُنَا تظهر عُقْدةُ الامتحان في ظروف الحياة الدنيا.

والرّسَالاَتُ الرّبّانيَّة في أُسُسِها تَكْشِفُ للناس الحقائق الكونيّة، والحقائق المغروزة في نفوسهم الَّتي فطرهم الله عليها، فهي معلّمةٌ ومُذَكِّرةٌ لهم بما في أعماق نفوسهم ممّا هُمْ مفْطُورون عليه وغافلون عنه.

فمن تكريم رسالة الإسلام للناس، وهي رسالةُ الرَّبّ الخالق لهم، أنّهَا تُقَدِّمُ نَفْسَها إليهم على أنّهَا تَذْكِرَةٌ وَذِكْرَىٰ، فَهِيَ نِصُوصٌ مُنَزَّلَةٌ من لَدُنِ الرَّبّ الحكيم العليم، وموضوعَةٌ للتلاوة والترتيلِ بينهم، حتَّىٰ تكونَ لَهُمْ ذِكْرَىٰ وَتَذْكِرَةً مُتَجَدِّدَة، ينتفع بها من لم يُطْغِه هواه، فأبْصَر طريقه، وأراد سعادة نفسه الحقيقيَّة، ولَمْ يُؤْثِرِ العاجلَةَ على الآجلة.

ومن تكريم رِسَالة الإسلام للناس، وهي رسالة الرَّبّ الخالق الرازق المحيي المميت، الذي بيده مَلَكُوتُ كلّ شيءٍ، أنّها تَجعَلُهُمْ أمَام دعوتها لهم مخيَّرِين بين مشيئتَيْن دون إلزام بالإكْراه، وَلا سيْطَرَةٍ ولا قَهْر، مشيئة القبول والمتابعة، ومشيئة الرَّفض والإدْبار، فمن شاء فلْيُؤْمِنْ، وَمَنْ شاءَ فلْيَكْفُرْ.

لكِن لكُلِّ مشيئةٍ مِنْ هاتين المشيئتَيْنِ نتيجة حتمية، في قانون الْخَلْق الجبريّ، فَمَنْ شاءَ الرَّفْضَ وأبَىٰ أن يسْتجيب لدعوة الحقّ، فعلَيْه أن يتحمَّلَ عقاباً أليماً خالداً يوم الدين، ومَنْ شاء القبول واستجابَ وتابَعَ فلْيَنْعَمْ سَعِيداً خالداً في جنّات النعيم يوم الدّين.

إنَّ دين اللَّه للناس بيانٌ وَتَذْكِرَةٌ وتخيير، فَمَنْ شاءَ أنْ يُؤْمِنَ ويُسْلِمَ فَلْيَفْعَلْ، ومَنْ شاءَ أَنْ يكْفر ويستكْبر فليفْعَلْ أيضاً، وعليه أن يتحمَّلَ النتيجة الحتميَّةَ شقاءً أبديًّا. أمَّا من آمن وأصْلَحَ فله السعادة الأبديَّة.

أفيليقُ بذي فِكْرٍ ورأْيٍ وَعَقْلٍ تُعْرَضُ عَلَيْهِ تَذْكِرَةٌ مِنْ هذا القبيل، لا إكراه فيها ولا قَهْر، أن يُعْرِضَ أَوْ يَنْفِرَ من هَذا العرضِ التخييريّ؟!

إنّ أمْرَ المعرضين النافرين لأَمْرٌ يثير بالغَ العجب والاستنكار والازدراء، ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾.

ما لَهُمْ نافرين نُفْرَةَ حُمُرٍ وحْشِيَّةٍ خَوْفاً من الأسَدِ أو من جماعَةِ الْقَنَّاصَةِ الرُّماة، مَعَ أنّ المعروض عليهم بيانٌ كلاميٌّ، يُطْلَبُ منْهُمْ أنْ يَفْهمُوهُ ويَعُوهُ وَيَضَعُوه في ذاكِراتهم إنْ شاءُوا، للانتفاع به إذا أرادوا.

إنَّ في هذا التشبيه لإبداعاً عجيباً، فالْمُشَبَّهُ به نَافراتٌ من الْحُمُرِ الوحْشيّة، وللحمار في التشبيه معاني الغباء وضعف الإدراك، لكنَّ هذه الْحُمرَ أَحْسَنُ حالاً، فهي تَنْفر من قَسْوَرَة، ومن حَقّها أن تنفر منه، لكِنَّ النافِرين من دعْوة الحقّ الرّبَّانية نافِرُون من تَذْكِرَة لا يليق بِهِمْ أَنْ يَنْفِرُوا منها، إنّ هذا لأمر بالغ العجب، لدى أولي الألباب.

والسبب في انطماس بصيرتهم كبْرٌ في نفوسهم انْتَفَخَ فَغَشّىٰ على قوىٰ الإدْراك لديهم، وتَشبُّثُهُمْ بالحسِّيَّاتِ الذي جعلهم لا يؤمنون بالآخرة، فلا يخافون عذاب الله فيها، لأنّها من الأمور الغيبيَّة غير الْمُحَسَّة المشهودة.

وأكّد الدّرسُ أن رسالة القرآن رسالةُ تذكرةٍ، معروضة بالتخيير على نفوسِ ذواتِ مشيئاتٍ حُرَّةٍ، قضَىٰ اللَّهُ لها أن تكونَ كذلك، لابتلائها في ظرُوف الحياة الدنيا.

وخُتِمَتِ السورة بعبارةٍ تلويحٍ بالترهيب، والترغيب.

فالترهيب جاء في وصف اللَّه عزّ وجل بأنّه هو أهل التقوى.

والترغيب جاء في وصفه بأنه هو أهْلُ المغفرة.

وتمت سورة (المدثر) وتمّ تدبُّرها بما فتح الله به،

فالحمد لله على ما أولَىٰ





سُورَة المزّمّل

٧٣ مصحف ٣ نزول



(١)
بحث حول نزول سورة المزّمل:

بالنظر إلى ما جاء عند البخاري بشأن نزول سورة (المدثر) وما جاء في إحدى الروايتَيْن عن جابر ـ رضي الله عنه ـ اللَّتَيْن أوردتُهما في أوائل تدبُّر سورة (المدّثر) إذْ جاء فيها أنَّ جابراً قال: سمعت النبيّ ﷺ وهو يُحدّثُ عن فترة الوحي فقال في حديثه:

«فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، فَجُئِثْتُ مِنْهُ رُعْباً، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُوني زَمِّلُوني، فَدَثِّرُوني، فأَنْزَلَ اللَّهُ تعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ ـ إلى ـ ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾». [فتح الباري الحديث (٤٩٢٥) ج ٨].

وبالنظر إلى ما جاء في صدر سورة (المزّمل) وبعْضِ آياتٍ فيها، تَرَجَّحَ لدَيَّ أنّ سورة (المزّمل) هي ثالث سورة مكّيّة، باستثناء عدّة آياتٍ منها نزلَتْ في المدينة على الأَرجح.

وكونها السورة الثالثة بحسب ترتيب النزول هو الذي اعتمده الشيخ محمّد علي خلف الحسيني شيخ عموم المقارئ المصرّية في ١٠ ربيع الثاني سنة ١٣٢٧ هجرية في إحدى الطبعات المصرّية للمصحف الشريف.



● وَرُوِي عن ابن عبّاس وقتادة أنَّ الآيتين (١٠) و (١١) نَزَلَتا بالمدينة. وهما: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾.

● ورَوى الطبري عن سعيد بن جُبَيْر قال: «لمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ نَبِيِّهِ ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ ...﴾ مَكَثَ النبيُّ ﷺ على هَذَا الحالِ عَشْرَ سِنينَ يَقُومُ اللَّيْل كما أَمَرَهُ اللَّهُ، وكَانَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَقُومُونَ معه، فَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدَ عَشْرِ سِنِينَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ...﴾ الآية.

وهذا يُفِيدُ أنَّ الآيَةَ الأخِيرَة مِنَ السُّورَةِ نَزَلَتْ في المدينة، لأَنَّ مُقَامَ الرَّسُولِ في مَكَّةَ بَعْدَ البعثَةِ قَدْ كانَ عَشْرَ سِنِينَ في قَوْلِ جُمْهور عُلَماء السِّيرَة المحمّديَّة.

وأمّا ما رُوي عن أُمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها من أنّ الرَّسول ﷺ قد عمل بما جاء في أوّل سورة (المزّمل) ستة عشر شهراً، وفي رواية حولاً، ثمّ نزلت الآية الأخيرة من السورة، فإنَّها تحدّثت عما شهدت بعد بناء الرسول ﷺ بها، لكن سورة (المزّمل) وعمل الرسول بما جاء في أولها قد كان منذ أوائل البعثة.



(٢)

نص السورة

سورة المزمّل وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾

---

٣ - [أَوِ انْقُصْ] بكسر الواو قراءة عاصم وحمزة.
[أَوُ انْقُصْ] بضَمّ الواو قراءة باقي القراء العشرة.

٦ - [نَاشِئَةَ] بتحقيق الهمزة لجمهور القراء.
[ناشِيَة] بإبْدَال الهمزة ياء لأبي جعفر، ولحمزة حال الوقف.
[وَطْأً] لجمهور القراء العشرة.
[وِطَاءً] لأبي عَمرو، وابنِ عامر.

٩ - [رَبُّ الْمَشْرِق] برفْع لفظ «رَبّ» لنافع، وابن كثير، وأبي عَمرو، وحفص، وأبي جعفر. أمّا الْبَاقُونَ فَبِكَسْرِها «رَبِّ».

يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾
إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾
فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ
مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ
فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ
أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ
مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ
عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم
مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ
وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟
لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ
وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ .

---

٢٠ ـ [ثُلُثَي] بضم اللام، لجمهور القراء وَقرأ بإسْكانِ اللاّم [ثُلْثَي]: هشام.

● [ونِصْفِهِ وَثُلُثِهِ] بالجرّ عَطْفاً على [مِنْ ثُلُثَي] قراءة نافع، وأبي عَمْرو، وابْنِ عَامر، وأبي جَعْفَر، ويعقوب.

وقرأ الباقون بالنّصب عَطْفاً علىٰ [أدنىٰ] والقراءتان وجهان متكاملان، فقراءة الجرّ تثبت احتمال ما هو أقلُّ من الثلث.

(٣)
موضوع السُّورة

● في هذه السورة تَوْجيهُ بَعْضِ وصايا للرسول وللذين آمَنُوا معه، تتعلّق ببعضِ التكاليف التَّعَبُّديّة، والأعمالِ الحياتيّة، والسُّلوكِ الدّعويّ.

● وفيها تلويحٌ بوعيدٍ شديد مؤجَّلٍ إلى يوم الدين، وآخرَ مُعَجَّلٍ في الدنيا، وهو موجَّهٌ للذين كذَّبوا الرسول وكذَّبوا بما جاء به عَنْ ربّه، إذا استمرّوا على كفرهم ولم يَتُوبوا قبل أنْ يُلاقوا ربَّهم بالموت، مع معالجتهم بتأكيد أنّ رسالة الإسلام الّتي جاءهم بها الرَّسُول ﷺ رسالةُ تَذْكِرَةٍ لذوي المشيئات الحرَّة، ولَيْسَتْ رسالة سَوْقٍ بقَسْرٍ وقَهْرٍ وجَبْرٍ، فمن شاء باختياره الحرّ اتّخذَ إلى مرضاة ربّه وثوابه العظيم سبيلاً بالإيمان والإسلام والطاعة، فَهُوَ مُمَكَّنٌ من ذلك، ومن شاء أَبىٰ ورَفَضَ وكفر، وهُو مُمَكَّنٌ من ذلِكَ أيضاً، ولكن عليه أن يتحمَّلَ نتيجةَ اختيارِه الذي هو حرٌّ فيه عذاباً أليماً من ربّه يوم الدين، مع ما قدْ ينزل به من عذابٍ في الدُّنيا.

● والآية الأخيرة من السورة نَسَخَتْ فرضيَّةَ قيام اللَّيْل الذي جاء في أوائلها، وأمَرَتْ بإقامة الصلاة، وإيتَاء الزكاة، وإقراض الله قَرْضاً حسناً مأجوراً أجْراً عظيماً، وأمَرَتْ بالاستغفار مع الوعد بأنّ الله غفورٌ رحيم.

وهذه الآية الأخيرة من السورة نزلَتْ في العهد المدني، وضُمَّتْ إلى سورة (المزّمّل) الّتِي هي من أوائل التنزيل المكيّ.

فموضوع السورة يدور حول ما يلي:

«أوامرُ ووصايا سلوكيّة للرسول ﷺ وللمؤمنين مقرونة بالوعد، ومعالجةٌ للكافرين بالوعيد مع تأكيد أنّ رسالة الإسلام رسالة تذكير، لا رسالة سَوْقٍ بالإجبار».

❃ ❃ ❃

(٤)
بيان دروس السورة

تشتمل سورة «المزّمّل» على ثلاثة دروس:

الدرس الأول: وهو يتضمَّنُ أوامر ووصايا سلوكيةً للرسول ﷺ، وللمؤمنين معه.

وهو من الآية الأولى، وحتى غاية الآية (١١).

الدرس الثاني: وهو يتضمَّنُ مُعَالجةً للكافرين بالوعيد المؤجل إلى يوم الدين، والمعجّلِ في الدنيا، مع تأكيد أنَّ رسالة الإسلام رسالة تذكير لا رسالة سوقٍ بالإجبار.

وهو من الآية (١٢) وحتّىٰ غاية الآية (١٩).

الدّرس الثالث: درس مُلْحَقٌ بالدرس الأول من السورة، إذْ فيه نسخ لحكم فرضيَّةِ قيام اللّيل على ما جاء في الدرس الأول، مع إضافة أحكامٍ ووصايا أخرى مقرونة بالوعد بأجْرٍ عظيم عند الله، ومَغْفِرَة للمؤمنين العاملين بمراضي الله.

وهو الآية (٢٠) الأخيرة.



(٥)
التدبّر التحليلي للدرس الأوّل

الآيات من (١ ـ ١١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾

أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾.

● ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾ خِطَابٌ من اللَّهِ لرَسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ بأداة النِّداء «يا» الموضوعة للمنادىٰ البعيد، إشارةً إلى بُعْدِ المنزلَةِ بَيْنَ الرَّبِّ وعِبادِهِ مَهما كان الْعَبْدُ ذا قُرْبٍ من اللَّهِ بخضوعه وعبادته، واصطفاءِ اللَّهِ له، ولو كان أفْضَلَ الأنبياء والْمُرْسلين، وإشارةً إلى أنّ الخائف المتزمِّلَ الْقَابعَ بحُجْرَتِهِ مبتَعِدٌ يَحتَاجُ إلى مثْلِ هذا النِّداء، وتنبيهاً على الاهتمام بالمطلوب بعد النداء.

المُزَّمِّل: أَصْلُها الْمَتزَمِّل، قُلِبَتِ التاء زاياً وأُدْغِمَتْ بالزّاي فصارتا زاياً مُشَدَّدَة.

المُتزَمِّل: المتلَفِّفُ المتَغطِّي بثيابه، يُقالُ لُغَة: تَزَمَّلَ، أي: تلفَّفَ بثيابه وتَغطَّىٰ، **وزَمَّلَهُ**: أي: لفَّهُ بثَوْبِه.

قال إبراهيم النَّخعيّ: نَزَلَتْ على الرَّسول ﷺ وهو مُتزَمِّلٌ بقَطيفَة.

ويظهر لي أنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ خاطَبَهُ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾ في سورة «المدثر» إشارة إلى قوله بعد أن رأى جبريل على كُرْسِيٍّ بين السماء والأرض فَذُعِرَ مِنْهُ: «دَثِّروني» وخاطَبَهُ هنا بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾ إشارةً إلى قَوْله: «زمِّلوني».

ويلْمَحُ الأديبُ في النِّداء بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾ وبـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾ معْنَىٰ الملاطفَةِ الرَّفيقة الجادّة، الّتي تضمَّنَتِ الإشارة إلى مُهمّاتِ الرِّسالة التي لا يتّفِقُ معَها الإخلادُ إلى السُّكُونِ والرَّاحَةِ.

ولعلّ الرسول ﷺ اقْتَبَسَ من أدَبَ هٰذهِ الملاطفة الجادَّةِ في النداء، فنادىٰ عليًّا رضي الله عنه بقوله له: «يَا أَبَا تُراب» حين طَلَبَهُ، فوجده في المسجد نائماً مُتوسِّداً التُّرَابَ.

وقَدْ جاء بعد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ①﴾ قولُهُ تعالَىٰ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ②﴾. وجاء بعد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ①﴾ قولُهُ تَعالَىٰ: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ②﴾، إشعاراً بأنَّ هٰذِه الرِّسالة الرَّبَّانيَّةَ رِسالةُ جِدٍّ واجْتِهادٍ ونُهوضٍ إلى الْعَمَلِ في الدَّعْوَةِ وَفي العباداتِ الخاصَّةِ، وقدِ اصطفاكَ اللَّهُ لها واجتبَىٰ المحسنين والأبرار من أُمّتِك ليَقُوموا بوظائِفها من بَعْدِكَ، فَلاَ يَليقُ بمَنْ يُصْطَفَىٰ لها التَّدَثُّرُ والتزَمُّلُ بالثياب، والراحة والنوم إلاّ بمقدار الحاجة الشديدة، أمّا الْقُعُودُ والإخلادُ إلى الراحة، والتَّدَثُّر والتَّزَمُّلُ بثياب الاضطجاع والنوم، فهو شأنِ أهل الكسل، لا شأن من يُجْتَبَوْنَ للعمل الجادّ، والكدْح المتواصل، وحمل المهمّاتِ الْجِسام، والراحةُ لا تُؤْخَذُ فيها إلاّ بمقدار الحاجة فقط.

- ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ③ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ④﴾.
- ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ②﴾.

قُمْ: فعل أمْرٍ مِنْ قامَ يقُومُ قوْماً وقِياماً. والقيامُ هو ضدّ الجلوس، ويأتي القيامُ بمعنَىٰ الْعَزم، يقالُ لغةً: قامَ يفْعَلُ كذا، أي: عزَمَ على فِعْلِه.

وقَامَ بالأمْرِ، أي: فعَلَه. وقامَ فلانٌ اللَّيْلَ، أي: بقي صاحِياً فيه لم يَنَمْ. ويُكنَّىٰ عن عبادة الله فيه بعبارة: «قَامَ اللَّيْلَ» وخُصَّتْ هذه العبادة غالباً بعبادة الصّلاة في اللّيْل، ولهذا فهم المفسّرون من قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ قُمْ للصَّلاَةِ في اللّيل. ودلّ الاستثناء بقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ على أنّ المراد بأداة التعريف «أل» في: «اللّيل» الاستغراق، فهي مثل لفظ «كلّ» إذ الاستثناء دليلٌ على أنَّ المستثنى منه عامٌّ مستغرق كلّ أفراده أو أجزائه.

والقليلُ المستثنى لا بدّ أن يكون أقلّ من نصف اللّيل، أي: فهو الثلث أو نحوه، وقد بدأ الأمر الرّبّانيّ بالأفْضَلِ من المقادير الموضوعة للتخيير، وهو قيامُ نحو ثُلُثَي اللّيْلِ.

وبعد هذا أَذِنَ النّصُّ بالاكتفاء بقيام واحِدٍ من أزمنة ثلاثةٍ من اللّيل.

الأول: الاكتفاء بنِصْفِ اللّيل، وجاء بيان هذا بعبارة: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بَدَلاً مِنَ اللّيل.

الثاني: الاكتفاء بأنْقَصَ من نِصْفِ اللّيْلِ، وجاء بيان هذا بعبارة: ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ ويَصْدُق هذا بالثلث أو بما هو أكثر من الثلث وأَقَلُّ من النصف.

الثالث: الاكتفاء بما زَادَ على النصف ولو كان أَقَلَّ من الثلثَيْن، وجاء بيان هذا بعبارة: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾.

فكأنّه بهذا التعبير الموجز قال:

قُمْ ثُلُثَي اللّيل، أو قُمْ نِصْف اللّيل، أو قُمْ ثُلُثَهُ، أو ما زاد على الثلث دون أن يَبْلُغَ النصف، أو قُمْ ما زاد على النصف دون أَنْ يبلغ الثُّلُثَين.

فهي خَمْسَةُ تخييرات في الأزمنة المأمور بقيامها من اللّيْلِ، أفْضَلُها ثُلُثَاهُ باستثناء حالاتِ الْعُذْر، ودلَّ على هذا الأفْضَلِ البدْءُ به، وتتنازلُ الأفضليّات بحَسَب تناقُصِ مقدار الزمن.

هذا النَّصُّ يفتح الباب لتعلُّم كُسُورِ الأعداد، ويظهر لي أنّ النَّصَّ قَدْ جَزَّأَ اللّيلَ إلى (١٢) جزءاً.

- فأكمل القيام ما كان بمقدار ($\frac{٨}{١٢}$) وهو الثلثان.
- ودونه ما كان بمقدار ($\frac{٧}{١٢}$) وهو ما بين النصف والثلثين.

- ودونه ما كان بمقدار (٦/١٢) وهو النصف.
- ودونه ما كان بمقدار (٥/١٢) وهو ما بين النصف والثلث.
- ودونه ما كان بمقدار (٤/١٢) وهو الثلث.

والأمر إلزاميٌّ للرَّسُولِ بواحدٍ من هذه التخييرات، وقَدْ نَفَّذَ الرَّسُول الأَمْرَ، وتَبِعَهُ فيه طائفةٌ من أصحابه دون أن يكون واجباً عليهم، فكانَ يَقُومُ مَا هُوَ أَقْرَبُ من ثُلُثَي الليل أحياناً، وكَانَ يَقُومُ نِصْفَهُ أحْياناً، وكَانَ يَقُومُ ثُلُثَهُ أحْيَاناً، وكان يَقُومُ بَيْن ذلِكَ أحياناً، وقد دلَّ على هذا ما جاء في الآيَةِ المدَنِيَّةِ الناسِخَة، المضمومة إلى آخِرِ هذه السورة المكيّة، إذْ جاء فيها قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ له:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ...﴾.

أدْنَىٰ: أي: أقْرَب، وهذا يكون دون الثلُثَيْنِ بقليل، وقد يكون هذا القليل دقائق يصْعُبُ على القائم ضبْطُها، لكِنَّ الله عَلِيم بها، وهو لا يَقُولُ إلاَّ صِدْقاً.

- ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾.

التَّرْتِيل: القراءة بتَمَهُّلٍ وأَنَاة، قال أهلُ اللّغة: رَتَّلَ الكلامَ، أي: أحْسَنَ تأليفه، وأبانَهُ، وتمَهَّل فيه، والترتيلُ في القراءة الترسُّلُ فيها والتَّبْيينُ مِنْ غيْرِ بغيٍ، أي: من غير زيادة مُفْسِدَة.

قال أبو إسْحٰق: التَّبْيينُ لاَ يَتِمُّ بأَنْ يعْجَلَ في القراءة، وإنّما يَتِمُّ التَّبْيِينُ بأن يُبَيِّنَ جميع الحروف، ويُوَفِّيَهَا حَقَّهَا من الإشباع.

وجاء في صحيح البخاريّ عن أَنَسٍ ـ رضي الله عنه ـ أَنَّه سُئِلَ عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: «كانَتْ مَدّاً» ثُمَّ قرأ بسم الله الرحمن الرحيم،

يمُدُّ «بسم الله» ويمُدُّ «الرحمن» ويَمُدُّ «الرحيم».

فمَنْ تَعَلَّم التجويد بالترتيل على علماء التجويد فقد أخذ بطريقة النبيّ ﷺ في تلاوته لكتاب الله.

إنّ ترتيلَ القرآنِ وفقَ القراءة المجوَّدَةِ المتّبعَةِ تَلَقِّياً عن الرسول ﷺ أعْوَن على فهم القرآن وتدبُّر معانيه، فمن أَغْرَاض ترتيلِ القرآن تفهُّمُ آياتِه وتَدَبُّر معانيها، إذْ هي ثَرَّةُ المعاني، ثَقِيلَةُ الْوَزْنِ في الأفهام، لا يستطيع تَالِيها أَنْ يُدْرِكَ بِسُرْعَةٍ ما فيها من كُنُوزِ معانٍ ثقيلَةٍ، لما فيها من إيجاز، وما فيها منْ جوامع الْكَلِم، والقواعد الكلّية، والمطْويّات في المثاني، ولهذا جاء فيما رُوِيَ عن النبيّ ﷺ في وَصْفِ القُرْآن بأنَّهُ لا تَفنى عجائبُه.

وجاء الأمر بِتَرْتِيلِ الْقُرْآن مؤكَّداً بالمفعول المطْلَقِ: ﴿تَرْتِيلًا﴾ بَعْدَ الأمْرِ بقِيَامِ اللَّيل، لأنَّ قيام اللّيلِ بعبادة الصَّلاة يشْتَمِل عَلَىٰ تلاَوة آياتِ وسُوَرِ من القرآن مَأْمُورٍ بتَرْتيلها تَرْتيلاً بعناية، ولا يفوتُنا ما في إيحاء نبرات كلمة ﴿تَرْتِيلًا﴾ من تَرَسُّلٍ وأناةٍ وتجويد.

ولا أرَىٰ مانِعاً من أنْ يتحقَّق قِيامُ الليل بعبادةِ تِلَاوةِ القرآن ولو من دون صلاة، فتِلَاوةُ الْقُرْآنِ وحْدَها عبادة، إذْ يُثَابُ تالي القرآن على تلاوة كلّ حرف منه ثوابَ عَشْرِ حسنات، (ألفٌ) حرف و (لاَمٌ) حرف وَ (مِيمٌ) حرف من (ألم).

● ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾.

ذهب أهل التأويل مذاهِبَ مختلفة في تفسير كون آياتِ القرآنِ قَوْلاً ثقيلاً.

والّذِي ظَهَر لي أنَّ المرادَ من ثِقَلِ القولِ القرآني أَنَّهُ ذُو مَعَاني وفيرةٍ غَزيرةٍ، وهٰذه المعاني الثَّرَّة لا يُسْتَطَاعُ تَفَهُّمُهَا من قِبَلِ الناس إلاَّ بالقراءة المرَتَّلَةِ الَّتِي فِيها أناةٌ، وتَمهُّلٌ، وتَفكُّرٌ، وتَدَبُّرٌ.

ومن هذه الآية نقتبسُ مذهباً في الأدب، هو مذهبُ الْقَوْلِ الثَّقِيل، ويقابِلُهُ الْقَوْلُ الخفيف، والقولُ المتوسّط، وبَيْنَ هذه المراتب الثلاث درجاتٌ متعدّدات.

والقولُ الثقيلُ هو من خصوصيّاتِ إعجاز القرآنِ البياني، إذْ هو ثقيلُ المعاني، حمَّالُ دلالاتٍ على مضامينَ فكْرِيّةٍ ذاتِ وزْنٍ عظيم في موازين العقول والأفكار.

والقولُ الثقيلُ هو قولُ العظماء والكُبَراء والملوكِ لشعوبهم، حتَّىٰ يتَّفكَّرُوا في تحليل دلاَلاَتِه ويحفظُوهُ ويُرَدِّدُوهُ، ويستَنْبِطُوا مِنْهُ المعاني، ويكونُ شغْلَهُمُ الشّاغِل.

فكيْفَ بقولِ رَبِّ العالَمِينَ للنَّاس أجمعين، إنَّهُ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قولاً ثقيلاً.

وقد أبَانَ اللَّهُ هذا الوصْفَ من أوصاف القرآن مع أوائل التنزيل، وقبل أنْ يُنَزِّل اللَّهُ من السُّوَرِ ما يكْشِفُ هذه الحقيقة بجلاءٍ، أمّا صيغَتُه فقد جاءت على سَبِيلِ الوعْدِ بما سَيُنَزِّلُ على رسوله، ثُمَّ تحَقَّقَ هذا الموعودُ به فيما أَنْزَلَ بَعْدَ ذلِكَ في نجوم التنزيل.

أمّا حَمْلُ ثِقَلِه على ثِقَلِ العمل به فمستَبْعَدٌ، لأنَّ الله ما جَعلَ على المسلمين في هذا الدين من حَرَج.

وأمّا حَمْلُ ثِقَلِه علَىٰ ثِقَلِ حِفْظِه وتذَكُّرِه، فيبْعِدُهُ قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

وأمّا حَمْلُ ثقله على ثِقَلِ تنزيله على جَسَدِ الرَّسول عِنْدَ نُزُولِ الوحْي به، فهذا الثِّقَلُ هو مِنْ أَثَرِ الوحْي، لا من أَثَرِ ثِقَلِ آياتِ القرآن، وهو مستبعَدٌ أيضاً.

فالمعنى الذي ينبغي المصير إليه لِثِقَلِ القولِ القرآني، هُوَ غَزَارَةُ معانيه، مع قِلَّةِ ألفاظه، وثِقَلُ جواهر المعاني التي يشتمل عليها.

ونَحْنُ نَعْلَمُ أنَّ المعاني تتفاوتُ فيما بينها الأوزان، كما تتَفاوت العناصر الكونيّة في أوزانِها الذّرّيّة. فالمعاني الّتي تتعلّقُ بكُلّيّاتِ الوجود الكُبْرىٰ، غَيْرُ المعاني الّتِي تَتَعلّقُ بظواهر الأشياء، من صُورٍ وألْوان.

إنّ من المعاني ما هو كمثل وزن الزئبق، ومن المعاني ما هو كمِثْلِ وزْنِ ورَقَةِ الورد، ومن المعاني ما هو كمثل وزْنِ جناح بعوضة.

إنّ آيَةً واحدةً مؤلَّفَةً من بِضْعِ كلماتٍ، قد يَسْتَخْرِجُ المتدبّر منها معانيَ يحتاجُ شرحُها وبيانُها مئاتِ الكلمات، ويظلُّ فيها وفْرٌ عظيم، وهٰذا من ثقلها.

بينما نجدُ مئاتٍ من الكلمات يُمْكن اختصارها في بضع كلمات، وهذا من خفّتِها.

يُضافُ إلى ما سبَقَ أنَّ القَوْلَ الحقّ النافع المفيد يوصَفُ بالثِّقَل، أمّا القَوْلُ الباطلُ الذي لا نَفْعَ فيه ولا خيرَ فَهُو فارغٌ لاَ وَزْنَ له، وبعض القول نفعه قليل فهو ذو وَزْنٍ خفيفٍ لا ثِقَلَ له.

وكذلك العملُ في ميزان الأعمال عند الله، فالصالح منْهُ يُثْقِلُ ميزانَ صاحِبِه، بخلاف العمل الفاسد، فإنّه يَجْعَلُ مِيزانَ صاحبه طائشاً خفيفاً، قال الله عزّ وجلّ في سورة (القارعة/ ١٠١ مصحف/ ٣٠ نزول):

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾.

وقَدْ وَصَفَ اللّهُ عَزَّ وَجلَّ السَّحَابَ الْمَلِيئَةَ بما يَنْفَعُ النّاسَ من غَيْثٍ بأَنَّهَا سَحَابٌ ثِقَالٌ.

• ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾.

النّاشئ: هو ما يُوجَدُ مُتزَايداً شيئاً فشيئاً، كالنباتِ يَرْبو، والكائن الحيّ ينمو، وكأوقات اللّيل أو النهار تتراكم، والناشِئَةُ مُؤَنَّثُ الناشئ، ومنه يقال: فتىً ناشئٌ، وصبيان ناشئون.

وجاء في تفسير ناشئة اللّيل أنّها سَاعاتُهُ وآنَاؤه، لأنّهَا تَنْشَأُ نُشُوءاً مُتَزايداً رابياً، والمرادُ من ساعَاتِ اللّيل وآنائه أعمال العبادة فيها، وهو على تقدير: إنّ الأعمال في ناشئَة اللّيل، وهو مجاز بالحذف، فهو من قبيل المجاز المرسل.

وجاء في تفسير نَاشِئَةِ اللّيْلِ أنَّها أعمالُ العبادة الَّتي تُنْشأ في الليل، كالصلاة الّتي تُنْشأُ في اللّيل، والذِّكْرِ وتِلاَوَةِ القرآن، فقيامُ اللَّيْلِ هو من ناشِئَةِ اللّيل، وهَذَا من إسناد الفِعل أو ما في معناه إلى غير ما هُوَ لَه، ويُسَمّىٰ عند علماء البلاغة مجازاً عقليًا، وقد جَرَىٰ هنا إطلاق لفظ «النَّاشئة» وهو اسم فاعل، على الأعمال «الْمُنْشَأَة» في اللّيل، و «الْمُنْشَأَةُ» اسم مفعول، فهو من إسناد اسم الفاعل إلى غير ما هُوَ له.

ونظيره في وصْفِ المؤمن في الجنة بأنّه في عيشةٍ رَاضِيةٍ، مَعَ أنَّ العيشة مَرْضيَّةٌ من قِبَلِ المؤمن فيها.

• ﴿هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾: «هي» ضمير فصْلٍ جِيء به للتأكيد. **أشَدُّ وطْأً**: أي: أكْثَرُ شِدَّةَ وَطْءٍ، ومن كان ذا وَطْءٍ شديدٍ كان أثْبَتَ قدَماً.

الْوَطْءُ: وضْعُ الْقَدَمِ على الشَّيْءِ مَعَ ثِقَلِ الْجِسْم من فَوْقه، يقالُ لغةً: وَطِئَ الشَّيْءَ يَطَؤُهُ، إذا دَاسَه. وتكونُ شِدّةُ الْوطْءِ ببذْلِ ثِقَلٍ زائدٍ أو قُوَّةٍ ما على الموطوء، وبها يكون الواطئُ أكْثَرَ ثباتاً وتمكُّناً.

فعبارةُ: ﴿هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ تدُلُّ على أنَّ أعمال العبادة في ساعات اللّيل وآنائه أكْثَرُ وأشَدُّ ثباتاً وتَمكُّناً في عُمْقِ النفس.

فالعبادةُ الّتي هذه صفتها تكونُ عبادةً راسخةً بعيدةً عمّا يَهُزُّها ويُزَلْزِلُهَا عَنِ المقصودِ الحقيقيّ منها، من عوارض النفس وشهواتها، ومشاغل الفكر، وصوارف الرّياء والسُّمْعة، لأنّها تكونُ بين العبد وربّه في صفاءٍ ونقاءٍ وخلْوَةٍ، في جَوْفِ اللَّيْل الْمُحَاطِ بالرَّهْبَةِ والسُّكُون.

وعبارة: ﴿أَشَدُّ وَطْئًا﴾ تَحْمِلُ أيضاً معنىٰ أنَّ العبادة في آناء اللَّيْلِ أكثر غلَبَةً للنفس وشهواتها، وأكثر قهراً لها وتذليلاً، أخذاً من قول العرب: وَطِئْنَا الْعَدُوَّ وَطْأً شديداً.

وجاء في القراءة الثانية: [أشَدُّ وِطاءً] الْوِطاءُ: الموافَقَةُ، يُقَالُ لُغَةً: أَوْطأَ فُلَانٌ فُلاناً على الأَمْرِ، إِذَا وَافَقَهُ، والتواطُؤُ هو التوافُق. والمرادُ من كوْنِ نَاشِئَةِ اللَّيلِ أَشَدَّ وِطاءً أنّها أشَدُّ مُوَاطَأَةً وَمُوافَقَةً بَيْنَ أَعْمالِ الجوارح وحَالَةِ النفس والفكر والقلب. أي: هي أَجْمَعُ لِكُلِّ جَوَانِب النفس حتَّىٰ عُمْقِ الْفُؤَادِ مَعَ مَشَاعِرِ الْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ علَىٰ العبادة.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾: الْقِيلُ: هُوَ الْقَوْل. والمعنى أنَّ القولَ في سَاعاتِ وآناءِ اللَّيْل يكون أكْثَرَ استقامَةً، وأدْنَىٰ إلى مطابقة الحقّ والخيْرِ والْهُدَىٰ، وأكْثَرَ سَدَاداً ورُشْداً وَتَوْفيقاً للمعاني الجليلة.

إنَّ اللّيْلَ بسُكُونِهِ وَرَهْبَةِ ظُلْمَتِهِ يُهَيِّئُ للعابد سكينَةً نَفْسِيَّةً، تَجْعَلُ ما يقُولُهُ في عبادتِه من ذِكْرٍ وَدُعَاءٍ وتَدَبُّرٍ لآياتِ كتاب اللَّهِ، وما يَتَفكَّرُ فيه من آيات الله الكوْنيَّة، أكْثَرَ استقامَةً، وأقْرَبَ إلىٰ مطابقة الحق والخير وَالْهُدَىٰ، وأصْدَق مناجاة للَّهِ وَتَذَلُّلاً بَيْنَ يَدَيْه.

واستقامةُ الْقَولِ في الذكْرِ والدُّعَاءِ والتّلاوة وإنشاءِ المقالات وتأليف المؤلفاتِ وابتكار الأفكار تكونُ بالْتزام الحق والخير والْهُدَىٰ، وابتغاء مرضاة الله عزّ وجَلّ، بحضُورٍ صحيح ثابت راسخٍ مع الله، فكراً ونفساً وقلباً حتَّىٰ عُمْقِ الْفُؤَادِ.

ودَلَّ قَوْلُ الله تَعالَىٰ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ علَىٰ أَنَّهُ ينبغي تخصيصُ اللَّيْلِ لأعْمَالِ العبادَةِ على اختلافِ أنواعها، وتَرْكُ أعْمالِ كسْبِ الأرزاق للنّهار، إلاّ عند الحاجة أو الضرورة.

● ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾.

الخطابُ في هٰذه الآية موجَّهٌ للرسول محمّد ﷺ ثمّ لأمّته المتأسّين به، ولا سيما حملة رسالته في الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقيادة الخلْق إلى الحقّ والخير والهدىٰ.

السّبْح: حركة الانتقال من مكان لآخر برفق ولين وسهولة، ومنه سَبْحُ السَّمك في الماء، وسبْحُ الطّيْر في الهواء، وسَبْح الكواكب والنجوم في مَسِيراتها بأفلاكها، وحركَةُ اللّيْلِ والنهار الدائرة في فلكها.

ويُطْلَقُ السَّبْحُ على تقلُّب الإنسان وتصَرُّفه في معايشه، وسمَّىٰ العربُ جَرْيَ الخيْلِ سبْحاً، وقالوا عن الفرس الذي يجري: «سابح» لأنّ حركته السّريعة حركةُ سَبْحٍ، إذْ تكاد قوائمه لا تلامِسُ الأرض.

فالمعنىٰ: إذا خصصتَ اللَّيْلَ لعبادة اللّٰهِ فيه كما أمَرَكَ اللّٰهُ ربُّكَ بقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ فإنّ لكَ في النهار مجالاً واسعاً وزَمناً طويلاً للقيام بما تحتاج إليه من مطالب حياتك، ومعايشك، وللقيام بوظائفِ رسالتك الدّعَويَّة والتربويَّة، والجهاديَّة مع الناس.

وقد عَلِمْنا أَنَّ تفريغ اللّيْلِ للقيام بالصلاة ونحوها قد كان في السنوات العشر الأولى من تاريخ رِسالة الرَّسُول ﷺ، ثُمَّ نزلت الآية (٢٠) من السورة ناسخةً هذا التكليف الإلزاميّ، ويظهر أن قيام جزء من اللّيل بقي واجباً على الرسول ﷺ، أمّا سائر المسلمين فَيُسَنُّ لهم قيام اللّيْلِ دواماً.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ إرْشادٌ إلى أَنْ تكُونَ الحركَةُ لتحصيل مطالب الحياة، وكسْبِ الأرزاق، وابتغاء المعايش،

برفق وسماحة وتلطّف. وكذلك الحركة للقيام بوظائف الرسالة الدَّعويَّة والتربويَّة ونحوهما.

إنّ الناس يكْسِبُون في الحياة الدنيا معايشهم بوسائل شتَّىٰ، فمنها ما يكونُ بعُنفٍ ومُغَالبَة، ومنها ما يكونُ بِكَدٍّ مُنهِكٍ للقُوىٰ، ومستنفدٍ للطاقات، ومنها ما يكونُ بإقبالٍ شَرِهٍ بغْيَةَ تحصيل الأموال، ومنها ما يكون بطمعٍ ورَغْبَةٍ في ظُلْم الآخرين والعدوان عليهم، وسَلْبٍ ونهْبٍ وغِشٍ واحتكارات ظالمات ونحو ذلك.

لكنّ هذه الآية تُرْشِدُ إلى الرفْقِ والسماحة والطَّلَب الجميل، والسَّبْحِ بحْثاً عن الرزق ومعايش الحياة ومطالبها وواجباتها بالوسائل المباحة المأذون بها شرعاً، دون مغالبة ولا مصارعة ولا ظلم ولا عدوان.

وقد عبّر القرآن عن هَذا بالسَّبْحِ، كما تسْبَحُ الطُّيور في جَوّ السَّماء، وكما تسْبَح الأسماكُ في الماء، بحثاً عن أرزاقها ومعايشها ومطالب حيَوَاتها.

إنّ هذا السَّبْحَ الطويل في النهار يكفي لتحصيل معايش الحياة، وتحقيق مطالبها، مع القيام بواجباتِ ووظائف الرسالة، فلْيَكُنِ اللَّيْلُ للعبادة والرّاحة.

وقد كان هذا في أوائل الإسلام قبْلَ فرض الصلوات الخمس.

ومن وصف أعمال الكسب الأفضل بالسَّبْحِ، ومن تخصيص أَنَّ هذا السَّبْحُ في النهار، نلاحظ التوجيه الرَّبّانيّ لعنصرين:

العنصُر الأوّل: هو العنصُر الحركيُّ للكَسْب، وهو السبح.

العنصُر الثاني: هو الزَّمَنُ الذي ينبغي أن يُخَصَّصَ للكسب، وهو النهار، فالنهارُ هو الأصْلَحُ والأفْضَلُ لكَسْب المعايش، والقيام بأعمال العلاقات مع الناس.

أمّا اللّيل فهو الأصْلَحُ والأفضل للرّاحَةِ والنوم، ولعبادة القيام،

وللصفاء مع الله جلّ جلالُه، والسكينة بين يديه في العبادة والمناجاة والتفكُّر والتأمُّل.

ثُمّ أنزَلَ اللّهُ عزَّ وجلَّ في نجوم التنزيل اللاّحقَةِ تأكيد أنه سُبْحانه جعَلَ اللَّيْلَ لبَاساً وَجعَلَ النهار معاشاً، فقال تعالى في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾.

ولا يخفى على من يلاحظ حركات الحياة أنَّ السَّابح يبحث عن مطالب حياته برفق ويُسْرٍ وسُهولة، فحيث وجَدَها ضِمْنَ ما سَخَّرَ اللّهُ له وأَذِنَ لَهُ بِه التقطها برفْقٍ، دون عُنْفٍ ولا مُغَالبةٍ وَلا مُنَاهبَة ولا مقاتَلةٍ ولا عدوانٍ ولا ظلم.

إنّ الأرزاق مقسومة مقدَّرة بالقضاء والقدر، وعلى الإنسان أن يسبح في حياته لتحصيل ما قَسَمَ الله له، وأن يُجْمِل الطَّلَب، وأن يكون رفيقاً، وأن يلتزم المنهاج الذي أمره الله بالتزامه، فزيادة الكَدِّ لا تزيد في الرزق، والكسبُ بمعصية اللّهِ عزّ وجلّ يُوجب العقوبة من جهة، ولا يَزيد في الرزق من جهة أخرى.

وإذا اتَّجه الإنسان لتحصيل مطالب حياته ومعايشه بحركة السَّبْحِ، أفيترِكُ وهو يَسْبَحُ ذِكْرَ رَبِّهِ؟

وقد جاء الجوابُ الرَّبّانِيُّ على هذا التساؤُل النفسيّ، بقول اللّهِ عزّ وجلَّ في النصّ التالي:

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾.

وجاء في القراءة الأخرى: [رَبِّ المشْرِقِ] بجرّ لفظ «رَبّ» على أنَّهُ بدلٌ مِنْ: ﴿رَبِّكَ﴾ أو نَعتٌ، أو عَطْفُ بيان.

أمّا ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ﴾ بالرَّفْعِ فَهُو على الْقَطْع، ويكونُ خَبَر مبتدأ محذوف تقديره: هو رَبُّ المشرق والمغرِب.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي: واذْكُرْ مع سَبْحِكَ في النهار ما يُلائم حركةَ حياتك الواعية من أسْمَاءِ رَبّك.

لفظ «اسْم» هو نكرة تَصْدُقُ بأيّ اسْم من أسماء اللَّهِ الْحُسْنَىٰ، ولمّا كان استغراقُها متعذّراً أو شاقًّا جدًّا، كان المطلوب ذكر الاسم الملائم لحركة حياة السابح من أسماء الله الْحُسْنَىٰ.

وأسماءُ اللَّهِ الحسنىٰ باستثناء الاسم العلم «الله» هي أسماءٌ دالاَّتٌ على صفاته، ولا شَكَّ أنّ ذِكْرَ الأسماء الدّالاَّتِ على الصفات تجعل الذاكِرَ في حالَةِ مُرَاقبةٍ للَّهِ عزَّ وجلَّ عندَ كلِّ عَمَلٍ يعملُه، أو يخطُرُ لَهُ أَنْ يعمله.

فإذا كان يعمل في كسب الرزق فليذكر اسم الله الرزّاق، واسْمَ الله الغنيّ، واسْمَ اللَّهِ الكريم، ونحو ذلك.

وإذا خطر له أنْ يرتَكب معصيةً، فليذكُرْ من أسْماءِ الله «المنتقم، الجبّار، الْعَدْل» ونحوها.

وإذا وقع في معصية، فلْيَذْكر من أسماء الله: «الرّحيم، التوابّ، الغفور، العفوّ» ونحوها.

وإذا تَوجّه للقيام بعمل فلْيَقُلْ: لا حول ولا قوة إلاّ بالله.

وهكذا، فعبارة: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ صالحة لكل ذلك وأشباهه.

﴿رَبِّكَ﴾ أي: المهيمن عليك برُبوبيته، الّتي تجمع كل أسماء الله وصفاته ذوات العلاقة بكَ عطاءً أو منعاً أو محاسبة أو جزاءً، أو غير ذلك.

وثمرة ذكر أسماء الرّبّ جلَّ جلاله تَوْجيهُ النَّفْسِ للعمل بمراضيه والإخلاص له، والابتعاد عن معصيته.

وطاعةُ الله دواماً إنّما تتحقَّق بقطْعِ النفس عن أهوائها وشهواتها الجانحات عن صراط الله، وبقطع النفس عن وساوس الشياطين.

والإخلاصُ لله في الأعمال لا يتحقَّقُ إلا بقطع علائق النفس عن مظاهر الحياة الدنيا، وأوهامها، وزينتها، وزخْرُفها، ومفاخرها، والتكاثر منها، وعَنْ مراقَبةِ النَّاسِ والسَّعْي لاكْتِسَاب رضاهم، والْمَجْدِ عن طريقهم، ومَدْحِهم وثنائهم.

وهذه كلُّها إنّما تتحقَّق بالتبتُّلِ لله عزّ وجلّ، فقال تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾.

«التَّبَتُّلُ» هو الانقطاع عن شيءٍ أو أشياء والاتجاهُ الكلّي لما حصل التّبَتُّلُ إليه، تقولُ لغة: تبتَّلَ إلى اللّهِ تبتُّلاً وَتَبْتِيلاً، أي: انقطع إلى طاعة اللّهِ والعَمَلِ بمراضيه والإخلاصِ لَهُ، عن كلّ ما سِوىٰ ذلك من الصوارف عنها، من كلّ ما فيه معصية أو مخالفة، أو محبطات للعمل، أو انشغال عن المغانم من الأجْرِ العَظيم.

● ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾:

ثناءٌ عَلَىٰ اللّهِ بأنّهُ رَبُّ المشرقِ والمغربِ مع رُبوبيّتِه للناس جميعاً، إنّه جَلّ جَلالُهُ رَبُّ كُلِّ شيء، ولكِنَّ ذِكْرَ اللّيْلِ والنهارِ في الآيات السابقات، المرتبطَيْنِ بشروق الشمس، وغروبها، ناسَبَهُمَا ذِكْرُ رُبُوبيَّةِ اللّهِ للمشرق والمغرب، وفي ذكْرِهما تَنْبيهٌ علىٰ آياتِ اللّهِ الكونيّة في ظاهرتي الشروق والغروب، ونِعَمِهِ وآلائه على عباده فيهما، وربوبيةُ الله للمشرق والمغرب تظْهَرُ في أنّه هو المقدّرُ لمواقع الأرض والشمس، وحركة الأرض حول نفسها وحول الشمس والْمُجْرِي لأحداثهما.

● ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾:

أي: لا مَعْبُود بحَقٍّ إلاّ الرَّبُّ جلّ جلالُهُ، الّذي هو رَبُّكَ ورَبُّ

الْمَشرِقِ والْمَغرِب، فَمَنْ لَهُ الرُّبُوبيَّةُ كُلُّها لا بُدَّ أنْ تكونَ له وحْدَهُ الإلَهِيَّةُ، فلا يجوز عقلاً ولا في أوامر الدين عبادة غيرِه، ولا إشراكُ أحَدٍ معه في العبادة.

وفي تَوْحِيدِ الرُّبُوبيَّة، وتوحيد الإلَهِيَّة، للَّهِ وحْدَهُ لا شريكَ له، بيانٌ لِلأَصْلَيْنِ الأوَّلَيْنِ من أُصُولِ الدّين، وترسِيخٌ لهما في أفئدة المؤمنين.

ولمّا كانت الرّبُوبيّة للَّهِ وَحْدَهُ، إذْ هُوَ وَحْدَهُ المتَصَرِّفُ بكُلِّ شيءٍ في الكوْنِ، ولمَّا كان هو وَحْدَهُ المستحقّ لأَنْ يُعْبَدَ، ولمَّا كان التوكُّلُ علىٰ شيءٍ غَيْبيٍّ عُنْصراً مِنْ عناصِرِ العبادة، ولمَّا كان الإنسانُ بحاجَةٍ ماسَّةٍ دواماً لأنْ يتوكَّلَ في أموره علىٰ غيبيّ قديرٍ عليم رحيم، قال الله عزّ وجلّ في النّصّ هنا:

● ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾:

أي: فاجْعَلْهُ وَكيلاً، وَقُمْ بأعمالِكَ مُتَوَكّلاً عَلَيْهِ، حتَّىٰ يُيَسِّرَ لك الأمور، ويُسَهِّلَ لك الأسباب، ويُمِدَّكَ بالحوْل والقوَّةِ والْمَعُونة، ويَصْرِف عنكَ الموانع، ويذلِّلَ لك العقبات، سواءٌ أكانت أعمالَ عبادةٍ أمْ أعْمالَ تحقيقٍ لمطالب الحياة الدنيا ومعايشها.

إنَّ المتدَبِّرَ لهذا الدرس الأوّلِ من دُروس سورة (المزمّل) يُلاحِظُ مَبْلَغَ الاهْتِمامِ بأعمال العبادة الّتي تصِلُ المؤمن بربِّه، وتُعِدُّه للقيام بواجب جهاد الدّعْوة وأعمال الجهاد الأخرى، فَمُجَاهدة النفس عَمَلٌ سابق ومتقدِّمٌ على القيام بواجبات جهاد الآخرين.

وبعد إعداد النَّفْسِ عن طريق مجاهدتها بالعبادات، وأثناء القيام بجهاد الدّعوة، تأتي الوصيّة بالأخذ بفضيلة الصَّبْر على ما يقولُ الكافرون المكذِّبون، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ:

● ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾:

هَاتَانِ الآيتان منَ التنزيل المدنيّ نزلتا بعد أَنْ حقَّقَ الرَّسُولُ ﷺ المطلوبَ منه فيهما في المرحلة المكيَّة الّتي نزلَتْ فيها السّورة، وقَدْ ضُمَّتا إليها.

فما السِّرُّ في هذا والخطابُ فيهما مُوَجَّهٌ للرَّسُول ﷺ؟!

ونستطيع بالتأمُّل أنْ نَفْهَم أنّ خطابَ الرّسُول في هذا هو خطابٌ لكلّ الدُّعاة إلى دين الله من أمّته، فإذا كانُوا في مرحَلَةٍ من مراحلِ دعوتهم للنّاس مماثلةٍ للمرحلة التي نزلت فيها سورة (المزّمّل) فالمطلوبُ منهم أن يَصْبِروا على ما يقول فيهم رافضو دعوتهم، وأَنْ يهجروهم هجراً جميلاً، وأن يتركوا لربهم المعرضين عنهم من كبراء قومهم المترفين أولي النَّعْمة، وأن يُمْهِلُوهم.

ولـمَّا كان الرسول ﷺ في مرحلة نزول سورة (المزّمل) محقّقاً في نفسه وفي سلوكه المطلوب في هذا النجم القرآني، لم يكن بحاجة إلى تنزيله عليه يومَئذٍ.

بيد أنّ المنهج للدُّعاة مِن بَعْدِه لا بُدَّ أن يكون مستوفياً كُلَّ عناصِرِه، فاقتضت الحكمة الرَّبَّانيَّةُ العجيبة تأخير التنزيل إلى المرحلة المدنيّة، ووضْعَ النَّصِّ المنزَّلِ في مكانه الملائم له، فتحقَّقَ بهذا الإجراء غرضان تربويّان أو أكثر.

أي: إنّ هذه المرحلة من مراحل الدعوة تتطلّبُ تحقيق مضمون هذا المنهج، لكنَّ الرَّسُول قد حقّقه دون أن يُطْلَبَ منه، فلم يكُنْ هو في هذه المرحلة بحاجةٍ إلى إنزاله عليه، ولو أنه لم يَكُنْ قد حقّقَه لنَزَل هذا الخطاب بشأنه إبّان نزول سورة (المزّمل) أمّا الدُّعاة إلى دين اللّهِ من بَعْدِهِ فَهُمْ بحاجَةٍ إليه، وخطاب الرسول هو خطاب لأمّتِه ما لم يكن الأمْرُ من خصائصه الشخصيّة.

فاعْجَبْ لهذا الأسلوب البيانيّ التربويّ البديع، وتفهَّمْ دَلالَتَهُ الحكيمة.

● ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾:

الصَّبْر: ضَبْطُ النَّفْس تُجاهَ ما يُثيرها ويهيجها من محبوبٍ تَرْغَبُ في الحصول عليه، أو مَكْرُوهٍ ترغبُ في دفعه أو الخلاص منه، أو الانتقام من فاعله أو الراغب فيه.

وهو إمَّا صَبْرٌ عن محبوب، أو صَبْرٌ على مكْروه.

وحامِلُ رسالة الدعوةِ إلى اللّهِ لا بُدَّ أَنْ يُواجه رافضين لها، ولا بُدَّ في سُنَن الاجتماع البشريّ أَنْ يكون في رافضيها أصحابُ مصالح يَجِدون في امتدادها وانتشارها وانتصارها ضرراً يُهدّد مصالحهم، وهذا يدفعهم إلى مقاومتها بكلّ ما يستطيعون من قوّة مادّيَّةٍ أو معنويّة، ويَدْفَعُهُمْ إلى مُقاومةِ ومحاربَةِ دُعَاتِها ونَاشريها ومناصِريها، ومن وسائِلهم في ذلك الحربُ الإعلاميّة، بإطلاق الأقوالِ التي تَتَّهِمُهُمْ بالكذب، أو بالجنون، أو بابتغاء مصالح دُنيويّة خاصّة يَسْعَوْنَ للحصول عليها، أو بغير ذلك من أقوالٍ تُشوِّهُ عند الناس سمعتهم.

والحكمة التربويّة الرّبّانيّةُ اقتضت أمْرَ الدُّعاةِ إلى اللّهِ سواء أكانوا رُسُلاً أم أتباعاً للرُّسل بأن يَصْبِرُوا على ما يقولُ خصومها وخُصُومُهم في بَدْءِ نَشْرِها، وعَدَمُ الدُّخول معهم في صراعات كلاميّة من شأنها أن تُعَوِّقَ مسيرة الدعوة، وتُوقِّف انتشارها، وتُحوِّل المسيرة من نشر الحقّ والفضيلة والخير إلى مهاتراتٍ وشتائم فارغات تُهْدَرُ بها الطّاقات، وتَضِيع فيها الأوقات، فقال الله لحامل رسالة الدّعوة أيّا كان بأسلوب الخطاب الإفرادي: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾.

وعلَّمَهُ اللّهُ أُسْلُوبَ الْهَجْرِ الجميل، فقال عزّ وجلّ:

● ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾:

الهجر: يكون بالإعراض، والابتعاد، وعدم اللّقاء والمواجهة، وهذا من شأنه ولو بعْدَ حينٍ أن يُخْرِسَ ألسنة الخصوم، ويجعلهم يسأمون من الإلحاح في متابعة الشتائم والاتهامات، ويمَلُّون من إطلاقها إذا لم يَجِدُوا من يَرُدُّ عليهم، وقد أدرك هذا المعنىٰ القائل:

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلَا تُجِبْهُ فَخَيْرٌ مِنْ إِجابَتِهِ السُّكُوتُ

ومهما يكُنْ الكلبُ كثير النُّبَاح، فإنَّهُ إذا لم يَجِدْ من خصمه ردّاً مَلَّ وسَكَتَ عن الإلْحَاحِ، ولا سيمَا إذا هَجَرَه خَصْمُه وابْتَعَدَ عنه وعن مَبَاءته.

والْهَجْرُ الجميلُ هو الهجْرُ الذّي لم يَقْتَرِنْ بغضبٍ ولا مُخَاصَمَة ولا عتابٍ، فهو هجْرُ الراغب في العودةِ إلى المهجورين، الحريصِ على خيرهم ونجاتهم وسعادتهم، ودخولهم في عباد اللّهِ الصالحين.

ومقتضياتُ التربية الحكيمة والدعوةِ إلى الله برفْقٍ تُوجب على الداعي أَنْ يكونَ خفيف الظِّلّ، غَيْرَ ثقيلٍ علَىٰ مَنْ يَدْعُوهُمْ، وإنْ واجَهُوهُ بما يَكْرَهُ من قَوْلٍ أو أذىً، وهجْرُهُ لَهُمْ هجراً جميلاً مَقْرُوناً بالإغضاءِ عنهم وعدم مقابَلتِهِمْ على أقوالهم الجارحة بمثلها، أو بغضَبٍ وانفعالٍ وحدَّةٍ، من شأنِه أن يَهْدِمَ ما في نفوسهم ضدَّهُ، ويُلَيّنَ من قَسْوَتهم نحوه شيئاً فشيئاً، وربما اجْتَذَب من صفوفهم من في قلوبهم بذور خيْرٍ وإنْصَافٍ وحقّ وَتأثُّرٍ بالفضيلة وكمال الخلق، فالْهَجْر الجميل يكونُ بالتواريّ بصورة مؤقّتة، وبعَدَمِ مقابلةِ السيئة بمثلها، وربّما يقترن به تكريم وإحسان عن بُعْدٍ.

- ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾:

سبق نظير هذا التعبير التَّهْدِيديّ في سورة (المدّثر) بشأن الوليد بن المغيرة، وشرحُ ما يتعلّق به.

أي: ودَعْنِي والمكذّبين الْمُتْرَفِين أَهْلِ التَّنَعُّمِ في الدُّنيا، بما آتيتهم من سَعَةٍ في الرِّزْقِ والصحَّة، فأَبْطَرَتْهُمُ النَّعْمَةُ الّتي سِيقَتْ إليهم لامتحانهم بها.

النَّعْمَة: بفتح النُّون هي التَّرَفُّهُ وزيادة الاستمتاع بزينةِ الحياة الدنيا ووسائلها. **والنِّعْمَةُ**: بكَسْرِ النون، ما أُنعِمَ به عليك من عِطَاءٍ تُحِبُّهُ، أَوْ خِدْمَةٍ تُرْضِيك.

في هذا التعبير تَهْدِيدٌ ضِمْنِيٌّ للْمُكَذِّبين، مع تأكيد طَلَبِ هَجْرِهِمْ هجراً جميلاً.

• ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾:

أي: ومَهِّلْهُمْ إمْهَالاً قَلِيلاً. **الإمْهَالُ**: إطالةُ مُدَّة الانْتِظَار والتَّرَيُّث. وفي هذا توجيه تَرْبَوِيٌّ لحامل رسالة الدّعْوة، يتضمَّنُ أنَّ الزمنَ يَحُلُّ كثيراً مِنَ الْعُقَد، ويُسَهِّلُ كثيراً من الصِّعاب، ولَهُ في النفوس الْبَشَرِيَّةِ مع الحلْمِ والصَّبْرِ والإحسان آثارٌ نافعةٌ جدًّا.

والإمْهَالُ الْقَلِيل تَنْصَرفُ القلَّةُ فيه إلى الزّمَن، والسَّنَواتُ العشْرُ الّتي مَرَّت في المرحلة المكيّة قبل مواجهة المكذّبين في مَعَارِكَ قتالية بَعْدَ هجرة الرَّسول ﷺ إلى المدينة، وإقامةِ الدّولة الإسلاميّة، تُعْتَبَرُ في تاريخ الدعوات مُدَّةً قليلة، فقد كان إمهالهم طوال المرحلة المكيَّة إمْهَالاً قليلاً.

خلاصة هذا الدرس:

قد تناول هذا الدرس الأول من دُرُوس سورة (المزمّل) إعداد نفس الداعي إلى سبيل ربّه من جهتَيْن:

الجهة الأولى: تَرْبِيَتُه على أن يكون عميق الارتباط بربّه وقويّه دواماً، بعبادات الصلاة والذكر والتبتُّل.

الجهة الثانية: تربيته على أن تكون علاقته بالآخرين الذين يرفضون الاستجابة لدعوته قائمة على الصبر، والهجر الجميل، والإمهال وترك المقاومة، وهذا في المراحل الأولى من الدّعوة.

❋ ❋ ❋

(٦)
التدبُّر التحليلي للدرس الثاني

الآيات من (١٢ ـ ١٩)

قال الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

مقدّمة:

في هذا الدرس وعِيدٌ من الله عزّ وجلّ للمكذبين واجههم فيه بالخطاب، وهذا الوعيد يشتمل على عقابٍ مؤجّلٍ إلى يوم الدين، وعقابٍ مُعجّلٍ في الدّنيا.

وفيه تأكيدٌ على أنّ رسالة القرآن ورسالة الرسول محمد ﷺ رسالة تَذْكِرَة، كما جاء في سورة (المدثر) فمَنْ شاء بحُرِّيَّةِ إرادته غيْرِ الْمُكْرَهَةِ وَلا المجبُورَةِ ولا المسوقة بالْقَسْر، أَنْ يتّخِذَ إلى مرضاة ربّه وثوابه العظيم في جنّات النعيم سبيلاً بالإيمان والإسلام والسَّمْعِ والطاعة، فهو مُمَكَّنٌ من ذلك تَمْكيناً تامّاً، إذْ لا يَجدُ أمامه عقبة تقف في وجه إرادته الحرَّة المختارة.

التدبـر

الإلماح إلى الوعيد المؤجل إلى يوم الدين:

- ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾:

الأَنكَالُ: القيود، والواحد مِنْها «**نِكْلٌ**» بكَسْرِ النون، وهو القيد الشديد من أيّ شيء كان.

لدينا: أي: عندنا. **لدى**: ظرف مكان بمعنىٰ «عند» والمعنى: نؤكد أنّ أنكالاً وما عطف عليها موجودَةٌ عندنا.

الجحيم: اسم من أسماء النّار. وكلُّ نارٍ عظيمةٍ في مَهْواةٍ فهي جحيم.

هذه العبارة: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾ جيء بها على سبيلِ الكناية عن العقاب، إذ الأنكال والجحيم من وسائل عقاب اللّهِ للمجرمين يوم الدّين، ولوّحَ النَّصُّ بها تلويحاً تَهْدِيدِيًا للمكذبين، أي: فالّذِي أَعَدَّ الْقُيُودَ ونَار التعذيب إنّما أَعَدَّها للمجرمين الذين يسْتَحِقُّون العقاب بالعدْلِ، والمكذبون بما جاء عن ربّهم هم مجرمون لا محالة، ومثلُها قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾:

الطعام الموصوف بأنّه ذو غُصّة هو الطعام الّذي لا يسْتَسِيغُه الْحلْقُ، بل يَعْلَقُ فيه، فلا يجري إلى المريء، ولا يَخْرجُ إلى الْفَم.

وممّا يُحْدِث الْغُصَّةَ الشَّجا في الْحَلْق، وهو ما يَنْشَبُ فيه ويعترضُ من عظم ونحوه.

ودَلَّ هذا البيان على أنَّ المعذَّبين في الجحيم يشعرون بالجوعِ الشديد، فيُضطرُّون أَنْ يأكلوا طعاماً مُعَدًّا لهم فيها يَغَصُّونَ بِهِ، فَيُحِسُّون بعذاب الجوع، وبعذاب غُصَصِ ما يأكلون من طعامٍ.

وقد جاء في نصوصٍ أُخرى بيان نوع طعامهم في جهنّم:

● فجاء في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾.

الْمُهْلُ: دُرْدِيُّ الزيت، وهو عَكَرُه، وما ذاب من نحاسٍ أو حديد، وَنوعٌ من القطران.

الحميم: الماء الحارّ الذي يغلي من شدّة حرارته.

● وجاء في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾.

لَشَوْباً مِنْ حَمِيم: أي: لخليطاً من مَاءٍ حارٍّ وعناصِرَ سائِلَةٍ أُخْرَىٰ شديدة الحرارة.

فِتْنَةً للظَّالِمِينَ: أي: عذاباً للظَّالِمِينَ فيه حرارة شديدة.

وجاء في سورة (الغاشية/ ٨٨ مصحف/ ٦٨ نزول) بشأن طعام المعذبين بالنار:

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾.

الضريع: نوعٌ من النَّبَاتِ وصَفَهُ اللَّهُ بأنَّهُ لا يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعِ.

وجاء في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) بشأن طعام المعذَّبِ في النار:

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

غِسْلِين: ما يَسِيلُ من جُلُود أهل النار كالْقَيْحِ وَنَحْوِه. ويُسَمّىٰ غَسَاقاً، وَغَسَّاقاً.

ويبدو أَنّ هذه أنواع من أطْعِمَةِ أهل النار بحسَب دركاتهم فيها.

- ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾:

أي: وإنَّ لَدَيْنَا بالإضافة إلى الأنكالِ والجحيم والطَّعَام ذي الغُصَّةِ عذاباً آخَرَ فوْقَ ذلِكَ أَلِيماً، يَتألَّمُ بِهِ من يُعَذَّبُ به ألماً شديداً.

إنّ الوعيد الذي جاء في هذا النصّ للمكذبين قد جاء كناية وتعريضاً وإلماحاً لا تصريحاً، لأنّ المرحلة ما زالت مرحلة أوائل الدعوة التي يَحْسُن فيها هذا الأسلوب، وهو أسلوب التّنبيه على وجود عذابٍ عند الله لمستحقّيه، ووجود أدواتٍ لهذا العذاب.

قول الله عزّ وجل:

- ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾:

في هذه الآية تقديم لقطة بيانيّة تُصَوّر مشهداً من بدايَاتِ أحداث اليوم الآخر، الذي ستكون فيه الإدانَةُ والجزاء، وسيتحقّق فيه الوعيد الذي ألمحت إليه الآيتان السابقتان.

﴿يَوْمَ﴾ ظَرْفٌ لأحْدَاث الوعيد المُلْمَح إليه، وهو منصوبٌ على الظرفية الزمانية، أي: سيكون هذا الوعيدَ يَوْمَ تَحْدُثُ أحداثٌ عظام، وتغييرات في الكون جِسَام، ومن الأحداث الممهّدَة لهذا اليوم العظيم تغييراتٌ تظهَرُ في الأرض التي جعلها اللّهُ مستقرَّ الناس في الحياة الدنيا، ومتاعَهُمْ إلى حينٍ، وجعلهم فيها يحيون، وفيها يموتون، ومنها يُخْرَجُون تارَةً أُخْرَى إلى الحياة الأخرىٰ، الَّتي يكونُ فيها الحساب وفصْلُ القضاء ثمّ الجزاء.

ومن هذه الأحداث الممهدة، والبدايات لليوم الآخر، حَدَثان عظيمان سيكونان.

الحدث الأول: أنْ تَرْجُفَ الأرض والجبال، أي: أن تتحرّك وتضطرب اضطراباً شديداً بقوة هائلة، ويحدث فيها زِلْزالٌ شديد، يغيّر معالمها، ويدمّر مبانيها، ويمحو كلّ المنشآت فيها محواً تامّاً.

ومن حينٍ إلى حين يقدّم الله عزّ وجلّ في أحداث الأرض نماذج زلزلات مُصَغَّرات في مواضِعَ منها لذلك الزّلْزال العظيم الذي يَعُمُّ الأَرْض كُلَّها في وقت واحد.

الحدث الثاني: أن تكون كُلُّ جبال الأرض بسبب ذلك الزلزال العظيم رَمْلاً سائلاً مطحوناً طحناً ناعماً، مثْلَ كثيبٍ من الرَّمل الناعم جدًّا، الذي ينهالُ فتسيل أعاليه بأدنَىٰ حركة حتَّىٰ يستوي مع سطح الأرض.

الكثيبُ: الرَّمْلُ المستطيل الْمُحْدَوْدِب، وكلُّ مجْمع من الرمل مرتفع مُحْدَوْدب.

الْمَهِيل: الذي يَنْصَبُّ انصباباً متتابعاً مُنْدَفِعاً، دون تعثُّر، بسبب نعومته وجفافه، فيكون مشابهاً للماء إذا سال.

يقال: فلانٌ هَالَ الرَّمْلَ وأَهَالَه، إذا دفعه من أعلى، فصار ينصَبُّ انصِبَاباً.

وقد شبَّهُ الله عزّ وجلّ حالة الجبال بعد تحطيمها وتفتيتها بالزلزال العظيم بكثيب من الرَّمل دفَعَتْهُ قُوَّة فصار ينْهَالُ مُنْصَباً.

- ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾:

وكانت: أي: وستكون، وقد جاء التعبير بالفعل الماضي بدل الفعل المضارع للدّلالة على تحقُّق الوقوع مستقبلاً، حتَّىٰ كأنَّهُ أمْرٌ قَدْ وقع، فهو أمْرٌ بمثابة الحاصل المشهود، وهذا من الأساليب البلاغيّة البديعة.

كثيباً مهيلاً: أي: كالكثيب المهيل، وهو من التشبيه البليغ الذي حذفت منه أداة التشبيه ووجه الشبه.

الإلماح إلى الوعيد المعجّل في الحياة الدنيا:

أمّا الوعيد الضِّمْنِيُّ بالعقاب المعجَّلِ للمكذِّبين فقد جاء في قول الله عزّ وجل بعد ما سبق:

● ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾:

في هاتَيْنِ الآيتَيْن توجَّهَ الخطابُ للمكذّبين، ليقدِّمُ لَهُمْ مَثَلاً من إهلاك الله للمكَذّبين الأوّلين، والمخاطبون الأوّلون في هذا كُفَّارُ أهل مكة إبّان التنزيل، وبعدهم يعمّ كلّ المكذبين الكافرين.

أي: إذا كان الوعيد بعذاب يوم الدّين لا يُثيرُ فيكم الخوف، لأنَّهُ أَمْرٌ منْ أُمُورِ الغيبِ الخبرِيَّةِ عَنِ المستقبَل، وأَنْتُم غير مؤمنين بهذا المستقبل البعيد الذي سوف يكون بَعْدَ تغيير نظام الحياة الدنيا كلّها، فإنَّ لديكم أمثالاً من أحداثِ ووقائعِ الحياة الدنيا، من الخير لكم والعقل والرُّشد أن تضعوها في حسابكم وتقديراتكُمْ للأمور، وأنتم تعلمون كثيراً من هذه الأحداث الّتِي تَمَّ بها إهلاك أقوامِ من أهل القرون الأولى الذين كذَّبوا رُسُلَ رَبّهم.

ومن هؤلاء المكذِّبين المهلَكين فِرْعَونُ مصْرَ وأنصارُه وجنودُه، فمن الخير والرُّشْدِ والعقل لكم أن تَتَّعِظُوا بهم، فقال تعالى:

● ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ هو مُحمَّد بن عبد الله، وقَدْ جاء التعبيرُ بضمير المتكلِّم العظيم: ﴿إِنَّا﴾ ـ ﴿أَرْسَلْنَآ﴾ مراعاة لمقام الرُّبوبيّة العظيمة الجَليلَةِ، واستثارةً للرَّهْبَةِ والمهابة، وتذكيراً بسلطان الرَّبّ، خالق السَّماواتِ والأرضِ، والمهيْمِن على كُلِّ شيءٍ برُبُوبِيَّتِه، القدير على إهلاك المكذبين وكلّ جبارٍ مجرم.

الرَّسُول: هو النبي المكلف من قِبَلِ الله أنْ يُبَلِّغ الموضوعين موضع الامتحان ما أَمَرَهُ الله بأن يبلّغَهُمْ إيّاه.

والرسول لُغَةً: هو الذي يُتابعُ أخبار الذي بعثه، أو يقوم بما أَمَرَهُ به مُرْسِلُه.

● ﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾: أي: مُبَلِّغاً لَكُمْ كُلَّ ما أَمَرَهُ الله بتبليغه، ومُبَيِّناً وشَارِحاً وَنَاصحاً وَدَاعياً بالحكمة والموعظة الحسنة ومُرَبّياً، ورَحيماً رؤوفاً بكم، إلى سائر وظائفِ رِسَالَتِهِ، فإذا لم تستجيبوا لَهُ فإنَّه يأتي يَوْمَ الدِّين شاهِداً عليكم بأنَّهُ بلَّغَ الرسالة، وأدَّىٰ الأمانة، ونصح الأمَّة، إلاَّ أنَّكم لَمْ تستجيبوا له.

وقد جاء هنا الاكتفاءُ ببيان وظيفة الشهادة الّتي سوف تكونُ يَوْمَ الدّين، لأنَّها آخِرُ فِقْرَةٍ من فِقْراتِ وَظيفته، فهي تَدُلُّ باللُّزُوم الْعَقْلِي على كلِّ وظائف رسالته التي تكونُ قبلها، وقد جاء بيان سائر وظائف رسالته في نجوم التنزيل القرآني التي نزلت فيما بَعْدُ.

واقتضت الدواعي التربويَّة والإعجازيّة لآيات القرآن استخدام هذا الإيجاز البديع في هذه المرحلة.

● ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾: جاء الحديث هُنَا عن فرْعَوْنَ مع أنَّ المراد هُوَ وقَوْمُه، إشارةً إلَىٰ أنَّه كانَ صاحب الكلمة المطاعة النافذةِ في قومه، فلو أنّه آمَنَ بموسى واتّبعه لآمَنُوا معه، لكنّه كذَّبَ موسَىٰ وكفَرَ بما جاء به عن ربّه فاتَّبَعوهُ، إنَّه استخف قومه فأطاعوه، بخلاف سائر الأقوام فإنَّهُمْ يُذْكَرُون بعنوان القَوْم، الذي ينطبق عليهم، كعادٍ وثمود، إذْ لَمْ تكن لهم قيادة واحدة مطاعة إطاعةً عمياء، بل كان فيهم زعامات متعدّدات ولهم مشاركات في الرأي.

● ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾:

أي: فعَصَىٰ فرعَوْنُ وقومُهُ المتابعون له الرسولَ موسى عليه السَّلام، ووزيرَه الرّسُول هارون عليه السلام، فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً.

الْوَبِيلُ: هو الشديد الثقيلُ الوخيم، وكان هذا في الْمَظْهَر الماديّ إغراقاً، أمّا بالنسبة إلى عالم البرزخ فعذابٌ آخَرُ هو من عذاب الآخرة.

• ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾: أي: فعاقبناه عقاباً شَدِيداً ثقيلاً.

أصل الأَخْذِ تناولُ الشيْءِ والقَبْضُ عليه وحيازَتُه، وقد يَحْمِلِ الأَخْذُ معنى ما يؤخَذُ له الشيء، فأَخْذُ المذنب يحمل معنى معاقبته بذنبه ولو لم يحْصُلْ أَخْذٌ جَسَدِيٌّ.

ولعلّ بعض قادة المعاندين في هذه المرحلة يشبه فرعون فجاء التمثيلُ بفرعون من المهلكين الأولين مناسباً لحالهم.

بعد هذا وجّه الله الخطاب لمكذّبي الرَّسُول مُحمَّدٍ من قومه وعشيرته الأقربين، فقال لهم بأسْلُوب الاستفهام التعجيبيّ من إصرارهم على التكذيب:

• ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾:

فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ عَوْدٌ إِلَىٰ التَّخْوِيف مِنْ عَذَابِ اللَّهِ يوم الدين، بأسلوب الاستفهام الذي خرج عن معنى الاستفهام إلى معنى التعجيب من إعراضهم عن دعوة الرسول، وإصرارهم على تكذيبه، وهم لا يملكون كيفيَّةً يستطِيعون بها اتّخاذ وسيلةٍ تقيهم من عذاب اللَّهِ في يوم شديدِ الْهَوْلِ جدًّا، لشدّةِ ما فيه من مخيفات بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْكَافِرِين.

فكيف تَتَّقُونَ إنْ كَفَرْتم: أي: أنتم لا تملكُون وقايةً تَقُونَ بها أنفسكم من عذاب رَبِّكم إنْ كَفَرْتُمْ، فَكَيْفَ تَفْعَلُونَ يوم ينزل بِكُمْ جَزَاءُ كُفْرِكُمْ وَهُوَ عَذَابٌ شَدِيدٌ جدًّا.

• ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾:

المراد من اليوم ما يَحْصُلُ فيه من هَوْلٍ عظيم وعذابٍ أَليم، أُطْلِقَ اليومُ وَأرِيدَ به ما يَحْصُلُ فِيهِ على طريقة المجاز المرسل، بإطلاق الزَّمَنِ على مَا يَحْصُلُ فِيهِ، أو بحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أي: فكيْفَ تتقونَ إنْ كَفَرْتُمْ عَذَابَ يَوْمٍ يَجْعَلُ الولْدَانَ شِيباً.

وجاء في النصّ استعمال «إنْ» الشرطيّة التي تُسْتَعْمَلُ في الأمر المشكوك فِيه، مُراعاةً لِحَالِ المدعُوّينَ الذين ما زالُوا في أوائل الدعوة إلى الإسلام، وهؤلاء لا يُنَاسِبُ حالَهُمْ اسْتِعْمَالُ حَرْفِ الشرط «إذا» الَّذِي يُسْتَعْمَلُ غالباً فيما هو مُحَقَّقُ الوقُوعِ أو راجح الوقوع، على أَنَّ كُلَّ مَدْعُوٍّ تُوَجَّهُ له الدّعوة ولو أصَرَّ على إعراضِه وعَدَمِ استجابته لاَ يليق في أسلوب دعوته إشعارُه بأنَّ كُفْرَهُ هو المحقَّقُ أو الراجِحُ، بل مثل هذا يُعْرِضُ الداعي عنه.

وعبارة: ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ في وصْفِ يَوْمِ الدّين الذي يُحذِّرُ النَّصُّ مِنْ عذَابِه الشديد المهُول، قَدْ جاءت كنايةً بَدِيعةً عمَّا يَحْصُلُ فِيه مِنْ أَهْوَالٍ ومُخِيفاتٍ عظيمات.

إنَّ من المعروف أَنَّ الخوفَ الشديد قد يَجْعَلُ شَعَرَ الشَّابّ أو الكَهْلِ الذي لم يَشِبْ بَعْدُ مشتَعِلاً شيباً مِنْ هَوْلِ الأحداثِ المخيفة، ولم يُعْرَفْ أنَّ الوِلْدَانَ تَشيب مَهْمَا أحاطَتْ بِهَا الأَحْدَاثُ المُرْعِبَةُ المخيفة المَهُولَةُ، لأنَّ إدْرَاكَهَا للخوف لاَ يَصِلُ إلى التأثير على المراكِز الَّتِي تُمِدُّ شعورها بأصْباغها.

لَكِنْ إذا كَانَ الْهَوْلُ أَعظم مِنْ كُلّ الأَهْوَالِ الَّتي تَحْدُثُ في الدنيا، فإنَّها تكُونُ ذاتَ تأثيرٍ حينئذٍ حتَّىٰ على الوِلْدَانِ فيشيبون منها. وهذه الكناية من الكنايات البديعة المبتكرة في القرآن الدّالّة على شدّة أهوال يوم الدين.

وأضاف النَّصُّ بيان حدَثٍ من أحداث يوم الدّين، وهذا الحدث يَظْهَرُ

فِي السَّمَاءِ، إِذْ تَنفَطِرُ به، وبانفِطَارِهَا تَتَشَقَّقُ لِنزول الملائكة مِنْ أَجْلِ القيام بوظَائِفِهِمْ في ذلك اليوم، فقال تعالى:

● ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾: أي: السَّماءُ مُنْفَطِرَةٌ مُتَشَقِّقَةٌ في ذلِكَ اليوم، وجاء وصْفُ السماء بِلفظٍ مُذَكّر وهو «مُنفَطِر» لأنّ لفظ السماء اسْمُ جِنْسٍ يجوز فيه التأنيث والتذكير، ونظيره: «جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ـ من الشَّجَرِ الأَخْضَرِ ـ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ»[١].

وجاء في بيان بعض أحداث يوم القيامة في سورة (الإنفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾.

الانفطارُ: التَّشقّق.

● ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾:

الضمير في ﴿وَعْدُهُۥ﴾ يَعُودُ علَىٰ الْيَوْمِ الْمَهُولِ الّذِي يجعلُ الوِلْدان شِيباً، وَتَنْفَطِرُ السَّمَاءُ فِيه، وهو من إضافة المصدر إلى مفعوله، والفاعل الرَّبُّ الخالق جلّ جَلالُهُ، وهذه الإعادة أكثر ملاءمة لسوابق اللفظ.

ويجوز أنْ يكون الضمير مراداً به اللّهُ عزّ وجلّ، وإنْ لم يَجْرِ له ذِكْرٌ فيما سبَقَ في الألفاظ للعلم به ذهْناً، ويَكُونُ من إضافة المصدر إلى فاعله، وفي العبارة على هذا التخريج بيان قاعدة كلّيّة تتحدّث عن صِفَةٍ من صفات اللّهِ عزَّ وجلّ، وهي أن وعد الله مفعولٌ لا محالة، لأنّه تعالى لا يُخْلِفُ الميعاد.

وأخيراً جاء في هذا الدّرْس تأكيد ما جاء في سورة (المدثر) من أنّ

---

(١) وله تخريجات أخرى ذكرها علماء اللّغة العربية من المفسرين.

هذه الرّسالة التّي حمَلَها القرآن للناس، ويُبلّغُها ويُبَيّنها الرسول محمّد ﷺ رسالةُ تَذْكِرَة، ولَيْسَتْ رسالة قَهْرٍ ولا قَسْرٍ، ولا سَوْقٍ بِالجبْرِ على خلافِ اختياراتِ الناس الحرَّة، بل لا بُدَّ أن تكونَ الاستجابَةُ للدَّعْوَة إلى الإيمان والإسلام مبنيّةً على إرادة حُرَّة واختيار تامّ من المستجيب نَفْسِه، فالإجبارُ والْقَسْر لاَ يُدْخِلُ في الدِّين ولا يُخْرِجُ مِنْهُ، فقال الله تعالى:

● ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾:

أي: إنَّ هٰذِهِ الرِّسالةَ رِسالَةُ تَذْكِرَةٍ.

التَّذْكِرَة: مَا يُسْتَذْكَرُ بِهِ الشَّيْءُ المطلوب تَذَكُّرُهُ.

فمن شاء أن يُسْتَجِيبَ للدَّعْوَةِ إلىٰ الإيمان والإسلام الَّتي اشتَمَلَتْ عَلَيْها رسالَةُ التَّذْكِرَةِ هذه، استطاعَ أَنْ يَتَّخِذ بُحُرِّيَّةٍ تامَّة لا يَقِفُ دونها عقبَةٌ وَلاَ تَمْنَعُها موانعُ إلى مَرْضاة ربّه ووقايَتِهِ والظَّفرِ بثوابه الجليلِ العظيم الّذي يَلِيق بكمال ربوبيته سَبِيلاً مُيَسَّراً سَهْلاً.

ودلَّتْ نُصُوصٌ أُخرَىٰ على أَنَّهُ يَجِدُ من رَبّه مَعُونَةً وتَوْفيقاً وإمداداً يُحقِّقُ لَهُ نجاحاً وسَدَاداً.

وبهذه الآيَةِ تَمَّ الدَّرْسُ الثّاني من دُروسِ السُّورة، وهو درس مُرْتبطٌ ارتباطاً جَلِيًّا بالآيتين الأخيرَتين من آيات الدّرس الأول، إذْ يقول الله عزّ وجلّ فيهما للرَّسول ﷺ ثم لكل داع إلى سَبِيلِ رَبّه من أُمَّتِه:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

(٧)
التدبُّر التحليلي للدرس الثالث

الآية (٢٠)

قال اللَّهُ عزّ وجل:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ (٢٠)﴾.

مقدمة:

هذه آيَةٌ نَزَلَتْ في العهد المدنيّ، وقد ضُمَّتْ إلى سورة (المزمّل) التي نزلت في أوائل العهد المكيّ من تاريخ قيام الرسول محمد ﷺ بأداء رِسَالَتِه، وكان نزولُها بعد عشر سنين عَمِل فيها الرَّسُولُ بما طلب الله منه إيجاباً في أوائل السُّورَةِ من قيام اللّيل، وعَمِل معَهُ بعض أصحابه بهذا المطلوب على سبيل التطوّع منهم، ثمّ نزلت هذه الآية الناسخة.

ويظهر أنّ الغرض من ضمّ هذه الآية الناسخة للتكليف السابق الإشعارُ بأنَّ على حامل الرّسالة الربَّانيّة أَنْ يكون كثير الصِّلَةِ بالله عن طريق قيام اللّيل كما أَمَرَ اللَّهُ في أوائل السُّورة، حتَّىٰ إذا تمكَّنَ الدَّاعي إلى الله في الأرض، وصار له أنْصارٌ وقوَّة، وصارَتْ له دولةٌ أو شبهُ دولة، تحتاج منْهُ وقتاً طويلاً لإدارة المجتمع الإسلاميّ، الذي الْتَفَّ حَوْلَهُ واتّبَعَهُ، صار بإمكانه أنْ يُخَفِّف عن نفسه من قيام اللّيل الذي كان مطلوباً منه، وأن يكْتَفِي بقراءة ما تيسَّرَ من الْقُرْآن.

ونظير الداعي إلى اللَّهِ أعوانُهُ وأنْصَارُه فلَهُمْ أَنْ يتخفَّفُوا من شَغْلِ لَيْلِهم بقيامِه تطوُّعاً، والاقتصار على قِراءة ما تيسَّرَ من القرآن، لأنّ أعوانَ الداعي إلى اللَّهِ وأنْصَارَهُ بعد تمكُّنِهِمْ في الأرض، وقيام دولةٍ لهم أو شبْهِ دولة، سيكونُ من العسير عليهم جدّاً أو من المتعذّر أن يواظبُوا دواماً بإحصاءٍ دَقيق على قيام اللّيل في أدنَىٰ الحدود المطلوبة، وهو ثُلُثُ اللَّيْلِ.

وقد شهد اللَّهُ لرسوله في هذه الآيَةِ وَشَهِدَ لطائِفَةٍ من الّذِينَ معه، بأَنَّهُمْ واظَبُوا على قيام اللَّيْلِ وفقَ ما طَلَبَ اللَّهُ مِن رسُوله في أوائِلِ السُورَة طَوَال الْمُدَّة مُنْذُ نُزُول أوائل سُورَةِ (المزّمل) حتَّىٰ نُزُول الآيَةِ الْعِشْرِينَ مِنْها، وهذه المدّةُ قَدَّرَها «سعيدُ بْنُ جُبَيْرٍ» فيما رواه الطبَرِيُّ بِعَشْرِ سِنِينَ.

تدبُّر النّصّ:

قول اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ:

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ ..﴾:

هذه شهادة من اللَّهِ لِرَسُولِهِ ولِطائفَةٍ مِنْ أصْحَابِهِ بأنَّهم اسْتَمَرُّوا منذُ أوائلِ ظُهُورِ الدَّعْوَة حتَّىٰ نُزُول هذه الآية في العهد المدنيّ يَقُومُونَ اللَّيْلَ كما ذكر الله في هذه الآية.

فكانوا يَقُومُونَ على توالي اللَّيالي أدنَىٰ من ثُلُثَي اللَّيْلِ، أيَ: أقرب من ثُلُثَي اللَّيْلِ وهـذا يَصْدُقُ بنحو ($\frac{٧}{١٢}$) من اللّيل، وكانُوا يقومون نصف اللّيل ($\frac{٦}{١٢}$) وكانوا يقومون ثُلُثَ اللَّيْل ($\frac{٤}{١٢}$).

ولمَّا كان اللَّيْلُ يزيدُ وَينقُصُ بِحَسَبِ اختلاف الفصول والأيام، وكانت دقائقُ النصفِ والثلثِ والثُّلُثَيْنِ مختلفةً في اللَّيالي، وكانَ كُلُّ ذَلِكَ بِتَقْدِير اللَّهِ عزَّ وجلَّ قَالَ اللَّهُ عزّ وجلّ في الآية:

● ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ . .﴾:

جاءتْ هذه الفقرة معترضَةً في النَّصِّ لبيان اخْتِلَافِ أزْمِنَةِ أنْصَافِ اللَّيالي وأثْلاثها، ولِتَرْسِيخ الإيمان بأنَّ كُلَّ الظاهرات الكَوْنِيَّةَ خاضِعَةٌ لقضاءِ اللَّهِ وقَدَرِه وحكمته في تدبير تصاريف الكون، ومنها تقديرُ اختلافِ أزمنَةِ اللَّيْلِ والنهار ضمن نظامٍ دقيق جدًّا، يَتْبَعُ دَورَةَ الأرض حول نَفْسِها وَحَوْلَ الشمس، في مدار مُحَدَّدٍ قضاه الله وقَدَّره.

وأبانَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ حِكْمَةَ تخفيف حُكم قيام اللَّيْلِ عن الرَّسُول، وعن الطائفة الذين كانوا يقومون مثْلَ قيامه من أَصْحَابه الحَريصين على أن يعملوا مثل عمله، فقال تعالى لهم:

● ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾:

أي: عَلِمَ أنَّه لَنْ يَتَيَسَّرَ لَكُمْ مُسْتَقْبلاً المحافَظَةُ على القيام المطلوب منكم إلزاماً ونذباً في أوائل السُورَة مُحَافَظَةً تَسْتَغْرِقُ كُلَّ اللَّيَالي.

فتابَ عليْكُمْ: أي: فرجَعَ مُتَفَضِّلاً عَلَيْكُمْ بِحُكْمِ التخفيف.

الإحصاء: استيعاب العناصر المطلوبة في العمل، وأصله استيعاب العدد. ولمّا كانت عناصر الأعمال ذوات أعداد كان إحصاؤها استيعابَ تطْبِيق عناصرها المعدودة.

وأبانَ اللَّهُ عزَّ وجلّ البدِيلَ الْمَطْلُوبَ المخفَّفَ وهو الاكتفاء لمن شاء بقراءة ما تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآن، فقال اللَّهُ عَزَّ وجلّ في الآية:

● ﴿. . . فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ . .﴾:

أي: فاقْرَءُوا ما تَيَسَّرَ لكُمْ قراءتُهُ من القرآن، وحمَلَ جُمهور المفسّرين والفقهاء هذا على صلاة اللّيل، فالمراد من قراءة ما تيسَّرَ من القرآن قيامُ اللّيل بصلاة ما فيها، وهذا القيام بالنسبة إلى الرسول واجب، وبالنّسبة إلى

الطائفة التي كانت تقوم معه نافلة، كحالهم التي كانوا عليها في حكم الندب، وكحال سائر المسلمين الّتي سيأتي بيانها.

وخصّ النَّصُّ بَقِيَّة المسلمين ببيان قال لهم فيه:

● ﴿...عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾:

أي: وإذْ علم أنَّ شأنَكُمْ سيكون مِنْكُمْ مَرْضَىٰ لا يسْتَطِيعون المواظبة على قيام اللّيل.

وعَلِمَ أنَّ آخَرِين مِنْكُمْ يَضْرِبونَ في الأَرْض من أجْلِ معايشهم واكتسَاب أرزاقهم بأعمالٍ مختلفات، منها الفلاحة والصناعة والتجارة ومعاناة الأسفار، فهم بالكدح والكدّ يبتغون من فضل الله الحصولَ على أرزاقهم وأرزاق من يعولونهم.

الضرب في الأرض: السير فيها.

وعَلِمَ أنَّ آخَرِين منكُمْ يُقَاتلون في سبيل الله لنشر الدين، ويدخل في عموم القتال ما يلزم له من استعدادات وأنواع حراسة للثغور، ورباطٍ فيها، وتَدْبيراتٍ لجيوش المقاتلين.

وعَلِمَ أَنَّ هذهِ أعذارٌ تَشُقُّ مَعَها المواظبة على قيام اللّيل.

إذْ عَلِمَ اللّهُ من أحوالكم كُلَّ ذَلِكَ خفَّفَ عنكُمْ فلم يكلّفكُمْ قيام اللَّيْلِ الذي كان قَدْ ألزم به رسوله، وعمل به معه طائفة مُحْسِنَةٌ مِنْ أصحابه.

وإذْ لم يُكَلّفكُمُ اللّهُ هذا التكليف الشاقّ عليكم:

● ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾: لتكونوا على صلة بربكم عن طريق كتابِهِ الّذِي أنزلَهُ إليكم في ليالي أعماركم.

● ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: الصلاة المفروضة، والمراد من إقامتها المواظبةُ على أدائها في أوقاتها، وهي خمس صلوات في اليوم واللّيلة.

● ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: أَيْ: وأَعْطوا الزكاة المفروضة عليكم في أموالكم، لا تنقُصُوا ممَّا يجب عليكم شيئاً.

● ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: أي: أنفقوا من أموالِكُمْ صدَقَاتٍ غَيْرَ وَاجبَاتٍ عليكم، فإنَّ هذه الصدقات تكون لَكُمْ بِمَثَابَةِ إقراضٍ تُقْرِضونه رَبَّكم، ومعلومٌ أنّ الله جوادٌ كرِيمٌ يُضَاعِفُ لَكُمْ ما تبذُلُونَهُ من صَدَقَاتٍ غَيْرِ مَفْرُوضاتٍ عليكم، أضعافاً كثيرةً.

والْقَرْضُ الحسن هو الذي يكون خالصاً لوجه الله عزّ وجَلَّ، وخالياً من المنّ والأذىٰ ورغبةِ مصالحَ دنيويَّة، لدىٰ المحتاجين الذين تُبْذَلُ لهم الصَّدَقات، وخالياً من رغبات الاستعلاء في الأرض.

وبعد بيان هذه الوصايا لجميع المسلمين ذكَرَ اللَّهُ لَهُمْ وَعداً تَرْغيبياً بأجْرٍ عظيمٍ عنْدَهُ، على ما يُقَدِّمُونَه لأنْفُسِهِمْ من خَيْرٍ يبتغون به مرضاة ربّهم وثوابه، فقال الله عزّ وجلّ في الآية:

● ﴿... وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ...﴾:

قَيْدُ: ﴿لِأَنفُسِكُم﴾ يُشِيرُ إِلَىٰ أن الْعَمَل الذي يُقَدِّمه المؤمن لِنَفْسِهِ هو مَا يَنَالُ بِهِ ثَوَاباً عظيماً، ومعلومٌ أنّ الْعَمَل الذي يُنَال به الثوابُ العظيم هو ما كان لوجه الله وابتغاء مَرْضاته.

فقام هذا التعبير مقام عبارة: وما تقدِّموا من شيءٍ تبتَغُونَ بِهِ وَجْهَ رَبّكم وَرِضوانَهُ وَثوابه.

وقَيْدُ: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ يُخْرِجُ ما يُقَدِّمُهُ المكلّفُ المسؤول عن عمله عند الله من شَرٍّ، ففي تقديم الشّرّ مَعْصِيَةٌ للَّهِ عزّ وجلّ يَسْتَحِقُّ فاعلها

عقَابَ اللَّهِ وعذابه، ويُخْرِجُ أيضاً ما ليس بخير كالمباحات من الدنيا التي لا تقترنُ بنِيَّةٍ صالحة يُثيبُ اللَّهُ عليها.

وعبارة: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ﴾ تَدُلُّ على مضاعفَةِ الأجْرِ على العمل الصالح عند الله، فعَمَلُ الخير ابتغاءَ مرضاة اللَّهِ لا يَضِيعُ أبداً، بَلْ هُوَ يَنْمُو وَيَرْبُوا ويُضاعَفُ، كالزارع يَزْرَعُ الحبَّةَ فيُخْرِجُ اللَّهُ لَهُ بها سَبْعَ سنابل، في كلّ سنْبُلَةٍ مِئَةُ حبَّةٍ، واللَّهُ يُضاعِفُ لمن يشاء.

ولَمَّا كَانَ كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّائِينَ كانُوا بحاجةٍ إلى وسيلَةٍ يَمْحُونَ بِها خَطَايَاهُمْ، وَقَدْ تَفَضَّل اللَّهُ علَىٰ عباده فَجَعَلَ من وسائلِ مَحْوِ الْخَطايا الَّتي تكُونُ بيْنَ الْعَبْد وربِّهِ ولَيْسَ فِيها حُقُوقٌ للعباد، أَنْ يَسْتَغْفِرَ الْمُذْنِبُ مِنْ ذُنُوبِه، أي: أن يَطْلُبَ من الله جلّ جلالُهُ أنْ يَغْفِرها له، أي: أن يسْتُرَهَا ويُغَطِّيَها ولا يحاسِبَهُ علَيْها، فقال الله عزّ وجَلّ في آخِرِ الآيَةِ مُطْمِعاً بالْغُفْران:

● ﴿... وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾:

استغفر: أي: طَلَبَ الْمَغْفِرَة، تقول لغة: غَفَرَ فلانٌ الشَّيءَ إذا سَتَرَه، يَغْفِرُهُ غَفْراً وَغُفْرَاناً وَمَغْفِرَة.

غَفُور: كثير الغفران وعظيمه.

رَحِيم: كثير الرحمة وعظيمها.

وفي التذكير بهٰذين الاسمين من أسماء الله الحسنىٰ في آخر السورة تشجيعٌ للمذنب على أن يطلب من ربّه أن يغفر له ذنوبه، ويسْتُرَ لَهُ عيوبَهُ.

وغَفْرُ الذنب كناية عن عدم المؤاخذة عليه، مع عدم فضيحة المذنب بين الخلائق.

وجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ بمثابة التعليل للأمرِ بالاستغفار، مع الإطماع بأنّ من استغفر الله غفر الله له.

❋ ❋ ❋

حكمة النسخ في أحكام الدين:

علمنا أنّ الآية الأخيرة من سورة (المزّمل) قد نزلت بعْدَ نزول أوّلها بنحو عشر سنين، وقد تضمنت تخفيفاً في التكليف الذي جاء في أوّلها، ورفعاً لحكم وجوب قيام ثلث اللّيل في الحدّ الأدنىٰ، كما سَبَقَ شرحه في تدبُّرِ الآيات الأولى من السورة، وهذا ما يُسَمَّى نسْخاً عند علماء المسلمين، أخذاً من قول الله عزّ وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

النَّسْخُ: بَيَانُ انْتِهَاءِ الْعَمَلِ بمُقْتَضَىٰ نَصٍّ تَكْلِيفِيٍّ سابقٍ وهذا البيانُ لا بُدَّ فيه من دليلٍ كافٍ للتعريف بانتهاء زَمَنِ الْعَمَلِ بمُقْتَضىٰ النَّصِّ السّابق.

ولله عزّ وجلّ حِكَمٌ متعدّدة من نَسْخِ أحكام التكليف القابلة في واقع حالها للتغيير بمثلها أوْ بما هُوَ خَيْرٌ مِنْها.

أمّا ما تقضي فيه الحكمة في كلّ الأحوال بأن يكون له حكْمٌ واحِدٌ، فإنَّهُ لاَ يكونُ عُرْضَةً في الرّسالاتِ الرَّبَّانِيَّةِ للنَّسْخ، كتَحْرِيم الظلْم، ووجوب الإيمان، ووجوب إقامة العدل، ووجوب الاعتراف بالحقّ. وكذلك لا نَسْخَ في الحقائق الوجوديّة، أو الحقائق الفعلية.

ومن حِكَمِ النَّسْخ ما يلي:

(١) فمن حِكَمِ النَّسْخِ في الشريعة الواحدة إقناع المتعصبين للرسالات الرَّبّانِيَّةِ السابقة أنّ الدِّين دين الله، فَهُو يُجَدِّد لتبليغه رُسُلاً بمقتضىٰ حكمته، وينسخ فيه أحكاماً تكليفيّة بمقتضىٰ حكمته.

(٢) ومن حِكَمِ النَّسْخِ في أحكام الشرائع تعليمُ ذوي الولايات والرُّعَاةِ وأهل السلطان وأولي الأمر، أنّهم إذا أمَرُوا بأمْرٍ ثم رأَوْا غَيْرَهُ خيراً منْهُ

وأفضل، فَلاَ تَأْخذهم الْعِزَّةُ بالإثْمِ، فيُصِرُّوا على أوامرهم السابقة، فالله الرَّبُّ الخالق العليم بكلّ شيءٍ ينْسَخُ بعض أحكامه السابقة ويُنْهِي الْعَمَلَ بِها، ويُنْزِلُ أحكاماً أُخْرَىٰ، قَدْ تكونُ مثل الأولى أو خيراً منها، لكنَّه لا يَنْسَخُهَا بما هُوَ دُونَها.

(٣) ومنْ حِكَم النَّسْخ المواءَمَة بين الأحكام المنزَّلة وبين أحوال الأمم المتطوّرة، كحال الأمّة في أوائل بنائها وتكوُّنِها، وحالها عنْدَ اكتمال تكوينها.

(٤) ومن حِكَمِ النَّسْخِ تعْلِيمُ واضِعي الأنظمة والمخطَّطاتِ مَنْهَجَ التَّجْرِبةِ ومُلاَحظةِ نتائجها، وما فيها ممَّا يَنْبَغِي تَعْدِيله، ثُمَّ التعديلُ بحسب المصلَحةِ الأكثر نفعاً، أو الأكثر يُسْراً مع تحقيق المطلوب.

وقَدْ ضَرَبَ اللَّهُ بنفسه مثلاً إذْ أَجْرَىٰ تعديلات في الأحكام التكليفيَّة الّتي أنْزَلَها لاَحقاتٍ لأحكام سابقات.

وهذا المعنى يدخل في عموم قول الله عزّ وجل في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ ... (٥٨)﴾.

ومَعْلُومٌ أنَّ النَّسْخَ مَثَلٌ من أَمْثِلَةِ منْهاج التعديل والتبديل إلى الأحسن والأفضل في الأوامر والنواهي والأحكام والنُّظُم.

وانتهىٰ بتوفيق الله ومعونته تدبر سورة المزمل

فالحمد لله على فَتْحه وإمداده

❁ ❁ ❁

سُورَةُ القَلَم

أو

(نٓ والقلم) أو (نٓ)

٦٨ مصحف ٤ نزول

وهي فيما ترجّح لديّ بالنظر إلى معظمها السورةُ الرابعة نزولاً

فهي من أوائل التنزيل المكي باتّفاق وفيها آيات مدنية

والآيات المدنية منها هي:

١ ـ من الآية (١٧) وحتى غاية الآية (٣٣)

٢ ـ ومن الآية (٤٨) وحتى غاية الآية (٥٠)

وآيات السورة (٥٢) آية



(١)

نصّ السورة وما فيها من فرشيات القراءات

سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ

١٤ ـ قرأ ابنُ عامر، وشعبة، وحمزة، وأبو جعفر، ويعقوب: [ءَأَنْ كَانَ].
وقرأ باقي القراء العشرة: [أَنْ كانَ].

٢٢ ـ قَرَأ أبو عَمْرو، وَعَاصم، وحمزة، ويعقوب: [أَنِ اغْدُوا] بكسر نون «أَنِ».
وقرأ باقي القراء العشرة: [أَنُ اغْدُوا] بضمّ النون.

أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ

وهُما وجهان عربيَّانِ في الأداء، أصْلُ «أَنْ» ساكنة، وعِنْدَ اجتماع ساكِنَيْنِ يكون التخلُّص مِنْهُمَا بكَسْرِ السَّاكِنِ الأوَّل، أَوْ بضَمِّه إذا كان بعد الساكِنِ الثاني ضمٌّ.

٣٢ ـ قرأ نافِعٌ، وَأبو عمرو، وأبو جَعْفَرٍ: [أَنْ يُبَدِّلَنَا] بفَتْحِ الباء وَتشديد الدال، من فعل «بدَّلَ».

وقرأ باقي القراء العشرة: [أَنْ يُبْدِلَنَا] من فعل «أَبْدَلَ».

وكلا القراءتين متكافئتان، لأنَّ الْهَمْزَ في الفعل أخو التضعيف.

مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

٥١ ـ قَرَأَ نَافع، وَأَبو جَعْفَر: [لَيَزْلِقُونَكَ] بفتح الياء من فِعْلِ: «زَلَقَ».
وقرأ باقي القراء العشرة: [لَيُزْلِقُونَكَ] بضمِّ الياء، من فعل: «أَزْلَقَ».

(٢)
موضوع السورة

(١) عِلاجات تربوية للرسول ﷺ بشأن مواقف المكذبين برسالته وبالقرآن إبَّان نزول سورة (القلم) ويُلْحَقُ به الدعاةُ من أمته إذا واجهوا أمثال هذه المواقف.

(٢) وعلاجاتٌ تربويّة وتأديبيَّة للمكذبين برسالة الرسول ﷺ بحسَب مواقفهم إبّانَ نزول السورة، ويُلْحَقُ بهم أَمْثَالُهُمْ من بعدهم.

الشرح:

● بدأَت السورةُ بعلاجٍ تربويّ للرسول ﷺ بشأن التَّأثُرات الّتي تأثَرَتْ بها نَفْسُهُ من مواقف المكذِّبين برسالته إبَّان نزول السُّورة، إذ اتَّهَمَهُ بَعْضُ كبراء قومه وعُتَاتِهِم بالجنون.

وقد اشتمل هذا العلاجُ التربويُّ على ما يلي:

(١) وَعْدُ اللّه رسُولَهُ بالأَجْر العظيم الذي لا ينقطع يوم الدين.

(٢) ثناءُ اللّه عليه بأنَّهُ لعلَىٰ خُلُقٍ عظيم.

(٣) وعْدُ اللّه لَهُ بالعاقبة الحسنة السَّارَّة في الحياة الدنيا قبل الآخرة، وبظفَرِه بهذه العاقبة الحميدة يظْهَرُ أنّه هو ذو العقل والرُّشْدِ والْمَجْدِ، وأنَّ مُكَذِّبيه هم الجديرون بأن يُوصَفُوا بالجنون، للخيبة الّتي تنزل بهم من ربّهم، والعاقبة السيّئة الوخيمة الّتي يُصَابُون بها. فاللّه جلَّ جلالُهُ عليم حكيم، يُنْزل العاقبة السّيّئة بالذين يعْلَم أنهم ضلُّوا عن سبيله، أمّا من يَعْلَمُ أَنَّهُمْ مُهْتَدُون فيَمْنَحُهُم العاقبة الحسنةَ والتأييدَ والنصر.

(٤) توصيةُ اللّه رسولَهُ بأنْ لا يستجيب لإغراءات المكذّبين برسالته، كأَنْ يداهِنَهُمْ في قضايا الدين كما يُداهِنُونه، ولا سيما بعضُ قادتِهم العتاة سيّئي الأخلاق والأفعالِ.

(٥) تطمينُ قلب الرسول ونَفْسِه، بإيعاد حامل لواء العناد والاستكبار من قومه، بعقوبةٍ تُذِلُّ أنفه المستكبر: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

● واشتملت السورة على نَجْمٍ مَدَنيٍّ نزل في المدينة وأضيف إلى سورة «القلم» التي هي من أوائل التنزيل المكيّ، وفي هذا النَّجْم المدنيّ بَيَانٌ غَيْرُ مُبَاشِرٍ لمَا وصَلَ إليه مشركو مكّة من عُقُوبة ربَّانيّةٍ نزلَتْ بهِمْ بعد هجرة الرسول ﷺ، ونَصْرِ اللّهِ له عليهم في غزوة بدْرٍ، وربُمَّا في غيرها إذا كان هذا النَّجْمُ قد تأَخَّرَ نزوله إلى ما بعد الخندق، أو فتح مكة.

والهدف التربويُّ من هذا النجم عِظَةُ مَنْ لم يسْتَجِبْ بَعْدُ لدعوة الرَّسُول، من كفّار مكة وغيرهم، وهذه الموعظة تَبقَىٰ حَتّىٰ آخرِ الدّهر.

وقد جاء هذا النَّجْم القرآني بأسلوب عَرْضِ مثَلٍ من أمثلةِ التاريخ يكْشِفُ عن سُنَّةٍ من سُنَنِ اللّهِ في عباده، للإشعار بأنَّ ما جَرَىٰ لأهل هذا المثل التاريخيّ مُنَاظِرٌ لِمَا جَرَىٰ لمشركي البلَدِ الحرام مكة، بعد أن نزلَتْ

بهم عقوبَةُ اللَّهِ بنصر رسوله عليهم، وخَيْبَةِ كلّ مساعيهم ضدّه، ونَدَمِهِمْ عَلَىٰ ما كان مِنْهُمْ، وتلاوُمِهِمْ فيما بينَهُمْ، بعد هزائمهم المنكرة.

● وبعدئذٍ تعرَّضَتِ السّورة لقانون الجزاء الرَّبَّاني بقسميه: الجزاء بالفضل، والجزاء بالعدل، مع بيان أَنَّ الحكمة الرّبّانيَّةَ تقضي بأن لا يجْعَل اللَّهُ المسلمين كالمجرمين، واقترن هذا البيان بعِلاَجَاتٍ جدليَّة لمنكري الجزاء الرَّبَّاني، وبعرض بَعْض لقطات من مشاهد الجزاء الّتي ستكونُ يوْمَ الدّين.

● وبعدئذٍ اشتملت السورة عن توجيه الإنْذار للمكذّبين بالقرآن، بأنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ سَيَسْتَدرِجُهُمْ من حيثُ لا يعلمون، وسيُمْهِلُهُم حتَّىٰ يُنْزِلَ بِهِمْ عقابه القاصِمَ الماحِقَ، جزاء تكذيبهم وكفرهم بما جاء به رسُولُ ربّهم.

● وبعدئذ ناقشتِ السورة الكافرين بطريقة غير مباشرة، إذْ وَجَّهَتْ للرسول ﷺ سؤالين عن أمْرَين، لو كان أحدهما موجوداً لرُبّما كان لهم بعض العذر:

السؤال الأول: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

السؤال الثاني: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

● وبعدئذٍ انتقلت السورة لتوجيه الدُّعاة من بعد الرسول ﷺ للصَّبْرِ في مجالات الدَّعْوَةِ، تأسِّياً بالرسُول ﷺ، إذْ كان متحقّقاً في ذاتِ نَفْسِه بهذا التوجيه، دلّ على هذا أَنَّ الآيات الثلاث التي تضمّنَتْ هذا التوجيه (٤٨ ـ ٤٩ ـ ٥٠) وهي نجْمٌ مَدَنِيٌّ مُضَافٌ إلى سورة هي من أوائل التنزيل المكيّ، ولَوْ كان الرسول بحاجَةٍ إلى أنْ يُوَجَّه له مضمونُه لكان قَدْ أُنْزِلَ مَعَ السّورة في أوائل التنزيل المكيّ، لكنَّهُ كان متحقّقاً بمضمونه فلم يكن بحاجة إليه، غير أَنّ الدُّعاة إلى اللّه من بَعْدِه، سيتَعَرَّضون لِمِثْلِ ما تعرَّضَ لَهُ الرَّسُولُ في مواقف مشابهة للمواقف الّتي كَانَ عَلَيْها مشركو مكَّة إِبّانَ نزول سورة

(القلم) فهم بحاجَةٍ شديدةٍ لأنْ يأمُرَهُمُ اللَّهُ بالصَّبْرِ فيها، وجاء الخطاب في هذا النجم موجَّهاً للرَّسول باعتباره قائِدَ أُمَّتِه، وَأوامر اللَّهِ له هي أوامر لهم، فدَلَّ هذا الإِجْراء على أنَّ الدُّعاة من أُمَّتِهِ من بَعدِه هُمُ المقْصُودُون بالتَّوجيه، وهذا من بدائع القرآن، وروائع دلالاته.

● وبعدئذٍ كشفت السورة أن المكذِّبين مَذهُوشُون من عظمة البيان القرآنيّ إلى حَدِّ حَسَدِ الرَّسولِ ﷺ حسَداً شديداً يكاد يَجْعَلُ أبْصارَهُمْ تُزْلِقُهُ عن مواقفه وهو يتلو القرآن، بتأثيراتِ أشعة الحسَدِ الَّتي تَنْطَلِقُ مِنْها، وهُمْ عاجزون عن معارَضة آياته بمِثْلِها أو بِقَرِيبٍ منها.

وعلى الرغم من ذلك فإنَّهُمْ يُكابِرُونَ، ولا يَعْتَرِفُونَ بأنَّها تنزيل من عند الله، فيتَّهمونَ الرَّسُول بأنَّه لمجنون، على خلاف اعتقادهم فيه، واستيقانِهِمْ بأنَّه الصادق الأمين.

● وختم اللّهُ السورة بتأكيد ما سبَقَ بيانُه في سُورَتي «المدثر» و«المزّمل» من أنَّ القرآن تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَه.

● ففي «المدَّثر» قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥﴾.

● وفي «المزّمّل» قَال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝١٩﴾.

● وفي «القلم» ختم الله السورة بقوله: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾.

ومَعَ تأكيد أصْلِ الفكرة فبين هذه النصوص الثلاثة تكامُلٌ في المعاني، فالقرآن تذْكِرَةٌ لمن شاء أنْ يَذْكُرَه، ولمن يشاء أن يتخذ إلى ربّه سبيلاً، وهو ذِكْرٌ لكلّ العالمين المكلّفين إنسِهِمْ وجِنِّهِمْ.

❁ ❁ ❁

(٣)
بيان دروس السورة

تشتمل سورة (القلم) على خمسة دروس:

الدرس الأول: تضمّن علاجاً تربويّاً للرسول ﷺ استدعته حالته النفسيّة تجاه مواقف المكذّبين برِسالته وبالقرآن الذي يتنزّل عليه إِبّان نزول السورة، إذ اتّهمه بعض كبراء قومه بالجنون.

وهو من الآية (١) وحتى غاية الآية (١٦).

الدرس الثاني: وهُو درسٌ مدنيّ التنزيل ضُمَّ إلى سورة (القلم) التي هي من أوائل التنزيل المكي، وقد تضمَّن بياناً بأسلوب غير مباشر، عَرَضَ اللّهُ عزّ وجلَّ فيهِ أَنَّ مَثَلَ كُفَّارِ مكَّةَ بَعْدَ أن حلَّتْ بهم عقوبة اللّهِ بالهزائم المنكرة الّتي أُصِيبُوا بها كَمَثَلِ أصْحَابِ الجنَّةِ الَّذِين اتفقُوا على أَنْ يمنَعُوا المساكين حقُوقَهُمْ مِنْها، إذْ طافَ عليها طائفٌ من اللّه عزّ وجلّ فأهْلَكَ ثمارَهَا، وأَنْزَلَ بهم عذاباً نفسيّاً معجّلاً، ذاقوا به آلاَمَ خسارةِ ما كانُوا يملكون.

وهو من الآية (١٧) وحتى غاية الآية (٣٣).

الدرس الثاني: تضمَّن بيان قانون الجزاء الرّبَّانيّ، ومناظرةً فكريَّةً مُحَاصِرَةً للكافرين المكذبين بيوم الدين، مع إنذارهم بعقاب مُعَجَّلٍ يَنْزِلُ بهم.

وهو من الآية (٣٤) وحتى غاية الآية (٤٧).

الدرس الرابع: درسٌ موجَّهٌ للرسول ﷺ والمقصود الدعاة إلى دين الله من أُمَّتِهِ، وقد تضمَّن الأمر بالصَّبْر لحكم الله، إذا واجَهُوا مزعجات ومؤلمات من الذين يدعونهم، مماثلات لما تلقَّاه الرسول ﷺ من قومه إبَّانَ نزول سورة القلم، فقابلها بالصَّبْرِ لحكْمِ رَبِّه دُون أنْ يأمُرَهُ الله به.

وهو من الآية (٤٨) وحتَّىٰ غاية الآية (٥٠).

الدرس الخامس: تضمّن بيان أنّ المكذِّبين للرسول والمكذبين بما أنزل الله عليه مندهشون من عظمة البيان القرآني المعجز، وبَيَانَ حسدهم للرسول حسداً شديداً كاد أن يجعل أبصارهم تُزلِقُهُ عن مواقفه وهو يتلو القرآن، وهم على الرغم من هذا الحسَدِ المنبعث من دهشتهم مكابرون ويتّهِمُونَ الرسول بالجنون على خلاف اعتقادهم فيه.

وتضمَّن بيانَ أنَّ القرآنَ ذِكْرٌ لجميع العالمين الموضوعين موضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، وليس لأهل مكة أو للعرب فقط.

وهو الآيتان الأخيرتان من السورة (٥١ ـ ٥٢).

❀ ❀ ❀

(٤)
التدبّر التحليلي للدرس الأول

الآيات من (١ ـ ١٦)

قال الله عزّ وجل:



﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾.

● قرأ ابن عامر، وشُعْبة، وحمزة، وأبو جعفر، ويعقوب: (أَأَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ) بإثبات هَمْزَةِ الاستفهام.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾.

حروف التهجّي في بعض أوائل السور:

﴿نٓ﴾ حرفٌ من حروف التَّهجِّي يُقْرأ وفق الرسم التالي: «نُونْ» بإسكان آخره، وحروف التهجّي: هي ما تتركّبُ منها الكلمات.

وقد أطال الباحثون الكلام حول حروف التهجّي المقطّعة الّتي افتتح الله بها أوائل بعضِ سور القرآن الكريم.

وقبل عرض أظهر الوجوه التي ذكرها الباحثون، ينبغي تقديم ما يلي:

لا بُدّ أن نلاحظَ في هذا الموضوع أنّ العرب الذين عاصروا صدر الرسالة، ونزل القرآن بلغتهم ـ وفيهم المعارضون المعاندون الذين كانوا يجْهَدُونَ باحثين لعلّهم يظفرون في القرآن بِمَطْعَنٍ للتشهير به، واتّخاذه مادّةً لنَقْدِه بها ـ لم يجدوا في هذه الحروف المقطّعة ما به ينتقدون أَوْ يشهّرون، الأمر الذي يدُلُّ على أنَّ افتتاح الكلام بأمثالها لا يَنْبُو عن أساليبهم وعن أُصول لغتهم، ومن أجل ذلك لم يُثِيروا حولها نقداً ولا تساؤلاً، مع العلم بأنَّ كلَّ السّور الّتي افْتُتِحَتْ بحروفٍ من حروف التَّهجِّي المقطعة سُورٌ مكيّة، باستثناء سورتي البقرة وآل عمران فهما من أوائل التنزيل المدني.

بعد هذا نقول: ما المراد من هذه الحروف؟

أعرض فيما يلي أربعة وجوه يصْلُحُ كلُّ وجه منها أن يكون مراداً، ومع ذلك فاللَّهُ أَعْلَمُ بمراده منها:

الوجه الأول: حروف التهجّي المقطّعة الموجودة في أوائل بعض سُوَر القرآن، هي بمثابة أدواتِ التّنْبيه.

فمن المعروف أنّ من أساليب العرب أن يفتتحوا كلامهم بشيءٍ من أدوات التنبيه مثل: «ألاَ ـ أَمَا» إذ يُسْتَفتح بهما الكلام، والغرض من أدوات التنبيه استثارةُ انتباه السامع إلى ما يُرَادُ إلقاؤه إليه.

ويبدو لي أنَّ استعمال حروفٍ لم تَجْرِ العادةُ باستعمالها لغرض التنبيه أكْثَرُ لفتاً للنّظر، وإثارةً للانتباه ممّا جرت العادة باستعماله، بسبب أنَّ المألوف في السّمع يمُرُّ دون أن يحرّكَ في النفس ساكناً، أو يوقظ في الفكر نائماً، أو يُنَبِّه به غافلاً، فإذا طرقَ السَّمْعَ جديدٌ غَيْرُ مألوفٍ تحرّكَ الساكن، وتنبَّهَ الغافل، واستيقظ النائم، ومثلُ هذا يجري دائماً في أساليب الكلام، وفي مختلف وسائل التَّنْبيه.

فَرُبَّما تُنَبِّه مُخاطَبَكَ بحَرْفٍ ما اعْتَدْتَ أن تُنَبِّهَهُ به، لتستَدْعيَ ذِهْنَهُ من شُرود، وربَّما تُنَبِّهُه بنقرة أو بتصْفِيقٍ أو بضربة بمطرقةٍ على المنصّة، أَوْ بأيِّ شيءٍ مما يُحْدِثُ صوتاً سريعاً متقطّعاً أو متتابعاً تتابعاً يسيراً، ثُمَّ تنقطع دون استرسالٍ طويل.

إذا عرفنا هذا ثُمَّ تأمَّلْنَا في الحروف المقطَّعةِ في أوائل بعض السُّور من حروف التَّهجّي، وجَدْنَا فيها من تحقيق التنبيه التَّامِّ ما لاَ مزيد عليه، مع أدبٍ في الوسيلة التي تُناسب بلاغة القرآن وإعجازه، وذلك باستعمال أسماء حروف التهجّي التي هي أولُ ما يتعلّمُه المتعلّمُون من القراءة والكتابة، وفي هذا إشارةٌ لهم بأنّهم بعيدون جدّاً عن آفاق العلم والمعرفة، وعلَيْهِم أَنْ يَسِيرُوا في طريق التعلّم، ولَوْ مِنْ نُقْطَةِ الْبَدْء بتَعَلُّم حُرُوفِ التهجّي، حتَّىٰ يُحْسِنُوا الكتابَةَ بالْقَلم وقراءةَ المسطورات، ثُمَّ لِيَذْهَبُوا صَاعِدِين في سُلَّمِ مَجْدِ الإنسانِ العلميّ.

الوجه الثاني: تُشيرُ حُروفُ التَّهجّي المقطّعة في أوائل بعض السُّور إلى ما تضمَّنَهُ القرآن المجيد من تَحَدٍّ للإتْيَانِ بمِثْلِه، أَوْ بمثْلِ سورةٍ منه.

فلَقَدْ تحدَّىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ الناسَ أَنْ يَخْلُقوا حَيَواناً حتَّىٰ ذُبَاباً، مع أنَّ المادّة الّتي خلَقَ اللّه منها كلّ الأحياء في الأرض معروضة أَمَامَهُم، مَبْذُولَةٌ لهم، فهي في متناول أيديهم، إنّها عناصر الأرض، ترابٌ وماء، ومع أنّ هذه المادّة بين أيديهم فإنّهم عاجزون عن خَلْقِ أيّ شيءٍ صغيراً كان أَمْ كبيراً.

وعلى مثل هذا تحدّى اللَّهُ عزّ وجلّ النَّاسَ أَنْ يأْتُوا بِمِثْلِ هذا القرآنِ أو بمثل سورة منه، مع أنّ مادّة القرآن الّتي أُلِّفَتْ مِنْهُ آيَاته وسُوَرُهُ إنَّما هو الكلامُ الْعَربيُّ الّذي يستعملونه في تخاطبهم، وفي آدابهم شعراً ونثراً، ويتفاخرُونَ ببلاغَتِهِمْ فيه على سائر الأمم، وهذا الكلام العربيُّ معروضٌ أمامَهم، وهو في مُتَناوَلِ نُطْقِهم وكتاباتهم وشعرهم ونثرهم.

وحروفُ التهجّي العربيّة تمثّلُ المادّة الأولى لهذا الكلام، وإطلاقُ حروف التهجّي لأيّةِ لُغَةٍ من اللُّغَاتِ هو بمثابة العنوان لهذه اللُّغةِ من جهة، والإشارة إلى مادّتها من جهة أُخرىٰ.

فمن يُنكِرُ أنّ هذا القرآن كلامُ اللّهِ، وأنّه مُنَزَّلٌ من لَدُنْهُ جلّ جلالُه، فلْيَأْتِ بمِثله أو بمثل سورةٍ منه، وهذه مادّةُ كلماته وجُمَلِه وتراكيبه معروضَةٌ أمامه في اللّغة العربية، وعنوان هذه اللّغة أسماءُ حروف التهجّي الموضوعة فيها للحروف التي تُنْطَق في بناء الكلمات، والتي منها على سبيل المثال: (نُونْ ـ صَادْ ـ كَافْ ـ هَا ـ يَا ـ عَيْنْ ـ أَلِف ـ لاَمْ ـ مِيمْ ـ رَا).

ويُقَرِّبُ هذا المعنى أنّ معظم السُّور الّتي افْتُتِحَتْ بحروفٍ مُقَطَّعَةٍ من حروف التهجّي ابتدأتْ بالكلام على القرآن المجيد.

الوجه الثالث: الحروف المقطّعة في أوائل بعض السّور هي أسْماءٌ لها، فيقالُ مثلاً سُورَة (نُونْ) وسورة (صَادْ) وقد ذكر هذا الوجه أكثر المتكلمين، واختاره الخليل، وسيبويه، من أئمة اللّغة العربيّة.

الوجه الرابع: أنّ هذه الحروف المقطّعة مأخوذة من كلمات على طريقة العرب في ذكر حرْفٍ من كلمة، وهم يريدونها، كقَوْلهم: قُلْتُ لها: «قِفِي» فقالت: «قاف» أي: وقفت.

وروي عن ابن عبّاس - رضي اللّه عنهما - تأويلات لبعض هذه الحروف من هذا القبيل، قال: معنى: (ألّم) أنا اللّه أعلم. ومعنى: (ألّر) أنا اللّه أرَىٰ. ومعنى (ألّمر) أنا اللّه أعلم وأرى.

لكنّ أكثر السّلف قد رأَوْا أنْ حروف التّهجّي المقطّعة في أوائل بعض السّور ممّا استأثر اللّهُ بعلمه، وأنّها سِرُّ القرآن.

رُوِي عن أبي بكْرٍ - رضي اللّهُ عنه - أنّه قال: في كلّ كتابٍ سرّ، وسرّ اللّه في القرآن أوائل السّور.

ورُوي عن علي بن أبي طالب - رضي اللّه عنه - أنّه قال: لكُلّ كتابٍ صَفْوة، وصَفْوَةُ هذا الكتاب حروفُ التهجّي.

ورُوي نَحْوُ ذلك عن الشعبي من التابعين، ولهذا نجد كثيراً من المفسرين يقولون بشأنها: اللّه أعْلَمُ بمراده.

● قول اللّه عزّ وجل:

﴿. . . وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾.

«الواو» في «والْقَلَم» هي واو القسم. ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: وما يكْتُبُ الكاتبون. يُقالُ لغة: سَطَر الكتابَ يَسْطُرُهُ سَطْراً وسَطَّرَهُ يُسَطِّرُهُ تَسْطيراً، أي: كتبه.

لقد عرض الرسولُ ﷺ نفسه على قومه، ودعاهم إلى التوحيد ونبْذِ الشرك، ونَبْذِ الأوثان وعبادتها، فعَظُمَ على سادة قومه هذا الأمر، وكبُرَ علَيْهم أن يُتّهموا بأنّهم كانوا في ضلالة وجهالَةٍ، وسفاهَةِ أحلام، بعبادتهم الأوثان هم وآباؤهم من قبلهم.

فرأى بعضُ كُبَرائهم أن يَرُدُّوا عن أنفسهم ذلك بأن يتّهموا الرسول ﷺ بالجنون، إذْ ذكر لَهُمْ أنَّ وحْيَ اللَّهِ عزّ وجلَّ قد نزل عليه، وأبلغَهُ بأنّه رسُولُ اللّه للناس، وأنَّ عليه أن يُبَلّغَهُمْ رسالات رَبّه، وأنَّ أوّل بلاغ فيها نداءُ التوحيد، ووجوبُ نَبْذِ الشرك والأوثان، وأنّ عليهم أنْ يعبُدوا اللّه وحْدَهُ لاَ شريكَ له.

فصاروا يقولُونَ فيما بينهم: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ لتنتشر هذه المقالة في جماهير أتباعهم، مع أنَّهُمْ قد بلغت بهم الدهشة مَبْلَغَها الأقْصَىٰ من روائع البيان القرآني، حتَّىٰ كادُوا يُزْلقون الرسول ﷺ عن مواقفه بأبصارهم من شدّة حسَدِهِمْ لَهُ، لمَّا سَمِعُوه يتْلُو بعض ما تنزَّلَ عليه من القرآن، دلّ على هذا قول الله عزّ وجل في أواخر السورة:

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾.

وكان هذا منْهُم إيذاناً ببَدْءِ معْرَكَةِ الرَّفضِ لدَعْوة الرسول ﷺ، وتكذيبه في دعوىٰ النُّبُوَّةِ والرّسالة.

ومن طبيعة الناس التلقائيّة أنَهُمْ إذا كَذَّبُوا منْ يَدَّعي اتصالاتٍ غيبيّةً خارجةً عن مجرىٰ العادات الحسيّة قالوا: فيه مسٌّ من الجنّ، وقالوا: هو مجنون، يَتَوَهَّمُ بجنونه أنّ أرواحاً غيبيَّةً تتّصِلُ به وَتُبَلِّغُهُ، ولا يَعْدُو أمْرُهُ أن يكونَ تَوهُّماً، هذا إذا كان معروفاً بينهم بالصّدْق والأمانة وكمال الْخُلُق، فَهُمْ في أوّل الأمْرِ لا يقولُون له: أنت تكْذِبُ علَيْنَا لأمْرٍ تُريدُه، وإنَّما يعْتَذِرُونَ له بأنّ فيه مَرضَ الجنون.

لكنَّ الجنون يتنافَىٰ مع دعوة الرّسُول الناسَ إلى القراءة والتعلُّم واستخدام وسيلة «القلم» لتثبيت المعارف، ومُعَاودة بحثها ومُناقشتها، وهو ما جاء في أوّل سورةٍ أُنزِلَتْ عليه، وهي سورة (اقرأ) فكتابَةُ ما ينزل به

الوحي بالقلم يجعلُه مقروءاً ومحفوظاً، يَعْرِضُ نفسه للباحثين والدارسين في كلّ حين، أمّا كلامُ من فيه جنونٌ فإنَّهُ لا يُمكن أنْ يكونَ كُلُّه كاملاً خالياً من الخلَل والانحراف الجنوني.

فلمّا اتَّهمه بعض قادة قومه بالجنون بغية ترويج هذه المقالَة بين جماهير الناس، جاء في صَدْرِ سورة «القلم» التذكيرُ بالْقَلَم وبما يَسْطُر الكاتبون به من معارفَ وعُلُومٍ، وقرآنٍ يَتَنَزَّلُ عَلَىٰ الرّسُول ﷺ، وجاء هذا التذكير بأسْلُوب الْقَسَمِ الْمُشْعِرِ بتمجيد العلم ووسائله، وفي هذا إلماحٌ إلى أنّ المجنونَ لا يدعو إلى العلم، وتثبيتِ العلم بالكتابة، ومتابعة الكتابة بالقراءة والدّرْسِ والبحثِ والتفكّر والتدبّر، ودوام التذكّر.

أي: ألم يدْعُكُمْ في أوّل سورةٍ أُنْزِلَتْ عليه إلى القراءة، وإلى تسجيل ما ينزل به الوحْيُ بالقلم، لتثبيته ومعاودة قراءته، وتدبُّر معانيه، ليَهْدِيَكُمْ التدبُّر إلى الحق، وإلى صدق دعوة الرَّسُول؟

فأقسم اللّهُ عزّ وجلّ لرسوله بالقلم وبما يسْطُر الكاتبون به من علومٍ ومعارفَ وهدايَةٍ يتنزَّل بها الوحيُ من لدُنه على أنبيائه ورسُلِهِ، ولا سيما خاتمتُهُمْ محمّد بن عبد اللّه على أنه ليس بمجنون كما يُحَاولُ أَنْ يُرَوِّجَ حَاسِدُوهُ عَلَىٰ النِّعْمَةِ الّتِي أنْعَمَ اللّهُ بها عليه إذِ اصطفاه بالنبوّة والرّسالة وإِنْزَالِ القرآنِ المعجز المدهش عليه.

فقال اللّهُ عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾.

وفي خطاب اللّه رسُولَهُ بهذا تَسْلِيَةٌ لنَفْسِه إذْ أحزَنَتْهُ مقالة قومه بشأنه: إنَّهُ لَمَجْنُون، ونفْيُ الجنونِ عنه مقترنٌ بالدّليل على أَنَّهُ لا يُمْكِنُ أَنْ يكُونَ مجنوناً، وهو مفَضَّلٌ على سائر الناسِ في زمانه، بنِعْمَةِ النّبوّة والرّسالةِ وما تشتمل عليه من عطاءٍ عِلْمِيٍّ رَبَّانيٍّ له فيه الحقُّ والخيرُ والْهُدَىٰ، ويَتَميَّزُ به

على النَّاسِ جميعاً، ولا يقْتَصِر حالُهُ على تفضيلٍ علميٍّ ذَاتيٍّ، بل هو يَدْعو النَّاسَ إلى تدبُّرِ ما يَنْزِلُ عَلَيه من بيان رَبَّاني، وتفَهُّم معانيه، وإلى اسْتخدام القلَم والكتابة في تسجيله وجَعْلِه كتاباً مسطوراً، لمُتَابعَةَ تفهُّمِهِ وَتَدَبُّرِهِ ما بَقِيَ في الدهر دارسون متفهّمُون للنصوص متدَبّرون.

وفيه أيضاً تثبيت للرسول ﷺ على حمل رسالته مهما ناله من أذىً من قومه.

وفي الإشارة إلىٰ هذا الدليل بأسلوب خطاب الرسولِ خطابَ تسلية وتثبيتٍ، تَعْرِيضٌ بسُخْفِ عُقول مُتَّهِمِيه بالجنون، وأَنَّ مقالتهم لا يُمْكنُ أن يكونَ لها رواجٌ في الناسِ، وهو يَتْلُو على الناس قرآناً فيه الحقّ والخير والْهُدَىٰ، ويَعْرِضُ نفسه للباحثين الدارسين المتدبّرين، ويَطْلُبُ منهم أَنْ يتعَلَّمُوا الكتابة والقراءة، وتدَبُّرَ ما يَسْطُرُونَ ممَّا يُنْزِلُ اللَّهُ علَيْهِ مِنْ قُرْآن.

واقتضت الحكمة التربويّةُ في هذه المرحلة الأولى أنْ لا يُواجِهَ اللّه عزّ وجلَّ مُتَّهِمِي الرسُولَ بالجنون بالخطاب المباشر الذي يُبينُ فيه فسادَ مقالتهم، تلطُّفاً بهِمْ، وإيثاراً لأسلوب التدرُّجِ الارتقائي في الوسائل، من التعريض إلى التصريح ثم إلى المواجهة بالخطاب، ثُمَّ إلى التعنيف فالشتيمة إذا اقتضى الأمر ذلك.

وقَسَمُ اللّهِ بالْقَلَمِ وَسِيلَةِ تَدْوِينِ المعارف والعلوم، وبِمَا يَسْطُرُ السَّاطرونَ من مكتُوباتٍ علميَّةٍ يُثْبِتُونها، للرُّجوع إليها آناً فآناً، بُغْيَةَ تَذَكُّرِها، ولِتَنْتَفِعَ الأجْيالُ المتلاحقَةُ مِنها، عَصْراً فعَصْراً، وَقَرْناً فَقَرْناً، هو في الحقيقة قَسَمٌ بصفاتِ اللّه الّتي كان من آثارها في تدبير الخلْقِ مَنْحُ الإنسان القدرةَ على استخدام القلم، في كتابة العلوم والمعارف وتسْجِيلِها، وهدايتَهُ إليها، وتَسْخِيرُ الوسائل لِجَعْلِ الكتابَةِ عِمَادَ تَدْوين المعارِف والعلوم وتثبيتِها.

وتحلِيلُ العبارة القرآنيَّةِ يكونُ على الوجه التالي:

أُقْسِمُ بالْقَلَم وبِمَا يَسْطُرُ السَّاطِرُونَ من معارفَ وعلومٍ لتثبيتها ومنها ما أُنْزِلَ عليكَ يَا مُحَمَّد من آياتٍ بيّناتٍ تشتمل على الحقّ والخير والْهُدَىٰ، لتكونَ ذكرىٰ للعالمين، علىٰ أنَّكَ لَسْتَ حالةَ كوْنِكَ مُفَضَّلاً بنِعْمَةِ اللّه عليك بالنبوّة والرّسَالَةِ وباصطفائِكَ بكِتَاب رَبِّكَ الْمُعْجِزِ الَّذِي أُوحِي به إِلَيْكَ بِمجْنُون، فالمجنونُ لا يكونُ مؤهَّلاً بحالٍ من الأحوالِ لِيُوحَىٰ إِلَيْهِ بِمِثْلِ هذا القرآن، وصفة الجنون لا تتلأَمُ مَعَ هٰذِهِ النِّعْمَةِ العظيمة الّتي أنْعَمْتُ بها عليك، وآثارُها ظاهِرَةٌ عَلَيْكَ أيْنما حَلَلْتَ وَأينما ارتَحَلْتَ.

(الباء) في عبارة ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ للمصاحبة والملابسة، والعامل في الحال الذي هو متعلّق الجار والمجرور هو معنَىٰ النفي في عبارة: ﴿مَآ أَنتَ﴾ أي: أنفى عنك حالة كونك مُلابساً ومَصْحوباً بنِعْمَةِ اللّهِ عليك أنْ تكون مجنوناً.

والنِّعْمَةُ المرادةُ هُنَا: هي نِعْمَةُ الاصطفاء بالنُّبُوَّةِ والرّسالَةِ ونِعْمَةُ إنزال القرآن المعجز على الرسول محمد ﷺ.

فما جاءَ الرسولَ محمّداً ﷺ من الوحي هو نِعْمَةٌ أنْعَمَ اللّهُ عزّ وجلّ بها عليه، وهٰذِه النّعمةُ ذَاتُ أثَرٍ حَقِيقيٍّ تُدْرِكُ العقول الحصيفة الرَّشيدَةُ عظمته، بما تشتمل عليه من حَقٍّ وخيرٍ وَهُدىً وإعجازٍ بَيَاني وعلْمِيٍّ وتشريعيّ وخبريّ، وهٰذِه الأمور لا يمكن أن تَصْدُر عن تَخيُّلٍ أو جُنُون، فكمال العلم، وكمال العقل، وكمال الحكمة، لا يُمْكِنُ أنْ يأتي بها جُنون.

فما أنت يا محمَّد بحَمْلِكَ لهذه النعمة العظمىٰ من ربّك بمجنون، فلا يضيرُكَ أن يقول المكذبون لك الذين يحْسُدُونك على مَا آتاكَ ربُّكَ: إنَّهُ لمجنون، ولْيَعْلَمُوا أَنَّ رَبَّكَ الذي اصطفاك بهٰذِهِ النعمة يُبَرِّئُكَ ممّا اتَّهمُوكَ به، إذْ أَنْتَ في ذَاتِكَ بريءٌ منه، وسيثْبتُ للجميع أنَّكَ أكْمَلُ الناس عَقْلاً وخُلُقاً.

● قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾.

الأَجْرُ: هو العوض عن العمل الذي يُقَدِّمه العامل تحقيقاً لمطلُوبِ المعْمُولِ له.

وعِوَضُ العمل الذي يُحَقِّقُ مطلوبَ اللَّهِ من عَبْدِه يضاعفُهُ اللَّهُ أضعافاً كثيرةً بفضله وجوده، وأَعْظَمُ العوضِ ما ادّخره اللّه لعباده وأَخَّرَهُ إلى يوم الدّين، فَهُو يمنحُهُمْ إياهُ في الحياة الأخرى.

﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾: أي غَيْرُ مَقْطُوعٍ، فهو إذنْ أجْرٌ مُتَواصِلٌ لاَ يَنْقَطع، مِنْ قولِهِمْ: مَنَّ الشَّيْءَ، إذا قَطَعه.

والأَجْرُ الَّذي لا ينقطع هو ثوابُ اللَّهِ لعباده الصالحين في جنَّاتِ النّعيم.

إنّه لَنْ يمُرَّ أذىٰ النّاسِ للرَّسُولِ ذي الخلُق العظيم، دون أجْرِ دائمٍ جسيم، من الرّبّ الجواد الكريم.

وفي وعْدِ اللّه لرسوله بالأَجْرِ غَيْرِ الْمَمْنُونِ تشجيعٌ له على متابعة جهاده في تبليغ رسالات ربّه، دون أن يعبأ بأذىٰ الناس له.

وقد جاءت الجملة مؤكَّدةً بالمؤكداتِ التاليات: «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللاّم المزحلقة».

● قول اللّه عزّ وجل خطاباً لرسوله:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾:

أي: وإنَّكَ لمفطورٌ علَىٰ خُلُقٍ عظيم، فأنْتَ متمكّنٌ منه تمَكُّنَ القادر على الشيْء باستعلاء، فحرفُ «علَىٰ» يدُلُّ علىٰ هذا التمكُّنِ باستعلاء.

لقد اقتضت الحكمة التربويَّة أن يُرْشِد اللّه رسُولَهُ في هذا الموقف إلى

الصَّبْر، والحلْم، والصَّفْح، وسَعَةِ الصَّدْرِ، ومتابعة قيامه بوظائف رسالات ربّه، بأسْلوب الثناء عليه بأَنَّهُ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عظيم.

هذه الجملة مؤكَّدَةٌ بمؤكدات ثلاثة: «إنَّ ـ الجملة الاسمية ـ اللام المزحلقة».

أي: فتعامل يا مُحَمَّدُ مع قَوْمِك بهذا الخلُقِ العظيم الذي فُطِرْت عليه، إذْ تَدْعُوهم إلى سبيلِ ربّك، وإذْ تنالُ منهم ما تنالُ من أذىً.

وهنا نلاحظ أنّ اللّه عزّ وجلّ لم يأمُرْ رسُولَهُ صراحة بالصَّبْرِ، والحلْم، والصفح، وسعَةِ الصَّدْرِ، وتحمُّلِ الأذىٰ من قومه، ومتابعةِ القيام بوظائفِ رسالته، وإنّما ألْمَحَ له إلى ذلك إلْمَاحاً عجيباً، فكان هذا الإلماحُ ثناءً فاخراً نفيساً بأنّه لَعَلَىٰ خُلُقٍ عظيم.

● قَوْلُ اللّه عزَّ وجلّ خطاباً لِرَسُوله:

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾.

الْمَفْتُونُ: المرادُ من المفتونِ هُنَا المصابُ بِالجنون، وإطلاق المفتون على المجنون من التوسُّعَاتِ اللّغَوِيَّة، ومعلومٌ أنَّ الّذي يتصرّف تصرّفات تُؤدّي به إلى شقائه وعذابه وخسارته غَيْرَ مُكترث للتحذيرات الّتي تُوجَّهُ له، هو المستَحِقُّ لأنْ يوصَفَ بالجنون.

ولمّا كان مَصِيرُ الكافرين المكذّبين للرسول ﷺ والمكذّبين بما جاء به عن ربِّه، مَصِيرَ شقاءٍ وعذابٍ وخسارةٍ وندمٍ، كَانَ وصْفُهم بالجنونِ هو الوصف الملائم لسلوكهم، ولكنّ هذا لا يكُونُ مَرْئياً بالأبصار إلاّ بَعْدَ أَنْ يَحُلّ بهم هذا المصير.

وهذا المصيرُ ليس بعيداً، فسَتَبْصِرُهُ يا مُحَمَّدُ بعَيْنَيْ رأسِك، وسَيُبْصِرُونه بأعْيُنِهم في الحياة الدنيا قَبْلَ الآخِرَة، وعندئذٍ يُدْرِكُون أنَّ

المجنون في فريق الكافرين، لا في فريق الرَّسُولِ والذين آمنوا معه، وقد دلّ على جنونه أنه دفع بنفسه وبمن اتَّبَعه إلى مصير الشقاء والعذاب والخسارة والندم.

وجاء استعمال السّين: ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ للدلالة على المستقبل القريب في الدنيا، ولو كان المستقبلَ البعيد في الآخرة لكان المناسب استعمالَ حرف التسويف «سَوْف».

وقد تحقَّق بفَضلِ اللّهِ هذا، فرأىٰ الرسولُ والمؤمنونَ في الْعَهْدِ المدنيّ كيف حلَّت بالكافرين الهزائم المنكرة، ورأىٰ الكافرون مَصِيرهم الذي وعد الله الرسول به، وأوعدهم به ضمناً.

لقد تضمَّن هذا النصّ وعداً من اللّه لرسوله بأنّه سَيُظْفِرُه، وينْصُرُه على متَّهميه بالجنون، وعندئذٍ يُبْصِرُونَ بأعْيُنِ رؤوسهم مصائرهم الّتي تدُلُّ على أنَّ كلّ واحِدٍ منهم كان هو الذي يَسْتَحِقُّ لَقَبَ «المجنون».

● قول اللّهِ عزّ وجَلَّ خطاباً لِرَسُوله:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾.

جاءت هذه الآية بمثابة التعليل للإيعاد بالمصير السّيِّئ الذي سيصير إليه الذين اتّهموا الرسول ﷺ بالجنون، والوعْدِ بالمصير الحَسَنِ السّارّ الذي سيصير إليه الرسُولُ ﷺ والذين آمنوا به واتَّبَعُوه، فهو بمضمونه إيعادٌ ووعدٌ.

وسبب هٰذين المصيرين أنَّ اللّه أعْلَم من كلّ عليم بالضّالين عن سبيله، وأعْلَمُ من كلّ عليم بالمهتدين، أي: وبما أنّه جلّ جلالُهُ حكيم في تصاريف قضائه وقدره، فلا بُدَّ أَنْ يَمْنَحَ العاقبة الحسنة للمهتدين (أي: لرسوله وللذين آمَنُوا به واتّبعُوه) ولا بُدَّ أَنْ يُنْزِلَ العاقبة السَّيِّئَةَ المخْزِيَة بالذينَ ضلُّوا عَنْ سبيله (أي: بالكافرين الذين اتَّهَمُوا الرَّسُولَ بالجنون وكذّبوا بما أنزل اللّهُ عليه).

وقد تحقَّقَ ذَلِكَ بَعْدَ حين في الدُّنيا قبل الآخرة، ولعذابُ الآخرة أشدّ.

● قول اللّه عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾.

الطاعة: الانقيادُ والمتابعة والاستجابة للطلب، يقال لغة: طاعَ فلانٌ فلاناً طوْعاً وطَاعَةً وطَوَاعِيَة، وأطاعَهُ إطَاعةً إذا انقاد له وتابَعَهُ واستجابَ لطلَبه.

وقد نهى اللّه رسوله فكُلَّ داعٍ إلى اللّه من أُمَّته عن طاعة المكذبين للرَّسُول، والمكذّبين بما جاء به عن ربّه، فهم يستدرجون حامل الرسالة إلى التنازل عَنْ دعوته، أو عن بعض مضامين رسالته.

ودُّوا: أي: أَحبُّوا وَرَغِبُوا، أو تَمَنَّوْا، والمفعول به محذوفٌ تَقْدِيرُه: أَنْ تُدَاهِنهم، دلّ عليه عبارة: ﴿لَوْ تُدْهِنُ﴾.

لَوْ تُدهِنُ: «لَوْ» حرفُ تَمَنٍّ، **تُدْهِنُ**: أي: تُظْهِرُ لَهُمْ خِلَافَ مَا تُبْطِن، يُقال لُغَةً: أَدْهَنَ الرَّجلُ، أي: أظهر خلاف ما يُبْطِن. وكذا: دَاهَنَ، ويقالُ: داهَنَ فُلانٌ فلاناً، إذا دارَاهُ ولايَنَهُ، وإذا خَدَعَهُ وغشّه.

فالمعنى: تمَنَّوْا أنْ تُداهِنَهُمْ يا مُحَمّد، فلَوْ تُدْهِنُ في مُعَامَلَتِك لَهُمْ، فَهُمْ في مقابل إدْهانِكَ يُدْهِنُونَ، فيُظْهِرُونَ لَكَ خلاف ما يُبْطِنون.

الشرح التحليليّ:

في هاتين الآيتين إعدادٌ تربويٌّ للرَّسُول ﷺ فلكلّ داعٍ إلى اللّه من أُمَّتِه، فالدّاعي إلى اللّهِ وإلى سبيله لا بُدَّ أن يتعرّض في دعوته إلى أصنافٍ من المكذِّبين برسالته، بهذا تقضي سنَّةُ الاجتماع البشري، وقد أثبتت هذه السُّنَّةَ الظاهراتُ المتكرّرات، وعلى الداعي إلى سبيل ربّه أنْ يُواجِهَ أصناف

المكذّبين له بمقتضىٰ المنهج الرّباني، وهو عدم طاعتهم في أيّ أمرٍ يَعْرِضُونه من شأنه الإخلال بواجب من واجباتِ رسالته، أو واجب من واجبات الدعوة إلى سبيل اللّه، وأن لا يُداهِنَهُمْ على حِسَابِ شيءٍ من رسالته ودَعْوَته مُخِلاً بمَبْدأٍ أَوْ حُكْم، أمّا المداراة في أُمور الدّنيا ممّا لا يمسُّ شيئاً من أمور الدّين بنقص أو زيادة أو تحريف، فهي من أساليب الدعوة، إذا اقتضتها الحكمة، في الظرف المناسب الذي يكون فيه الداعي.

وفي بيان هذا المنهج الربانيّ قال اللّهُ عزّ وجلّ لرسوله فلكُلّ داع إلى سبيل رَبّه من أُمّته:

● ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾.

والسبب في النهي عن طاعتهم ولو على سبيل مُداهنتهم أنّهم لا يَعْرِضون أمراً من الأمور المتعلّقة بدعوة الرّسول إلاّ مشتملاً عَلَىٰ ما يُخالفُ واجب الرّسالة وتبليغها، أو على زحزحة الداعي عن بعض مفهوماتِ دينِ اللّه أو أحكامِ شريعته، أو ما يجب عليه من تبليغٍ وبيان ودعوة إلى سبيل ربّه.

إنّ الدّعوة إلى دين اللّه الحقّ لا بدّ أن تتضمّن بيان فَسَاد عقيدة الكافرين والمشركين، وفسَادِ أعْمالهم في عبادة الأوثانِ، أو فسادِ ما هم مُعْتَادونَهُ من ظُلْم وفُحْشٍ وعُدْوانٍ وأخلاقٍ اجتماعيّة ذميمة قبيحة فيها إثْمٌ أو فجور، وهذا أمْرٌ يَعْتَبرُه الذين لا يسْتجيبون للدّعوة شتيمةً لهم ولطرائقهم وعاداتهم، وتسفيهاً لأحلامهم، وتنقيصاً لهم، وسبًّا لآبائهم الذين ورثوها عنهم.

فإذا كان للداعي في قومه عزوةٌ تنصُره، أو مكانةٌ اجتماعيَّةٌ تُخْشىٰ، فإنّ المكذبين برسالته يلجؤونَ في أوّل الأمر لمطالبته أو مطالبة مناصريه من عشيرته بأنْ يكُفَّ عن التعرُّض لعقيدتهم وأعمالهم وعاداتهم وأخلاقهم، لما

في ذلك من شَتِيمةٍ لهم فيما يتصوَّرون، إذْ هُمْ غيْرُ مستعدّين لتَرْكِ ما هم عليه، وقبُولِ دَعْوَتِه ونُصْحِه، وتغيير عقائدهم وعاداتهم وأعمالهم وأخلاقهم وطرائقهم في حياتهم.

وقد تعرّض الرسُول ﷺ فيما بَعْدُ في مسيرته الدّعويّة لمثل هذه المطالب، لكنّه اعتصم بالمنهج الرّبّاني الذي أمره اللّه فيه بأن لا يطيع المكذّبين ولو على سبيل المداهنة.

وروايات السيرة النبويّة تَشْهَدُ بهذا، فمنها ما يلي:

(١) مشىٰ رجالٌ من أشراف قريشٍ إلى أبي طالب عَمّ الرسول ﷺ ونصيره في قومه، فقالوا: يا أبا طالبِ، إنّ ابْنَ أخيك قد سبَّ آلِهَتَنا، وعابَ ديننا، وسفَّهَ أحلامَنَا، وضلّلَ آباءَنا، فإمَّا أنْ تكُفَّهُ عنَّا، وإمّا أن تُخلِّيَ بيننا وَبينه، فإنّك على مثل ما نَحْنُ عليه من خلافه، فَنكْفِيكَهُ.

فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً، وردّهم رَدّاً جميلاً، وانصرفوا عنه، ومضى الرسول ﷺ يُظهِرُ دينَ اللّه، ويدعو إليه، ولم يتخلّ عمُّه عن مناصرته.

(٢) قال عقيل بْنُ أبي طالب:

جاءت قريشٌ إلى أبي طالب فقالوا: إنّ ابْنَ أخيك هذا قَدْ آذانا في نادينا ومَسْجِدِنا، فانْهَهُ عنا. فقال: يا عَقِيلُ، انْطَلِقْ فأْتِنِي بمُحَمّد ـ ﷺ ـ فَانْطَلَقْتُ إليه، فاسْتَخْرَجْتُه مِنْ كِبْسٍ[1]، فجاء به في الظهيرَة في شدّة الحرّ، فجَعَلَ يَطْلُبُ الْفَيْءِ يمْشي فيه من شدّة الحرّ، فلمّا أتاهم قال أبو طالب: إنّ بني عَمِّك هؤلاء قد زعَمُوا أنّكَ تُؤذيهم في ناديهم ومَسْجِدِهم، فانته عن أذاهم.

---

(١) **الكِبْسُ**: البيتُ الصغير. قال شمّر: من كِبْسٍ، أي: من بيت صغير، ويُرْوىٰ بالنون من الكناس وهو بيت الظبي، والأكباسُ بيوتٌ من طين، واحدها كِبْسٌ.. والكِبْسُ اسْمٌ لمَا كُبِسَ من الأبْنية، انظر لسان العرب.

فحلَّقَ رسول الله ـ ﷺ ـ ببصَرِه إلى السماء فقال:

«أَتَرَوْنَ هٰذِهِ الشَّمْسَ؟».

قالوا: نعم.

قال: «فَمَا أَنَا بِأَقْدَرَ عَلَىٰ أَنْ أَدَعَ ذَلِكَ مِنْكُمْ عَلَىٰ أَنْ تَسْتَشْعِلُوا شُعْلَةً».

فقال أبو طالب: واللَّهِ مَا كَذَبَنَا ابْنُ أَخِي، فارْجِعُوا..).

ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يُظْهِرُ دين اللّه، ويدعو إليه، غَيْرَ مُسْتجيب لما دعاه إليه المكذِّبون، ولم يَتَخلَّ عمُّه أبو طالب عن نُصْرَته.

(٣) ثم مشىٰ الرجال من أشراف قريشٍ إلى أبي طالب، فقالوا له: يا أبا طالب، إنّ لكَ سِنًّا وشرَفاً ومَنْزِلَةً فينا، وَإِنّا قد استَنْهَيْنَاكَ من ابْن أخِيك فلَمْ تَنْهَهُ عنّا، وإنَّا واللَّهِ لا نَصْبر على هذا من شَتْم آبائنا وتَسْفِيهِ أحلامِنَا وعيْب آلهتنا حتَّىٰ تَكُفَّهُ عنَّا، أو ننازلَهُ وإيَّاكَ في ذٰلِكَ، حتَّىٰ يَهْلِكَ أَحَدُ الفريقين.

ثمّ انصَرَفوا.

فعَظُم على أبي طالب فراقُ قومه وعداوتهم، ولم يَطِبْ نفساً بأَنْ يَخْذُلَ ابْنَ أخيه ويُسْلِمَه لهم.

فبعث إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا ابْنَ أخي، إنّ قومَكَ قد جاءوني فقالوا لي: كذا وكذا، وقَصَّ عليه نبأَ ما جاءوا به، ثمّ قال له: فأبْقِ عليَّ وعلَىٰ نَفْسِك، ولا تُحَمِّلْنِي من الأمر ما لا أُطِيق.

فظنّ الرسول ﷺ أنّ عمَّه قد ضعُفَ عن نُصْرَته، وأنَّه خاذلُهُ وَمُسْلِمُه لقوْمه، فقال: يا عمّ، واللَّهِ لوْ وضَعُوا الشَّمْس في يميني، والقمَرَ في يساري على أن أتْرُكَ هذا الأمْرَ حتَّىٰ يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فيه ما تَرَكْتُه.

ثُمَّ استَعْبَرَ رَسُولُ اللّه ﷺ فبكَىٰ، ثُمَّ قام، فلَمَّا ولَّىٰ ناداه أبو طالبٍ فقال له: أَقْبِلْ يا ابْنَ أخي، فأقْبَلَ عَلَيْهِ رسولُ اللّهِ ﷺ فقال له: اذْهَبْ يا ابْنَ أخي فَقُلْ ما أحْبَبْتَ، فواللَّهِ لا أُسْلِمُكَ لشيءٍ أبداً.

وعرفَتْ قريشٌ مَوْقِفَ أبي طالبٍ من ابْنِ أخيه، وأنَّه غَيْرُ خَاذِلِهِ، وهكذا وقف رسولُ اللّه ﷺ ملتزماً منهج اللَّهِ، فلم يُطِعِ المكذّبين، ولم يداهنهم على حِسَابِ وظائفِ رسالته.

ولمّا ثبت الرسول ﷺ ملتزماً المنهج الرّبّاني صَارَ المشركون المكذبون يتعرّضُون له بالأذى، ويتَعرَّضون للذين آمنوا به واتّبعوه بالاضطهاد.

وممّن تعرّض له بالأذى أبو جَهْل «عَمْرو بْنُ هِشام» وكانت كنيته في قومه «أبا الحكم» فسبَّ الرسول وشتمه بوقاحة.

فانتصر للرسول ﷺ عَمُّه «حَمْزَة» وكان قد أسلم، وأقبل على أبي جَهْلٍ في مَجْلِس قوْمِهِ، فضربه بقوسه فشجَّه، وعلم القومُ أنّ «حَمْزَة بْنَ عَبْدِ المطّلِب» أصبَحَ على دين محمد ﷺ، فحَسَبُوا لَهُ حِسَاباً، وقام المخزوميّون ينتصرون لرجُلهم أبي جهل، فقال لهم أبو جهل: دعُوهُ، فإنِّي واللَّهِ سبَبْتُ ابْنَ أخيه سَبًّا قبيحاً.

(٤) ولجأ المكذِّبون إلى عروض الإغراء، لعلّ محمّداً يطيعهم في ذلك.

فمن عروضهم أنّ «عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَة» وكان سيّداً في قَوْمه، قال يوماً وهو جالسٌ في نادي قريش، ورسُولُ اللّه ﷺ جالِسٌ في الْمَسْجِد وحْدَهُ: يا مَعْشَرَ قُرَيشٍ، ألاَ أقومُ إلَىٰ محمّدٍ فأكلِّمَهُ، وأعْرِضَ عليه أُموراً لعلّه يقْبَلُ بعْضَها، فَنُعْطِيَهُ أيَّها شاءَ، ويكُفَّ عنَّا؟

فقالوا: بلَىٰ يا أبا الوليد، قُمْ إليه فكلِّمْهُ.

فقام إليه عُتْبَةُ، حتَّىٰ جَلَسَ إلى رسول اللّه ﷺ، فقال: يا ابْنَ أخي، إنَّكَ مِنَّا حَيْثُ عَلِمْتَ مِنَ السِّطَةِ[1] في الْعَشِيرَة، والمكانِ في النَّسب، وإنَّكَ قد أتَيْتَ بأمْرٍ عظيم فرَّقْتَ بِهِ جَماعَتَهُمْ، وسَفَّهْتَ به أحْلامهم[2]، وعِبْتَ بِهِ آلهتَهُمْ ودينَهم، وكَفَّرْتَ بِهِ مَنْ مضَىٰ من آبائهم، فاسْمَعْ منِّي أَعْرِضْ عليْكَ أُموراً تَنْظُرُ فيها، لعلَّك تقْبَلُ منها بَعْضَها.

فقال له الرسول ﷺ: «قُلْ يَا أَبا الْوَلِيدِ أسْمَعْ».

قال: يا ابْنَ أخِي، إنْ كُنْتَ إنّما تُريد بما جئت به من هذا الأَمْرِ مالاً جمعْنَا لكَ من أَمْوالنا حتَّىٰ تكُونَ أكْثَرَنَا مالاً، وإنْ كنْتَ تُريدُ بِه شرَفاً سَوَّدْنَاكَ عَلَيْنَا، حتَّىٰ لا نَقْطَعَ أَمْراً دُونَكَ، وإنْ كُنت تريدُ به مُلْكاً مَلَّكْنَاكَ علَيْنا، وإنْ كانَ هذا الّذي يأتيكَ رَئِيّاً[3] تراه لاَ تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِك، طلَبْنَا لكَ الطِّبَّ، وبذلْنَا فيهِ أمْوالَنَا حتَّى نُبْرِئَك منه، فإنَّهُ رُبّما غلَبَ التابعُ على الرجُلِ حتَّىٰ يُداوَىٰ منه.

حتَّىٰ إذا فرغ عُتْبَةُ ورسُولُ اللّه ﷺ يسْتَمع منه قال:

«أفَرَغْتَ يا أبو الوليد؟».

قال: نعم. قال: فاسْمَعْ منّي. قالَ: أفعل. فتلا عليه رسول اللّه ﷺ سُورَة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) مِنَ أوّلها إلى السَّجْدَةِ منها (الآية ٣٨) فسَجَد.

ثم قال: «قد سمعْتَ يا أبا الوليد ما سَمِعْتَ، فأنْتَ وَذَاكَ».

---

(١) **السِّطَة**: الشَّرف والمكانَةُ والحَسب، يقال لغة: وَسُطَ الرَّجُلُ يَوْسُطُ وَسَاطةً وَسِطَةً، أي: صار شريفاً وَحَسِيباً، فهو وَسِيطٌ.

(٢) **أحْلَامهم**: أي: عقولهم.

(٣) **الرَّئِيُّ**: هو التابع من الجنّ.

ويلاحظ أنّ في الآيات الّتي تلاها الرسولُ ﷺ علَىٰ «عُتْبة بن رَبيعة» تهديداً لقريش بعذابٍ مُهْلِكٍ مُشَابِهٍ للعذاب الذي أهْلَكَ اللّه عزّ وجلّ به عاداً وثَمُودا.

(٥) ثمّ أعاد المكذِّبون محاولة عروض الإغراء الّتي بدأها «عُتْبَةُ بن رَبِيعَة» لمّا رأوا أَنّ الإسلام أخذ يفشو في قبائل قريش في الرجال والنساء، وأنّ وسائل الاضطهاد لم تَرُدَّ الذين آمنوا بمحمّد واتَّبَعُوه عن الدّين الذي آمنوا به، بل زادتهم استمساكاً به، وجعلَتِ المتريّثين يستَيْقِنون أنّ هذا الدّين حقٌّ، وأَنَّ محمّداً نبيٌّ اصطفاه اللّه بالنبوّة والرّسالة، وبعثه رسُولاً يُبَلّغ الناسَ رسالات ربّه.

روى ابن إسحاق عن بعض أهل العلم، عن سعيد بن جُبَير، وعَنْ عِكْرِمة مولى ابْنِ عبّاس، عن عبد اللّه بن عبّاس ـ رضي اللّه عنهما ـ قال:

اجتمع عُتْبَةُ بْنُ رَبيعة، وشَيْبةُ بْنُ رَبيعة، وأبو سفيان بْنُ حرْب، والنَّضْرُ بن الْحَارِثِ بْنِ كَلَدَة (أخو بني عبد الدارِ) وأبو الْبَخْتَرِيّ بن هشام، والأسْوَدُ بن المطّلب بن أَسَد، وزَمَعَةُ بْنُ الأسْوَد، والوليدُ بْنُ المغيرة، وأبو جَهْلِ بن هشام، وعَبْدُ اللّه بن أُميَّة، والعاصُ بْنُ وائل، ونُبَيْهٌ وَمُنَبِّهٌ ابْنا الحجَّاج السَّهميّان، وأُمَيَّةُ بْنُ خَلَف.

(وهم أشراف قريشٍ من كلّ قبيلَةٍ كما ذكَر ابْنُ إسحاق).

قال ابْنُ عباسٍ: اجتمعوا بعْدَ غُرُوب الشَّمْسِ عند ظهر الكعبَة، ثُمَّ قال بعْضُهم لبعض، ابْعَثُوا إلى محمَّدٍ فَكَلّمُوهُ، وخاصِمُوهُ حتَّىٰ تُعْذِرُوا فيه.

فبَعَثُوا إليه: إنَّ أشراف قَوْمِكَ قد اجتَمَعُوا لك ليُكَلّمُوكَ فأْتِهِمْ.

فجاءهم رسول اللّه ﷺ سريعاً، وهو يُظَنُّ أَنْ قَدْ بَدَا لَهُمْ فيما كلَّمَهُمْ

فيه بَدَاءٌ، وكانَ علَيْهم حريصاً، يُحِبُّ رُشْدَهُمْ، ويَعِزُّ علَيْه عَنَتُهُمْ، حتَّىٰ جلَسَ إليهم.

فقالوا له: يا مُحمَّد، إنّا قَدْ بَعَثْنَا إلَيْكَ لنُكَلِّمَكَ، وإنّا واللَّهِ ما نَعْلَمُ رَجُلاً من العرب أدخلَ على قومه مثل ما أدْخلْتَ على قومِكَ، لقَدْ شتَمْتَ الآباء، وعِبْتَ الدِّين، وشتَمْتَ الآلِهة، وسَفَّهْتَ الأحلام، وفرَّقْتَ الجماعة، فما بقي أمْرٌ قبيحٌ إلاّ قَدْ جئتَه فيما بَيْنَنا وَبينك.

فإنْ كنْتَ إنَّما جئتَ بهذا الحديث تَطْلُبُ به مالاً، جمَعْنا لك منْ أموالنا حتَّىٰ تكونَ أكثرَنا مالاً، وإنْ كنتَ إنّما تَطْلُبُ به الشَّرَفَ فينا، فَنَحْنُ نُسَوِّدُكَ عَلَيْنا، وإِنْ كُنتَ تُرِيدُ بِهِ مُلْكاً مَلَّكْنَاكَ عَلَيْنا، وإِنْ كانَ هذا الذي يأتيك رَئِيًّا تَراهُ قَد غَلَبَ عليْكَ (وكانوا يُسَمُّونَ التّابعَ من الجنِّ رَئِيّاً) فربَّمَا كانَ ذلك، بَذَلْنَا لك أموالنا في طلَبِ الطِّبِّ لك، حتَّىٰ نُبْرِئَكَ منه، أو نُعْذِرَ فِيك.

فقال لهم رسولُ اللّه ﷺ:

«مَا بِي مَا تَقُولُونَ، مَا جِئْتُ بما جئتُكُمْ بِهِ أَطْلُبُ أموالَكُمْ، ولاَ الشَّرَف فِيكُمْ، ولا الْمُلْكَ عَلَيْكُمْ، ولكِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إليكُمْ رسُولاً، وأنْزَلَ عليَّ كتاباً، وأمَرَني أَنْ أكُونَ لَكُمْ بَشيراً وَنَذِيراً، فبَلَّغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي، ونَصَحْتُ لَكُمْ، فإنْ تَقْبَلُوا مِنِّي ما جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ في الدُّنيا والآخرة، وإنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أصْبِرْ لأمْرِ اللَّهِ، حتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وبَيْنَكُمْ».

فلمّا رفضَ الرسول ﷺ منهم عروض الإغراء، وجَّهُوا لَهُ مطالِبَ التَّعَنُّتِ.

لقد استمسَكَ الرسول ﷺ بالمنهج الرَّبّانيّ الّذِي قال اللّه عزّ وجلّ فيه:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾.

واستمر صلوات اللّهِ عليه كذلك طَوالَ مَسِيرَتِهِ في دَعْوته.

وكذلك يجب على كلّ الدُّعاة إلى سبيل رَبِّهِمْ من أمّته.

أمّا رغبة المكذّبين في أَنْ يُدْهِنَ الرَّسُولُ لهم، أيْ: أَنْ يُظْهِرَ لَهُمْ خلاف ما يُبْطِنُ، وأن يُقَابِلُوهُ بالإدهان منافقين، فقد دلَّتْ عليها ظواهر رواها كتابُ السِّيرَة.

وقِمَّةُ المداهَنَةِ أَنْ يَتظاهر المشركون بعبادة ما يَعْبُد الرسول ﷺ مدَّةً من الزَّمن، على أن يتظاهر هو بعبادة ما يَعْبُدون مُدّة من الزمن، فتَتِمَّ المصالحة التوفيقيَّةُ على ذلك، ويكونُ الرَّسُولُ قد كفَّ عن مهاجمة دينهم وعباداتهم الشركيّة، ويكفُّونَ هُمْ عن مهاجمة دينه واضطهاد الذين آمنوا به واتّبعوه.

فمن روايات عروض المداهنة ما يلي:

(١) روى الطبريّ بسنده عن ابن عباسٍ، أنّ قريشاً بعد أن يَئِسُوا من استجابة الرسول لعروض الإغراء الّتي عرضوها عليه، قالوا له: فإنّا نَعْرِض عليك خصلةً واحدةً، فهِيَ لَكَ ولنا فيها صلاح.

قال رسول الله ﷺ: ما هي؟

قالوا: تَعْبُدُ آلهتنا سنةً، اللاّتَ والْعُزَّىٰ، ونَعْبُدُ إلَهَكَ سنة.

قال: «حتَّىٰ أَنْظُرَ مَا يَأْتي مِنْ عِنْدِ رَبِّي».

فجاء الوحْيُ من اللَّوْحِ المحفوظ:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ سورة (الكافرون/ ١٠٩ مصحف/ ١٨ نزول).

وأنْزَل اللَّه قولَهُ في سورة (الزُّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾.

(٢) وروى الطبريُّ أيضاً بسنده قال: لقيَ الوليدُ بْنُ المغيرة، والعاصُ بْنُ وائل، والأسْودُ بْنُ المطّلب، وأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، رسُولَ اللّه ﷺ، فقالوا:

يا مُحَمَّد، هَلُمَّ فَلْنَعْبُدْ مَا تَعْبُدُ، وتَعْبُدْ ما نَعْبُدُ، ونُشركك في أمْرِنا كلّه، فإن كان الذي جئت به خيراً ممّا بأيدينا كُنّا قد شَرِكْنَاكَ فيه، وأَخَذْنا بحظّنا منه، وإِنْ كَان الّذي بأيدينا خيراً ممَّا في يَدَيْكَ، كنت قد شرِكتَنا في أَمْرِنا، وأَخَذْت منْهُ بحَظّك، فأنزل اللّه عز وجلّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾.

فلم يستجبِ الرسولُ ﷺ لعروض المداهنة، لأنّها لاَ يُمْكِنُ أنْ تتَّفِقَ مع دَعْوَةِ الحقّ، فأيُّ تظاهر يُعْلِنُه حامل رسالة الحقّ، فيه ما يتناقض مع شيءٍ من مبادئه، ومفهومات رسالته، ومَا تستَلْزمه من شرائع وأحكام، هو في الحقيقةِ إلْغاءٌ ضِمْنِيٌّ لكلّ دعوته، ونَقْضٌ لكلّ رسالته.

إنّ قضيّةَ الدين ليْسَتْ قضيَّةَ مُسَاوَمَاتٍ على مصالحَ دُنيويَّة، بل هي قضيَّةُ حقٍّ وباطل، والتفاصُلُ بين الحقّ والباطل لا بُدَّ أَنْ يسْتَمِرَّ ظاهراً مُعْلَناً، لا يجوز أَنْ تَسْتُرَهُ المداهَنَاتُ الكاذبات، ولو حصَلَتْ هذه المداهَنَات الكاذبات فسيظَلُّ كلُّ ذي دينٍ على دينِه، والْمَظَاهِرُ لا تُغَيِّرُ من الحقّ شيئاً.

وَأَثْبَتَتْ سيرةُ الرَّسُولِ ﷺ طَوالَ مَسِيرَتِه في دعْوَته أنَّه كانَ مُتَحَقِّقاً بالوصِيَّةِ الَّتِي أوْصَاهُ اللَّهُ بها في قوله له: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ وأنَّ مَا اشتمَلَتَا عليه من إعدادٍ تَرْبويٍّ له قد حقَّقَ آثاره تماماً، فلَمْ يَجِد الرسولُ عنه ﷺ قِيدَ شَعْرَة.

● قول اللّهِ عزّ وجلّ لرَسُوله فلِكُلِّ داعٍ إلى الله من أُمّته:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

في هذه الآياتِ تخصيصٌ لطائفةٍ من المكذّبين بتفصيل بعض ظواهر صفاتهم، باعتبارها علاماتٍ دالأتٍ عليهم، بعد الآيتين السّابقتين اللَّتَيْنِ اشتملتا على التحذير من طاعة كلِّ المكذبين برسالة الرسول ﷺ، وفائدة هذا التخصيص المبالغةُ في التحذير من هذه الطائفة، إذْ لدَيْها القدرةُ على المخادعة والمداهنة، وسَتْرِ هُوِّياتها بحَلِفِ الأيمان الكواذب، والطَّعْنِ من الْخَلْفِ بالْهَمْزِ واللَّمْزِ والنميمة، وهي تمْنَحُ من وُجُوهها الْبِشْرَ والْبَسَمات، وتمْنَحُ من أَلْسِنَتِها حُلْو الْعِبَارات.

هذه الطّائفة الّتي تَعْمَلُ لِصَدِّ الداعي إلى اللّهِ عن دعوته، والوقوف في طريق مَسِيرَتِه الدعويَّة، تَمْلِكُ القدرةَ على تقديم نصائحها برفق، مقرونةً بالأيمان المغلَّظة، مع التظاهر بالودّ والحرص على مصلحة من تُوَجّه له نصائحها، وتَمْلِكُ الْقُدْرَةَ مع ذلك وفي الوقت نفسه على الْهَمْزِ ضدّ الداعي إلى اللّه لإشعار غير المؤمنين بأنّها تَكِيدُهُ بنصائحها وبأيمانها المغلّظة، فإذا فارقت مجلس الداعي إلى سبيل ربّه، انْطَلَقَ كلُّ واحدٍ منها مشَّاءً بالنّميمَةِ كالحيَّةِ الرَّقْطاءِ، ليُفْسِدَ قُلوبَ النّاسِ تُجاه الداعي، وليُقَطِّعَهُمْ عنه، ويَصُدَّهم عن صراط اللَّهِ المستقيم، ويظلُّ حريصاً على أَنْ يَمْنَعَ انتشار الخير والهدى، لأَنَّ انتشار الخير والْهُدَىٰ في الناس يُضِرُّ بمصالحه، ويحوّلُ عنه المجاري التي يَعُبُّ منها ثراءَهُ ومكانَتَه الاجتماعية وسلطانَه ومَجْدَه، إذْ يُبْصر الناسُ حقيقة جرائمه الّتي كان يسْتُرُها بمكْرِهِ وكيْدِه، بتَأثير انتشار الخير، فَهُوَ مَنَّاعٌ للخير بكُلِّ وَسِيلَةِ مكْرٍ وكَيْدٍ تُتَاحُ له.

فإذا أَلْجَأَهُ الأَمْرُ إلى استخْدَام سُلْطَته العدوانيّة، إذْ لَمْ تُجْدِه وسائل المكر، كانَ مُعْتَدِياً مُرْتَكباً لأَقْبَحِ الآثام وأشْنعها.

وحين يَصِلُ به الأَمْرُ إلى استخدام سلطته العدوانيّة تنقلب سحْنَتُهُ الخلُقِيَّة، فيصير عُتُلًّا جافياً، فظًّا، غليظاً، لئيماً، فاحِشَ الخلُق، ظَلُوماً، لا رحْمَةَ في قلْبِه ولا عاطفةَ في نفسه، لقد كان من قَبْلُ يَلْبَسُ جِلْدَ حَمَلٍ وديعٍ، فصَارَ جبَّاراً في الأرض، ضارِياً ضراوة السِّباع، مستكْبِراً أَشِراً، أكولاً شروباً قاسياً نَهِماً.

وعندئذٍ يظهر لدىٰ الناس جميعاً بعلامة: «شِرِّير» فيتّقيه الناسُ ويتحَاشَوْنَهُ مخافَةَ شَرِّهِ، إذْ يصير زعِيمَ شَرٍّ وإجْرام.

هذا الصنف من الناس هو عدُوٌّ لدودٌ للحقّ والخير والدّعاة إلى سبيل اللّه.

التدبُّر التحليليّ للنصّ:

● ﴿وَلَا تُطِعْ﴾: أي: ولا تَنْقَدْ ولا تَسْتَجِبْ لمطالب هذا الفريق من الناس الذي سَنَحَدِّثُكَ عن الصِّفات العامّة المشتركَةِ بين أفراده، على وجْهِ الخصوص، بعد أن حذّرْناك من طاعة جميع المكذّبين بالدّين.

● ﴿.. كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾: **حَلَّاف**: أي: كثير حَلِفِ الأيمان المغلَّظةِ، لتوثيق أقواله الكواذب. صيغة «فعّال» صيغة تكثير، وهي كما يقول النحاة إحدى صِيَغ المبالغة.

هذه الصفة نُلاحظها لدىٰ كثير من المضلّين، إذ يُسْرِفونَ في صناعة الأكاذيب، ويُحاولُونَ سَتْرَهَا بالأيمان الفواجر الكواذب، ويقدّمون لمن يُنافقونه ويتظاهرون بودّه والرغْبَةِ في نُصْحه ما يَزْعُمونَ أَنَّهُم ينصحونه به، ويُخادِعونه بِسَيْلٍ من الأيمان، ليستروا بذلك رغبتَهُمْ في توريطه، أو صَرْفِه عن عَمَلِ خير هو فيه، أو هو عازمٌ على القيام به.

مَهِين: أي: حَقِيرٍ في ذاتِ نفسه، وإنْ كان منتفخاً فِي ظاهِرِهِ، يتصَنَّعُ التعاظُم.

والْمَهِينُ الحقيرُ في ذاتِ نفسه لا بُدَّ أن يكون كذَّاباً فاجراً، ومِنْ مَهَانةِ هذا الصنف من الناس دناءتُهُ في سلوكه الذي يُخْفِيه ولا يُعْلنُه، إذْ تَمْلِكُهُ شَهْوَةٌ حقِيرَة، وتُذِلُّهُ رِشْوَةٌ صَغِيرَة، والباحثُ عن خباياه يَجِدُ لدَيْه من الدّناءات والمهانات ما يترَفَّعُ عنهُ أكْثَرُ النّاس دناءةً وَمَهانَةً، وقِلّةَ مُبالاتٍ بما تَدْعُو إليه الكرامة، وقَدْ يَظْهَرُ للنَّاسِ بعضُ ذلك في فلتات تصرُّفاته، فتكشفُه لأهل الملاحظة والنظر اللَّمَّاح.

● ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١﴾:

هَمَّازٍ: صيغة تكثير، أي: دَيْدَنُه ودَأْبُه تعيير الناسِ وتَنْقيصُهم وغيبتُهُمْ، والطعْنُ فيهم من وراءِ ظهورهم، وأكْلُ لحومهم.

الهَمْزُ: في اللُّغة مثل الغمز والضغط والْعَصْرِ والنَّخْسِ باليد أو بأداة ما، ويدخُل في معنى الْهَمْزِ الغيبَةُ، وإشاراتُ التعيير والتنقيص ببعْضِ حركاتِ الوجه، ونَحْوُ ذلك.

وما أكْثَرَ ما يُلاحظ الناس هذه الصفة في ذوي المكانات الفارغات، والزعامات المهينات، من الذين يتظاهرونَ بالتعاظم وهم حقيرون.

وهدفهم من أعمالهم هذه الحطُّ من مكانة ذوي المكانات في مجتمعهم، ليستعْلُوا عليهم، وليكون لهم وحدهم البروز والظهور.

﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾: أي: كثيرِ المشي بالنَّمِيمَة، لتقطيع أواصر صلاتِ الناس بعْضِهم ببعض، تصَوُّراً منهُ أنّه بهذا التقطيع يمنَعُ تجمُّعَهم، فتكون له وحده القوَّةُ الجماعيَّة بالأعوان والأنصار، وهذا من دناءته ومهانته وسوء طويته.

النَّمِيمُ، والنَّمِيمَةُ: الوشاية بالسّوء لإفساد بعض النَّاس على بعض، وأصلهما الصوتُ الخفيُّ من حركةِ شيءٍ، أو من وطْءِ قَدَمٍ، ويقال لصَوْتِ الكتابة: نميم ونميمة.

ومعلوم أنّ النَّمام يُقَدِّم وشايته باستخفاء، وبصوتٍ خفيّ.

● ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾: أي: كثير الْمَنعِ لِلْخَيْر، فهو في ذاتِهِ لا يفْعَلُ الخير، لأنَّهُ مُسْرِفٌ في أنانِيَّتِه، ثُمَّ هو لا يُريدُ مِنْ غَيْرِه أَنْ يفعَلَ الْخَيْر، لأنَّ فاعِلَ الْخَيْرِ في الناس محبُوبٌ محتَرمٌ ذو مكانةٍ، والمنَّاع للخير الذي يطلب الزعامة لنفسه بغير ثمن، يكره أنْ يفعَلَ غيرُه خيراً، لئلا يكون له بذلك مكانةٌ اجتماعيَّةٌ حقيقيَّة، مُنَافسةٌ لزعامته الكاذبة المصطنعة بالانتفاخ الفارغ، والتمويه والتضليلِ، أو بوسائل التسلُّط العدواني، فيتَّقيهِ الناسُ مخافَةَ شرّه، وقد يمنع انتشار الخير بأعماله العدوانيّة.

مُعْتَدٍ: أي: ظالم ذو عدوان على النّاس بغير حقّ، يقال لغة: اعتدىٰ فلانٌ على فلان، أي: ظلمه. واعْتَدَىٰ الحقَّ، أي: جاوزه إلى الباطل.

إنّ الواحد من هذا الصنف من الناس يُسَخِّرُ ما لديه من قُوَّةِ مالٍ وبَنِينَ وأنصارٍ وأعوانٍ في الاعتداء على الناس ليُرْهِبُوهم، بغية أنْ يأخُذَ مكانته بينهم بالإرهاب والعدوان، لا بالعطاء وفعل الخير وخدمة الناس، وإصلاح ذاتِ الْبَيْن.

وأعدىٰ أعداء هذا الصنف من الناس الدُّعاة إلى اللّه وأنصارُهم ومؤيدوهم والتابعون لهم.

وكم نلاحظ طُلَّابَ زعاماتٍ يفرِضُونها على الناس بعُدْوانهم عليهم، وظُلْمهم والسَّطْوَةِ عليهم، لا بامْتِلَاكِ قلُوبهم بالمحبّة.

﴿أَثِيمٍ﴾: أي: كثير الإثم، مسرفٍ في ارتكاب المعاصي والجرائم، وممارسات الأعمال غير الأخلاقية.

فمهما تحرَّكَتْ لدَيْهِ شَهْوَةٌ، أو هوى، أو مطلَبٌ من مطالبِ نَفْسِه، لم يتورَّعْ عن ارْتكابِ أيِّ إثْمٍ لتحقيق شهوته أوْ هواه، أو مطلبه.

وكم يُلاحظ النَّاسُ أئمَّةَ ضلالٍ وتضليلٍ هُمْ في أنواع سلوكهم أثِيمُونَ، ويجابِهُونَ الحقّ والخير والفضيلة والدعاة إلى اللّهِ بالإثْمِ والعدوان.

الإِثْمُ: في اللّغة الذنب، وجاء استعمال «الإثم» في القرآنِ للدّلالَة على جميع المعاصي الّتي نهى اللّه عنها، كبيرها ومتوسطها وصغيرها.

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

عُتُلّ: هذه الكلمة تُطْلَقُ على الجافي الفظّ الغليظ اللّئيم ذي الخلُق السّيئ، الظلوم للناس، الذي لا رحمة في قلْبه ولا عاطفة، الشّدِيدِ الأَشَرِ والكِبْرِ، الأَكُولِ الشَّرُوب القاسي.

هذه صفة صنف من الناس يريد أنْ يفرض على الناس زعامَتَهُ بهذه القبائح الشنيعة التي وضع العرب للمتخلّق بها كلمة «عُتُلّ».

وهو بهٰذِهِ القبائح يواجه داعي اللّه.

﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾: أي: وهو بَعْدَ كُلّ الصّفاتِ السّيئَة الّتي سَبَقَ ذِكْرُهَا، فهو ذو علامَةٍ بارزةٍ فيه تَدُلُّ دَواماً على أَنَّهُ إِنْسَانٌ شِرِّير، فيَتَّقِيهِ الناسُ لِشَرِّه، ويتحاشَوْنَه مَخافَةَ أن ينالهم منْهُ ضُرٌّ أَوْ أذىً، إِنَّهُ زعِيمُ شرٍّ وإجرامٍ تَظْهَرُ عليه علامة الشَّرّ فيه، كظهور زنَمَةِ الشاة أو البعير في أذنه.

الزَّنَمَة: ما يُقْطَعُ من أُذُن البعير أو الشاة فيُتْرَكُ مُعَلّقاً، وزنمتا الأذن: هنَتَان تَلِيَانِ الشحمة وتقابلان الوترة.

والزنيم: المعروف بِلُؤْمِهِ وشرِّه، ويبدو أَنَّ هذا المعنى هو المراد.

وهذا الصنف من الناس عدو للحقّ والخير والفضيلة ودُعاةِ اللّه وأعوانِهم ومناصريهم، فلا يَفْتَأُ يكيد المكايد وأنواع المكر بخبث ولُؤْم وكلّ عمَلٍ قبيح، فاقتضىٰ المنهج الرّبّانيّ توجيهَ التحذير الشديد من طاعته، والاستجابةِ لمقترحاته وما يُقدِّم من آراء يزعم أنّها نصائح، إذْ هو كالشيطان غشاشٌ غدّارٌ مُغْوٍ مُضِلٌّ وسواسٌ خنّاس.

● قول الله عزّ وجل:

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾.

● قرأ ابن عَامِر، وشعبة، وحمزة، وأبو جعفر ويعقوب: (أَأَنْ كَانَ) بإضافة همزة استفهام.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿أَن كَانَ﴾ بدون همزة استفهام، ويمكن حمل هذه القراءة على الخبرية، أو على تقدير همزة استفهامٍ محذوفة.

أساطير: تأتي في اللّغة بمعنيين:

● فتأتي بمعنى: أباطيل، وأحاديث لا نظام لها، واحدتُها: إسْطار، وإسْطارةٌ، وأسْطُور، وأُسْطورة.

● وتأتي بمعنى: مكتوبات الأوّلين ومسطوراتهم، قال أبو عبيدة: جُمِع «سَطْرٌ» على «أَسْطُر» ثُمّ جُمِعَ «أسْطُر» على «أساطير».

أقول: فيمكن حَمْلُ عبارة: ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ على أحد المعنيين: أباطيل الأوّلين، أو: مكتوبات الأوّلين، وهي كتُب أهل الكتاب.

● ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ على أن الجملة خبريَّة لا استفهاميّة، وفي ارتباطها بسائر النصّ وجهان:

الوجه الأوّل: هي مرتبطة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ أي: ولاَ تُطِعْ مَنْ هذه قبائِحُهُ ومَثالبُه، لِكَوْنِهِ ذَا مَالٍ وبَنِينَ، جَعَلا لَهُ وَجَاهَةً في قومه، وسيادَة وعزّاً وشَرَفاً، فهو كافِرٌ مَهِينٌ في ذات نفسه سَيِّئُ الْخُلُق، وحرف الجرّ قبل «أن» يُحْذَفُ بقياسٍ مُطّرد.

الوجه الثاني: هي مرتبطة بصِيغِ المبالغة الّتي تَعْمَلُ أعمال أفعالها: «حلاَّف ـ همَّازٍ ـ مَشّاءٍ بِنَمِيم ـ مَنَّاعٍ للخير ـ مُعْتدٍ ـ أثيم» والمعنى أَنَّه ارْتكبَ هَـٰذه القبائحَ الشنيعَةَ مُغْتَرّاً بنفسه لِأَنّه كانَ ذا مالٍ وبنين، لقد أنعم اللّه عليه بالمال والبنين، فقابلها بالكفران وارتكاب كُبْرَياتِ القبائح.

أمّا على قِراءة: (أَأَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ) بصيغة الاستفهام، فهو استفهامٌ استنكاريٌّ توبيخيٌّ لهذا الصنف من النّاس مرتبطٌ بجُمْلَةِ: ﴿قَالَ.. أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ والمعنَىٰ: ألأنَّه كان ذا مالٍ وبَنِينَ بعطاءٍ مِنّا لَهُ كانَ شَأْنُهُ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾؟!! فما أشدَّ قُبْحَ هذهِ المقابلة، ومَا أخَسَّ وأرذَلَ أصحابَها؟!!

● قول اللّهِ عزّ وجل:

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

لقد اقتضت الحكمةُ التربويّةَ توجيه الوعيد لهذا الصنف المستكبر المكذِّب، بعذَابٍ مُذِلٍّ مُهِينٍ يُخزِيه يَوْمَ الدِّينِ، ورُبَّما بعذابٍ مُعَجَّلٍ يخزيه ويُذِلُّه في الدّنيا أيضاً، بدليل استعمال حرف «السّين» في: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾:

الوسْمُ: الكيُّ بالنّار لتمييز الموسوم بعلامة خاصّة.

﴿ٱلْخُرْطُومِ﴾: الأَنْفُ، ومُقَدَّمُ الأَنف، ويختصُّ غَالِباً بخُرْطوم الفيل، وخرطوم الخنزير.

وجاء استعمال لفظ «الخرطوم» هنا للدّلالَة على أنف هذا الصنف من الناس، للإشارة إِلَىٰ أَنَّه استكْبَرَ بأَنفِه على خلْقِ اللّهِ، وعن الإيمانِ بآياتِ اللّهِ، وتصديقِ رسُوله، لكنَّه في الحقيقة أنزل نفسه بانتفاخ أَنْفِه إلى مُسْتَوىٰ الفيلة والخنازير ذَوَاتِ الخراطيم.

لَكِنَّ هذا الأنف المنتفخ المستكْبِرَ سَيُكْوَىٰ بالنار، ويكونُ كيُّهُ بالنّار وَسْماً مُذِلاً مُهِيناً مُخْزِياً يتَمَيَّزُ بِهِ بعلامَةٍ فارقة خاصّة.

وربّما يكونُ هذا بسبب كَبِّهِ في النّار على منخره، إهانة لَهُ على عِناده واستكْباره، وتَعْذِيباً لَهُ على جحوده الحقَّ وإنكاره.

وقد ثبت في الصحيح عن النبيّ ﷺ قوله:

«وهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ في النَّاسِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ. أو قال: عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ إلاّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ».

لقد جاء هذا الإنْذَارُ موجزاً مقتضباً، لأنه كان في أَوَائِلِ مراحل الدَّعْوَة، ونظيره المقتضبات التي جاءت في «العلق» و«المدثر» و«المزّمل».

وهذه الإنذارات جاءت لقلّةٍ من المكذّبين، هم أئمة الضّلال والتضليل، مع الإشعار بتقليل عددهم، وانفراد كلٍّ منهم بالتصدّي لدعوة الحقّ الرّبّانيّة، فالإنذارُ يُوجَّهُ لَهُ بوصْفِه فرداً، لا بوصفه واحداً من فئةٍ مجتمعةٍ مُترابطة، متكافلة متضامنة.

وهذا من روائع الأساليب الحكيمة في التربية، لكي يَجِدَ أنْصَارُهُ مهرباً عنه، ما دام الإنْذار موجّهاً له، وليقَع في حِسّهم أَنَّهُمْ إذا لم يلْتفُّوا حوله وينْصُرُوه فإنّهم سيظلُّونَ خارج قَوْسِ الإنذار، حتَّىٰ يعملوا مثْلَ عَمَله، أَوْ يكونُوا من أتباعه وأنصاره.

وانتهى الدرس الأول من دروس السّورة.



(٥)
التدبر التحليلي للدرس الثاني
الآيات من (١٧ ـ ٣٣)

قال اللّهُ عزَّ وجَلّ:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ (٢٢) فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ (٣٠) قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (٣٣)﴾.

درس مدني التنزيل:

هذا درسٌ مَدَنيٌّ أُضِيف إلى سورة (القلم) الّتِي هي من أوائل التنزيل المكيّ، للإشعَارِ بأنَّ مَا كانَ إنْذاراً مِنْ قَبْلُ قَدْ تحقَّق بعضُهُ فيما بَعْدُ، ففي العهد المدنيّ من مسيرة دعوة الرَّسُولِ ﷺ، أخذت الهزائم تتلاحَقُ بمشركي مكّة، الّذين كانت لهم من قَبْلُ السّيادة، والسُّلْطان، وكانُوا يعامِلُون الرَّسُول والَّذِين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ بظُلْمٍ وقَسْوَةٍ وعُدْوان، وكان لهم بين عرب الجزيرة أشرف منزلة وأعلى مكان، وكان فيهم الأثرياء وذَوُو الوجاهَةِ والصِّيت الحسَنِ بين قبائل العرب، فسَلَبَهُمُ اللَّهُ بنصْرِ رَسُولِه والمؤمنين به عِزَّهم ومجدهم، ومُعْظم مَا كان لهم به دَوْلَةٌ وسلطان، وتَحَوَّلَتْ أنظارُ قبائل العرب وغيرِ العرب إلى المدينة المنوّرة، حيثُ ظهَرَتْ دَوْلَةُ الإسلام الدّينيَّة، بقيادةِ مُحمَّدِ بْنِ عبد اللَّهِ الذي كان بين قومه وعشيرته في مكَّة مضطهداً ينالُه الأذى من أقوالهم وأعمالهم هو والذين آمنوا معه.

فجاءت عظة الواقع تطبيقاً للإنذار السّابق، فكان من المناسب إنزالُ قصّة هذا الدّرْسِ التاريخيّة، المشابهة لحال كُفَّارِ مكَّة بين العهدين المكيّ والمدنيّ للرسول محمّد ﷺ، وإضافة هذا الدرس إلى سورة (القلم) الّتي أُنزِلَ معظمها أيّام كانَ كُفَّارُ مَكَّةَ في أَوْجِ مَجْدِهم وعزِّهِمْ وسلطانهم، والْفَرقُ بين تاريخي تنزيلهما عشْرٌ وبضْعُ سنين، لكِنَّ كِتَابَ التربية والموعِظَةِ الرَّبّانيّة، كتابٌ لكلّ النّاس على تعاقب العصور، فإذا اقتضَتْ حالُ الْمُعَالَجين في مرحلة من مراحل تنزيل القرآن عَدَمَ إنزال دَرْسٍ من الدُّرُوس أَخَّرَ اللَّهُ تنزيله، حتَّىٰ إذا اقتضت الحكمة تنزيلَهُ أنزلَهُ اللّه، وضمَّهُ إلى مكانه الملائم من تنزيل سابق، وفي الصيغة النهائيَّة الدائمة يُراعَىٰ تكامُل أداء النَّصِّ للهدَف العامّ منه.

وقصّة هذا المثل المشابهةِ لحال كفّار مكة بين الماضي إبّان أوائل بعثة الرّسول ﷺ، وبين ما صاروا إليه إبّان نزول هذا المثل، أنّ إخوةً من أهْلِ

الكتاب وَرِثوا من أَبيهم بُسْتَاناً (جَنَّة) وقَدْ كانَ أبوهم رجلاً يؤدّي حقَّ الفقراء والمساكين من ثمرات بستانه، ويسير فيه سيرةً حسنة، فكانَ ما يجمع من ثمرات بستانه يَقْسِمُهُ إلى ثلاثة أقسام:

- فيأخذ ما يحتاجه البستان للسنة القادمة فيجعله قسماً، ويعزلُه ليَرُدَّهُ فيه.
- ويدّخِرُ لعياله قوت سنتهم، وهذا هو القسم الثاني.
- ويتصَدَّقُ بما فضل عن القسمين السابقين على الفقراء والمساكين، وهذا هو القسم الثالث.

فلمّا مات هذا الرَّجُل وورثه بنوه شحّت نفوسهم عن إعطاء الفقراء والمساكين حقوقهم، وقام بينهم جدَلٌ إذْ كان أَوْسَطُهم حريصاً على أن يتَّبِعَ سِيرة أبيه، لكِنَّ إخوته لم يوافقوه، فسايرهم واتَّفَقُوا علَىٰ أن يقطَعُوا ثمراتِ جنتهم في الصباح الباكر، دون أن يشعُرَ بهم المستحقون من المساكين، فيأتوهُمْ على عادة أبيهم.

وعَلِمَ اللَّهُ ما اتَّفَقُوا عليه، فأهْلَكَ ثمراتِ جَنَّتِهم ليلاً إهلاكاً شاملاً.

وخَرَجَ الإخوة مع طلوع الفجر، وقبل أن يَمْتَد النُّور، متسلِّلين يتهامسون لئلا يشْعُرَ بهم المساكين، فلمَّا وَصَلُوا إلى جنَّتِهم رأَوْها خاويةً على عروشها، قد تلفت ثمراتُها برِجزٍ من السماء، فندموا على ما كان منهم، واعترفوا لربِّهم بذنبهم، وصاروا يتلاومون فيما بينهم، وتابوا إلى اللَّه، وسألُوه أن يُبْدِلَهُمْ خيراً من جنتهم وثمَرَاتِهِمُ الَّتي أتلفها اللَّهُ لهم.

التدبّر التحليليّ للنصّ:

قول الله عزّ وجل:

- ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾.

● ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾: أي: إنّا اخْتَبَرْنَاهم وامتحنّاهم، والضمير يعود على المتحدَّث عنهم في السورة وهم كُبَراءُ كفّارِ مكّة وأهل السيادة فيها. تقول لغة: بلاَهُ يَبْلُوهُ بلاءً، أي: اختبره وامتحنه.

وجاء في العبارة استعمال ضمير المتكلّم العظيم ﴿إِنَّا﴾ للإشعار بعزّة اللّه وقدرته وحكمته وعظمته، فهو بمقتضاها يبلو ويجزي، فتربو المهابة منه.

● ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾: أي: كما امتحنّا واخْتَبَرْنَا أَصْحَابَ الجنَّةِ الذين نذكر فيما يلي ما يتعلَّقُ به غَرَضُنَا من قِصَّتهم، و(ألْ) في «الجنَّةِ» تشير إلى جنَّةٍ معهودة يعرفها مؤرخو أهل الكتاب، أو الجنة الكاملة في إعداد ما يلزم لها، فالتعريف للكمالِ.

أمَّا ذِكْرُ أسمائهم ومَوْطِنِ إقامَتِهِم وتاريخِ وُجودِهِمْ فليس ممَّا يتعلَّقُ به غرض تَرْبويٍّ قرآنيّ، فلَمْ يُوَجِّهْ له النصُّ عنايةً ما.

● ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾.

«إذْ» هنا ظَرْفٌ للزّمَن الماضي، وهو مضاف إلى الجملة الفعليّة (أَقْسَمُوا) ولست أرى أن «إذْ» ظرف لفعل (بَلَوْنَا) إذ الابتلاء لم يكن خاصّاً بوقت قَسَمِهم، بل كانَ منذُ ورثوا الجنة، فنقدر فعلَ: «اذكر» أي ضَعْ في ذاكرتِك.

«أقْسَمُوا» حَلَفُوا. يقال لغة: أَقْسَمَ إقْسَاماً ومُقْسَماً، أي: حَلَف. ويقالُ: أقْسَمَ باللّهِ، أي: حَلَف بِهِ فَهُوَ مُقْسِمٌ.

«ليَصْرِمُنَّها» أي: لِيَقْطَعُنَّها، تقول لغة: صَرَمَهُ يَصْرِمُهُ، أي: قطعه، وصَرَمَ النَّخْلَ والشَّجَر جزَّهُمَا.

«مُصْبِحِينَ» أي: داخِلين في الصباح. يقال لغة: أَصْبَحَ يُصْبِحُ، أي: دخل في الصَّباح. **الصَّباحُ**: هو أوّل النَّهار.

● ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾: أصْلُ الاسْتِثْنَاءِ إخراجُ شَيْءٍ أَوْ حِصَّةٍ أو مقدارٍ مَا من جُمْلَةٍ مقدارٍ عامّ يشْمَلُ المسْتَثْنَىٰ والْبَاقِيَ بَعْدَ الاستثناء.

أي: أقسموا لَيَصْرِمُنَّ ثمراتِ جنَّتِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ فقط، وأَقْسَمُوا لاَ يَسْتَثْنُون من ثمراتِ جنَّتهم شيئاً للفقراء والمساكين.

ففِعْلُ: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ معطوفٌ فيما أرى على فعل: ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ فَهُو داخل في الْمُقْسَم عليه أي: أقْسَمُوا على أمْرَيْن: ١ ـ لَيَصْرِمُنَّها لأنفسهم، ٢ ـ ولا يَسْتَثْنُون شيئاً للفقراء والمساكين.

وهذا أولى فيما أرَىٰ ممَا سبقت إليه أَذْهانُ المفسرين، من اعتبار: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ جملةً مُسْتَأْنَفَةً، أو جملةً حاليَّةً جاءتْ مُقْتَرنة بواو الحال على خلاف القاعدة الّتي تقتضي عدَمَ دخول واو الحال على المضارع المنفي بـ«لا» أو بـ«ما».

فالمعنى: إنَّا بعظمة الرّبوبيّة القادرة العليمة الحكيمة وسائرِ خصائصها الجليلة، بَلَوْنا كُبَرَاءَ مُشْرِكي مكَّةَ وأَتْبَاعَهم، كما بَلَوْنا مُمْتَحِنينَ أصْحابَ الجنّة، إذْ وَرَّثْنَاهُمْ من أبيهم جَنَّةً حسَنَةَ العطاءِ من ثمر، فخالَفُوا سيرَةَ أبيهم، فعزموا على أَنْ يَحْرِمُوا الفقراء والمساكين حقَّهم، إذْ أقْسَمُوا ليلاً لتأكيد ما عزَمُوا علَيه: لَيَقْطَعُنَّ ثمراتِ جنَّتِهم متَىٰ دخلوا في الصَّباحِ أوّلِ النهار، وأقْسَمُوا لتأكيد ما عَزَمُوا عليه: لاَ يسْتَثْنُون من ثمراتِ جَنَّتِهم شيئاً لذوي الحقوق من الفقراء والمساكين، بل سيَأْخُذون كلَّ الثمرات لأنفسهم، دُونَ أنْ يُؤَدُّوا ما فرض اللّه في أموالهم.

● قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾: أي: فدار عليها مُحيطاً بها، ومُطوّقاً لها، دون جاراتِها من الجنّاتِ والبساتين والمزارع.

يقال لغة: طَافَ عليه يطوفُ، إذا دار وحَامَ حولَهُ، يخُصُّه بهذا الدوران.

﴿طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾: أي: طائفٌ يَدُورُ حَوْلَ جنَّتِهِمْ مُرْسَلٌ من أَمْرِ رَبِّكَ، أيُّها الإنسانُ المتَلَقِّي لهذا الخبر أيًّا كُنْتَ.

﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾: أي: وأصْحَابُ الجنَّةِ نائمونَ ليلاً، بعد أنِ اطمأَنُّوا لتحقيق مَا عَزَمُوا عليه مُصْبِحين، وهذه الجملة حاليَّة، والعامِلُ فيها فعل: (طاف).

وهذا الطائف هو نوْعٌ من الرِّجْزِ الْمُهْلِك المتلف، كريح باردة أتلفت الزرع، أو عاصفة أو نحو ذلك.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾: قال الجوهري: **الصريم**: المجذوذ المقطوع، وأصبحَتْ كالصَّرِيم، أي: احترقت، واسْوَدَّتْ.

وظاهر اللَّفظ يفيد أن ثمارها قد تلفت فصارت كجنَّةٍ مصرومة مقطوعة الثمار، قد ذهبَ كلُّ ثَمَرِها، على معنىٰ أنَّ الصّريم هو الذي جُذَّت ثماره.

وجاء من معاني الصَّرِيم في اللُّغة: القطعةُ المنقطعة من معظم الرَّمْل، وعلى هذا المعنَىٰ تكُونُ هذه الجنَّةُ الَّتِي طافَ عليها طائف من رَبِّك قد أُهْلِكَتْ مِنْ جذورها وأصبَحَتْ رماداً، وصارَتْ أرْضُها كقطعة منقطعة من الرَّمْل، وحولها البساتين والمزارع قائمة.

وهذا المعنى يلائمه قولهم فيما بَعْدَ توْبَتِهم في دعائهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

● قول اللّٰه عزّ وجل:

﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾: أي: نادىٰ بعضُهم بَعْضاً حالة كَونِهِمْ داخلين في الصباح، بَعْدَ أَنْ أقْسَمُوا لَيْلاً لَيَصْرِمُنَّ ثمراتِ جنَّتِهِم مصبحين.

﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾: «اغْدُوا» فعل أمْرٍ وفاعله، مِنْ «غَدا يَغْدُو غُدُوّاً» أي: ذهب إلى ما يُريد من عَمَلٍ في وقْتِ الْغُدْوَة. **الْغُدْوَة، والغَدَاةُ**: ما بين الْفَجْرِ وطُلُوعِ الشَّمْس، وتُجْمَع **الْغَداةُ** على «غَدَوَاتٍ» وتُجْمَعُ الْغُدْوَةُ على **غُداً وغُدُوٌّ**.

﴿عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾: الْحَرْثُ: الزَّرْعُ المزْرُوعُ الذي أنبته اللَّه، واستعمل حرف «على» للدلالة على شعورهم بأنهم متمكنون من السيطرة اليوم على صَرْم ثمرات جنتهم دون أن يشاركهم فيها أحد.

﴿إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾: أي: إنْ كُنْتُمْ عازِمِينَ الْيَوْمَ على قَطْعِ ثمراتِ جنَّتِكُمْ، وَمَنْعِ المساكِينَ من النَّصِيب الذي كانَ أبوكُمْ يؤدِّيه لهم.

﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾: **الانطلاق**: الذهاب بسُرعة، يقال: أطلَقَهُ فانْطلق، وأصْل الإطلاق التحرير من القيد، ومن عادة الْمُقَيَّد إذا أُطْلِق من قَيْدِهِ أَنْ ينطَلِق مُسْرِعاً شَطْرَ الجهة الّتي يُريدُ الذَّهاب إليها، ومنه انطلاق الخيل في السِّبَاق.

والتَّخافُت: التحادُثُ بصَوْتٍ منخفضٍ، يقال: تخافَتَ القومُ، إذا تسَارُّوا بِحَدِيثهم، ويُقال: خَافَتَ بِصَوْتِهِ، أي: خفَضَه حتَّىٰ لا يَسْمَعَهُ إلاّ مَنْ هو بجواره.

والمعنى: فأَسْرَعُوا فِي الْغَدَاةِ يتحادثون فيما بينهم بصوتٍ منخفض، حتّى لا يشْعُر بِهِم أَحَدٌ من أهْلِ قريتهم.

﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾: أي: يقول بعضهم لبعضٍ في تَخافُتِهِمْ في حَدِيثهم ما تفسيره: لا يَدْخُلَنَّ جنَّتَكُمُ اليوم عليكم مِسْكِينٌ، لئلاَّ يطالِبَكُمْ بنصيبه من الّذِي كانَ يبذُلُه أبوكم للفقراء والمساكين.

«أن» تفسيريَّة، لأنها جاءت بعد فعل «يتخافتون» الذي فيه معنى القول دون حُروفه، والجملة بعدها لا محلّ لها من الإعراب.

أي: صاروا يتحادثون بصوتٍ منخفض، وينهىٰ بعضهم بعضاً عن السّماح لأحَدٍ من المساكين أن يَدْخُلَ اليوم علَيْهِمْ جنَّتَهم، ليستأثِروا لأنفسهم بكلّ ثمراتِ جنَّتِهِمْ.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ يأتي «**الْحَرْدُ**» في اللّغة بمعنىٰ: «الْقَصْد» يقال لُغَةً: حَرَدَهُ يَحْرِدُهُ حَرْداً، إذا قَصَدَه. ويأتي «**الْحردُ**» بمَعْنَىٰ: «الْغَضَب والْحَنَق»، ويأتي بمعنىٰ: «الانفرادِ والانعزال».

وأستَبْعِدُ هنا معنَىٰ الغَضَب والْحنَق، لأنّهم يَعْلَمُون من أنفسهم أنّهم منطلقون ليمنعوا حقّ الفقراء والمساكين، فالنصُّ يدُلُّ على أنَّهُمْ عصاةٌ لاَ كُفَّار، ومانع الحقّ لا يكون غضوباً حَنِقاً، بل هو بمثابة اللّصّ الخائفِ المسْتَخْفِي.

فبقي معنى القصد، ومعنَىٰ الانعزال.

أمّا الْقَصْدُ: فهو مُلائِم لاتّفاقِهم على أنْ لا يَدْخُلَ جنَّتَهُم اليوم عليهم مسكين، وفائدة ذِكْرِه مع أنّه مَدْلُولٌ عليه فيما سبَقَ، تَأْكِيدُ أنَّ قَصْدَهُمْ اسْتَمَرَّ مُصَاحباً لَهُمْ لَمْ يتَحَوَّلْ ولم يتغيّرْ حتَّىٰ وصَلُوا إلَىٰ جَنَّتِهم.

وأمّا الانْعِزَال: فهو وصْفٌ أبَانَ أَنّهم اسْتَطاعوا أن يَقْطَعُوا الطريق إلى جنَّتِهِمْ دون أن يَشْعُرَ بهم أَحَدٌ.

فالمعنى: وَسَارُوا طرِيقَهُمْ في الغداةِ بَعْدَ انْطِلاَقِهِم بِسُرْعَةٍ من قَرْيَتِهِمْ مُجْمِعينَ على قَصْدِهِمْ الّذِي قَصَدُوه، غير مختلفين، وشاعرين بأَنَّهُمْ قادِونَ

على تَحْقيقه، ومنعزلين لم يَشْعُرْ بهم أَحدٌ، فَتُحْمَلُ كَلِمَةُ: «حَرْدٍ» على المعنيين القصد والانعزال.

فعل: ﴿وَغَدَوْا﴾ معطوفٌ على فِعْلِ: ﴿فَانطَلَقُوا﴾ إذْ فِعْلُ ﴿فَانطَلَقُوا﴾ أبانَ حَرَكَتَهُمْ عِنْدَ الْخُرُوج من قريتهم، وفعل: ﴿وَغَدَوْا﴾ أَبانَ حَرَكَةَ مَسِيرِهِمْ بَعْدَ الانْطِلاَقِ حتَّىٰ وصَلُوا إلَىٰ جنّتِهِمْ، فلا داعي لجعل جملة: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ حالية.

عَلَىٰ حَرْدٍ: متعلّق بمحذوف حال.

قادرين: حالٌ ثانية، أي: شاعرين بأنهم قادرون على تحقيق قَصْدِهِمْ.

● قول اللّهِ عزَّ وجلّ:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾﴾: أي: فلَمَّا رَأَوْا جَنَّتَهُمْ هالِكَةً قَدْ أَتْلَفَهَا اللّهُ عقوبةً لهم على قَصْدِهِم الجازم أَنْ يمنعُوا ما فَرَضَ الله فيها للفقراء والمساكين، أَدْرَكُوا أَنَّهُمْ كَانُوا مُذْنِبين عصاةً، وهذا نوعٌ من الضلال عن صراط الله المستقيم، فقالُوا: إنَّا لضَالُّونَ.

الضلال: ضِدُّ الْهُدَىٰ والرَّشادِ، فالضلالُ بالابتعاد عن الإيمان الواجب يُوقع بالكُفر، والضلالُ بالابتعاد عن طاعةِ الله في الواجبات أو المحرَّمات العمليّة السُّلُوكيّة يُوقِع بالمعصية، من الكبائر إذا كانت من الكبائر، ومن الصغائر إذا كانت من الصغائر. والضلال بالابتعاد عن المعرفة الصحيحة يُوقِع في الجهل.

وهؤلاء أصحابُ الجنَّة قد ضلُّوا بالابتعاد عمَّا فَرضَ اللّهُ عليهم في ثمراتِ جنّتِهِم، فوقَعُوا بكبيرةِ مَنْعِ زكاةِ ما أخْرجَ اللّهُ لهم من الأرض، ولمَّا

عاقَبَهُمُ الله بإهْلاَكِ بُسْتَانهم، اعْتَرَفُوا بذنبهم، وضلالهم بارتكاب كبيرة من كبائر الإثم، فقالُوا: إنَّا لَضَالُّون، مؤكِّدين نسبة الضلال إلى سُلوكهم بـ «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللاَّم المزحلقة» وهذا منهم مبالغةٌ في الاعتراف بذنبهم لربّهم، وإشعارٌ بأنّهم لا يشُكُّون في وقوعهم بالإثم الذي استحقُّوا عليه العقاب.

ويرى بعض المفسّرين أنَّ قَوْلَهُمْ: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ معناهُ إنَّنا ضَلَلْنَا طَرِيقَ جَنَّتِنَا، ولَيْسَ هذا مكانَها، وهذا المعنىٰ يتلاءم مع قولهم عقبه: بل نَحْنُ مَحْرُومون، أيّ: معاقبون بالحرمان من كلِّ جنّتِنَا.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾: أي: بل لَسْنَا مُجَرَّدَ ضَالّين بمعصية الله في العزم على مَنْع زكاة ثمراتِ جَنَّتِنَا، بَلْ نَحْنُ معاقبون من قِبَلِ اللّهِ بالْحِرْمَان من كلِّ جَنَّتِنَا، إذْ أَتْلَفَهَا وأهْلَكَها اللّهُ عقاباً لنا، فالضَّالُّ بالمعصية قَدْ لا يُعَجِّلُ اللّهُ لَهُ العقوبة إمْهالاً لَهُ، ليتوب إلى رَبّه، لكنَّ الله عزّ وجلّ قد عجَّلَ بعقوبتهم فَهُمْ مُعَاقبون بالحرمان من كُلِّ رزقهم، فهُمْ مَحْرُومون، وتعجيل العقوبة قد يكون من نعمة الله على عبده ليتذكر ويتعظ.

المَحْرُومُ في اللّغَةِ: ضِدُّ المرزوق، يُقالُ لواجِدِ رزقه: مرزوق، ويقالُ للّذِي لا يَجِدُ رِزْقَه: مَحْرُوم. والمحرومُ هُو الممنوعُ من العطاء.

لَقَدْ تزاحَمَتْ لَدَيْهِمْ معاني الحرمانِ، معنى العقوبة بالحرمان، ومعنى المنع من العطاء، ومعنى كونِهِمْ مَحْرُومِين فقراءَ غَيْرَ مَرْزُوقين، فجاء التعبير عنها جميعاً بعبارة: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ وهذا من بديع الإيجاز في القرآن.

● ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾: أي: قالَ أعْقَلُهُمْ وأَفْضَلُهُمْ وأقْرَبُهُمْ إِلَىٰ الْخَير، ذكر المفسرون أنهم ثلاثة أخوة، وصاحبُ هذا القولِ أعْدَلُهُمْ.

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾: أي: أمَا حَصَلَ مِنّي أنّي قُلْتُ لَكُمْ فيما سَبَق: لاَ

تُغَيِّرُوا سِيرةَ أبيكم، فَلا تَمْنَعُوا حَقَّ الْفُقَراء والْمَسَاكِين. وقَدْ حُذِفَ مَقُولُ الْقَوْلِ لإمكان الاسْتِدْلالِ عليه من جُمْلَةِ النَّص، ومن كَوْنِ القائلِ أوْسَطَهُمْ، فالأَعْقَلُ الأَفْضَلُ الأَعْدَلُ لا بُدَّ أن يَنْصَح بالتزام طاعة الله، واجتنابِ معصيته.

﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾: «لَوْلا» حَرْفُ تَحْضِيضٍ بمَعْنَىٰ «هَلَّا». «تُسَبِّحُونَ»: أي: تُنَزِّهُونَ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ عَنْ تَصوُّرِ أَنَّهُ حَرَمَكُمْ دُون أَنْ تَرْتَكِبُوا إِثْماً.

ونُلَاحِظُ أَنَّ أَوْسَطَهُمْ لَمْ يَتَوَقَّفْ كثيراً عند تذكيرهم بما كان قالَهُ لهم سابقاً، لأنّه استجابَ لرغبتهم فوافقهم، وعزَمَ على ما عَزموا عليه. بل انْتَقَل بسُرْعَةٍ إلى حضّهم على أَنْ يسَبِّحُوا رَبَّهم، مُعَلِنين اعترافهم بأنّهم كانوا ظالمين، وهذا الاعترافُ يُشْعِرُ بتَوْبَتِهم.

● ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾: أَيْ: فاستجاب الأَخْوانِ لتَحْضِيض أوسَطِهم، فقالوا جميعاً سُبْحانَ رَبِّنَا، أي: نُنَزِّهُ رَبَّنَا عَنْ حِرْمَانِنَا من حَقٍّ هُوَ لَنَا، بَلْ اقْتَضَتْ حكْمَتُهُ أَنْ يُعَاقِبَنَا، لأنَّنا كُنَّا ظالِمِينَ بعَزْمِنَا عَلَىٰ حِرْمَانِ الفقراء والمساكين حَقَّهُمُ الذي فرضه اللَّهُ في ثَمَرَاتِ جنَّتِنا الَّتِي ورِثناها من أبينا.

والظلْمُ هُنَا هو عزمُهُم على أكل حقوق ذوي الحقوق، وهو حقُّ الزكاة، وقد كانت الزكاة مفروضةً على أهْلِ الكتاب، بدليل قول الله عزّ وجلّ في معرض الحديث عن إسحاقَ ويعقوب عليهما السلام في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

وعَقِبَ اعْتِرَافِهِمْ بذَنْبِهِمْ وتوبتهم صَارُوا يتلاوَمُون فيما بينهم، فقال تَعَالَىٰ:

● ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

يتلاومُون: أي: يلومُ بعضُهم بَعْضاً.

يَا وَيلَنَا: الويلُ في اللّغة يأتي بمعنَىٰ الْحُزنِ، والْهَلَاكِ، والمشقة مِنَ العذاب. قال ابْنُ سِيدَه: «وَيلٌ كَلِمةُ عذاب». والويلَةُ: البَليّة والفضيحة. وفي النُّدْبة يقول القائل المفرد: يَا وَيْلَتَا، يَا وَيْلَتَاهُ، وَاوَيْلَتَاهُ، ويَقُولُ الجماعَة: يَا وَيْلَنَا. تعبيراً عن الْحُزْن والألَم ممَّا نَزَلَ مِنْ مُصاب.

إنَّا كُنَّا طَاغِين: الطُّغيان تجاوز الحدّ في الظُّلم، وهذا اعترافٌ منهم بعزمهم على ارتكاب ظلم عظيم.

عَسَىٰ رَبُّنَا: عبارة تَرَجٍّ ودعاءٍ لِلَّهِ عزّ وجلّ.

أَنْ يُبْدِلَنَا: فيها كما سَبَقَ قراءتان: ﴿أَن يُبْدِلَنَا﴾ مِنْ فِعْلِ «أَبْدَلَ» المهموز و (أَن يُبَدِّلَنَا) مِنْ فعل «بَدَّل» المضعَّف، والهمْزُ أخو التضعيف عند علماء العربيّة، فالقراءتان متطابقتان متكافئتان.

خَيراً مِنها: أي: أفضل من جنَّتِنا الْمُهْلَكَة، وهذا مِنْهُمْ حُسْنُ ظنٍّ باللَّهِ بسَبَبِ صِدْقِ تَوْبتهم إلى بارئهم، واستغفارهم، وعزمِهِمْ على أَنْ لا يَعُودُوا إلى ارتكاب مثل الذنب الذي عاقبهم الله عليه.

إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ: أي: إنَّا إلى رَبِّنَا مبتهِلُونَ متضَرِّعُونَ طالبون. يقال لغة: رَغِبَ إليه، أي: ابتهَلَ وتضَرَّعَ وطلب، ورَغِبَ إليه في كذا، أي: سَأَلَهُ إيَّاه.

إنّ المؤمنين الّذين يشتركون في إثْم كبيرٍ يَكُونُ حالُهُمْ قَبْلَ ارْتِكابه مُتَرَدِّداً بَيْنَ الرَّغْبِ والرَّهَبِ، بَيْنَ الإقْدام والإحْجَام، وفي مَوْجَةِ الإحجام العارِضَةِ الَّتي يَتَعرَّضُ لَهَا كُلٌّ مِنْهُمْ تَصْدُرُ عَنْهُ كَلِمَاتٌ تُشْعِرُ بخَوْفِهِ من ارتكاب المعصية،

وبتحذيرِ إخوانِه من الوقوعِ فيها، لكنَّهُ لاَ يَثْبُتُ عند هذه العارضة، بَل تطْغَىٰ علىٰ نفسه شَهْوتُه أوْ مَطامِعُه، فَتُطَوِّعُ لَهُ نفسُه ارتكابَ المعصية.

فإذا نَزَلَتْ بهم العقوبة تذكَّرَ كُلٌّ مِنْهُمْ عوارضَ إحجامه ونُصْحِه، ومَواقِفَ إقدام إخوانه وما كان منهم من تشجيعٍ على ارْتكاب المعصية، فيقولُ لهم: أمَا قُلْتُ لكُمْ كذا وكذا، لكنَّكُمْ أنتم الذين أصْرَرْتم، ويَدْفَعُ كُلٌّ منهم عن نفسه الملامَةَ بمقالة سبَقَ أنْ قالَها عِنْد التشاور، والواقِعُ أنَّهم كانُوا جميعاً آثمين بعد أن عَزَمُوا جميعاً على معصيتهم، فكُلُّ واحدٍ منهم آثِمٌ ومَلُوم.

وبَعْدَ التلاوُم يظْهَرُ لَهُمْ أنّهم كانوا جميعاً آثمين، فينادُونَ على أنفسهم بالعذاب، ويعترفون بأنّهم كانوا جميعاً متجاوزين حدَّ الحقّ والعدل، وكانوا ظالمين طاغين.

وبعد هذا الاعتراف يتوبونَ إلى ربّهم، ويَسْأَلُونَ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ، وَأن يُعَوِّضَهُمْ خيراً ممّا خَسِرُوهُ بسبب ذُنُوبِهم.

هذا حال المؤمنين الذين يرتكبونَ بعض كبائر الإثم، فيعاقبهم الله بِحِكْمَتِه علَىٰ مَا كان منهم.

وقَدْ تَلَطَّفُ اللَّهُ بأهل مَكَّةَ إذْ شبَّهَ حالَهُمْ بحال أصحاب هذه القصة، لأنّهم كانوا يتوافدون على الإسلام بَعْدَ انتصار الرسول عليهم، وَدَخلوا في دين الله أفواجاً بَعْدَ فتح مكّة.

● قول اللّهِ عزّ وجل:

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

كذلِكَ الْعَذَاب: أي: مثل العذاب الّذي عذَّبه الله لأصْحَابِ الجنَّة يكُونُ عذَابُهُ الْمُعَجَّلُ للعصاةِ مُرْتَكِبي كبَائِرِ الإثم.

وهذا توجيهٌ لإدراك العظاتِ من الوقائع والأحداث الّتي يجريها اللّهُ بعباده، ويَكْشِفُ بها سُنَّته في الجزاء.

وعذابُ اللَّهِ في الدُّنيا دَلِيلٌ عَلَىٰ عذابه الكامل المطابق لمقتضياتِ عَدْلِه في الآخرة، وهو أكبر من عذاب الدُّنيا، فقال تعالى:

ولَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ: أي: أَكْبَرُ من عذاب الدُّنيا، لأَنَّهُ عذابٌ مطابقٌ لمقتضياتِ الْعَدْلِ الرَّبَّاني.

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون: أي: لو كَانَ الْعُصاة والمذنبون والكَفَرَةُ، يَعْلَمُونَ كَمالَ صِفَاتِ اللَّهِ، ومِنْهَا حِكْمَتُهُ وعَدْلُهُ وَتَدَابِيرُهُ فِي خِطَّةِ الْوُجودِ، وَمَا أَعَدَّ في الدَّار الآخِرَة مِنْ حِسَابٍ وفَصْلِ قَضاءٍ وَجَزَاءٍ بالْعَدْلِ، لَعَلِمُوا أَنَّ عَذَابَ الآخِرَة أَكْبَرُ مِنْ عَذَابِ الدُّنيا، فارْتَدَعُوا وَتَابُوا إلى بارئهم، واسْتَقَامُوا على الصِّراط الذي أَبَانَهُ ودعا إليه، في الدِّين الذي اصطَفَاهُ لعباده، في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

وفي عرض هذا المثل التاريخي الذي شبه الله عزّ وجلّ به حال كفّار مكة إشعارٌ ضمنيٌّ بأن كفرهم لم يبلغ بمجموعه العامّ إلى مثل الكفر الذي بلغه كُفْر كفّار القرون الأولى، الذين أهلكهم الله جلّ جلاله إهلاكاً شاملاً كعاد وثمود، لذلك لم يستحقوا إهلاكاً شاملاً، بل عُوقبوا بما هو دونه، والواقع دلّ على أنّ فتح مكة قد كان سبباً لتحوّلهم إلى الإيمان واتّباع الرسول ﷺ.

وانتهى الدرس الثاني من دروس السورة

❁ ❁ ❁

(٦)
التدبّر التحليلي للدرس الثالث

الآيات من (٣٤ ـ ٤٧)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ

كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

تمهيد:

بعد الإلماح بإنذار كلّ المكذّبين، والتصريح بإنذار الفريق المستكبر العاتي المعاند، الذي سيكون من عقابه أنّه سَيُوسَمُ بِكَيَّاتٍ مِن نارٍ على أنفه المستكبر الذي يُشْبه خُرطُوم الفيل والخنزير شبهاً معنويًا لاَ شَبَهاً حِسيًّا، اقتضت الحكْمَةُ بيان ثواب المؤمنين المتقين، فجاء في أوّل هذا الدرس الثالث قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجل:

- ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾.

جاء هذا الوعد مؤكّداً بـ «إنَّ ـ وبالجملة الاسمية» مراعاة لحال المنكرين أو الشاكين، وطمأنةً لقلوب المؤمنين.

لِلمتَّقِين: المتقون جمع المتّقِي، وهو الذي وضع بينه وبين عقوبات الله وِقاية، والوقاية إنّما تكونُ بالإيمان الصحيح والعمل الصالح ابتغاء مرضاة الله.

عِنْدَ رَبِّهِمْ: أي: عندَ فضْلِه على عباده يَوْم الدين، في الحياة الأخرى.

جَنَّاتِ النَّعِيم: جاء التعبير هنا بلفظ الجمع «جنَّات» إشارةً إلى أقسام الجنَّة وَمَنَازِلِ أهْلِها فيها، فهي بجملَتِهَا العامّة «جنَّة» واحدةٌ كبرى، وهي بأقْسامِهَا وأجزائها جنَّاتٌ يَصْلُحُ كُلُّ قِسْمٍ مِنْها لأن يُطْلَقَ عليه لفظ جنَّةٍ.

واختار الله لما في الجنَّةِ يوم الدِّين من مُسْعِداتٍ لأصحابِهَا لفظ النعيم. أمَّا لذّاتُ الحياة الدنيا ومُسْعِداتُها مَهْمَا بلَغَتْ فقد أطْلَقَ اللّهُ عزَّ وجلّ عليها لفظ «مَتَاع» لما فيها من انتفاعٍ مؤقّت يعقبه الزوال، فلا خلود لها، بخلاف نعيم الجنَّة فهو خالدٌ مقيم.

قال الأزهري: فأمَّا المتاعُ في الأصل فكلُّ شيءٍ يُنْتَفَعُ بِه، ويَتَبَلَّغُ به، ويُتَزَوَّدُ، والفناء يأتي عليه في الدنيا.

وبعد تقديم هذا الوعْدِ العظيم للمتقين، قَدَّم هذا الدرسُ من دروس السورة الدّليلَ العقليّ الذي يوجب أن يكون في خطَّةِ الوجود بعْدَ امتحان الناس في ظروف الحياة الدُّنيا، يَوْمٌ يُحَاسَبُ الناسُ فيه على ما سَلَفَ من أعمالهم في الحياة الدنيا.

ويُفْصَلُ القضاءُ بشأنهم، ثُمَّ يجازَوْن، بالعدل، أو بالفضل.

وذلك بمقتضىٰ كون الله عزّ وجلّ حكيماً، فالحكمة تقتضي ذلك، وإلاّ كان هذا الخلْقُ عبثاً ومنافياً للعدل. والرّبُّ الخالق العليم القدير جلَّ جلاله الذي له كلّ صفات الكمال، والمنزَّهُ عن كلّ صفات النقصان، لا بُدَّ عقلاً أنْ يكون حكيماً، وأن يكون مُنَزَّهاً عن العبث، ومنزَّهاً عن أن تكون أعماله منافيةً للعدل، فقَدَّمَ الدَّليلَ البرهانيَّ بصيغةٍ أدبيّة رائعة.

فقال عزَّ وجَلَّ:

● ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾؟.

الْمُجْرِم: المتعدّي بذنب كبير. **والْجُرْم**: التعدّي، والذنب.

مَا لَكُمْ؟: أي: أيُّ شَيْءٍ هو لَكُمْ مِنْ حقٍّ أو فكْرٍ أو رأيٍ مقبول، يجعَلُكُمْ تحكُمونَ بأنّهُ يُمْكِنُ أَنْ يُسَوِّيَ الرَّبُّ الخالق الذي تَزْعُمون أنّكم تُؤمنونَ بوجوده، بين المسلمين المستسلمين المطيعين له، وبين العصاة المذنبين المجرمين؟

كَيفَ تَحْكُمُونَ؟: أَيْ: حالُكُمْ يَنبغي أن يَتَعَجَّبَ منه المتعجبونَ ويستنكِرَهُ المستَنْكِرُون من أولي الألباب، فعَلَىٰ أيَّةِ كيفيَّةٍ تقبَلُها العقول تحكُمُون بهذه التسوية، إذْ تُنْكِرُون الدّينَ والجزاء في اليوم الآخر والحياة الأخرى، بعْدَ انتهاء ظروف هذه الحياة الدنيا.

كلٌّ من هٰذَين الاستفهامَيْن استفهامُ تعْجِيبِيٌّ إنكاريٌّ واجه الله عزّ وجلّ به المكذّبين.

وهذا الأسلوب من الاستدلالِ هو من قبيل الاستدلال بنفي أحَدِ النقيضيْن لإثبات النقيض الآخر.

والمعنى: يا أيُّها المكذّبون بيوم الدين، إذا كنتم تُؤمِنُونَ حَقًّا بِرَبٍّ خالقٍ عَليم حكيم، فكيف تقبلُون في عقولكم أَنْ يكُونَ هذا الخالق الحكيم مُتَّصِفاً بالعبث ومنافاة العدل؟

إنّه إذا لم يكن في خطّة الخلْقِ يوْمٌ آخر يُحَاسَبُ النّاسُ فيه، ويُجازَوْن علَىٰ أعْمَالهم في هٰذهِ الحياة الدُّنيا، مع وُجُودِ مُسْلِمين ومُجْرِمين فيها يتَصرَّفُونَ بإراداتِهِمُ الحرَّة الّتي وهبَهُمُ اللّهُ إيَّاها، فيَظْلِمُ مِنْهُمْ مَنْ يَظْلِمْ، ويَعْتَدِي مَنْ يَعْتَدِي، ويَكْفُرُ مَنْ يَكْفُرُ، ويُسْلِم مَنْ يُسْلِم، ويُحْسِنُ مَنْ يُحْسِنُ، ويَعْصِي من يَعْصِي، ويُطِيعُ مَنْ يُطِيعُ، ويَكُونُ فِيهِمْ مَظْلُومُونَ وظالمون، ومُصْلِحُون ومُفْسِدُون، فإنَّ خَلْقاً هٰذِه صِفَتُه تَعْوِزُهُ الْحِكْمَةُ، ويلْزَمُ منه أَنْ يَكُونَ خَلْقاً عَبَثاً، أَوْ عملاً عَشْوَائيًا، أَوْ عَمَلَ ظالِم لاَ يَعْبَأ بآلاَمِ مَنْ يَخْلُقُهُم، فيُسَلِّطُ بَعْضَهُمْ علَىٰ بَعْضٍ دونَ أَنْ يُتَابعَ مُجْرِمِيهِمْ بحساب ولا عقابٍ عادل، ودون أن يُتابع مسلميهم وصالحيهم بتكْرِيم وتفضيل وثوابٍ حسن.

تَعالَىٰ الرَّبُّ الخالق العليم الحكيم العدْلُ البرُّ الرحيم عن ذلك علوّاً كبيراً.

إذن: فلا بُدَّ أن يكون في خطَّةِ خلْقِه يَوْمٌ آخَرُ، غيرُ يومِ هذه الحياة الدنيا، يُجْري الله فيه فضله فيمنحه محسنيهم ومسلميهم، ويجري فيه عدله على مسيئيهم ومجرميهم.

هذا هو مفتاح الدليل العقليّ الّذي دلَّ على يوم الدين، بعد الإيمان بربِّ العالمين، والإيمان بصفاته وأسمائه الحسنى.

وهو ما تضمّنه قول اللَّهِ عزّ وجلّ في أوائل ما نزل من قرآن:

- ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُوْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦﴾.

فاستثار الله عزّ وجلّ العقول، ونبّه المؤمنينَ بربوبيَّته على الدليل العقليّ الذي يهديهم إلى الإيمان بيوم الدين.

وأتبع الله هذا الدليلَ العقليّ المقنع بمناظرةٍ تَشْتَمِلُ على حصارٍ فِكْرِيّ، يُسْقِطُ كُلَّ احْتِمالٍ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ شُبْهَةً للمكذبين بيومِ الدّين، أو ذَرِيعةً تجعلُهم لاَ يخافون الآخرة وعقابَ اللَّهِ فيها على كفرهم، وتكذيبِ رسُولِ رَبِّهِمْ.

الاحتمال الأول: أن يتوهَّمُوا أنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ خلقهم في هذه الحياة، وأبَاحَ لهم أنْ يَفْعَلُوا فيها كلَّ ما يتخيَّرُونَ لأنْفُسِهم من خَيْرٍ وشرّ، وأعطاهُمُ القوىٰ، وسلَّطَهُمْ على ذواتهم يفعلُونَ بها ما يُرِيدُون، وعلى ما حولَهُمْ ومَنْ حَوْلهم من أشياءَ وأحياء، فللقَوِيّ منْهُمْ أَنْ يظْلِمَ الضعيفَ ويَقْهَرَهُ، ما استطاع ذَلِكَ، أو ما استطاع إليه سبيلاً أَوْ سبباً.

جاهلين أنَّ تمكينَهُمْ إنَّما هو لامْتِحان إراداتهم في ظُرُوفِ هذه الحياة الدّنيا.

لَكِنَّ مِثْلَ هذه الإباحةِ على الرُّغْمِ من مُنافَاتِها لمقتضيات الحقّ والعدل، لا يُمْكِنُ أَنْ تُعْلَمَ إلاّ عَنْ طَرِيق كتابٍ ربَّانيّ، وهذا الكتابُ قَدْ بَيَّنَ

لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ قَدْ أَباح لهم ذلك، فأثبت فيه بنُصُوصٍ صريحةٍ واضحةٍ أنَّ لهم في الحياة كُلَّ مَا يتخيَّرُونَ من عَمَل.

لكِنَّ أيَّ كتابٍ رَبَّانِيٍّ صحيحٍ غَيْرِ محرّف لاَ يُوجَد فيه نصٌّ مِثْلُ هذا النصّ، فسقَطَ هذا الاحتمال الذي يمكن أن يتعلَّلَ به المكذّبون.

هٰذَا الجانبُ من جَوانبِ المحاصَرةِ في هذه المناظرة، قد دلَّ عليه قول اللّهِ عزّ وجلّ لهم، في خطابٍ واجَهَهُمْ به:

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝٣٧ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝٣٨﴾.

(أَمْ) هذه «أم» المتصلة، وهي الَّتي لا يكون الكلامُ بها إلاَّ استفهاماً، وهي حَرْف عطف، والاستفهام المقدّر مع «أم» هنا استفهامٌ إنكاريٌّ.

والمعنى: أفنجعل المسلمين كالمجرمين، وهذا مرفوضٌ عقلاً، أَمْ لَكُمْ كتابٌ رَبَّانِيٌّ فِيهِ تَدْرُسُونَ إنَّ لَكُمْ لَمَا تَخَيَّرُونَ مِنْ عَمَلٍ، دون أن تكونُوا عرضة للمؤاخذة والعقاب على ما تُسيئون وتظلمون وتفسدون، وهذا غير موجود.

كُسِرَتْ «إِنَّ» مع أنَّهَا وقَعَتْ بعْدَ عامل لأنّه عُلِّقَ بلام الابتداء الّتي يسَمُّونها المزَحْلَقة.

تَخَيَّرُون: أصْلَها تتخيَّرون، حذفت إحدى التاءين تخفيفاً.

الاحتمال الثاني: أنْ يَدَّعُوا أنَّ اللّهَ عزّ وجلَّ أعطاهُمْ عَهْداً عَلَىٰ نَفْسِه مُوَثَّقاً بأَيْمَانٍ بالِغَةٍ غَايَةَ التَّأْكِيدِ، ومُسْتَمِرَّةِ الأَثَرِ إلى يَوْمِ الْقِيَامَة، إِذْ يُحَاسِبُ اللَّهُ عِبادَه ويَفْصِلُ قَضاءَه بينهم، مُقرِّراً ما يُجازِيهم به، وعِندَئِذٍ تنتهي المسؤوليّةُ عن الأعمال في الحياة الدنيا.

وهٰذه الأيمان البالغة قد أعطاكم الله بها أَنْ تَحْكُموا لأنفُسِكُمْ بِمَا تَشَاءُونَ مِنْ حُكْمٍ، فَأَنْتُم تَسْتَطِيعُونَ بمقتضىٰ هٰذَا التفويض الرَّبَّانِيّ أَنْ

تُسْقِطُوا عن أَنْفُسكم المؤاخذة على ما تقدِّمون في الحياة الدنيا من شرٍّ وسوء عمل، وأَنْ تمْنَحُوا أنفسَكُمْ السّعَادة والنجاة والفلاح.

لَكِنَّ مِثْل هٰذِهِ الأيمانِ لاَ وُجُودَ لها، ولا أحد منكم يَسْتطيع أنْ يكون كَفِيلاً بها.

فسقط أيضاً هذا الاحتمال الثاني الذي يمكن أن يَتعلّل به المكذّبون.

دلّ على هذا الاحتمال وعلى إسقاطه قول الله عزّ وجلّ في المناظَرةِ خطاباً للمكذّبين:

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾:

(أَمْ): هُنَا كسَابقتها. والاستفهام في العبارة استفهام إنكاري أيضاً.

﴿أَيْمَٰنٌ﴾: جمع «يَمِينٍ». **اليمين**: الْقَسَمُ.

﴿عَلَيْنَا﴾: أي: أَيْمَانٌ تُوجِبُ عَلَيْنَا، والمتحدّث هو اللّهُ عزَّ وجل.

﴿بَٰلِغَةٌ﴾: أي: أيمان واصلة إلى غاية ما يُقَدَّمُ من تأكيد بالأيمان.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: أي: وهذه الأَيـمَانُ مُسْتَمِرَّةُ الأَثَرِ إِلَىٰ الْيَوْمِ الذي يُقَرَّرُ فيه قضاء الإدانَةِ والجزاء، وعندئذٍ تنتهي مُتَعَلِّقَاتِ المسؤوليّة عن الأعمال في رحلة الحياة الدنيا، وهذا اليوم هو يَوْمُ القيامة، وهو يوم الدّين.

﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾: هذه جَوابُ الْقَسم، وفي جواب الْقَسم تُكسَرُ همزة «إِنَّ».

والمعنى: هَلْ أقسمنا لكم أيماناً مغلّظةً، منحناكم بها أَنَّ لَكُمْ مَا تَحْكُمون به لأنْفسِكُمْ يَوْمَ القيامة، إِذْ يكونُ الحسابُ وفَصْلُ القضاء وتنفيذ الجزاء؟!!.

إنّ مثلَ هٰذه الأيمان لا وُجود لَها، فليس لكم عُذْرٌ يأتي من قِبَلِ هذا الاحتمال.

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

«زَعِيم»: تأتي في اللّغة بمعنىٰ «كفيل» وتأْتي بمعنىٰ «رئيس»، ومعنىٰ «كفيل» هو المعنى الملائم هنا.

والمعنى: سَلْهُمْ يا مُحَمَّد، أو سلْهُمْ أيُّهَا المناظرُ لهم بمقتضىٰ هذا التعليم الجدليّ، أيُّهُمْ كَفِيلٌ «بأنّ لَهُمْ أيماناً عَلَيْنا بالغةً إلى يَوْمِ الْقِيامة إنَّ لَهُمْ لَمَا يَحْكُمُونَ» يَكْفُلُ تَحْقِيقَ مقتَضىٰ هٰذهِ الأيمان المدَّعَاة، أو كفيلٌ بإثباتِ وجودِها إذا ادّعَاها؟!

إنَّهُ لا أَحَدَ مِنْهُمْ يستطيعُ أَنْ يكونَ زعيماً بذلك.

الاحتمال الثالث: أنْ يتوهَّمُوا أنَّ شركاءهم الذين يَعْبُدونهم من دُونِ الله، سَتَحْمِيهم من عقاب الله وعذابه وإقامَةِ عَدْلِهِ فيهم.

لَكِنَّ شركاءهم لا تستطيعُ ولَوْ شاءتْ أَنْ تقدّم لهم نفعاً، أَوْ تدفَعَ عنهم ضرّاً، في الحياة الدنيا، فكيْفَ تدفَعُ عنهم عقاب الرّبِّ الخالق الذي بيده ملكوتُ السماوات والأرْض؟! وكيْفَ تَحْمِيهِمْ من عقاب اللّٰهِ يَوْم الدين.

وهكذا يَسْقُطُ هذا الاحتمال الثالث أيضاً.

وقد دَلَّ على هذا الاحتمال، وعلى إسقاطه، من نصّ المناظرة التعليميّة، قولُ الله عَزّ وجَلّ فيه:

- ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

(أَمْ): نظير سابقتيها، والاستفهامُ في العبارة استفهامٌ إنكاري أيضاً.

﴿لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾: أي: من دُونِ اللَّهِ يَحْمُونَهُمْ من عذاب الله، ويحقِّقُونَ لهم نجاتهم وَفَوْزَهُمْ وفَلاَحَهُمْ يوم القيامة.

﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا صَـٰدِقِينَ﴾: في هذه العبارة تَحَدٍّ للمكذّبين، بأنْ يأتُوا بما يُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُمْ شركاءُ للَّهِ يسْتَطيعُونَ أنْ ينصُرُوهم، لنُصْرَتِهِمْ من عِقَاب الله إذَا شاء عقابَهُمْ في الدنيا، أو لصرف عقاب الله وعَذابه عنْهُمْ يَوْمَ الدّين، إنْ كانوا صادقين في ادّعاء أنّ لله شركاء في ربوبيّته.

لَكِنَّ شركاءهم لم يَنْصُرُوهم حينَ نصرَ الله رسولَهُ والمؤمنين عليهم، في المعارك الّتي جرَتْ بين الفريقين بعد هجرة الرسول ﷺ، وانتهت بفتح مكة.

أي: فإنْ كانوا صادقين في ادّعاء أنّ شركاءهم قادرون على حمايتهم، فلْيَأْتُوا بشركائهم لنصرتهم في الدّنيا، أو يَوْم القيامة.

لم تَنْتَه عناصر المناظرة المحاصِرَةِ بَعْدُ، ولَكِن اقتضت الحكمة التربويَّة أن يثير البيان أثناءها في نفوس المكذبين الخوف من عذاب الله يوم الدّين، الذي يَنْزِل بالمكذبينَ الذين أنهَوْا رحلة الحياة الدنيا وهم مُصِرُّون على كفرهم، فقال الله عزّ وجلّ:

● ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

في هذا عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدّينِ، يَوْمِ الْحِسَاب وفَصْلِ القضاءِ وتنفيذ الجزاء.

وهُوَ مَشْهَدٌ اخْتِبَارِيٌّ كاشِفٌ، يُمَيِّزُ مَنْ كَانُوا في الحياة الدُّنيا مؤمنين مُسْلمينَ قَدْ سَجَدُوا لربّهم فيها، من الّذين كانوا كافرين مُكذّبين رَسُولَ ربّهم، ومُكَذِّبين بما جاءهم به عنه، ولم يُعْزَلُوا من قَبْلُ باعترافاتهم، وهؤلاء أكثرهُم منافقون.

في هذا الاختبار يَكشِفُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ عَنْ سَاقِهِ ويُدْعَىٰ أَهْلُ الموقف للسجود، فيَسْجُد كُلُّ مُؤْمِنٍ ومؤمنة، أمّا المنافقون فلا يستطيعون السُّجود لربّهم يومَئذٍ إذ يكون ظهر كلٍّ منهم طبقاً واحداً، لأنّهم لم يكونوا يسجدون لله في الدنيا لربّهم، وإنما كانوا يسجدون نفاقاً ورياءً وسُمْعة، وكذلك من كانَ مجهول الهويَّة في الكفر قياساً على المنافقين.

ويظهر أَنَّ الغرضَ من هذا التمييزِ فَصْلُ المؤمنين عن المنافقين، ليُؤخذ المؤمنين إلىٰ جهة اليمين حيث يكون المصير إلى الجنة، وليُسَاقَ المنافقون إلى جهة الشمال حيث يكون المصير إلى النار.

وجاء عند البخاريِ ومسلم عن أبي سعيد الخدريّ من حديث طويل عن النبيّ ﷺ قال:

«يُنَادِي مُنَادٍ: لِيَذْهَبْ كُلُّ قَوْمٍ إلىٰ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، فيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلِيبهم، وأَصْحَابُ الأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ، وأَصْحَابُ كُلِّ آلِهَةٍ مَعَ آلِهَتِهِمْ، حَتَّىٰ يَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ وفَاجِرٍ.... فيقال لهم: مَا يَحْبِسُكُمْ وقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ، فيقولُونَ: فَارَقْنَاهُمْ... وإنَّمَا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا».

قال: «فَيَأْتِيهِمُ الْجَبَّارُ في صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْه فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا؟ فلا يُكَلِّمُهُ إلاَّ الأَنْبِياءُ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعرِفُونَه؟ فَيَقُولُون: السَّاق، فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَيَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ للَّهِ رِيَاءً وسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ كيْما يَسْجُدَ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقاً واحداً...».

لكن دَلَّ النصُّ هنا في سُورَةِ (القلم) على أنّ المكذبين من المشركين يُكْشَفُ لهم عن سَاقٍ، وأنَّهم يُدْعَوْنَ إلى السُّجُودِ فلا يَسْتطِيعون، كما جاء في الحديث بالنسبة إلى المنافقين، فينبغي الْجَمْعُ بين النَّصَّيْنِ لِعَدَم التعارض.

وجاء في حديثٍ عند ابنِ جرير الطبري، أنَّ النبيّ ﷺ قال:

«يَوْمَ يُكْشَفُ عن سَاقٍ يَعْنِي عن نُورٍ عظيم يخرّون له سُجّداً».

ورواه أيضاً أبو يعلىٰ بسندٍ قال فيه ابن كثير: فيهِ رجلٌ مُبْهم.

والمعنى: فَلْيَأْتِ الْمُشْرِكُون بشركائهم، إنْ كانوا صادِقين في ادّعَاءِ أنّ للَّهِ شُرَكاءَ تَسْتَحِقُّ أَنْ تُعْبَد، وتَسْتَطيع أن تنصُرَ مَنْ يَعْبُدُونها، يَوْمَ الْقِيَامة لِيَنْصُرُوهم ويحموهم من عذاب الله، يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ، وبيانُ هذه السَّاق جاء في الحديث الآنف الذكر، عند البخاريّ ومسلم عن أبي سعيدٍ الخدري، ولا داعي إلى تأويلات ذكَرَهَا المفسّرون، فالحديث صحيح صريح.

وجاء في الحديث أيضاً بيان عدم استطاعتهم أن يسجُدُوا للَّهِ يَوْمئذٍ، بأنّ الله عزّ وجلّ يجْعَلُ ظَهْرَ كُلِّ واحدٍ من الكافرين في حقيقة أمره ولو كان في الدنيا منافقاً يسجُد مع السّاجدين طبقاً واحداً، غير ذي فِقَراتٍ تَنْثَني للسجود.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾: أي: مُنْكَسِرَةً أبْصَارُهم، فَهُمْ ينظُرُونَ بأعْيُنِهِمْ إلىٰ الأَرْض منْ ذِلَّتِهِمْ.

الخشوعُ في اللّغة: الخضوعُ، والخوفُ، والسُّكون.

﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: أي: تَغْشَاهُمْ ذِلَّةٌ ضَاغِطَةٌ علَىٰ نُفوسهم، فَهُمْ يَحْمِلونَ بِهَا من الهمّ والغمّ والعذابِ مشقَّةً عظيمة.

﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾: أي: وقَدْ كَانُوا يُدْعَونَ في الحياةِ الدنيا إلى الإيمان بربهم والسجود له وهم سالمون قادرون على السُّجُودِ، فلا يَفْعلُونَ، إذْ لم يَكُونوا مؤمنين.

وبعد هذا العرض لمشهد من مشاهدِ يَوْمِ الدّين، الذي يتضمَّنُ وعيداً للمكذّبين، اقتضت الحكمة التربوبية أَنْ يُنْذِرَهُمُ اللَّهُ بعذابٍ مُعَجَّلٍ في الحياة الدُّنيا، إذا أصَرّوا على عنادِهم وتكذيبهم، واقتضت الحكمة أن لا

يُوَاجِهَهُم الله بالخطاب، على خلافِ توجيه الخطاب لهم في العناصر السابقة من المناظرة، فقال الله عزّ وجلَّ لِرَسُولِه فلِكُلِّ داعٍ إلى الله من أمّتِه:

• ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

سبق نظير هذا التعبير التهديديّ في سُورتي المزّمّل والمدثر، فهو يتضمَّن تهديداً ووعيداً شديداً لمنْ يُرادُ تَهْدِيدُهُ ووعِيدُهُ، وهذا التهديد موجَّهٌ من الرّبّ الخالق لكل منْ يَكَذِّبُ بهذا الحديث وهو القرآن الذي كان يَنزلُ نجوماً على الرسول ﷺ.

وفيه مع التهديد وصيَّةٌ للرّسُول فلِكلّ داعٍ إلى الله من أُمّتِهِ، أن يَتْرُكَ مُقَارعة المكذبين، ويَبْتَعِد عن مصارعتهم، ما دامُوا في المراحل الأولى في مسيرة الدعوة إلى دين الله، فالحكمةُ الدَّعويّة تقتضي مُتَابعةَ المسيرة دُون الاشتغال بمصارعة المكذبين، لئلا ينْصَرِفَ الدّاعي عن القيام بواجبات رسالته الدعويّة، إلى أمُورِ معوقة.

﴿فَذَرْنِي﴾: أي: دَعْني واتركْني.

﴿وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾: أي: دعْني مَعَ من يُكَذِّبكَ بهذا الحديث، وهو القرآن. **الحديثُ**: الكلام الذي يُقالُ ويُتحدَّثُ به، **والقرآن**: كلامٌ مُنزَّلٌ من ربّ العالمين، يُحدِّثُ الرَّسُولُ به، فَيُبلّغُهُ عن رَبّه.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الاستدراجُ: تَقْدِيمُ التَسْهيلات الخفيَّاتِ الّتي تجْعَلُ السّالِكَ في طريقٍ ما يَدْرُجُ مُتَابعاً سَيْرَهُ الذي يَحْسَبُ نفسَه فيه صاعداً، بَيْنَما قد يكونُ هابطاً مُتَسَفِّلاً، وقد تنتهي به مسيرته إلى هَلاَكه.

يقال لغة: دَرَجَ يَدْرُجُ دَرْجاً، ودُرُوجاً، أيْ: مشَىٰ مِشْيَةَ الصّاعِدِ في الدَّرج.

ومعلومٌ من سُنَّةِ الله عزّ وجلَّ أَنَّ مَنْ سَلَكَ طريقَ الشرّ فلا بُدَّ أن تُوصِلَهُ مسيرتُهُ إِلَىٰ عاقبةٍ وخيمةٍ تجعَلُه يَنْدَمُ على ما اختار لنفسِه في حياته من شرّ.

والاستدراجُ الرّبّانيّ لعباده يكونُ من حَيْثُ لاَ يعلَمُونَ، أَيْ: من المكانِ الذي لا يعلمونه، لاستتاره عن إدْراكاتِ حواسهم.

حَيثُ: ظَرْفُ مكانٍ مبنيٌّ على الضمّ، وهو هنا في محلّ جرٍّ بـ «من».

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

الإملاء: الإمْهالُ والتأخير وإطالةُ العمر، يقال لغة: أمْلَىٰ اللَّهُ له، أي: أمْهَلَهُ وطوّل له.

ويقالُ: أمْلَىٰ للبعير في القيد، أي: أرخىٰ له، ووسَّعَ له فيه، وطوَّل له مِقْدار الحبْلِ ليزدادَ في حرّيّة الحركة، وهذا هو الأصل في المادّة.

والمَلاَ: ما اتَّسع منَ الأرْض، فبإرخاء الحبل للدّابة تزداد حرّيتها في المَلاَ.

الكيْد: تدْبيرُ أمْرٍ فيه مكْروه لِمَنْ دُبِّرَ ضدّه، وهذا التدبير يكون بالحق أو بالباطل، وبالخير أو بالشرّ، ولكنّ كيْدَ الله لا يكونُ إلاّ بالحقّ أو بالخير، ومنه التدبير لإهلاك المجرمين ومعاقبتهم، ويأتي الكيدُ بمعنى الحرب.

مَتِينٌ: أي: قويٌّ شديدٌ صُلْبٌ لا يُخْتَرق.

والمعنى: أُطَوِّلُ لَهُمْ وأُمْهِلُهُمْ لأَتْرُكَ لَهُمْ فُرْصَةَ التوبَةِ وإصلاح ما أفسدوا، حتَّىٰ إذا انْتَهَتْ مُدَّةُ إمهالِهم الَّتي تقتضيها الحكمة، أَنزلْتُ بِهِمْ عقابي الشديد، إذا استمروا على ما كانوا عليه من شرّ، ولم يُراجعوا أنفسهم، وعندئذٍ يَرَوْن أنّ كيدي قويٌّ شديدٌ غالب لا يستطيعون أن يحْمُوا أنفسهم منه، بأيَّةِ وسيلة من الوسائل.

في هاتين الآيتين (٤٤ ـ ٤٥) التفت البيان القرآني إلى الرسُول ﷺ، ويُلْحَقُ به الدُّعَاةُ إلى الله من أمّته، إذا كانوا في مثل الموقف الذي نزلت فيه سورة (القلم) فبيَّنَ الله عزّ وجلّ فيه الموقف الذي يجب أن يتّخذَهُ تجاه المكذِّبين بآيات التنزيل، وهو موقف تركهم لله بارئهم، وعدم مصارعتهم، مع الاستمرار على العمل في طريق الدعوة إلى الله وإلى صراطه المستقيم.

إنَّ الموقف هو موقف مراحل الدعوة الأولى، التي يجب فيها الصَّبْرُ على المكذّبين للرسُول والمكذبين بالرّسَالة والقرآن ويوم الدين، مع الدّأب في مجال الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجب فيها أيضاً عدمُ إثارة صراعات تتجاوز حدود التَّبْليغِ، والبيان، والجدالِ بالّتي هي أَحْسَنُ، وتجميع المستجيبين، وتربيتهم علَىٰ أخلاق الإسلام وشرائِعه، وتكوين الأمّة الإسلاميَّةِ شيئاً فشَيْئاً، كزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فاسْتَوىٰ على سُوقه.

إنَّه ممّا لا شَكَّ فيه أَنّ هذا هُو المنهجُ الأمْثَلُ، إذْ هو المنهجُ الرَّبَّانِيّ، وهو المنهجُ الذي أثبتَتِ التطبيقات النبويَّةُ له أنَّ ثَمرَتَهُ أعظَمُ الثمراتِ وَأَكْثَرُها وأثْبَتُها وأدْوَمُها.

ثم بمقدار ما التزم الدُّعَاةُ إلى الله والتنظيمات الإسلاميَّة بهذا المنْهَجِ الرَّبَّانِيّ كانَتْ تأْتي ثمراتُ أعمالهم، فتزْدادُ هٰذِه الثمراتُ بازدياد هذا الالتزام، وتتناقَصُ بتَنَاقُصِ هٰذَا الالتزام.

أمَّا الذين زيَّنَتْ لهم آراؤهم أنْ يَخْرُجوا عن هذا المنهج، أو أن يختاروا لأنفسهم مناهج أخرى، كإثارة الصراعات المادّيّة، قَبْلَ استكمال مرحلة بناء الأمَّة الإسلامية القادرة على المواجهات المادّية المهيَّأة بأسْبَابها المادّيّة والمعنويّة للظفر، ضمن سُنَنِ الله في كونه، فقد باءُوا بالفشل والخيبة، وأجْهَضُوا ما بُنِيَ مِنْها، وهي في المرحلة الجنينيّة، أو قتلُوها، أو عرَّضُوهَا للاسْتِئْسَارِ وهي في مرحلة الطفولة، أو المراهقة، أو اليفاع، ولم تَصِلْ بَعْدُ إلى مرحلة الرُّجولَةِ القادرة على الدّفاع أو الْغَلَب.

إنّ الصَّبْرَ على المكذِّبين مع استمرار الدّأب على الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظةِ الحسنة والجدال بالّتي هي أحسن له أثران عظيمان:

الأثر الأول: الاستدراجُ إلى مواقع الاستجابة للدّعوة، وقبولِ مَنْطِقها، والاهتداء بهُدَاها.

فمن شأنِ الصبْرِ مع الدّأَب على العمل إقناعُ الفريق الرافض المكذّب، بأنَّ الدّاعِيَ إلى الله صادقٌ في دعوته حقًّا، وأنَّهُ لا هَدَفَ لَهُ إلاّ خَيْرُ مَنْ يَدْعُوهم، ولَيْسَ له من وراء دعْوَته مصلَحةٌ شخصِيَّةٌ دُنيويَّة، وهٰذا أمْرٌ يَهْدِمُ لدى الرافضِ المكذِّب عُنْفَ النِّقْمَةِ والعِداء، فَمَنْ كانت لديه من المكذّبين بزُورُ خَيْرٍ نبتَتْ ونَمَتْ، فاتَّجَهَتْ نباتاتُهَا نَحْوَ الضَّوْءِ، ثُمَّ امتَدَّتْ مُنْجَذِبَةً إليه.

فإذا بالَّذِي كانَ سابقاً مُكذِّباً مُعَادِياً، يَغْدُو مُنْجِذَباً في اتّجاه النور، ولا يزال النورُ يسْتَدْرِجُهُ شيئاً فشيئاً حتّىٰ يكون من المستجيبين المتابعين.

وهذا ما حصل فعلاً لكثير من الذين كانوا مكذّبين للرَّسول ومكذبين برسالته، وبآيات التنزيل الرّباني. لقد استَدْرجهم الصبْرُ والدّأبُ، والمثابرةُ على الدعوة إلى الله، والبيانُ الملائم لأحوال المدعُوّين، واتّخاذ وسائل الإقناع والترغيب والترهيب، إلى مَشْرِق نُورِ الحق، وصِدْقِ دُعاته، فاستجابوا واهتدَوْا.

فصارَ كثيرٌ من قادَةِ جَيْش الكُفْرِ وجنودِه بالأمْسِ، قادَةً وجنُوداً في جيْشِ الإسلام بعد ذلك.

الأثر الثاني: اغْتِنَام الوقْتِ وكسْبُهُ لبناء الأمَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ، وتدعيم أركانها، وشَدِّ أواصرها، وإعدادِ جيْشِها، لتكُونَ قَادِرَةً على مُواجهة أعدائِها إذا حزَبَ الأمْر، ودَعَتِ الضَّرورةُ للمواجهة المادّيّة المسلَّحة.

فإذا تَمَّ الإعداد الْمُرَشَّحُ للانْتِصَارِ والظَّفر، ظَهَرَ أَنَّ كيْدَ الإمْهَالِ كَيْدٌ مَتِينٌ وإنْ طَالَ حَبْلُه، فالظَّافِرُ هو الظافِرُ أخيراً.

هذان الأثران العظيمان دَلَّ عليهما قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: أطيل لهم مُدَّة الإمْهَالِ ليُعِدَّ الرَّبَّانِيُّون أنفسهم إعداداً قادراً على مواجهة مَنْ يَبْقَىٰ مِنْهُمْ مُكَذِّباً، في عمليَّاتٍ كَيْدِيَّةٍ بالغةِ الإحكام، وعندئذٍ يظهر أنَّه قد كان كيْداً مَتِيناً.

وهكذا استجمع المنهج الرّبّانيُّ ثلاثة عناصر:

العنصر الأول: الصَّبْرُ مع الدَّأب والمثابرةِ على الدعوة إلى الله وفْقَ منهج الله.

العنصر الثاني: محاولةُ استدراج من تَلِين عريكتُه من المكذّبين شيئاً فشيئاً، وتَصَيُّدُ من لديه بزورُ خَيْرٍ، وضمُّهُمْ إلى بناء الأمّة الرَّبَّانية.

العنصر الثالث: كسْبُ الوقت لإِحكام بناء الأمّة، وإعْدَادِ قُواها القادرة على المواجهة المسلّحة إذا لَزِم الأمْر، ولو بعْدَ حينٍ من الدَّهْر.

فمن أراد مرضاةَ الله، والظفر بخير نتائج العمل الإسلامي، فلْيلْزَمْ هذا المنهج.

وبَعْدَ مُعالَجَةِ المكذّبينَ خلالَ عَرْضِ عناصِرِ المناظرة المحاصِرة بمَشْهَد مِنْ مَشاهد يوم الدين لاستثارة مخاوفهم، وتوجيه تهديدٍ لهم بعقابٍ مُعجَّلٍ إذا أصرُّوا على كُفرِهم وتكْذِيبهم، يَعُودُ النصّ إلى مُتابعَة عناصِرِ المناظِرَةِ المحاصِرَة، فقال اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ خطاباً لرسوله:

● ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

لقَدْ سَبَقَ في المناظرة بَيَانُ ثلاثة احتمالاتٍ يُمْكِنُ أنْ تكونَ شبهةً

للمكذّبين بيَوْمِ الدّين، أو ذَريعةً تجعلُهُمْ لا يخافون الآخرة، وعقابَ الله فيها على كفرهم وتكذيب رسُولِ ربّهم، وسبَقَ إسقاطُها.

وهاتان الآيتان (٤٦ ـ ٤٧) تشتملان على احتمالين آخَرَيْنِ فَوْقَ الثلاثة، مع إسقاطِهما، وبإسقاطهما تتمّ المناظرَة الّتي فيها حصارٌ فكريٌّ كامل، لكُلِّ التَّعِلاَّتِ مع إِسْقَاطِها، وإلحاقاً بالاحتمالات الثلاثة السَّابقات، يأتي الإحتمال الرابع:

الاحتمال الرابع: دَلَّ عَلَيْه قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾؟!

(أَمْ): نظير سَابقاتها الّتي جاءت لدى عرض الاحتمالات الثلاثة السابقات.

والاستفهام هُنَا استفهامٌ إنكاريٌّ أيضاً، أي: أنْتَ لم تسْأَلْهُمْ أَجْراً حتَّىٰ يتهرّبُوا من الاستجابة لدعوتك، فإنْ كان تكذِيبهُمْ لَكَ يا مُحمَّدُ مَدْفوعاً بدافع التهرُّب من تكليفِ كلّفْتَهُمْ إيَّاه لمصلحة شخصك، أجراً على تبليغهم رسالة ربّكَ لهم، أو تَخوُّفاً مِنْ أنْ تكون دعوتُكَ وسيلةً لتحقيق هذا الأجر من مَالٍ أو مُلْك أو شهواتٍ من متاع الحياة الدنيا، فبيّن لهم أنّكَ لا تَسْأَلُهُمْ أجراً.

الْمَغْرَمُ: الخسارَة من مالٍ ونحوه ممّا لَهُ قيمةٌ ماليّة، أو يُبْذَلُ للوصول إليه مال.

تقول لغة: غَرِمَ يَغْرَمُ غُرْماً وغَرامةً ومَغْرماً، أي: لزمه بَذْلُ شيءٍ لا يجبُ عليه بَذْله.

مُثْقَلُون: أي: مُحَمَّلُونَ بسبب الْمَغْرَمِ حِمْلاً ثقيلاً لا يُريدون حَمْلَه.

لكنَّ شيئاً منْ هذا التوهُّم غير حاصلٍ في الواقع، فأنْتَ لم تَسْأَلْهُمْ أجْراً.

وقد دلَّنا هذا على أنَّ من العقبات الصّادّاتِ عن الاستجابة لدعوة الداعي إلى الله اتّهامُه بالمصلحة الشخصيَّة، ولِهَذا علَّمَ الله رُسُلَهُ جميعاً أن يقول كلٌّ واحدٍ منهم لقومه: «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إلاَّ علىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

الاحْتِمالُ الخامس: دلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

لم أجدْ في أقوال المفسرين ما يكشِفُ احتمالاً يُمْكِنُ أَنْ يكونَ تَعِلَّةً يتعلّل به المكذبون، لإسقاطه بِنَفْيِ أَنْ يكُونَ عندَهُمْ عِلْمُ الْغَيب فَهُمْ يكتُبُونَ مِنْهُ، ويسْتَنِدون إليه في تكذيبهم بالقرآن، الذي جاء بشأنه آنفاً قولُ الله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ . . .﴾.

وبالبحث والتأمُّل ظهر لي أنَّ المكذبين بأنّ القرآنَ تنزيلٌ من ربّ العالَمِين، وَقالَ قائلهم الحلاّفُ المهين بشأنه: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كما جاء في الآية (١٥) من السورة.

وادّعَاءُ المكذّبين بأنّ محمّداً ﷺ يَنقُلُ الْقُرْآنَ من أسَاطِير الأولين، يَجْعَلُهم مُطَالَبين بتقديم الدّليل على هذا الادّعاء.

وسبيل ذلِكَ أنْ يأتُوا بما عندهم من مَكْتُوباتِ الأوّلين إنْ كان عندهم شيءٌ من ذلك، مع إجراء المقارنة بينها وبَيْنَ الآيَات المنزّلَةِ من القرآن.

لكنّ آيات القرآن المجيد لا شَبَهَ بَيْنَها وبيْنَ كُتُبِ أَهْل الكتاب، وباكتشاف عدم التَّشابُه يسقُطُ ادّعاؤهم بأدنى مقارنة، فهم لا يَلْجَؤُون إلى مثل هذا الادّعاء، لأنَّ الأدلَّة الماديّة ذات المتناول القريب ستسقطُهُ بأدنىٰ مقارنة.

بقي أن يقولُوا: إنّ آيَات القرآن الّتي يتْلُوها محمّد منقولَةٌ من أساطير الأوّلين الخفيَّة، الّتِي ليسَتْ من كتُب أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ويُلْحَقُ بهم منْ لهم شبْهَةُ كتاب كالمجوس والبوذيين.

وإسقاط هذا الادّعاء يكون ببيان أَنّ هذه الأساطير الّتِي يتصوّرونها قد صارت بالنسبة إلى جميع الناس من أُمُورِ الغيب، التي لا يَعْلَمُها إلاَّ مَنْ يعْلَمُ الغيب، فكيْفَ يُقِيمُ المكذّبون دعوى احتجاجيَّة مستندين فيها إلى غَيْبِ لا يَعْلَمُونَ منه شيئاً، وتعبيراً عن المطالبة بدليل الادّعاء الذي لا يملكونه بالنسبة إلى هذا الاحتمال قال اللَّهُ عزَّ وجلّ:

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾؟!!

هذا الاستفهام هو كالاستفهامات التي سبقته في المناظَرة، استفهامٌ إنكاريٌّ، يفيد أَنّهم لا يملكون عِلْمَ الغيب، فهم لا يكتبون منه شيئاً، وبذلك يسقط هذا الاحتمال الأخير أيضاً.

والمعنى: هل عندهم علم غيب ما مضى من الأمم السالفة، وعِلْمٌ بأساطيرِهم ومكتوباتهم؟!!

لكِنَّ واقع حالهم على خلاف هذا تماماً، إذْ ليس عِنْدهم علم غيب ما مضىٰ من الأمم السالفة وأساطيرهم ومكتوباتهم، كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، ولا هم يكْتُبُون حتّىٰ يكون لديهم تراثٌ علميٌّ مُدَوَّنٌ في الكتب، والرَّسُول محمّد ﷺ واحدٌ منهم في الأمِّيَّة.

فسقط ادّعاؤهم أنّ آيات القرآن الّتي يتْلُوها الرسول ﷺ مأخوذة من أساطير الأوّلين، بل هو نبيٌّ ورسُول اصطفاه الله، وهو الذي يُنَزّلُ عليه آيات القرآن المعجز.

وهكذا تَمّتْ المحاصرةُ الفكريَّةُ، في هٰذِهِ المناظرة القرآنيّة للمكذّبين، من كلّ الجوانب التي يُمْكِنُ أنْ يُقدِّمُوا منها تَعِلّاتٍ ومعاذير، تَسْتُرُ جُحُودَهم للحقّ الذي جاء به رسُولُ اللَّهِ محمَّدٌ ﷺ.

وانتهىٰ الدرس الثالث من دروس السورة

(٧)
التدبّر التحليلي للدرس الرابع
الآيات من (٤٨ ـ ٥٠)

قال اللّهُ عزّ وجلّ خطاباً لرسوله ﷺ باعتباره قائد أمّته، وأوّلَ المسلمين فيهم، والمقصودُ منه الدعاة من أمّته:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

درس مدنيّ التنزيل:

هذا الدرسُ نجم مدنيّ التنزيل ضُمَّ إلى سورة (القلم) الّتي هي من أوائل التنزيل المكيّ لمراعاة اقتضاءَيْن:

(١) فمناسبته الفكرية والموضوعيّة تستدعي أَنْ يكون في سورة (القلم) لأنّ هذه السورة تحدَّثت عن المكذبين الذين اتّهموا الرّسول بالجنون، وقال الحلاّف المهين الْعُتُلُّ الزنيم منهم عن آيات الله المنزّلة: هذه أساطير الأولين، وهذه أمور مُزعِجَةٌ جدّاً للدَّاعِي تستدعي أن يُؤمَرَ بالصبر لحكم الله.

(٢) لكِنَّ الله عزّ وجلّ قد وصف رسوله محمّداً في مطلع السورة بقوله خطاباً له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ فأغنَىٰ هذا بما فيه من توجيه ضِمْنِيّ عن أن يأمُرَه بالصَّبْرِ صراحةً، على أنّ الرَّسُول ﷺ قد كان مُتَحقِّقاً يومئذٍ بالصَّبْر المطلوب.

ومرَّت السنين وما زال الرسول ﷺ متحقّقاً بالصَّبْرِ لحكم رَبّه على أحْسَنِ وجْه في تطبيقاته.

فما الحكمة من تنزيل هذا النجم بعْدَ تحقيقِ الرسول لمضمونه، ومرور سنين عديدة تزيد على عشر سنين؟

لدى التأمُّل ينكشف للباحث أنّ الحكمة من تنزيله متأخّراً في الْعَهْد المدنيّ، ووضعه في سورة (القلم) الّتي هي من أوائل التنزيل المكي، إرادةُ بيانِ منهاجِ الدّعوة في أوائل مراحلها، وواجباتِ الداعي إلى الله تجاه ما يلاقيه من الذين يرفضون دعوته ولا يستجيبون لَهَا.

فالنصّ مُوَجَّهُ في الخطاب الظاهر للرسول ﷺ الذي كان متحقّقاً بمضمونه قبل أن يخاطَبَ به، لكنَّهُ موجَّهٌ بصِفَةٍ عامَّةٍ لكُلِّ الدُّعَاة إلى اللَّهِ من بَعْدِ الرّسول ﷺ ليلتزموا به.

فواجبات الداعي إلى الله الَّتي اشتملت عليها سورة (القلم) والّتي يجب على الدُّعاة إلى الله الالتزامُ بها بعد الرسول ﷺ تستَدْعي أن تشتَمِل على الأمْرِ بالصَّبْر لحكم الله، لكنَّ خُلُقَ الرسول العظيم لم يكن بحاجةٍ لتوجيه مثل هذا الأمْرِ له، أمّا من سيأتي بَعْدَه من الدُّعاة فإنَّهُمْ لا يملكون في فطرتهم خُلُقاً عظيماً مثْلَ خُلُقه، فهم بحاجة إلى الأمْرِ بالصَّبْرِ لحُكْمِ الله منذ المرحلة الأولى من مراحل دعوتهم إلى الله.

فأنزل اللّهُ عزّ وجلّ هذا النجم في العهد المدنيّ من سيرة الرسول ﷺ، بعد أن حقَّقَ الرسول مضمونه وانتهت المرحلة، لنَعْلَمَ أنَّ هذا النَّصّ مُوَجَّهٌ لكُلّ الدُّعَاة بعد الرسول، فَمِنْ واجباتهم الصَّبْرُ لحكم الله مُنْذُ أوّل مراحل دعوتهم إلى الله، وإلى صراطه المستقيم.

وقد وُضِعَ في المكان المناسب له تماماً، مع النصوص المنزَّلة في أوائل مراحل الدعوة، فتحقَّق بهذا الإجراء الغرضان، وعُلِمَ أنّ خطابَ الرسول فيما لم يكُنْ من خصوصيّاته هُو خطابٌ لأمَّتِه.

هذا الأسلوب هو من روائع أساليب الأداء البياني، وخلاصتُه تأخير خطاب الرَّسُولِ بالنصّ الذي يتضمّن تكليفاً، إلى ما بعْدَ تحقيق الرَّسُولِ ﷺ مضمونه دُون تكليف، للإشعار ضِمْناً بأنَّ المقصُودَ خطابُ الدُّعاةِ إلى الله من أمّته.

● ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ...﴾.

قَدْ نفهم من هذه الجملة الأمر بالصبر على كُلّ المكاره الّتي تَمَسُّ الداعيَ إلى الله وهو في طريق دعوته، كالتكذيب بما يَدْعو الناسَ إليه، والإعراضِ أو الإدْبارِ والتولّي عنه، وكاتّهَامِهِ بما يسوؤه حتّىٰ بالجنون، وَكإيذائه وشتيمته والإضرار به، وسَجْنِه وضَرْبِه وغير ذلك.

وَحُكْمُ اللَّهِ في تَمْكِين غَيْرِ المستجيبين لمواجهة الدَّاعي إلى سبيل رَبّه يخضَعُ لقوانين القضاء والقدر، وسُنَّةِ اللَّهِ العامّة في خلقه.

لكنّ تَعْدِيَةَ فعل الصَّبْرِ قَدْ جَاءَتْ في معظم الآيات القرآنية بحرف «على». مثل: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ـ ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ وهذا هو الأصل في الاستعمال.

فما الحكمة هنا من تعديَة فعل الصَّبْرِ بحرف «اللاَّم»؟

بالتأمُّل يتبيَّن لنا أنَّ فعل الصَّبْرِ هنا تَضَمَّنَ معنى التسليم لحكْم الله، وهذا التسليم يُلائمه حَرْفُ اللاّم، والتقدير: فاصْبِرْ مُسْتَسْلِماً لحكُمِ رَبك. وهذا التضمين من أسَاليب القرآن البيانيّة البديعة.

وحين نبحثُ في أحكام الله الدَّعويَّة التكليفية الموجهة للداعي إلى سبيل رَبّه، نجدُ فيها تكليفه أَنْ يَسْتَمِرَّ في تذكيره ولاَ يَتْرُكَه يائساً، مَا دَامَ احتمالُ نَفْع تَذْكيرِه موجوداً، ولَوْ بنسْبَةٍ ضئيلة قليلة، فتَرْكُ التذكير لا يكونُ إلاَّ بَعْدَ التحقُّقِ من كوْنِ المدْعُوّ حَالَةً ميئوساً منها، دلَّ على هذا الحكم قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الأعلىٰ/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾.

أي: فعلى الداعي إلى الله أنْ يُتَابعَ تذكيره بما سبَقَ أن بلَّغَهُ ولَوْ كَانَ احْتِمَالُ نَفْع تَذْكِيرِه احْتِمالاً ضعيفاً، إذْ جاء في الآية حرف الشرط «إِنْ» الذي يُستَعْمَلُ غالباً في الأَمْرِ المشكوك فيه.

أمّا إذا كان احتمال نفع التذكير ميئوساً منهُ جَزْماً، فعلَىٰ الداعي حينئذٍ أَنْ يُوَفِّرَ جُهُودَهُ ويُعْرِضَ عن الميئوسِ منهم يأْساً مقطوعاً بِه، أو يتولَّىٰ عنهم، عملاً بقول الله عزّ وجلّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾﴾.

وعملاً بقول الله عزّ وجلّ في سورة (الذّاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) بشأن الميئوسِ قَطْعاً من استجابتهم:

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾﴾.

الإعْرَاضُ أخَفُّ من التَّوَلي، فالتولّي إنما يكون بالنسبة إلى الحالات الأشَدّ، وهي الحالات الّتي وصل أصحابها إلى مواقف العداء العلني.

وعلى هذا نفهم من قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ فَاصْبِرْ على مُتَابَعَةِ تَذْكِيرك مَهْما لاقَيْتَ من مزعجات ومؤذياتٍ، مستسلماً لِحُكْمِ رَبِّكَ.

وَبَعْدَ الأمْرِ بالصَبْرِ استسلاماً لِحُكْمِ الرَّبّ، حذَّرَ اللَّهُ عزّ وجلّ الداعيَ إلى سبيل ربّه بأسْلُوب الخطاب الموجَّه للرسول فقال له:

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ . . .﴾.

وهُو يونُسُ بْنُ مَتَّىٰ عليه السَّلام، فَقَدْ بَعَثَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ إلى أهل نينوىٰ من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ، فكذَّبُوهُ، وأصَرُّوا على كُفرِهِمْ وعِنَادِهِم، فضاق يُونُسُ بهم ذَرْعاً، فَذَهَبَ عَنْهُمْ مُغَاضِباً، بعد أَنْ أَوَعَدَهُمْ بحُلُولِ عذاب الله بهم بعد ثلاث، وكان انصرافُهُ عَنْهُمْ بغَيْرِ إِذْنِ من الله.

فلمَّا غادرهم، وَجَاءتْهُمْ نُذُرُ العذاب خافُوا، فتابوا إلى الله، وَنَدِمُوا على ما كان منهم تُجَاه الرَّسُول الذي أرْسَلَهُ اللَّهُ إليهم.

واجتمعوا بعد أَنْ فرَّقُوا بيْنَ كُلِّ بهيمة وولَدِها، وَجأَرُوا إِلَىٰ اللَّهِ عزّ وجلَّ باكِينَ متضرِّعينَ، ليَصْرِفَ اللَّهُ عنهُمُ العذاب، فَتَاب الله عليهم، وصَرَفَ عنهُمُ العذاب.

أمَّا يُونُسُ عليه السلام فإنَّهُ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً كانَ يظُنُّ أَنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ لَنْ يُضَيِّقَ عليه في المحاسبة، إذا انْصَرَفَ عن قَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يتلَقَّىٰ الإِذْنَ من اللَّهِ بهذا الانْصِرافِ.

وَكان في طريقه إلى أَهْلِه بَحْرٌ، وكانَ لا بُدَّ لَهُ من أن يَرْكَبَ فُلْكاً إليهم، فركَبَ فُلْكاً مَعَ قَوْمٍ كعادَةِ المسافرين في البحر، فلَجَّ البحْرُ بهم واضطربَ وَماجَ، وثَقُلَ بِمَنْ فيه، حتَّىٰ كادُوا يَغْرَقُون، وَلم يَجِدُوا وَسيلَةً إلاَّ أن يُخَفِّفُوا عن الفُلْكِ بإلقاء أحدهم في الماء.

فاقترعوا فوقَعَتِ القرعةُ على يُونُسَ عليه السلام في ثلاث محاولات، فقذف بنفسه في البحر فالتقمه حُوتٌ أوحَىٰ اللَّهُ إليه أَنْ يلتقِمه، فنادى في الظلمات: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وَحَمَلَهُ الحوتُ في فَمِه سَجيناً، وسارَ به بأمر الله إلى الشاطئ، ولمّا بلغ الشاطئ لفظه، وَنَبَذَهُ بالعراء وهو سقيم.

قال تعالى في هذا الدرس: ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾.

مَكْظُومٌ: أي: مَحْبُوسٌ في فَم الحوتِ لاَ يَسْتطيع الخروج منه، وقَدْ يَكُونُ مُغْتَاظاً من نَفْسِه إذْ تَرَكَ قَوْمَهُ دون إذنٍ من رَبّه. يُقَالُ لغة: كَظَمَ الرَّجُلُ نَفَسَهُ، إذا حَبَسَهُ في صَدْرِه، فمعنىٰ الكظْمِ الحبْسُ.

قال تعالى: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: أي: لَوْلاَ أَنْ لَحِقَتْهُ نِعْمَةٌ مِنْ ربِّهِ، فأدْرَكَتْهُ بالإنقاذ قبْلَ أَنْ يَهْلِكَ في فم الحوت.

جاء فعل «تداركَهُ» دون تاء التأنيث، لأنّ لفظ «نِعْمَةٌ» مجازيُّ التَّأْنِيث، يجوز معه تذكير الفعل وتأنيثه، يضاف إلى هذا مُلَاحظة أنّ المتدارِكَ هو الرَّبُّ، والنعمةَ مِنْهُ فيضٌ من عطائه.

﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾.

النَّبْذُ: الطَّرْحُ باحْتِقَارٍ وإهانةٍ وعَدَمِ اكْتِرَاث.

الْعَراءُ: الفضاء في أرْضٍ لا نَبَات فيها وَلاَ بِنَاء.

وهُوَ مَذْمُومٌ: أي: لأنَّه خَرَجَ هاجراً قَوْمَهُ مُغاضِباً لهم دُونَ أَنْ يأذن الله له بذلك، فقومُهُ لم يَصِلُوا إلى حالةِ ميئوسٍ منها قطعاً، بدليل أنّهم لما رأَوْا نُذُرَ العذاب خَافُوا وتابوا إلى بارئهم، وسَعَوْا في طلب رسولهم.

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: فَعَقِبَ هٰذِهِ المصيبة التَّأْدِيبيَّةِ، تَابَ يُونُسُ عليه السّلام، إلى رَبِّهِ تَوْبَةً عظيمةً، فتابَ اللَّهُ عليه، فاجْتَبَاهُ، أيْ: فاختاره واصطفاهُ، وجَعَلَهُ ضِمْنَ عباده الصالحين، إذْ وصَلَ بتوبته وصلاحه إلى هذه المرتبة الّتي يَحْتَلُّهَا الأنبياء والمرسلون، **الصّالح**: الخالي من الفساد، **والصالح من عباد الله**: الكاملُ في عُبُوديَّتِهِ لربّه.

وفي عرض هٰذه القصة تحذيرٌ لحَمَلَةِ رسالة الدعوة إلى اللَّهِ المؤهّلين لها، منْ تركِ وظائفِ رسالتهم إذا وَجَدُوا المدعوّين غير مستجيبين لدعوتهم، لكن لم تصل أحوالهم إلى دَرَكة يحْسُنُ معها الإعراض أو التولّي عنهم.

وانتهىٰ الدرس الرابع من دُروس السورة

❁ ❁ ❁

(٨)
التدبُّر التحليليّ للدرس الخامس

الآيتان الأخيرتان من السورة (٥١ ـ ٥٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

● قرأ نافع، وأبو جَعْفَر: (لَيَزْلِقُونَكَ) بِفَتْحِ الياء، من فعل «**زَلَقَ فُلَانٌ فُلاناً يَزْلِقُهُ زَلْقاً**» أي: أَبْعَدَهُ وَنَحَّاهُ وَجَعَلَهُ يزِلُّ عن مكانه.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ بضمّ الياء من فعل: «أَزْلَقَهُ يُزْلِقُهُ إزلاَقاً».

والمعنى في القراءتين واحد، والقراءتان وجهان عربيّان لهذا الفعل.

تمهيد:

هذا الدرس موصولٌ بالدَّرْسِ الأوّل من دروس السورة، إذْ جاء فيه أنّ مكذّبي الرسول ﷺ من كبراء مشركي مكّةَ اتَّهَمُوهُ بالجنون، لمّا دعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم ما كان قَدْ نَزل عليه من القرآن المجيد، وأنّ عُتُلَّهم الزنيم قال بشأن القرآن: أساطير الأولين.

وموصول أيضاً بالدرس الرابع من دروس السّورة، إذْ جاء فيه قولُ الله عزّ وجلّ بشأن المكذبين بالْقُرْآن: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾.

فجاء الدَّرْس الأخير ليكْشِفَ مَبْلَغَ إعجاب المكذّبين بالقرآن إلى حَدِّ الدَّهْشَةِ المثيرة للحسد العنيف، الذي يجعل بصَرَ الحاسد يَزْلِقُ المَحْسُود عن موقفه الذي هو فيه يتحدَّث، من فرط إعجابه بحديثه، وبيانِه المعجز لأساطين البيان.

ومع هذا الإعجاب الشديد منهم بما يَتْلُو عليهم من آياتِ القرآن يقولون عن الرسول ﷺ: إنَّهُ لمجنون.

وهذا منهم تَنَاقضٌ واضِحٌ فاضح، كيْفَ يَحْسُدُونه حسداً شديداً إعجاباً بما يَتْلُو عليهم، ويَتّهمونه مع ذلك بالجنون، إنّ المجنون لا يَحْسُدُهُ العاقِلُون.

إنَّهُمْ مُتَنَاقِضُونَ بَيْنَ حَالِهِم ومقالِهم.

وقد جاء الخطابُ في هذا الدّرْس مُوَجّهاً من اللّهِ لِرَسُوله تَسْلِيَةً وَتَطْمِيناً لنفسه وقَلْبِه، بأنّ مُتَّهِمِيهِ بالجنون غير مصدّقين لأنفسهم في هذا الاتّهام، بَلْ يُطْلِقُونه إطلاقاً كيديًا، لِصَدِّ جماهيرهم عن الإيمان بالرَّسُولِ واتّباعه، إذَا أَدْرَكُوا منْ عظمة آيات التنزيل مِثْلَ ما أدْرَكَ قادتهم.

وهو في الوقت نفسه يبيّن لأصحاب المقالة بأسلوب غير مباشرٍ أَنَّهُمْ مكْشُوفُون، وأنَّ مكيدتَهُمْ ساقطةٌ غَيْرُ مقبولة لدى عقلاء الناس.

﴿وَإِن يَكَادُ﴾: «إِنْ» مخفَّفَةٌ من الثقيلة «إِنَّ» فهي مؤكِّدَة للجملة، والدليل على أنّها المخففة من الثقيلة وجود اللام المزحلقة في الجملة، وهي في الأصل «لام» الابتداء التي يُؤْتَىٰ بها للتوكيد، و «إِنْ» هنا مهملة عن العمل، وتُفِيد التأكيد.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: هُمُ المكذبُون أَنْفُسُهم الذين تَحدَّثَتِ السُّورة عنهم، وجاء الحديث عنهم هنا بعنوان «الذين كَفرُوا» للدّلالَةِ على أَنَّ المكذِّبينَ بالرَّسُولِ والقرآنِ كافرون، وللدّلاَلَةِ على أَنَّ تكذيبهم مقرونٌ بسَتْرِهم الأدلَّةَ البرهانية القائمة في عُقُولهم على أنّ محمّداً رسول الله حقّاً، وعلى أنَّ القرآن كلامٌ مُنَزَّلٌ من رَبِّ العالمين، إذْا أصْلُ الكُفْرِ في اللُّغَةِ السَّتْرُ.

﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾: أي: لَيَجْعَلُونَكَ تَزِلُّ وتسقُط عن مَوْقِفِكَ انزلاقاً، كما يَنْزَلِقُ من داسَ على دُهْنٍ أَوْ طِينٍ زَلِقٍ.

﴿بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾: أي: بما تُطْلِقُه أبْصَارُهُمْ من قُوَّةٍ خَفِيَّة ذات أثَرٍ في

الماديّات والمعنويات، وهٰذِه القُوَّةُ تُطلِقُها الأَنفُسُ الحسُودَة، ولكِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ وقَىٰ رسُولَهُ من تأثير أبصار حاسديه.

﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾: أي: حينَ سَمِعُوا شيئاً من آيات القرآن المجيد، سمَّىٰ اللَّهُ القرآن ذِكراً لأنّ المطلوبَ من الناس بالنسبة إليه أن يتبلَّغُوهُ ويَتَدَبّروا معانيه، ويجعَلُوها في ذاكراتهم للعمل بما جاء فيها.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾: أي: يَحْسُدُونَ الرسُولَ حسداً شديداً في حال تَدَاوُلِهِمْ بتكرارِ مقالةَ: إنَّهُ لمجنون، وهذا تناقضٌ منهم ظاهر.

ولمَّا كان القرآنُ يَحْمِلُ تأثيراً عالميًّا على كُلِّ الناسِ، وقَدْ أَنْزَلَهُ اللَّهُ للناسِ أجمعين، بخصائص تُؤَثِّر على كلّ الشعوب والأقوام، ولا يَقْتَصِر تأثيرُهُ على أهل مكّة وما حولها، ولا على العرب الذين نزل بلسانهم، وأنَّهُ مؤهَّلُ لأَنْ يُؤْمِنَ به من كلِّ الشعوب والأقوام العقلاءُ المنصفون، كان من الحكمة إشعار المكذبين به من كُبَراء مَكَّةَ أنَّهُ ذِكْرٌ لجميع العالَمِين، ولَئِنْ كفَرَ به هؤلاء فسَيُؤْمِنُ به آخرون من كُلِّ شعوب الأرض، فأَمْرُ الإيمان به لَيْسَ متوقفاً على هذه الحَفْنَةِ من الناس التي كفرَتْ به من كبراءِ مكّة.

فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

فَمَعَ ما في هذا من بيان حقيقة عموم الرسالة المحمّديّة، وأنَّه مُرْسَلٌ للناس أجمعين، ففيه إيماءٌ إلىٰ أنَّ الذين كَفَرُوا بالقرآن مِنْ أهْلِ مكَّةَ قليلونَ جدًّا، بالنسبة إلى الذين سَيُؤْمِنُونَ به، متَّىٰ أدْرَكُوا إعْجَازَه وعظَمَةَ ما اشتمل عليه من علم وهداية.

تأثيرُ الإصابة بالعين:

(١) دلَّ قول الله عزّ وجلّ في هذا الدرس الأخير من دروس السورة خطاباً للرسول ﷺ:

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ . . .﴾.

على أنّ الإصابة بالعين حقٌّ، وأنّ لها تأثيراتٍ على الأجساد والنفوس، وقد جاء في كلام الرسول ﷺ ما يُثْبِت تأثير الإصابة بالعين، باعتبارها مِثْلَ الأمور السببيَّة التي جعلها اللَّهُ في كونه ذَوات تأثيراتٍ ضِمْن قضاءِ الله وقدره وَإِذْنِه وتمكينه، وفيما يلي ذِكْر طائفة منها:

(١) روى الإمام مسلم والإمام أحمد عن ابن عباسٍ رَضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ قال:

«الْعَيْنُ حَقٌّ، ولَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقٌ الْقَدَرَ سبَقَتْه الْعَيْنُ، وإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا».

أي: إذا طُلِبَ من الْعَائن أن يَغْسِل أطرافه ليؤخذ الماء ويُصَبّ منه على المصاب بالعين لزمه أن يفعل.

(٢) وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال:

«الْعَيْنُ حَقٌّ».

أي: الإصابة بالعين من الأمور السببيَّة الّتي جعَلَها اللَّهُ حقًّا واقعاً في الكون.

(٣) وروى ابن عديٍّ في الكامل وأبو نعيم في الحلْيَة عن جابر رضي الله عنه، أنّ النبي ﷺ قال:

«الْعَيْنُ تُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ، وتُدْخِلُ الْجَمَل الْقِدْرَ». [«حديث حسن» عن صحيح الجامع الصغير وزيادته].

(٤) وثبت أنَّ جِبْرِيل عليه السّلام كان يَرْقِي رسولَ الله ﷺ بأن يشفيه الله من شرِّ حاسدٍ إذا حسَدَ، ومن شرِّ كُلِّ ذي عيْنٍ.

روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان إذا اشْتَكَىٰ رسُولُ الله ﷺ رَقاه جِبْرِيلُ، قال:

«بِاسْمِ الله يُبْرِيكَ، ومِنْ كُلِّ دَاءٍ يَشْفِيكَ، ومِنْ شرِّ حَاسِدٍ إذا حَسَد، وشرِّ كُلِّ ذي عَيْن».

وروى مُسْلِمٌ عن أبي سعيد الخدري أنّ جبريلَ أتَىٰ النبيَّ ﷺ فقال: يا مُحمَّدُ اشتَكَيْتَ؟ فقال: «نَعَمْ» قال:

«بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كلِّ شيءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفسٍ، أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ يَشْفِيكَ، باسْمِ الله أرْقِيكَ».

(٥) وثبت في الأدعية النبويَّة قول الرسول ﷺ:

«أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّةٍ».

وكان الرسول ﷺ يُعَوِّذُ بهذا الدُّعَاءِ الحسَنَ والحسين.

(٦) وروى الإمام أحمد والترمذيُّ وابْنُ ماجه بإسنادٍ صحيح عَنْ أسماءَ بنتِ عُمَيس، قالت: يا رسُولَ الله، إنَّ وُلْدَ جَعْفَرَ تُسْرِعُ إلَيْهِمْ الْعَيْنُ، أَفأَسْتَرْقي لهم؟ قال:

«نَعَمْ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقٌ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ».

(٧) وروى البخاريُّ ومُسْلمٌ عن عائشة قالت: «أَمَرَ النبيّ ﷺ أَنْ نَسْتَرْقِيَ من الْعَيْن».

(٨) وروى البخاري ومسلم عن أمّ سلمة أنّ النبيّ ﷺ رأىٰ في بيتها جاريةً في وَجْهِها سُعْفَةٌ «أي: صُفْرَة» فقال:

«اسْتَرْقُوا لَهَا فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ».

(٩) وروى الترمذيُّ وابْنُ ماجه، بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدريّ قال: «كان رسول الله ﷺ يَتعوَّذُ مِنَ الْجَانّ وعَيْنِ الإنْسَانِ، حَتَّىٰ نَزَلَتِ المعوِّذَتَان، فلما نزلَتْ أَخَذَ بهما وتَرَكَ مَا سِوَاهما».

(١٠) وعن أبي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْف، قال: رَأىٰ عامِرُ بْنُ رَبيعةَ سَهْلَ بْنَ حُنَيْف يغتسل، فقال: وَاللَّهِ ما رَأَيْتُ كالْيَوْمِ، وَلاَ جِلْدَ فَتَاةٍ مُخَبَّأَةٍ[1]، قالَ: فَتَلَبَّطَ سَهْلٌ، فأُتِي رسُولُ اللَّهِ ﷺ فقيل له: يا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لَكَ فِي سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ؟ واللَّهِ ما يَرْفَعُ رَأْسَهُ، فقال:

«وَهَلْ تَتَّهِمُونَ لَهُ أَحَداً؟».

قالوا: نَتَّهِمُ عَامِرَ بْنَ رَبِيعَة، قال: فَدَعَاهُ رَسُولُ الله ﷺ، فَتَغَلَّظَ عَلَيْهِ، وقال:

«عَلاَمَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ، هَلاَّ بَرَّكْتَ[2]؟ اغْتَسِلْ لَهُ».

فَغَسَلَ عامِرٌ لَهُ وجْهَهُ، ويَدَيْهِ، وَمِرْفَقَيْهِ، ورُكْبَتَهُ، وأَطْرَافَ رِجْلَيْهِ، وَدَاخِلَةَ إزارِهِ في قَدَحٍ، ثُمَّ صَبَّ عَلَيْهِ، فراح مَعَ النَّاسِ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ».

رواه في شرح السُّنة، ورواه مالِكٌ، وفي روايته قال:

«إنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ، تَوَضَّأْ لَهُ».

وشواهد الإصابة بالعين في واقع الناس كثيرةٌ جدًّا، في كلِّ أمَّة، نعوذ بالله من شرورها، ومن شرّ كلِّ ذي شرّ.

وبهذا انتهىٰ تدبر سورة (القلم) على ما فتح الله به
فله الحمد كلّه، إنَّه الوهاب والملْهِم للصواب

❁ ❁ ❁

---

(١) **مخبّأه**: أي: مُخبأة في خِدْرِها.
(٢) أي: هلاَّ دَعَوْت له بالبركة.

سُورَةُ الفَاتِحَة

وتسمى «أم القرآن»

و«السبع المثاني» و«القرآن العظيم»

١ مصحف ٥ نزول



(١)

سورة فاتحة الكتاب

مقدمة حول تسميتها

● روىٰ الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنَّهُ قال لأمّ القرآن «أي: الفاتحة»:

«هي أُمُّ الْقُرآن، وهي السَّبْعُ المثاني، وهي الْقُرْآنُ العظيم».

● وروىٰ البيهقيّ في شُعَب الإيمان عن أنس، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«إِنّ الله أعْطَانِي فِيما مَنَّ به عليّ فَاتِحَةَ الكِتاب، وقال: هي مِنْ كُنُوزِ عَرْشِي».

● وروى ابن جرير الطبريّ في تفسيره عن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال:

«هِيَ أُمُّ الْقُرآنِ، وَهِيَ فَاتِحَةُ الكِتاب، وهِيَ السَّبْعُ الْمَثانِي».

وروى الطبرانيُّ نَحْوَ هذا في حديثٍ قال عنه: «رجالُهُ كلُّهم ثقات».

● وروى البيهقي عن عليٍّ وابن عبَّاسٍ وأبي هريرة أَنَّهُمْ فَسَّرُوا قول الله تعالَىٰ: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ بالفاتحة.

سُمّيت بالفاتحة، لأنّ القراءة تفتتح بها، ولهذا افتتح الصحابة بها كتابة المصحف الإمام.

وسُمِّيت بأم القرآن لاشتمالها على أهمّ موضوعات القرآن.

وسُمّيت بالسبع المثاني، لأنّها سبْعُ آياتٍ تُكَرَّرُ في الصلاة فتُقْرأ في كلّ ركعة، وكلُّ ما يكرّر على نظام واحد يطلق عليه في العربية لفظ مثاني، ولأنّ بين جُمَلِها مطويات من المعاني تُفْهَم باللّزوم الذهنيّ، وجاء بيانها التفصيلي في سائر سور القرآن.

المثاني: جَمْعٌ مفرده «مَثْنَاة» وهو من الثَّني، وهو ردُّ الشيء بعْضِه على بعض.

وقد نزلت هذه السورة في أوائل العهد المكيِّ، وهي السورة الخامسة بحسب ترتيب النزول، كما هو مُدَوّنٌ لدى علماءِ عُلُومِ القرآن، وهو المرجّح لدى العلماء بروايات التنزيل.

وزعم بعْضُ أهْلِ العلم أنّها أوّل سُورةٍ أنزلَتْ، على اعتبار أنّها أُمُّ القرآن، والجامعةُ لأمّهَاتِ أغراضه، وهذا منه تحكيمٌ للرأي فيما لا مجال للرأي فيه[١].



(١) راجع كلام الشيخ الصادق عرجون في سيرته ردّاً على الشيخ محمّد عبْدُه المصري.

(٢)

نصّ السورة وما فيها من فرشيات القراءات

سورة الفاتحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

---

٤ ـ [مَالِك] عاصم، والكسائي، ويعقوب، وخلفٌ في اختياره.
[مَلِك] باقي القراء العشرة.

٦ ـ قرأ «السّراط» بالسين: قنبل، ورويس.
وقرأ باشمام الصاد زاياً فتنطق كما ينطق العوامّ الظاء: خلف عن حمزة حيث وقع، وخلاد في هذا الموضع فقط.
وقرأ «الصراط» بالصاد باقي القراء العشرة.

٧ ـ «سِرَاط» بالسين: قنبل، ورويس.
وقرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد زاياً.
وقرأ «صِراطَ» بالصاد باقي القراء العشرة.
● وقرأ بضم هاء الضمير في «عَلَيْهُمْ» في الموضعين حمزة، ويعقوب.
وقرأ باقي القراء العشرة بِكَسْرِ الهاء.

(٣)
ممّا جاء في السنة بشأن فضائل سورة الفاتحة

جاء في السنة في فضل هذه السورة العظيمة أحاديث نبوية، منها الصحيح، ومنها الحسن، ومنها الضعيف، وأنتقي منها طائفةً، مستبعداً ما لا يقوى على الاستشهاد به.

(١) روى البخاري وأحمد وأبو داود والنسائي من حديث أبي سعيد بن المعلّىٰ أنّ رسول الله ﷺ قال له:

«لأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآن قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِد».

قال فأخذ بيدي، فلَمَّا أراد أن يخرُج من المسجد قلتُ: يا رسول الله، إنَّكَ قُلْتَ: لأُعَلِّمنَّكَ أعْظَمَ سُورَةٍ في القرآن، قال:

«نَعَمْ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، والْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الّذِي أُوتِيتُهُ».

(٢) وروى أحمد والترمذيُّ (وصَحَّحه) من حديث أُبَيّ بْنِ كَعْبٍ، أنّ النبيّ ﷺ قال له:

«أَتُحِبُّ أَنْ أُعَلِّمَكَ سُورَةً لَمْ يَنْزِلْ في التَّوْرَاةِ وَلاَ فِي الإنْجِيلِ وَلاَ فِي الزَّبُورِ وَلاَ فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا؟».

ثُمّ أخبرَهُ أنَّها الفاتحة.

(٣) وروى الإمام أحمد في مسنده والنسائيُّ من حديث عبد الله بن جابرٍ أن رسول الله ﷺ قال له:

«أَلاَ أُخْبِرُكَ بِأَخْيَرِ سُورَةٍ في القرآن؟».

قلت: بَلَىٰ يا رَسُولَ الله، قال:

«اقْرَأْ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ حَتَّىٰ تَخْتِمَهَا».

(٤) وروى البخاريّ ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري قال: انطَلَق نَفَرٌ من أصحاب النبيّ ﷺ في سفْرَةٍ سافروها، حتّىٰ نَزلُوا عَلىٰ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ العرَب، فاسْتَضَافوهم، فأبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهم، فَلُدِغَ سَيّد ذلِكَ الحيِّ، فسَعَوْا لَهُ بكلّ شَيْءٍ، لا يَنْفَعُهُ شيء.

فقال بعضُهم: لو أَتَيْتُمْ هؤلاءِ الرَّهْطَ الّذين نزلُوا، لعلَّهُمْ أنْ يكون عنْدَ بعْضِهم شيءٌ، فأتَوْهُمْ فقالُوا: يا أَيُّها الرَّهْطُ، إنَّ سيّدنا لُدِغَ، وسَعَيْنا لَهُ بكلِّ شيءٍ، لا ينفعُهُ شَيءٌ، فهَلْ عنْدَ أَحَدٍ منْكُمْ مِنْ شيءٍ؟

فقال بعضُهُمْ: نعَمْ، واللَّهِ إنّي لأَرْقِي، ولكِنِ اسْتَضَفْنَاكُمْ فلَمْ تُضَيِّفُونَا، فما أَنَا بِرَاقٍ حتَّىٰ تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلاً.

فَصَالَحُوهم على قَطِيعٍ من الغنم، فانْطَلَق يَتْفُلُ عليه ويقْرَأُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾[1] فَكَأَنَّما أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فانْطَلَق يمْشِي ومَا بِه قَلَبَةٌ[2].

قال: فأوفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الّذِي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتَسِمُوا، فقال الذي رقَىٰ: لا تفعلوا حتَّىٰ نأتِي رسول الله ﷺ فنذكُرَ له الّذي كان، فننظرَ ما يأمُرُنا، فقدِموا على رسول الله ﷺ فذكَرُوا له ذلك، فقال:

«وَما يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟!» ثم قال: «قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْتَسِمُوا وَاضْرِبُوا لي مَعَكُمْ سَهْماً».

وقد أخرج هذا الحديث أيضاً الإمام أحمد والترمذيُّ وابن ماجه.

---

(١) أي سورة الفاتحة.

(٢) **ما به قَلَبة**: أي: ما به ألم ولا علّة ولا داء، **القَلَبَةُ**: الإصابة بالقُلاب، وهو داء يأخذ في القلب.

(٥) وروى مُسْلمٌ في صحيحه، والنَّسائيّ في سُنَنه، من حديث ابن عبّاس قال: بَيْنا رسول الله ﷺ وعنده جبريل، إذْ سَمِعَ نَقِيضاً[1] فوقه، فرفع جبريل بصَرَهُ إلى السماء فقال: هذا بابٌ قد فُتِحَ من السَّماء ما فُتِحَ قَطُّ، قال: فنزَلَ منْهُ مَلَكٌ، فأَتَىٰ النبيّ ﷺ فقال: «أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ قَدْ أُوتِيتَهُما لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةَ الْكِتَاب، وَخَوَاتِيمَ سُورَةِ «البقرَة» لَنْ تَقْرَأَ حَرْفاً مِنْهُمَا إلاَّ أُوتِيتَهُ».

(٦) ومن فضائل هذه السورة أنّها تُقْرأ لُزوماً في الصلاة، فقد روى مسلم والنسائيُّ والترمذيُّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ صَلَّىٰ صَلاَةً لَمْ يَقْرأْ فِيهَا بِأُمّ الْقِرآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ، فَهِيَ خِدَاجٌ، فَهِيَ خِدَاجٌ، غَيْرُ تَمَامٍ».

(٧) وروى البخاري ومُسْلِمٌ عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ:

«لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ».

(٨) وروى مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«قالَ اللَّهُ تعالَىٰ: قَسَمْتُ الصّلاَةَ بَيْنِي وَبين عَبْدِي نِصْفَين، ولِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فإذا قال الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ قال اللَّهُ: حَمِدَني عَبْدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ قال الله تعالى: أثنىٰ عَليَّ عَبْدِي، وَإِذَا قال: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ قالَ: مجَّدَني عَبْدِي - وفي رِوايَة -: فَوَّضَ إليَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ قال: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، ولِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾

---

(١) نقيضاً: أي: صوتاً، يقال: نقيضُ الفراريج: أي صوتها، ونقيض المفاصل، ونقيض الأصابع.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ قال: هٰذَا لِعَبْدِي ولِعَبْدِي مَا سَأَلَ».

(٩) وروىٰ الدارميّ والبيهقيُّ في شعب الإيمان بسند رجاله ثقاتٌ، عن عبد الملك بن عُمَير، قال: قال رسول الله ﷺ في فاتحة الكتاب:

«شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ».

(١٠) وروىٰ الإمام أحمد، وأبو داود، والنّسائي، وابْنُ السُّنِّي في عمل اليوم واللّيلة، وابْنُ جرير، والحاكم وصحّحه، عن خارِجَةَ بن الصَّلْت التّمِيميّ عن عَمّه، أَنَّهُ أتىٰ رسولَ الله ﷺ، ثَمّ أقبل راجعاً من عنده، فمَرَّ علىٰ قَوْمٍ وعندهم رجُلٌ مجنونٌ مُوَثَّقٌ بالحديد، فقال أهله: أعندكَ ما تُداوي به هذا؟ فإنّ صاحبكم جاء بخَيْرٍ، (يَعْنُون رسولَ الله ﷺ).

قال: فقرأْتُ علَيْه فاتحة الكتاب ثلاثةَ أيّام في كلِّ يوم مرّتين غُدْوَةً وعَشِيَّةً، أَجْمَعُ بُزَاقِي، ثُمَّ أتْفُلُ، فبرأ، فَأعطاني مِئَةَ شَاةٍ، فأَتَيْتُ النبيَّ ﷺ، فذكرتُ ذلك له، فقال:

«كُلْ، فَمَنْ أَكَلَ بِرُقْيَةٍ بَاطِلٍ فَقَدْ أَكَلْتَ بِرُقْيَةٍ حَقٍّ».



(٤)
موضوع سورة الفاتحة

هذه السورة القصيرة العظيمة سورةٌ مؤلّفةٌ من دَرْسٍ واحدٍ، جامع لكليّاتٍ كبرى، هي بمثابة عنواناتٍ عامّاتٍ للدّين الّذي اصطفاه الله لعباده الّذين خلقهم ليبلُوَهم في ظروف الحياة الدنيا، ولتاريخهم تُجاهه منذ نشأتهم إلى أن تقوم الساعة، وهي العنوانات التاليات:

العنوان الأول: المبادئ الإيمانيّة الّتي يجب أن يؤمن بها الذين

خلقهم الله عزّ وجلّ ليبلُوهم في رِحلة الحياة الدنيا وظروفها، وقد دلّ عليها صراحةً وضمناً باللُّزوم الذهني ومقتضياته، قولُ الله عزّ وجلّ فيها:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

العنوان الثاني: مطلوبُ اللَّهِ مِنْ عباده الذين وضعهم موضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، وقد دلّ عليه صراحةً وضِمْناً باللّزوم الذهني ومقتضياتِهِ، قولُ الله عزّ وجلّ فيها:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

العنوان الثالث: الدّين الذي اصطفاه الله لعباده الذين وضعهم موضع الامتحان في ظروف الحياة الدّنيا، وجعله الصراط المستقيم لمن شاء أن يسلكه بغية الفلاح والفوز يومَ الدّين، يومَ الحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء، وقد دلَّ عليه صراحةً وضمناً باللُّزوم الذّهنيّ ومقتضياته قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾.

العنوان الرابع: تاريخ الموضوعين موضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا منذ نشأتهم الأولىٰ، وإلى أن تقوم الساعة، تجاه مطلوب الله عزّ وجلّ منهم في رحلة امتحانهم، وقد دلّ عليه صراحةً وضمناً باللُّزوم الذّهنيّ ومقتضياته قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

وهذه العنوانات قد جاء تفصيلها الوافي مع لواحق هذا التفصيل الاستدلاليّة والجداليّة والتربويّة العقلية والنفسيّة وغيرها في سائر سور

القرآن، ومع التنويع والتصريف في الحجج والبراهين والترغيب والترهيب وضرب الأمثال، لمحاصرة النفس الإنسانيّة من كلّ جوانبها، حتّىٰ لا يبقىٰ عُذْرٌ لمعتذرٍ عن عدم استجابته لما دعا إليه هذا الكتاب المجيد، من إيمان وعَمَلٍ وَفْقَ تعليماتِ صراط الله المستقيم.

وفي هذه السورة العظيمة يُعَلِّمُنَا ربُّنَا جلّ جلاله كيْفَ نُكَرِّر في صلواتنا وفي أذكارنا وفي رُقَانا الكلّيات الكبْرَىٰ للدّين الذي اصطفاه لنا، ولتاريخ الناس تجاهه، وهي الكليّات الّتي جاء تفصيلها في سائر سُور القرآن المجيد، ولهذا سمّيت «أمّ القرآن».



(٥)
التدبّر التحليلي للسورة

أوّلاً: تدبّر ما تحت العنوان الأوّل من الكليّات الكبرىٰ للسورة:

قال الله عزّ وجلّ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾:

الحمْدُ: هو التحدّث على وجه التمجيد بصفات المحمود الجميلة، وهو مرادف لكلمة «الثناء».

وتعريف بعض أهل العلم له: «بأنّه الثناء باللّسان على الجميل الاختياري» تعريف قاصر، لأنّ صفات الله الذاتية الأزليّة تُحْمَد، مع أنّها ليست من أفعاله الاختيارية، ولأن القلب والنفس قد يتحدّثان بالحمد ولو لم يتحرّك اللّسان بعبارة الحمد.

و «أل» في كلمة «الحمد» هنا استغراقيّة تَعُمُّ كلّ أجناس الحمد وأنواعه وأصنافه وأفراده.

والحمدُ لله يتناول تمجيده بصفاته الوجودية التي هي من ذاته، وبصفات أفعاله، فيشمل الثناء على الله عزّ وجلّ بكل صفاته وأسمائه الْحُسْنَىٰ ما علمنا منها وما لم نعلم.

ويتناول أيضاً تنزُّهَهُ جلّ وعلا عن كلِّ الصفات التي لا تليق بجلاله ما علمنا منها وما لم نعلم، فلَهُ الْحَمْدُ لبراءته منها وتنزُّهه عنها.

لِلَّه: اللاّم الجارّة هنا هي بمعنى المِلْك أو الاختصاص. وكلمة (الله) علَمٌ في اللّسان العربيّ على خالق الكون الأزليّ الأبديّ الذي لا أوّل له ولا آخر، فَهُو الأوّلُ والآخِرُ.

و ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ مبتدأ، و (لِلَّهِ) خبر، ونقول بحسب الصناعة النحويّة: جارٌّ ومجرور متعلقان بمحذوف هو الخبر.

فمعنى عبارة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كلُّ الحمد ما نستطيع تصوُّرَهُ وما لا نستطيع تصوُّره على صفات ذات الله وصفات أفعاله، وعلى براءة الله من كلّ الصفات الّتي لا تليق بجلاله هو لله ملكاً أو اختصاصاً.

ويلزم من كون كل الحمد لله تفرُّدُه بهذا الحمد، فلا يشاركُه في كمال الحمد شيْءٌ في الوجود، وهذا يتضمّن الإعلان عن توحيد الله في ذاته وفي صفاته وأسمائه الحسنىٰ.

بهذه الجملة القصيرة يعلّمنا الله كيف نحمده تعالى ونُثْنِي عليه جلّ جلاله، فنحن بوصفنا بشراً محدودي المدارك، لا نستطيع أن ندرك من كمالات الله إلاّ على مقدارنا، إذن فنحن لا نستطيع أن نُحْصِيَ الثناء عليه بما هو له أهل على وجه التفصيل، لكن نستطيع أنْ نقول: كلّ الحمد الذي يمكن أن يُحْمَدَ به الله هو له وحده لا يشاركه فيه أحد، ولدى اختصار هذه العبارة إلى أقل الكلمات الدّالاّت عليها نقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ».

ولهذا جاء في دعاء الرسول ﷺ على ما رواه مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها:

«اللّهُمّ إنّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وأَعُوذِ بِكَ مِنْكَ، لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنتَ، كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ».

فالْحَمْدُ كُلُّهُ هو مِلْكُ الله، وهو حقُّه، لأنّه هو وحده الذي له كلّ صفات الكمال، وهو وحْدَه المنزّه عن كلّ صفات النقصَان، وكلُّ ما سَوَىٰ الله عزّ وجلّ لَيْسَ له من صفاتِ كمالٍ يُثْنَىٰ عليه بها، إلاّ مَا وهَبَه الله تعالى، بالخلْقِ، أو بالإمداد، أو بالمعونة، أو بالتوفيق، وبما أنّه هو المانح لكلّ ما يستحقّ حمداً ما، فكلُّ المحامد ترجع إليه، لذا فالْحَمْدُ كلُّه له عزّ وجلّ دون استثناء.

وقد يُطْلَق الحمْدُ على الشكر الذي هو المكافأة على الجميل بالجميل، لأنّ من يُثْنِي على من تفضّل عليه بمنَّةٍ ما فإنّه يحاول على قَدْرِه أن يشكُرَهُ على مِنَّتِهِ بتقديم الثناء، وإنْ كان الأصل في الشكر المكافأة على المنّة بنظيرها أو بما يعادلها، فالشكر على العمل يكون بالعمل أو بما يُعادِلُه، والشكر على المال يكون بالمال أو بما يعادله، وهكذا. وشكر الله على نعمه يكون باستخدام ما وهبنا في مراضيه وفي طاعته، وقد يُلْحقُ بذلك الثناء بالجميل، لأنّ الله عزّ وجلّ غنيٌّ بذاته وبصفاته عن كلّ شيء، وشكْرُ عباده له يعودُ نفْعُه إليهم، مع ما يُصِيبُ غير الشاكر من عباد الله من نَفْعٍ، إذا كان شُكْرُ الله موجّهاً بتوجيه الله لهم، كالصَّدَقة على الفقراء والمساكين، وكمعاونة ذوي الحاجات، وقد جاء في كلام الرسول ﷺ عن ابن عُمر:

«أَحَبُّ النَّاسِ إِلَىٰ اللَّهِ أَنفعُهُمْ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَىٰ اللَّهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَىٰ مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْناً، أو تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعاً،

وَلأَنْ أَمْشِي مَعَ أَخِي الْمُسْلِمِ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي الْمَسْجِدِ شَهْراً...».

فأنْفَعُ الْخَلْقِ إِلَىٰ عِبَاد الله أَكْثَرُ النَّاسِ شكراً لِلَّهِ على ما امْتَنَّ الله بِه عليه.

ويلزم من إثبات كلّ الحمد لله تَوْحِيدُ الله في أزليّته وفي أَبَدِيَّتِه، وفي ذاته وصفاته وأسمائه الحسنىٰ، وهذا هو المبدأ الأعظم لكلّ أركان الإيمان، وهو يتضمّن أنّه ربُّ كُلِّ شيءٍ سِوَاه.

● ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

كلمة «رَبّ» هي في الأصل مصدر فعل «رَبَّ». يقالُ لُغَةً: رَبَّ فلانٌ الولَدَ أو الصبيَّ أو الْمُهْرَ مثلاً يَرُبُّه رَبًّا. كما يقالُ: رَبَّاهُ يُرَبِّيهِ تَرْبِيَةً. وكما يقال: رَبَّبَهُ يُرَبِّبُهُ تَرْبِيباً.

فكلمات: «الرّبّ ـ والتَّربية ـ والتربيب» مصادر لأفعالٍ مختلفة في صِيَغِها ومعناها واحد، وهو الإنشاء المتدرّج للشيْءِ حيًّا كان أم غير ذي حياة، وتعهُّدُ الشيءِ حالاً فحالاً، وطَوْراً فطَوْراً، بحسب فطرته واستعداداته، فيشمل هذا التعهُّدُ بعموم معناهُ التغذيةَ، والتنميةَ، والإرشاد، والإصلاح، والتقويم، والحفظ، والرّعاية، والتأْديبَ، والتهذيب، والتعليمَ إذا كانَ المربَّىٰ يحتاج تأديباً، أو تهذيباً، أو تعليماً، ويشمل أيضاً الإمدادَ المستمرَّ بما يَحْتَاج إليه لبقائه وسلامته، إلى غير ذلك من مفهومات يدركها الباحثون في مَجَالاَت التربية والتعليم.

وهذه التربية تتناول الأحياءَ والنباتات والأشياء غير ذات الحياة، من كلّ ما يحتاج لبقائه أو سلامته تعهُّداً وإمداداً، أو رعايةً وحفظاً.

ثمّ استعيرت كلمة «الرّبّ» من المصدريّة إلى اسم الفاعل، فصارت تُطْلَق كلمة «الرّبّ» بمعنى «المُرَبِّي».

ونظراً إلى معنى التربية ولوازمها أطلقت كلمة «الرّبّ» في لسان العرب على معاني كثيرة، منها: «الملك ـ الأمير ـ السيّد المطاع ـ مالِكُ الشيءِ أو مستحقّه (فرَبُّ كلّ شيءٍ مَالكُهُ أَوْ مستحقّه) ـ المدبِّر ـ القيّم ـ المنعم ـ الْمُصْلِح للشيء ـ المنمّي للشيء» إلىٰ غير هذه المعاني ممّا يشبهها ويدخُل ضِمْن المفهوم العامّ للتربية.

ولمّا كانت التربية الحقيقية لكلّ شيءٍ في الوجود سوى الله عزّ وجلّ، سواءً بخلقه ابتداءً أم بمتابعة بقائه وإمداده ورعايته وتنميته دواماً صفة من صفات الله عزّ وجلَّ كان جلّ جلالُه هُوَ رَبَّ العالمين، ورَبَّ كلّ شيء.

ولهذا جاء وصْفُهُ في القرآن المجيد بأنه: «رَبُّ العالمين ـ ورَبُّ كلّ شيء ـ ورَبُّ السماوات والأرض ـ ورَبُّ السماوات السَّبْع وربُّ العرش العظيم ـ ورَبُّ الشِّعْرَىٰ (= نجم كان يُعْبَدُ في الجاهليّة) ـ ورَبّ المشرق والمغرب ـ وربُّ المشرِقَيْن والمغربين ـ وربُّ المشارق والمغارب ـ وربُّ الْفَلَق ـ ورَبُّ الناس ـ ورَبُّ البيت (أي: الكعبة المشرفة) ـ».

فالرُّبوبيّة هي الوصف الجامع لكلّ صفات الله ذات العلاقة والأثر في مخلوقاته، واسم «الرّب» هو الاسم الدّل على كلّ هذه الصفات.

وكلمة «العالمين» تُحْمَلُ هنا على كلّ ذي إدْراكٍ وفَهْمٍ وعقْلٍ، فيدخل في العالمين الإنس والجنّ والملائكة، ولا مانع من تخصيصها هنا بالإنس والجنّ الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان.

العالَمُون: جمع مفرده «الْعَالَم» بفتح اللاّم، وكلمةُ «عَالَم» تُطْلَق على كلّ موجودٍ سُوىٰ الله عزّ وجلّ، وهو مأخُوذٌ من «الْعَلَم» و «الْعَلاَمَة» بمعنى الشيء الذي يوضَعُ ليكون دالاً على شيءٍ آخر، كالأعلام الّتي تُوضَع للدّلالة عن الطُّرُق، أو حُدُودِ الأرض، أو غير ذلك.

وقد دلّ الفكر على أنّ كلّ ما سوى الله عزّ وجلّ من كائنات هي

مخلوقاتٌ دالأتٌ على خالقها، وعلىٰ جُمْلَةٍ من صفاته الْحُسْنَىٰ، فهي آياتٌ وعلاماتٌ دالأتٌ عليه، فكان من المناسب أنْ يُطْلق على ما سوىٰ الله عزّ وجلّ لفظةُ «عَالَم».

وإذا أردنا أن نجمع لفظة «عَالَم» بمعْنَىٰ أجناس وأنواع وأصناف الموجودات سوىٰ الله عزّ وجلّ قلنا: «عوالم» بصيغة جَمْعٍ لغير العقلاء.

وإذا أردنا أن نجمع لفظة «عالَم» بمعنى أنواع الموجودات الحيّة العاقلة، قلنا: «عالمون» بصيغة جمع العقلاء.

وقد اختلفت أقوال المفسرين في تفسير لفظة «العالمين» في القرآن.

● فمنهم من قال: كلّ موجود سِوَى الله.

● ومنهم من قال: هُمْ كلُّ من يعقل.

● وقال ابن عباس: هم الجنّ والإنس فقط، لأنّهم هم الذين بُعِثَ رسولُ الله ﷺ إليهم، ورُوي عنه في قول الله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ كُلُّ الخلْق.

وهنا نلاحظ أنّ الله جلّ جلاله قد اختار بعلمه وحكمته لعَمَليّات خلقه وإبداعه لمخلوقاته، وهيمنته على كلِّ ما خَلَق بدْءاً وَدَواماً، أن يكون على نظام التّربية التي سبَق شرح معانيها، لا على نظام الخلْق دُفْعَةً واحدة، ثمّ تركِ المخلوقِ يَسِير وفق البرنامج الموضوع له، دون إمداد ورعاية وحفظٍ وتعَهُّدٍ من خالقه، بل خلق الخلْقَ وفق نظامٍ لا يستغني فيه المخلوقُ عن خالقه طرْفَةَ عَيْن، ولا أقلَّ من ذلك، في كلّ صغيرٍ وكبيرٍ من ذاته ومن صفاته، فلو رفع الله عزّ وجلّ إمداده عن كونه، ورفع إمْسَاكَهُ له في الوجود خِلال أقصر زمن لعَادَتِ الموجوداتُ إلى أصْلها وهو العدم، هذا النظامُ هو نظامُ التَّربية.

فللّهِ عزّ وجلّ الرُّبوبيّة المستمرّةُ الّتي لا تنقطع، والمؤثرة بكلّ شيءٍ في الكونِ، من غيبيٍّ ومشهود، ماديٍّ ومعنويّ.

فلا تأخذه سبحانه سِنَةٌ ولا نوم، ولا يخرج عن عِلْمِه وهيمنته وسلطانه وكلّ عناصر ربوبيته صَغِيرٌ في الوجود مهما صَغُر، وكبيرٌ مهما عظُمَ وكَبُر.

وفي عبارة ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ اعترافٌ وإعلانٌ ضمني عن طائفة من صفات الله وأسمائه الحسنى، ذوات العلاقة بالعالمين ذوي العلم والعقل.

ويلزم من كونه ربَّهم وهو العليم الحكيم الذي يفعل ما يشاء ويختار، أن يكون قد خلقهم بصفاتهم الّتي هم عليها، ليبلوهم في ظروف الحياة الدنيا، ثمّ ليجازيهم بعد رحلة امتحانهم في حياة أخرى تكون في يَوْمٍ آخَرَ غيرِ يَوْمِ الحياة الأولى، وهذا اليوم الآخر من المناسب أَنْ يُطْلَقَ عليه عنوان «يَوْم الدِّين» أي: يوم الحساب وفصلِ القضاء وتنفيذ الجزاء.

ثم إنّ الابتلاء يقتضي أن يرحم الله الممتَحَنِين بإنزال موادِّ امتحانهم، وبعث الرُّسل لهم، وإنزال الكتب لهدايتهم، ومعاملتهم بالتيسير ورفع الحرج، والعَفْوِ والغفران، فجاء قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

الرَّحْمٰن: صفة مُشَبَّهةٌ مأخوذةٌ من الرَّحمة، وهي مَبْنِيّة على وزن «فَعْلَان» للمبالغة، أي: لإرادة التعبير عن عظيم رحمته البالغة الغاية.

قالوا: وهذا الاسم من أسماء الله الحسنىٰ خاصٌّ بالله تعالىٰ، فلا يُسْتَعْمَلُ في وصف غيره، فأشبه أن يكون علماً.

ومعنى الرحمة في المخلوق رِقّةٌ في القلْب تدفع الرّاحم إلى الإحسان والإنعام والمشاركة الوجدانية لذي حاجةٍ أو ألم استثارها.

أمّا الرّحمة بالنسبة إلى الخالق جلَّ وعلا فهي صفة من صفاته النّفسيّة على ما يَلِيقُ بجلاله، ومن آثارها الإنعام والإكرام.

وهل لفظ «رَحْمٰن» مصروفٌ أو غيرُ مصروف؟.

فيه قولان، ومال السَّعْدُ التفتازاني إلى جواز الأمْرَيْن فيه.

الرَّحِيم: صفةٌ مشبَّهَةٌ أيضاً مأخوذة من الرحمة، وهي مَبْنِيَّةٌ على وزن «فَعِيل» وهو من صيغ المبالغة أيضاً، لكنّ لفظ «رَحْمَان» أكثر حروفاً من لفظ «رَحِيم» ومن مقرّرات أئمة اللّغة العربيّة أنّ زيادة المبنىٰ تدُلُّ على زيادة المعنىٰ.

وجاء الجمع بين الرحمٰن والرَّحِيم لأمور، وفيما يظهر لنا منها ما يلي:

(١) تأكيدُ الثناء على الله عزّ وجلّ بصفة رحمته وآثارها في عباده.

(٢) الاسترحام والإشارَةُ إلى الطَّمع الشّديد بإنعام الله وإكرامه وإحسانه واستدرار فيوض عطاءاته، وهذا ما يُشْعِرُ به جَمْع أسماء الله الحسنىٰ المشتقة من الرحمة، قبل إعلان أنّه مَالِكُ يوم الدّين، اليوم الّذي يحتاج فيه العباد إلى عَفْو الله وغفرانه وفَيْضِ مِنَّتِه بإدخالهم جنَّاتِ النعيم دون حسابٍ أو بحِسَابٍ يَسِير، فالْمستَرْحِم من شأنه أن يستقصِيَ كلّ أوصاف الثناء الّتي تدلُّ على الرحمة الواسعة التي يتصف بها من يوجِّه له استرحامه.

(٣) الإشارة إلى رحمته بإرسال خاتم المرسلين الذي أرسله رحمةً للعالمين، وإلىٰ رحمته بإنزال القرآن الذي هو من مظاهر رحمته بهم، ورحمته بما اصطفى لعباده من الدّين الذي اشتمل على ما يُصْلِح دُنْيَاهم وأخراهم، ويكون لمن اتّبعه سبباً لسعادته الأبَدِيّة في الجنّة دَارِ رحْمَتِه العظمىٰ.

(٤) الإشارة إلى شُمول رحمته جلائل النِّعَم ودقائقَها الَّتي يتفضّل بها علىٰ عباده في الدنيا والآخرة.

وأرى أنّ صيغة «الرحمن» تستعمل غالباً في القرآن للدلالة على شمول رحمته تعالى المؤمنين والكافرين، وصيغة «الرحيم» تستعمل غالباً للدّلالة على خصوص رحمته تعالى المؤمنين، وممّا يدلُّ على هذا أنّ صيغة «رحيم» جاءت في القرآن مقترنة بعبارة «غَفُور» والمغفرةُ لا تكونُ إلاّ لمن آمَنَ، وهذا تخصيص في الاصطلاح القرآني.

وعلى هذا تكون صيغة «رَحْمان» أكثر شمولاً للأفراد المرحومين، وتكونُ صيغة «رحيم» خاصّة برحمة الله للمؤمنين، والجمع بينهما يكون على طريقة التخصيص بعد التعميم، والله أعلم.

● ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

﴿مَـٰلِكِ﴾: قراءةُ عاصم، والكسائي، ويعقوب، وخلَفٌ في اختياره.

مَلِكِ: قِراءة باقي القرّاء العشرة.

لفظ «مَالِكِ» هو من المِلْكِ بكسر الميم بمعنىٰ صاحب حقّ التصرّف بالشيء، فمالِكُ الدراهم والدنانير هو صاحب حقّ التصرّف بها، ومالك البيت هو صاحب حقّ التصرّف بسُكْناه، وبَيْعه، وهِبَتِه، وتأجيره، وغير ذلك من تصرّفات، ومالِكُ الثوب هو صاحب حق التصرّف باستعماله وبيعه وهبته وغير ذلك من تصرّفات، وهكذا.

واللَّهُ عزَّ وجلَّ هو مَالِكُ يَوْمِ الدِّين، أي: هو مالِكُ كلِّ شيء في يوم الدِّين مِلْكاً تامًّا بالاستقلال الكامل، فلا يُشارِكه في التصرُّف بأَيّ شيءٍ أَحَدٌ، ولاَ على سبيلِ التمكِينِ والتسخيرِ مِنْه، لأنّ كلَّ حَيٍّ كانَ ذا إرَادَةٍ في الحياة الدّنيا، وكان يَمْلِكُ بِالتَّسْخِير الرَّبّاني أن يَتَصَرَّف بما حوله بعض تصرّفات، يَكُونُ يوم الدِّين عَاجِزاً تماماً عن أنْ يتصرّفَ بقدراته أيَّ تصَرُّف، إذْ يَسْلُبُ اللَّهُ الأَشْياءَ المطاوَعَةَ إلاّ لِقُدرَتِه ومشيئته.

أُطْلِقَ «الْيَوْمُ» وهو الزمن وأُرِيدَ بِهِ كلّ شيءٍ فيه ماديٍّ أو مَعْنَوِيّ، فالْمِلْكُ يَوْمَ الدِّين للَّهِ وحْدَه.

والمراد بلفظ «الدِّينِ» هُنَا الجزاءُ والمكافأة، وظاهر أنّ تنفيذ الجزاء يستلزم قبلَهُ تَسْلِيمَ كتاب الأعمال، والمحاسبة عليها، أو عَرْضَها، وفَصْلَ القضاء، فجاء الاستغناء بلفظ «الدين» عن كلّ الأمور الّتي يقتضيها الجزاء بالعدل أو بالفضل.

فمالِكُ يوم الدّين هو مالِكُ يوم الجزاء، وهو يومُ قيام الأموات عند بعثهم إلى الحياة الأخرىٰ، للحساب وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء بالعدل أو بالفضل.

ولفظ «مَلِك» هو من الْمُلْكِ بضم الميم، وهو حقّ التصرّف في كلّ شيء بالأمْرِ والنهي، والْمَلِكُ في الناس هو الذي له حقُّ التصرف بإدارة شؤون مملكته بالأمر والنّهْيّ، وعلى الّذِين هم في دائرة مُلْكه طاعَتُه وتَنْفِيذُ أوامره ونواهيه.

ولمَّا كان كلُّ شيءٍ يوْمَ الدِّين خاضعاً لسلطان اللَّهِ عزّ وجلّ وحده، وخاضعاً لأمره ونهيه وكلّ تصرُّفاته، إذْ لاَ يجعلُ اللَّهُ يَوْمَئِذٍ لأَحَدٍ سُلْطاناً ولا حُكْماً ولا أمراً ولا نهياً، حتَّىٰ الشفاعة لا تكون يومئذ إلاّ بإذنه، كانَ وحْدَهُ هُوَ الْمَلِكَ باطناً وظاهراً على وجه الحقيقة التامّة.

فجاءت القراءتان «مَالِكِ يَوْمِ الدِّين» و «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ» مُتَكَامِلَتَيْنِ في أداء المعنَىٰ الْمُرَادِ بَيَانُه والتعبيرُ عنه.

فهو سبحانه يومئذٍ الْمَلِكُ على كُلّ شَيْءٍ بسُلْطَانِهِ العظيم، لا مُشَارِكَ لَهُ في مُلْكه ولو على سبيل المشاركة الصوريّة.

وهو سبحانه يومئذٍ الْمَالِكُ لكلّ شيءٍ، لا مشاركَ له في مِلْكِه (بكَسْرِ الميم) ولو على سبيل المشاركة الصورية.

ويومئذٍ يظهر لكلّ الخلائق كمال ربوبيّة الله لكلّ شيء، وهو الواحد الأحد، لا يشاركه في رُبُوبِيَّتِهِ ولا في إلَهيته أحد.

وجاء بيان هذا في قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

وهكذا اشتملت هذه الآيات الثلاث من سورة الفاتحة على أهَمّ الكليّاتِ التي تعبّر عن توحيد الربوبية والإلَهية لله، وعن حكمة خلق الإنسان في الحياة الدنيا للابتلاء، تَمهيداً لمحاسبته وفصل القضاء بشأنه ومجازاته يوم الدين.

ثانياً: تَدَبُّر ما تَحتَ العنوان الثاني من الكليّات الكبرىٰ للسورة:

قال الله عزّ وجلّ:

- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾.

سبق تثبيت أُمّهات القضايا المتعلّقة بتوحيد ربوبيّة الله عزّ وجلّ، المستلزمة لتوحيد إلَهيّته، وبيان رحمته بعباده المستلزمة لاصطفاء الدّين لهم، وبيان كون الله عزّ وجلّ هو مالِك يوم الدين ومَلِكهُ، المستلزم لكون الله قد خلق الناس ليبلُوهم في ظروف الحياة الدنيا، ثمّ ليُحاسِبَهم ويجازيهم على ما كان منهم تجاه مطلوب الله منهم في رحلة الحياة الدنيا، وهو تحقُّقهم بعبوديتهم لربّهم، إيماناً بالحقّ المطلوب منهم أن يؤمنوا به، وإعلاناً لإسلامهم لله وطاعتهم لأوامره ونواهيه.

وبعد تثبيت هذه القضايا في وَمَضَات مُوجَزات تمتدُّ أنوارُها إلى فروعها في آفاق الفكر والنفس، والّتي تدخل تحت عنوان «الإيمان باللّهِ واليوم الآخر»

يقضي الواجب أنْ يتوجّه العبْدُ لربّه فيناجيه بإفراده بالعبادَةِ، وإفراده بالاستعانة في كلِّ أمْرٍ من أموره، وفي كلِّ عَمَلٍ من أعماله الظّاهرة والباطنة الجسديّة والنفسيّة، حتَّىٰ فيما يقوم به من عبادةٍ لربّه، لأنّه لا حول ولا قُوّة إلاّ بالله، فيقول خطاباً لربّه، ومُلْتَفِتاً إليه بعد الحديث عنه بضمير الغائب:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

﴿إِيَّاكَ﴾ ضمير منفصل منصوبٌ على أنّه مفعولٌ به لفعل ﴿نَعْبُدُ﴾ متقدِّمٌ عليه لإفادة الْحَصْرِ والتَّخْصِيص، بالدّلالة على إفراد الله عزّ وجلّ بالعبادة، والتبرُّؤِ من كُلِّ شِرْك فيها.

فمن أغراض تقديم المعمول على عامله إرادةُ التخصيص والْحَصْر كما هو مقرّر لدى علماء البلاغة.

وعبادةُ الله وحده لا شريك له هو جوهر توحيد الألوهيّة، أي: العبادة لله.

وعبادة الله وحده هي حقُّ الله على عباده، ومطلوبه منهم في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، وهو الذي يتوقف عليه استحقاقهم دُخُولَ جِنَّتِه يوم الدّين خالدين فيها أَبَداً.

العبادةُ في مفهوم الدّين الرّبّانيّ الحقّ: سلوكٌ إراديٌّ نَفْسِيٌّ، أو ظاهر ذو دوافعَ باطِنة، يُقْصَدُ به أداءُ ما يحبُّ الرّبّ عزّ وجلّ من مربوبيه وما يُرْضِيه منهم ويقرّبهم إليه.

ويدخل فيها الإيمان وأعمال القلب والنفس الإراديّة، وأعمال الجوارح الظاهرة من الأفعال والتروك[1].

---

(١) انظر شرح العبادة في المقولة الأولى من الفصل السابع من كتاب «ابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة» للمؤلف.

ثمّ إنّ الاستطاعة الّتي مكّن الله عباده من توجيهها للمُسَخَّرات في الكون، إنّما تكون بإمداد الله لهم بها، في حركة متجدّدة مع تتابع الزّمن على وفق مشيئته، كالطاقة الكهربائية الّتي تتوقّف آثارُها متىٰ انقطع الإمدادُ بها.

فالعبْدُ لا يستطيع بنفسه أن يقوم بأيّ عمل ظاهر أو باطن إلاّ إذا أمَدَّهُ الله عزّ وجلّ بطاقة العمل وأعانه على القيام به.

ولمّا كان واقع حال العبد المخلوق كذلك كان عليه أنْ يُعْلِن لربّه حاجته الدائمة إلى معونته وحْدَه، وأن يُعْلِنَ أنّه لا يستعين في أيّ أمْرٍ من أموره استعانة حقيقيّةً إلاّ به، مؤمناً بهذه الحقيقةِ من الحقائق الّتي يجب على العباد أن يُؤْمنوا بها، ومتبرّئاً من حَوْلِه وقوّته، ومتبرّئاً منْ معونة أيّة قُوّة غيبيّة في الوجود سوى ربّه جلّ جلاله، فيخاطبُه قائلاً: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: ولا نستعين إلاّ بِكَ، والسين في نستعين للطلب، أي: نطلب الاستعانة بك.

وفي التعبير بنون الجماعة في فِعْلَيْ: ﴿نَعْبُدُ﴾ و ﴿نَسْتَعِينُ﴾ يُلاحِظُ الْعَبْدُ أنّه واحِدٌ من الأمّةِ الرّبّانيّة المؤمنة العابِدَةِ لربّها، لا تُشْرِكُ بعبادته أحداً، فهو يقولُ معها في مخاطَبَةِ الله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ وفي هذا تعْميقٌ لمعْنَىٰ الجماعَةِ الرَّبَّانِيّة الواحدة، في قلْبِ كلِّ مُؤْمنٍ مسلم لله جلّ جلاله، مُنْذُ نشأة الخليقة وإلَى أن يرث اللّهُ الأرض ومن عليها، وتَرِثَ هٰذِه الأمّةُ جنّاتِ النعيم.

وفي قول الْعَبْد لربّه في صلاته وغيرها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ مع ملاحظته لمضمون هذا القول وإيمانه به، يتخلّصُ من الشّرْكِ كلّه، من الشّرْكِ في رُبُوبيّةِ اللّهِ، ومِنَ الشّركِ في إلَهِيَّتِه، ومن الشّرك في عبادة غيْره معه.

ثالثاً: تدبّر ما تحت العنوان الثالث من الكليّات الكبرىٰ للسورة:

قال الله عزّ وجلّ:

- ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾.

تمهيد:

إنّ عبادةَ الله وحْدَه والاستعانةَ به وحْدَه قياماً بحقّ ربوبيّته وحقّ إلٰهيّته، كما جاء في دلالة الآية (٥) ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ تَسْتلْزِمُ عقلاً أن يسْعَىٰ العابدُ لربّه إلى معرفة الأعمال النفسيّة والجسدِيّة الّتي تُرْضِي ربّه في عبادته له، حتّىٰ لاَ يَعْمَل عَملاً يُسْخِطُه وهو يحسَبُ أنّه يُحْسِنُ صنعاً.

ومعظم أعمال العبادة بعد الإيمان بالله والإسلام له لا يستطيع الرّاغب فيها أَنْ يتوصّل إلى معرفتها عن طريق عقله وتصوّراته لما يُرْضِي رَبَّهُ منه.

فَكَان لا بُدَّ لَهُ مِنْ أنْ يَدْعُو ربَّه سائلاً أن يَهْدِيَه إلَيْهَا، بالبيانِ وبالتوفيق إلى أدائها، لكنّه يُدْركُ ببصيرته الإيمانية أنّ برنامج هٰذه الأعمال لا يكونُ إلاّ على صراط مستقيم جليّ واضح لا عِوَجَ فيه ولا عثرات، لأنّ الله عزّ وجلّ عليم حكيم لا يُرضيه من عباده في عبادتهم له إلاّ ما فيه خيرهم وسعادتهم في عاجل أمرهم وآجلِه، وظاهرٌ أنّ تحقيق الخير والسعادة العاجلة والآجلَة لا يكون إلاّ بسُلوك الصراط المستقيم الواضح الجلِيّ المضيء الذي لا شرّ فيه ولا ظلمات.

وبما أنّ العباد عاجزون عن تحديد هذا الصراط بكلّ عناصره، كان لا بُدَّ أنْ يَسْأَلُوا رَبّهم أنْ يهدِيَهُمْ إليه، بما يُنَزِّلُ لِهدايتهم مُعَلّماً من شرائع وأحكامٍ ونصائح ووصايا وبيانات، وحِكْمَةُ الله جلّ جلالُه في هذا التنزيل اقتضتَ أن يُنَزِّلَها على رسولٍ مصطفى لحمل رسالات الله لعباده.

وهم محتاجون في سلوكهم الصراطَ المستقيم إلى معونة من الله بالتوفيق، وبإيجاد الدافع إلى سلوكه، ويَدْخُلُ هذا في عموم طَلَب الهداية إليه من الله.

وحين تكون هذه الحقيقة حاضرةً في تصوُّر العبد المؤمن الحريص على أن يعبُد الله بما يُرْضيه من عباده، وهو يَعْلَمُ أنّه واحِدٌ من الأمّة الرّبّانيّةِ المؤمنَةِ المسلمة، الّتي يحرص كلّ فردٍ من أفرادها على أن يعبُدَ ربّه بما يُرْضيه، فإنّه يَدْعو رَبّه شاعراً بمشاركَتِه لكلّ فَرْدٍ من أفرادها فيما تَدْعُو رَبَّها به، فيقول:

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾.

التدبر التحليلي للآية:

● ﴿ٱهْدِنَا﴾: أيْ: أَعْلِمْنَا وأَرْشِدْنَا وَدُلَّنَا، ووفقنا أيضاً وأوْجِدْ لدينا الوازع والدّافع لنا، وصيغة: «اهْدِنَا» أمْرٌ مُسْتَعْمَلٌ في الدّعاء.

يُقَالُ لُغَةً: هَداهُ الطّرِيقَ، وهَداهُ إليه، وهَدَاهُ لَهُ، إذا أعلمه به، وأرشدَهُ إليه، ودلّه علَيْه.

وقد يُسْتَعْملُ فعل «هَدَاه» بمعنى وفَّقَهُ، وبمعنىٰ أوْجَد لدَيْه الدّافِعَ لالتزام الْهُدَىٰ والعمل به، وهذا من التوسُّع في دلالة اللفظ.

وقد يستعمل فعل «هَدَاهُ» بمعنى وَجَدَهُ مَهْدِيًّا فَنَسَبَهُ إِلَىٰ الْهُدَىٰ، أو حَكَمَ له بأنّه ذو هِدَايَةٍ، ولكن هذا المعنى غير مرادٍ هنا.

● ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾: وجاء في القراءات المتواترات كما سبَقَ نُطْقُ الصاد سيناً «سِرَاط» ونُطْقُها مشمومة زاياً «الظّراط».

والصراطُ: هو الطريق الواضح الجليُّ، وقيل: سُمِّيَ سِرَاطاً لأنّه يَسْتَرِطُ سالكيه، أي: يبتلِعُهم بِيُسْرٍ وسهولة دون حاجة إلى تزاحم.

وجاء إطلاق لفظ «الصراط» على الشرائع، والأحكام، والنصائح، والوصايا، وسائر البيانات الدينيّة، المتعلّقة بسلوك العباد الباطن والظاهر في الحياة الدنيا، عبادَةً لربِّهِم، على سبيل الاستعارة القائمة على تشبيه البرنامج الموصل إلى السعادة الّتي هي أَجَلُّ مقاصد أولي الألباب بالصراط الموصل إلى الغاية المطلوبة للسالكين في أسفارهم، وتنقلاتهم في حواضرهم وبواديهم.

ومعلومٌ أنّ الحياة الدنيا إنما هي بمثابة رحلة مُسَافِرٍ إلى الدار الآخرة، دار الحياة الباقية الخالدة، دار القرار.

● ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: جاء لفظ «المستقيم» وصفاً للصراط الذي يدعو العبد المؤمن المسلِمُ رَبَّه أنْ يهديه إِلَيْهِ تعليماً وتوفيقاً ودَفْعاً ووَزْعاً.

المستقيم: هو الذي لا عِوَجَ فيه ولا انحراف عن الحقّ والخير وما هو الأفضل والأَحْسَنُ والأَصْلح.

والصراطُ المستقيم أَقْرَبُ مَسْلَكٍ مُوصلٍ بين مبدأٍ وغايَة.

وقد اصطفىٰ الله لعباده الدِّين بشرائعه وأحكامه وبياناته وتعليماته، فهو لهم الصراطُ المستقيم، فمن التزم به في سلوكه في الحياة الدنيا، نَالَ السعادةَ والنجاحَ والفلاحَ، وظَفِرَ يوْمَ الدِّين بجنّاتِ النعيم، وكانت درجته فيها على مقدار التزامه به ارتقاءً، والالتزامُ الأكمل به يوصل بفضل الله إلى درجَات مرتبة الفردوس الأعلى.

والصراط المستقيم هو الصراط الذي اختاره الله لِنَفْسِه في مُجْرَيات مَقَادِيرِه وشرائِعِهِ وما اصطفاه لعبادِه مِنَ الّدِين، ومنَ الصراط المستقيم ما كان عليه رسولُ الله محمّد ﷺ والمرسَلُون والأنبياء من قبله، وهو الذي التزم بسلوكه الذّين أنعم الله عليهم من النبيّين والصّدّيقين والشهداء والصالحين، وهو الصراط الذي أوصَىٰ الله عباده بالتزام سلوكه في كلِّ الرِّسَالاَت التي أَرْسَلَ رُسُله لتبليغها للناس.

فمن شاء أَنْ يكونَ من حِزْب الله عزّ وجلّ، متابعاً موكب الرُّسُل والأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، فعلَيْه أن يَعْرِفَ صِرَاط الله المستقيم ممّا أنزل على رسوله الخاتم، وأن يلتزم سُلوكَهُ ما استطاع إلَىٰ ذلك سبيلاً.

❁ ❁ ❁

رابعاً: تدبر ما تحت العنوان الرابع من الكليّات الكبرىٰ للسُّورة:

قال الله عزّ وجلّ:

• ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

تمهيد:

المؤمن المسلم الّذي أعْلَن أنّه يَعْبُد ربّه وَحْدَه، ويستعين به وحْدَه، ولا يُشْرك بربّه شيئاً في العبادة ولا في الاستعانة، والذي سأل ربّه داعياً أنْ يهديه الصراط المستقيم الذي يُوصِلُه إلى مرضاة الله وإلى جنّات النّعيم بفضل الله عليه، لا بُدّ أنْ يشعُر بأنّه فَرْدٌ يتابع مسيرته في الحياة الدنيا على صراط الأمّة الرّبّانيّة الواحدة، في موكبها المتواصل منذ عهد آدم عليه السلام، ولا بدّ أن يشْعُر بأنّ هذه الأمّة هي الأمّة التي أنعم الله عليها فوفقها إلى سلوك صراط ربّها المستقيم، وأنعم عليها فجعلها بفضله مَجْزِيَّةً على إيمانها وإسلامها وصالحاتِ أعمالها بجنّاتِ النّعيم يوْمَ الدّين، وبرضوانه العظيم.

وإذْ يشْعُر هذا الشعُورَ المريح المُسْعِدَ لقلْبه، فمن شَأْنِه أن يُلْقِيَ نظرةً عامّةً على تاريخ الموضوعين في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الابتلاء، فيدرك أنّهم أقسام رئيسيَّةٌ كُبْرَىٰ ثلاثة، على فروعها وزُمَرِهَا وفُرَقَائِها:

القسم الأول: وهو القسم الناجي السعيد، وينضوي تحته الذين عرفوا ربَّهم أنّه الحقّ، فآمنوا به، واتّبعوا رضوانه مسلمين، فهم المؤمنون المسلمون الّذين اختاروا لأنفسهم بالإيمان والإسلام لله عزّ وجلّ أن يَسْلكوا صراطَه المستقيم على امتداده، بعد أن دخلوا أوائله بالإيمان والإسلام والتوجّه لِلّه بالعبادة والاستعانة مُوَحِّدين غيْرَ مُشْرِكين.

وموكبُ هذا القسم على أرتاله المتتابعات يقودُهُ المرسلون فالنَّبِيّون، فأَئمّة المتّقين، من الصّدّيقين والشهداء والصالحين.

وأفرادُ هذا القسم قد أنْعَمَ اللَّهُ عليهم بَعْد صِدْقهم في طَلَبِ الحقّ، وسُلُوكِ صراطِ الْهُدَىٰ، صِرَاط الله المستقيم، بالتوفيق والمعونَة والهداية في متابعة مسيرتهم، والْحُكْم لَهُمْ بأَنَّهُمْ مَهْدِيُّون، وبأنّهم من أصحاب جنّاتِ النّعيم يوْمَ الدِّين.

القسم الثاني: وهو القسم المعاند للحقّ الرَّبّانيّ، المستَحِقُّ غضَبَ الله عليه، بسبب عِنَادِه ورَفْضِه الاعتراف بهذا الحقّ، والإذْعانَ له، ورَفْضِه اتِّبَاعَ مرضاة الله.

وأفرادُ هذا القسم قد عرفوا أصولَ الدِّين أوْ أُمَّهَاتِها معرفةً ذهنيّةً فكريّة، لكنّهم لم يُؤْمِنُوا بها إيماناً إراديّاً اختياريّاً قَلْبِيّاً، بل عاندوها، فرفضوا الإيمانَ الإراديَّ بالحقّ الذي جاء به رُسُلُ الله، واستنكَفُوا عَنْ أن يكونوا عبيداً لله باختيارهم، يَتَّبِعُونَ رضوانه، ويُطيعُونه في أوامره ونواهيه، فاستحقُّوا بسبب عنادهم واستنكافهم عن عبادة ربّهم أن يَغْضَبَ الله عليهم، ويَجْزيَهُم بعذابٍ شديد خالدٍ في قاع الجحيم.

وفي هذا القسم طوائفُ وفِرَقٌ وزُمَرٌ كثيرة.

القسم الثالث: وهو القسم الضّالّ السائر في متاهات الضلالة، ملتزمين تَقَالِيدَهم على غير بصيرة، تعصُّباً للقوم أو الآباء والأجداد، أو للجماعة

الّتي يَنْتَمُون إليها، أو هم يَتَّبِعُون أهواءَهم وشهواتهم ومطالِبَهُمْ من الحياة الدنيا، غَيْرَ مُسْتَخدمين أدوات المعرفة الّتي وهبهم الله إيَّاها فيما خُلِقَتْ لَهُ، بل استخدمُوها في تحقيق رغباتهم من الحياة الدنيا فقط، فلَمْ يُوَجِّهوا أنفسهم لأن يَسْعَوا إلى معرفَةِ مَنْ خلَقَهُمْ، ولا إلى مطلوبه منهم، ولا إلى الحكمة من إيجادهم، ولا إلى المصير الذي هم إليه صائرون، فاستحقُّوا أنْ يُوصَفُوا بأنّهم ضَالُّون.

وأفراد هذا القسم الضالّ ينقسمون إلى فِرَقٍ متعدّدة:

(١) فريقٌ وَجَدُوا من يَدْعوهم إلى معرفة أصول الدين الحق، ومعرفة مطلوب رَبّهم منهم في رحلة الحياة الدنيا، فأعرضوا ولم يكترثوا للدعوة ولم يَعْبَؤوا بها، ولم يُكَلِّفُوا أنفسهم التفكُّرَ في آيات الله في كَوْنِه، ولم يَتدبَّرُوا آياته المنَزَّلاَت، إيثاراً لاتّباع ما كان علَيْه قَوْمُهُمْ أو آباؤهم وأجدادهم أو جماعتهم الّتي ينتَمُون إليها، بتقليد أعْمَىٰ.

فهم ضالُّون اسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ والظُّلُمَات، وآثروهما على الْبَصَرِ والنُّورِ والْهُدى، فَهُم بإراداتهم الحرَّة قد اختاروا لأنفسهم البقاء في الْجَهَالة والضَّلالة.

وأفراد هذا الفريق مسؤولون عن اختيارهم البقاءَ في الجهالة وفي الضلالة، فهم خارجون حتماً عن دائرة من أنعم الله عليهم، فلا يَسْتَحقُّون دُخُول الجنَّةِ مع أصحابها، بل يستحقّون دخُولَ دار العذاب، وأن يذُوقَ كلّ واحدٍ منهم فيها من العذاب على مقدار ما لدَيْهِ من قُوَّةِ إعْرَاض عنْ دَعْوَة الحقّ الّتي وُجِهتْ له.

(٢) وفَرِيق عاشوا في حياتهم الدّنيا كالأنْعَام السَّائمة، ولم يجدوا من يدعوهم إلى معرفة أصول الدّين الحقّ، ومعرفةِ مطلوب ربّهم منهم في رحلة الحياة الدنيا، إلاّ أنّ عقولهم توصَّلَتْ إلَىٰ معرفة أنّ لهذا الكون رَبًّا

خالقاً، وأَنَّ من حَقِّهِ عليهم أَنْ يؤمنوا به وأن يعبدوه عبادةً ما، لكنَّهم آثَرُوا اتِّباع أهوائهم وشهواتهم من الحياة الدّنيا، فلَمْ يُتَابعوا البحث، لئلَّا يَشْعُرُوا بالإِثْم تُجاهَه، إِذا طَغَوْا وبَغَوْا وظَلَمُوا.

وأفراد هذا الفريق مسْؤُولُونَ عمّا تَوَصَّلَتْ إليه عقولُهُم، ومسؤولون عن إهمالهم مُتَابعةَ الْبَحْثِ لِئَلاَّ يكُفَّهُمُ الإيمانُ بربّهم والخوفُ من عقوبته عَنْ تحقيق رغباتِ نُفُوسِهم بالظُّلم والعدوان.

وهؤلاء يدخلون في عُمُومِ الضالّين، وعليهم من المسؤوليّة بمقدار حالة نفوسهم الّتي جعلتهم يُهْمِلُون مُتَابَعةَ البحث الذي فتح الله لهم فيه أَبوابَهُ الأولى، فالْمُسْتَحِقُّ منهم أَنْ يُدْخِله الله يوم الدّين دار العذاب أدخله، ولا يظلم اللَّهُ عزَّ وجلَّ أحداً.

(٣) وفريق لم يجدوا من يدعوهم إلى معرفة أصول الدين الحقّ، ومعرفة مطلوب الله منهم في رحلة الحياة الدنيا، ولم يتفكّروا في آيات اللَّهِ في الكون ولا في أنفسهم، ولم يتوصَّلُوا بأنفسهم إلى معرفة ربّهم، ولا إلى معرفة أيِّ واجبٍ عليهم تُجَاهَه، بل عاشوا في حياتهم الدُّنيا كالأنعام السّائمة، أو الوحوش الهائمة.

وهؤلاء يدخلون أيضاً في عموم الضالّين، وقد جاء بشأنهم في السنَّة أنّ الله عزّ وجلّ يُجْرِي لهم نَوْعَ اخِتيَارٍ قبل أن يَقْضِي بشأنهم، ليكْشِفَ حقيقةَ نفوسهم، فمن اجتاز هذا الاختبارَ بنجاح أدْخَلَه جنَّته، ومن سقط فيه أدخله دار العذاب، واللَّهُ أعلم، ونحن نعْلَمُ بيقينٍ أنّ الله لا يظلم أحداً مثقالَ ذرّةٍ ولا أصْغَرَ من ذلك، وأنّ فضله على عباده عظيم، وأنّ رحمته واسعة، وسِعَتْ كلَّ شيْءٍ.

وفي سورة «الفاتحة» يُعَلِّم اللَّهُ عزّ وجلّ المؤمنَ المسلم العابد لرَبّه أن ينظر هذه النظرةَ إلى تاريخ الموضوعين مثْلَه موضع الامتحان في ظرف الحياة الدنيا، وأَنْ يُلاحظ أنّهم على ثلاثة أقسام رئيسيّة:

● قِسْمٌ أنعم الله عليهم، على مراتبهم ودرجاتهم.

● وقسمٌ غضب الله عليهم على منازلهم ودركاتهم.

● وقسم ضالّون على اختلاف عوامل ضلالهم، واختلاف زُمَرِهِمْ وفِئاتهم.

فجاء فيها بيانُ أن الصراط المستقيمَ هو صِراط الذين أنعم الله علَيْهم، وأنّ هؤلاء الذين أنعم الله عليهم مُغَايِرُون مغايَرَةً تامّة كلّيّة للّذين غضب اللّهُ عليهم، ومُغَايرون أيضاً لِفرَقِ الضّالين، فيقول المؤمن المسلم العابد لربّه في ختام السورة:

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

التدبر التحليلي للآية (٧):

● ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: بَدلٌ من ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ في الآية السابقة، أو عطف بيان. والغرض إضافة وصْفٍ جديد للصراط غير كونه مستقيماً، أي: وهو الصراط الذي اختار سُلُوكه المؤمنون المسلمون الّذين أنعم الله عليهم بالهداية إليه، والتوفيقِ والمعونة حتّىٰ سَلكُوه، ثمّ أنعَمَ عليهم بالحكم لهم بأنهم مَهْدِيُّونَ فائِزُون، وفي مقدّمتهم النبيُّون والصدّيقون والشهداء والصالحون وأئمة المتقين.

● ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: يقالُ لغةً: أَنْعَمَ عَلَيْهِ يُنْعِمُ إنْعَاماً، أي: أفْضَلَ وزَادَ، ومَنَحَهُ شيئاً نفيساً مِمَّا يُحبُّ. والنِّعْمَةُ تأتي اسماً للإنعام.

وألفاظُ «النِّعْمَةِ والنَّعْمَاءِ والنُّعْمَىٰ» تُطْلَقُ في اللّغة على الدَّعَةِ والْمَالِ وخَفْضِ العيْشِ والرَّفَاهِيَة وأَسْبَابِها، ضدّ البأْسَاءِ والبؤْسَىٰ، وتُطْلَقُ على المِنَّةِ والعطِيَّةِ السّارَّة.

ونِعَمُ الله على عبَادِه كثيرةٌ لا يستطيعون إحصاءها، ومنها السَّمْعُ والبصَرُ والرزق.

والنِّعْمَةُ بمعناها الشامل تُطْلَقُ على كلّ ما فيه نَفْعٌ وخَيْرٌ ماديٌّ أو معنويٌّ للدُّنيا أو للآخرة.

فمن نعم الله الجليلة علىٰ عباده ما يلي:

- الفكر الْمُدْرِك للمعارف.
- الإرادة الممكَّنَةُ من حرّيّة الاختيار.
- الحواسُّ الظاهرة والباطنة، والرزق والصحة وكلّ الأسباب التي تجْلُبُ نفعاً وخيراً.
- تسخير المسخَّرات في الكون، كالشمس والقمر والنجوم والبحار والأنهار والجبال واللّيل والنهار والأنعام والمراكب وغيرها.
- الدِّينُ الذي اصطفاه الله لعباده.
- بعْثُ الرُّسُل الأكرمين، وفي خاتمتهم سيدنا محمّد ﷺ.
- إنزال القرآن الحاوي لما فيه هداية البشر، وإرشادُهم إلى صراط سعادتهم العاجلة والآجلة.
- ما أعدَّ الله للمؤمنين المتقين من جنّات النعيم، يدخلونها يوم الدين بفضل الله ورحمته بهم ومنها عفْوُه وغفرانُه.

إطلاق لفظ النعمة في القرآن على الرسالة وعلى الدين:

وقد جاء في القرآن الكريم إطلاق لفظ «النِّعْمَة» على الرّسالة وعلى الدّين، فقال الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول):

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾.

أي: ما أنت بالنبوّة، والرّسالة، والدِّينِ الذي حمَّلَك ربُّك رسالة تبليغه للناس، والقرآنِ المجيد، بمجنون.

وقال عزّ وجلّ له في سورة (الضُّحَىٰ/ ٩٢ مصحف/ ١١ نزول):

﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾.

أي: فبلِّغ ما يُنَزِّلُ الله عليْكَ من الدِّين بأسلوب الحديث الهادئ.

وقال تعالى في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) خطاباً لأمة محمد ﷺ بعد أن أنزل على رسوله أواخر الأحكام الدينيّة:

﴿... ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ...﴾.

وجاء في القرآن إطلاق لفظ «النِّعْمَةِ» على ما سخّر الله للناس في كونه من مسخّرات، ومنه قول الله عزّ وجلّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝٣١﴾.

وجاء في القرآن إطلاقُ لفظ «النِّعْمَة» على ما تفضَّل به الله على يونُس عليه السلام بعد أن لفظه الحوت على الشاطئ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول) بشأنه:

﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ۝٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾.

وجاء في القرآن إطلاق لفظ «النِّعْمَةِ» على ما يتفضّل الله به على عباده من دخول الجنَّة، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/

٥٦ نزول) حكايةً لقول المؤمن في الجنّة يخاطبُ رجلاً من أصحاب النار وهو في النار وقد كان قريناً له في الدنيا، وكان يحاول إغراءه بأن يكْفُر بيوم الدّين:

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: ولولا نعْمَةُ اللّهِ عليَّ بالتوفيق إلى الإيمان، وبالعفو والغفران لكُنتُ مَعَكَ من الْمُحْضَرِين في الجحيم.

● ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: «غيرِ» بدل من «الّذِينَ» في عبارة ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وهو بدلُ مجرور من مجرور.

المغضوب عليهم: هُمُ الَّذينَ أنزل الله عليهم غَضَبَه، بسبب كفرهم وعِنَادهم وإصْرَارِهم على الباطلِ ورفضِ الحق الدّيني، وهم يَعْلَمُون أنَّهم مُبْطِلُون.

الغضب: عند أهل اللّغة: هو ضِدُّ الرّضَىٰ، ويكون الغضب محموداً إذا كان من أجل الدّين والحقّ، ويكون مذموماً إذا كان بغير حَقٍّ أو من أجل هوى النفس ودوافعها السيئة.

والْغَضَب في النّاس انفعالٌ نفسيٌّ يستثيره فِعْلٌ مكروهٌ لَدَيْهَا، ومن آثاره الرَّغبةُ في الانتقام ممَّن فَعَل المَكْرُوه.

أمَّا غَضَبُ الله على مستحِقّيه من عباده فهو صفة من صفات الله عزّ وجلّ على ما يليق به سبحانَه، ومن آثاره العقوبة العادلة والانتقامُ بالحقّ.

● ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾: جيء بحرف النفي «لاَ» لتأكيد معنَى النَّفي

الّذي دلَّتْ عليه لفظة «غير» في عبارة: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ فهي بمثابة لفظة «غير» أي: غَيْرِ المغضوب عليهم وغَيْرِ الضالِّينَ. والحكمة من التصريح بالنفي إلى جانب الضالّين الدّلالة على أنَّ قِسْمَ الضّالّين قِسْمٌ قائمٌ بذاته غَيْرُ قسم المغضوب عليهم.

الضلال في اللُّغَةِ: ضِدُّ الهُدىٰ والرَّشاد، ويَأْتي بمعنىٰ الجهل بالشيء، وبمعنى الضَّيَاع، وبمعنى النّسْيَان.

● فخالي الذهن من معرفة الشَّيءِ يُقال بشأنه: هو ضالٌّ، أي: جاهل، ويُعْذَرُ بجَهْلِه، إلاَّ إذَا دُعِيَ إلَىٰ معرفة الحقِّ كطريق آمن موصل إلى الغاية فلم يَسْتَجِبْ، فإنّه يكون غير مَعْذُورٍ بجهله وضلاله.

● والباحث عن معرفة الشيءِ الذي لم يهتَدِ إليه يقالُ بشأنه: هو ضالٌّ، أي: ضائع، ويُعْذَرُ بضياعه، إلاّ إذا دُعِيَ إلى معرفة ما يَبْحَثُ عنه فرفَضَ دَعْوَة الداعي، ولم يلْتفِتْ إلى دعوته ولا إلى ما يُقدِّمُه من أدلّة إذا كان الأمْرُ يحتاجُ أدلّة إثبات أو نَفْي.

● والنَّاسِي الذي لم يكُنْ منهُ إهْمالٌ مقصودٌ هو ضالٌّ معذور بضلاله، أي: بنسيانه.

● أمّا الضّالُّ عن الطريقِ الجائرُ بإرادته اتّباعاً لأهوائه وشهواته ونزعات نفسه ونزغاتها، فإنَّه مُكابرٌ مُعَانِدٌ للحقّ من الدرجة القصوىٰ، ويستَحِقُّ أشَدَّ العقاب، ومن هذا الفريق علماء اليهود المكذبون للقرآن عناداً.

● وأمّا الْمُعْرِضُ عن دَعْوَة الداعي إلى الحقّ وإلى سبيل النَّجاة والوصول إلى الغاية السعيدة، والسائِرُ في متاهاته على غير هُدىً، فإنَّهُ ضَالٌّ غير مَعْذُورٍ في ضلاله، وهو مَغْرُورٌ معانِدٌ لمعرفة الْحَقّ، راضٍ بما هو فيه من ضَلاَلَةٍ وجهالة، وهو يحسب أنّه على الحقّ وأنّه يُحْسِنُ صُنْعاً، فَجُرْمُهُ دون

جُرْم المعانِدِ للحقّ من الدرجة القصوى، ويَسْتَحِقُّ من العقاب دون عقابه، ومن هذا الفريق جماهير كثيرةٌ من النصارىٰ الضالّين التائهين الذين يُعْرِضون عن دَعْوَةِ من يدعوهم إلى الإسلام والْعَمَلِ بما جاءَ به خاتم المرسلين.

وقد جاءت عدّة روايات عن النّبي ﷺ أنّه فَسَّرَ المغضوب عليهم باليهود، وفسَّرَ الضَّالّين بالنّصارىٰ، وهذا فيما أرىٰ تَفْسِيرُ تَمْثِيلٍ، لا تفسير تخصيصٍ وتعيين، فحالُ اليهود حال من عرف الحقّ الذي جاء به رسول الله ﷺ، فرفض اتّباعه مكابرةً وعناداً، فقد أَبَانَ الله عزّ وجلّ أنّ اليهود في المدينة قد عرفوا صِدْقَ الرسول محمّد ﷺ وصِدْقَ رسالته، إلاّ أنّهم كابروا وعاندوا بغياً من عند أنفسهم، وهذا مَحْمُولٌ على علمائهم والعارفين منهم.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بشأنهم:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

وحال جماهير النّصارىٰ حال من أعرض عن الإصغاء إلى دعوة الحقّ، فظلَّ ضَالاً في متاهته وهو يحسَبُ أنّه يُحْسِنُ صنعاً.

إلاّ أنّ حال بعض النصارىٰ كحال علماء اليهود، عرفوا الحقّ الذي جاء به محمد ﷺ والذي اشتمل عليه القرآن، ولم يتَّبِعُوه اتّباعاً لأهوائهم وشهواتهم ومصالحهم الدنيويّة، فهم من المغضوب عليهم.

وحالُ بَعْضِ جهلة اليهود كحال جماهير النصارىٰ الضالّين التائهين، الذين يَحْسَبُون أنّهم على الحقّ، فلا يَلْتَفتون إلى الدعوة إلى الإسلام، ولا يُصْغُون إلى بياناتها.

ومن غير اليهود والنصارىٰ من هم مغضوبٌ عليهم ومن هم ضالُّون، والنصّ القرآنيُّ يشْمَلُهُمْ بِعُمُومه، وتصنيفهم يكون بحَسَب أحوالهم.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر سورة (الفاتحة) على ما فتح الله به عليّ، وأعتقد أنّ للسورة أبعاداً وأعماقاً لم يَصِلْ إليها هذا التَّدَبُّر.

❁ ❁ ❁

ملاحق لتدبّر سورة الفاتحة

الملحق الأول: حول كلمة: «آمين» بعد تلاوة الفاتحة.

الملحق الثاني: بلاغيّات في السورة.

الملحق الثالث: وجوب تلاوة سورة الفاتحة في الصلوات.

الملحق الرابع: تدبّر الآيات التي جاء فيها لفظ الصراط ونحوه، وهي: «السبيل ـ الطريق ـ المنهاج ـ الصراط».

(٦)
الملحق الأول
حول كلمة: «آمين» بعد تلاوة الفاتحة

آمِينَ: كلمة تُقال عَقِب الدّعاء، ومعناها اللَّهُمّ اسْتَجِب. ويُقالُ: أمَّنَ فلانٌ تأميناً أي: قال بعد الفراغ من تلاوة الفاتحة، أو الفراغ من دُعَاءٍ: آمين.

وهي كلمةٌ مبنيّة على الفتح مثل: أَيْنَ وكَيْفَ، وفيها لغتان، تقولُ العربُ: آمِينَ بمَدِّ الهمزة، وهي الأكثر، ومنه قول عُمَر بن أبي ربيعة:

يَا رَبِّ لاَ تَسْلُبَنِّي حُبَّهَا أَبَداً ... وَيَرْحَمُ اللَّهُ عَبْداً قَالَ آمِينَا

وتقولُ أيضاً: أَمِينَ، دون مدِّ الهمزة، ومنه ما أنشده ابنُ بَرِّي لشاعرٍ:

سَقَىٰ اللَّهُ حَيًّا بَيْنَ صَارَةَ والْحِمَىٰ
حِمَىٰ فَيْدَ صَوبَ الْمُدْجِنَاتِ الْمَواطِرِ[1]

---

(١) صَارَة وحِمَىٰ فَيْد: اسمان لموضعين. الْمُدْجِنَات: السُّحُبُ المَجلِّلةُ للأرض وأقطار السماء، الحاملة للماء. المَوَاطِر: التي تُمْطِرُ، جمع «ماطرة».

أَمِـيـنَ وَرَدَّ الـلَّـهُ رَكْـباً إِلَـيْـهِـمُ بِـخَـيْـرٍ وَوَقَّـاهُـمْ حِـمَـامَ الْـمَـقَـادِرِ[١]

والسنَّةُ الصحيحة الصريحة الثابتة تواتراً قد دلّت على مشروعيّة التأمين عَقِب الانتهاء من تلاوة الفاتحة فمنها ما يلي:

(١) أخرج أحمد وأبو داود والترمذي عن وائل بن حُجْر قال: «سمعتُ رسول الله ﷺ قرأ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقالَ: آمين مدَّ بِهَا صَوْتَه».

ولأبي داود: «رَفَعَ بِها صَوْتَه».

قال الترمذي: حديث حسن، وأخرجه أيضاً النَّسائي وابن أبي شيبة وابْن ماجه والحاكم وصحّحه.

(٢) وأخرج وكيع وابن أبي شيبة عن أبي مَيْسَرَة قال:

«لمَّا أَقْرَأَ جبريلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَاتِحَةَ الكتَاب فَبَلَغَ ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قَالَ: قُلْ: آمِينَ، فقال: آمِينَ».

(٣) وأخرج ابن ماجه عن عليّ رضي الله عنه قال:

«سمعْتُ رسول الله ﷺ إذا قال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: آمِينَ».

(٤) وأخرج مسلم وأبو داود والنسائي وابْنُ ماجه عن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا قَـرَأَ (يـعْـنـي الإمـام): ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولُوا: آمِينَ يُحِبّكُمُ اللَّهُ».

(٥) وأخرج البخاريُّ ومُسْلِمٌ وأحمد وأصحابُ السُّنَن وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) **حِمَامُ المقادر**: قضاء الْمَوْتِ الذي تقضي به المقادير.

«إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُوا فإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلاَئِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

وقال ابن شهاب: وكان رسول الله ﷺ يقول: «آمِين».

وفي رواية عند البخاري ومسلم:

«إِذَا قالَ أَحَدُكُمْ: آمين، وقَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ في السَّمَاءِ: آمِينَ، فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».



(٧)
الملحق الثاني
ممّا جاء في سورة الفاتحة من بلاغيات ما يلي:

(١) التسلسل في التعبير من الأعم إلى الأخصّ فالأخص في عبارات متتابعات:

● فعبارة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تضمّنت إثباتَ كلّ صفات ذات الله وأفعاله وثناءً على الله بها.

● وعبارة: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تضمَّنَتْ إثباتَ كلّ صفات رُبوبيّة الله لخلقه، وثناء على الله بها، وهي أخصّ من كلّ صفات الله عزّ وجل.

● وعبارة: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تضمّنَتْ إثباتَ كلِّ صفات رحمته وثناءً على الله بها، ومنها أنّه الرّزاق الفتاح الرّؤوف المغني النافع الهادي العفوّ الغفور البرّ التوّاب، وهذه أخصّ من صفات ربوبيته، جلّ جلاله.

● وجاءت عبارة: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ أو (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) أخصّ من عبارة: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنّ هذه تَعُمُّ الدّنيا والآخرة.

(٢) الالتفاتُ البديع في عبارة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ فقد كان الكلامُ قبلَها جارياً على أسلوب ضمير الغائب في الثناء على الله، فالتفت إلى أسلوب ضمير الخطاب له جلّ جلاله.

(٣) إفادة التخصيص والحصر بتقديم المعمول على عامله في آية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ أي: ما نَعْبُدُ غيرك، ولا نستعين غيرك، ولو تأخرَ المعمُولُ على عامله لمَا حصلت هذه الإفادة، وتكون العبارة في التأخير: «نَعْبُدُكَ ونسْتَعينُكَ» إذ الضمير المنفصل يتحوّل فيكون ضميراً متصلاً.

(٤) صيغة الأمر في عبارة: (إهْدِنَا) مستعملةٌ بمعنى الدعاء لأنها من العبد لربّه.



(٨)

الملحق الثالث
وجوب تلاوة الفاتحة في الصلاة

● ذهب جمهور الفقهاء المجتهدين من المسلمين إلى أنّ تلاوة الفاتحة واجبة في كلّ ركعة من ركعات الصلاة، خلال ركن الوقوف منها، بالنسبة إلى من قدر على تلاوتها سواءٌ أكان إماماً أمْ منفرداً، وأنّ الركعة لا تحتسب من ركعات صلاة المصلّي دون تلاوتها إلاّ المسبوق، فقد رأوا أنّ الإمام يتحمّل عنه ما لم يستطيع تلاوته منها، حتىٰ لو أدركه راكعاً فركع معه بعد تكبيرة الإحرام قبل أن يرفع الإمام من الركوع فإنّ الركعة تُحْتَسَبُ له، وتردّد في هذه بعض المتأخرين.

● وذهب قليل من الفقهاء ومنهم الحنفيّة إلى أنّه لا تشترط لصحة الصلاة تلاوةُ الفاتحة، بل تجزئ المصلّيَ تلاوةُ ما تيسّر من القرآن، ولو من

غير الفاتحة، إلاّ أنه يكون قد ترك واجباً ليس شرطاً في صحة الصلاة، وهذا على ما ذهب إليه الأحناف من التفريق بين الفرض والواجب.

واستدل الجمهور لما ذهبوا إليه بما يلي:

(١) روى البخاريّ ومسلم وأحمد وغيرهم عن عبادة بْنِ الصامت رضي الله عنه، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرأ بفاتِحَةِ الكِتَابِ».

(٢) وروى مسلم عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال:

«مَنْ صَلَّىٰ صَلاَةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ، فَهِيَ خِدَاجٌ، فَهِيَ خِدَاجٌ، غَيْرُ تَمامٍ».

فقيل لأبي هريرة: إنّا نَكُونُ وراءَ الإمام؟ فقال: إقرأْ بِها في نَفْسِكَ.

الْخِدَاجُ: النقصان، يقال لغة: خدَجَتِ النّاقة، إذا ألقت ولدها قبل أوان النّتاج.

(٣) قال ابن كثير في تفسيره: وفي صحيح ابن خزيمة عن أبي هريرة مرفوعاً:

«لاَ تُجْزِئُ صَلاَةُ مَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِأُمِّ الْقُرْآن».

فالأحاديث هذه صريحة في الدّلالة على ما ذهب إليه جمهور الفقهاء المجتهدين.

واستدلّ الحنفيّة لما ذَهَبُوا إليه بعموم قول الله عزَّ وجلّ في سورة (المزّمّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول):

﴿. . . فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ . . .﴾.

الآية الّتي منها هذه الفقرة من التنزيل المَدنيّ الذي ضُمَّ إلى سورة هي من أوائل التنزيل المكي.

قَالُوا: وهذا في الصلاة، وما يتيسّر من القرآن يصْدُقُ بآياتٍ منه ولو كانت من غير الفاتحة، فتجزئ القراءة بها، ويُحْمَل ما جاء في الأحاديث على الوجوب فقط، لا على كون تلاوة الفاتحة شرطاً لصحّة الصلاة، وهذا على أصلهم من أنّ أحاديث الآحاد لا تَنْسَخُ مَا جاء في القرآن المتواتر، وهي مسألة خلافيّة مدوّنة في علم أصول الفقه.

أقول:

إنّ قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ قَدْ جاء في العهد المدني تخفيفاً على الرسول ﷺ وعلى من كان قد ألزم نفسه من الصحابة بأن يعمل مثل عمله في إيجاب قيام اللّيْل عليه، الذي أوجبه الله عليه منذ أوائل العهد المكيّ، بقوله له كما جاء في أوّل السورة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾.

والمرادُ من قيام اللّيل الصّلاةُ فيه من غَيْرِ الفرائض الخمس.

وقَدْ جَاءَ التعبيرُ في العهد المدني بقول الله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ كنايةَ عَنِ الصلاة في اللّيلِ من غيرِ الفريضةِ إشعاراً بأنّ تلاوة القرآن في الصّلاةِ هي من أَهَمّ عناصِرِها، فالمعنى: فصَلُّوا في اللّيل ما يتيسَّرُ لَكُمْ، وأدنى المتيسّر ركعتان، وهذا على الوجوب بالنسبة إلى الرسول ﷺ، أمَّا غيرُهُ مِنَ الْمُسْلِمِين فهو على النّدب.

وحَمْلُ قولِ اللّهِ تعالَىٰ: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ عَلَىٰ قيام اللّيْلِ هو فَهْمُ جُمهورِ المفسّرين والفقهاء، على أنّ ظاهر اللّفظ يدُلُّ على الاكتفاء بتلاوة ما تيسّر من القرآن في قيام اللّيْلِ ولو في غير الصّلاة.

وعلى ما ذهب إليه الجمهور من أنّ العبارة كناية عن الصّلاة في اللّيل فليس فيها دليلٌ واضح الدلالة على أنّه يجزئ تلاوةُ ما تيسّر من القرآن في

الصلاة من غير فاتحة الكتاب لمن هو قادرٌ على تلاوتها، فدلالة هذا النصّ المتواتر على أصْلِ المسألة المتنازع فيها دلالة احتماليّة، فلا ينطبق عليها قاعدةُ الحنفيَّةِ من أنَّ أحاديث الآحاد لا تَنْسَخُ ما جاء في القرآن المتواتر، فالمعنى الاحتمالي في النصّ المتواتر وليس متواتِراً، فلا يستقيمُ أن يُطبِّقَ عليه الحنفيّة أصْلَهم، من أنّ المتواتر لاَ يُنْسَخُ بالآحاد.

فالحقّ في هذه المسألة هو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء المجتهدين من المسلمين، من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، عملاً بما ثبت في السُّنة، والله أعلم.



(٩)
الملحق الرابع
نظرات تدبّرية حول الآيات
الّتي جاء فيها لفظ الصراط ونحوه في القرآن

لدى استقراء كلمات: «الصراط ـ الطريق ـ السبيل ـ المنهاج» في القرآن مع سَبْر معاني الآيات الّتي وردت فيها بتدَبّر تبيّن لي أنّه لم تُسْتَعْمَلْ هذه الكلمات في القرآن بمعنىٰ الدّين الذي اصطفاه الله لعباده، الشامل لأصوله وشرائعه وأحكامه وبياناته وتعليماته ووصاياه، إلاّ بالإفراد، للدَّلالة على أنّ صراط الله أو طريقه أو سبيله أو منهاجه الذي اصطفاه لعباده واحد، لا تعدُّد فيه.

ولهذا أمر الله عزَّ وجلَّ في قَضِيّة الدِّين باتّباعِ سَبِيله الواحدة غير المتعدِّدة، ولاَ يُؤَثِّر على وحْدَةِ سبيلِ الله التغييرُ في بعض أحكام التكاليف العمليّة في رسالات الرُّسُل، أَوْ رسَالَةِ الرَّسُول الواحد، فهذا التغيير يُشْبِهُ تَغْيِيرَ حركةِ السَّيْرِ على الطريق الواحد، ما بين مَشْيٍ هادئ، أو مشيٍ

سريع، أو سَعْيٍ بِهِمَّة، أو ركُوبٍ على مَرْكوبٍ مَا يَنْتَقِلُ براكبه على الطريق الواحد، في نهارٍ أو لَيْلٍ، أو أيِّ جزءٍ من أجزائهما، إلى غير ذلك من احتمالاتٍ لا يَخْتَلِفُ بها السبيلُ نَفْسُه، وإنّما تختلف بها حركة السَّيْر.
والغَرضُ من التغيير في بعض التكاليف امتحانُ ما لدى الموضوعين موضع الامتحان في الحياة الدنيا من استجابة بالطاعة لأوامِرِ الرَّبِّ الْمعبُودِ ونواهيه، أو عدم استجابة.

وصراطُ الله ذو مراحلَ، فَمَنْ سَلَكَ مَهْدِيًا في مرحلةٍ أولى منه، فهو بحاجة إلى متابعة ما بعدها على هُدَىٰ، وهكذا في كلّ المراحل التاليات حتى آخر حياته، إذ يلْقَى ربَّهُ وهو ملتزم سلوك صراطه المستقيم، أو تائب راجع إلى الالتزام به.

● فكلّ ما جاء في القرآن من مادّة «صراط» قد جاء مفرداً، ولم يأتِ مجموعاً في أيّ نصّ قرآني.

● وجاء من مادة «منهاج» مرّة واحدةً فقط، وقد جاءت بالإفراد.

● وجاء من مادة «طريق» بالإفراد إذا كان بمعنى شرائع الدين وأحكامه، أمّا ما جاء منها مجموعاً فقد جاء بلفظ «طرائق» بمعنى طرقات مادّية، أو بمعنىٰ سُبُل الضلال.

● أمّا مادّة «سَبِيل» فنلاحظ في القرآن أنّ كلَّ النصوص التي يتضمّن السِّبَاق أو السِّيَاقُ فيها أن المراد شرائع الدين وأحكامه فقد جاء فيها اللّفظ بالإفراد.

وكلّ ما جاء في القرآن من مادّة «سبيل» مجموعاً فقد جاء للدلالة على سُبُل الأَرْض، أو سُبُلِ الرّزق، أو سُبُل السلامة والنجاة في الدنيا، أو سُبُل الضلالة، ونحوها.

❁ ❁ ❁

أولاً: نظرات تدبّريّة حول ما جاء في النُّصوص القرآنيّة من مادَّة «سَبيل»:

(١) قال الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) في حكاية حوار جرىٰ بين فرعون وموسىٰ عليه السّلام:

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾.

فجاء لفظ «السُّبُلِ» في هذا النصّ وهو جَمْعُ «سَبِيلٍ» لأنّ المقصود سبُلُ الأرْضِ المختلفة الموصلة إلى ما يُرِيدُ النّاسُ الوصول إليه من نواحي الأرض المتباعدة والمختَلِفة، والّتي لا تُوصِلُ إليها سبيلٌ واحدة.

❁ ❁ ❁

(٢) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) يُعَلِّم رَسُولَهُ محمّداً ﷺ بعض ما يقوله للناس، ومنه أنْ يقول لهم:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

وصراط الرَّسُولِ ﷺ هو صراط الله الذي وصّىٰ الناس بأن يَسْلكوه ليتَّقُوا بسلوكهم إيّاهُ عذابَه يومَ الدِّين، مع مَا يتقون من عذابٍ آخر مُعَجَّل قَدْ يُنْزِلُهُ اللَّهُ بالذين يسلكون السُّبُل الأخرى المتفرّقة.

فدلّ هذا النصّ على أنّ الله عزّ وجلّ أمَرَ باتّباع سبيله، وهي سبيل واحدة، ونَهَىٰ عن اتباع السُّبُلِ الأخرى، لأنّ مَنْ سَلَكَ شيئاً مِنْها تفرَّقَ وابْتَعَد عن سبيل الله، وسار في المتاهات المهلكات ذاتَ اليمين أو ذاتَ الشِّمال.

وهذا نصٌّ قاطعٌ واضحُ الدلالةِ على أنّ سبيل الله وهو الدِّين الذي اصطفاه لعباده سبيلٌ واحدة، لا تعدُّدَ فيها.

❁ ❁ ❁

(٣) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول) مبيّناً بعض آيات نعْمَتِهِ على الناس:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾.

أي: وجعلَ لَكُمْ في الأرضِ سُبُلاً مختلفة كثيرة تَسْلُكُونَها لتحقيق مطالبكم من الحياة الدنيا، وتَصِلُون بسلوكها إلى غاياتٍ لكُمْ فيها فوائد ومنافع، وفي هذه السُّبُل المختلفة آياتٌ على طائفة من صفات الخالق العليم الحكيم الرحيم بعباده، فمن أدركها باحثاً عن الحقّ اهتدىٰ إلى الإيمان به جلّ جلاله، ثمّ إلَىٰ الإيمان بكتابه ورسوله واليوم الآخر.

❁ ❁ ❁

(٤) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) مُبَيِّناً أيضاً بَعْضَ آياتِ نِعَمِه على عباده، الّتي تَهْدِي من تفكّر فيها إلى الإيمان به وبكمال صفاته وبرسوله وكتابه:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: وأَلْقَىٰ في الأرض جبالاً رواسي لئلّا تَمِيدَ قِشْرَةُ الأرض بالنّاس.

يقال لغة: مَادَ الشّيْءُ يَمِيدُ إذا تحرَّكَ واضطرَب.

وجعل فيها أنهاراً لسُقْيا الناس والأنعام والمزارع، وجَعَلَ فيها سُبُلاً مختلفة كثيرة يسلُكُهَا النّاس للوصول إلى غاياتهم وتحقيق مطالبهم من الحياة الدنيا، فهي سبُلٌ دُنْيويَّة.

فمن تفكر في هذه الآيات الربَّانيّة باحثاً عن دلالاتها المعنوية اهتدىٰ إلى الإيمان.

❁ ❁ ❁

(٥) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) أيضاً:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

السُّبُلُ المذَلَّلَة الّتي هيّأها الرَّبُّ جلَّ جلالُهُ في جَوِّ الأرض للنَّحل، حتّىٰ تسلُكها طيراناً بأجنحتها لتَصِلَ إلى رحيق الأزهار، ثم تعود إلى بيوتها، فتأوي إليها وتعمل في صناعة العسل، هي سُبُلٌ دُنيويّة، ولهذا جاء اللّفظ بالجمع.

❁ ❁ ❁

(٦) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول) في حكاية مقالات نوحٍ عليه السلام لقومه وهو يَدْعُوهم إلى الإيمان بالله وعبادته وحده:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

سُبُلاً فِجَاجاً: أي: طُرُقاً واسعة.

فالله بمنّتِهِ على الناس في الأرض جعل لهم الأرض ذات مساحات

منبسطة ممتدة، كالبساط، ولم يجعلها جميعاً جبالاً كظهر القنفذ. وفي هذه المساحات المنبسطات الواسعات يتخذ الناس لأنفسهم فيها طُرُقاً واسعة يَسْلُكونها للوصول إلى غاياتٍ لهم يُحَقِّقون فيها مصالح لهم ومنافع يرجونها، ومطالب لمعاشهم.

❁ ❁ ❁

(٧) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) في حكاية بعض مقالات الرُّسُل السّابقين لأقوامهم:

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾.

هذا النصّ يتحدَّثُ عن أنواع الضغوط الآثمة الظالمة، وأنواع الأذىٰ، الّتي كانَ يتَعَرَّضُ لها الرُّسُلُ مِنْ قِبَلِ الكافِرين الطغاة من أقوامهم، والّتي جَعَلَتِ الرُّسُل عليهم السلام يُعْلِنُونَ تَوَكُّلَهُمْ على الله جلّ جلاله، ويُعْلِنُون أَنَّه لا داعِيَ يدعُوهُمْ إلى اليأس من النجاة من ظلم الكافرين لهم، وقد هداهم الله سُبُلَهُمْ لتحقيق نجاتهم من أن يَتَعَرَّضوا للهلاك بأيدي الكافرين، أمّا الأذىٰ الذي لا يَصِلُ إلى حَدِّ القتل فهم يَصْبِرُونَ عليه، قياماً بواجب تبليغ دِينِ الله للناس.

ولَيْسَ وارداً في عبارة الرُّسُل: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ في هذا النصّ أن يكون المراد سُبُلَ الدّين، فسبيل الله الدّيني لجميع الرُّسُل سبيلٌ واحدةٌ لا تعدُّدَ فيها، لكنَّهَا هُنَا سُبُلُ النجاة من القتل بأيْدِي أعدائهم الكافرين،

وهي السُّبُل المختلفةُ الّتي هداهم الله إلى سُلوكها للخلاص من تهديد أعدائهم لهم بالقتل، والقرينة على هذا توكُّلُهُمْ على الله.

❁ ❁ ❁

(٨) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾.

كانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا: الرَّتْقُ: الالتئامُ بين الشيئَيْنِ وتلاصقهما. **والفتق**: ضدُّ الرّتْق.

فدلّ هذا النصُّ على أنّ السّمَاوات والأرض كانت في مرحَلَةٍ منْ مراحِلِ الْخَلْقِ السّابق ملتئمةَ الأجرام متلاصقة، ثمّ قسّمَها الله جَلّ جلاله وباعَدَ بين الأقسام، فكانت الأرض، وكانت الكواكب والنجوم في السماء.

وجَعَلْنَا فِيها فِجَاجاً سُبُلاً: أي: وجعلنا في الأرض طُرُقاً واسعةً يتخذها النّاسُ سُبُلاً للوصول إلى غاياتٍ يحقّقون فيها مطالب لهم في معايشهم.

❁ ❁ ❁

(٩) قول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) وهي من أواخر التنزيل المكيّ:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

من الواضح أنّ الجهاد المرادَ في هٰذه الآية هو جهادُ المقاومة لضُغُوط أعداء الإسلام من المشركين، وجهاد الصَّبْر، وجهاد اتخاذ السُّبُلِ للهجرة والفرار بالدّين.

وفي هذه الآية إشارة ضمنيّةٌ للضعفاء الَّذِين فُتِنُوا في دينهم أَنْ يَتَّخذوا أيَّ سبيلٍ، ليتخلَّصُوا بالهجرة من ضغوط الكافرين ذوي السلطان والجبروتِ في مكّة، فإذا فَعَلُوا ذلِكَ بإِحْسَانٍ وَتصرُّفٍ حكيم، هداهُمُ الله عزّ وجلّ إلى سبُلِ نجاتهم وسلامتهم، وإنَّ الله لَمَعَ المحسنين بالمعونة والتوفيق والتأييد والنَّصْر، أمَّا الَّذِين لا يُحْسِنُونَ التصرُّف، فيتحرَّكُونَ لتحقيق غاياتهم تحرّكاً أهوج طائشاً، ولا يتّخذون الشّروط السببيَّة الملائمة، فإنّ الله عزّ وجلّ لم يَعِدْهُمْ بأن يكون معهم.

ويقع كثيرٌ من المؤمنين ذوي السّذَاجة والجهْلِ بمفهومات الدّين، في غلَطٍ فاحِشٍ حِيالَ هذه الحقيقة، فَيُسِيئُونَ التصرُّف، ولاَ يتَّخذون الشروط السببيّة الملائمة المطلوبة، ثمّ يطالبون الله عزّ وجلّ بأن يكون معهم حامياً وناصراً، تصوُّراً منهم أنَّ الإحسان في العمل بمفهوم الدّين قاصرٌ على جوانب خاصَّةَ تتعلَّقُ بالعبادات المحضة، ولا ينطلقون مع الأبعاد الكاملة لقول الرسول ﷺ في تعريف الإحسان:

«أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

وأنّ العبادة لِلَّه تشْمَلُ كلَّ سُلُوكِ الإنسان في الحياة الدنيا، وأنّ الجهاد في سبيل الله من أعظم العبادات وأكثرها تحقيقاً لمرضاته.

ويغفلونَ عن قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح:

«إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ».

فالله عزّ وجلّ يُعَلِّم المؤمنين في هٰذهِ الآية من سورة (العنكبوت) أنْ يكونوا محسنين في اتّخاذ الأسباب المناسبة للهجرة من بَلَدٍ يُفْتَنُونَ فيه بدينهم، حتَّىٰ يكون معهم ساتراً وحافظاً وناصراً.

وقد ضرب الرسول ﷺ في سلوكه المثل الكامل في اتّخاذ الوسائل السببيَّةِ على أَحْسَنِ وجْهٍ لدى هجرته من مكة إلى المدينة، حينَ أذن الله له بالهجرة.

إنّ الله عزّ وجلّ يكون مع الّذِين يُحْسِنُونَ التَّصَرُّفَ في أعمالهم ويُتْقِنُونَها، ولا يكون مع المتساهلين، ولا المتهاونين، ولا الفوضويين، ولا الّذِينَ لا يُتْقِنُونَ أعْمَالَهُمْ، ولا يتخذون أفضل الوسائل لما يبتغون من خَيْر.

وغير وارد إطلاقاً تفسير السُّبل في قول الله عزّ وجلّ في هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ بالسُّبُلِ الدينيّة، لأنّ سبيل اللّهِ في الدّين سبيلٌ واحدة، بلْ هي سُبُلُ سَلاَمتِهِمْ ونجاتِهِمْ وَخلاصهم مِنْ أعدائهم في الحياة الدنيا، ومنها سُبُلُ هِجْرَةٍ آمِنَةٍ، مَعَها تأْمِينُ سبُلِ الرّزق والمعاش.

وهكذا تنسجم هذه الآية مع سائر النصوص القرآنية انسجاماً تامًّا.

❁ ❁ ❁

(١٠) قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) خطاباً لأهل الكتاب:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾.

سُبُلَ السَّلاَم: أي: طُرُقَ الأَمْنِ والنَّجاةِ في أمور دنياهم، ولكَيْلاَ نَفْهَمَ أَنَّها سُبُلٌ في الدِّين قالَ اللّهُ عزّ وجلَّ في آخر النّصّ:

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

فثبت من استقراء النّصوصِ الواردة حول مادّة «سَبيل» مَعَ سَبْرِ معانيها بالتدبّر أنّ سبيل اللّهِ في الدِّين واحدةٌ لا تعَدُّدَ فيها.

❁ ❁ ❁

ثانياً: نظراتٌ تدبّرية حول ما جاء في القرآن من مادّة «طريق»:

كلّ ما جاء في القرآن من مادّة: «طريق» مراداً به الدّين الذي اصطفاه اللَّهُ لعباده قد جاء مفرداً، وهي ثلاثة نصوص:

النصّ الأول: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الجن/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول) في معرض الحديث عن طائفة من الجنّ استمعوا القرآن من الرّسُول ﷺ فآمنوا به:

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾:

على الطريقة: أي: على صراط الله المستقيم، فجاءت الطريقة بالإفراد.

غَدَقاً: أي: غامراً كثيراً.

عَذَاباً صَعَداً: أَيْ: عذاباً شديداً شاقًّا.

❁ ❁ ❁

النصّ الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) حكاية لمقالة بعض مؤمني الجنّ الذين سمعوا القرآن من الرسول ﷺ فآمنوا به، ودَعَوْا قومهم إلى الإيمان:

﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

فجاء في هذا النصّ التعبير عن دين الله لعباده بعبارة: ﴿طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بالإفراد.

النصّ الثالث: قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

وجاء في القرآن التعبير بعبارة: ﴿طَرَآئِقَ﴾ جمع «طريقة» وهي مؤنث «طريق» دلالة على الطرائق المختلفة لكفرة الجنّ، وعلى الطرائق السَّبْعِ الّتي تَجْرِي فيها نجوم السماوات السَّبع.

فلا شيء في القرآن من مادّة «طريق» قد جاء مجموعاً بمعنى الدِّين الذي اصطفاه الله لعباده.

وبقي علينا استعراض النُّصوص التي جاءت فيها مادَّتَا «منهاج وصراط» بشيءٍ من التدبُّر.

❁ ❁ ❁

ثالثاً: نظرات تدبُّرية حول ما جاء في القرآن من كلمة «منهاج»:

لم يأت في القرآن من هذه المادة إلا كلمة واحدة جاءت في قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) خطاباً لرسوله في معرض الحديث عن أهل الكتاب وما هو المطلوب من الرسول ﷺ إذا أَتَوْا إليه ليحكُم بينهم:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْۗ وَإِنَّ

كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

يخطئ بعض المتعجّلين في فهم قول الله عزّ وجلّ في هذا النصّ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ فيتَصَوَّر أنّ رسالات الله الّتي أرسل بها رُسُلَه السابقين إلى الأمم مختلِفَةٌ فيما بينها شِرْعةً ومنهاجاً، وما جاء في الرسالة الخاتمة مشتمل على شرعة ومنهاجٍ مخالفين أيضاً لما جاء في الرسالات السابقات، وجاء هذا الوهم من كون بعض أحكام الفروع التعبُّديَّة قد جاء فيها تكميلٌ أو تعديلٌ أو تيسير، مع أنّ مثل هذا قد حصل في الرسالة الخاتمة نَفْسِها، دون أن يؤثّر على وحدة صراط الله، ووحدة شرعته ومنهاجه الذي اصطفاه الله لعباده.

وقد أكّدت النصوص الكثيرة جدًّا أنّ صراط الله الدينيّ الذي اصطفاه الله لعباده صراطٌ مستقيمٌ واحد، لا تعدُّد فيه، وهو الدّين الذي بيّنَهُ اللّهُ لآدَمَ ولِسَائِرِ النبيّين والْمُرْسَلِينَ مِنْ ذرّيته.

ونظراً إلى وحدة صراط الله لعباده جعَلَ الله أَتْبَاعَ جميع الرُّسُلِ أمّةً وَاحِدَةً، تتلاحَقُ مَوَاكِبُها بقيادَةِ المرسلين، حتَّىٰ خاتمةِ الرسالات الرّبّانيَّةِ الّتي جعَلَ اللّهُ قائِدَهَا محمد بن عبد الله ﷺ.

لكنّ أهواء الناس هي الّتي كانت السَّبَبَ في التفرُّق والتمزّق إلَىٰ فِرَقٍ وأحزابٍ شتَّىٰ، فمن التزم صراط الله الحقَّ اتّبع الرسول الخاتم، وعَمِلَ بما أنزلَ الله عليه، وهَجَرَ تحريفات المحرّفين وغُلُوَّ الغالين، وما أدْخل النّاس من شِركيّاتٍ وكُفرِيَّاتٍ فيما يُنسَبُ إلى الرُّسُلِ السابقين.

دلَّ على هذه الحقيقة نصٌّ أنزلَه الله في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) خطاباً للرسُل جميعاً، وفي هذا الخطاب دلالة على أنّ مضمونه قد أنزله الله على جميع المرسلين ضمن ما أنزل على كُلٍّ منهم، وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾.

زُبُراً: أي: قطعاً، وكُتُباً ذاتَ تَعليمات مختَلفات.

فأتْبَاعُ كلِّ الرُّسُل بصِدْقٍ واستقامة دون انحرافٍ ولا اتباعٍ للهوىٰ، هُمْ أُمَّةٌ واحدةٌ بمقتضىٰ دلالة هذا النصّ، وهذه الأمَّةُ الواحدة لها صراطٌ واحدٌ مستقيم هو صراط الله لعباده، ولها سَبِيلٌ واحِدَةٌ مُسْتَقِيمةٌ هيَ سَبِيلُ اللَّهِ لعباده، ولها شرعةٌ واحِدَةٌ هي شرعَةُ الله لعباده، ولَها منهاجٌ واحدٌ هو منهاج الله لعباده.

تدبر النصّ الذي جاء في سورة (المائدة):

● ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾:

أي: وأَنْزَلْنا إليكَ يَا مُحمَّدُ الْقُرْآنَ مُلْتَزِماً بالحقّ لاَ يحيد عنه، ومقترناً به اقتران الروح بالجسد ذي الحياة، وهذا معنى الملابسة الذي تدلُّ عليه «الباء» في عبارة: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

وهذا الكتاب مصدِّقٌ للكُتُب الرَّبَّانِيَّة الّتي أنزلَها الله بين يَدَيْه، أي: قبله، وهكذا الحقُّ يُصَدِّقُ بعضُه بعْضاً، ويؤيِّدُ بعضُهُ بعضاً، لكنّ القرآن يُصَدِّقُ الكُتبَ السابقة على ما أنزلَها الله، ولا يُصَدِّقُ الكتُبَ الّتي دخَلَ فيها التحرِيفُ والتبديلُ والتغيير، ولا الكُتُبَ الّتِي كتَبَها الناسُ بأَيْدِيهم ونَسَبُوها إلَىٰ الرُّسُلِ الصادقين، وزعَمُوا أنّها كُتُبٌ مُنَزَّلَةٌ من عندِ الله.

﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي: من الكُتُب الربّانية و «أل» في الكتاب للجنس.

ومُهَيْمِناً عليه: جاء في تفسير المهيمن أَنَّهُ الأَمِينُ المؤتَمَنُ، والشّاهد والحاكم.

فالقرآنُ بمقتضىٰ هيمنته على الكُتبِ الرَّبَّانيَّةِ السابقة، يَشْهَدُ بِصِحَّةِ نزولِ كتُبٍ من عند الله على رُسُلِهِ السَّابقين، وهو الأمين الذي حفظ ما نزل فيها بصيغته الثابتة قطعاً الّتي لم يدخُلْهَا ولَنْ يَدْخُلَها تَحْرِيفٌ وَلاَ تَبْدِيلٌ وَلاَ نِسْيَانٌ، وهو الحاكم عليها الذي يُرْجَعُ إِلَيْهِ فيما اشتَبَهَ على الناس من أحكامها، ويُرْجَعُ إليه في معرفةِ أحكام الله، وفق آخر صيغةٍ مُكمَّلَةٍ مُتَمَّمَةٍ صحيحة، أَكْمَلَ اللَّهُ بها للنّاس دينهم، وأتَمَّ بها عليهم نعمته.

● ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾:

تكليفٌ من الله لرسوله ثم لكلّ حاكمٍ من أمته أن يحكم بما أنزل الله بين الناس جميعاً، مَنْ آمن بالرَّسُولِ والقرآن منهم، أو رضي بحكْمْ الرسول أو بحكُم الحاكم من أمته ممَّنْ لم يدخُلْ في الإسلام.

وما أنزل الله يشْمَلُ ما انفرد به القرآن تكميلاً أو تعديلاً، وما اشتركت ببيانه الكتب الربّانيّة ممّا لم يُنْسَخْ ولَمْ يعدَّلْ فيه شيءٌ.

ونهى الله رسولَهُ ويُلْحَقُ به كلُّ حاكم من أمّته عن اتّباع أهواء الناس، ومنهم أهل الكتاب الأوّل الّذين حرّفُوا وبدلُوا ما أنزل الله على الرسُل السابقين، فقال تعالى له: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾:

أي: ولا تتبعْ أَهْوَاءَهم مُعْرِضاً أو مُنْصرِفاً عمّا جَاءَكَ من الْحَقِّ، وقَدْ ضُمِّنَ فعل: ﴿تَتَّبِعْ﴾ المنهي عَنْه معنَىٰ فِعْل: «تُعْرِض أو تُدْبِر أَوْ تَتَوَلّى أو تَنْصَرِف» فَعُدِّيَ تعديته، فجاءت عبارةُ: ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ مُلائمة لهذا التضمين.

● ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾:

إنّ الناس ينتهجُون مناهج مختلفة في حياتهم، انطلاقاً من المبادئ والأُسس الاعتقاديّة الّتي يعتقدونها. وهذا هو نظام السلوك الإنساني الذي فطر الله الناس عليه، وجعله سُنَّةً من سُنَنِ الاجتماع البشري، فمن آمن بالله ورسوله دفعه إيمانه إلى الالتزام بصراط الله المستقيم الذي اصطفاه ديناً لعباده، وتحرَّىٰ العمل بمنهاجه التفصيلي. ومن اختار لنفسه مبادئ أخرى وَضْعيَّةً من الأوضاع البشرية عمل بما تقتضيه هذه الأوضاع البشريّة.

شِرْعَة: الشِّرعَة والشريعة في كلام العرب هي مَشْرعَةُ الماء، وهي مورد الشاربة الّتي يشْرَعُها الناسُ فَيَشْرَبُونَ مِنهَا ويَسْتقون، ورُبّما شَرَّعُوها دوابَّهم حتَّىٰ تَشْرَعها وتَشْرَبَ منها، والعربُ لا تسمِّيها شريعةً حتَّىٰ يَكُونَ الماء فَيْضاً لا انقطاع له، وحتّىٰ يكون ظاهراً معيناً لا يحتاج أن يُنْضَحَ بالدّلاء. [عن لسان العرب مع بعض تصرّف في اللّفظ].

وهنا نلاحظ أنّ الشِّرْعَة تُشِير إلى المبادئ والأسس الاعتقاديّة الّتي يشْرَعُها الناس، فيشربون منها ويسْتَقُون مفهوماتهم للحياة وعقائدهم، وهو ما يُسَمَّى في اصطلاح القانونيين بالمبادئ الأساسيّة، أو الموادّ الدستورية، أو الأسس الّتي يعتمد عليها الدستور، وقد يُطْلِقُون عليها عبارة «أيديولوجيات».

منهاجاً: المنهاج والمنهج الطريق الواضح، تقولُ العرب: أَنْهَجَ الطَّرِيقُ، إِذَا وَضَحَ واسْتَبَانَ، وصار نَهْجاً واضِحاً بَيِّناً.

وهنا نلاحظ أنّ المنهاج يشير إلى الأحكام التفصيليَّة لأعمال الحياة وأنواع السُّلوك فيها، وهذه الأحكام تستند إلى المبادئ والأسس الاعتقادية الّتي اشترعوها وانطلَقُوا منها، فهي الأديولوجيات التي يستندون إليها في رسم مناهجهم في الحياة.

والناس في شرائعهم ومناهجهم على أقسام:

(١) فمن يؤمن بالله ورُسله، واليوم الآخر، ويكون صادقاً مخلصاً حريصاً على سعادته ونجاته، يَرِدُ شِرْعةَ اللّهِ لعباده، ويَصْدُرُ عنها سالكاً منهاج الله لهم.

وانسجاماً مع هذه الفطرة التكوينيَّة، اصطفىٰ الله للنّاس في الكتُبِ الّتي أنزلها على رُسُلِهِ شِرْعَةً يَشْرَبُونَ منها المبادئ والأُسُسَ الّتي يجب عليهم أنْ يُؤْمِنُوا بها، ليضمَنُوا لأنفسهم السعادة العاجلة والآجلة، واصطفىٰ لهم منهاجاً بيّناً واضِحَ المعالم مَوْصُولاً بالشِّرْعَة، وأوصاهم بأن يسلُكُوهُ في حياتهم، ليَضْمَنُوا لأنفسهم السعادة.

وهذا المنهاج الرَّبَّانيُّ قد دخل فيه بحَسَبِ التكامُل البشري، والتَّطَوُّرِ الإنساني تكامُلٌ، وبعض تعديلات، ليلائم الطور الذي وصل إليه الناس، فلمَّا اكتَمَلَ التّطوُّر البشريّ أنزل الله عزّ وجلّ المنهاج المكتمل على خاتم رُسُله.

(٢) والذين يُشْرِكُون بالله، قَدِ اتَّخَذُوا لأنفسهم شِرْعَةً غير شِرْعَةِ الله، ولا بُدَّ أَنْ يكون لهم منهاجٌ في الحياة منسجم مع شركهم، وهو مخالفٌ حتماً لمنهاج الله للناس.

(٣) والذين يجحدون الله جحوداً كلّياً، ولا يؤمنون بالغيب، ولا يؤمنون بأنهم مدينون ومجازَوْن، قد اتخذوا لأنفسهم شرعةً غير شرعَةِ الله لعباده، ولا بُدَّ أن يكون لهم منهاج في الحياة منسجمٌ مع نوع كفرهم بالله واليوم الآخر، وهو مخالفٌ حتماً لمنهاج الله للناس.

وهكذا يتّضح للمتدبر معنى قول الله عزّ وجلّ:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾.

إذ الخطابُ مُوجّهٌ للنّاسِ جميعاً مؤمنين وكفّاراً.

وقد تُشكل على بعض الذين يَتْلُونَ هذا النصّ عبارة: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ فيه، حينما يَضَعُونَ في تصوُّرِهم هذا الْفَهم الذي سبَقَ بيانه.

وأقول:

إنّ عبارة: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ هنا ينبغي أنْ نَفْهَمَها على معنى الجعل التكويني الْقَدَرِيّ الْعَامّ الّذي ربط الله به المسبَّبَات بأسبابها، وهذا الجعْلُ التكويني هو الْمُهَيْمِنَ على كُلّ ما في الكون من قوانين وسُنَنٍ ربَّانِيَّة، وهو يَشْمَلُ مَا فَطَرَ اللَّهُ الناسَ عليه، وجعَلَهُ سُنَّةً من سُنَنِ الاجتماع البشريّ، والسُّلُوك الإنسانيّ الاختياريّ.

أي: فمن اختار شِرْعةً غير شرعة الله، بمقتضىٰ ما وهبه الله من إرادة حُرَّةٍ مختارة، وسخَّرَ له المسخَّراتِ الّتي تُطِيعه بخَلْقِ الله، فيُحَقِّقُ بها ما اختار لنفسه، فلا بُدَّ أن يتخذ في حياته منهاجَ سلوكٍ يلائم ما اختار مِنْ شِرْعة، ويُمَكِّنُهُ اللَّهُ من سلوكه بما يُسخِّرُ له من مُسَخّرات. ومن اختار شِرْعةَ الله كذلك فلا بُدَّ أن يَدْفعه إيمانه إلى سلوك منهاج الله لعباده، وبعد وجود الدافع: إمّا أن يستجيب بإرادته مطيعاً، وإمّا أن لا يستجيب فيتبع هواه عاصياً.

والمعنى فاحكم بين الناس يا محمَّد بما أنزل الله عليك، ولا تتَّبع أهواءهم مُعْرِضاً أو مُدْبراً عمّا جاءك من الحقّ، لك شِرْعَتُكَ ومنهاجُكَ اللّذان أوْحَيْنا بهما إليك، ولكلٍّ منهم. أيْ: من الناس غَيْرِ المؤمنين شِرْعَتُهُ ومِنْهَاجُهُ، فَسُنَّةُ الله في المجتمع البشريّ أنّ مناهج الناس في الحياة تَتْبع مَشَارِبَهُمْ وشرائعهم «= أي: أيديولوجياتهم».

- فالمؤمنون شِرْعَتُهُمْ ابتغاء مرضاة الله، ومنهاجهم أحكام دينه لعباده.

- والكافرون شرائعهم أهواؤهم وضلالات الشياطين، ومناهجهم ما يُرْضِي شهواتهم، ويَرْسُم لهم شياطينهم وواضعو مذاهبهم.

الْجَعْلُ في القرآن:

استعمل القرآن فعل «جَعَل» في عدّة معاني، أبرزها المعاني التالية:

(١) الخلق والتكوين.

(٢) الحكم الديني الذي يَمْتَحِنُ الله به النّاس.

(٣) الحكْمُ الإنسانيّ الصادر عن تَصَوُّراتِ الناس، فمنها الحق ومنها الباطل، ومنها الصواب ومنها الخطأ.

(٤) الفعل ذو الأثر من أيّ مخلوق، سواءٌ أكان صادراً عن إرادة أمْ عن غير إرادة[1].

● ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾:

أي: وبما أنّ الناسَ مختلفون في شرائعهم ومناهجهم، فلا بُدَّ أن يفترقوا إلى أُمَمٍ متخالفة، وهذا من آثار مَنْحِهم إراداتٍ حرَّةً لابتلائهم في ظروف الحياة الدنيا.

ولو شاء الله أن يجعل الناس أمّةً واحدة، لسلبَ الناس إراداتهم الحرّة، ولجعلهم مَجْبُورين على الإيمان والإسلام، ولكانوا بذلك أُمّةً واحِدَةً ربّانيّة خاضعةً في حركاتها وسكناتها لسُلْطانِ قَدَرِ الله الْجَبْرِيّ.

ولكنَّ هٰذَا يفوّتُ حكمة الابتلاء، الذي هو في الأساس الغاية من خلق الناس مزوّدين بالصفات الّتي هم عليها.

فالله عزَّ وجلَّ لم يجعل النَّاسَ أُمّةً واحدة بالقهر والجبر، لأنّ حكمته قد قضت بأن يمتحنهم فيما آتاهم من إراداتٍ حُرَّة، وإدراكٍ للأمور،

---

(١) انظر تفصيل هذه المعاني وأمثلتها من القرآن في كتاب «الأمة الرّبانية الواحدة» صفحة (٣٩) الطبعة الثانية.

وعَقْلٍ، وشهوات، وغَرائز وأهواء، وقدرة على الطاعة والمعصية، وفعلِ الخير وفعلِ الشرّ، وسَخّرَ لهم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً.

فقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: ولكِنْ لم يشأ أنْ يَسْلُبَكُمْ إراداتِكُم الحرّة، ويجعلكُمْ أمّةً ربّانيةً واحدة، ليبلُوَكُمْ في ما آتاكُمْ من صفاتٍ ميّزكُمْ بها على المخلوقات المجبورة الّتي لا اختيار لها.

• ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾:

استبقوا الخيرات: أي: بادِرُوهَا مُتَسَابِقينَ يجتهد كلّ منكم أن يكون سابقاً.

في هذه الفقرة بيان المطلوب في الامتحان، وهو فعل الخيرات والاسْتباق إليها، ليَظْهَرَ مَنْ هو أحْسَنُ عملاً، فيجازيهم الله يوم الدين، بحسب سَبْقِهم أو تقصيراتهم جَزاءَ الفضل، وليظهر المسيئون والكافرون الجاحدون، فَيُعَاقِبَهم اللّهُ يوم الدّين على سَيِّئاتهم وكُفْرِهم وجحودهم عِقابَ العدل.

فالمرجع إلىٰ الله هو للحساب وفصْل القضاء والجزاء. أمّا الإخبارُ بما كان الناسُ فيه يختلفون إلى شرائع ومناهج، فيكون بكشف الحقيقة الّتي لا يغشّيها يومئذٍ هوىً، ولا وساوس شياطين، ولا ضلالات مضلّين، ولا زخْرُف أقوال الْمُغْوِين المفسدين.

ويومئذٍ يظهر للجميع أنَّ الحقّ الذي لا رَيْبَ فيه هو شِرْعة الله ومنهاجه، اللّذانِ أوحى بهما إلى رُسُله، وأمّا شرائع الناس ومناهجهم المخالفة له، والمتخالفة فيما بينها، فهي بَوَاطل وزيوف.

ويومئذٍ تحقُّ كلمة الرحمة والتكريم لمن آمن بالله، وبما أنزل الله على رُسله، واستقىٰ من شِرْعَتِه الطاهرة النقيّةِ لعباده، وسَلَكَ المنهاج الواضح البيّن الهادي إلى السعادة العظمى، والذي اصطفاه الله لهم.

ويومئذٍ تحقُّ كلمة العذاب والإهانة على من كفر بالله، واتخذ لنفسه شِرْعةً شيطانيَّةً منتنة، وسَلَكَ في حياته مِنْهاجاً واضح البطلان والفساد، وهادِياً إلى الشرّ والضرّ والشقاء وعذاب السعير.

● ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

جاء في هذه الآية تأكيد ما جاء في الآية السّابعة إشعاراً بخطورة مزالِقِ أهْلِ الأهواء ومُتَبِعي الشهوات من المسلمين لزحزحة حُكّامِ المسلمين عن الحكم بما أنزل الله، وأنّ لهم زَخَارفَ أقوال يَصْطنعونها لفتنتهِمْ عن العمل بأحكام الله، وأنَّهُمْ يتخذون لذلك أسْلُوبَ الخطوات المتدرجات التي تبدأ بزحزحة الحاكم المسلم عن العمل ببعض ما أنزل الله على رسوله، ولو في حدود الحكم لغير المسلمين المؤمنين بما أنزل الله على رسوله.

فإنْ أَبَىٰ أهل الأهواء والشهوات من المسلمين الحكم بما أنزل الله، وتولّوا عنه مُدْبرين فلا تكترث لهم ولا تعبأ بهم، واعْلَمْ أنّهم بتوليهم عن الحكم بما أنزل الله مُصِرّين على ذلك عِصْياناً واتّباعاً للهوى يُعَرّضون أنفسهم لأنْ يصيبهم اللَّهُ ببعض ذنوبهم بإرادةٍ حكيمة عادلة منه.

ولمّا كان هذا التولّي لا يفعله من المسلمين إلاّ فاسِق، قال الله عزّ وجلّ في آخرِ الآيَة: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾.

● ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

استفهام تعجيبيٌّ من أمْرِ مسلمين يتبعون حكم الجاهلية، بدل حُكْمِ الله، اتّباعاً لأهواء نفوسهم وشهواتها: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ﴾؟!! وقُدِّمَ المفعول به على الفعل لبيان انحصار ابتغائهم بابتغاء حُكْم الجاهليّة إذا تَوَلَّوْا عَنْ قَبُولِ حُكْمِ الله، إذْ كُلُّ حُكْمٍ مُخَالفٍ لحكْمِ اللّهِ هو حُكْمٌ مِنْ أَحْكام الْجاهِلِيّة.

واستفهامٌ لانتزاع الإقرار بأنّ حُكْمَ اللَّهِ هُو أَحْسَنُ الأحكام، لدىٰ المقارنة التدبُّرِيَّةِ الرّشيدة، ولدَىٰ التَّجارِبِ على المدَىٰ الطويل، بعبارة: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: يوقِنُونَ بِحِكْمَةِ الله وعَدْلِهِ، وأَنَّه أَحكَمُ الحاكِمِينَ، وأنّه لا يظْلِمُ أحداً مثقالَ ذرَّة.

❁ ❁ ❁

رابعاً: نظرات تدبرية حول ما جاء في القرآن من كلمة «صراط»:

جاء في القرآن المجيد استعمال كلمة «صراط» ثلاثاً وأربعين مرّة، وكلّها بالإفراد، ومعظمها قد جاء بمعنى دين الله الذي اصطفاه الله لعباده منذ نشأة الخليقة، أو بمعنى صراط الله الذي تسيرُ مقاديره الحكيمة على وفقه.

وجاء فيه استعمال كلمة «صراط» بمعنى الطريق الواسع من الأرض في ثلاثة مواضع فقط، وهي:

(١) ما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكايةً لما قال شعيبٌ عليه السلامُ لقومه ناهياً، إذْ قال لهم:

﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ ... ﴿٨٦﴾﴾.

فقد كانوا يقعدون في الطرقاتِ ويتهدّدون المؤمنين بشعيب، أو من يميل إلى الإيمان به.

(٢) ما جاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

فاستبقوا الصراط: فابْتَدرُوا الطريق الواسِعَ الواضح الذِي كانوا يعرفونه ليسلكوه، لكنّهم لا يبصرونه، لأنّ الله قد طَمَسَ على أعينهم.

(٣) ما جاء في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أفمن يَمْشِي مُكِبّاً على وجهه: هو كناية مهذّبة عن الحمار والبغل والأنعام.

أمَّنْ يَمْشِي سَوِياً على صراط مستقيم: كناية عن الإنسان العاقل الرشيد الحسن التصرف، الذي يختار طريقاً واضحاً واسعاً يسْلُكُهُ إلى مَقصِده إذا أراد أن يَمْشِي في الأرض.

❁ ❁ ❁

أمّا النصوص الّتي جاء فيها لفظ الصراط بمعنى دين الله الذي اصطفاه الله لعباده، أو بمعنىٰ صراط الله الذي تسير مقادير الله الحكيمة على وفقه، فهي ما يلي، مرتَّبةً على وفق ترتيب نُزول سُوَرِها:

(١) ما جاء في سورة (الفاتحة/ ١ مصحف/ ٥ نزول) وقد سبق تدبّر النص لدىٰ تدبّر السورة.

(٢) ما جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) حكاية لما قاله الملكان اللّذان دخلا على داود عليه السلام وهو معتزل في محرابه، على صورة خصْمَيْن، يستفتيانه في خصومة بينهما.

قال تعالى فيها:

﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾.

ولاَ تُشْطِطْ: أي: ولا تَجُر مُبْعِداً عن صراط الحق.

واهْدِنا إلى سواء الصّراط: أي: واهدنا إلى وسط الصراط، فالسواء يأتي بمعنىٰ وسَطِ الشيء، ويأتي بمعنىٰ الْعَدْل.

وسواء الصّراط هو الحقّ الذي يشتمل عليه دين الله لعباده وهو صراطٌ واحد.

وكان إرسالُ هٰذَيْنِ الملَكَيْن على صورة خَصْمَيْن من النّاس، لتَنْبِيهِ داود عليه السلام على أمْرٍ ما كان ينبغي أنْ يَصْدُرَ عنه، وهو رسولٌ مجتبىً، فتنبَّهَ عليه السلام، وأدْرَكَ أنَّ اللَّهَ يمتَحِنُه بهذا الحدَث، فاستغفر ربَّهُ وخرَّ راكعاً وأنابَ إلى ربّه، فغفر اللَّهُ له خطيئته.

❁ ❁ ❁

(٣) ما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكاية لمقالة إبليس لربّه بعْد أن حَكَمَ الله عليه بالْغَوايَة، فقال تعالى:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

فَبِمَا أغْوَيْتَنِي: أي: فبِما حَكَمْتَ عليّ بالْغَواية إذْ لم أُطِعْ أمْرَكَ بالسُّجودِ لآدم، وعانَدْتُ معانَدَةَ رافِضٍ إلٰهِيَّتِك.

لأقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ: أي لأَقْعُدَنَّ لِذُرِّيَّةِ آدم راصِداً صِرَاطَكَ المستقيم، حتّىٰ أمنعهم من دخوله من بين أيديهم، أو أجذبهم من خلفهم لأخرجهم منه، أو أُخْرِجهم جَذْباً أو دفعاً من ذاتِ اليمين أو من ذاتِ الشِّمال وهم سائرون فيه، بشتَّىٰ الوسائل الإغرائيّة والإغوائيَّة.

فدلَّ هذا النَّصّ على أنّ إبليس لعنه الله قد كان يعلم أنّ دين الله الذي اصطفاه لعباده صراطٌ واحدٌ مستقيمٌ لا تَعَدُّد فيه، فَتعهَّدَ أن يَبْذُل غايةَ جَهْدِه لإبعاد الناس عنه، أو إخراجهم منه إذا دَخلوه.

إنّ صراط الله هو الحق، وهو الهدى وهو الخير، وليس بعد الحقّ إلاّ الباطل، وليس بعد الهدىٰ إلاّ الضلال، وليس بعد الخير إلاّ الشرّ.

❁ ❁ ❁

(٤) مَا جاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

فقد جاء فيها قول الله عزّ وجلّ لرسوله مُقسماً بالقرآن الحكيم:

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

فدلّ هذا النصّ على أنَّ دَعْوَة الرَّسُولِ محمّد ﷺ، وكُلَّ ما كان يُبَلِّغه للناس ويُبَيِّنه لهم قَولاً وعملاً قد كان فيه سالكاً على صراطٍ مستقيم، لا عوج فيه عن الحق والهدىٰ والخير والرشاد، إذْ هو يتابع مسيرته على صراط الله، وصراط الله صراطٌ مستقيم.

وهذه شهادة من الله لرسوله بملازمة صراطه المستقيم.

وجاء في هذه السورة أيضاً بيان أنّ عبادة الناس لربّهم في الحياة الدنيا هي صراط مستقيم، فقال الله عزّ وجلّ فيها عارضاً صورة ما سَوْفَ يَقُولُه للمجرمين في موقف حسابهم يوم الدّين:

﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

(٥) مَا جاء في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

قال الله عزّ وجلّ فيها في حكاية مقالات إبراهيم عليه السلام لأبيه داعياً له إلى دين الله الحقّ:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾.

فقال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ ومعلوم أنّ الصراط السّويَّ، أي: الصراط المستقيم، هو الدّين الذي اصطفاه الله لعباده، وهو واحدٌ لا تعَدُّدَ فيه.

وجاء فيها أيضاً حكاية مقالات عيسىٰ عليه السلام وهو صبيٌّ رضيع أنطقه الله، ومنها قولُهُ:

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

فأبان أنّ عبادةَ الله بوصفِ كونه رَبَّ الناس أجمعين لا ربّ لهم سواه صراطٌ مستقيم لا عِوَجَ فيه ولا عثرات.

❁ ❁ ❁

(٦) ما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

قال الله عزّ وجلّ فيها بشأن المشركين بعد بعثة الرسول محمد ﷺ:

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

مِنْ قَبْلِه: أي: من قبل بعثة الرسول محمد ﷺ.

الصّراط السّوِيّ: هو الصراط المستقيم المستوي الذي لا عِوَج فيه ولا عثرات.

أي: فسَتَعْلَمُونَ أيّها المكذّبون برسالتي وبما جئتكُمْ به من عند ربّكُمْ

حين يجازيكم على كفركم بالعذاب الأليم، بعد رحلة الحياة الدُّنيا، حياة الابتلاء، مَنْ أصْحَابُ الصّراط السّوِيّ، ومَنِ المتنكّبُ له، السالِكُ في متاهات الخيبة والهلاك. ومَنِ اهتَدَىٰ إلى الحقّ والرُّشد وسُلُوك سبيل السعادة، ومَنْ ضلَّ وغَوَىٰ وعرّضَ نفسه لعذابٍ أليم خالدٍ في دار العذاب يوم الدّين.

والمعنى: سيظهر لكُمْ أنّ رسولكم ومَنْ آمَنَ به واتّبعه هُمْ أصحاب الصراط السَّوِيّ الموصِلِ إلى السَّعادَةِ الأبَدِيّة، وأنّكُمْ وأمثالكم الذين كذّبوا رَسُولَ رَبّهم هُمُ الخارجون عن الصراط السّويّ، والضّالّون الخائبونَ المعذّبون في دار العذاب يوم الدين.

❁ ❁ ❁

(٧) ما جاء في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

قال اللّهُ عزَّ وجلَّ فيها:

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

دَارُ السَّلَامِ: هي الجنَّةُ الّتي يحظَىٰ فيها أَهْلُها بالسّلام الكامل الدائم الخالد الذي لا تشوبه منغصّات خوف ولا قلق ولا عَذَابٌ ولا نصَبٌ ولا تعب.

ويَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلَىٰ صِرَاط مستقيم: أي: ويهدي بمشيئته الّتي لا تفارق حكمته وعلمه بما في نفوسِ عباده من خيرٍ إلى صراط مستقيمٍ في مسيرتهم في حياتهم.

فمن آمَن إيماناً صحيحاً صادقاً، شَرَحَ الله صدْرَه لتطبيق أحكام الإسلام والاستمساك بشرائعه، والإسلامُ هو الصراط المستقيم لسلوك الناس في الحياة الدنيا.

والهداية هنا هي هداية دلالة ومَعُونَةٍ وتوفيق، وهي أَثَرٌ رَبَّانيٌّ من آثار صِدْقِ إيمانِ الْعَبْدِ، واتّجاه قلبه إلى ربّه كي يَهْدِيَهُ هذه الهداية، وليست هداية جَبْرٍ لاَ كَسْبَ للعباد فيه.

❀ ❀ ❀

(٨) ما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

قال اللّهُ عزّ وجلّ فيها حكاية لمقالة هود عليه السلام لقومه:

﴿...قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾.

لقد أَبَانَ هُودٌ عليه السَّلاَمُ لِقَوْمِهِ أنَّ اللّهَ رَبَّهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مستقيم، أي: هو سبحانه في مقاديره وتصاريفه في كونه وعباده، إنّما يُجْرِيها مُلْتَزِماً بِحِكْمَتِه صراطاً مستقيماً، فيُعَامِلُ عباده بالحقّ والعدل والفضل والإحسان.

فمن استحقّ العقاب من عباده عاقبه بعدل، ومن استحقَّ الثوابَ منهم أثابه بفضله، ومن قضىٰ له بحكمته أنْ ينجيه أنجاه، ومن قضىٰ عليه بحكمته أن يُهلكَهُ أهلكه.

وهو آخِذٌ جلّ جَلاَلُهُ بنواصي الجميع، فما من دابَّةٍ في الكون كُلِّهِ إلاَّ هو آخِذٌ بناصيتها، وتمضي أحكامه ومقاديره في كلّ خلقه ضمن حُدُود صراطٍ مستقيم ألزم نفسه به، دون ظُلْم لأحد، إنّ رَبّي لا يَظْلِمُ أحداً مثقال ذرّة، وهو على كلّ شيءٍ قدير.

❀ ❀ ❀

(٩) مَا جاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

جاء فيها حكايةُ حوارٍ جرىٰ بين الله عزّ وجل وإبليس، إذْ رفض

إبليس لعنه الله أن يسجد لآدَمَ عليه السلام كما أمره الله، مستكبراً ومتعلّلاً بأنّ الله خلقه من نارٍ وخلق آدم من صلصال من حَمَأٍ مَسْنون، وزعم أنّه ليس من شأن المخلوق من النار أن يسجد لمخلوق آخر خُلِقَ من طينٍ أسود مُنْتِنٍ، معترضاً على حكم الله وأمره، فطرده الله من دائرة رحمته الواسعة لإصراره، فطلَبَ من رَبّه أن يُنْظِرَهُ إلى يوم الدّين، فاستجاب الله لبعض طلبه، فقال له:

﴿... فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨﴾.

أي: إلى وقت إنهاء ظروف الحياة الدنيا، وإماتة كلّ الأحياء في الأرض وفي السماوات.

فلمّا أخذ إبليس هذا الوعد من ربّه أعْلَنَ تعهُّدَهُ بأن يُغْوِي بني آدم جميعاً، باستثناء المخلِصين من عِبَاده، والْمُخلَصين بفتح اللاّم.

قال الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾.

● قرأ بكَسْرِ لام (الْمُخْلِصِينَ) ابْنُ كثير، وأبو عمرو، وابْنُ عَامِرٍ، ويعقوب. وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام، بمعنى المصطَفين الذين استخلَصَهُمُ الله من عباده، وهم الأنبياء.

فأجابَهُ رَبُّه:

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣﴾.

هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ: أي: هذا الذي أُبيّنُ عناصِرَه فيما يلي، صِرَاطٌ مستقيمٌ عليَّ الالتزامُ به، وهذا الصراط يتألّفُ من الموادّ التالية:

المادّة الأولى: إنَّ عبادي الذين آمنوا بي واعتصموا بي، ليْسَ لكَ عليهم سُلْطان، لأنَّهم في مَعَاذِي وفي حِمَايتي.

المادّة الثانية: لكنّ الذين يَتَّبِعُونَكَ من الغاوين، فيُخْرِجون أنفسهم عن دائرة عبوديتهم لي، والاحتماء والاعتصام بي، يَكُونُ لك عليهم سلطان إغواء وإغراء.

المادّة الثالثة: إنَّ جَهَنَّم لَمَوْعِدُهُمْ أجمعين، يدخلونها يَوْمَ الدّين، لينالوا فيها ما يَسْتَحِقُّون من عذاب.

فدلّ هذا النصّ على أنّ الله جلَّ جلاله يُلْزِمُ نفسَه بالصراط المستقيم، في مقاديرِه وتصاريفه وجَزَائه وكلِّ ما يشاء من أمْرٍ، كما جاء في الحديث القدسي بالنسبة إلى الظلم:

«يَا عِبَادِي إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي وجَعَلْتُهُ بَيْنكُمْ مُحَرَّماً فَلَا تَظَالَمُوا».

❁ ❁ ❁

(١٠) ما جاء في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

● جاء فيها قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: من يشأ الله يُضْلِلْه، ومَنْ يشأ يَهْدِيه، وهدايته له تكون بأن يجعَلَهُ على صِراطٍ مُسْتَقِيم فإذا تابع مسيرته في الحياة الدنيا عليه كان مَهْدِيًّا، ومشيئة الله عزّ وجلّ لا تفارق علمه وحكمته.

فالذين كذّبوا بإراداتهم الحرَّةِ بآيَات الله المنزَّلاَتِ في كتابه، ولم يستفيدوا من آيات الله في الكون وفي أنفسهم، تُصيبهم بسبب تكذيبهم الإراديّ ضِمْن مقادير الله وقوانينه السببيَّةِ النتائج التالية:

النتيجة الأولى: أَنْ يَكُونُوا صُمًّا عن استماع دعوة الحق، مهما كانت جليّة واضحة، وذات أدلّة برهانيّة دامغة.

النتيجة الثانية: أَنْ يكونوا بُكْماً عن الإقرار بالحقّ الدينيّ والاعتراف به، وعن قول الحقّ والخير على ما يرضي الله عزّ وجلّ، لأنَّ ألسنتهم مُوجَّهةٌ منْ قِبَلِ أهوائهم وشهواتهم ومصالحهم من الدنيا، ومن قِبَلِ شياطين الإنْسِ والجنّ الضّالّين المضلّين.

النتيجة الثالثة: أَنْ يكونوا في الظُّلمَات، من معتقدات باطلات، وأعمال فاجرة، وقوانين جائرة، وشتات في متاهات مهلكات، فهم في ظلماتٍ دامِسَات بمثابة الْعُمْي.

وقد جاءت عبارة: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ تصريحاً بالمراد من كلمة: «عُمْي» التي جاءت في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

- ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨﴾.
- و ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾.

وهؤلاءِ الذين كذبُوا بآيات الله بإرادتِهِمُ الحرَّة يُضْلِلْهُمُ الله، أي: يجري فيهم قوانينه القدرية العامّة، فمن اختار لنفسه أن يترك صراطَ الْهُدىٰ، وهو صراط الله المستقيم، متّبعاً مسالِك الشياطين، أضلَّهُ الله في المهالك، كمن اختار لنفسه أن يرمي جسَدَهُ في النار أحرقه الله ضِمْن قوانينه في كونه، وهذا مشمولٌ بمشيئته الحكيمة التي لا مُجْبِر لها، ومعلومٌ أنّ كلّ ما يجري في الكون من أشياء إنّما يجري بأمر الله أو بإذنه.

لكن من آمن وأسلم واتّبع رضوان الله فإنّ الله عزّ وجلّ يجعله على صراطٍ مستقيم في مسيرته في حياته، وهذا أيضاً مشمولٌ بمشيئة الله الحكيمة.

❁ ❁ ❁

● وجاء في سورة (الأنعام) أيضاً ذِكْرُ طائفة من الرُّسُل عليهم السّلام، بدأهم الله عزّ وجلّ بإبراهيم عليه السلام، ثُمّ عطف عليهم بالتعميم بعض آبائهم وَذُرِّيّاتِهم وإخوانهم الّذين اجتباهُمْ واصطفاهم، وأبان عقب الحديث عنهم أنَّهُ جلّ جلاله هداهم إِلَىٰ صراطٍ مستقيم، ومعلومٌ أنّ الصراط المستقيم الذي هداهم إليه هو الدّين الّذي اصطفاه لعباده، وأنزلَهُ عَلَىٰ رُسُلِهِ لتبليغه للناس.

قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾:

● وجاء في سورة (الأنعام) أيضاً قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾:

حَرَجاً: أي: شديد الضيق.

فأبان الله عزّ وجلّ في هذا النصّ من سورة (الأنعام) أنّ من آمَنَ إيماناً صحيحاً صادقاً كان من ثمرات إيمانه أن يَهْدِيه الله إلى الصراط المستقيم في مسيرته في حياته، فيشرح صدره للتطبيقات الإسلاميّة في سلوكه النفسيّ والجسديّ.

أمَّا مَنْ لم يؤمِنْ بل كفر بالله ورسوله واليوم الآخر، فإنّ من ثمرات كُفْره أنْ لا يَهْدِيَه الله إلى الصراط المستقيم في مسيرته في حياته، فلا يشرح صَدْرَه للتطبيقات الإسلاميّة، بل يجعل عليه رِجْسَ القبائح والشرُور والآثام في سلوكه النَّفْسِيّ والجسدي، وإذا كان من أهل النّفاق ووَجَدَ نفسه مضطّراً للقيام ببعض التّطبيقات الإسلاميَّةِ أحسَّ في صَدْرِه بضيق شديدٍ يشبه حالة الاختناق البطيء الذي يَشْعُرُ به الذي يَصّعَدُ في السماء إلى طبقات مرتفعات، حيث يتناقص الأكسجين الذي يحمله الهواء.

وأبان الله عزّ وجلّ أنّ الإيمان والإسلام هو الصراط الرّبّانيُّ المستقيم الذي دعا الموضوعين موضع الامتحان في الحياة الدنيا إلى سلوكه عقيدة وعملاً.

ودلّ هذا النصّ على أنّ هداية الله عزّ وجلّ مَنْ آمنَ إيماناً صحيحاً صادقاً، إلى الإسلام، بشرح صدره للتطبيقات الإسلاميّة، وأنّ جَعْلَهُ رِجْسَ الشرور وقبائحِ الأعمال على من كَفَر فَلَمْ يؤمِنْ إيماناً صحيحاً صادقاً، كلاهما داخِلَان في صراط الرّبّ المستقيم، الذي يُجْرِي فيه مقاديره وتصاريفه وأحكامه، ونظير هذا أنّ من غمس نفسه في الماء الطّهور المحلّل للأدران والأوساخ والقذارات طَهَّرَهُ الله، فشعر بالانتعاش ونفحات النعيم تَسْرِي في جسده ونفسه، وأن من غَمَسَ نفْسَه في بئر القذارات والأنجاس والأرجاس دَنَّسَهُ الله، فشعر بآثار قاذوراته المزعجات الْمُمْرِضات، وهذا من سُنَن الله في كونه، في المادّيّات وفي المعنويّات.

● وجاء في سورة (الأنعام) أيضاً بعد تكليف الله رسوله ﷺ أن يُبَلِّغ طائفة من أحكام الإيمان وأحكام السلوك، قول الله عزّ وجلّ لرسوله أن يقول للنّاس:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

إنَّ صِرَاطَ رَسُولِ اللّهِ في الدِّين هو صِرَاطُ اللّهِ، فَهُمَا واحِدٌ، فإذا قال الرسول للناس: اتَّبِعُوا صِرَاطِي فإنَّه يدعوهم إلى اتّباعِ صِرَاطِ اللّهِ، لأنَّهُ يُبَلِّغُ ببيانِهِ القولي والعمليِّ صراط الله.

ويأتي من وراء حدود صراط الله ورسولِهِ من ذاتِ اليمين ومن ذات الشمال سُبُلٌ مُتَعَدِّدَةٌ شَتَّىٰ، فَمَنْ سَلَكَ واحِداً مِنها ابتَعَدَ عن سبيل اللّهِ حتماً، وكلُّ سَبِيلٍ غير سبيلِ الله يُوصل سالكيه إلى المتاهات فالمهالك، مَهْمَا أمتعتهم أوائله بزيناتها مِنْ ظواهر الحياة الدُّنْيَا ولذَّاتِها، وليْسَ بعد متاهات السُّبُل ومَهَالِكِهَا إلاَّ مُنْحَدَرَاتٌ تَقْذِفُ إلىٰ جهَنَّمَ دارِ العذاب، مع ما يُصَابُ سالكوها من خَيْبَةٍ في الحياة الدنيا، إذْ لا يُحَقِّقُونَ ما كانُوا يرجُونَ من سعادة، ومع ما يَحُلُّ بهم من نَدَمٍ على عُمْرٍ وطاقَاتٍ أنْفَقُوها في الأوهام، وضيَّعُوهَا في التُرَّهَاتِ والسَّفَاسِفِ والشُّرور والآثام وكُلِّ ما لا خير فيه، ولا ثباتَ له ولا بقاء.

وعندئذ يُذْكِرون أنَّهُمْ كَانُوا يجاهدون ويكدحون للوصول إلى ماءٍ يُرْوِي ظمَأَهُمْ، فإذا بِهِمْ يجاهدون ويكدحون إلى سرابٍ، وعند انتهاء رحْلَتِهم لا يجدون إلاّ حسَابَ اللّهِ وعذابه، لأنَّهُمْ رفضوا أن يسْلُكُوا صراطه المستقيم.

● وجاء في سورة (الأنعام) أيضاً قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

● قرأ نافِعٌ وابْنُ كثير وأبو عَمْرو وأبو جعفر ويعقوب: (دِيناً قَيِّماً) بفتح القاف وتشديد الياء مكسورةً،أي: معتدلاً مستقيماً.

● وقرأ باقي القرّاء الْعَشَرة: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ بكسر القاف وفتح الياء من

غير تشديد، قالوا: وهو مصدر قامَ بمعنى اعتَدَلَ فلا عِوَجَ فيه، كَمَصْدَرَي: الصِّغَرِ والْكِبَرِ. وأقول: لماذا لا يكون جَمْعَ قِيمَة؟ إذْ يقال في اللّغةِ: «قِيمَة» وتُجْمَع على «قِيَم» أي: إنَّ هذا الدّين يشتمل على قِيَم عظيمة. وفي هذا دليل على أنّ ما لَهُ حقيقَة ثابتة نافعة فَهُوَ ذو قِيمَةٍ يُقَوَّمُ بها، **والْقِيَمُ** هي أثمان الأشياء الّتي لها حقائق ثابتة نافعة، أما الأشياء الأُخْرَىٰ التي لَيْسَ لها حقائقُ نافعة فإنَّها غَيْرُ ذواتِ قِيَم، فلا أثمان لَهَا لدىٰ البحث والتمحيص، وهنا ندرك أن أحكام الدّين وشرائعه ذوات قِيَم حقيقيَّة تُكَافَأُ بالسّعادة في الدّنيا وفي جنّاتِ النعيم يوم الدين. فمَنْ قدَّمَ شيئاً منها نَالَ مِنَ السَّعَادَةِ على مقدار ما قدَّم.

فكلَّفَ الله عزّ وجلّ رسولَه محمّداً ﷺ أن يقول للنّاس: إنَّ هذا الدّين الّذي أدعوكم إليه هو صراط مستقيم هداني الله إليه بما أنزلَ عليّ عن طريق الوحْي. وأنّ هذا الدّين مَجْمُوعَةُ قِيَم (= أي: حقائق ثابتة نافعة ثوابها عند الله سعادةٌ عاجلة وآجلَةٌ لِمَنْ آمَنَ بها وعمل بمقتضاها) وهُوَ مِلَّةَ إبراهيم عليه السلام الذي كانَ حَنِيفاً مائلاً عن كلّ اعْوِجَاجٍ كان عليه أهل زمانه، ولا يتركُ كلّ اعْوِجَاجٍ إلاَّ مَنِ استقام، فلم يكن عليه السلام من المشركين.

وكلَّفَ الله رسولَه أنْ يُعْلِنَ للنّاس أنّه أوّلُ المسلمين، أي: أوّل المطبّقين لأحكامِ الإسلام وشرائِعِهِ، باعتباره الإمَام الأولَ والقائدَ الأعظَمَ لأَتْبَاع هذه الرسالة الرَّبَّانِيّة الخاتمة، وكَمَالُ هذا التطبيقِ الإسلاميّ يتحقَّقُ بأنْ تكون عبادات الْعَبْدِ كلُّها من صلاةٍ يُصَلّيها ومِنْها الدُّعَاء، وأنْسَاكٍ يَنْسُكُهَا كأعمال الحجّ، وكذَبائح الْهَدْي والأضاحِي ونحوها، موجَّهَةً للّهِ وَحْدَه لاَ شريكَ له، وكذلك أيْضاً كلُّ ما يشْتَمِلُ عليه مَحْيَاهُ وَمَمَاتُهُ مِنْ عَمَلٍ إراديٍّ ظاهِرٍ وبَاطِنٍ ماديٍّ ومَعْنَوِيٍّ، فهو يُجْرِيه في قَنَواتِ طاعةِ اللّهِ والعمَلِ بمراضيه، والابْتِعَادِ عَنْ مساخِطِه، حتّىٰ المباحاتُ يَجْعَلُهَا بالنيّاتِ الصالحات جاريَةً في قنواتِ عبادة الله.

وقد يتساءل متسائل قائلًا: كيف يكونُ للإنسان عَمَلٌ إراديّ عند موته أو بَعْدَ مَوْته؟

والجواب: أنّ كثيراً من تصَرُّفَاتِ الإنسانِ في محياه قد تكون معلّقَةً إلى ما بعد مَمَاته كالوصايا، وقد تكون ذاتَ آثارٍ تمتدُّ إلى ما بَعْدَ مَوْته، كالصَّدَقةِ الجاريَة والْعِلم الذي يُنْتَفَعُ به، فما كان منها عبادةً لله مع الْتِزام أحكام الإسلام وشرائعه كان لله، وما لم يكن كذلِكَ لم يكن لله.

وكلَّفَ الله عزّ وجلّ رسوله أن يَقُولَ للنَّاس: إنَّ اللَّهَ رَبّي قد أَمَرَني بأن تكون صَلَاتي ونُسُكِي ومَحْيَايَ ومَمَاتِي بأَنْ تَكُونَ له وحْدَهُ لاَ شريكَ له.

وبهذا يكون كمالُ الالتزام بسُلُوك صراط الله المستقيم، الذي هو الدين الذي اصطفاه لعباده.

❁ ❁ ❁

(١١) ما جاء في سورة (الصَّافَّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

● قال الله عزّ وجلّ فيها يَعْرِضُ لَقْطَةً هي حدثٌ يجري من أحداث مشاهد يوم الدّين:

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

دلَّ هذا النَّصُّ علىٰ أنَّ الذين كانُوا في رحلة الحياة الدنيا يَسْلُكُونَ سُبُلًا شَتَّىٰ غَيْرَ سَبيلِ اللّهِ المستقيم، تَصُبُّ سُبُلُهُمْ المختَلِفَةُ يَوْمَ الْقِيَامة في صِرَاطٍ واحِدٍ هُوَ صِرَاطُ الجحيم، أي: الصِّرَاطُ الذي يجعلهم على أبواب جَهَنَّمَ، وهنالك يوقفون لمساءلتهم، والحكم عليهم بأنّهم من أهل النار.

فاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِراطِ الْجَحِيم: هذا الأمر يوجِّهُه اللَّهُ يوم الدِّين إلَىٰ الملائكة الذين جعل الله من وظائِفهم سَوْقَ المجرمين إلى دار العذاب.

ومعنى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾ فَدُلُّوهُمْ وَسُوقُوهُمْ سَوْقاً جَبْرِيّاً.

فصراط الجحيم يوم الدين صراطٌ واحِدٌ، لكنَّهُ في رحلة الناس في الحياة الدُّنيا سُبُلٌ شَتَّىٰ تجتَمِعُ عنْدَ نِهَايَاتِها في صراط الجحيم.

● وقال الله عزَّ وجلَّ في سورة (الصّافات) أيضاً بِشَأْنِ موسَىٰ وهارُونَ عليهما السلام:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾:

فأبان الله عزّ وجلّ في هذا النّصّ أنّه هدَىٰ مُوسَىٰ وأخاه هَارُونَ عليهما السلام الصّراطَ المستقيم، وهو الدين أنزله عليهما لتبليغه للناس، ومنهاج الدعوة إلى الله، والقيادة الصالحة لبني إسرائيل.

❁ ❁ ❁

(١٢) وجاء في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) قول الله عزّ وجلّ، في وصْفِ ما يَراه أولُوا الْعِلْم بشأن ما أُنزِلَ إلَىٰ الرسول ﷺ من ربّه:

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾.

صِرَاط العزيز الحميد: هو الدِّين الذي اصطفاه الله لعباده، وهو صراط الله المستقيم.

العزيز: القويُّ الغالب.

الحَمِيد: أي: المحمود في كلّ صفاته وأسمائه جلّ جلاله، والّذي يَحْمَدُ مُسْتَحِقي الحمد من عباده.

فدلّ هذا النصّ على أنّ الّذين أوتُوا العلم يَرَوْنَ بعقولهم الواعية، وقلوبهم البصيرة، أنَّ مَا أُنْزِلَ إلى الرسُول من رَبّه قِسْمَان:

(١) قِسْمٌ هُوَ الحقّ الذي لا ريب فيه.

(٢) وقِسْمٌ يَهْدِي إلى صراطٍ مستقيم لا عوج فيه، فالقرآن في كلّ أحكامه وشرائعه السلوكية يهدي للّتي هي أقوم.

والذين أوتوا العلم من البشر هُمُ الصفوة الّذين يُعْتَدُّ بهم، فمن عداهم جهلة وأهل أهواء يتَّبِعُونَ الشهوات ويؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، والباطلَ على الحقّ.

❁ ❁ ❁

(١٣) وجاء في سورة (الشورىٰ/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول) قول الله عزَّ وجلّ خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾: هو القرآن، سَمَّاه الله عزّ وجلّ روحاً لكونِه سبَبَ الحياة السعيدة لمن آمن به واتَّبع هُداه.

﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾: أي: ما كنت يا مُحمّد تَدْري قبلَ أن نُوحِيَ إليك القرآن شيئاً عن حقيقة كتابٍ رَبّانيّ يتضمَّن هداية الناسِ

إلى صراطٍ مستقيم يحقّق لمن سلكه السعادة، وما كنت تَدْرِي شيئاً عن حقيقة الإيمان وأركانه وأدلّته وآثاره في النفوس وفي السلوك الظاهر والباطن.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾: أي: ومَا أوحينا إليكَ القرآن لنُميِّزَكَ وحْدَكَ بالْهِدَاية والتشريف، ولكِنْ جَعلْناه نوراً عاماً للأذهان والأفكار والقلُوب والنفوس الّتي تَتَدَبَّرُهُ وتتفهَّمه وتُؤمِنُ به، وهذا النور نَهْدِي به من نشَاءُ مِنْ عبادنا.

والهداية هُنَا هدايةُ دلالة وإرْشادٍ ومعونة وتوفيق للعمل، وبما أنّ مشيئة الله عزّ وجلّ لا تفارق عِلْمه وحكمته، كان علينا أنْ نفهم أنّ الله يهدي بنور القرآن من استجابَ لدعوته وآمن به، وبذَلَ جَهْدَه لتَدَبُّر آياتِه مبتغياً معرفة الحقيقة الّتي يَهْدِي إليها نورُه المبين، وحريصاً على الإيمان بالحقّ واتّباعه.

ومَنْ هداه الله عزّ وجلّ بنور القرآن أدْرَكَ الحقَّ وآمَن به، ثم وفَّقَه الله إلى سُلُوكِ الصراط المستقيم، صراطِ الله العزيز الحميد، على مقدار حِرْصِه على ابتغاء مرضاة الله في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا.

فإذا اسْتَمرَّ طَوَال رحلة امتحانه مؤمناً حتَّىٰ لَقِي ربّه، وكان لإيمانه آثار أعمالٍ صالحة، فإنّ الله عزّ وجلّ يحكُمُ له بالهداية، فيكونُ يوم الدين من المهديِّينَ الذين يقضي الله لهم بأنّهم من أهل جنّاتِ النعيم.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾: أي: وَإِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ تَهْدِي هِدَايَةَ دَلاَلَةٍ بما أوحَيْنَا إلَيْكَ إلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقيم، وهذا الصراط المستقيم الّذِي تُبَيِّنُهُ للناس وتدُلُّهُمْ عليه هو صِرَاطُ الله الّذِي لَهُ مُلْك كلّ شيءٍ في السَّمَاواتِ وَكلّ شَيْءٍ في الأرض، وهَذا الصراط هو دينه الذي اصطفاه لعباده.

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾: دلَّ هذا الختام على أنّ الصّراط المستقيم الذي اصطفاه الله لعباده في رحلة امتحانهم في الحياة الدّنيا حياةِ الابتلاء، إنَّما دُبِّرَ بعلم اللّهِ وحكمته للامتحان، والغاية من الامتحان الحسابُ وفَصْلُ القضاء يَوْمَ الدّين وتَنفِيذُ الجزاء، هذا هو مصير الموضوعين في رحلة الحياة الدنيا موضع الامتحان، إنّه مصيرٌ إلى الله الذي يحاسب عباده، ويفصل بينهم ويجازيهم على ما عملوا، وهذا داخل ضِمْنَ قَضِيَّةٍ كُلِّيَّةٍ عامّة، هي أنّ الأُمُور كُلَّها في الوجود كلِّهِ تصير إليه جلّ جلاله، فانْتَبِهُوا يا عباد الله: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

❀ ❀ ❀

(١٤) ما جاء في سورة (الزُّخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

● قال الله عزّ وجلّ فيها خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ﴾: أي: فأَمْسِكْ بقُوَّةٍ بالقرآن الّذي أُوحِيَ إليك عقيدةً وَعَمَلاً وَدَعْوَةً إلى الإيمان وإلى سُلُوك صِراط الله المستقيم.

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: أي: إنَّكَ يَا مُحَمَّد في عقيدتِكَ وفي سلوكِكَ وفي دعوتك إلى دين الله وفي تبليغِكَ آياتِ القرآن وفي بيانك لما أنزل اللّهُ سالِكٌ على صراطٍ مستقيم، وهذه شهادةٌ من اللّهِ لِرَسُوله بِعِصْمَتِه عن الانحراف عن صِراطه المستقيم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ﴾: أيْ: وإنَّ القرآنَ بوصفه قرآناً عَرَبيّاً مُبِيناً لشَرَفٌ لَكَ ولقومِكَ الناطقين باللِّسَانِ العربيّ المبين.

﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾: أي: وسَوْفَ تُسْأَلُونَ يومَ الدّين أَنتَ ومَنْ آمَنَ بِكَ مِنْ قَوْمِكَ عَنْ تَبْليغ كتابه وأصول الدّين وفروعه للناس.

● وقال الله عزَّ وجلَّ فيها أيضاً في معرض الحديث عَنْ عيسَىٰ عليه السلام فأوصَىٰ رسولَهُ محمّداً ﷺ بأن يقول لقومه:

﴿... وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾.

فَدَلَّ هٰذَا النّصُّ علَىٰ ما يلي:

(١) أنّ الرّسُولَ محمّداً ﷺ قد أَمَرَهُ الله عزّ وجلّ بأنْ يقول لقومه: ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾ والصراط المستقيم الذي يدعوهم إلى اتّباعه فيه هو الدّين الذي أمَرَه الله بتبليغه للناس، وأنْ يكون فيه أُسْوَةً حسنةً.

(٢) أنَّ عيسَىٰ عليه السلام قال لقومه خمس مقولات:

المقولة الأولى: تضمّنَتْ أمْرَهُ لهم بتقوى الله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

المقولة الثانية: تضمّنَتْ أمْرَهُ لهم بطاعته: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾.

المقولَةُ الثالثة: أبان لهم فيها أَنَّ اللَّهَ رَبُّهُ وَرَبُّهُمْ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾.

المقولة الرابعة: تَضَمَّنَتْ أَمْرَهُ لَهُمْ بأنْ يَعْبُدوا ربّهم: ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾.

المقولة الخامسة: أَبَانَ لَهُمْ فيها أنّ تقوى الله، وطاعة رسوله، وتوحيدَ الله في رُبُوبيته، وعبادتَهُ وحدَه لا شريكَ لَهُ صِرَاطٌ مستقيم: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾.

❁ ❁ ❁

(١٥) مَا جاء في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

● قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾﴾:

أبَانَ هٰذَا النّصُّ أَنَّ الأَبْكَمَ الّذِي لاَ يأتِي بِخَيْرٍ لاَ يَسْتَوِي هُوَ ومَنْ يأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ فِي سُلُوكه بنفْسِهِ عادِلٌ على صِراطٍ مُسْتَقِيم، لاَ يكْتَفِي بِأَنْ يأمُر بِالعدْل، وهو في أعماله وسلوكه جائر عن الصّراط المستقيم، بل هو جامِعٌ بين فضيلَتَي قَوْلِ الحقّ والعمل به.

والمرادُ من الأبْكَم هُنَا الّذِي لاَ يَقُولُ الحقَّ ولا يَنْطِقُ بالْعَدْل، وهو الذي يُوصَفُ بأنَّهُ شيطانٌ أَخْرَس.

● وقال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل) أيضاً مُثْنِياً على سيدنا إبراهيم عليه السلام بعدّة صفاتٍ ومنها أنه هَدَاه إلى صِراطٍ مستقيم:

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

جاء في هذا النصّ الثناء على إبراهيم عليه السلام بالصفات التاليات:

(١) أنه كان في أوّل عَهْدِه أمّةً وَحْدَه، قبل أن يوجد معه مؤمنون، إذْ كان منفرداً باتجاهه للتفكير المستقلّ بعيداً عن كلّ تقليد أعمى، وبعيداً عن كلّ شركيّات قومه.

(٢) أنَّهُ كان قانتاً لله، أي: مطيعاً لله خاضعاً له، ملازماً عبادته.

(٣) أنّه كان حنيفاً، أي: مائلاً عن كلّ مذاهب المشركين، ولاَ يكون هذا إلاّ بالاستقامة على الحقّ.

(٤) أنّه لم يكُنْ من المشركين.

(٥) أنّه كان شاكراً لأنعم الله عليه.

(٦) أنّ الله اجتباهُ، أي: اصطفاه فجعَلَه نبيًّا رَسُولاً.

(٧) أنّ الله هداه إلى صراطٍ مستقيم، وهو الدّين الذي اصطفاه اللّٰهُ لعباده، وأوحَىٰ به إلى إبراهيم عليه السّلام.

(٨) أنَّ الله آتاهُ في الدّنيا حسنة فأنجاه من نمرود وكيده، وأرشده أن يهاجر، فهاجر بإذنِ الله إلى الأرض التي بارَكَ اللّٰهُ فيها مع أهله ومن آمن معه، ووسَّع عليه في الرزق وأكرمه في حياته الدنيويَّة.

(٩) أنّ الله عزّ وجلّ جعله في الآخرة من الصالحين.

❁ ❁ ❁

(١٦) مَا جاء في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) فقد جاء فيها قول الله لرسوله في الآية الأولى منها:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾.

﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾: أي: لتكونَ يا مُحَمَّدُ في تَبليغِكَ دِينَ الله وبيانِك الحكيم، وفي كَوْنِكَ أسْوَةً حسنة، سبباً في خُروجِ من استجابَ لدعوتك واهتدى بهُدَاك، مِنَ ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾: أي: إلى الصراط المستقيم، الذي هو صِرَاطُ العزيز الحميد.

العزيز: القويّ الغالب.

الحميد: ذو الصفات المحمودة، والذي يَحْمَدُ مستحقي الحمد من عباده.

❁ ❁ ❁

(١٧) مَا جاء في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

قال الله عزَّ وجلَّ فيها خطاباً لرسوله محمّد ﷺ بشأن دَعْوَته مشركي مكّةَ إلى نَبْذِ الشِّرْكِ، وإلى الإيمان باليوم الآخر:

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

فأبان الله عزّ وجلّ في هذا النصّ أنّ الدَّعْوَةَ إلىٰ التوحِيدِ ونَبْذِ الشِّرْكِ وإلى الإيمان باليوم الآخر، دَعْوَةٌ إلى صراطٍ مستقيم.

وأبَانَ أنّ الذينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة مائلون عن الصراط المستقيم وخارجون عن حدوده.

لَنَاكِبُون: الناكِبُ عن الطريق، المائلُ عنه، الخارجُ عن حدوده، السائر في سُبُل تفضي به إلى المتاهات فالمهالك.

❁ ❁ ❁

(١٨) ما جاء في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

- فقد جاء فيها قول الله عزّ وجل:

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾:

لمَّا قضَتْ حكمة اللّهِ عزّ وجلّ في الْعَهْدِ المدنيّ أنْ يُحَوِّلَ قِبْلَةَ المسلمين من التوجُّهِ للْمَسْجِد الأقْصَىٰ، إلى التوجُّهِ في صلاتِهم شَطْرَ

المسجد الحرام وكعبتِهِ في مكّة، أبانَ جلّ جلاله أنّ السُّفَهاء من الناس وهم اليهود يومئذٍ في المدينة سَيُثيرون اعتراضاً على هذا الإجراء الرَّبّانِي يقولون فيه: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ لفتنة المسلمين عن دينهم، موهمين أنَّ ذَاتَ القبلة هي من أصول الدّين، لا من أحكام التكاليف التعبُّدِيّة الّتي يُقْصَدُ بها طاعة الله في أوامره ونواهيه مهما غيَّر فيها وبدّل، مع تحقيق حِكَمٍ ومصالِحَ للعابدين فهٰذِه الأحكام التعبُّدِيّة قابلة للتغيير والنسخ إلى مثلها أو خَيْرٍ مِنها، كشأن أوامر الضابط العسكريّ لجنده إذْ يقول لهم: «تقَدَّمُوا ـ تأخّرُوا ـ سِيروا يميناً ـ سيروا شمالاً ـ تراجعوا إلى الوراء ـ هيَّ إلى مهاجعكم ـ هَيَّ إلى الطعام، انصرفوا إلى الراحة ـ اصْعَدُوا ـ إنْزِلُوا ـ وهكذا».

فلا يُقالُ للضابط العسكريّ: لِمَ تُغيّر في أوامركَ ونواهيك؟ ولِمَ تأمُرُ بشيءٍ ثُمَّ تَأمُرُ بضِدِّه؟ لأنّ كلّ إنسانٍ ذي فكرٍ يُدْرِكُ أَنَّ الْغَرَضَ التدريبُ على الطاعة، أو امتحان الطاعة.

وفي هذا الحديث أَلْقَىٰ اليهود بين المسلمين لفتنتهم عن دينهم مقولةً مفادُها: مَا حَالُ المؤمنين بمحمّد الذين ماتوا وقد كانوا يتوجّهون في صلواتهم لبيت المقدس؟

فقال بعض المسلمين للرسول ﷺ: يا رسول الله، فكيف بالذين ماتُوا وهُمْ يُصَلُّونَ إلى بيت المقدس؟

فأنزل اللَّهُ عزّ وجلّ في الإجابة على هٰذِه المقولة قولَه في سورة (البقرة) أيضاً:

﴿.. وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾.

أي: إنَّ التَّوَجُّهَ لِبَيْتِ المقدس أو للكعبة إنّما الغرض منه طاعةُ أَمْر الله عزّ وجلّ، وهٰذِهِ الطّاعةُ أَثَرٌ في السُّلوك من آثار الإيمان، وهذا التوجُّه الإيمانيُّ الملتزِمُ بأمْرِ الله يسْتَحيل عقلاً أَنْ يُضَيّعَهُ اللَّهُ أو يُلْغِيهُ، فاللَّهُ جلّ جلاله عليم حكيم.

إِنَّ المشرقَ والمغرب وسائر الجهات كلَّها هي لله عزَّ وجلّ، وليس شيءٌ مِنها لغيره، حتَّىٰ يكون تغيير القبلَةِ تغييراً للمَعْبُود، فإذا أمرَ الله عباده بالتوجُّه للمشْرِقِ فإنَّهم يتوجَّهون لَه، طاعةً لأمر الله، ثُمَّ إذا أَمَرَهُمْ بالتوجُّهِ للمغرب فإنَّهُمْ يتوجَّهون أيضاً لَهُ طاعة لله، وامتثالاً لأمره، والتوجُّهُ في كلتا الحالَتَيْنِ إنّما هُو تعْبِيرٌ عَنْ صِدْقِ الإيمان في قلوبهم، وصِدْقُ الإيمان هذا لا يمكن عقلاً أنْ يُضَيِّعَهُ الله سبحانه، إذْ هو طاعة منهم لأوامره، وأثَرٌ من آثار الإيمان في قلوبهم.

ومن حكمة الله في هذا التغيير في الأوامر الرَّبَّانيّةِ حول قضيَّةٍ واحدة تدريبُ المؤمنين على عدم ارتباط قلوبهم بالأشياء، وتجريدُهم من كلّ تَعَلُّقٍ إلاَّ التعلُّقَ به سُبْحانه، والتّعَلُّقَ بطاعته في أوامره ونواهيه دواماً مَهْما غَيَّرَ فيها وبدّل.

هذا هو الصراط المستقيم في أحكام العبادات، فمن أدركه والتزمَ به إيماناً وعملاً، وعزَم على طاعة الله مُطْلقاً دون النظر إلى عَيْنِ المأمور به، أو الحكمة منه هداه اللَّهُ بالتوفيق والمعونة إلَىٰ متابعة سلوك صراطٍ مستقيم يُحَقِّقُ به رضوان رَبّه عليه، وهٰذِه الهداية إنّما يُجريها الله بمشيئتِه الحكيمة الّتي لاَ توجَدُ قُوَّةٌ من غَيْرِ ذَاتِهِ سُبْحَانَهُ تُلْزِمها بشيء، لكِنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ يشاءُ الأمر الحكيمَ بمقْتَضَىٰ كمالِهِ الْمُطْلَق في ذاتِهِ وفي صفاته.

● وجاء في سورة (البقرة) أيضاً قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ

ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

أي: كانَ النَّاسُ أمَّةً واحِدَةً علىٰ الإيمان الّذِي وَرِثُوهُ عَنْ آدَمَ عليه السّلام، ثم اخْتَلَفُوا إِذْ دَخَلَ إليهم الشِّرْكُ وَالكُفرُ فتفرَّقُوا فِرَقاً على سُبُلٍ شَتَّىٰ، فاحْتَاجُوا إلى نَبِيِّينَ مُرْسَلِينَ مُبَشِرِينَ ومُنْذِرِين، فبعثَ الله لهم بحِكْمَتِهِ الرُّسُلَ، وأنزلَ معَهُمُ الكتابَ بالحقّ، لِيُبَيِّنُ لَهم أصولَ الإيمان وأحكام الدّين، وليكون لمن شاء منهم أن يتحاكموا إِلَيْهِ مَرجعاً يحكُمُ بَيْنَهم فيما اختلفوا ويَخْتَلِفُون فيه.

ثمّ اختلف فيه الّذِين أوتوه بالتحريف والتبديل والتأويلات الباطلات، من بَعْدِ ما جاءتهم آيات الكتاب البيّنات، وكان هذا بغياً بَيْنَهم، إذْ وُجِدَ فيهم منافقون يتظاهَرُون بقبول نصوص الكتاب الرَّبَّانِيّ والعمل بأحكامه، ويتلاعَبُونَ فيها بالتأويل الباطل وبالتحريف.

ثمّ بعث الله عزّ وجلّ خاتم النبيّين والمرسلين محمّداً ﷺ، وأنْزَل عليه القرآن خاتمة كتُب السّماء، بيّناً واضح الدلالة على أصول الدّين، فهدىٰ الله بتوفيقه ومعونته وإذنه الذين آمنوا بالرَّسُول وبما أَنْزَل الله عليه إلى الاستمساك بالحقّ الذي جاء في القرآن.

فأحَقَّ أئمّةُ الاجتهادِ منهم المتَّقُونَ الأبْرَارُ الحقَّ، وأبْطَلُوا الباطل، وَأوضحوا للناس الصراط المستقيم الذي هو صِرَاط الله في العقائد والأخلاق والآداب وأحكام السُّلوك، بالأدلّة الجليَّة، بحثاً واستنباطاً من نُصُوصِ الكتاب المجيد، وبيانات الرسول ﷺ، وكان هذا بمعونة من الله وتوفيق لهم، إذْ عَلِمَ أنّهم مؤمنون مخلصون صادقون في تَحَرّي الوصول إلى الحقّ، دون بغي ولا زيغ عنه، واللَّهُ يَهْدِي بمقتضىٰ عِلْمِه وحِكْمَته من يشاء

من عباده إلى صراطٍ مستقيم، هدايةَ دَلاَلَةٍ ومعُونةٍ وتوفيقٍ، ومعلُومٌ أنَّ مشيئة الله في كلِّ مقاديره لا تُفَارِقُ حكمته.

❁ ❁ ❁

(١٩) ما جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

● فقد جاء فيها قول الله عزّ وجلّ حكايةً لبعض ما قال عيسَىٰ عليه السلام لقومه:

﴿... فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١)﴾.

فأبان عيسى عليه السلام لقومه أنّ من عناصر الصراطِ المستقيم الذي لا عِوَجَ فيه ولا عثرات ما يلي:

١ ـ أن يتَّقُوا الله، وتقوى الله تكون بالإيمانِ به وبما جاء من عنده، وبفعلِ ما أمرهم به وتركِ ما نهاهم عنه.

٢ ـ أن يُطِيعوا رسُولَ ربِّهم ولا يَعْصُوه.

٣ ـ أنّ حقّ الله على عباده أن يَعْبُدوه، فهو رَبُّهُ وربُّهُم، إذْ من مقتضىٰ رُبُوبيّته لهم أنْ يعبدوه فلا يُشرِكوا بعبادته شيئاً، فحَقُّ الرَّبِّ المالِكِ الْمُمِدِّ بعَطَاءَاتِ الرُّبوبيَّة على عبيده أن يَعْبُدوه، والالتزام بالحقّ التزامٌ بالصّراط المستقيم.

وعبادة العبد لربّه تشْمَلُ طاعتَه والْعَملَ بمراضيه في كلّ سلوكٍ نفسيٍّ وَجَسَدِيّ.

● وجاء فيها قول الله عزّ وجلّ خطاباً للذين آمنوا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١)﴾.

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾: أي: وَمَنْ يَحْتَمِ باللَّهِ مُلْتَجِئاً إليه ومُمْتَنِعاً به. والاعتصامُ بالله يكونُ بالإيمان به، والإسلام له، وعبادته وحْدَه بصِدْقٍ وإخلاصٍ دون إشراكٍ به، وبالْعَملِ بمراضيه، وباللُّجُوءِ إليه وحْدَهُ بالدُّعاء مع إخلاصِ النِّيَّةِ في كلِّ أمْرٍ مِنْ أُمُور الدنيا والآخرة.

وهذا الاعتصام هو من جواهر الدِّين العظمى، ومن عناصره الرئيسة.

الاعتصام بالشيء لغةً: هو اللُّجُوءُ إليه، والامتناع به، والاحتماءُ بحماه.

وقد أبان هذا النصّ أنّ من اعْتَصَم باللَّهِ ملْتَجئاً إلَيْه ومُحْتَمِياً به ومُسْتَمْسِكاً بالدّين الذي اصطفاه الله لعبادِه فَقَدْ هُدِيَ بِتَوْفِيقِ الله ومعونته إلى صراطٍ مُسْتَقيم.

❁ ❁ ❁

(٢٠) ما جاء في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

● فقد جاء فيها قول الله عَزّ وجلّ في معرض الحديث عن المنافقين:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾.

أي: ولو أنّهم تَابَعُوا فِعْلَ مَا يوعَظُونَ به مِنْ تحكيم الله ورسوله في قضاياهم لكان هذا خيراً وأشدّ تَثْبيتاً على الحقّ الذي أعْلَنُوا بألسنتهم انتماءهم إليه، إذْ تتجدّد لدَيْهم قناعات تُدْخِلُ الإيمانَ إلَىٰ قُلُوبهم، ومتَىٰ صَحَّ تَثْبيتهم على الإيمانِ آتاهُمُ اللَّهُ أجراً عظيماً، وهداهم في مسيرتهم في رحلة امتحانهم صراطاً مستقيماً، أي: وفّقهم إلى التزام صراط الله المستقيم وأعانَهُمْ عليه، فالهداية هُنَا هداية توفيق ووَزْعٍ وإعانة.

● وجاء فيها أيضاً قولُ الله عزّ وجلّ خطاباً للنّاسِ جَمِيعاً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾.

فأبانَ هذا النصُّ أنَّ صِدْقَ الإيمان مع الاعتصام باللَّهِ احْتِمَاءً بِحِماه، يُعِدُّ الْمُؤْمِنين الصَّادقين إلى أن يُدْخلهم الله في رحمته فيغفر لهم ذنوبهم ويُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِم، ويجعلهم مشمولين بفَضْلٍ مِنْهُ إذْ يَعْصِمُهمْ عن الوقوعِ فيما يُسْخِطُهُ، ويُزَكِّيهم بحمايةٍ منه، مع ما يمنَحُهم في الحياة من راحة ضمير، وسعادةِ نفس، وتَيْسِيرٍ للأمور ودفعٍ للمكاره، ومعوناتٍ في أمورهم، ويهديهم صراطاً مستقيماً فيما بقي لهم من مسيرتهم في حياتهم، وهو صراط الله الّذي يبلغون به رضوان الله في جنّات النّعيم يوم الدّين.

❁ ❁ ❁

(٢١) وَجاء في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾: أي: كاشفاتٍ موضّحاتٍ لمن تدبّرها صراط اللَّهِ المستقيم، وهو دينه الذي اصطفاه الله للموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، ودَلَّ على أنّ التّبيين هو تبيين للصراط المستقيم تتمة الآية.

﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: سبق أَنْ عَلِمْنا أَنَّ مشيئة الله عزّ وجلّ لا تفارق عِلْمَهُ وحكمته، ومشيئته هي الّتي تحدّد مقاديره وتصاريفه.

فَمَنْ عَلم اللَّهُ في قلبه إرادة الحقِّ والخير حبَّبَ إليه الإيمانَ وزيَّنَهُ في قلبه، فإذا آمن وصدقَ في إيمانه واتَّجَهَتْ إرادته للعمل بمقتضَيات الإيمان

شرح الله صَدْره للإسلام، فإذا أَسْلَم وصدق في إسلامه، أي: في إعلانه الطاعة لله في أوامره ونواهيه، وفي الخضوع له، أَوْجَدَ الله في قلبه الدافع إلى معرفة أحكام الإسلام وشرائعه، فإذا عَزَم على ذلك أَعانه الله فَهَداهُ إلى معرفتها، ثُمَّ إلى الْعَمَلِ بها. وبهذا التسلْسُل تتحَقَّقُ هدايته إلى صراطِ اللَّهِ المستقيم عِلْماً وعملاً، وسُلوكُ هذا الصراط يُوصل إلى جَنَّاتِ النّعيم ورضوانٍ من الله أكْبَرَ يوْمَ الدين.

❁ ❁ ❁

(٢٢) ما جاء في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

● جاء فيها قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

● ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾: سَوَابق هٰذه العبارة تُشْعِرُ بأنّ هذَا يكونُ في الجنّة، فما هو الطيّبُ من القول الذي يقولونه فيها؟

جاء في القرآن عدّة بيانات تفصيليّة تخبرُ عن بعض ما يقول أهل الجنة في الجنة، فمنها ما يلي:

١ ـ قال الله عزّ وجلّ بشأنهم في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ... ﴿٥٣﴾﴾:

فهذا من الطيّب من القول الذي يقولونه في الجنّة.

٢ ـ وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

وهذا أيضاً مِنَ الطَّيِّب من القول.

٣ ـ وقال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (فَاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

وهذا أيضاً من الطَّيِّب من القول.

٤ ـ وقالَ الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

وهذا أيضاً من الطَّيِّبِ من القَوْل.

قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾: ذهب المفسّرون إلى حمل هذه الهداية على هدايتهم في الحياة الدنيا إلى صراط الله الذي هو دينه الّذي اصطفاه الله لعباده.

وأرى أنّهم يُهْدَوْنَ في الجنة إلى الصراطِ الّذي يوصلهم إلى حيث

يَرَوْنَ ربّهم، فيفيض عليهم أنوار سُبُحاتِ وجهه، حامداً لهم إيمانهم وعملهم الصالح، وهم يَحْمَدُونه بما هو له أهلٌ من المحامد الجليلة العظيمة، والله أعلم.

● وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الحجّ) أيضاً:

﴿...وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي: وَإِنّ الّذِينَ آمَنُوا إيماناً صحيحاً صَادِقاً يُنَوِّرُ اللّٰهُ عزّ وجلّ بصائرهم، فَيَهدِيهم في حياتهم إلى صراطٍ عَمَلِيّ مستقيم، يكون سبب نجاتهم وسعادتهم.

الهداية هنا هداية دلالةٍ وإرشاد، وقد تكون مصحُوبة بالتوفيق والمعونة على التحقُّقِ بطَاعَة الله والعمل بمراضيه.

❁ ❁ ❁

(٢٣) ما جاء في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول):

● قال الله عزّ وجلّ فيها خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾: هو ما حصل في صُلْح الحديبية، وآثاره من انتشار الإسلام بالدّعوة، إذْ كان هذا فتحاً مُبيناً.

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾: أي: ليغفِرَ لكَ اللّٰهُ مَا قَدَّمْتَ مِنْ عَمَلٍ مَا كانَ يَنبَغِي لمثلِك أن يُقدّمه، ومَا أخّرْتَ مِنْ عَمَلٍ فَلَمْ تَعْمَلْهُ، ممّا لا يَنبغِي لمثلِكَ أن لا يَعْمَلَه.

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾: في هذا إشارة إلى قُرْبِ إنْزالِ ما بقي من شرائع الدّين وأحكامه، وبإنزاله تَتِمُّ نِعْمَةُ عناصر رِسالة الرسول، فسورة (الفتح) من أواخر التنزيل.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: هنا يرد سؤال وهو: أَلَمْ يَسْبِقْ أَنْ هَدَىٰ اللَّهُ رسولَهُ محمّداً ﷺ الصراط المستقيم، فهذا النّصّ من سورة (الفتح) وهي من أواخر ما نزل من القرآن إذْ لم ينزل بعدها إلاّ المائدة والتوبة والنّصر؟

وأقول في الجواب:

إنَّ الصراط المستقيم له بدايات وأوساط وأواخر، فَمَنْ سَلَكَ في أوائل الصراط المستقيم وهو مؤمنٌ صادقٌ يستعين بالله ويُخْلِص له في العبادة، أعانه الله بالبيان والتوفيق والتسديد علَىٰ متابعة سلوكه على الصراط المستقيم، بمقدار التزامه به.

ومن تابع مسيرته على الصراط المستقيم في أواسطه، أعانه الله بالبيان والتوفيق والتسديد حتى يَصِلَ إلى قُرْب أواخره، بمقدار التزامه به.

ومن قارب نهاية حياته سائراً على الصراط المستقيم، أعانه الله بالبيان والتوفيق والتسديد على متابعة سلوك الصراط المستقيم، بحسب مرتبته عند ربّه، حتَّىٰ يلْقَى الله ربّه وهو على صراطه.

ثم يَمُرُّ على الصّراط يوم الّدين مروراً تكون سرعته فيه على مقدار التزامه بصراط الله في رحلة امتحانه في الحياة الدُّنيا.

ثم يدخله الله الجنَّةَ ضِمْنَ الزُّمْرَةِ الَّتِي هُو منها.

فالمراد من هداية الله رسولَهُ الصراطَ المستقيمَ وهو في أواخِرِ رحلةِ حياتِه في الدنيا، إنْزَالُ ما بَقِيَ مِنْ شرائع الدِّين وأحكامِه عليه، وعِصْمَتُهُ فيما بقي له من عُمْرٍ، حتَّىٰ يُتَابعَ مَسِيرَتَه إلَىٰ أَنْ يلْقَىٰ رَبَّهُ حائزاً أَسْمَىٰ دَرَجاتِ المحسنين، ويكونَ في الذّروة من الفِرْدَوس الأعلى.

● وجاء في سورة (الفتح) أيضاً خطاباً لأصحاب الرسول ﷺ الذين

بايَعُوه تحت الشجرة في الحديبية، على قتال المشركين حتَّىٰ الموت، وكانت هذه المبايعة الجهاديَّة قَبْلَ أن يَتِمَّ الصُّلْحُ بَيْنَ الرَّسُولِ ﷺ وبَيْنَ مُشْرِكي مَكَّة، فأنْزل اللَّهُ عَزَّ وجلّ في السورة بعد ذلك، وقد أنزل الله أوائلها وهُمْ قافلون إلى المدينة:

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾: وهي الغنائم الَّتِي غَنِمُوهَا فِي غَزْوَةِ خَيْبَر.

﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾: فَحَمَىٰ أَهْلَكُمْ من كَيْدِ اليهود، إذْ هَمُّوا بعد خروج الرسول، ومَعَه معظم أصحابه إلى مكة، لأداء العمرة، بأن يُغِيروا على مَنْ بقي في المدينة من المسلمين.

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: هذه العبارة معطوفة على محذوفٍ مُلاحَظٍ ذِهْناً، أي: لتشكروه على المغانم، وعلى كفِّ أيدي الناس عَنْكُمْ، ولتكونَ هذه المِنَحُ والمعونات الرَّبَّانِيَةُ عَلَامَةً يسْتَدِلُّ منها المؤمنون على أنّ اللَّهَ مَعَهُمْ مُؤَيِّدُهُمْ وَنَاصِرُهم إذا جاهَدُوا في اللَّهِ حَقَّ جهاده.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: أي: وليَدُلَّكُمْ وَيُعِينَكُمْ ويُوفّقكم على مَعْرِفَةِ مَا لَمْ تَسْلُكُوهُ بَعْدُ من الصِّراطِ المستقيم، ويُسَدِّدَكُمْ حتَّىٰ تلازِمُوه في مُسْتَقْبَلِ أمركم، إذا صَدَقْتُمْ مع الله، وأَخْلَصْتُمْ له الْعَمل.

إنّ الصراط المستقيم صراطٌ ذو مَرَاحِلَ مُتَعَدِّدَة، فَمَنِ اجتاز مَرحَلَةً مِنْه مَهْدِيّاً كَانَ بِحَاجَةٍ إلى مَعُونَةٍ من اللَّهِ بالبيان والتوفيق والتسديد حتَّىٰ يَقْطَعَ المرحَلَةَ التاليَة مَهْدِيّاً مُسَدَّداً، فإذا اجتازها كان بحاجة أيضاً إلى معونةٍ من الله بالبيان والتوفيق والتسديد حتَّىٰ يقطع المرحَلَةَ التالية لها مَهْدِيّاً مُسَدَّداً، وهكذا حتَّىٰ يجتاز رحلة حياة الامتحان بنجاح.

❊ ❊ ❊

(٢٤) ما جاء في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

قال الله عزّ وجلّ فيها خطاباً لأَهل الكتاب:

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾:

أبان الله عزّ وجلّ في هذا النصّ أنّ القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ له عدّة صِفَاتٍ:

الصفة الأولى: أنَّ القرآن من الله نُورٌ للقلُوب والأفكار والأنفس.

الصفة الثانية: أنَّهُ كتابٌ مُبِينٌ واضِحٌ لمن تَدَبَّر آياته وعَقَلها.

الصفة الثالثة: أنّ الله يهدي به الّذين اتَّبَعُوا رضوانه سُبُلَ سلامتهم في الدنيا والآخرة.

الصفة الرابعة: أنّ القرآن يُخرج بإذن الله من اتّبع رضوان الله من ظلُماتِ الكُفْرِ والجهل والضلالة وحماقات السلوك في الحياة الدنيا إلى نور الإيمان والمعرفة الحقّ والهدى والرّشْدِ في الأقوال والأعمال الظّاهرة والباطنة، الجسديّة والنفسيّة.

الصفة الخامسة: أنّهُ يهديهم هداية دلالة وتعليم إلى صراط مستقيم في مَسِيرَتِهِمْ في حياتهم، إذْ كلُّ ما في القرآن من دلالة وعِلْمٍ يَهْدِي إلى صراطٍ مستقيم لا عِوَجَ فيه ولا عَثَرَات.

وبهذا يتم تدبُّر النصوص الّتي جاء فيها لفظ الصراط في القرآن المجيد، والحمد لله على معونته وتوفيقه.

❁ ❁ ❁



سُورَة المسد

ويطلق عليها سُورَة «تبَّتْ»

١١١ مصحف ٦ نزول



(١)

نصّ السورة وما فيها من قراءات من الفرش

سورة المسد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾

١ ـ قرأ ابن كثير [أَبِي لَهْبٍ] بإسكانِ الهاء.

● وقرأ باقي القراء العشرة: بفتح الهاء: [أَبي لَهَبٍ].

٤ ـ قَرأ عَاصم [حَمَّالَةَ] بالنّصْبِ.

● وقرأ بَاقي القراء العشرة [حَمَّالَةُ] بالرفع.

وهما وجهان عَرَبيان جائزان.

(٢)

سبب نزول السُّورة

ورد في سبب نزول سورة «المَسد» أنّ الله أَمَرَ رسُولَهُ محمّداً ﷺ بِأَنْ يُنْذِرَ عَشيرَتَه الأَقْرَبِينَ، فخرجَ حتّىٰ صَعِدَ الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ، لبُطُونِ قُرَيشٍ، وانْتَظَر حتّىٰ اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، ومن لَمْ يسْتَطِعْ أَنْ

يحضُرَ أرْسَلَ رسُولاً، فجاءتْ قُريشٌ، وكانَ فيهم أبو لَهَب.

فلمَّا اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ قال لهم:

«أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاَ تَخْرُجُ منْ سَفْحِ هٰذَا الْجَبل تُريدُ أَنْ تُغيرَ عليكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصدِّقِيَّ؟؟».

قالوا: نعم، ما جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِباً.

قال: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».

قال أبو لَهَبٍ: تَبّاً لَكَ، مَا جَمَعْتَنَا إلاَّ لِهَذَا؟

فأنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾.

ويظهر أنَّ اللَّهَ أمَرَ رَسُولَهُ بأَنْ يُنْذِرَ عَشِيرَتَهُ الأقْرَبِينَ مُنْذُ أَوائِلِ بعثَتِهِ، وَقَبْلَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْهِ فِي أواسط الْعَهْدِ المكّي قَوْلَهُ في سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾.

فسبَبُ النُّزُولِ الّذي سبَقَ بيانُهُ قَدْ رَواهُ البخاريُّ ومُسْلِمٌ عن ابنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُما، قال:

لمَّا نَزَلَتْ: «وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ، ورَهْطَكَ مِنْهُم الْمُخْلِصينَ»(١) خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حتَّىٰ صَعِدَ الصَّفَا، فهَتَفَ: «يَا صَباحَاهْ».

فقالُوا: مَنْ هٰذَا، فاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فقال:

---

(١) الجملة الأولى آيةٌ قرآنيّة مِنْ سُورَة (الشعراء) التي نزلت في أواسط العهد المكيّ، لكن الجملة الثانية ليست من القرآن، فجمْعُهُما تحت عنوان: «نزلت» يدلُّ علىٰ أنها نزلت وحياً غير قرآن ولم تنزل قرآناً في أوائل العهد المكي، والله أعلم.

«أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ».

قالوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِباً.

قال: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».

قال أَبُو لَهَبٍ: تَبّاً لَكَ، مَا جَمَعْتَنَا إلاَّ لِهَٰذَا، ثُمَّ قَامَ، فنزلتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ①﴾. وقَدْ تَبَّ. هكَذَا قَرَأَهَا الأَعْمَشُ يومئذٍ. [البخاري: ٤٩٧١ (١٣٩٤) ومسلم (٢٠٨)].

وفِي روايَةٍ للبخاري (أي: بَعْدَ: حتَّىٰ صَعِدَ الصَّفَا):

فَجَعَلَ يُنَادِي يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ، لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حتَّىٰ اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولاً لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وقُرَيشٌ فَقَالَ:

«أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟».

قالوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إلاَّ صِدْقاً. [البخاري ٤٧٧٠].

❁ ❁ ❁

أمّا الرّوَايَاتُ الّتِي تَحَدَّثَتْ عَمَّا فعلَهُ الرسولُ ﷺ بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ آيَةُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ٢١٤﴾ من سُورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) فلَيْس فيها ذكْرُ أَبِي لَهَبٍ، ومَا وَاجَه به الرَّسُولَ ﷺ، فهِي لا تَصْلُحُ بياناً لِسَبَبِ نزول سُورَةِ «الْمَسَد»، بَلْ جَاءَ فِيهَا بَيَانُ قِيَامِ الرسول ﷺ بما أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ في سُورَةِ (الشعراء) ويكونُ هذا عملاً آخرَ قام به الرَّسُولُ ﷺ في أواسِطِ العهد المكيّ، بعْدَ نزول سُورَةِ (الشُّعَراء)، وهُو غيرُ العمل الذي قام بِهِ في أَوَائِلِ العهد المكيّ، الّذِي قال له فيه أبو لَهبٍ: تَبّاً لَكَ، مَا جَمَعْتَنَا إلاَّ لهذا، وموقع

هذه الرّوايات سُورَةُ (الشعراء) عند الآية، أُورِدُها هنا لمنع اللَّبْسِ بَيْنَها وبين ما رُوي عن ابن عباس في سبب نزول سورة (المَسدِ).

(١) فقد جاء عند البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، حين أنزل اللَّهُ عزّ وجلّ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قال:

«يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ـ أَوْ كلمةً نَحْوَها ـ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً». [البخاري ٢٧٥٣ ومسلم ٢٠٦].

- وفي رواية عند البخاري ومسلم إضافة: «يَا بَنِي عَبْدِ المطَّلِبِ».
- وفي رواية عند البخاري إضافة: «يَا أُمَّ الزّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ عَمَّةَ رَسُولِ الله».

(٢) وجاء في رواية عند مسلم عَنْ أبي هريرة قال: لمَّا نَزَلَتْ هٰذِهِ الآيـةُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ دَعَا رسُول اللَّهِ ﷺ قُرَيْشاً، فَاجْتَمَعُوا، فعَمَّ وَخَصَّ، فقالَ:

«يَا بَنِي كَعب بْنِ لُؤَيّ، أَنقِذُوا أَنفُسَكُمْ مِن النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ أَنقِذُوا أَنفُسَكُمْ مِنَ النّار، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنقِذُوا أنفسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنقِذُوا أَنفسَكُمْ مِنَ النار، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنقِذُوا أَنفسَكُمْ مِنَ النّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنقِذُوا أَنفسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا فَاطِمَةُ، أَنقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ. فَإِنّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِماً سَأَبُلُّهَا بِبَلاَلِهَا»[1]. [مسلم ٢٠٤].

---

(١) **سأبُلُّها بِبَلالها**: يقال لغة: بَلَّ رَحِمَهُ إذا وَصَلَها، وأصلُ الْبَلاَلِ نَضحُ الشيء بالماء حتّى

(٣) وروى مسلم عن عائِشَةَ رضي الله عنها قالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَىٰ الصَّفَا فقال:

«يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ». [مسلم ٢٠٥].

(٤) وروى مسلم عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ الْمُخَارِقِ، وَزُهَيْرِ بْنِ عَمْرٍو قَالاَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قال: انطَلَقَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إلى رَضْمَةٍ[1] مِنْ جَبَلٍ فَعَلاَ أَعْلاَهَا حَجَراً، ثُمَّ نادَىٰ:

«يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، إِنِّي نَذِيرٌ، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ رَأَىٰ الْعَدُوَّ فَانْطَلَقَ يَرْبَأُ أَهْلَهُ، فَخَشِيَ أَنْ يَسْبِقُوهُ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ: يَا صَبَاحَاهْ». [مسلم ٢٠٧].

يَرْبأ أهْلَهُ: أي: يَعْلُو على مُرْتَفع، ويتطلَّع مَسِيرَةَ العدوّ، وينادي أهله محذّراً.



(٣)
موضوع سورة «المَسَد»

تتضمَّن السورة انتصار الله لرسوله ضدّ عمه أبي لهَبٍ الَّذِي آذاه بالدُّعَاءِ عَلَيْهِ بالْخُسْرانِ والهلاك والانقطاع، وضِدَّ امرأتِهِ أُمّ جميل، التي كانت تؤذي الرسول ﷺ بأنواعٍ من الأذىٰ، فقد ورد في أخبارها أنّها كانت تحمل الحطب المملوء بالشوك فتطرحُهُ ليلاً في طريق النبيّ ﷺ إيذاءً له ولأَصْحَابِه، وَأَنَّها كانت تَمْشي بالنَّميمة لتُفْسِدَ بيْنَ الناس.

= يكون نَدِيًا، يُقَالُ: بلَّ الشيْءَ بالماء ونحوه يَبُلُّه بَلاً، وبَلَلاً، وبَلاَلاً، إذا نَدَّاهُ. ويقال: بَلَّ فُلاَناً، إذَا أعْطَاهُ.

(١) رَضْمَة: الرَّضْمَةُ الصخرة العظيمة، أو مجموعة صخور مُتراكمة.

ذكر مشيها بالنّميمة مجاهد، وقتادة، والسّدّي.

أبو لهب: هو عبد العزّىٰ بن عبد المطلّب، أحدُ أعمام الرسول ﷺ.

وامرأتُه: أي: زوجتُه، هي أمُّ جميل أَرْوَىٰ بنْتُ حَرْب بن أميَّة، أخْتُ أبي سفيان بن حرب، وكانت عوراء، ترى بعين واحدة، فربّما كان يُطْلَق عليها لفظ «الْعَوْرَاء».

ويُلاحظُ أنّ كلَّ من تعرَّض له القرآن بالذّمّ من أعداء الرسول ﷺ وأعداء الإسلام قد ذكره الله بالوصف الّذي ينطبق عليه وعلى غيره، باستثناء أبي لهب وزوجته، ويَبْدو لي أنّ السبب في هٰذَا يَرْجِعُ إلى أمرين:

الأمر الأوّل: أنَّ أبا لهَبٍ عمُّ الرسول ﷺ، فَهُو من عشيرته الأقْرَبين، فَلاَ يَتعصَّبُ في الانتصار إِلَيْه أحَدٌ مِنْ عشيرَته ضِدَّ محمّد ﷺ، إذْ هما من عشيرةٍ(١) واحِدَة.

الأمْرُ الثاني: أنّ أبا لَهبٍ كان البادئ بإيذاء الرسول مواجهةً بلسانه وهو ينصح عشيرته الأقربين، وكان أذاه صريحاً لا مُوارَبَةَ فيه ولا تورية، وأنّ امرأته كانت تُعْلِنُ في المجتَمعِ المكّيّ إيذاءها للرسولِ ﷺ بأقوالها وأفعالها.

فكان من الحكمة أنْ يَتولَّىٰ الرَّبُّ جَلَّ جَلاَله بِقُرْآنِه نُصْرَةَ رسوله، حتَّىٰ لاَ يتجرّأ علَيْهِ أَحَدٌ مِنْ غَيْرِ عَشِيرَتِهِ اسْتخْفَافاً به وبِعَشِيرَتِه.

وقَدْ اشْتَمَلَتِ السُّورَةُ علَىٰ رَدِّ عِبَارَةِ أبي لَهَبٍ عَلَيْهِ، والحكْم عليه بِالْخُسْرَانِ والانقطاع في قُرآنٍ يُتْلَىٰ مَا دَامَ لِكتَابِ اللَّهِ تَالٍ يَتْلُو آياتِهِ.

ولَكِنْ كانت عبَارَةُ أبي لَهَبٍ دُعَاءَ غَيْرَ مُسْتَجابٍ، أمَّا مَا نزل فِي القرآنِ ردّاً عَلَيْهِ فهُو حُكْمٌ مُبْرَمٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ جَلاَلُهُ، مسْتَتْبَعٌ بالتَّنْفِيذِ لاَ مَحالَة، وقَدْ تَبَّ فَهَلَكَ، وهُوَ يَلْقَىٰ عِقَابَه عند رَبِّهِ هو وزَوْجَتُهُ حَمَّالَةُ الحطَبِ.

---

(١) **عشيرة الرجل**: بنو أبيه الأقربون، وقبيلته.

(٤)
التدبّر التحليلي للسورة

أوّلاً: تدبر ما يَتَعَلَّقُ بأبي لَهَبٍ من السورة:

قال اللَّهُ عَزَّ وجلّ:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣﴾.

عَرَفْنَا مِنْ سَبَبِ النُّزُول الذي رواه البخاريُّ ومُسْلمٌ عن ابن عباسٍ، أنَّ الرَّسُولَ ﷺ في أوائِلِ الْعَهْدِ المكيِّ لمَّا أنْذَرَ عَشِيرَتَهُ الأقْرَبِينَ عمَلاً بما أمَرَهُ اللَّهُ بِه فيما أوحىٰ إلَيْهِ، وَكانَ أبو لَهَبٍ فيمَنِ اجْتَمَعَ إلَيهِ في هذِه المرَّةِ المتقدّمَةِ، قالَ أَبُو لَهَبٍ للرَّسُول: «تبّاً لَكَ، مَا جَمَعْتَنَا إلاَّ لِهذَا» وجاء في رواية أنَّه قَال: «تبّاً لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلِهَذَا جمَعْتَنَا؟». ثُمَّ قَامَ وانْصَرَف.

فَانْتَصَرَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ محمَّد ﷺ، فَأنْزَلَ السُّورَةَ صَرِيحَةً بأبي لَهَبٍ وَزَوْجَتِهِ، والحكمِ عليهما بالخسْران، والعذاب الشديد في النار يوم الدين.

فِعْلُ: «تَبَّ» يدُور حول معنى الخسران، وقد يَدُلُّ على الْهَلاك.

يقال: **تَبَّتْ** يَدا فُلان، أي: خَسِرَتا. **وَتَبَّ تَبّاً وَتَبَاباً**، أيْ: خسر، أو هلك. **والتَّتْبِيبُ**: النقْصُ والْخَسَارة، وتقول العربُ في دعائها عَلَىٰ إنسان بالخسران والهلاك: تبّاً لِفُلاَن، بالنصب على المصدريّة من فعل محذوف.

«تبَّ» فِعْلٌ مَاضٍ والتّاء للتأنيث، والفاعِلُ «يَدَا أبي لَهَب».

ومَا جَاءَ فِي الآيَةِ حُكْمٌ مِنَ اللَّهِ وَقَضَاءٌ، لاَ يَقْتَصِرُ عَلَىٰ خَسَارَةِ يَدَي أَبِي لَهَبٍ، فِي مُقَابِلِ دُعَاءِ أبي لَهَبٍ عَلَىٰ الرَّسُول بأَنْ تَخسَرَ يَدَاه، فَقَدْ جَاءَ فِعْلُ: ﴿وَتَبَّ﴾ في آخرِ الآيَةِ الأُولى، للحُكْمِ عَلَيْهِ كُلِّهِ بالْخُسْرَانِ، ودَلَّ

عَطْفُ زَوْجَتِهِ عَلَيْهِ في الآيَةِ الرابعة علَىٰ مُشَارَكَتِهَا لَهُ فيما أَبْرَمَهُ اللَّهُ بَشأْنِهِ، فَهُمَا معاً مَشْمُولاَنِ بالْوَعِيدِ بِالْخُسْرَانِ وبالعذابِ بِلَهَبِ نَارِ جَهَنَّم يوم الدين.

فقولُ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾.

دَلَّ على أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ أَبْرَمَ حُكْمَهُ وَقَضَاءَه بخسارَتِهِ فيمَا تَكْسِبُ يداه، في مقابل دُعَائِه على الرَّسُولِ بدعاءٍ لاَ يَسْتَجِيبُهُ اللَّهُ، والحكمَ عليه بخسارته كلَّ ذَاتِهِ، علَىٰ أَنَّ إطْلاَقَ الْيَدَيْنِ قد يكونُ مِنْ إطْلاَقِ الْبَعْضِ وَإرَادَةِ الكُلِّ، ومَنْ كَانَ مِنَ المخلَّدِين في عَذَابِ النَّارِ يوْمَ الدِّينِ فَقَدْ خَسِرَ كُلَّ ذاتِهِ لاَ مَحَالَة.

وَجاءَ في الآية اختيارُ كنيته «أبي لَهَب» دُون اسمه «عبد العزَّىٰ» لعدّة دَوَاعٍ حكيمة:

الدّاعي الأول: شُهْرَتُهُ فِي قَوْمِهِ بأبي لَهَب، فقد كان يُكَنَّىٰ بِذَلِكَ في الجاهلية لأنَّ وَجْهَهُ قَدْ كانَتْ فِيهِ حُمْرَةٌ كَحُمْرَة اللَّهَب.

الداعي الثاني: إيثارُ الابْتِعَادِ عَنْ ذِكْرِ اسْمِهِ «عَبْدِ الْعُزَّىٰ» فَهُو في الحقيقَة لَيْسَ عبْداً للوثَنِ الّذِي كَانَ يُسَمَّىٰ عند الْعَرب الْعُزَّىٰ مؤنَّثُ «الأَعَزّ» إِذْ كان على صورة امرأة، بَلْ هُوَ عَبْدٌ مِنْ عبادِ الله.

الداعي الثالث: إيْثَارُ التناسُبِ اللّفظي بيْنَ كُنْيَتِه الدَّالَّةِ عَلَيْهِ، والنار ذاتِ اللَّهَبِ الّتِي هُوَ صَائِرٌ إلَيْهَا لاَ مَحَالَة، فَقَدْ جاءَ فِي السُّورَةِ بيانُ أَنَّهُ سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ، ولا يخْفَىٰ مَا فِي هَذَا مِنْ إبداع بيانيٍّ دلّ عليه مُقابَلَةُ ما كان يُمْدَحُ به منْ إشراق وجْهٍ هُوَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ لاَ مِنْ كَسْبه، بمَا سَيَنْزِلُ بِهِ مِنْ عَذَابِ لهَبِ النار، عقاباً لَهُ عَلَىٰ مَا هُوَ من كسْبه.

كان أبو لَهَب معتزّاً في إعْلاَنه معاداةَ الرَّسُولِ ﷺ ومُعَادَاةَ الإسلام،

وإعلانِهِ مُقَاوَمَتَهما، بما ملكَتْ يداه من مالٍ، وبما يَقْدِرُ عَلَىٰ كَسْبِهِ مِنْ أعْمَال، ومنها كسْبُه مِنْ أولاده الّذين كان يتقوّىٰ بهِمْ، ومِنْها مُتَابَعَاتُهُ للرَّسُولِ فِي مَوَاقفِ دَعْوَتِهِ لقومِهِ كالمتابَعةِ الّتِي رُوِيتْ عَنْ طارقِ المحاربيّ، قال:

بيْنَا أنا بِسُوقِ الْمَجاز، إِذْ أَنَا برَجُلٍ حَدِيثِ السّنّ يَقُول: «أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لاَ إِلَهَ إلاَّ الله تُفْلِحُوا».

وإِذَا رَجُلٌ خَلْفَهُ يَرْمِيهِ، قَدْ أَدْمَىٰ سَاقَيْهِ وَعُرْقُوبَيْهِ، ويقُولُ: يَا أَيُّها النَّاسُ إنَّهُ كَذَّابٌ فَلاَ تُصَدِّقُوهُ.

فَقُلْتُ مَنْ هٰذَا؟. فقالُوا: هذا محمَّدٌ يزعُمُ أَنَّهُ نَبيٌّ، وهذا عَمُّهُ أبو لَهَب[١].

لمَّا كان أبو لَهبٍ معتزّاً هذا الاعْتِزَازَ بما مَلكَتْ يَدَاهُ من أمْوالٍ، وبمَا يَقْدِرُ عَلَىٰ كَسْبِهِ مِنْ أعْمَالٍ، كانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يقول اللّهُ بِشَأْنِهِ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ وقَدْ عَلِمَ اللّهُ مَا فِي عُمْقِ نَفْسِهِ مِنْ شَرٍّ لَنْ يَتَحَوَّلَ عنه طَوالَ عُمْرِهِ، أي: خَسِرَتْ يَدَاهُ أَمْوَالَهُ الّتِي يملِكُهَا بِهِما، والّتِي بِهَا تَقْوَيَانِ علَىٰ حَرْب الرسول ﷺ وَمُقَاوَمَةِ دَعْوَتِهِ، وَخَسِرَ هُوَ كُلُّهُ في كُلّ مَا يَكْسِبُ مِنْ أعْمَالٍ بفكْرِهِ، وبلسانه، وبحركات جَسَدِهِ، وتَبَّ هو كُلُّهُ فيما كَسَبَ وَيَكْسِبُ مِنْ أوْلاَدٍ كَفَرَةٍ مِثْلِه يَتَقَوَّىٰ بِهِمْ وَيَعْتَزُّ.

وإذا خَسِرَ مالَهُ، وخَسِر سَائرَ كَسْبِه في الأعْمَالِ العدائيَّةِ والكيديّة، لم يَبْقَ لَهُ شيءٌ يسْتَنْصِر به، فيخيب مَسْعَاهُ ويكونُ مَهْزُوماً ذَلِيلاً، حَسِيراً خاسِئاً.

ومِنْ مظاهر خسارته المعجَّلة في الدنيا، أنّ ابْنَهُ عُتَيْبَةَ، الّذِي كان

---

(١) عن تفسير التحرير والتنوير. لابن عاشور.

زوْجَ أم كُلثوم بنت الرسول ﷺ، لمّا أمَرَهُ أبواهُ بتَطْلِيقِهَا، جاءَ إلَىٰ النبيّ ﷺ، فقال لَهُ: كَفَرْتُ بدينِكَ، وَطَلَّقْتُ ابْنَتَكَ، وَأَقْبَلَ على الرسُول ﷺ فشَقَّ قميصه.

فقال الرسول ﷺ له: أَمَا إنّي أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُسَلِّطَ عَلَيْكَ كَلْبَةً.

فخَرَجَ عُتَيْبَةُ مع تُجّار من قريشٍ نحو الشّام، حتَّىٰ نَزَلُوا بالزّرْقَاءِ، فَأَطَافَ بِهِمْ أَسَدٌ تِلْكَ اللَّيلَة، فجعَلَ عُتَيْبَةُ يَقُولُ: هٰذَا وَاللَّهِ آكِلِي كَمَا قَالَ مُحَمَّد، قاتَلَنِي ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ وهُوَ بِمِكّةَ وَأَنا بالشّام، فانْصَرَفَ الأَسَدُ، فَنَامُوا، وَجَعَلُوا عُتَيْبَةَ وَسَطَهُمْ، فَأَقْبَلَ فِي اللَّيْلِ يَتَخطَّاهم، حَتَّىٰ أخَذَ بِرَأسِ عُتَيْبَةَ فقتَلَهُ.

لكنّ الخسْرَان الأَعْظَمَ والعذابَ الأَكبر هو ما يُلاقيه يوْمَ الدين، جزاء ما اقترف في حياة الابتلاء في رحْلَة الحياة الدُّنيا.

● قول اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾.

أي: مَا نَفَعَهُ مَالُهُ الذي اعْتَزَّ بِهِ، وَمَا نَفَعَهُ مَا كَسَبَ مِنْ أعْمَالٍ، بَلْ بَاءَ بالخيبَةِ والْخُسْرَان.

يُقَالُ لُغَةً: أغنَىٰ الشيءُ فلاناً إذا كَفَاهُ، ويقالُ: أغْنَاهُ إذَا نَفَعَهُ وَأَجْزَأَ عَنْهُ، ويقالُ: أغنَىٰ عَنْهُ هٰذَا الأمْرُ، أيْ: أجْزَأَ عَنْهُ وَنَفَعَه، وَمَا أغنَىٰ عَنْهُ شيئاً، أي: لم يَكْفِهِ ولم يَنْفَعْهُ بِشَيْءٍ.

لَقدِ انْتَصَرَ الإسلام، وهُزِمَ الشِّرْكُ، وعَلَتْ كلمة لا إلَه إلاَّ الله، ونُكِّسَتِ الأوْثَانُ وحُطِّمَتْ، وخابَ زُعَماءُ المشركين وهُزِمُوا وانْكَسَرُوا، ودَخَلَ مُعْظَمُ أتباعهِمْ في الإسلام في زمن من عُمْر الأجيال قصير، وقامَتْ للرّسُولِ والذين آمَنُوا معه دَوْلَةٌ قَويّةٌ، وَصَارَتْ لَهُمْ فِي الحجاز صَوْلَة، وتَضاءَلَتْ دَوْلَةُ مُشْرِكي قُرَيشٍ.

فَمَا كَانَ حُكْماً رَبّانيّاً بكلماتِ اللّهِ فِي: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ صَار بَعْدَ قليلٍ من الزّمَنِ حقيقَةً واقِعَةً أنبأَ عَنهَا مُقَدَّماً قولُ الله تَعالَىٰ: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ لقد كان هذا خبراً مُعَجَّلاً سابقاً لما نزلَ بأبي لهَبٍ وَنُظَرائِهِ بعْدَ حينٍ مِنْ هزيمةٍ وخيبة، فلا مَالُهُ نَفَعَهُ في الانْتِصَار على الرسُول وصَحْبه، وإيقافِ انتشار الإسلام وامتدادِه، ولاَ سَائِرُ كسْبِهِ الكَيْدِيّ نَفَعَهُ أيّما نَفْع، بل لاحقَتْهُ وسائر المشركين من قومِهِ الهزائمُ والنَّكَبَات، ونَصر الله رسُولَهُ والمؤمنين معه، وأعزَّ دِينه.

- قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾.

أي: وإذا جَاءَ أجَلُ مَوْتِه سَيُلاقي العذابَ والذُّلَّ والصَّغار، وسيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ يُحْرِقُ جِلْدَهُ، فَيَذُوقُ عَذَابَ الْحَرِيقِ، آناً فآناً بصُورَةٍ مُتكَرِّرَةٍ مُتَجَدِّدَة.

سَيَصْلَىٰ ناراً: أي: سَيُعَذَّب بالْحَرِيقِ فِي النّارِ. يُقَالُ لُغَةً: صَلِيَ النّارَ، وصَلِيَ بِها، إذا احْتَرَقَ فيها، ولامَسَ لَهَبُهَا جَسَدَهُ مُحْرِقاً.

اللّهَب: ألْسِنَةُ النّار الّتي ترْتَفِعُ من الموادّ الّتي تَحْتَرِقُ فيها.

واستعمالُ السين في عبارَة ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا﴾ دون حرف التسويف «سوف» قد يُشْعِرُ بأنّه في مُدَّةِ البرزخ بين الموت والبعث تُعَذَّبُ نفْسه بعذاب حَرِيقٍ بنارٍ يجعلُ الله لها خصائص عذاب لَهَبِ نارِ جهنَّم يومَ الدّين، بدليل أنّ النصوص الْقُرآنيّة الّتِي جاء فيها بيان العذاب في نار جهنَّم يَوْمَ الدِّين، قد جاء فيها استعمال حرف «سوف» لا حرف «السين» ويدلُّ استقراء النُّصوص القرآنية على أنّ «سَوْفَ» تستعمل للمستقبل البعيد، وأنّ «السين» تُسْتَعمل للمستقبل القريب.

فلا يخدَعَنَّهُ مِنْ نَفْسِه أنّ قَوْمَهُ رَأَوْا حُمْرَةَ وَجْهِهِ ووضاءَتَهُ فكَنَّوْهُ بأَبِي

لَهَبٍ، فإنَّ ظُلُماتِ نَفْسِهِ، وقَلْبِهِ، وظُلماتِ كُفرِهِ وسُوءِ عَمَلِه، وكيْدِهِ السّيِّئ ضِدَّ الرسول ﷺ وضدّ دعوة الحق، وضدّ الّذين آمنوا به واتَّبَعُوه، ستجعل جزاءه العادل العذاب بالحريقِ بلَهَب النار، ويَوْمَ الدّين يكون عذابُهُ حَرِيقاً بنَار جهنَّم، خالداً فيها مُخَلَّداً أبداً، فالعذابُ بنار جهَنَّمَ يوم الدِّين يَكونُ بمثابَةِ الاسْتِمْرَارِ لعذاب نفْسِهِ بيْنَ الْمَوْتِ والبعث.

وهذا الحكم الصادر عن الله على أبي لَهَبٍ وامرأته، وهُمَا مَا زَالاَ في حيَاةِ الابْتِلاَءِ، دليلٌ على أَنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ عَلِمَ مَا فِي عُمْقِ أفْئِدَتِهِمَا مِنْ كُفْرٍ لَنْ يَتَحَوَّلاَ عَنْهُ، مهما تَعَرَّضَا لمختلف أنواعِ صُوَرِ الإقناعِ والترغيب والترهيب، ووسائل التربيةِ والتأديب، وعَلِمَ أنَّهما سيَمُوتَانِ علَىٰ كُفْرِهِمَا، فحَكَمَ عليهما بِالعذابِ الأبديِّ وهُمَا ما زَالاَ حيَّيْنِ في الدنيا.

فالنّصّ حُكْمٌ صَادِرٌ عن اللَّهِ، وليْسَ مُجَرَّدَ إنْذَارٍ وتَهْدِيد مُعَلَّقَيْنِ على اسْتِمْرَارِهِمَا علَىٰ الكُفر، وكُفْرُهُمَا كُفرٌ إراديٌّ اختياريٌّ مِنْهُمَا، لَمْ يُجْبَرَا عليه، وقَدْ عَلِمَهُ الله بواسِعِ عِلْمِهِ المحيط بكلّ شيءٍ، حتَّىٰ مَا فِي أعماق النفوسِ والقلوبِ والأَفْئِدَةِ، كمَا قال جَلَّ جلالُهُ، في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾.

ثانياً: تدبّر ما يتعلّق بامرأة أبي لهب من السورة:

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾.

وامْرَأتُهُ: أي زَوْجَةُ أبي لَهَب، وهي أمّ جَمِيلٍ أَرْوىٰ بِنْتُ حَرْبِ بْنِ أمَيّةَ، أُخْتُ أبي سُفْيَانَ بْنِ حَرْب.

والمعنى: وستَصْلَىٰ امرَأتُه ناراً ذَاتَ لَهَبٍ، فقوله: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ معطوف على فَاعل: ﴿سَيَصۡلَىٰ﴾ الْمُسْتَتِر، أي: سيَصْلَىٰ هُو وامرأتُهُ ناراً ذَاتَ لَهَب، فهي تَعَذَّبُ مثْلَ عَذَابِهِ، لأنّها كانت مُشارِكَةً لَهُ في جَرائِمِهِ ضَدَّ رَسُولِ اللَّهِ وَدَعْوَتِهِ، وسبَقَ بيانُ أَنَّها كانت تَحْمِلُ الْحَطَبَ ذَا الشَّوْكِ فَتَطْرَحُه ليلاً في طَرِيقِ النبيِّ ﷺ إيذاءً لَهُ ولأصْحَابِهِ، وَذَكَرَ مجاهد، وقتادةُ، والسُّدِّيّ، أنَّها كانَتْ تَمْشِي بالنَّمِيمة لتُفْسد بيْنَ الناس، ومِنَ المتعارفِ عليه عند العرب أَنَّهُمْ كَانُوا يُكَنُّونَ عمَّنْ يَمْشِي بيْنَ الناس بالنَّمِيمَةِ بعِبَارَةِ «حَمَّال الحطب» أي: هُو نمَّامٌ بَيْنَ بُيُوتِ الْعَرب ويَسْتُرُ غَرَضَهُ مِنَ التَّنَقُّل بأنَّهُ يَحْمِلُ الحطبَ الَّذِي يجلُبُه ليبيعَهُ عَلَىٰ أصحاب البيوت، ولعلَّها كانت عادة الحطّابين بَيْنَ العرب، فصار حمْلُ الحطب كنايَةً عن النميمة، وصار يكنىٰ عن النّمام بعبارة: حمّال الحطب، وقد كانت نميمة أم جميل هذه وسيلة من وسائل تقطيع الناس عن الرسول ﷺ، ومقاومة دَعْوَتِه، لشدَّة عداوتها.

ولا مانع من أنّ هذه المرأة قد كانت تفعل هاتين الخسيستين، النميمة، وإلقاء حطب الشوك في طريق الرسول ﷺ.

حَمَّالَة الحطب: قراءة جمهورُ القراء العشرة برفع (حَمَّالَةُ) على أَنَّهُ نَعْتٌ للفظ: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾.

وقَرأَ عَاصِمٌ: ﴿حَمَّالَةَ﴾ بالنَّصْبِ، على أَنَّه مَفْعُولٌ بِهِ لِفِعْلٍ محذوفٍ تَقْدِيرُهُ: **أذُمُّ**، والنصبُ على تقدير فعل الذّم أو المدح شَائِعٌ في لسان العرب.

قولُهُ تَعالَىٰ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ٥﴾:

الجيدُ: الْعُنُق، ومُقَدَّمُهُ، وَمَوْضِعُ الْقِلادَة.

والْمَسَدُ: اللِّيفُ، وحَبْلُ اللِّيفِ حبْلٌ خَشِنٌ، وهُوَ لاَ يَصْلُحُ قِلادَةً للنِّسَاءِ، لكنَّهُ يُسْتَعْمَلُ حَبْلاً مَهِيناً لجرّ الدوابّ المحتقرة كالْحَمِير، **أمَّا الجيادُ** وَكرائِمُ الإبلِ فَيُوضَعُ في أَعْنَاقِها حِبَالٌ نفيسَةٌ.

وَعِبَارَةُ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝﴾ تَصْلُح كِنَايَةً عن كون هذه المرأة بِمَثَابَةِ دَابَّةٍ مُحْتَقَرَةٍ، يكْفي لقيادَتِها حبْلٌ خَشِنٌ مِنْ لِيفٍ، إذْ هِيَ حمْقَاءُ لا عَقْلَ لَهَا وَلاَ رُشْدَ عِنْدها، ولا تعْمَلُ إلاّ وفْقَ انفعالاتها ونزوَاتِها الرَّعْنَاءِ بحدَّةٍ وغضَبٍ وشرّ.

ويَدُلُّ علَىٰ لُؤْمِهَا وَخِسَّتِهَا وَنُزُولِ مستواها إلى مستوى دابّةٍ يكْفِي لجَرِّها مِنْ جِيدِها حَبْلٌ خَشِنٌ من لِيفٍ، ما كانت تفْعَلُهُ مِنْ قطع سَبيلِ الرسولِ والمؤمنينَ بحَطبِ الشوْكِ، ليعْقِرَهُمْ وهُمْ سَالِكُونَ في اللّيل، ومثل هذا العمل لا يَفْعَلُه إلاّ السُّخَفَاءُ السُّفَهَاءُ ضُعَفَاءُ العقول، وما كانتْ تَفْعَلُه مِن التحريض على الرّسول ودعْوَتِهِ بوسيلةِ النميمة، والنميمَةُ من أقبح الوسائل التي يقومُ بها شِرار الْخَلْقِ من الناس، إذْ دوافِعُها الخِسَّةُ والسّفاهَةُ واللُّؤْمُ وخُبْثُ النفس، ولا سيما إذَا كان ذلِكَ ضدَّ الحقِّ والخير والْهُدَىٰ، ولمُقَاوَمَةِ أخيار الناس وفضلائهم، فكيف بها وهي تفعله ضدّ رسول اللَّهِ وضدّ دين الله الحقّ.

وعبارةُ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝﴾ تَصْلُحُ بَيَاناً لمَا سَتَكُونُ عليه يوم الدّين في دَار العذاب، إذْ تُطَوَّقُ يَوْمئذٍ بطَوْقِ إهانَةٍ وإذْلاَلٍ وتَحْقِيرٍ، مَعَ مَا تُعَانِي مِنْهُ مِنْ عَذَابِ نار الحريق فِي جهنّم وبئس المصير.

أمّا الأقوال الأخرى التي ذكرها المفسّرون فلم أجِدْ فيها روايَةً مرفوعةً إلَىٰ الرسول ﷺ، فأعرضْتُ عنها.

ماذا كان من هذه المرأة بعد نزول سورة المَسَد

أخرج ابْنُ أبي حاتم وأبو زُرْعَة عن أسماء بنت أبي بكر قالت: «لمّا نزلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ أقبلَتِ العوراء أمُّ جميل بنْتُ حَرْبٍ ولَهَا وَلْوَلَةٌ، وفِي يَدِها فِهْرٌ[1]، وهِيَ تَقُولُ:

(١) الفهرُ: الحجَرُ.

مُذَمَّماً أَبَيْنَا. وَدِينَهُ قَلَيْنَا. وأَمْرَهُ عَصَيْنَا.

ورَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ في الْمَسْجِدِ ومَعَهُ أَبُو بكْرٍ، فلَمَّا رَآها أبو بكر، قال: يا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَقْبَلَتْ وأَنَا أَخَافُ أَنْ تراكَ، فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي».

وقرأ قرآناً اعْتَصَمَ بِهِ كمَا قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾.

فَأَقْبَلَتْ حَتَّىٰ وَقَفَتْ عَلَىٰ أَبِي بَكْرٍ، وَلَمْ تَرَ رَسولَ الله ﷺ، فقالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنِّي أُخْبِرْتُ أَنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي، قَالَ: لاَ وَرَبِّ الْبَيْتِ ما هجَاكِ[1]، فَوَلَّتْ وهِيَ تقولُ: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي ابْنَةُ سَيِّدِهَا».

وأَخْرَجه البزّار بمعناه، وقال: لا نعلمُهُ يُرْوَىٰ بأحْسَنَ مِنْ هٰذَا الإِسْنَادِ.

وتمَّ تدبُّر سورة (المسد) بعون الله وتوفيقه.

❁ ❁ ❁

---

(١) يريد أنّ الله هو الذي أنزل بشأنها ما أنزل.



سُورَةُ التَّكوِير

٨١ مصحف ٧ نزول



(١)

السورة وما فيها من قراءات من الفرش

سورة التكوير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ

٦ ـ ● قرأ ابن كثير، وأَبُو عَمْرو، ويَعْقُوبُ: [سُجِرَتْ] بدون تشديد الجيم.

● وقرأ باقي القراء العشرة: [سُجِّرَتْ] بِتَشْدِيدِ الجيم.

٩ ـ ● قرأ أبو جعفر فقط [قُتِّلَتْ] بتَشْدِيد التاء قبل اللام.

● وقرأ باقي القراء العشرة: [قُتِلَتْ] بتخفيفها.

١٠ ـ ● قرأ نَافع، وابْنُ عَامرٍ، وعاصم، وأبو جعفر، ويعقوب: [نُشِرَتْ] بتخفيف الشين.

● وقرأ باقي القراء العشرة: [نُشِّرَتْ] بتشديد الشين.

١٢ ـ ● قرأ نافع، وابْنُ ذكوان، وحفص، وأبو جعفر، ورُوَيس: [سُعِّرَتْ] بتشديد العين.

وقرأ الباقون: [سُعِرَتْ] بتخفيف العين.

مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

٢٤ - ● قرأ ابنُ كثير، وأبو عَمْرو، والكسائي، ورُويسٌ: [بظَنِينٍ] بالظاء.
وقرأ الباقون: [بِضَنِينٍ] بالضاد.

(٢)
ممّا رُوي عن النبيّ ﷺ بشأن هذه السورة

أخرج الإمام أحمد، والترمذيُّ وحسَّنه، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابنُ مردويه، عن ابن عُمَر، قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ، فَلْيَقْرَأْ: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وإِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ، وإِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ».

أي: فليقرأ السُّور الثلاث، المفتتحة بهٰذِهِ الآيَاتِ الثلاث، وهي سور «التكوير» و «الانفطار» و «الانشقاق» وربما نفهم من هذا الحديث أنّ الرَّسُول ﷺ سمَّىٰ هذه السُّوَر الثّلاث بالآيَاتِ الّتي افتُتحَتْ بها، ورُبَّما يكونُ عَمَلُه مجرَّد تمييزِها عن غيرها بذِكْرِ الآيَةِ الأولَىٰ من كُلِّ منها، ومثلُ هذا التّمييز كثيرٌ في بيانات الرسول ﷺ.



(٣)

موضوع سورة التكوير

● تشتمل سورة «التكوير» على عرض لقطات من أحداث يوم القيامة التي تكون عندها إماتة الأحياء وإفناء الخلائق، مع تغيير في نظام السماوات والأرض.

● وتشتمل أيضاً على عرض لقطاتٍ من أحداث يوم الدين، يوم بعْثِ الأمواتِ للحساب وفصل القضاء في محكمة العدل الرّبّانِيّة.

ومعلومٌ أنَّ يوم الدّين في خطّة التكوين الربَّانيّة هو الغايةُ المترقّبة، بعْدَ رِحْلَةِ الابتلاء في ظروف الحياة الدّنيا.

أمّا الابتلاءُ في الحياة الدنيا فلا يكون دون تبليغ الممتَحَنِين ما هو مطلوبُ الله منهم في الحياة الّتي أعِدَّتْ في خِطَّةِ التكوين لامتحانهم، وهذا التبليغ قد حصل بإرسال الرُّسُلِ الْمُصْطَفِيْن لحمل رسالات رَبِّهم وتبليغها للنّاس، وإنْزَال الكُتُبِ الرَّبَّانِيَّةِ عليهم، وَكانَ في خاتِمتهم رسول اللَّهِ محمَّدٌ ﷺ، الذي اصطفاه اللَّهُ لحَمْلِ خاتمة رسالات اللَّهِ للناس، ولِتَبْليغ آخِرِ كتُبِهِ لهم، الجامع لصفوة مَا في الكتُب السابقة، مع زيادات اقتضتها تطَوُّرَاتُ أحوال البشر، وعلاقاتهم، وثقافاتهم، وهذَا الكتابُ الخاتم هو القرآن المجيد.

وهُنَا يُقْسِمُ اللَّهُ عزّ وجلَّ في السُّورة بطائفة من الظواهر الكونيّة الّتي هي من آثار خلقه البديع الحكيم، على صِدْقِ الرسول محمّد ﷺ، وصِدْقِ بلاغاته عن رَبّه، وأنّ القرآن الذي يتْلُوهُ تباعاً على الناس كتابٌ رَبّانِيٌّ يتلقّاهُ الرسول محمّد، عن أمين الوحي جبريل عليه السّلام، تَلقّياً مباشراً، حرفاً فَحَرْفاً، وكلمة فكلمةً، في تنزُّلاَتٍ تتتابع، وقد شاهَدَهُ مُشاهدةً بصريّة بالأُفُقِ، في إحدىٰ مرّاتِ ظهوره له، وهو كامل الوعي، كامل الإدراكات الحسيّة والعقليّة.

ومضامين القرآن تدلُّ على أَنَّه رَبَّانيُّ التنزيل، وأنه لا يمكن أنْ يكونَ بَشَرِيّاً، وَلاَ أن يكون من مصْدَرِ شيطاني، وتَدُلُّ على أنَّهُ هِدَايَةٌ وَذِكْرٌ للعالمين جميعاً، عليهم أن يضعوه في ذاكراتهم، للعمل بما يهديهم إليه.

وسورة «التكوير» في وحدة موضوعها تنقسم إلى درسَيْن:

الدرس الأول: فيه مقطعان:

- مقطع يشتمل على ذكر لقَطَات من أحْدَاث يوم القيامة، وهي القيامة التي تكون عندها إماتَةُ جميع الأحياء، مع تغييرٍ في نظام السَّمَاوات والأرض، وهو الآيات (من ١ ـ ٦).

- ومقطع يشتمل على ذكْر لقطاتٍ من أحداث يوم قيامة الأموات إلى الحياة الأخرى، المعدَّة في خطّة التكوين للحساب وفصل القضاء في المحكمة الرَّبَّانيّة العظمىٰ، ولتنفيذ الجزاء، وهو الآيات من (٧ ـ ١٤).

الدرس الثاني: يشْتَمِل على تأكيد صدقِ الرسول فيما يُبَلِّغ عن ربّه، وتأكيد كون القرآنِ كتاباً رَبَّانيّاً يتنزَّلُ من لَدُنْ رَبّ العالمين، ويبلّغُهُ للرسول محمد ﷺ أمينُ الوحْي جبْرِيلُ عليه السلام، في حالَةِ كون الرسول محمد ﷺ كامل الوعي، في حواسه الظاهرة والباطنة.

ويشتمل على بيان أنَّ القرآن أنزلَهُ الله ليكونَ هدايةً وذكراً لجميع العالمين حتّىٰ تقوم الساعة.

وبين الدَّرْسَيْن مَطْوِيَّاتٌ فكريَّةٌ يمكن بالتَّأمُّلِ الذهنيّ استخراجُها، وهذه المطويّاتُ تصِلُ الدَّرْسَ الثاني من السورة بالدرس الأول منها.



(٤)

التدبُّر التحليليّ للدرس الأول من السورة
وهو الآيات من (١ ـ ٦)

أوّلاً: الآياتُ من (١ ـ ٦):

قَالَ اللَّهُ عَزّ وجَلّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾.

تمهيد:

تَضَمّنت هذه الآيات السّتُّ الإخبار بوقوع أحداثٍ ستٍّ كُبرىٰ، مستقبليّة ستقع قبيل قيام السّاعة التي يكون بها إنهاء ظُروف الحياة الدنيا، وكلِّ النظام الكونيّ المرتبط بها.

وجاء بعدها سبع آياتٍ تضمَّنَتِ الأخبارَ بوقوع أحداثٍ ستٍّ أخرى، بعد انتهاء مُدَّة البرزخ الفاصل بين إنهاء ظروف الحياة الدنيا، وبَدْءِ ظروف الحياة الأخرى بالبعث إلى يوم الدين.

وقَد جاء بيان هٰذه الأحداث المستقبليّة مقترناً بكلمة ﴿إِذَا﴾ التي هي اسم شرط لما يستقبل من الزمن، يتطلّبُ شرطاً وجواباً له.

ومعلومٌ أنّ من شأن الشرط أن يعقد ارتباطاً بين جملَتَيْن خَبَرِيَّتَيْن، أولاهما جملَةُ الشرط، وهذه الجملة الشرطيّة تتطلَّبُ جملَةَ أخرىٰ هي جوابُ الشرط.

وتدخل كلمة ﴿إِذَا﴾ الشرطيّة في الغالب على ما هو متحقِّق الوقوع مستقبلاً عند المتكلّم.

وجاءت كلمة ﴿إِذَا﴾ الشرطيّة في هذه السّورَة مكرّرةً (١٢) مرّة، ومقترنة غير الأولى منها بحرف العطف، وداخلة على (١٢) جملةً شرطيّة، فالشرْط مؤلفٌ من اثْنَيْ عشر حدثاً، أمّا جواب الشرط فقد جاء جملةً واحدةً هي آية: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

أمّا الأحداثُ التي جاء في السّورة بيان أنّها ستكون قُبَيْل قيام السّاعة الّتي يكونُ بها إِنهَاءُ ظُرُوفِ الحياة الدنيا، والنظام الكونيّ المرتبط بها، فهي ما يلي:

الحدثُ الأوّل:

«تكويرُ الشَّمس» دلَّ عليه قول اللَّهِ عزَّ وجلّ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾.

التكويرُ في اللّغة: إدارة شيءٍ ذي طولٍ كالعمامة بَعْضِه علَىٰ بعْضٍ، وكلُّ دَوْرٍ في عمليّةِ التكوير يسَمَّىٰ: كَوْراً.

وقالوا في تفسير تكوير الشمس هو جَمْع ضَوْئها، ولَفُّهُ كَمَا تُلَفُّ العمامةُ على الرأس. وقال الأخفشُ وأبو عبيدة: تُلَفُّ فَتُمْحَىٰ.

أقول: هذا حدَثٌ سيكونُ في الشمس قُبَيْل قيام الساعة لإِنْهَاءِ نظام الحياة الدنيا، وإماتَةِ الأحياء، جاء التعبير عنهُ بتكْوِير الشمس.

وجاء في سُورَة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) بيان أنَّ الشمْسَ والْقَمر يجمعان قُبَيْلَ قيام الساعة، مقدّمة لقيامها، فتَبْلَعُ الشَّمْسُ القمَرَ فيكونُ جزءاً منْها.

وباستطاعة المتدبّر أنْ يأخُذ من فِكْرَةِ تكْوِير الشمس أنَّ جِرْمَها عند إجراء هذا الحدث فيها، لا يكون قد فَنِيَ كمَا يفنىٰ الوقود بالاشتعال إذا توَقَّفَ عن النار الإمداد به، بل تكون الشمس عندئذٍ في جِرْمِهَا صالحةً للإمداد بالوقود اللاّزم لبقاء ضيائها، وإمداد أَلْسِنَتِها اللاّهبة.

فالحدث الذي يجريه الله في الشمس هو مَحْوُ ضيائها بطريقةٍ حكيمةٍ تخضع لأنظمته في كونه، دون إعدام ما هو باقٍ من مادّتها.

نطالع فيما توصّل إليه علماء الفلك بشأن الشمس فنجد لديهم الأوصاف التالية لها. قالوا:

(١) حجْم الشمس يعادل أكثر من مليون مرّة من حجْم الأرض.

(٢) وقطْرُها يبلُغ نحو مليون وأكثر من ثلث المليون من الكيلومترات.

(٣) وَجاذبيّتُها نحو (٢٨) ضعف جاذبيّة الأرض.

(٤) والشمس ليسَتْ كتلةً مادّيّةً صلبة، بل هي كتلَةٌ من الغاز الملتهب.

(٥) وجَوُّ الشمس فوق سطحها تندفع منه فَوَّاراتٌ من الغاز المحترق تمتدّ لمسافة آلاف الكيلومترات ارتفاعاً وبصورةٍ دائمة.

(٦) والغلَيانُ المستمرّ في سطح الشمس المضيء ينفثُ ألسنةً ضخمةً من الغاز المشتعل الذي يرتفع إلى ما فوق جوّ الشمس، وهٰذِهِ المقذوفات الشمسيّة تنفجر بصورة مفاجئة، ويبلُغُ امتدادها مئات الآلاف من الكيلومترات.

(٧) وعواميد الغاز الضخمة الّتي تؤلف رؤوسها سطح الشمس المضيء ليست متراصّةً بتباعُدٍ منتظم، وليسَتْ كُلُّها بارتفاعٍ واحدٍ، وهذا يؤدّي إلى فراغٍ وظِلَالٍ على سَطْح الشمس.

بعد هذه المطالعة اليسيرة الّتي قدّمَتْ لنا هذه الصورة الوصفية عن الشمس، أخذاً ممّا توصّل إليه علماء الفلك من معلوماتٍ عنها، نستطيع أن نقول: إنّ أمثل طريقة لمحْوِ ضياء الشمس مع بقاء ما فيها من مواد صالحة

للتفجّر والاشتعال، تكون بلَفِّ ألسنة الغاز الملْتهبِ، ولفِّ أعمدة الغاز الضخمة، وتكْويرها كوْراً فوقَ كَوْرٍ على الموادّ ذاتِ الكثَافةِ الشديدَةِ في باطنها حول مركزها، وضغط هذه الألسنة الغازيّة، والأعمدة الغازيّةِ التي يبلُغُ امتدادُها مئات الآلاف من الكيلومترات، لمنْع التفجُرَاتِ النوَويَّةِ التي تحْدُثُ في باطنها، وتُمِدُّ بألسنة الغاز الملتهب إلى سطحها.

وبهذا التكوير والضغط على مركز الشّمس ينمحي الضياء، وتشْتَدُّ كثافة الشمس، حتّىٰ تصير المواد الغازيّة بشدّة كثافتها شبيهةً بالموادّ الصلبة، مع بقاء القوى الالتهابيّةِ كامنةً فيها، والله على كلّ شيءٍ قديرٌ.

هذه هي الظاهرة الّتي تكونُ في هذا الحدث العظيم، أمّا الوسيلة السببيّة لحدوث هذه الظاهرة فأمْرٌ من أمور الغيب الّتي يعلمها الله، ولا نَمْلِكُ حتّىٰ الآنَ أماراتٍ عنها.



الحدث الثاني:

«انكدار النجوم» دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾.

الانكدار: هو الإسراع المتوسط في العدْوِ، يقالُ لغة: انكَدَرَ الفرسُ يَعْدُو، أي: أسْرَعَ بعض الإسراع.

ويأتي الانكدارُ بمعنَىٰ الانقضاض، يقال لغةً: انكدر الطائر، إذا انقضّ وهوَى في طيرانه بسرعة يريد الوقوع على شيءٍ ما كفريسة.

وقد يكون الانكدارُ من الكُدْرَة، وهي اللَّوْنُ الضاربُ إلىٰ السَّواد والْغُبْرَة، والمختلط بالأكدار التي تُذْهِبُ صفاءه، وقد يكون هذا قبل انطماسها.

وجاء في تفسير: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ عند المفسرين قولُهُمْ: تناثَرَتْ.

وجاء في سُورَةِ (المرسَلاَتِ/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) بيان أنّ النجوم ستنطمسُ يوم القيامة، أي: يذْهب نورها، فقال الله عزّ وجلّ فيها: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾.

طُمِسَتْ: أي: أذْهَبَ اللَّهُ نورَهَا.

ومن هذه المعاني نُدْرِكَ أَنَّ النجوم في أحداث يوم القيامة، تمرّ في مراحل حتَّىٰ تنطَمِسَ انطماساً كُلّيًا، وتَنْفَلِتُ من نظام جاذِبِياتها، وتخرج عن مَدَاراتها وَطُرُقِ سيرها، وتُسْرِعُ كالطائر المنقضّ، وتتناثَرُ في الجهاتِ على خلاف مواقعها ومسيراتها الّتي كانت لها في نظام ظروف الحياة الدنيا.

وقد استخرجنا هذا من جمع دلالات النَّصَّيْن الواردين في القرآن، بشأن ما يحدث للنجوم ضمن أحداث يوم القيامة.



الحدَثُ الثالث:

«**تَسْيِيرُ الجبال**» دلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾.

المرادُ من تسيير الجبال إزاحَتُها عن مواقعها كما تسير السفُنُ في البحار، وهذا يستلزم تغييراً كبيراً في نظام تماسُكِ الأرض مع الجبال، ليَتَهيَّأ لها أن تسير عن مواقعها مُنْزَلقة في الأرض من أعماقها إلى شواهقها.

وقد يكونُ المرادُ تسييرَها إلى باطن الأرض وتغويرها، أَوْ تفجيرها ونَسْفَها وَإذهَابَها، والله أعلم.

الأحداث التي ستتعرّض لها الجبال:

ومن استقراء النصوص القرآنية وسَبْر معانيها حول الأحداث التي

ستتعرّض لها الجبال قُبيْلَ السّاعة وعند قيامها، يظهر لنا أنّها تتعرّض لإحدى عشرة مرحلة.

المرحلة الأولى: «مرحلة الدّكّ» وهي ما جاء بيانها في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾.

الدَّكُّ: الدَّقُّ والدَّفع بقُوة، يُقال: دَكَّ الأَرْض إذَا دَقَّهَا بقُوَّةٍ حتَّىٰ يُسَوّيَ الصاعد منها بالنّازل، ولكن لا تشترط في الدكّ هذه التسوية.

المرحلة الثانية: «مرحلة جعل الجبال ليّنة كالْعِهْن، أي: كالصوف المصبوغ ألواناً، وهي ما جاء بيانها في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول) بقول الله عزّ وجلّ، في عرض بعض أحداث يوم القيامة:

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾.

الْمُهْلُ: المعدِنُ المذاب، والقطران، ودُرْدِيُّ الزيتُ، والقيح.

العِهْنُ: الصوف المصبوغ ألواناً.

المرحلة الثالثة: «مرحلة جعل الجبال كالعِهْنِ الْمَنْفُوشِ»، وهي التي جاء بيانها في سورة (القارعة/ ١٠١ مصحف/ ٣٠ نزول) بقول الله عزّ وجل:

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾.

المنفوش: المكبَّر حجْمُهُ بإحداث فراغات كثيرة بيْنَ أجزائِه.

المرحلة الرابعة: «مَرْحلَةُ بَسِّ الجبال» وهي التي جاء بيانها في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) بقول الله عزّ وجل:

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾.

البسُّ: التفتيتُ إلى أجزاءٍ صغيرة.

الْهَباءُ: التراب الناعمُ الذي تُطَيِّره الريح، ويعْلَقُ على الأشياء، أو ينبثُّ في الهواء فلا يبدو إلاّ في ضَوْءِ الشمس.

المرحلة الخامسة: «مَرْحلة جعل الجبال بالبسّ كالكثيب المهيل» وهي التي جاء بيانُها في سورة (المزّمل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول) بقول الله عزّ وجل:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

الكثيب: الرَّمل المستطيلُ الْمُحْدَوْدِبُ.

الْمَهِيل: الْمَدْفُوعُ الذي يتساقَطُ أعلاهُ على أسفله بتتابع.

هذه مرحلة تكون فيها الجبال كرمل ناعم يَسيل إلى الأرض فَيَهْبِط بتتابع من الأعالي إلى سطوح الأرض المنبسطة.

المرحلة السادسة: «مرحلة سَيْر الجبالِ سيراً غير شديدٍ مَعَ مَوْرِ السَّمَاءِ، أي: مع اضطرابها بما فيها» وهي التي جاء بيانُها في سورة (الطّور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾.

الْمَوْرُ: التحرُّكُ والتدافع والاضطراب، كالأمواج في البحر الثائر.

وسيرُ الجبال في هذه المرحلة أرى أن يُحْمَل على السّيْر العادي.

المرحلة السابعة: «مَرْحَلَةُ مُرُورِ الجبالِ كَمَرِّ السَّحَاب» وهي التي جاء بيانها في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ

ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

يدُلُّ التعبير بأنَّها تَمُرُّ كَمَرِّ السَّحَابِ على أنَّها تكونُ حِينئذٍ ناعِمةً كالْهَباء المنبثّ، فهي تتحرَّكُ في الجوّ كتحرُّكِ السَّحَابِ.

وقد يكون ما جاء في هذا النصّ تعبيراً عن حالة الجبال القائمة الآن إذ هي تتحرّكُ مع حركة كلّ الأرض في دورتها حول نفسها، وفي مسيرتها في فلكها حول الشمس. وغير ذلك مما تُثْبِتُه العلوم الإنسَانية.

المرحلة الثامنة: «مرحلة تَسْيِيرِ الجبال بقوّة» وهي التي جاء بيانُها في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول) التي نتدبّرُها على قدرنا، بقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾.

المرحلة التاسعة: «مرحلة نسف الجبالِ وَتَذْرِيتها مُتَنَاثِرَة» وهي التي جاء بيانها في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾.

وجاء بيانها أيضاً في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾.

يَنسِفُها نَسْفاً: أي: يقْتَلِعُهَا مِنْ أُصُولها، ويَسْحَقُها ويُذْرِيها.

فَيَذَرُها: أي: فيجْعلُها.

قاعاً: أي: أرضاً مستوية، أي: فيجعل مكانها قَاعاً.

الصَّفْصَفُ: المستوي من الأرض الذي لا نبات فيه.

العِوَجُ: الانحناء والالتواء.

الأمْتُ: الاختلاف في المكان ارتفاعاً وانخفاضاً ورقَّةً وصَلابَة.

المرحلة العاشرة: «مَرْحَلَةُ تَسْيِيرِ الجبال حَتَّىٰ لاَ يُرَىٰ مِنْ آثارِها إلاَّ مِثْلُ السَّرَاب رُؤيَةٌ بلا حقيقة» وهي التي جاء بيانها في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول) بقول الله عزّ وجل:

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾.

المرحلة الحادية عشرة: «مَرْحَلَةٌ لاَ يَبْقَىٰ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ أيُّ أَثَرٍ وَلاَ مِثْلُ السَّرَاب» وهي التي جاء بيانها في سورة (الكهفِ/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾.

هذه هي المراحل التي وردت في القرآن بشأن الجبال، أمَّا الترتيب بين هذه المراحل، فبعضها يكتشفه المتدبّر بيسر، وبعضها يختلط عليه الأمر، وبعضها أحداثٌ سابقة للنفخة الأولى، وبعضها أحداثٌ تأتي بعد النفخة الثانية، واللَّهُ أعلم كيف يكون ترتيبُها الدقيق في الواقع، وقد يأتي متدبّرٌ عميق التفكير ثاقبُ النظر فيهديه الله لاكتِشَافِ كيف يكون الترتيب بينها.



الحدث الرابع:

«تَعْطِيلُ الْعِشَار» دلَّ عليه قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾﴾.

الْعِشَارُ: جَمْعُ «الْعُشَرَاء» وهي من النوق ما مضىٰ على حَمْلها عشَرَةُ أشهر.

عُطِّلَتْ: أي خُلِّيَتْ وأُهْمِلَتْ بِلاَ رَاعٍ يرعاها وتُرِكتْ سائبَةً لاَ حاميَ لها ولا حارسَ يَحْرُسُها.

وكانت الْعِشَارُ أكْرَم الأموال عند العرب، يُبَالِغُونَ في رعايتها والاعْتِنَاءِ بِها، أمّا تعطيلُها وَإهمالها فَلا يكونُ إلاّ في حالة فزعٍ كبير، أو ذهُولِ بأحداثٍ جسَام، فَتَعْطِيلُ الْعِشَار مظْهَرٌ من مظاهر ذهُولِ النّاس بأحْدَاثِ الكوْنِ الْجِسَامِ قُبَيْلَ قِيامِ السَّاعَة، مُنْدَهِشين بالتَّغيُّراتِ الْعُظْمَىٰ الكونيّة.

وتَعْطِيلُ العشارِ كِنايةٌ عَنْ ذُهُولِ النَّاسِ يومئذٍ عن أكْرَمِ أمْوالِهِمْ.



الحدث الخامس:

«حَشْرُ الْوُحُوشِ»: دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾.

الحشْرُ: السَّوْقُ والجمْعُ، والوحُوشُ من الأحياء الموزَّعَةُ في الجبال، والوديان، والمغارات، والصحاري، تفِرُّ من مواطنها فزعاً من الأحداثِ الكونية، وتتجمَّعُ بتِلْقَائيَّةٍ طلَباً للأَمْنِ بالتجمّع، وهو كِنَايَةٌ عَنْ شدّةِ الْهَوْلِ العامّ الذي يَعُمُّ الأَرْضَ وأَجْواءَها.



الحدَث السّادس:

«تَسْجِيرُ الْبِحَار»: دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾ وقُرِئ بتخفيف الجيم: (سُجِرَتْ).

التَّسْجِيرُ، والسَّجْرُ: يأتي بمعنىٰ الملء. ويأتي بمعنى التفريغ. **فالْمَسْجُور**: المملوء، **والْمَسْجُورُ**: الفارغ. فاللّفظ يقع على الضّدَّيْن.

ويأتي السَّجْرُ أَيضاً بمعنىٰ الإيقاد والإحماء، يُقَالُ لغةً: سَجَرَ التَّنُّورَ إِذَا أَوْقَدَهُ.

فالمعاني اللّغوية للكلمة ثلاثة:

● أمَّا التسجير بمعنىٰ الْمَلْءِ فيكُونُ بِضَمِّ البحار بعضها إلى بَعْضٍ حتَّىٰ تكونَ بحراً واحداً، وبتَذْويب تَجمُّعاتِ الثُّلوج وضَمِّها إلى هذا البحر الواحد العظيم.

● وأمّا التَّسْجير بمعنىٰ التفريغ فيكون بتبخير مياهها بالحرارة، أو ابتلاع باطن الأرْض لها.

● وأمّا التسجيرُ بمعْنىٰ الإيقاد والإحماء، فيكونُ بتفجير موادَّ مُشْتَعِلَة من باطن الأرض كنِفْطٍ وغازاتٍ وَبراكين، وبهذا تتبخَّرُ مِياهُ البحار.

وبكلّ هذه المعاني قال أهل التأويل.

أقول: وربّما تكون كلُّ هذه المعاني مرادة، فيكون مَلْؤُها بضمّ بعضها إلى بعضٍ أوّلاً، ثمّ تَتَفَجَّرُ الموادُّ المشتعلةُ تحتها فتتبخَّرُ مياهُهَا بالحرارة العالِيَةِ، فَتَصِيرُ فارغَةً، فتَكُونُ كَلِمَةُ ﴿سُجِّرَتْ﴾ مُسْتعملةً للدَّلاَلَةِ عَلىٰ المعاني الثلاثَةِ إيجازاً بديعاً.

وقِرَاءَةُ (سُجِرَتْ) تَدُلُّ على حَالاَتٍ يكونُ فيها السَّجْرُ حركةً غير شدِيدَة، وقراءة: ﴿سُجِّرَتْ﴾ تدلُّ على حالاتٍ يكون فيها التَّسْجِير شديداً، وكلا الأمْرَين يحصلان يومئذٍ.



ثانياً: الآيات من (٧ ـ ١٤):

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

تضمَّنَتْ هذه الآيات الإخبار بوقوع أحداثٍ ستٍّ أُخْرىٰ ستَقَعُ بعْدَ الْبَعْثِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّين.

الحدث الأوّل:

«**تَزْوِيجُ النُّفُوسِ**» دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾.

التزويجُ في اللّغة: يأتي بمعنَىٰ قَرْنِ شيْءٍ بشيْء، يقال لغةً: زوّج الشيْءَ بالشيْءِ، وزوّجَهُ إليه إذا قَرَنَه به. وكلُّ شيئَيْنِ اقْتَرَنَ أحَدُهُمَا بالآخر فَهُمَا زَوْجَان.

ويأتي التزويج بمعنى جمع الأصناف بعضها إلى بعض.

ويأتي الزوج في اللّغة بمعنى الصنف والنوع، والأزواج: الأصناف والأنواع.

فيمكِنُ حَمْلُ تزويج النفوس الوارد في الآية على معنى قَرْنِ النفوس بأجسادِها ونفخ الأرواح فيها.

ويمكن حمله على معنى جمع أصناف النّاس بَعْضِهم إلى بعْضٍ، كَمَا قال الله عزّ وجلّ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) بشأن فرز أصناف الناس يوم القيامة:

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَابُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾.

وقد دارت أقوالُ أهل التأويل حوْلَ هٰذيْنِ المعنَيَيْن، ولا نجد معنىً آخر تساعِدُ عليه اللُّغة.

❁ ❁ ❁

الحدث الثاني:

«**سُؤَالُ الْمَوْؤُودَةِ عَنْ ذَنْبِهَا الَّذِي قُتِلَتْ بِهِ**» دلّ عليه قول اللّٰهِ عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾.

الْمَوْؤُودَةُ: الْمَدْفُونَةُ حيَّةً مِنَ الْبَنَات، وقَدْ كَانَ وَأْدُ البنات عادةً عنْد بعض العرب، تخلُّصاً من الفقر، أو خَوْفاً مِنْ حُدُوثِ الْفَقْرِ في المستقبل، أو خَوْفاً من الْعَار عنْدَ سبْيِهِنَّ في الغزوات الجاهليّة.

وفي التعبير عن هذا الحدث الذي سوْفَ يَجْرِي يوم الدّين إشارة إلَىٰ مشْهدٍ من مَشاهِدِ الحسَاب يومئذٍ، وهو أوّل مَا يُقْضَىٰ فيه بين الناس.

فقد روى البخاريُّ ومسلم والإمام أحمد والنسائيّ وابن ماجه، عَنْ عبد الله بْنِ مسعود، أنَّ النبيّ ﷺ قال:

«أَوَّلُ مَا يُقْضَىٰ بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ».

وروى النسائي عن عبد الله بن مسعودٍ أيضاً بإسنادٍ حسَنٍ، أنَّ النبيّ ﷺ قال:

«أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلاَةُ، وَأَوَّلُ مَا يُقْضَىٰ بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ».

إنَّهُ لمَّا كانَ قَتْلُ الموؤودة الّتي لا حول لها ولا قُوَّة من أقْبَحِ أنواعِ الْقَتْل وأشْنَعه، ومن أقبح أنواع ظُلْم الإنسانِ للإنسان، أبْرَزَ اللَّهُ من مشاهد الحساب والقضاء يوْمَ الدين مشْهَدَ المحاسبة على وأدِ البنَاتِ ظُلْماً وَعُدْواناً، وجعله أوّل ما يُقْضَىٰ فيه بين الناس.

ويُدْرِكُ المتدبّر ذو التفكير السليم، أَنّ في عرض الحساب على وأْدِ البناتِ الذي هو من أقبح أنواعِ الظلم وصُوَرِه الشنيعة، إشارةً إلى الدليل العقلِيّ الذي يهتَدِي به من يُؤْمِنُ باللَّهِ وكمالِ صفاته ومِنْها حكْمَتُه، إلَىٰ الإيمان بضرورة اليوم الآخِر، لمحاسبَةِ الناس ومجازاتهم على أعمالهم، فالحكيم العليم القديرُ لا يمكن أنْ يتْرُكَ الظّالِمين يظلمون الضعفاء دون أن يتابعهم بالمسؤوليّة والحساب والجزاء.

ومن بديع الأدب القرآنيّ وأساليبه البيانية الحكيمة، أنّ مَشْهَد المحاسبة على الوأد جاء فيه توجيه السؤال للموؤودة المظلومة، لا للوائد الظالم القاتل، فهي الّتي تُسْأَلُ: بأيّ ذنبٍ قُتِلت؟.

ومعلومٌ أنّها صغيرة لم تَجْن ذنْباً، وقَتْلُها اعْتراضٌ على خالِقِها، وعدوانٌ علىٰ حقّ اللّهِ على عباده، في احترام منْ خَلَق، وتأمينِهِ في الحياة، وعدَمِ العدوان عليه.

وحين تُسْأَلُ الموؤودة: بأيّ ذنب قُتِلَتْ؟ تجيب بأنّها لا ذنب لها غير أنّ اللّهَ خَلَقها أنثىٰ.

هذا السؤال هو أحَدُ مشاهد مجلس القضاء في محكمة الرّبّ يوم الدين، وقد اكتفَىٰ النّصّ به عنواناً على بقيّة ما يجري فيه، ويُمكن أنْ نُصَوّر هذا المجلس بما يلي:

- يُقالُ للمَوْؤُودَة أولاً: بِأَيّ ذَنْبٍ قُتِلْتِ؟.
- فتقول الموؤودة: يا رَبِّ، لا ذَنْبَ لي إلاّ أنَّكَ خَلَقْتَنِي أنثىٰ، وقومي يكرهون أن تولَدَ لهم الإناث من الناس.
- فيقال للوائد: أيّ ذنب جنَتْهُ موؤودتُك حتّىٰ وَأَدْتَها في التراب.
- الوائد: يعترف بجُرْمِهِ، أو يُجِيب بتعلاّت باطلات ساقطات.
- ويُقْضَىٰ عليه بحسَبِ جُرْمِهِ.

الحدث الثالث:

«**نَشْرُ الصُّحُف**» دلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾ وقُرِئ: (نُشِّرَتْ) بتشديد الشين.

المرادُ من الصحف صُحُفُ أعمال العباد، تُنْشَر عليهم، وفيها بيانُ ما قَدَّمُوا فِي حياتهم الدّنيا من أعمال عملوها، وَما تركوا من أعمال كان عليهم أن يعملوها، تمهيداً لمحاسبتهم، ثُمَّ مجازاتهم.

النَّشْر: الْبَسْطُ والتوزيعُ والإذَاعَةُ للإعلام بمضمون المنشور.

وَجاء في القرآن تَسْمِيَةُ صُحُفِ الأعمال كُتُباً، وجاء فيه بيانُ أنَّ المؤمنين يُؤْتَوْنَ كُتُبَهُمْ بأيمانهم، وأنَّ الكافرين يُؤْتَوْن كتُبَهُمْ بشَمائِلهم.

وتدلُّ القراءتان: (نُشِّرَتْ) و ﴿نُشِرَتْ﴾ أنَّ بعض الصُّحف تُنَشَّرُ بقُوَّة، وأنَّ بعضها تُنْشَرُ بصورة عاديّة على حَسَب اختلاف أحوال من تُوَزَّعُ عليهم.

الحدث الرابع:

«**كشْطُ السَّمَاءِ**» دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾.

الكَشْطُ: يأتي في اللُّغة بمعنىٰ إزالة نحو الجلد عن اللّحم، ككَشْطِ جِلْدِ البعير، وكشْطِ جلْدِ الشاة ونحوها.

ويَأْتي بمعنىٰ نَزْعِ كُلِّ ظاهِرٍ مُتَماسِكٍ تماسكاً ما بما تحته، ككشْطِ جُلِّ الفرسِ عنه، والجُلّ ما تُغَطَّىٰ به الدّابّةُ لتُصَانَ.

والكَشْطُ والْقَشْطُ بمعنىً واحدٍ، وكلّ رفع شيءٍ عن شيءٍ قد غطّاهُ وغَشِيَهُ فهو كشطٌ وقَشْط.

أمّا كَشْطُ السَّمَاءِ يوْمَ الدّين فَيَنْبَغِي أنْ يَحْمِلَ معنَىٰ إزالَةِ شَيْءٍ ما يُجَلّلها، فيكْشِفُ ما وراءه، وأمّا حقيقَتُهُ فهو بالنسبة إلينا الآنَ أمْرٌ من أمور الغيب الَّتي لم يَصِلْ عِلْمُنا إليها، وقَدْ يكون بإزالة النجوم وكُلّ حواجز الرُّؤية التي تمنع رؤية ما فوقها في السّماء.

❁ ❁ ❁

الحدث الخامس:

«**تَسْعِيرُ الْجَحِيمِ**» دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾﴾ وقُرِئ: (سُعِرَتْ) بتخفيف العين.

سُعِّرَت. سُعِرَت: أي: أُوقِدَتْ وهُيِّجَتْ فزادَ لهَبُهَا وتفاقم حَرُّهَا.

ويجري هذا الحدث يوم الدين إعداداً للجحيم كي تستقبل أهْلَ العذاب فيها، وهيَ في أشَدِّ أحوالها المرهبة.

الْجَحِيمُ: اسْمٌ من أسماء النار دارِ العذاب يوم الدِّين، وكُلُّ نَارِ عظيمَةٍ في مَهْوَاةٍ فَهِيَ جَحِيمٌ.

وتدلُّ القراءتان ﴿سُعِّرَتْ﴾ و ﴿سُعِرَتْ﴾ على أنّ بعْضَ دَركات الجحيم تُسَعَّرُ بشدّة، وبعضها تُسْعَرُ بصورة دون ذلك.

❁ ❁ ❁

الحدث السّادس:

«**إزْلاَفُ الجنَّةِ**»: دلَّ عليه قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾.

أزْلِفَتْ: أي: قُرِّبَتْ وأُدْنِيَتْ مِنْ أهلها وهم في مَوْقف الحشر، للحسابِ وفَصْلِ الْقَضاء، بُشْرَىٰ لهم بأنَّهُمْ سَيَدْخلونها، وَإيناساً لهم بِرُؤْيَةِ شيءٍ ما من أطرافِها، وتمهيداً لدخولهم فيها متَىٰ انتهى الحكْمُ لهم بأنّهُمْ من أهلها، ثُمَّ يُقالُ لهم: ادْخُلوا الجنَّة لاَ خَوْفٌ عليكُمْ ولا أنْتُمْ تَحْزَنُونَ.

وإزْلاَفُ الجنةِ يَدُلُّ عَلَىٰ أنّهَا مَوْجُودَةٌ في مكانٍ مَا مِنَ الكَوْنِ السّحِيقِ، فهي تُقَرَّبُ تقريباً إلى مَوْقفِ مَحْشَرِ الْمؤمِنِينَ، ليدخُلُوهَا حين يُؤْذَنَ لهم بِدُخُولها.

❁ ❁ ❁

جواب الشرط المتكرر:

وبَعْدَ ذِكْرِ الأحْدَاثِ الّتِي تَكُونُ قُبَيْلَ السَّاعَة، والأحْدَاثِ الأُخْرَىٰ التي تَكُونُ عِنْدَ الْبَعْثِ وَبَعْدَهُ، قَال اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي جواب شَرْطِ ﴿إِذَا﴾ الّتي

جاءت في السّورة مُكَرَّرَة (١٢) مَرَّة ومُقْتَرِنَةٍ ببيان أحداثٍ تُكَوِّنُ في مجموعها الشَّرْطَ الذي أَشْعَرَتْ بِهِ ﴿إِذَا﴾:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

أي: عَلِمَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَوْضوعَةٍ في الحياة الدّنيا موضع الامتحان، ومَسْؤولَةٍ عمَّا تَكْسِبُ فيها باخْتِيَارِها الْحُرّ، مَا أَحْضَرَتْ من كَسْبِها لِمَوْقِفِ الحساب بين يَدَيْ رَبّها، ولا سيما بعد أنْ تَسَلَّمَتْ كِتَابَها الذي لا يُغَادِرُ صَغيرَةً وَلا كَبيرَةً إلاّ أَحْصَاها.

وعِلْمُ كُلِّ نفْسٍ سَتُحَاسَبُ على مَا كسبَتْهُ في الحياة الدُّنيا، يُرَادُ مِنْهُ لازِمُهُ، وهُوَ أَنَّهَا سَتَقِفُ بين يَدَيْ ربِّها في محكمة يوم الدِّين للحساب وفصْلِ القضاء.

أمّا حقيقَةُ العِلْم فيَحْدُثُ في نَفْسِ الإنسان بتَذَكُّرِهِ لِمَا سَعَىٰ في الحياة الدنيا، كما قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾.

ويُؤَكِّدُ لَدَيْهِ هذا العلم بقِرَاءَتِهِ لصحيفَةِ أعْمَالِهِ الّتي تَسلَّمَها.

وجاءتْ كلِمَةُ «نَفْسٍ» مُنَكّرةً لتنطَبِقَ علَىٰ كلِّ نَفْسٍ مسؤولةٍ عن كَسْبِها في الحياة الدنيا، وجاءت نصوص أخرى في القرآن تدُلُّ على الاستغراق العامّ لكلّ النفوس المسؤولة المحاسَبَة التي كانت مكلّفَةً في الحياة الدنيا.

أَحْضَرَتْ: أي: أتَتْ بِهِ إِلَىٰ مَوْقِفِ حِسَابِها بين يَدَي رَبّها فكان حاضراً، وَجاء إِطلاقُ الإحضار ليوم الدين على الأعمال التي مضَتْ وانْقَضَتْ في الحياة الدنيا، لأنّ الدنيا مزرَعَةٌ للآخِرَة، فالعملُ في الدنيا

يُسَجِّلُ علىٰ عامله المكلّف أو يُسَجِّلُ لَهُ، فَتُحْضَرُ الْمُسَجَّلاتُ لِيُحَاسَبَ عَلَيْها، وَهٰذِه الْمُسَجَّلاتُ مُطَابِقاتٌ تَماماً للأعمالِ بالصّورة والصَّوْتِ والخواطِرِ والأفكار والنّياتِ وَكُلِّ مَا في القلوبِ والنفوس، ولمَّا كانت النَّفْسُ هي العَامِلَة الكاسِبَةَ كانت هِي الْمُحْضِرَةَ لَهَا.

وقد جاء بيان الإحضار لكلّ الأعمال الظاهرة والباطنة في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) فقال الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾.



أفكار مطوية بين درسَي السّورة

إنّ ذكر أَحداثٍ عظمىٰ تكون قُبَيْلَ قيام السّاعَةِ التي يَتِمُّ بها إنهاء نظام الحياة الدنيا، وذكر أحداثٍ أُخرى تجري عند البعث إلى يوم الدين وبَعْدَهُ، يستدعي لدى المتفكّرين الذين لم يؤمنوا بَعْدُ بالبعث للحساب وفصْلِ القضاء، ولا بالدّار الآخرة التي يكون فيها تحقيقُ الجزاء، عدّة أسئلة تقترن بالإجابة عليها فكرياً.

السؤال الأوّل: ما سبَبُ إجراء هٰذه الأحداث؟.

ويأتي الجوابُ استنباطاً فكرياً، إنّ هذه الأحداث تمهيدٌ وتوطئة لتحقيق الغاية من خلق الناس في ظروف الحياة الدنيا، وهي امتحان الناس فيها، ثُمّ مجازاتهم على ما قَدَّموا فيها من خَيْرٍ أَوْ شرٍّ، بمقتضىٰ حكْمَةِ الرّبِّ الخالق جلّ جلاله.

وهنا يرد سؤال آخر، وهو:

السؤال الثاني: هل يكون الامتحان وتقرير الجزاء في خطّة التكوين دون إعلام الموضوعين موضع الامتحان أنّهم مخلوقون لهذه الغاية، وهم مكلّفون ومسؤولون تجاه ربّهم عمّا يأمرهم به وينهاهم عنه؟.

ويأتي الجواب استنباطاً فكريّاً مستنداً إلى واقع حال الرسالات الرّبانيّة السّابقة، وإلى دعوة الرسول محمد ﷺ، وهو: لا بُدَّ أَنْ يكون لديهم عِلْمُ بهذه الغاية عن طريق التبليغ، ولا بُدَّ أن يُبَلَّغُوا ما هو مطلوبٌ منهم في مدّةِ امتحانهم.

وهنا يرد سؤال ثالث، وهو:

السؤال الثالث: ما هي الطريقة الّتي اختارها رَبُّنا لإعلام الناس بأنهم ممتحنون، وبأنهم مسؤولونَ عن تكاليف تُوجَّهُ لهم.

ويَأتي الجواب استنباطاً فكريّاً مستنداً إلى واقع حال الرسالات الرّبانيّة السابقة، وإلى دعوة الرسول محمّد ﷺ، وتلاوته كتاباً يقول: إنّه يتلقّاهُ عن ربّهِ، وهو: إنَّ الطريقة المختارة هي أن يُرْسِلَ اللَّهُ رَسُولاً ويَشْهَدَ له بخوارقِ العادَاتِ أنّه رسولُه حقًّا وصدقاً، وأن يُنَزِّل عليه كِتَاباً من لَدُنْهُ، ويأْمُرَهُ بتبليغِه للناس، وأن يُحِيطَ هذا الكتاب بما يَشْهَدُ لَهُ بأنَّهُ مُنَزَّلٌ من عند الله حقًّا وصِدْقاً.

وهنا يأتي دور الدرس الثاني من دُرُوسِ سورة (التكوير) لتأكيد أنَّ القرآنَ كلامُ الله المنزَّل حقًّا وَصِدْقاً، وأنّ محمد بن عبد الله الذي يُبَلِّغُهُ عن ربّهِ هو رسولُ الله حقًّا وَصِدْقاً، وبهذا يتم الترابط بين دَرْسَيِ السورة.

❁ ❁ ❁

(١٥)
التدبّر التحليلي للدّرسِ الثاني من السورة

الآيات من (١٥ ـ ٢٩)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

تمهيد:

يُقْسِمُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في هذا الدّرْسِ بعدَدٍ مِنْ آياتِهِ في كوْنِه، على أنَّ القرآن الذي يتْلُوهُ محمَّدٌ ﷺ على قومه مُبَيّناً لَهُمْ أنَّهُ يَتَنزَّلُ عليه مِنْ عند اللَّهِ، ويُمْلِيه عليْه أمين الوحي جبريل عليه السلام، هو في الحقيقة والواقع كتَابٌ مُنَزَّلٌ من عند الله، يحملُه رسولٌ كَرِيمٌ من الملائكة، ويُبَلِّغُهُ قَوْلاً ملفوظاً مسموعاً بالأُذن لرَسُولِ الله محمد ﷺ.

والآياتُ الّتي أقسم بها اللَّهُ عزَّ وجلّ في السورة هي ثلاثة:

(١) آية النجوم الْخُنَّسِ الجواري الكُنَّسِ.

(٢) وآية اللّيل إِذَا عَسْعَسَ.

(٣) وآية الصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾ [الفاء] في: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ جاءت بمثابة التفريع على الأفكار والمعاني المطويّة

بين دزسَي السّورة، أي: فتفريعاً على مقتضيات الحكمة من إرسال رسولٍ يبلّغ عن الله، وإنزال كتابٍ من عند الله عليه يتضمّن مطلوبات الله من عباده الّذين وضعهم في الحياة الدنيا موضع الامتحان: أُأكّد لكم ببعض آياتي في كوني العظيم أنّي أرسَلْتُ محمّداً إليكم رسولاً، يبلّغ عنّي ما أوحي به إليه، وأنزل عليه كتاباً من عندي فيه بيانُ مواد امتحانكم في ظروف الحياة الدنيا الّتي أعددتُها لذلك.

وجاء فعل: ﴿أُقْسِمُ﴾ منفيّاً بحرْف النفي [لا] مراعاة لاقتضاءين، أحدهما يقتضي الْقَسَمَ بهذه الآيات الكونية، والآخر لا يقتضي الْقسم بها، لأنّ المخاطبين إبّانَ التنزيل في معظمهم لا يُدْرِكون عظمتها، فلا فائدة تُرجىٰ لديهم من القسَم بها.

فاستدعَتْ مراعاةُ ما يقتضي الْقَسَمَ بها ذِكْرَ فعل الْقَسَم، وذِكْرَ الآياتِ الكونيّة الّتي اختار الله أن يُقْسِمَ بها في هذه السورة.

واستدعَتْ مراعاةُ ما يقتضي أنّه لا فائدة تُرْجَىٰ من القَسَم بها، نفيَ فعل القسَم بحرف النفي «لا».

فكان هذا الإجراءُ من المبتكرات البيانيّة القرآنيَّةِ البديعة.

إنّ مُعْظَم المخاطبين العرب إبّانَ التنزيل لا يُدْرِكون عَظَمَة هٰذه الآيَاتِ الكونية: «النجوم الخنّس ـ الجواري الكُنَّسِ ـ اللّيْلِ إذَا عَسْعَسَ ـ الصّبْح إذا تَنَفَّسَ» وهذا الواقع يجعل الْقَسَمَ بهٰذِه الآياتِ قَسَماً غَيْرَ ذي فائدة، فهو يقتضي عَدَمَ الْقَسَم بها، بالنسبة إليهم.

لكِنْ سيَأتي زمانٌ يتّسِعُ فيهِ علْمُ الْفَلك، ومَعْرِفَةُ كثيرٍ من عظمة الظواهر الكونيّة الدّالّة علَىٰ صِفَاتِ خالقها ومُتْقِنها، ويُدْرِكُ فيه عُلَمَاءُ الكونيات عظمَةَ هٰذِهِ الآيات الكونية الدالاّت على الخالِقِ الرَّبّ العليم

الحكيم القدير، وهؤلاء العلماء ومَنْ يطّلعون على مقرّرَاتهم العلميّة يُنَاسِبُ حالَهُمْ أنْ يُقْسِم الله لهم بهٰذِهِ الآياتِ من آياته في كونه، ليُؤَكِّدَ لَهُمْ صِدْقَ الرسول محمد ﷺ، وصِدْق بلاغاتِه عَنْ رَبّه، ومثل هذا الواقع الذي سيحدثُ حتماً يقتضي الْقَسَمَ بها.

ولمّا اجتمع الاقتضاءَانِ: اقتضاءُ الْقَسَمِ، واقتضاءُ عَدَمِ الْقَسَم، كان الحلُّ البديع أن يأتي النَّصُّ بعبارَة [لاَ أُقْسِم].

هكذا ينبغي أَنْ نفهم كُلَّ مَا جاءَ في القرآن من عبارة [لاَ أُقْسِم] وقد استقْرأتُ الأقْسَامَ الْقُرْآنيّة فانتهيتُ إلى إدْرَاكِ هٰذِهِ الحكْمَةِ البيانيَّةِ البديعَةِ في القرآن.

فَلَسْتُ أعتبر كلمة «لا» زائدةً كما ذكَرَ بعْضُ المفسّرِين، وَلا مَا ذَكَرُوهُ من تأويلاتٍ أُخرَىٰ متكلّفة، وقد هداني اللَّهُ بهذا الاستقراء إلى استخراج قاعدة للأقسام المنفيّة في القرآن دَوَّنْتُها في كتابي: «قواعد التدبّر الأمثل لكتاب اللَّهِ عزّ وجل» وهي القاعدة «العشرون» منه، والحمد لله على فتحه وتوفيقه.

شرح الآيَات الكونية الثلاث:

أوّلاً: آيَةُ الْخُنَّسِ الجواري الكُنَّسِ، التي دلَّ عليها قولُ اللَّهِ عزَّ وجلّ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦﴾.

الْخُنَّس: وَصْفٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ هيَ النجوم، وهُوَ جَمْعُ «خَانِس» أو «خانِسَة» والخنوسُ هو الانقباضُ والاستخفاء، يُقالُ لغة: خَنَس يَخْنِسُ ويَخْنُسُ خُنُوساً إذا انقبضَ وتَأَخرَ، وقيل: إذا رجَعَ.

وجاء في كلام الرسول ﷺ: أَنَّ الشيطَانَ يُوسْوِس للعبْدِ، فإذَا ذكَرَ اللَّهَ خَنَسَ، أي: انقبَضَ عَنْهُ وتأخّر.

الجوار: جمع «جارية» حذفت من «الجوار» الياء اختصاراً في اللّفظ، وأصلها الجواري.

ومن المشهود بالأعين، والمعلوم عند علماء الفلك أنَّ نجوم السّماء تجري وتسير، ضمن نظامٍ عجيب دقيق مُذْهش.

وكلّما تعمّق الباحثون في تتبُّعهم لنظام جريان النجوم في أفلاكها زادت دهشتهم، وزاد إيمان المنصفين منهم بالخالق العظيم الجبّار الذي أتقن كلّ شيءٍ صُنْعاً.

الكُنَّس: جمع «كانس» أو «كانِسَة» والكانس في اللُّغَةِ هو الظبيُ إِذَا دَخَلَ كِنَاسَه، وهو موضع في الشجر يَكْتَنُّ فيه، ويسْتَتِرُ، يُقَالُ لغة: ظِبَاءٌ كُنَّسٌ وكُنُوسٌ.

وأصْلُ الكَنْسِ كسْحُ الْقُمامة عن وجْهِ الأرض، وسُمِّيَ المكانُ الذي يأوي إليه الظبيُ أو بقَرُ الوحْشِ بين الأشجار الساترة له كِناساً، لأنَّهُ إذا أوىٰ إليه كَنَسَ الرَّمْلَ الذي عليه، حتَّىٰ يَصِلَ إلى الثَّرَىٰ الحرّ، فَيَرْتَاحَ عليه.

فَمِنْ صفَاتِ النجوم التي أقْسَمَ اللَّهُ بِهَا أَنَّهَا خُنَّسٌ، وأَنَّهَا جواري، وأَنَّهَا كُنَّسٌ، وجاء استعمال الوصف التشبيهيّ كنايةً عن النجوم دون ذكر اسمها إيثاراً للإبداعِ البياني المركب من استعارة وكناية.

أمّا الخُنُوسُ فهُوَ اختِفاؤها في النّهار، مَعَ وُجُودِها في منازِلها وَمَجارِيها، كَمَا تَختفي الظِّبَاءُ بَيْنَ الأشجار في أَكْنِسَتِهَا عَنْ أعْيُنِ طُلَّاب صَيْدِها أو افتراسِهَا، ووصْفُها بِأَنّها خُنَّسٌ، وبأنَّها كُنَّسٌ، استعارةٌ قائمةٌ على تَشْبِيه اختِفائها في النهار باختفاء الظباء في أكْنِسَتِهَا، وتشبيه مواقع النجوم بأَكْنِسَةِ الظّباء، وهي استعارةٌ بديعة قائمة على تشبيهٍ دقيق، ثمّ استُخْدِمَتْ هذه الاستعارة كِنايةً عن النجوم.

وقَدْ يكونُ وصْفُها بأنَّها كُنَّسٌ لأنَّها تجذبُ إليها الغبار والكتَلَ الصَّخرِيّة الّتي خلّفَتْها نجومٌ أَوْ كواكبُ انفجرَتْ وَتناثرتْ أجزاؤها، فهي بمثابة الكانِسِ الذي يَكْنُسُ القمامات، والله أعلم.

إنَّ عَالَمَ النجوم الذي تُعْتَبَرُ شَمْسُنَا نجماً متوسط الحجم من نجومه الّتي لا تحصيها المخلوقات، عالَمٌ عظيم مُذهِشٌ مُحَيِّرٌ لأولي الألباب، والبحثُ فيه، والتَّفكُّرُ فيما انبَثَّ فيه من آيات الله الجليلة لا بُدَّ أن يَهْدِيَ المتفكّرين المنصفين إلى الإيمان بالخالق الرّبّ جلَّ جلاله، والإيمان بعلمه المحيط بكلّ شيء، وحكمتِه العظيمة، وقُدْرَتِهِ التي لا يُعْجِزُهَا شيءٌ في السَّمَاوَاتِ ولا في الأرض، وإتقان صُنْعِه البالِغِ ذروة الكمال.

فالْقَسَمُ بِالنُّجومِ هو في الحقيقة قَسَمُ بصِفَاتِ اللَّهِ الجليلة الّتي تُعْتَبَرُ النجومُ إِحْدَىٰ ظَواهِرِ خَلْقِ اللَّهِ لكونه.

ثانياً: آيةُ اللّيل إذا عسْعَسَ، الّتي دَلَّ عليها قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾.

يقال لغة: عَسْعَسَ اللّيلُ، إِذَا أَقْبَلَ من أَوَّلِهُ، ويقال أيضاً: عَسْعَسَ اللّيلُ، إِذَا أَدبر عند أواخِره، فهو من الأضداد.

والآية تُحْمَلُ عليهما جميعاً، لأنّ ظاهرة اللّيل عند إقباله وعنْدَ إدْباره متشابهة، وهي تلْفِتُ نظر أهل البحث العلميّ إلى قضيَّةٍ علميّة تنظيميَّةٍ فيها إتْقانٌ وحِكْمةٌ مِنْ قضايا نظام الكون البديع، وهي تدلُّ على أنَّ اللَّهَ جلّ جلالُهُ عليم قدير حكيم، وهي أَثَرٌ من آثار دوران الأرض حول نفسها تُجاهَ الشمس، ولهذا يتطابَقُ إقبالُ اللّيل مع إدباره، وللإيجاز في اللّفظ اختيرَتْ كلمة «عَسْعَسَ» الدّالة على الأمرين معاً. والله أعلم.

ثالثاً: آيةُ الصُّبْح إذا تنفَّس، التي دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾.

التنفُّس: يأتي بمعْنَيَيْن:

الأول: استمدادُ النفس، أي: أخذ الريح وإدخالُهُ إلى الرّئة، ومعلومٌ أنَّ كُلَّ ذِي رِئَةٍ هو مُتَنَفِّس.

الثاني: الزيادةُ والامْتِدَادُ والاتّسَاعُ، يُقال لغة: تَنَفَّسَ النَّهْرُ، إذا زاد ماؤُه. ويقالُ: بيْنَ الفريقين نَفَسٌ، أي: مُتَّسَعٌ، ويقالُ: تَنَفَّسَ الصُّبْحَ، إذا تَبَلَّجَ وامتدَّ واتَّسَعَ ضَوْؤُهُ حتَّىٰ يَصِير نهاراً بَيّناً. ويقال: تنفَّسَ النهارُ، إذا امتدَّ وطَال، وهذا المعنى هو المناسب للآية، باعتبار أنّه المعنى الذي ينسجم مع: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾ فكلاهما ظاهرتان من ظواهر إتقان حركة دوران الأرض حول نَفسِها، في اتّجاه الشمس، وهي الحركة الّتي يَنْتُجُ عنها ظاهرتا اللّيل والنهار.



قولُ اللّهِ عزَّ وجلّ:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١﴾.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾: أي: إنَّ القرآنَ الَّذِي يَتْلُوهُ محمَّدٌ على قومِهِ، ويقول لهم: إنَّه كتابٌ يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِ الله، هُوَ قَوْلٌ يتَلقَّاهُ مُحَمَّدٌ سمَاعاً قَوْلِيًّا جليًّا من رسُولٍ كريمٍ، يقولُهُ حَرْفاً فَحَرْفاً، وكَلِمةً فكلمة، وهو جبريل عليه السلام.

فالضمير في: ﴿إِنَّهُۥ﴾ يُرادُ مِنْهُ القرآن، بدليل الحال، ودليل كوْنه قولاً يتلىٰ.

وجملة ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾ هي جواب القسم في ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾.

ولم يُذكَرِ هُنَا اسم الملك جبريل أمين الوحي عليه السلام، إنّما ذُكِر بصفَاتٍ تعيِّنُهُ وَتُميّزُه.

(١) **فَهُوَ رَسُولٌ من الملائكةِ**: يُرْسِلُهُ اللّٰهُ لتبليغِ ما يُريدُ أن يُوحي إلى رُسُلِهِ من البشر، فوظيفته القيامُ بتأدِية الرّسالة التي يكلّفُه الله أن يؤدّيها، دون أن يتصرّف بشيءٍ مِنْ عنده.

(٢) **وهو كَرِيمٌ**: والكريم هو الذي يترفّع عن النقائص والدنايا، وهو المحمود بالصفات الرفيعة النفيسة، والجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل، والمكرَّمُ في جنسه، أو نوعه، أو بين نظرائه أو قومه.

وكيف لا يكون جبريل عليه السلام كريماً، وقد اصطفاه الله لتبليغ وحيه إلى رسُله من البشر، وللقيام بكُبْرَياتِ المهمّات، مع أنّه من الملائكة الكرام الذين لا يعصون اللّٰهَ ما أمرهم ويَفعلون ما يُؤْمَرُونَ.

(٣) **وهو ذُو قُوَّةٍ**: أي: ذو قُوّةٍ عظيمة دلَّ على عظمتها التنكير، فلو أمره الله عزّ وجلّ بأن يَنْسِفَ الجبال والبحار، ويَرْفع الْمُدُنَ وَيَقْلبها، ويُزَلْزِلَ الأرضَ وما عليها، لقَدَرَ على ذلك، فقد أعطاهُ جلّ جلالُهُ قوّةً عظيمة.

(٤) **وهُوَ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِين**: أي: وهو عند الله الذي هو ذو العرْشِ المجيد مكين. **المكِينُ**: هُو ذو المكانة الرفيعة، والمنزلة العالية الثابتة الراسخة، المتمكّن في الموقع الذي هو فيه.

(٥) **وَهُو مُطاعٌ بين الملائكة العالين**: قال تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ كلمةُ (ثَمَّ) بفتح الثاء اسْمٌ يُشارُ به إلى المكان البعيد، وهو بمعنى هُنَالِكَ، فهو مطاعٌ هُنَالِكَ، أي: بين الملائكة العالين عند ربّ العالمين، فله عليهم رياسةٌ، يأمُرُهُمْ بإذْنِ اللّهِ فَيُطِيعُونَهُ.

ولمّا كانت الرسالة الدينيَّةُ أعظَمَ رسالات الرّبّ، اختار لحمْلِها وتبليغها لرسُله من البشر أعظم ملائكته، وذا الرياسة عليهم، والمكين عنْدَهُ.

(٦) **وَهُو أمين**: أي: وهو أمين على وحْي الله، وأمين على رسالاته،

فلا ينقُصُ منها شيئاً، ولا يزيد فيها شيئاً، بل يبلّغها أو يُؤدِّيها كما أَوْحَىٰ الله إليه بدقَّةٍ تَامّة. وفي هذا تعبيرٌ عن سلامة القرآن المبلَّغِ إلى رسول الله محمد ﷺ من أيّ تغيير عمّا أنزل الله.

وقد أثبت الله عزّ وجلّ أنَّ القرآن مُنَزَّلٌ من عنده نطَقَ به وتلَفَّظَ بحروفه وكلماتِه رَسُولٌ كريمٌ أرسَلَهُ، وهو ذو قُوَّةٍ عِنْدَ ذي الْعَرْشِ مَكِين، وهو مطاعٌ هنالِك بين الملائكة العالين، وهو أمين، وعلمنا أنّ هذا الرسول هو جبريل عليه السلام، لئلاّ يتَوَهَمَ مُتَوَهِّمٌ أنّ القرآن قد أوحى الله به إلى رسوله محمد ﷺ معاني، وأنّ الرسول محمّداً عبَّر عن هذه المعاني بألفاظٍ من عِنده، وهذا فرقٌ عظيم يفرّقُ بين القرآن، وبين المعاني الّتي أوحى الله بها إلى رسوله، وعبَّر عنها الرَّسول ﷺ بعباراتٍ من عنده، فهي شيءٌ آخر غَيْرُ القرآن، وليس لها صفة إعجاز القرآن، ولا الصفات الأخرى الخاصّةُ بالقرآن.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

توجّهَ اللَّهُ عَزَّ وجَلّ بهذهِ الآياتِ لخطاب الّذين كذّبوا الرَّسُولَ محمّداً ﷺ إبَّانَ التنزيل، والذين اتَّهَمُوهُ بالْجُنُونِ، لادّعائه أنه رسُول اللَّهِ، ويتَلَقَّىٰ عَنْ رَبِّهِ الْوَحْيَ، وأنّ مَا يتْلُوهُ عَلَيْهِم هو كتابٌ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، ويُلقّنُهُ إيَّاهُ أمينُ الوحي جبريل عليه السَّلام، ولأنّه جاءهم برسالة تقضي على شركهم وأوثانهم، فقال لهم: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: وما الرسُول الذي أُرْسِلَ إليكم فهو مصاحبكم وملازم لكم في دعوته إياكم إلى دين الله، وفي تبليغكم رسالاَتِ اللَّهِ للناس بمجنونٍ، كما يزْعُمُ من اتّهمه بالجنونِ منكم.

زِيدَتِ الْبَاءُ الجارّة في: ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ لتأكيد النفي الذي دلَّت عليه أداة النفي [مَا].

وقد سبق في سورة (القلم) أن شهد الله لرسوله ليُسَلِّيَهُ وَيَشُدَّ عزيمته بأنه غير مجنون، خطاباً له، فقال له فيها: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾.

أمّا هنا في سورة (التكوير) فقد وجّه اللَّهُ عزَّ وجلَّ الْخِطَابَ للذّينَ كذَّبُوهُ، فَقالَ لَهُمْ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢﴾.

إنّ هذا القرآن العظيم الذي يُنَزِّلُهُ اللَّهُ عليه، والذي يبلّغه عَنْ رَبّه دليلٌ جَلِيٌّ على أَنّه في ذُرُواتِ الكمالِ الْعَقْلِيّ، وفي ذرواتِ الكمال الفكريّ والنفسي، وأَنّى للْمَجْنُونِ أن يَقْتَرِبَ من ذِرْوَةٍ مِنْ ذرُوَاتِ هٰذِهِ الكمالات.

يضافُ إلى هذا أنّه صَاحِبُكُمْ الْمُلاَزِمُ لكُمْ في صُحْبته، فقد صَاحَبْتُمُوه وعَاشَرْتُمُوهُ، وعرفْتُم أخلاقَه، وصدقه، وأمانته، ورجاحة عقله، وأنّ من كان مثْلَهُ فهو أَبْعَدُ النّاسِ عَنِ الجنون.

وبَعْدَ نفي الجنون عنه بدليل مصاحبتهم لَهُ أبَان الله لهم أنَّ صِلَتَهُ بجبريل أمين الوحي الربّانيّ لَمْ تَقْتَصِرْ على وحْيٍ غَيْبِيٍّ أَوْ قَلْبِيٍّ غير مَشْهُودٍ بِبَصَرٍ وَلاَ سَمْعٍ، بل رأىٰ مُحَمَّدٌ جِبْرِيلَ رُؤْيَا عَيْنٍ وَهُوَ بالأُفُقِ الْمُبِينِ، فقالَ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣﴾.

الأُفُق: خطٌّ دَائِرِيٌّ في الجوّ يَرىٰ فيه الْمُشَاهِدُ السَّمَاءَ كَأَنَّهَا ملتقيةٌ بالأَرْضِ.

المبين: أي: الظاهر الواضح، يقال لغة: بَانَ الشيْءُ بياناً فهو بائن، وأَبَانَ الشيْءُ إِبَانَةً فَهُو مُبين، إذا ظهر ووضح وكان جليًّا.

فدلَّتْ هٰذِهِ الآيةُ علىٰ أنّ الرسول محمّداً ﷺ قد رأىٰ أمين الوحي

جبريلَ عليه السّلام رُؤيا بصريّةً واضحةً بالأفُق الواضحِ المشرقِ الذي لاَ ظُلْمَةَ فيه وَلاَ غَبَش، فالرُّؤيَةُ إذْ ذَاكَ لاَ شبْهَةَ فيها، ويكونُ هذا في النهار صباحاً أوْ مساءً أو ما بينهما، لا بَعْدَ الغروب ولاَ قَبْلَ الفجر.

روى البخاري أنّ جابر بن عبد الله الأنصاري قال ـ وهو يُحَدِّثُ عن فَتْرَةِ الوحي ـ فقال في حديثه عن النبيّ ﷺ أنه قال:

«بَيْنَا أَنَا أَمْشِي، إِذْ سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِراءٍ، جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُوني، فأنزَلَ اللَّهُ تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾.

فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ».

بَعْدَ هٰذَا وَصَفَ اللَّهُ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ بقوله:

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤﴾.

وَقرأ ابْنُ كثير، وأبو عمرو، والكسائيّ، ورُويسٌ: [بِظَنِينٍ] بالظاء.

الضَّنين: البخيل في اللُّغَة، يقالُ لُغَةً: ضَنَّ بالشَّيْءِ يَضِنُّ ويَضَنُّ ضِنّاً وضَنَانَةً إذَا بَخِلَ، فهو ضَنِين، أي: بخيل.

والظَّنِينُ: المتَّهَمُ الذي لاَ يُوثَقُ بِهِ في الأَخْبَارِ أو في غَيْرِها.

إنّ الله عزّ وجلّ يَشْهَدُ لِرَسُولِهِ محمد ﷺ، بأنّه على ما يطّلِعُ علَيْه من الغيب، ومنه ما يَنْزِلُ عليه من أقوالٍ وبياناتٍ رَبّانية، ليس بخيلاً كاتماً ما يُؤْمَرُ بتبليغه أو يؤذَنُ لَهُ به، وليْسَ مُتَّهَماً بالتحريف أو الزيادة أو النقص، بل هو صادقٌ أمِينٌ لا يألُو جَهْداً في تعليم الناس وإرشادهم إلى كلّ ما فيه خَيْرُهم وسعادتهم من أمور دنياهم وآخرتهم.

فقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ أو [بظنين] تَقْدِيرُهُ فيما أرى: وَمَا هُوَ مُطَّلِعاً على الغيب الذي يُطْلِعُهُ اللَّهُ عليه ببخيلٍ وَلاَ مُتَّهَم، وهذا على التضمين، والتضمين كما يكونُ في الأفعال، يكونُ فيما يَعْمَلُ عَمَلها، أي ليس بضنين ولا بظنين مُطّلِعاً على الغيب.

وفي هذا بيانٌ لبراءة الرسُول محمد ﷺ من أخلاق الناس الّتي فيها الْبُخْلُ والاتّهام، فمَنْ ظفِرَ منهم بعِلْمٍ من علُوم غيبيَّةٍ عن الناس، احتفظ به لنَفْسِه، وضَنَّ بِهِ عن الآخرين، ليستثمره لدُنْياه، وحين يجد وسيلةً لاستثماره، كالسَّحَرَةِ الّذِين يتّصِلُونَ بالجنّ، وَيأخذونَ عَنهُمْ علوماً لا يَعْلَمُها الناس، فإنَّ الواحِدَ منهم يَضِنُّ بمَا تعلَّمَهُ ليسْتأثِرَ بِه لنفسه، وما يَتَلَقَّاهُ مِنْ أخبارٍ عن الجنّ فإنَّهُ يُضِيفُ إليه أكاذيب من عند نفسه، حتَّىٰ لا تضيع عليه أيُّ فرصة من فرص الاستثمار لنفسه، وحتّى لا يقول في أمْرٍ يجهلُه: لا أعْلَمُه.

أمّا رسُولُ الله فما يَعْلَمُه من أمْرِ الغيب لا يضِنُّ به، وَمَا يجْهَلُه يقول في شأنه: إنّني بَشَرٌ لا أعْلَمُ إلاّ ما يُعَلّمُني الله.



قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

إنَّه لمَّا كان الشياطين يوحون إلى أوليائهم من الإنْسِ، بأخْبارٍ يَصْدُقُونَ في بعْضِها، ويَكْذِبُونَ في أكثرها، ولمّا كان الواقع يقتضي التَّفْرِيقَ بيْنَ وَحْي الله وإيحاءِ الشياطين لأوليائهم، قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: ومَا القرآن الذي يَتْلُوهُ محمّد ويُبَلّغُهُ للنّاسِ بقَوْلِ شيطانٍ رَجيم يوحي به إليه.

إنَّ القرآنَ الحقّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومَا يشتمل عليه من هداية وعِلْم شاهِدٌ على أنّه تنزيل من عليم حكيم، وليس بقولِ بَشَرٍ، ولا بقول شيطان رجيم.

إنّ أقوال الشياطين وأخبارهم مَشْحُونَةٌ بالضلالات، والأباطيل والأكَاذِيب، ولهذا خاطب اللَّهُ مُكَذّبي الرّسُولِ فيما يُبَلّغ عن رَبّه بقوله:

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: فأَيْنَ تذهَبُونَ فارّين من حقيقة أنَّ القرآن مُنَزَّلٌ من عند الله، ودلائل الحقّ تُحَاصِرُكُمْ من كلّ جانب، فحقائق القرآن، وإعجازُ القرآن، وكمال الرسول، وبراهِينُ العَقْل، تَشْهَدُ للرّسُولِ بالصدق، وتشهد للقرآن بأنّهُ حقٌّ مُنَزّلٌ مِن عليم حكيم، فلا مَفَرَّ لمكذّبٍ، إلاّ أن يكونَ معانداً مُصِرّاً على الباطل.

وَبعْدَ هذا ختم الله السورة بقوله:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

الضمير في ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعودُ على القرآن، ولفظ (إنْ) حرفُ نَفْي بمعنى «ما». أي: ما هذا القرآن الذي يتلوه محمّدٌ إلاّ ذِكْرٌ للْعَالَمِين جميعاً، أي: مُوَجَّهٌ لجميع العالمين المكلّفين الموضوعين موضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا.

أمّا مَنْ يَنْتَفع من هذا الذّكر الموجّه للعالمين، ويهتدي بهدْيِه، فكُلُّ من شَاءَ بإرادته الحرَّةِ أنْ يسْتَقِيم على صراط الله المبيَّن فيما يُنَزّلُ اللَّهُ على رسوله.

المبلَّغُونَ هم كلُّ العالَمِين المكلفين الموضوعين موضع الامتحان، والمنتَفِعُونَ منه من شاء من العالمين المبلَّغين أن يستقيم على صراط الحقّ والْهُدَىٰ، فإيمانُه وهدايَتُهُ من ثمرات ما أعطاه ربُّهُ من مشيئة حرَّة ليبْلُوَهُ، أي: ليمتحنه في ظروف هذه الحياة الدنيا.

هذا ما نفهمه من قول الله عزّ وجلّ:

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾.

وجاء بَيَانُ هذه الفكرة بأسلوب بدل الإضراب من قوله تَعَالَىٰ: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ وبَدَلُ الإضراب بدَلٌ يُقْصَدُ به الْبَدَلُ والْمُبْدَلُ منه معاً، والإبداعُ هنا أنّ الْمُبْدَلَ مِنْهُ جَاءَ على معنى، وأنّ الْبَدَلَ جاء على معنىً آخر، مع ما في الخطاب بعد الحديث عن العالمين بالغائب، من التفاتٍ بديعٍ ذي هَدَفٍ فكريّ، وهُوَ تَحْمِيلُ عُمُوم المخاطبين مسؤوليَّاتهم تجاه هذا الذِّكْرِ المنزَّلِ منْ رَبّ العالمين.

وقد أَثبت قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ أنَّ الْمُخَاطبين المكلفين يَملكُونَ مشيئَةً حُرَّةً يسْتطيعُونَ بِهَا أَنْ يَشَاءُوا الاستقامة على صراط الله، وأن يشاءُوا عَدَمَ الاستقامة، وذَلك إذْ خَلَقَ اللَّهُ فيهم بحكْمَتِهِ الجليلة جهاز المشيئة الحرّة، التي يَسْتَطِيعون أن يَشَاءُوا بها طريق الخير، أو طريق الشّرّ، وأن يشاءوا بها الإيمان أو الكفر، والطاعة أو المعصية.

ويَرِدُ على كلمة [الذِّكْرِ] في النّص سؤال، وهو: لِمَاذا وصَفَ اللَّهُ القرآن بأَنَّهُ ذِكْرٌ؟

وأقول: الذكر في اللّغة حفظ الشيء في الذاكرة، وإجراؤُهُ على اللّسان، وتذكُّرُ المحفوظ عند استدعائه، والتذكير بما كان معلوماً ثم نُسِيَ.

فهل وصف الله القرآن بأَنَّهُ ذِكْرٌ لمن شاء أن يستقيم من العالمين، لأنّه يجب أن يُحْفظَ فلا يُنْسَى، وبهذا يكون واعظاً دائماً لحافظِهِ في ذاكرته

ينصحه ويأمُرُه وينهاه ويُرشِده بعد أن يتبلغه ويتفهّم دلالاته؟.

أو لِيُتْلَىٰ وتجري بآيَاته ألسنة المؤمنين آناء اللّيل وآناء النهار؟.

أو ليتَذَكَّر المؤمِنُون حيناً فحيناً ما اشتمل عليه من هَدْيٍ لهم، فيتّعِظُوا بمواعظه، ويهتدوا بهَدْيه؟.

أو لأنّ ما اشتمل عليه من حقائق، وهدايَةٍ إلى الصراط المستقيم، أمُورٌ مُغْرُوزةٌ في عقول الناس وفِطَرِ نفوسِهم، فحين يفهمون ما جاء به القرآنُ يجدونه مطابقاً لما في عقولهم من موازين، ولما في قلوبهم وضمائرهم من مشاعر حقٍّ وخير وجمال، فيكون بالنّسبة إليهم بمثابَةِ مذكّر يذكّرُهم بشيءٍ غير جديدٍ عليهم، فكأنّهُمْ كانوا يعلمونه ثُمّ نَسُوه.

كلُّ هذه المعاني مقبولة ومعقولة، وربّما سُمّي القرآن ذِكراً لمراعاة هذه المعاني جميعاً، على أنّه ينبغي العناية بحفظه وتذكّر مضامينه عند مناسباتها، للعمل به والاهتداء بما يهدي إليه.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

يخطئ كثيرٌ من الناس في فهم هذا النّصّ وأشباهِهِ في القرآن، وسَبَبُ خَطَئِهِمْ أنّهُمْ لم يتَنَبَّهُوا إلى أَنَّ الله عزّ وجلّ، قَدْ شَاء أنْ يَجْعَل المكلّفين الممتحنين المسؤولين عَنْ أعمالهم الاختياريّة في الحياة الدّنيا ذوي مشيئاتٍ حُرَّةٍ، يختارُونَ بها في مجالات امتحانهم ما يشاءونَ من خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ أو غير ذَلِك، ليمتحنهم في اختياراتهم، فخلَقَ لكلٍّ منهم بمَشيئَتِه جهازاً خاصّاً، هو جهاز المشيئة الحرّة، فالْعَبدُ بهذا الجهاز الذي خلقه الله له بمشيئته يختار ما يشاء في رحْلةِ امتحانه.

ولولا أن شاء الله أن يمنح عباده القدرة على أن يشاءوا لكانوا

مجبورين ليس لهم مشيئاتٌ حُرَّةٌ، ولما اسْتَطاعوا أن يشاءُوا شيئاً، ولكانوا مثل الشمس والقمر وسائر النجوم والكواكب، ومثل سائر الكائنات المجبورة المسيّرة التي ليس لها إرادات حُرَّةٌ تَشَاءُ بها.

فمَشيئة المكلّفين المسؤولين مشيئَةٌ حُرَّةٌ فيهم، ضمن حدود أفعالهم الاختياريَّة الجَسدِيَّة والنفسيّة، أمّا الأفعال الاضطراريَّةُ الَّتِي تجري فيهم أو تجري عليهم، فهي خارجةٌ عن دائرة اختياراتهم الْحُرَّةِ، وخارجةٌ عن حُدودِ مسؤولياتهم في رحلة امتحانهم.

ومعلومٌ أنّ مَشيئاتهم الحرّة لم تكُنْ لهم إلاّ بعد أن شاء الله أن يمنحهم أجهزة المشيئة الحرّة.

وهذه المشيئاتُ الحرّةُ فيهم لا تَعْمَلُ أعْمَالَها إلاّ بالتمكين الرَّبَّانِيِّ لها من أَنْ تَعْمل، وهٰذَا التمكين الرَّبانِيُّ هو الذي يجعلهم مسؤولين عن أعمالهم الاختياريّة في رحلة ابتلائهم.

وفي اللّحظَة الّتي يرفع اللَّهُ فيها تمكينَهُ لهم يرتفع التكليف، وترتفع المسؤولية.

وعلى هذا ينبغي أن تُفْهَمَ النُّصوص، وأن يُجْمَعَ بين دلالاتها، والحمد لله على فتحه وتوفيقه.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر سورة التكوير ضمن ما فتح به العليم الحكيم القدير



سُورَةُ الأَعْلَى

وَيُقَالُ فِيهَا: سُورَةُ «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى»

وَيُقَالُ أَيْضًا: سُورَةُ «سَبِّحِ»

٨٧ مصحف ٨ نزول



(١)

نصُّ السّورة وما فيها من قراءات من الفرش

سورة الأعلى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

* * *

٣ ـ • قرأ الكسائي: [قَدَرَ].
• وقرأ باقي القراء العشرة: [قَدَّر] بتشديد الدال.

٨ ـ • قرأ أبو جعفر: [لِلْيُسُرَىٰ] بضمّ السّين.
• وقرأ باقي القراء العشرة: [لِلْيُسْرَىٰ] بإسْكان السين.

١٦ ـ • قرأ أبو عمرو: [يُؤْثِرُونَ] بياء الغائبين.
• وقرأ باقي القراء العشرة: [تُؤْثِرُونَ] بتاء المخاطبين.

(٢)
ممّا رُوي عن النبيّ ﷺ بشأن هذه السّورة

(١) روى الإمام أحمد والبزّار وابن مردويه عن عليٍّ رضي الله عنهُ قال:

«كان رسول الله ﷺ يُحبُّ هذه السّورة: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى».

(٢) وروىٰ مسلم وأحمد وأهل السُّنن عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ:

«كَانَ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ وَفِي الْجُمُعَةِ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَىٰ، وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيث الغاشية، وإِنْ وافَقَ يَوْمَ جُمُعَةٍ قَرَأَهُمَا جَمِيعاً».

أي: وإن وافق العيدُ يَوْمَ جُمَعةٍ قرأ السُّورتين في صلاة العيد، وفي صلاة الجمعة.

(٣) وروى مسلم وغيرُه عن جابر بن سَمُرَة، أنَّ النبيّ ﷺ:

«كان يَقْرأُ في الظُّهر بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعْلَىٰ».

(٤) وروى أبو داود والنَّسَائي وابْنُ ماجَهْ والدَّارَقُطْنِي والْحَاكِمُ والْبَيْهَقِيُّ عن أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قال:

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُوتِرُ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَىٰ، وَقُلْ يَا أَيُّهَا الكافرون، وقُلْ هُوَ اللَّهُ أحد».

(٥) وروىٰ أبو دَاوُدَ والترمذيُّ والنَّسَائِيُّ وابْنُ مَاجَهْ والحاكم وصحّحه، والبيهقي، عن عائشة، قالت:

«كَانَ النبيُّ ﷺ يقْرَأُ في الْوِتْرِ في الرَّكْعَةِ الأُولَىٰ بِسَبِّحْ، وفي الثانية بقُلْ يَا أَيُّها الْكَافِرُونَ، وفي الثالِثَة بقُلْ هو اللَّهُ أحد والْمُعَوِّذَتَيْنِ».

(٦) وروى البخاريّ ومسلم عن جَابِرِ بْنِ عبد اللّهِ: أنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ كان يُصَلِّي مع النبيّ ﷺ، ثُمَّ يأتي قَوْمَه فَيُصَلِّي بهم الصّلاة، فقَرَأَ بِهِمُ الْبَقَرَةَ، قال: فَتَجوَّزَ رَجُلٌ فَصَلَّىٰ صَلاَةً خفيفَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاذاً، فقَال: إِنَّهُ مُنَافِقٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلَ، فَأَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللّه، إنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا، ونَسْقِي بِنَوَاضِحِنَا، وَإِنَّ مُعَاذاً صَلَّىٰ بِنَا الْبَارِحَةَ فقَرأَ الْبَقَرَةَ، فَتَجَوَّزتُ، فَزَعَمَ أَنِّي مُنَافِقٌ.

فقال النبيُّ ﷺ:

«يَا مُعَاذُ، أَفَتَانٌ أَنْتَ ـ ثلاثاً ـ اقْرَأْ: والشَّمْسِ وضُحَاها، وسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَىٰ، ونحوها».

وفي رواية لهما زيادة: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ».

وفي رواية عند مسلم: «والضُّحَى، واقْرَأْ باسمِ رَبِّكَ».

وفي رواية للبخاري: «فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الكَبِيرُ، والضَّعِيفُ، وَذُو الْحَاجَةِ».

وفي رواية عند مسلم: فصَلَّىٰ مع النبيّ ﷺ الْعِشَاءَ، ثُمَّ أَتَىٰ قَوْمَهُ فَأَمَّهُمْ، فَافتَتَحَ بِسُورَةِ البقرة، فَانْحَرَفَ رَجُلٌ فَسَلَّمَ، ثُمَّ صَلَّىٰ وَحْدَهُ وانْصَرَفَ، فَقَالُوا لَهُ: نَافَقْتَ.

هذه الرّواية تُفَسِّر معنىٰ: «فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ» في الحديث.



(٣)
تتابع التوجيه التربويّ لذكر اللّه حتى نزول سورة الأعلى

(١) في سورة «العلق» بدَأَ التَّوجيه لذكر اسم الرَّبّ مقترناً بالأَمْرِ بالقراءة فقال اللّه عَزَّ وجلّ فيها: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ①﴾.

(٢) ثمّ في سورة «المدثّر» أنزل اللّه قولَه: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ وفي هذا تَوْجِيهٌ لتعظيم الرّبّ وتكْبِيره، وذِكْرِهِ بعبارة: اللَّهُ أكبر.

(٣) ثمّ في سورة «المزمّل» أنزل اللّهُ قَوْلَه: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾.

وتَبَتَّلْ إِلَيْه: أي: أخلص له العبادة والطاعة، وانْقَطِعْ عن غيره، فلاَ تُعَلِّقْ قلبك ونفسك بغيره في عِبَاداتك.

(٤) ثم في سورة (الفاتحة) أنزل اللّه قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾

(٥) ثمّ في سورة (الأعلى) أنزل اللّهُ قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ فجاء التوجيه هنا لِذكْرِ اللَّهِ بالتَّسْبِيح، الذي يَدُلُّ على تنزيه اللَّهِ عمَّا لاَ يليق بجلاله.

دلالة هذا الترتيب:

ونستطيع أن نستدلَّ من هذا الترتيب في مراحل التنزيل القرآنيّ على ما يلي:

أوّلاً:

العلْمُ هو الخطْوةُ الأولَىٰ، والعِلْمُ عن الرّبّ الخالق وَسِيلَتُه قِرَاءَةُ الكِتَابِ الْمُنَزَّلِ من لَدُنْهُ، وَتَدْوين العلم بالْقَلَم، مع الاستعانة باسم الرّبّ الذي خلق، إذْ لا يكون العلم مصوناً عن الزّلل ما لم يقترن بالاستعانة باسمه، والتبرُّك بالابتداء به، والرغبة بالتعرُّف على كمال صفاته، استدلالاً بظواهر خلقه.

ثانياً:

العلْمُ باللّه يَهْدِي إلى تَعْظِيم اللّهِ وَتَكْبِيرِهِ، وأنّه أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ كبيرِ

يُمْكِنُ أَنْ تتخيَّلَهُ الأفكار، ومن كلِّ كبيرٍ في الوجود، لأَنَّهُ هو الخالق لكلّ ما سواه جلَّ جلاله.

ثالثاً:

طريق الوصول إلى حقيقة العبوديّة للّه عزّ وجلّ مداومة ذكر اسم الرّبّ، والتبتُّلُ إليه، بالانقطاع إليه عن كُلِّ شِرْكٍ، حتّىٰ التعلُّق القلبيّ بالأسباب التي جَعَلَها هو سبحانه أسباباً، وهي لا تعمل إلاّ بخلقه.

رابعاً:

وحين يَصِلُ الفكْرُ في تصوُّراته لصفات الرّبّ إلى مستوىً يُدْرِكُ فيه أنَّ كُلَّ مظهر من مظاهر الكائنات يدُلُّ على صِفَةٍ من صفاتِ الرّبِّ تَستَحِقُّ أكبر الْحَمد وأعظم الثناء، وأنّ كل صِفَةٍ يُحْمَد بها كائنٌ في هَذَا الوجود فإنَّما هي من خَلْقِ اللّه، وأثَرٌ من آثار صفاته، فلا بُدَّ أن يكون على يقينٍ تامٍّ بأنَّ كُلَّ الْحَمْد وأكملَ الحمْدِ هو للَّهِ رَبّ العالمين الرحمن الرحيم.

في هذه المرحلة التربويَّةِ نزل قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الفاتحة) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾.

خامساً:

بعد التحقُّق بالمراحل السابقة، صار الإنسانُ المتدرّجُ على وفْق بنائها التربويّ مستعدًا لأن تكون نَفسُه ويكُونَ قلبُه وَفِكْرُهُ في حالَةِ سَبْحٍ ضِمْنَ آفاقِ تصوُّراتِ صِفَاتِ الرَّبّ الأعْلَىٰ، وتَذَوُّقِ المشاعر النفسيّة والقلبية الّتي تَسْتَثِيرها أو تُحْدِثُها أو تُغَذِّيها هذه التصورات.

وهذا السَّبْحُ الفكريُّ والنَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ الَّذِي لا تَعْتَرِضُهُ عقباتُ الكثَافَاتِ الماديّة، والمشْبِهُ لسَبْحِ السَّمكِ في الماء، وسَبْحِ الطيور في الفضاء، وسَبْحِ الملائكة في السّماء، يُساعِدُ على تحقُّقِه مُدَاوَمَةُ التسبيح المشتمل على ذكر اسْمِ الرَّبّ الأعلى.

عند هذه المرحلة أنزل اللّه على رسوله سورة (الأعلى) المفتتحة بقوله تَعَالَىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ①﴾.

ولا بُدَّ أَنْ نُلاحظ أنّ هذا البناء التربويّ المتدرج ملاحَظٌ فيه بالدرجة الأولى قِمَّةُ البشر جميعاً، وهو رسول الله ﷺ.

ثُمَّ على وفقه يكون تدرّج البناء التَّربويّ بالنسبة إلى غيره، مع مراعاة حالة اسْتِعْداد كلٍّ منهُمْ للْمُدَّة الّتي يحتاجُها، حتَّىٰ ينْتَقِلَ من مرحلَةٍ إِلَىٰ الَّتِي تَلِيها.

❁ ❁ ❁

(٤)
دروس سورة الأعلى ووحدة موضوعها

تشتمل سورة «الأعلى» على أربعة دروس متعانقة، وهي تُكَوِّنُ في مجموعها موضُوعاً واحداً، وجَذْرُ هذا الموضوع: «هذا الدِّين».

ولهذا الموضوع أربعة خطوط، أو فروع كفروع ساق شجرة:

الخطّ الأول: اللّه وبعض ما يتعلّق بصفاته وأسمائه الحسنى.

الخطّ الثاني: الرّسالة وإنْزَالُها على الرسول المصطفى وبعض خصائصها.

الخط الثالث: توجيهاتٌ للرسول محمد ﷺ بشأن وَظيفته في رسالته.

الخطّ الرابع: المرسَلُ إليهم وانْقِسَامُهُمْ إلى سعيد تَزَكَّىٰ، وكافراً أشقى، وبعض مُعَالجَةٍ دَعَوِيَّة لهم.

أمّا دروس السورة الأربعة فهي:

الدرس الأول: تضَمَّن أمر اللّه لرسوله بأن يُنَزِّه صفات الرَّبّ الأعلى

عمّا لا يليق بجلاله مع التنبيه على بعض آياته في كونه الّتي تدلُّ على رُبوبيّتِه جَلَّ جلاله، وأمْرُ الرسولِ يسْتَتْبع أمْرَ كلِّ موضوع في الحياة الدنيا موضع الامتحان، وهو الآيات التاليات من السورة:

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾.

وفي هذا الدرسِ توجيهٌ ضِمْنِيٌّ للرسول أن يَشْرَح للنّاس القضايا الّتي اشْتَمَلَ عليها.

الدرس الثاني: تضمَّنَ وَعْدَ اللّهِ لرسوله محمد ﷺ بمتابَعَةِ إنْزَالِ القرآنِ عَلَيْهِ، وَتَثْبِيتِه في ذَاكِرَتِهِ، وإغْدَادِهِ بِيُسْرٍ في صُنْعٍ رَبَّانِيٍّ لحَمْلِ الرِّسَالَةِ الْيُسْرَىٰ في أحْكَامِهَا وَتَكَاليفها، وهو الآيَاتُ التالياتُ من السّورة:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾.

الدرس الثالث: تضَمَّنَ تكليفَ الرسولِ بالتبليغِ ومتابعةِ التبليغِ بالتذكير، إنْ وجدَ احتمالاً يُفيد أنّ الذكرى غَيْرُ ميؤوسٍ من نَفْعِها، ولو كان احتمال نَفْعِها ضَعِيفاً.

وتضمّن بيان أنّ من يخشَىٰ الجزاء الرّبّانيَّ فسَيَتَذَكّر، وستنفعه الذكرى ولو بِحُدُودٍ دُنيا.

أمّا الأشقى الذي لا يَخْشَىٰ الجزاء الرّبّاني فَسَيَتَجنَّبُ الذِّكرَىٰ، ولا يلْتَفِتُ إلى المذكِّرين، بل يَبْتَعِدُ عنهم وعن مجالس تذكيرهم.

وتضمَّنَ بيانَ عاقبةِ الأَشْقَى بإيجاز، وبيانَ عاقِبَةِ من تزكّىٰ وذكرَ اسم ربّه فصَلَّىٰ بإيجاز.

وهو الآيات من (٩ ـ ١٥).

الدرس الرابع: تضمَّن خطاباً مُوجَّهاً من اللّه للناس مبيناً فيه علَّةَ نفوسهم في الإعراض عن دين اللّه، وعن المذكّراتِ به، وهي أنَّهم يُؤْثِرُونَ الحياة الدنيا العاجلة، على السعادة الخالدة.

وتضمَّن نُصْحَهُم بأنّ الآخرة خيرٌ لهم إسعاداً إذا عملوا للفلاح فيها، وأبقىٰ زماناً لأنَّها حياة الخلود.

وتضمَّنَ أنَّ هذا الذي ينْصَحُهم به ليس جديداً على الناسِ في هذه الرِّسالة الخاتمة، بل هو موجودٌ في الرسالات السّابقات، في الصُّحُف المنزّلَةِ على إبراهيم، وفي الصُّحُف المنزَّلَةِ على موسى عليهما السلام.

وهو الآيات من (١٦ ـ ١٩).

فالدروس الأربعة متعانقة مُتَكاملَةٌ، تُكوِّنُ شَجَرَةَ موضوعٍ واحِدٍ، والعناصِرُ الّتي جاءت في هذه الدروس هي لقطاتٌ وكليّاتٌ منْ هذا الموضوع الكبير، الذي تَدُور عليه سُورٌ كثيرة في القرآن المجيد، بصُوَرٍ مختلفة وَتَصارِيفَ متنوّعة.



(٥)
التدبّر التحليلي للدرس الأول من السّورة

الآيات من (١ ـ ٥)

قال اللّه عزّ وجلّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾.

سَبِّحْ: أَمْرٌ من اللَّهِ بالتَّسْبِيحِ، فما هُو التسبيح؟.

التسبيح في استعمال العرب يُطْلَقُ على كلِّ ذِكْرٍ للّه، ويُطْلَقُ على الصَّلاة، يقول القائل منهم: قَضَيْتُ سُبْحَتِي من الذكر، وقضيْتُ سُبْحَتِي من الصلاة.

والتسبيح: هو التنزيه والتقديس عن كلّ ما لا يليق باللّه من صفات النقص التي تتنافى مع كمالاته.

والتسبيح في دلالات النُّصوص الشرعيّة يُحْمَلُ على معنىٰ سَبْحِ اللِّسَانِ والنَّفْسِ والفِكْرِ والْقَلْبِ بذكر الله، فيكون بحَمْدِهِ والثَّناء عليه، ويكون بتَنْزِيهِهِ عَنْ كُلّ وصْفٍ لا يليق بجلاله، وعن كلّ وصْفٍ من أوصافِ الْحُدُوث، ويكون بتعظيمه وتكبيره جلّ وعلا.

وفعل «سَبَّح يُسَبِّح» يَتَعَدَّى بنفسه فيقال: سبّح اللَّهَ، ويُسَبِّحُ اللّه، ويتَعَدَّى باللّام الجارة، فيقال: سَبَّح لِلّه، ويُسَبِّحُ لِلّه، وبهما جاء الاستعمال القرآني.

وأقوالُ أهل التأويل في عبارة: «سُبْحَانَ اللّه» تتفق على أنَّ معناها: أُنَزِّه اللّه عن كلّ ما لا يليق بذاته وبصفاته الجليلة تنزيهاً كتنزيه اللّه نفسه.

وقال النحاة: كلمة: «سبحان» في موضع المصدر وليس منه فِعْلٌ، والأصل فيه أُسَبِّح اللَّهَ تسبيحاً، أي: أُنَزِّه اللّه تنزيهاً. وقالوا: كلمة: «سبحان» اسم علم لمعنى البراءة والتنزيه عن كلّ ما لا ينبغي أن يوصف اللّهُ به، فهو ممنوع من الصرف للعلميَّة وزيادة الألف والنون فلا يُنَوَّن[١].

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾: جاء التكليفُ بتسبيح اسْمِ الرّبِّ الأَعْلَىٰ،

---

(١) انظر بقية موضوع التسبيح في ملحق السورة.

لأنّ حظّ العباد من معرفةِ اللّه يتعَلَّق بأسمائِه الدّالة على أوصافه، أمَّا ذَاتُهُ جَلَّ وعَلا فليس لهم حظٌّ من معرفة شيءٍ منها غَيْرَ أَنّ له ذاتاً موجودةً وموصوفةً بكلّ صفات الكمال ومُنَزَّهَةً عن كلِّ صِفاتِ النقصان.

واسْمُ الرّبّ يعُمُّ كُلَّ أسمائه الحسنىٰ[1]، مَا كان منها اسماً لعموم الذات، وهو لفظ «اللّه» وما كان منها اسْماً دَالاً على صفة من صفاته، مثل: «الرحمن ـ الرحيم ـ السميع ـ البصير ـ القدير ـ الحكيم ـ الحليم ـ الملك ـ القدوس ـ السلام ـ المؤمن ـ المهيمن ـ العزيز ـ الجبار» إلى سائر أسمائه الحسنىٰ الوصفيّة.

واختير هنا في خطاب الأمر بالتسبيح عبارة: «رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ» لأن علاقة المخلوقاتِ كلّها باللّه جلّ جلاله منحصرةٌ بِرُبُوبِيّتِهِ لهم، لأنّ كلمة: «رَبٌّ» هي في الأصل مصدر فعل «رَبَّ يَرُبُّ» و«الرَّبُّ، والتربيَةُ والتربيبُ» مصادر لأفعالٍ مختلفة في صِيَغِهَا وَمعناها واحد، وهُو الإنشاء المتدرج للشيء مع تعهُّدِهِ حالاً فحالاً، وطوراً فطوراً، حتَّىٰ إبلاغه درجة كماله، أو حَتَّىٰ انتهاء مدّة وجوده.

وأسْمَاءُ الله الحسنىٰ الَّتي تدخل تحت كونه «رَبّ العالمين» كثيرة جدّاً، منها: الخالق والرازق والمحيي المميت، والرحمن والرحيم والعفوّ الغفار الوهاب الحكيم البرّ التوّاب، المنتقم الجبار...».

وفي عبارة ﴿رَبِّكَ﴾ إشارةٌ إلى ما يقتضي تسبيحه، وهو حاجة العبد إلى ربّهِ دَواماً في بدئه وبقائه، وخضوعه لسلطانِهِ التامّ في دنياه وآخرته، لأنّ ربوبيّة اللّه له محيطةٌ بكلّ ذَرَّةٍ من ذراته فما دُونها، ومصاحبةٌ لكلِّ دَقيقَةٍ من دَقَائِقِ عُمْرِهِ فما دونها.

---

(١) استفيد العموم من إضافة النكرة إلى المعرفة.

ومن ملاحظة أسماء اللّه الحسنىٰ الداخلة تحت مفهوم كون اللّهِ رَبَّ العالمين، نُدْرِك أَنَّ اللّه عزّ وجل قد اختار أن تكون أعمال الخلْقِ التي يجريها في الكائنات جَارِيةً وفْق نظام التربية، لا وفق نظام الخلْقِ دُفْعَةً واحِدَةً، لِتظَلَّ الكائنات بحاجَةٍ إلَىٰ إمداد اللّهِ لها بالبقاء خلْقاً بعد خَلْقٍ، كما يستمدُّ المصباح الكهربائي إضاءته من الطاقة الكهربائية، ففي اللّحظة الّتي ينقطع المدد الكهربائي ينْعَدِمَ النُورُ والضَّوْءُ من المصباح الكهربائي.

وجاء وصف الرّبّ بصفةِ «الأَعْلى» للثناء على اللّه بأنّه هُوَ الأعْلَىٰ من كُلِّ ذي عُلُوٍّ في الوجود، ولإبعاد توهُّمِ شمُولِ كَلِمة «رَبّ» لما تُطْلَقُ عليه في اللّسان العربي هذه الكلمة: «كالْمَلِكِ والأمير والسَّيِّدِ المطاع. ونحوها».

فالرَّبُّ الأعْلَىٰ هو اللّهُ وحده لا شريكَ له.

وتسبيح اسْم الرّبّ الأعلى يتضمَّنُ متابعَةَ حركَةِ الفكر والقلْب والنفسِ، بانسيابِ رفيق هيّنٍ ليّنٍ، في ذكْرِ صفات اللّهِ وأسْمَائه الحسنىٰ، ويتضمَّنُ متابعةَ إحضارِ تصوّراتِ أسماء اللّه الْحُسْنَىٰ في الفكر، ومتابعةَ الانشغال بالمشاعر القلبية والنفسيَّة التي تستدعيها تصوُّراتُ هذه الأسماء، وبهذا يكون التسبيح حضوراً مع اللّهِ مِنْ خلال التفكُّرِ في صفاته، والتأمُّلِ في دلالات أسمائه الحسنى.

وبعد الأَمر بالتسبيح أرْشَد اللّهُ عزّ وجلّ إلى الدليل الكونيّ الدالّ على ربُوبيَّةِ الرّبّ الأعلى، وتفرُّدِهِ بالربوبيّة، فأشار إلى عدّة قضايا من ظواهر الكون المشهود، فقال تعالى في السورة:

● ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾.

وقُرِئ: قَدَرَ. والمعنى فيهما واحد.

أربع قضايا أرشد إليها هذا النّصّ من آيات اللّه في كونه، فهِيَ من ظواهر الكون المشهود:

القضية الأولى: ظاهرة الخلق.

القضية الثانية: ظاهرة تسوية المخلوقات.

القضية الثالثة: ظاهرة تقدير المقادير، في كلّ صغيرٍ وكبير من هذا الكون الشاسع الواسع، من الذّرّة إلى المجرّة، فإلى السماوات السَّبْعِ فَمَا فَوْقَها.

القضية الرابعة: قضية هداية المخلوقات في حركاتها ومسيراتها وأعمالها، إلى القيام بما يُحقِّقُ الْغَايَةَ من خلقها.

● أما ظاهرة الْخَلْقِ التي دَلَّ عليها قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾.

فالْخَلْقُ: يأتِي في اللُّغَةِ للدلالَةِ على أَحَدِ معنيين، أو للدّلالة عليهما معاً:

المعنى الأول: التقديرُ الْعَمَلِي، وهو إعْطَاءُ أجزاء الشيء المؤلف من عناصر أو صُوَرٍ مختلفة مقاديرَها بإحكامٍ، ووفق هذا المعنىٰ قال اللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ لِعِيسَىٰ عليه السلام، كما جاء في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿...وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى... ﴿١١٠﴾﴾.

وإِذْ تَخْلُقُ: أي: وإِذْ تُقدِّرُ وَتُصَوِّرُ.

المعنى الثاني: ابتداءُ الشَّيْءِ بإيجاده على غير مثال سبَقَ، والْخَلْقُ على وَفْقِ هذا المعنىٰ هو من خصائص الرَّبِّ الخالِقِ جلّ جلاله.

وقول اللّٰه عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾ يَدُلُّ على المعْنَيَيْنِ معاً، لِأَنَّ أعْمَال الخلْقِ الرَّبَّانِية فيها التقدير المحكم، وفيها الإِبْدَاعُ على غَيْرِ مِثَالٍ سبَقَ.

● وأمّا ظاهرة تسوية المخلوقات في كلّ ما خلق اللّه من شيء، والتي دلَّ عليها قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰ﴾ أي: فجعل ما خلق يبلغ بإنشائِهِ المتدرج الغاية المقضيّةَ له في خطّة التكوين، فصار تامًّا بالغاً غايته.

سَوَّىٰ الشّيءَ: أي: جَعَلَهُ مُستوياً، وسَوِيًّا، والمستوي والسَّوِيُّ هو التَّامّ الّذي بلَغَ الغاية المقضيَّةَ لَهُ فِي خطّة تكوينه.

وجاء العطف بالْفَاء في ﴿فَسَوَّىٰ﴾ الدّالة على الترتيب لمطابقةِ واقعِ سُنَّة اللّهِ في خَلْقِهِ وهي سُنَّةُ الْإِنْشَاءِ المتدرّج إلى كمالِ الشَّيْءِ وَغايَتِهِ الْمُعَدَّةِ فِي خِطَّةِ إِيجاده.

ولَمَّا كَانَتْ عَمَلِيّاتُ الخلْقِ تَسِيرُ وفْقَ نِظام التربية، وهِي الإِنْشَاءُ المتدرِّجُ حتَّىٰ بلوغ الْمَخْلُوقِ غايَةَ كماله، وبها يكونُ مُستوياً، فإنّ تَسْوِيَةَ الْمَخْلُوقِ تأْتي مُتَأَخِّرَةً ومُتَرَتِّبَةً على أَعْمَالِ الْخَلْقِ المتتابِعَةِ المحكَمَةِ في كلِّ أَجْزَائِهَا وَعَنَاصِرِها.

فقول الله عزّ وجلّ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ في غايةِ الإيجاز، مع المطابقة لحركة الصُّنع الرَّبَّانِيِّ المتْقَن المحكَم العجيب.

● وأمّا ظاهرة تقدير المقادير، في كلّ صغير وكبير من هذا الكون كلّه، والَّتِي دَلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾.

يقال لُغَةً: قَدَّرَ الأَمْرَ وَقَدَرَهُ، إذا حدّد مقاديره ودبّره قبل إيجاده.

فالتقدير: هو تَحْدِيدُ المقادير، ويكونُ التقدير في كلّ شيءٍ لَهُ أجزاءٌ صغرىٰ يتكوّن من اجتماعِ مقادِيرَ مختلفةٍ منها كائناتٌ مختلفات.

فالذّرّاتُ تختلف باختلاف مقادير أجزائها، إذْ تتكَوَّنُ الذَّرَّةُ الّتي لا تُرَىٰ بالعين من نواة تتجمع فيها أعْدادٌ ممّا يُسَمَّىٰ «نيوترونات» وأعداد مما يُسَمَّىٰ: «بروتونات» وهي تختلف باختلاف العنصر الكيميائي، كالأكسجين،

والهيدروجين، والفحم، والكبريت، وتدور حول نواة الذرّة ألكترونات بعدَدِ مَا في نواتها من بُروتونات، والبروتونات تحمل شِحْناتٍ كهربائية موجبة، أما الألكترونات فتَحْمل شِحْنَاتٍ كهربائيَّة سَالِبَةٍ مماثلة في مقاديرها للشحنات الكهربائية الموجبة في البروتونات، وبذلك تتعادل الذّرّةُ كهربائيًا، ويتَحَقَّقُ بذلك تسْويتها. أمَّا النيوترونات في النواة فلا تحمل أيّ شحنَةٍ كهربائية موجبة أو سَالبة، فهي متعادلَةٌ بذاتِها.

وتجري بحوث العلماء في عناصر الكون مِنْ هذا المنطلَقِ القائِم على اختلاف المقاديرِ، في حكمة الخالق العليم الحكيم القدير، الذي خَلَقَ فَسَوَّىٰ، والذي قَدَّر.

ومن تحديد المقابر تَحْدِيدُ مقادِيرِ الأزمنة وأعمار الكائنات، بدءاً وامتداداً وانتهاءً، وتحديدُ الأمكنة من الفراغ الذي لا تُدْرَكُ له نهاية، وتَحْدِيدُ القوىٰ والطَّاقاتِ، إلى كلّ شيء تُدْرِكُ العقول أَنَّهُ قابل للتجزئة إلى أجزاء صُغْرىٰ، كلُّ جزءٍ منها يُمَثِّلُ أصْغَر وَحَدَاته.

فكُلُّ شيءٍ في المخلوقات هو ذُو أجزاء، واللَّهُ هُوَ الَّذِي يُحَدِّدُ مَقَادِيرَ هذه الأجزاء، ومقادِيرَ أفْعالِها وآثارها والغاية منها.

● وأمَّا ظاهرة هداية المخلوقات في حركاتها ومسيراتها وأعمالها إلى القيام بما يحقق الغاية منها، فَعُلَماء الكَوْنِيات يصفون مِنْ هذه الهداية ما فيه العجب الْعُجَاب، المحيِّر لذوي الألباب.

وكلُّ الناس يلاحظون هداية كلّ مخلوقٍ حيٍّ في أطوارِ نَشْأَتِهِ إلى ما يُفِيدُه في نمائه، حتّىٰ يصير كائناً سويًّا بالغاً الغايةَ المقضيّة لنوعه أو جنسه في خطّة التكوين الحكيمة.

يُحَدِّثنا العلماء الكونيون المختصونَ بالجراثيم المسببة للأمراض في الأجساد الحيَّة، ووسائل مكافحة الأجساد لها بالمضادّاتِ الجرثوميّة،

وتصنيع الْغُدَد اللّمفاويّة في الأجساد لها، بعد التعرف عليها، وإجراء الاختبارات المختلفة للتوصّل إلى المضادّ الناجح للقضاء على الجرثوم الدخيل، فإذَا توصَّلَتْ إليه نَشِطَتْ في تصنيع هذا المضادّ حتى تقضي فعلاً على الجرثوم الدّخيل.

ويبقى في ذَاكرتها هذا الجرثوم الذي قَضَت عليه أوّلاً بعد امتحانات وتجربات، حتَّىٰ إذَا عاود الدخول إلى الجسم مرّة أُخْرى أَسْرَعت إلَىٰ تصْنيع المضادّ نَفْسه الذي سبَقَ أن كان ذا فائدة فيما سلف.

فَمَنْ هَدَىٰ خلايا وغُدَداً خاصَّةً في الأَجْسَامِ لمكافحة أعدائها من الجراثيم الداخلة إليها؟

إنَّهُ سُبْحَانَهُ الرَّبُ الّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ والذي قَدَّرَ فَهَدَىٰ.

إنّ ظاهرات الخلق والتسوية والتقدير والهداية لها في الكَوْنِ أمثلَةٌ بعَدَدِ مَا فِي الكون مِنْ مخلوقاتٍ كبرى وصُغرى، وبعَدَدِ أجزائها وعناصرها، وهي أدِلَّةٌ تُحاصِرُ الإنسان أيْنَ كان من هذا الكون، فتدُلُّهُ على أَنَّ له ربًا خالقاً مُسَوِّيًا مُقَدِّراً هَادِياً.

وكلُّ البحوث الوصفيّة الّتي توصَّلَ إليها علماء الدراسات الكونيّة تتضمَّنُ أمثلة لا حصر لها، وهي شواهد على كمال ربوبيّة اللّه، ووحدانيته، وهيمنته، وإتقان صنعه، وحكمته وشمول علمه، وعظيم قدرته.

والاستدلال بهذه الظاهرات الكونية هو الاستدلال الذي استدل به موسى عليه السلام في مناظرته لفرعون، كما جاء في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾.

قول اللّه عزّ وجل:

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴿٥﴾﴾.

الْمَرْعَىٰ: مَا تَرْعَاهُ الماشِيَةُ مِنْ نَبَاتِ الأَرْض.

وفي التَّنبيه على إخراج المرعىٰ نباتاً من الأرض تقديمُ مَثَلٍ من الأمثلة الكونية على كون اللّهِ عزّ وجلّ خَلَقَ فَسَوَّىٰ وقَدَّرَ فَهَدَىٰ.

فظاهِرَةُ إخراج النبات من الأرض تدلُّ على جملة من صفاتِ اللّٰهِ الداخلة تحت كونِه رَبّ العالمين، ومنها كونه خالقاً فَمُسَوِّيًا، وَمُقَدِّراً فهادِياً.

إنَّه أَخْرَج نباتاتِ الأرضِ، وفيها ما يَصْلُح مَرْعَىٰ لآكِلاَتِ النبات من الحيوانات، وَهَدَىٰ هٰذِهِ الآكلاتِ لأكْلِ مَا يَنْفَعُهَا ويُغَذِّيها أو يُدَاويها، واجتناب ما يضرُّها أو يؤذِيها من النباتات السّامّة.

وفي هذا التنبيه امتنانٌ على الناس إذْ هيّأ الله لَهُمْ أنعاماً وَدَوَابّ، وسَخَّرَهَا لِمنافِعِهم المختلفة.

غُثَاءً: الغثاء البالي من ورق الشجر. قال الزجاج: فجعله غُثَاءً: أي: جفَّفَهُ حتَّىٰ صَيَّرَهُ هشيماً جافاً كالْغُثَاءِ الذي تراه فوقَ السَّيل.

أحْوَىٰ: أي: خالَطَ لونَهُ سوادٌ بسبب جفافه وتحوُّلِه بَعْدَ خُضْرته ونُضْرَتِهِ إلى الغثائيَّة، **والأحوى**: الأسْوَد.

وفي هذا تنبيهٌ على نظام اللّهِ في الْخَلْقِ، سَوَاءٌ أكان في الأحياء أم في النباتات، أم في غيرهما، إنَّه نِظَامُ صُعُودٍ مُتَدَرِّجٍ إلَىٰ مستوى كمال المخلوق، ثُمَّ هُبوطٍ وانْحِطَاطٍ إلَىٰ أرْذَلِ الْعُمُرِ في الأحْيَاءِ، وإلىٰ شبيه ذلك في النباتاتِ حتىٰ دَرَكَةِ الغثاء، وإلى شبيه ذَلِكَ في غيرهما من الأشياء.

إنّ حركة النبات منذ أوَّل نشأته، حتَّىٰ يخرج إلى سطح الأرض مرعَى، وحتَّىٰ يسْتَوي على سُوقه، وحتَّىٰ يَيْبَسَ ويكُونَ حُطاماً، وحتَّىٰ يَسْوَدَّ

وَيكون غُثاءً مُسْتَهْلَكاً، بمثابة سِفْرٍ عظيم مشحونٍ بِعِلْم عظيم، إلاَّ أنَّه مشهود، يدرسه عُلَماءُ النبات مئاتِ السِّنين، وكُلَّما تَعَمَّقُوا في الدّراسة اكتَشَفُوا من الإتقان البديع العجيب، بدءاً من الجينات الوراثيّة. حتَّىٰ انْشِقَاق البزور، وحتى انشقاق الأرض عن النبات بالقوة العجيبة، وحتَّىٰ التنامي صعوداً إلى درجة كماله، ولِقاحِهِ وَإنتاجه، وإلى مختلف تركيبات العناصر في مختلفات النباتات، وإلى توزيع الخصائصِ في الأصناف، ثم إلى الاستهلاك الأخير، ما يُحَيِّر أَلْبابهم دهشة، ويجعلهم إذا أنْصَفوا يقولون: آمنا باللّه رَبِّ كلّ شيءٍ، وخالِقِ كلِّ شيءٍ، وَهو الحكيم الخبير القدير.

(٦)

التدبّر التحليلي للدرس الثاني من السورة

الآيات من (٦ ـ ٨)

قال اللّه عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾.

ارتباط هذا الدرس بالدرس الأوّل:

تضمّن الدرس الأوّل من السورة توجيه الرسول محمد ﷺ أن يشرح للنّاس القضايا الّتي اشتمل عليها، والمتعلّقة باللّه جلّ جلاله، وتنزيهه عمّا لا يليقُ به، وبيان أدلّة رُبوبيته في كونه.

وقد سبق أنْ عَلِمَ صلواتُ اللّه عليه فيما أنزل اللّه عليه من القرآن أنَّ هٰذِهِ القضايا المتعلّقة باللّٰهِ إنّما هي فقراتٌ أولى مِنْ أُسُسِ العقيدة في الإسلام، وَلا بُدَّ أنْ تَتْبَعها بياناتٌ أخرىٰ تتعلّقُ بسائر فقراتِ أَركان الإيمان، وبيانات تتعَلّقُ بأنواع السُّلُوك الدّينيّ في الحياة، وَأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَلَقَّىٰ هٰذِهِ

البيانَاتِ بتتابُعٍ، وهو في حالَةِ استعدادٍ نَفسِيٍّ كَامِلٍ لِتَلَقِّيهَا وَحِفْظِها، وحَمْلِ مَسْؤُوليّة تبلِيغِها وَالتَّذكِيرِ بها، وتأدية سائر وظائف رسالته كاملةً تامَّةً على أحْسَنِ وجْهٍ، وحتَّىٰ يَلْقَىٰ رَبَّهُ مطمئنًّا مؤمناً بأنَّه لم يُقَصِّرْ في شيءٍ من وظائف رسالته.

وَإِذْ يَعْلَمُ الرّسُول ﷺ من نفسه أنَّه بشَرٌ؛ وأنّه مُعَرَّضٌ لأنْ يَنْسىٰ بَعْضَ مَا يُنَزِّلُ اللَّهُ عليه من القرآن، فلا بُدَّ أَنْ يتخوَّفَ من هٰذا الأمْرِ العظيم، وهو يحمل رسالة رَبِّهِ الجليلة، وأنْ يحْمِلَ هَمَّ حفظ كُلِّ كَلِمَةٍ وَكُلِّ حَرْفٍ وَكُلِّ آيةٍ وَكُلِّ سُورَةٍ تتَنَزَّلُ عليه مُسْتَقْبلاً، وهو أمّيٌّ لم يَأْمُرْهُ اللَّهُ بأن يتعلَّمَ القراءَةَ والكتابة، وهو ما زال في أوائل ما أنزل اللَّهُ عليه من قرآن، فسورَة (الأعلى) هي السورة الثامنة بحَسَبِ ترتيب النزول، ولا بُدَّ أن يحْمِلَ هَمَّ القيام بوظائف رسالته في قومه.

لهذا كان من الحكمة أن يطمئن اللّه عزّ وجلّ رسولَهُ بشأن الأمْرَين الْمُهِمَّيْن لنَفْسِهِ وقلبه:

الأمْرُ الأول: تخوُّفُهُ من أن ينْسَىٰ بعض ما يُنَزِّل اللَّهُ عليه من كتابه المجيد.

الأمر الثاني: تخوُّفُهُ من أن لا يستطيع تأدية وظائف رسالته التي أرسله اللّه بها على أَتَمّ وجْهٍ وأكمله.

فأبان اللّه له أَنَه سيُمِدّهُ بعطاء من لَدُنه يجعله لا يَنْسَىٰ ما يُنَزِّلُ عليه من قرآن، إلاّ ما شاء اللّه أَنْ يُنسيَه إيّاه. وسَيُمدّهُ بمعُونَتِه حتَّىٰ يُؤَدِّي وَظائف رسالته التي حمَّله إياها بيُسْرٍ، إِذْ يُيَسِّرُهُ اللَّهُ لحملها بما يُعْطِيه من قُوَىٰ فكريَّةٍ ونفسيَّة وقَلْبِيَّةٍ وَجَسَدِيَّة، وهذا ما اشتمل عليه الدرس الثاني من دروس السورة.

- فقال اللَّهُ له بِشَأنِ الأمر الأول:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾.

أي: سيقرأ جبريل علَيْكَ القرآن بأمْرنا، فأنْتَ تَتْلُوه فلا تَنْسَىٰ بما نَمْنَحُكَ، إذْ هُوَ يُلَقِّنُكَ إيّاهُ شَفَهِيّاً، بقراءة تعليميّةً، حرفاً فحَرْفاً وَكَلِمَةً فَكِلِمَةً، فَنَجْعَلُكَ بَعْدَ حِفْظِكَ لَهُ لاَ تَنسَىٰ، إذْ نُثَبِّتُهُ في ذَاكِرَتِكَ بعَطَاءٍ خاصٍّ منَّا لَكَ، ولمّا كان التثبيت في الذاكرة أمراً يأتي بعد الإقراء جاء العطف في الآية بالفاء، فقال تعالى: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ أي: فأنْتَ بعد ذلك لا تَنْسَىٰ بحفظٍ مِنّا لك ومعونة.

وخاطب اللّه رسُولَهُ هنا بضَمير المتكلّم العظيم فقال له: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ لإشعاره بأنّ تَثْبِيتَ اللّهِ القرآنَ في ذَاكِرَة الرَّسُولِ أمْرٌ هَيِّنٌ عَلَيْهِ، فلا يَحْمِلْ همَّ تَخَوُّفه من نسيان مَا سَيُنَزِّلُ اللّهُ عليه من قرآن مهما كَثُرَ وَتَتَابَعَ.

واسْتَثْنَىٰ اللّه عزَ وَجلّ مَا شَاءَ هو أَنْ يُنْسِيَهُ رَسُولَهُ، لحكمة يشاءُ تحقيقها، كآيَةٍ أرادَ نَسْخَها، وآيَةٍ أراد أَنْ يُنْسيَهُ إيّاها، ليأتي بخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِها، وعندئذٍ يكون الأمْرُ تابعاً لإرادَةِ اللّهِ جلّ جلالُه، ولا يكُونُ الرَّسُولُ فيه مُقَصِّراً وَلاَ مُتَهاوناً في الحفظ والاسْتِذْكَار. ومشيئَةُ اللّهِ عزّ وجلّ في كلّ أَمْرٍ لاَ تُفَارِقُ حِكْمتَه، ومشيئته في كلّ أَمْرٍ لاَ تكونُ إلاّ حكيمة.

وقد أبان اللّه عزّ وجَلّ بتفصيلٍ هذه الحقيقة بقوله في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٦﴾.

فذكَرَ في هذه الآيَةِ جانباً من حكمته تَعالَىٰ في هذا الأمر، وهو أَنَّهُ يُنْسِي لِيَأْتِي بالأَحْسَنِ أو المساوي، وليَدُلَّ بالمساوي على أنَّ له الاختيار الحرَّ في مشيئته، لا مجبر له، وليُدلَّ بِالأَحْسَن على أَنَّهُ يراعِي مصالح عباده

وفق تغيُّراتِ أحوالهم، واستعداداتهم، وليدُلَّ بهما جميعاً على أنّه يختبر إيمان عباده بما يُنَزِّلُ عليهم، ويختبر طاعَتَهُمْ لأوامره ونواهيه مهما بدّلَ فيها وغيَّر، وليعلِّمَ أولي الأَمْرِ منهم أَنْ يَنْسَخُوا قراراتهم وأوامرهم ونواهيهم إذا رأَوْا أَنّ المصلحة تقتضي نَسْخَها، فالرَّبُّ جلَّ جلالُهُ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ في كتابه المنزّل.

وكلُّ هذا الموضوع يتعلّقُ بالنسيان الكلّيّ، أمّا النسيانُ العارض المؤقت الذي يتبعه استذكار، فقد يقعُ من الرّسول ﷺ في بعض الأحوال النادرة بمقتضىٰ بَشَرِيّتِه.

قولُهُ تعالَىٰ: ﴿... إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾.

الْجَهْرُ: العلانية، وهو مصدر «جَهَرَ» يقال لغة: جَهَرَ بالكلام إذا أعلنه، والمراد بالْجَهْرِ، المجْهُورُ به، أي: الْمُعْلَنُ، بدليلِ مقابلته بما يَخْفَىٰ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾ أي: وما يَخْفَىٰ علَىٰ المخلوقات، أمَّا اللَّهُ عزَّ وجلَّ فلا شيْءَ يخْفَىٰ عليه، إنّه سبحانه وتعالى يعلمه علماً تامّاً ظاهِرَهُ وباطنه.

ونلاحظ أنّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ إشارةً إلى أَنَّ الذّاكرة في الدماغ جهاز خفِيٌّ لا يعلَمُ الناسُ حقيقته، فَتَثْبِيتُ المحفوظاتِ فيها، ومَسْحُهَا منها، من الأمور الخفيَّةِ عَلَىٰ الناس، ويُقَابِلُ هذا المخفيَّ المجهورُ به من القول، ولكنَّ اللَّه عزَّ وجَلَّ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ، فهو سبحانه بعِلْمِه لاَ يَخفَىٰ عليه شيء، وهُوَ بقُدْرَتِهِ على كُلِّ شيءٍ يُثَبِّتُ مَا يَشاءُ في ذَاكِرَةِ الرَّسُولِ ﷺ مهما كان كثيراً وَصَعْباً، ويَمْسَحُ منها مَا يشاء مَسْحَهُ مهما كان قليلاً وسَهْلاً.

ولتثبيتِ المحْفُوظاتِ النّصيَّةِ في الذاكرة يُمِدُّ اللَّهُ رسوله بقوَّةٍ خاصَّةٍ يجعله بها قادِراً على أَنْ يَحْفَظَ فلا يَنْسَىٰ.

وَقد جاء هذا المدَدُ الرّبّاني لتطمين قلب الرسول، ولصيانةِ القرآن وحفظه في ذاكرة الرَّسُولِ المبلِّغ للناس ما يُنَزِّلُ اللَّهُ عليه لهدايتهم.

ثمّ أنزل اللّه عزّ وجل ما بيّن به أنّه تكفَّل بحفظ القرآن للناس بعد الرسول ﷺ، فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾.

فَتَمَّ بالعناية الرَّبّانية حفظ القرآن من التغيير والتبديل والزيادة والنقص، إذْ تكفَّلَ اللَّهُ عزّ وجلّ بهذا الحفظ من كلّ أطرافه، وفي كلّ مراحله.

● وقال اللّه لرسوله بشأن الأمر الثاني الذي أَهَمّه: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾.

أي: ونهيِّئُك ونَصْنَعُكَ ونُمِدُّكَ بالقوة والْعَوْنِ وكلِّ ما تحتاجُ إليه في حَمْل وظائف رسالتك، التي تُبَلِّغ بها المِلَّةَ والشّرِيعة الْيُسْرَىٰ، دُون أن تُقَصِّر بشيءٍ منها، ودون أن تعجز عن شيءٍ منها.

والعربُ تستعمل فعل «يَسَّر» بِمَعْنَىٰ صَنَعَ وهيّأ.

فطمأنَ اللَّهُ رَسُوله بهذا حتَّىٰ يُبْعِدَ عن نفسه التخوُّف من أن لا يستطيع تأدِيَةَ وظائِفِ رسالته الّتي أرسله بها على أتَمّ وجْهٍ وأكمله.

وقال اللّه لرسوله في هذه الآية: (نُيَسِّرُكَ) ولم يَقُلْ لَهُ: نُيَسِّرُ لكَ، للدلالة على أمْرٍ دقيقٍ يَنِدُّ عن الأذهان، وهو أنّ التّيْسِيرَ إمّا أَنْ يكُونَ لحامل التكليف، وإمّا أن يكون في التكليف نفسه.

أمّا تيسيرُ التكليف هنا وهو وجوب حمل الرسالة على أحسن وجْهٍ في مُجْتَمع مشحونٍ بالعقبات والمؤذيات والمضادّات، وفيه المخالفون الأعداء، والمقاومون الأشداء، فحِكْمَةُ ابتلاء الناس في ظروف الحياة الدنيا تأبَاهُ، ولا بُدَّ أن يُواجه الرسولُ صُعُوباتٍ كثيراتٍ وهو يؤدّي وظائف رِسالته.

فبقي تيسير الرسول المكلّف بإعداد نفسه وفكره وقلبه وجَسَدِهِ لتحمُّل أعباء رسالته بيُسْرٍ وصَبْرٍ وقُوَّةِ عزيمة.

مثال هذا: إذا كان الحِمْلُ يَزِنُ قِنطَارَيْن وكانت استطاعة المركبة الحاملة أَنْ تَحْمِلَ نِصْفَ قنطارٍ بِيُسْرٍ، فأَمَامَنا للتيسير وسيلتان:

الوسيلة الأولى: أن نُيَسِّرَ في الحِمْلِ فنجعله نصْف قنطار.

الوسيلة الثانية: أن نُمِدَّ المركبةَ بطاقَةٍ أعلَىٰ وقُدْرَاتٍ إضافِية تجعل حَمْلَ القنطارَيْنِ يسيراً سَهلاً عليها، ولكن التيسير بهذه الوسيلة قد حصل في المركبة لا في الحِمْلِ.

وهكذا كُلُّ صعوبات الأعمال إذَا كان الإِمداد للقيام بها مُوَجّهاً لذات العامل، فإنّه يكون هو الميسَّرَ لها، والقادِرَ على القيام بها بسُهُولَةٍ وَيُسْرٍ، وإذا كان التيسِيرُ في الصعوبات نَفْسِها فإنَّهُ يكُونُ بتخفيفها، وحذْفِ ما يشُقُّ على العامل منها.

وأمّا كَلِمَةُ (الْيُسْرَىٰ) فقد جاءَتْ في الآية وَصْفاً لموصوف محذوف، معلومٍ من سِيَاقِ الكلام وسِيَاقِه، وتقديره: الملّة الْيُسْرَىٰ، أو الشريعة اليسرىٰ.

الْيُسْرَىٰ: في وصف المؤنث مثْلُ الأيْسَر في وصف المذكر كلاهما يدلُّ على التفضيل، أي: ذات الْيُسْرِ الأكثر من كلِّ ملّةٍ رَبَّانيّة سابقة.

فهذه الملّة التي جعلها اللّه خاتمة الديانات المنزلَةِ تشتَمِلُ على الأحكام الْيُسْرَىٰ على الناس، التي لا حرج فيها، ولا تكاليف عسيرة فيها إعناتٌ وإصْرٌ كما حَصَل لأمم سابقة، وفي وصف هذه الملّة بالْيُسْرَىٰ مع بدايات تنزيل القرآن بشارة للناس بأنّ رسالة هذا الرسول الخاتم للأنبياء والمرسلين، رسَالَةٌ تتضَمَّنُ أحكاماً وتكاليف يُسْرَىٰ.

ثم جاء تأكيد وشرح وتفصيل يُسْرِ الشريعة الإسلامية فيما نزل من قرآنٍ في العهدين المكيّ والمدني[١].



(٧)
التدبّر التحليلي للدرس الثالث من السورة

الآيات من (٩ ـ ١٥)

قال اللّه عزّ وجل خطاباً لرسوله:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾.

● قول اللّه عزّ وجل: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾.

بعد أنْ طَمْأَنَ اللّهُ عزّ وجلّ رسولَهُ بشأنِ الأَمْرَيْنِ اللَّذينِ أَهَمَّاهُ، إذْ تَخَوَّف من النسيان، وتخوَّفَ من العَجْزِ عن تأديته رسالَتِه على أَحْسَنِ وجْهٍ وأَكْمَلِه، وجَّهَ اللّهُ له الأمر بأن يقوم بتبليغ رسالته وبيانها للناس، وشرحها لهم، وإقامة الأدلة والبراهين التي تقنعُهُمْ بصحَّتها، ومعالجتهم بالترغيب والترهيب وبمُخْتَلِفِ وسائل التربيَةِ المؤثّرة، فَمَنْ تبلَّغَ كُلَّ ذَلِكَ منهم ولم يَسْتَجِبْ فالمناسِبُ في متابَعَةِ معالَجَتِهِ التذكيرُ مرَّةً بَعْدَ مرَّةٍ بما سَبَقَ أَنْ أُعْلِمَ به، ما لم يَبْلُغ المدعُوُّ إلى حالةِ ميؤوسٍ منها، ويُعْرَفُ هٰذَا بأماراتٍ وأدلَّةٍ كَثِيرةٍ تَظْهَرُ في سلوكه ومُخْتَلِفِ تصرُّفاته.

---

(١) انظر الفصل التاسع «خصائص الشريعة الإسلامية» من كتاب: «ابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة» للمؤلف.

أمّا ما دام نَفْعُ التَّأْثير مَرْجُوّاً ولَوْ بِنِسْبَةٍ ضئيلَةٍ فإنَّ المطلوبَ متابَعَةُ تَذْكِيرِه.

وَجَاء في النَّصّ الاقتصار على أمْرِ اللَّه رسُولَهُ بالتذكِير، وهو إحضار المعلوم السابقِ في الذاكرة بقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ مع أنَّ مَرْحَلَةَ التذكير مرحلَةٌ متأخِرة، لأنّ التذكير لا بدَّ أن يكُونَ مسبوقاً بالتبليغ والبيان والشرح واتخاذ مختَلِف وسائل الإقناع والتربية بالترغيب والترهيب وغيرهما. فذكر التذكير يدُلُّ باللُّزوم الذهني على ما لا بُدَّ أن يكون قبْلَه. كمن أَدْخَل ضيفاً إلى داره ليسكنها عدّة أيّام، وقال له: كُلْ واشْرَبْ ونم واقض كلّ حوائجِك، لكنّه لا يستطيع أن يأْكُلَ ما يُريد حتَّىٰ يُعِدَّ طعامه بأن يطبخَهُ من الأرْزاق الموجودة فيه، ففيه أرزاقٌ كثيرة تحتاج إلى طبخ وإعدادٍ حتَّىٰ تكون صالحة للطعام، وَلا يستطيع أن يشرب حتَّىٰ يستخرجَ الماء من البئر بالدلاء، وكذلك سائر حاجاته.

فالأمر بالتذكير أمْرٌ بما ينبغي أن يكون قبله من تبليغ وبيان وشرح، وإقناع بمُخْتَلِف الوسائل الإقناعية، ومعالجةٍ بمختلِف وسائل التربية.

التذكير: إعادةُ ما سَبَقَ الإعلامُ به، لإخراجه من مراكز المعرفة الكامنة إلى ساحَةِ الذّاكرةِ الحاضرة، رجاءَ أن يكون هذا الحضور في ذاكِرَةِ المدعُوّ دافعاً له حتى يسْتجيبَ للدَّعْوَةِ.

الذِكْرَى: اسْمٌ للتَّذْكير، ويأتي بمعنىٰ التَّذَكُّرِ.

وفي قَوْل اللّه عزّ وجلّ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ بَيَانٌ لقاعدة من قواعد الدَّعْوَةِ إلى اللّهِ، أيْ: إنَّ على الداعي إلى اللّهِ أن يُتَابِعَ التذكير بما كانَ بلَّغَهُ وبيَّنَه وشرحه واتَّخذ وسائل الإقناع به، لدى من لم يستجيبوا لدعوته كلّما رأىٰ إمكان النَّفع بالذكرى، ولو بالاحتمال الضعيف الوارد على سبيل التقدير المشكوك بجَدْوَى الذكْرَىٰ معه.

يقولُ البلاغيون: إنَّ استعمال كلمة «إنْ» الشرطيّة يُفِيدُ أنَّ ما دَخَلَتْ عليه مشكوكٌ في وُقوعه، بخلاف كلمة «إذا» الشرطيّة فإنَّها تُسْتَعْملُ حينما يكون فعل الشرط متيقَّن الوقوع، أو مظنوناً وقوعُهُ ظنًّا راجحاً.

فعلى هذا نستطيع أن نفهم أنّ الأمر بالتذكير يتوجَّه ولو كان احتمال نفع الذّكرى احتمالاً ضعيفاً.

وعلى طريقة الاستدلال بالمفهوم المخالف أرى أنَّ الداعيَ إلى اللَّهِ إذا تيقَّنَ بعْدَ مُحَاوَلاتٍ مُتَعَدِّدَاتٍ أنّ التذكير لإنسانٍ بعينه، أو لمجموعة مُحَدَّدَةٍ، قَدْ غَدَا نوعاً من إضاعَةِ الوقت فيما لا نفع فيه، فمن الخير له أَنْ يتحوّل إلى جهة أخرى يرجو فيها نَفْعَ تَذْكِيره، أو دَعْوَته، وفي شأن هؤلاء الميؤوسِ من استجابتهم إبّانَ التنزيل وفي أمثالهم قال اللَّهُ عزَّ وَجلَّ في سُورَة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾﴾.

إذْ إنَّ إصرارهم على الرفض والجُحُود قد كانَا بعْدَ أن استيقنت قُلُوبُهُمْ بالحقيقة، فهم يجحدُونها بدافعٍ من الكبر، أو الرَّغْبَةِ بالفجور واتباعِ الهوىٰ، كما قال اللَّه عزّ وجلّ بشأن فرعون وقومه في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

وهَٰذَا المنهجُ في التذكير هو المنهج الذي اتَّبَعَهُ الآمِرُونَ بالمعروف الناهون عن المنكر من بني إسرائيل إذْ وَجَّهُوا تَذْكِيرَهُمْ لأهل القريَة الّتي كانت حاضرة البحر، إذْ يَعْدُونَ في السبت، لَقَدْ وعَظُوهم وَذَكَّرُوهُمْ

ونَصَحُوهم بأن لا يخالِفُوا أمْرَ اللّه، فلامَهُمْ جماعَةٌ من أهل الاستقامة في أنفسهم، وقالوا لهم: هؤلاء الْعَادُونَ في السبت متمادون في معاصيهم، فاللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهم عَذَاباً شديداً، فلا تُتْعِبُوا أنفُسَكُمْ في وعظهم وأمْرِهم بالمعروف ونَهْيِهِمْ عن المنكر.

فكان الجواب الحكيم من الواعظين ذا شقّين:

الشقّ الأول: نَحْنُ نُقَدّمُ عُذْرَنا إلى اللّه بأنّنا لم نُقَصِّرْ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الشقّ الثاني: إنَّ احتمال وجود من يتّقي اللّه منهم بالتذكير والموعظة احتمالٌ قائم لم ينقطعْ، حتَّىٰ نَنْفُضَ أيْدِينَا مِنْهم، وإنْ كانَ احتمالاً ضعيفاً، فالواجب أن نُتَابع تذكيرهم وموعظتهم.

وفي بيان قصتهم قال اللّه عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

فعلَىٰ حامل الرسالة أن يوفّر جهوده العظمىٰ من جهود أدائه وظائف رسالته، فلا يُنْفِقَها تبذيراً فِي الّذِين دلّت التجرباتُ المتكرّرات على أنّ قابليّاتِهِمْ للاستجابةِ غَيْرُ مطموع فيها، لبلوغهم إلى حالةٍ ميؤوسٍ منها، وعليه أَنْ يُوجّه جُهُودَهُ إلى آخرين مطموعٍ في استجاباتهم[1].

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾.

---

(١) انظر لاستكمال هذا الموضوع شرح القاعدة (١٩) من «قواعد كلية بوصايا لحامل الرسالة» في الجزء الأول من كتاب: «فقه الدعوة وفقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للمؤلف. من ص٣٢٨ ـ ٣٤١.

أبان اللّه عزّ وجلّ في هٰذِهِ الآيَةِ من يُرجَىٰ منهُمُ التَّذَكُّرُ النَّافِعُ من الناس، الذين إذا تَذَكَّرُوا دَفعَهُمْ تذكُّرُهم للاستجابة لدعوة الحقّ.

إنّهم الذين لديهم استعدادٌ لأنْ يَخْشَوُا اللّه إذا حَصَلَ عِنْدَهُمُ العلْمُ به وبصفاته، ولهذا الاستعداد أماراتٌ في الناس، تُلاحَظُ من تصرّفاتهم، ومن تأثير بعض المرهبات الغيبيّة في نفوسهم، وهي لا تخفىٰ على الدّاعي الألمعيّ.

وجاءت الآية بصيغة: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ بإدخال السين الدالة على المستقبل لتَدُلَّ على أنَّ الذين لديهم استعداد لأن يخْشَوا ربّهم، ويخافوا من إنذاراته بالعذاب المعجل أو المؤجل، يحتاجون متابعةً تربويَّةً بالتذكير، وعلاجاً يسْتَمرُّ إعطاؤه مدّةً من الزمن حتَّىٰ يَتَحَقَّقَ نَفْعُ التذكير. فنفْعُ التذكير لا يتمُّ بين عشيَّة وضحاها، على الرُّغم من وجود الاستعداد لدَيْهِمْ. على أن الناس يتفاوتون في هذا، والنسبة المستعدّة لأن تخشىٰ وتنتفع بالتذكير من الناسِ نسبةٌ كبيرة، وليست بالنّسبَةِ القليلة، مع تفاوت نسبة الانتفاع لديهم، وأدناهم من ينتفع بالاستجابة إلى الإيمان، ولو كانت استقامته ضعيفةً وقليلة، لأنَّ هواه أقوى من إرادته.

أمّا الّذين لا يوجد لديهم الاستعداد للخشية من اللّه فهم الأشْقَوْنُ، أي: هم الأَكثر شقاوة، بسبب تعريض أنفسهم للخلود في عذاب النار يوم الدّين، وهم أهل الكُفرِ والجحود، لا مَنْ فيهم شقاوة الفسوق والعصيان، مع استعدادهم للإيمان.

● قولُ اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

ويَتَجنَّبُها: أي: ويبتعد عنها، الضمير يعود على الذكرى.

الأشقى: أي: الأكثر شَقَاوَةً بسبب كُفرِهِ ومعاندَتِهِ للحقّ، وشقاوتُه العظمى هي ما سَيُعَانِي منه من عذاب النار يوم الدين خالداً فيها مخلّداً.

الّذِي يَصْلَىٰ النَّارَ الْكُبْرَىٰ: أي: الّذِي يُعَذَّبُ يوم الدّين بالْحَرِيقِ في النار الكُبْرَىٰ، وهي نَارُ جَهَنَّمَ، وَوَصَفَها اللّهُ بالكبرىٰ لأنّها أكْبَرُ نَارٍ مُعَدَّةٍ لعذاب العصاة المذنبين، أمّا النيرانُ الأُخْرىٰ فهي دونها، ومن هذه النيران نيرانُ الدّنيا مهما كانت شديدة.

يُقَالُ لُغَةً: صَلِيَ النَّارَ وَصَلِيَ بِهَا، إذا احْتَرَقَ فيها، ولامَسَ لهَبُها جَسَدَهُ مُحْرِقاً.

ويقال: أَصْلاه يُصْلِيه ناراً، إذا أَدْخَلَهُ فيها ليحتَرِق.

إنَّ هذا الأَشْقىٰ الذي هو الأكثر شَقَاوَةً بسبب كُفْرِه العنادي، هو الذي يتجنّبُ الاستجابة لتذكير المذكِّرين، لأنّه ليس مستعدّاً نفسيًّا لأن يخشَىٰ وَلَوْ مُسْتَقْبلاً، مهْمَا قُدِّمَتْ له الإقناعات والمذكّرات، ولهذا لم يكن فعل التجنُّب منه يحتاج إلى حرف «السين» الدالّ على المستقبل، نظراً إلى أنّه يتجنّبُ الذكرىٰ عَقِب التذكير، ويظلُّ كلَّ حياته متجنّباً.

ولهذا كان هذا الأشقىٰ مستحقًّا لأن يصْلَىٰ النار الكبرىٰ خالداً فيها، وهذا الخلودُ الأبَدِيُّ فيها يكافِئُ جُحُودَهُ الأَبَدِيَّ، لأنَّ اللّهَ لَوْ أَحْيَاهُ في الدار الدنيا حياةً أبديّة لبقي كافراً كُفْراً أَبَدِيّاً.

ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَىٰ: أي: ثُمَّ مَهْما طَالَ في النّار الكبرى بقاؤه وعَذَابُه، فإنَّهُ لا يَأتيه زَمَنٌ تَحْصُل له فيه راحَةٌ ما من العذاب الذي هو فيه، فلا يأتيه الموتُ الذي يَقْطَعُ عنه الإحْسَاسَ بالعذاب، ولاَ تأتيه حيَاةٌ مُرِيحَةٌ خاليَةٌ من العذاب.

وَجاءَتْ عِبَارَةُ: ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ تنزيلاً لحياة العذاب مَنْزِلَةَ حالَةٍ وُسْطَىٰ بَيْنَ الْمَوْتِ المريح والحياة السعيدة، وهذه الحالة الوسْطَىٰ هي حَالَةُ تَعَاسَةٍ وَشَقَاءٍ دَائِمَيْن، وهذه الحالة حَرِيَّةٌ بأَنْ لا تُسَمَّىٰ حَيَاةً، لأنَّ من شأن الحياة الّتي يَحْرِصُ الأحْيَاء عَلَيْها أنْ يكونَ فيها شيءٌ ممّا يُحِبُّونَ ويَرْغبونَ فيه، أمّا

أَنْ تكُونَ شَقَاءَ دَائماً فهي لَيْست بحياة، وَلَيْسَتْ مَوْتاً، بل الموتُ خَيْرٌ منها، ويتمنّاهُ أهل هذا العذاب فلا يسْتَطِيعُونَ الحصول عليه.

● قول اللّه عزّ وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾.

في مقابل بيان مصير الأشْقَىٰ جَاءَ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ بَيَانُ مصير مَنْ تَزَكَّىٰ وَذَكر اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ، وهٰذا أدنىٰ المؤمنين المفلحين.

قَدْ أَفْلَحَ: أي: قَدْ ظفر وفَاز، والمراد الفوز بنعيم الجنَّةِ يوم الدين، والمعنى: أصاب الفلاح وهو الظفر والفوز.

مَنْ تَزَكَّىٰ: أيْ: مَنْ تَطَهَّرَ مِنْ رجْسِ الكُفْر والشرك بالإيمان والإسلام، ونَمَّىٰ نفسه بالصالحات من الأعمال.

الزكاة في اللّغةِ تدلُّ على معنَيَيْنِ: الطهارة من الأرجاس، والنماء، والمؤمن المسلم الذي يعمل صالحاً يطهر نفسه من أرجاس الكفر والشرك، وينمّي نفسه بالأعمال الصّالحة والطاعات.

وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ: أي: وعَبَدَ رَبَّهُ بذكْرِ اسْمِهِ مُعَظِّماً مُؤْمِناً مُسْلِماً، فَصَلَّىٰ له.

ويظهر أَنّ المرادَ منْ ذكْر اسم رَبِّه ذكْرُ أسمائه وصفاته الَّتي تَشْمَلُها رُبُوبيَّتُهُ جلَّ جَلالُهُ، مع الخضوعِ لسلطانه خضوعاً إرادِيّاً، فصَلَّىٰ لَهُ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بعبادته شيئاً، ودعاه وحده لا شريك له.

ولمَّا كانت سورة (الأعلى) من أوائل التنزيل القرآنيّ كَانَ من حِكْمَةِ التَّدَرُّج في الدَّعْوَةِ إلى دِينِ اللّهِ وَتَطْبيقاته فِي السُّلُوكِ الاقتصارُ على التوجيه لعبادةِ اللّهِ بِذكْرِ أَسْمَائه الْحُسْنَىٰ وصِفَاتِهِ الجليلة التي تَشملها رُبوبيَّته، والصَّلاَةِ له، دون تحديدٍ لركعاتها وأركانها وشروطها، وقد يكون المراد من الصلاة الدّعاء، أوْ مَا كان متوارثاً في العرب عن إسماعيل عليه السلام،

فقد كان لدى المشركين صلوات موروثة من ملّةِ إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، كما كان لَدَيْهِمُ الحجّ والطواف وكثير من المناسك الّتي أدخلوا فيها بِدَعاً ومُحْدَثَاتٍ من عِنْدِ أنفسهم.



(٨)
التدبّر التحليلي للدرس الرابع من السورة

الآيات من (١٦ ـ ١٩)

قال اللّه عزَّ وجل خطاباً مباشراً للناس وفي مقدمتهم الكافرون:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

وقرأ أبو عمرو: [بَلْ يُؤْثِرُونَ] حديثاً عن النّاس بضمير الغائبين، وبين القراءتين تكاملٌ بياني، فالذين يُلاَئم حالتهم النّفسية الخطاب يقال لهم: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾ والمعرضون والمتولُّون يُلائم حالتهم النفسيّة أن يقال بشأنهم: [بَلْ يُؤْثِرُون].

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ أي: بَلْ تُفَضِّلُون اخْتِيَارَ الكدح لنَيْلِ حظوظكم من الحياة الدنيا وزينتها ومَتَاعِها الزائل الفاني، عَلَىٰ السَّعْي لِلْفَلاح والظَّفَرِ والفوز بالنعيم الخالد في جنّاتِ النعيم، ولو عَرَّضتم أنفسكم لاستحقاق العذاب في النار الكبرى والشقاء الأبديّ أو المؤقّت في النار الكبرى.

إنَّ ما تضمَّنه الدرس الثالث من دروس السّورة، وسبَقَ بيانه فيما نَزَل قَبْلَها من القرآن، يجعل أهل الألباب يُؤْثِرُونَ السَّعْيَ للفلاح والفوز والظفر بالنعيم الخالد في جنّاتِ النعيم، لكِنَّ أَكْثَرَكُمْ يا أَيُّها الناس لا تُؤْثِرُونَ هذا

السَّعْي، بَلْ تُؤْثِرُون الْحَيَاةَ الدنيا وَزِينَتَها ومَتَاعَها، والكَدْحَ المتواصِلَ لنَيْلِ حظوظكُمْ منها.

وهذا من الناس تعجُّلٌ وقِصَرُ نظر، أو جهْلٌ وعدم إيمان بيوم الدِّين، ولاَ بمَا جاء عن اللّه في ذلك من خَبرٍ يقين، وعدم الالتفات إلى حكمة الله في الخلق التي تقتضي حتماً حياةً أُخْرَىٰ للحساب والجزاء.

وبالربط مع مضامين الدّرسِ الثالث الذي فيه بيان أنّ الأَشقى يَصْلَىٰ يوم الدّين النار الكبرى، وفيه قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ نسْتَطيع أن نستخرج الشرح التالي:

لكِنّكُمْ لاَ تخشَوْنَ عذابَ رَبكم خشيةً رادعةً، ولا تَحرصُونَ على أنْ تُزَكُّوا أنفسكُمْ بكمال الإيمان، والتبرُّءِ من الشِّرْك، والتطهُّر من أرجاس الإثم والفسوق والعصيان، ولا تحرصون على ترقيةِ نفوسكم وتَنْمِيتها بصالح الأعمال، وبذكر أسماء ربّكم الحسنىٰ ذِكْر تفكّر وعبادَةٍ، والخضوعِ لربّكم بالصلاة والذكر والدّعاء، للظفر بجنّات النعيم.

بل تُؤْثِرُونَ الحياةَ الدُّنيا وزينتها، وتفضّلونُها على نعيم الآخرة، طَلَباً للمتاع العاجل، واللَّذَّاتِ الفانيات.

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾: أي: والحالُ أَنَّ الآخِرَة وَمَا فيها مِنْ نَعِيم مُقِيم خَيْرٌ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكُلِّ مَا فيها كَمّاً وكيْفاً، وأَبْقَىٰ في مَدَىٰ الإحْسَاسِ باللَّذَّاتِ، مع الْخُلُودِ الّذي لا آخِرَ له.

فاللَّذَّةُ الّتي يُصِيبُها المستمتع بلَذَّاتِ الحياة الدنيا قصيرة الزمن، قليلَةُ الكَمّ، ضعيفةُ الكَيْف.

أمّا اللَّذَّاتُ التي يصيبُها المنعَّمُ في نعيم الجنَّةِ فَهِيَ مَدِيدَةُ الزَّمن، كَثِيفةُ الْحَجْمِ، عميقَةُ التأثير، كثيرة الكمّ، قَوِيَّةُ الكيف، فهي خَيْرٌ وأبْقَىٰ مِنْ كُلِّ وَجْه.

فمن آمن بهذه الحقيقة، ثُمَّ آثَرَ العمل والكدح للحصول على لذّاتِ الحياة الدّنيا، وفضّلها على الآخرة، تأثُّراً بنزعات شهواته وأهوائه للاستمتاع بلَذَّاتِ العاجلة، فإنَّه يُعْلِنُ بإيثاره هذا عن قلّة عقله، وضعف إرادته.

وقد جاء في بيانات الرسول ﷺ بيان الفرق الكبير الّذي لا يُدْرِكه التصوّر بين نعيم الجنَّة، ومتاع الحياة الدنيا.

روى مسلم بسنده عن المستورد بن شدّاد، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أُصْبَعَهُ في الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ».

وروى مسلم عن أنس رضي اللَّهُ عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُؤْتَىٰ بِأَنْعَم أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً (أي: يُغْمَسُ غَمْسَةً) ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْراً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟

فَيَقُولُ: لاَ، وَاللَّهِ يَا رَبِّ.

وَيُؤْتَىٰ بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْساً فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْساً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟

فَيَقُولُ: لاَ وَاللَّهِ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ».

من أدرك هذه الحقيقة وآمن بها، وكان ذا عَقْلٍ ورُشْدٍ، لَمْ يُؤْثِرْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بَلْ آثَرَ الْعَمَلَ لِلآخِرَةِ كاداً كادِحاً، رجاءَ الظفر بنعيم الجنة، ونَيْلِ الفلاح الأَكْبَرِ يَوْمَ الدّين. وآثَرَ أنْ يَتَتَبَّعَ مَرَاضي اللَّهِ أَيْنَ كانت، مَهْما بذل فيها من جَهْدٍ وضَحَّىٰ من أجْلِهَا بمحابّه من الحياة، وتحَمَّلَ في سبيلها من مكاره.

● قول اللّه عزّ وجل: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

المشار إليه باسم الإشارة [هَذا] ما في السُّورةِ ممَّا يُدْرِكُ الفكرُ أنّ الرسالاتِ السّابقَات مُشَاركةٌ فِيهِ لِخَاتِمَةِ الرِّسَالات الرَّبَّانِيّة، وهو ما يتَعَلَّقُ بعذاب الأشقىٰ، وفلاح من تزكّىٰ، وبيانِ إيثار الناس الحياة الدنيا، مع أنّ الآخِرَةَ خَيْرٌ وأَبْقَىٰ، وهذا ما يشعر به لفظ [هذا] وهو اسم إشارة يستعمل للمشار إليه القريب.

وقد يشملُ ما تضمّنتهُ الآيات الخمس الأولى، فهو ممَّا تَشْتَرِكُ فيه الرسالات الربَّانيّة، واللَّهُ أعلم.

فقد أثبت هذا الختام لآيات سورة (الأعلى: أنّ المشار إليه بكلمة [هذا] ممّا اشتَمَلَتْ عليه الصُّحُفُ الرَّبّانيّة المنزّلة على إبراهيم عليه السلام، والصُّحُفُ الرَّبَّانيَّةُ المنَزَّلَةُ على مُوسَىٰ عليه السلام.

وبهذا تمّ لنا تدبُّرُ سورة (الأعلى) على ما فتح اللَّهُ به



(٩)
ملحق بالسورة
حول التسبيح في القرآن

أمَرَ اللَّهُ عزّ وجَلَّ فِي كتابِه الرَّسُول ﷺ وسائر المؤمنين بأنْ يُسَبِّحُوه، وأبان تَعَالَىٰ أَنَّهُ مَا مِنْ شَيءٍ في الكَوْنِ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللَّهِ، وأنّه يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ والأرْض، وأنَّهُ يُسَبِّح له من في السماوات والأرض، وأبَانَ تَعَالَىٰ أنَّ هَذا الذِّكْرَ من الأَذْكار الّتي أوصى اللّهُ بها في الرّسالات السابقة المنزّلة على الرُّسُلِ السَّابقين، وأنَّهُ من الأذْكار الّتي تُؤَدّيها الملائكة فِي عباداتها لربها، حتّىٰ الملائكَةُ الحافُّون بالْعَرْشِ والذين يَحْمِلُونَهُ يسبِّحُون بِحَمْدِ رَبِّهِمْ.

التسبيح لله: هو التنزيه والتقديس للّه عزّ وَجَلَّ عَنْ كلّ ما لا يَلِيق به من صِفَات النَّقْص الّتي تتنافَىٰ مع أزليّته، ووحدانيّته، وكمال صفاته الوجودية، وعلى هذا فالتسبيح للّه تمجيدٌ لَهُ بالبراءة من الصفاتِ التي لا تليق به، بخلاف التوقير الذي هو تمجيد للّه عزّ وجل بالصفاتِ الوجودية. أمّا الحمد والثناء فيكونان بكلا الأمْرَين، وقَدْ يختص الحمْدُ بالصفات الوجوديَّة فَيُجْمَعُ بين التَّسبيح والحمد في العبارة، مثل: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» أي: نسبح سبحان الله، ونحمد بحمده. ومثل: «وسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ـ ونَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِك» أي: ونزهوا رَبَّهُمْ تنزيهاً مُلْصقاً بِحَمْدِهِ. ونَحْنُ نُنَزِّهُكَ تنزيهاً مُلْصَقاً بِحَمْدِك.

وقَدْ يُطْلَقُ التَّسْبِيحُ ويُرَادُ به مُطْلَقُ ذكر اللّه الشَّامِلِ لتنزيهه وتقديسه، وحَمْدِهِ والثناء عليه بكمال صفاته الوجودية، وعلى هذا تُحْمَلُ النُّصوص التي فيها ذكر التسبيح دون الحمد.

وأصل السَّبْحِ في اللّغة الحركة السهلة التي يحصل بها الانتقال في الماء أو الهواء برفقٍ ولين.

وسُبُحاتُ وجْهِ اللّه أنوارُه العظيمة. والعرب تقول: «سُبْحَانَ مِنْ كذا» إذا تعجَّبَتْ مِنْهُ تعجُّبَ إكبار، فيُفْهَمُ من هذا أنّ التسبيح يحْمِلُ معنى التعظيم، فالعظيم الّذي تَحارُ الأفكار في عظمته هو المستَحِقُّ لأَعْظَم التَّسْبيح.

وروى الأزهريُّ بإسْنَاده أَنَّ ابْنَ الْكَوَّا سَأل عَليّاً رضي اللّه عنه عن: «سُبْحَانَ اللّه» فقال: كلمةٌ رَضِيَها اللّهُ لنفسه فأوصى بها.

وروى مسلم عن أبي ذرٍّ أنّ رسول اللّه ﷺ سُئِلَ: أيُّ الكلَام أفضَلُ؟. فقال:

«مَا اصْطَفَىٰ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ».

وروى البيهقيُّ عن عبد الرحمن بن قُرْطٍ، أنّ رسول اللّه ﷺ ليلة أُسْرِي به سَمِعَ تَسْبيحاً في السماوات الْعُلاَ:

«سُبْحَانَ الْعَلِيِّ الأَعْلَىٰ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ».

وجاء في صفات اللّه عزّ وجلّ أنّهُ السُّبُّوحُ الْقُدُّوس، فالسُّبُّوح المنزَّهُ عن كلّ نقص وسُوء، أو الذي يُسَبِّحُهُ كُلُّ شيءٍ. والْقُدُّوسُ الطَّاهر، أو المبارك، أو الذي يُقَدِّسُهُ ويُعَظِّمُه كل شيء.

ومن الأذكار المأثورة: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الملائكة والرُّوح.

وروى الطبريُّ بسنده عن سعيد بن جبير، أنّ الرسول ﷺ قال لعمر بن الخطّاب:

«إِنَّ لِلَّهِ في السماوات السَّبْعِ ملائكةً يُصَلُّونَ له..».

فقال عُمَرُ: وما صلاتهم؟ فلم يَرُدّ عليه شيئاً، فأتاهُ جبريل فقال: «يا نَبيَّ اللَّهِ سَأَلَكَ عُمَرُ عَنْ صَلاَةِ أَهْلِ السَّمَاءِ؟» قال: «نعم» فقال جبريل: «اِقْرَأْ عَلَىٰ عُمَرَ السَّلاَمَ، وَأَخْبِرْهُ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا سُجُودٌ إِلىٰ يَوْمِ القيامة، يقولون: سُبْحَانَ ذِي الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ. وأَهْلَ السَّمَاءِ الثانية رُكُوعٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، يَقُولُونَ: سُبْحَانَ ذِي الْعِزَّةِ والْجَبَرُوت. وأَهْلَ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ قِيَامٌ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، يَقُولُونَ: سُبْحَانَ الحيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ».

❋ ❋ ❋

اشتقاقُ مادّة التسبيح:

والتسبيحُ مشتَقٌّ من مَادَّة السَّبْحِ، وهو الانتقال في الماء، أو في الفضاء، أو في السَّماء الخلاء، بحَرَكَةٍ لا تُدَافِعُها عوارض، فيجتاز السَّابِحُ المسافاتِ دُونَ أنْ يَجِد مُقَاومةً شديدَةً تَدْفَعُهُ أو تَصُدُّهُ، فأصل السَّبْحِ في اللّغة الحركة السهلة برفقٍ ولين.

والَّذِين خَرَجُوا إلَىٰ الفضاء، وتَحَرَّرُوا مِنْ جاذبيّة الأرض، أَحَسُّوا بحقيقة هذا السَّبْحِ الخالي من كلّ العوارض والجاذبيّات إلاَّ ما هو من داخِلِ ذواتهم.

وقد اختار اللّه عزّ وجلّ لذِكْرِهِ بأسمائه وصفاتِه التَّسْبِيحَ المشتَقَّ من السَّبْحِ الذي يَحْمِلُ هذا المعنىٰ، ليَكُونَ الذّكْرُ المطلوبُ متضمّناً معنَى سَبْحِ النَّفسِ والقَلْبِ والفِكْرِ في أبْعَادٍ غَيْرِ مُدْرَكَةِ النّهاية، من عظيم صفاتِ اللَّهِ وَأَسْمائِهِ الْحُسْنَىٰ.

واجْتِمَاعُ الفكرِ والنَّفس والقلْبِ وسَبْحُهَا معاً في ذكْرِ اللَّهِ، إنَّما يكونُ حين يسْتَطِيعُ الذَّاكِرُ صَرْفَ كُلِّ الشَّوَاغِلِ عَنْهُ، فَلَا تَجْذِبُهُ أَوْ تَدْفَعُهُ من نفسه مطالبُ خاصَّةٌ بها، ولا تَجْذِبُهُ أو تَدْفَعُهُ من قَلْبِهِ عواطفُ أو انفعالاَتٌ من دون ما هو فيه من سَبْحٍ بذكْرِ اللَّهِ، وَلاَ تَجْذِبُهُ أَوْ تَدْفَعُهُ أَفْكارٌ خارجةٌ عمّا هو فيه من سَبْحٍ بذكر اللَّهِ جلّ جلاله.

عندئذٍ يكونُ هذا التسبيح هو جوهَرَ العبادة للّه عزّ وجلّ وروحَها، لما فيه من الحضور الكامل مع اللّه، الخالي من الصَّوارفِ والعوائق والمنغصّات.

❁ ❁ ❁

التسبيح دواء نافع للنفوس والأعصاب:

ويكون عندئذٍ هذا التسبيح أنْفَع دواء للنفس وللجملة العصبيَّةِ في الإنسان، إذْ يمْنَحُهُ الْهُدُوءَ التّامّ والسَّكِينَةَ والطُّمأْنينة والرّاحَة. فبالتَّسْبيح يُفَرِّغُ الْمُسبّح كُلَّ الشُّحْنَاتِ الضَّاغطَةِ على فكره ونفسه وقَلْبه، وبتفريغها يَعُودُ إلى سَوَائِهِ، فتعملُ قُواهُ الداخليةُ أعْمَالَها الطبيعيَّةَ النَّافِعَةَ ضِمْنَ أنْظِمَتِها الرَّبَّانيَّةِ، دون خَلَلٍ آتٍ من حَرَكَاتِ النَّفْسِ المضْنِيَة، أَوْ حَركات القَلْبِ وانْفِعَالاَتِهِ وَعواطفه المرهقة للجملة العصبيّة، أو حَرَكاتِ الْفِكْرِ المثيرةِ للقَلْبِ والنَّفْسِ

بِمَا يُؤذِي أَوْ يَضرّ، أَوْ يُضنِي وَيُؤلم، أَوْ يُعَوِّق أَجْهِزَةَ الْجِسْم عن أنْ تؤدِّيَ وَظائِفَها الطبيعيَّة بانْتِظَامٍ ووفَاءٍ بالمطلوبِ الطبيعيّ منها.



وَصايا اللّه لرسوله بالتسبيح:

ولذلِكَ أوصَىٰ اللّه رسولَهُ محمّداً ﷺ بأنْ يَسْتعمل دواء التَّسْبِيح، علاجاً لما يَنْتَابُه من ضِيقِ صَدْرٍ، وآلاَمٍ نفسيَّةٍ، بسبب ما يُلاقيه من قومه من جُحودٍ، واستهزاءٍ، وتكْذيبٍ، واتّهامٍ بالسِّحْرِ والجنون وغير ذلِك.

ونجد هذه الوصية قَدْ تكرَّرَت في ستَّةِ مواضع من القرآن المجيد، وقد رافقَتْ ستَّ مراحِلَ في سِتِّ مُنَاسَبَاتٍ.

الوصية الأولى:

تعرّض الرسول ﷺ لمقالاتٍ مُؤذِيات له، واجَهَهُ بها مشركو مكة فأنزل اللّه عليه قوله في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٦ نزول):

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ وَقُرِئ: [وَإِدْبَارَ السُّجُودِ].

فأرشد اللّه رسُولَهُ بهذا إلَىٰ أنّ التسبيح بحمد الرّبّ على الوصف الذي ينبغي أنْ يكونَ عليه التَّسْبِيح، علاجٌ نافع يصْرِفُ عن النفس ما يؤلمها أو يزعجها من أقوال الناس المؤذية المؤلمة لها، والمثيرة للانفعال الْغَضَبيّ.

وهذا العلاج له أربع جرعات:

- قَبْلَ طُلُوعِ الشمس.
- وقبل غُرُوب الشمس.
- وأثناء اللّيْل.
- وبعد الصلوات الّتي يَسْجُدُ فيها العبد لربّه.

الوصيّة الثانية:

اشْتَدَّ تعرُّضُ الرسول ﷺ لِمَا يؤذيه من أقوال أهْلِ الشِّرْكِ فيه، حتَّىٰ ضاقَ صَدْرُه بما يقولون، فأنزلَ اللَّهُ عليه قوله في سورة (الحِجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

أي: واعْبُدْ رَبَّكَ حتّىٰ يَأْتِيَكَ الموتُ الّذي هو يَقين لدَىٰ الجميع لا يشُكُّ فيه شَاكٌ، ومن عباداته لربّه قيامُهُ بوظائف رسالته.

فأضاف هذا النَّصّ التَّصْرِيحَ بأنَّهُ يضيق صدْرُه بما يقُول المشركون فيه، من أنّه كذّاب، وشاعر، وساحر، ومجنون، وغير ذلك.

وأكّد له أنّ دواءه أن يُسبِّح بحَمْدِ رَبّه، وأنْ يكون من السّاجدين لربّهم، الخاضعِينَ له، المستسلِمين لمقاديره، وأنْ يَعْبُد رَبَّهُ في كُلِّ أحواله حتّىٰ يأتيه الموت.

ومعلومٌ أنَّ الصَّبْرَ هو من عناصر عبادته لربّه.

وقد أكّدَ اللّه له النُّصْحَ بهذا العلاج بعد أن أمره في السورة نَفْسِها بأن يَصْدَع بما يُؤْمَرُ به، أي: أن يجاهر بتبليغه، ويَشُقَّ بنورِه ظُلُماتِ الْجَهْلِ والكُفْرِ المنتشرة حتَّىٰ تنصَدِعَ، أي تنشَقَّ بنور آيات اللّه ودعوة الحقّ. وأَمَرَهُ بأن يُعْرِضَ عن المشركين، فقال له فيها:

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

الوصية الثالثة:

ثمّ أنزل اللّه على رسوله في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) قوله:

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾.

فأضاف هذا النَّصُّ ذِكْرَ الاستغفار إلى جانب التسبيح، مع الأَمْرِ بِالصَّبْرِ، ولمّا كانت حالَةُ الرّسُول النفسيّة مُتَشَوِّفَةً لتحقيق وعْدِ اللّهِ له بالنَّصر، طَمْأَنَهُ اللّهُ بقوله له: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

الوصية الرابعة:

وكرّر المشركون إيذاء الرسول ﷺ باتّهامهم له بأنّه كاهن، أو مجنون، أو شاعرٌ يترَبَّصُونَ به رِيْبَ المنون، فهم ينتظرون موته ليتخلَّصوا من دينه، فأنزل اللّه عليه قولَهُ في سورة (الطور/ ٥٢/ مصحف/ ٧٦ نزول):

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

فزاد هذا النَّصُّ في أوقات التسبيح فأضَافَ التسبيح عند كُلِّ قيام، وأكَّدَ التسبيح أثناء اللّيل، وأضَافَ التسبيح في آخر اللَّيْلِ عند إِدْبارِ النجوم.

وأَعْلَمَ اللّهُ رَسُولَهُ في هذا النَّصّ بأَنَّهُ في موضع العناية العظيمة به، فقال له: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: فاطمئِنَّ طُمَأْنِينَةً تامَّة.

الوصيَّة الخامسة:

ثُمَّ أَنْزَلَ اللّهُ عزّ وجَلَّ قَوْلَهُ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾.

هذا النَّصُّ أُنزِلَ في الْمَرْحَلَةِ المدنيَّة، وأضيف إلى سورة هِيَ مِن أواسط العهد المكيّ، للإشعار بأنّ المقصود به الدُّعَاة من أمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذا

كانوا في مثل الوضع الذي كان فيه الرّسول إبّان نزول سورة (طه) ولم يكن الرَّسُول بحاجَةٍ إلى إنزاله عَلَيْه يومئذٍ لِأَنَّه كَانَ متحقّقاً بمضمونه، فإنّه ما زال يعمل بمضمون ما أنزل عليه في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٦ نزول) وهو ما جاء في الوصية الأولى.

الوصية السادسة:

ما جاء في سورة (النصر/ ١١٠ مصحف/ ١١٤ نزول) آخر ما نزل من سُور القرآن، فقال اللّه عزّ وجلّ لرسوله فيها:

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾.

وقد كانت هذه السورة بمثابة إشعارٍ إيمائي بانْتِهَاءِ مُهِمَّةِ الرَّسولِ في الحياة الدنيا.



تسبيح الكائنات:

(١) جاء في القرآن الكريم بيان أنّ كُلَّ شيءٍ في الوجود يُسَبِّحُ بحَمْدِ اللّه، ولكِنَّ النّاس لا يَفْقَهون تسبيحهم.

فقال اللّهُ عزَّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤﴾.

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: وَمَا مِنْ شَيْءٍ ذي حياةٍ أو غير ذي حياة إلاّ يُنَزِّهُ اللّهَ عمّا لا يليق بذاته وصفاته تنزيهاً مقترناً بحمده والثناء عليه بصفات الكمال.

أمَّا تسبيح وحَمْد غَيْرِ ذي الحياة بلسان الحال فهو ظاهر لا إشكال فيه، لأنَّ كلَّ شيءٍ من مخلوقات اللّه في كونه يشتمل على صفاتٍ تدلُّ أولي الألباب على تنزُّه اللَّهِ عن كلّ ما لا يليق بذاته وصفاته، وهذا بمثابة التسبيح للّهِ عزّ وجل. ويشتمل أيضاً على صِفَاتٍ تَدُلُّ أولي الألباب على طائفة من صفات اللّه وأسمائه الحسنىٰ، لأنّه هو خالقها وربُّها، وهذا بمثابة الحمْدِ والثناء.

أمّا تسبيح وحَمْدُ غير ذي الحياة بكلامٍ يُمْكِنُ أن يَسْمَعه من يستطيع أنْ يَسْمَعَ كُلَّ الأصوات، ويمكن أن يفْهَمَ دلالاته من يفهم كلَّ اللّغاتِ، فهو أمْرٌ مُمْكِنٌ عقلاً، وغير مستبْعَدٍ على قُدْرَةِ العزيز الجبار الخالِقِ الرَّبّ الّذي لا خالق غيره ولا ربَّ في الوجود سواه.

وقد قرّبت لنا المكتشفات في هذا العصر، أَنّ بعض الصفائح من الخلائط المعدنية المصنّعة، قَابلةٌ لأَنْ يُسَجَّلَ عليها بوسيلة أَشعَّةِ اللّيزر آلاف الصفحات الناطقة، فإذا حُرِّكَتْ على آلَةِ حِكايةِ الصَّوْتِ المسجَّلِ فيها نطقت بكلّ ما هو مُسَجَّلٌ فيها على أحسن وجْهٍ وأكمله.

أفيعجز خالق الكائنات وربُّها عن أن يَجْعَلَ كُلَّ شَيْءٍ فيها صغيراً كان أو كبيراً يُسَبِّحُ بحمْدِ رَبّه تَسْبِيحاً يمكِنُ أن يسْمَعَهُ ويفْهَمَهُ مَنْ هيّأه اللَّهُ لاستماعه وفهمه.

وقد أبان اللّه عزّ وجلّ أنّ أسْمَاعَ الناس وأبصارهم وجلودهم تُسَجِّلُ عليهم أعمالهم، وَتَشْهَدُ عليهم بها يوم الدّين في محكمة اللّهِ الّتي يفصل بها بيْنَ العباد، فقال تعالى في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ...﴾.

فَهُمْ يُوزَعُون: أي: فهم يُجْمَعُون ويُحْصَرُون ويُحْبَسُونَ.

فمن يشتغل بتسبيح اللّه وحمده فإنّه يجعل ما هو خاضِعٌ لإرادته من ذاته مُنْسَجِماً مع ما هو مُسَبِّحٌ حَامِدٌ للَّهِ بالتكوين الفطريّ من ذاته ومن سائر الكون.

(٢) وقال اللّه عزّ وجل في مطالع سُور (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول) و(الحشر/ ٥٩ مصحف/ ١٠١ نزول) و(الصف/ ٦١ مصحف/ ١٠٩ نزول) وهي سُوَرٌ مَدَنِيَّةُ التنزيل:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾.

فجاء التعبير فيها بصيغَة الفعل الماضي ﴿سَبَّحَ﴾ للدلالة عَلَىٰ أزمان الماضي مُنْذُ إنْشائِها.

أمّا الْمُسَبِّحُ فَهُوَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض، ولفظ «ما» يقع على غير ذي العلم، أي؛ فكُلُّ ما في السماوات والأرْضِ مفطورٌ عَلَىٰ تسْبِيحِ اللّه منذ نشأته وتكوينه.

وخَتَمَ اللَّهُ الآية باسْمَيْه ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ للدّلالة على أنَّ اللّه عزّ وجلّ بقُدْرَتِه الغالبة الحكيمة هو الذي فطر الكائناتِ غير العاقلة على التسبيح له منذ أنشأها.

(٣) وفي نصوصٍ ثلاثةٍ أخرى جاء التعبير بصيغة الفعل المضارع الدّالّ على دوام تسبيح ما في السماوات والأرض من كائنات، وتجدّد تسبيحها في كلّ وقتٍ، ما مَرَّ عليها زمان، من لحظة الحال إلى كلّ أزمان المستقبل الّتي يكون لها فيه وُجود.

فقال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (الحشر/ ٥٩ مصحف/ ١٠١ نزول):

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٤﴾.

وَقال تعالى في سورة (التغابن/ ٦٤ مصحف/ ١٠٨ نزول):

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾.

وقَالَ تَعالَىٰ في سُورَة (الجمعة/ ٦٢ مصحف/ ١١٠ نزول):

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾.

وهذه أيضاً سُوَرٌ مَدَنِيَّةُ التنزيل.

(٤) وجاء في القرآن أيضاً بيان أنَّ مَنْ في السماواتِ ومَنْ فِي الأرض من الأحياءِ ذوي العلم يسبّحون للّه، وينبغي أن يُحْمَل هذا على الملائكة الذين يُسَبِّحون لِلّه بالغريزة، كما يتنفَّسُ الناس، بدليل جمعهم في النصّ مع الطير، إِذْ أثبت للطيْرِ تَسْبِيحاً مثْلَ تسْبيحهم.

فقال اللّه عزّ وجلّ في سُورَةِ (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾.

في هذه الآية حَذْفٌ من الأوائل دلَّتْ عليه الأواخر، أي: أَلَمْ تَرَ أنَّ اللَّهَ يُصَلِّي ويُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاواتِ والأَرْض من الملائكة الذين يعبدون اللّه دَواماً، وأنّ الطَّيْر تُصَلّي للّه وَتُسَبِّحُ لَهُ، وأَنَّ كُلًّا مِنَ الْمَلائِكَةِ والطَّيْر يَعْلَمُ طريقته الخاصَّة في الصَّلاة للّه والتسبيح له، وأنَّ اللَّهَ عليم بما يفعلون.

وقد شهِدْتُ في أَحَدِ الأيّام مع أُسْرَتي في مُنْتَزَهٍ من أطراف «استانبول» في تركيّا قُبَيْلَ غُروبِ الشَّمْسِ صنفاً من الطيْر قد توافَد إلى شجرة عظيمة قريبةٍ من المنتزه، وتجمَّع عدد كبير من هذا الصنف مصطفاً صفوفاً منتظمة على أغْصَانها، حتَّىٰ ملأ أغْصَانَ الشجرة وفروعها بكثافة، وسكن قُرَابة

نصف ساعةٍ أو أقلّ، ولمّا غَرَبَتِ الشَّمْسُ انفَضَّ هذا الجمع من الطَّيْر في وقْتٍ وَاحِدٍ، كما ينفضّ المصلون من صلاة الجمعة، وشعرنا جميعاً أنَّ هذا الصنف من الطّيْرِ قد كان يؤدّي صلاةً لِلَّهِ بغريزته، ويُسبّح له في سِرّه، ويظْهَرُ أنَّ هٰذه الصلاة قد كانت صلاة جماعيَّةً لا صلاةً إفراديَّة، بدليلِ أنَّ طيرَيْن جاءا متأخِّرَيْنِ، فأقْبَلا مُسْرِعَيْنِ، وَدَخَلا في الصفوف كما يدخُلُ المسبوقُ من الناس في صلاة الجماعة.

(٥) وَجاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بيان أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ سَخَّرَ الجبال والطَّيْرَ مَع داود عليه السلام يُسَبِّحْنَ بالعشيّ والإشراق، فقال تعالى فيها في معرض الحديث عنه:

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾.

وجاء نظير هذا في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ فيها:

﴿... وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

(٦) أمّا تَسْبِيحُ الملائكة في السَّماء فقد جاء بيانُه في نصُوصٍ قُرْآنية متعدّدة:

فمنها قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

ومنها قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

لاَ يَسْتَحْسِرُونَ: أي: لا يَتْعَبُونَ وَلاَ يَمَلُّونَ.

لاَ يَفْتُرُون: أي: لا ينقطعُونَ عَنْ تسبيحهم، ولا يَسْكُنُ نَشَاطُهُمُ المتواصل بفُتُورٍ يَعْرِض لهم.

وَجاء في سُورَة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) بيانُ أنّ الملائكة الحافّين من حول العرش في موقف الحساب وفَصْل القضاء يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبّهم، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ... ﴿٧٥﴾﴾.

حافّين: أي: مُحِيطِينَ.

وَجاء في سورَة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) بيان أنّ الذين يَحْمِلُونَ الْعَرْش من الملائكة، والحافين من حول العرش، يُسَبّحُونَ بِحَمْدِ رَبّهم، ويؤمنون به، ويَسْتَغْفِرونَ للمؤمنين ويَدْعُونَ لهم، فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ فيها:

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾.

وجاء في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول) بيان أنّ ملائكة السماء يُسَبِّحُون بِحَمْدِ ربّهم وَيَسْتَغْفِرُون لِمَنْ في الأَرْض، فقال اللّه عزّ وجلّ فيها:

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾.

(٧) وَجاء في سورة (الرَّعْدِ/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول) بَيَانُ أَنَّ الرَّعْدَ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللَّهِ، وأنّ الملائكة تُسَبِّحُ خَوْفاً مِنَ اللَّه عزّ وجل، فقال تَعَالَىٰ فيها:

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ...﴾.

وهكذا دَلَّت النصوصُ القرآنيَّةُ عَلَىٰ أَنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّهِ، ولا يُسْتَثْنَىٰ مِنْ هذا القانون العامّ إلاّ الكافرونَ باللَّهِ واليوم الآخر، فهم لا يُسَبِّحُونَ في حدود مجالاَتِ أعمالِهِمُ الاختياريَّة، أمَّا المجبُورَاتُ مِنْ ذَواتِهِمْ الَّتِي لا تَخْضَعُ أعمالُهَا لإرَادَاتِهِمْ فَهِي مُنْسَجِمَةٌ مع سائر ما في الكَوْن كخَلاَيَا أعضائِهِمْ وَحَرَكَات قلوبِهِمْ، وجريانِ دمائهم، وكلّ ذَرَّةٍ فيهم.

فَمَنْ شاءَ من ذوي الإرَادَاتِ الْحُرَّةِ أَنْ يَنسَجِمَ مَعَ الكَوْنِ في حركته تُجاهَ رَبّه فَلْيَكُنْ مُسَبِّحاً بحمدِ اللّه، ضِمْنَ المسبّحين والمسبِّحَات، والحامِدِينِ والحامدات، ولْيَحْذَرْ مِنْ أَنْ يَكُونَ شَاذّاً مخالفاً، لئلاَّ يُطْرَدَ بِشُذُوذِهِ إلى جَحِيم الْمُجْرِمِينَ.



سُورَةُ اللَّيْلِ

وَيُقَالُ فِيهَا: سُورَةُ وَاللَّيْلِ

وَيُقَالُ فِيهَا: سُورَةُ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى

٩٢ مصحف ٩ نزول

(١)

السّورة وما فيها من قراءات من الفرش

سورة الليل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴿٢١﴾

❀ ❀ ❀

٧ ـ قرأ أبو جعفر: [لِلْيُسُرَىٰ] بضم السين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [لِلْيُسْرَىٰ] بإسكان السين.

١٠ ـ قرأ أبو جعفر: [لِلْعُسُرَىٰ] بضم السين.

وقرأ باقي القراء العشرة: [لِلْعُسْرَىٰ] بإسكان السين.

١٤ ـ قرأ البزي ورُوَيس في الوصل: [نَاراً تَّلظَّىٰ] بِتَشْدِيدِ التاء.

وقرأ باقي القراء العشرة: [نَاراً تَلَظَّىٰ] بفتح التاء دون تشديد.

(٢)
ممّا ورد من أحاديث حول هذه السورة

(١) أخرج الطبرانيّ في الأوسط عن أنس رضي الله عنه:

«أنّ رسول الله ﷺ صلّىٰ بِهِمُ الْهَاجرة فرفع صوته، فقرأ «والشَّمْسِ وضُحَاها» و«وَاللَّيلِ إذَا يغْشَىٰ».

فقال له أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ أُمِرْتَ في هٰذِهِ الصَّلاَةِ بِشَيْءٍ؟».

قال: «لاَ، ولَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُوَقِّتَ لَكُمْ».

الهاجرة: نصف النّهار، وصلاةُ نِصْف النهار هي الظهر.

أَنْ أُوَقِّتَ لَكُمْ: أي: أَنْ أُبَيِّنَ لَكُمْ وَقْتَ صلاة الظهر، ويظهر أنّه بيَّنَ لَهُمْ بالتحديد أوّل وَقْتِ صلاة الظهر، عقب زوال الشمس عن كبد السّماء مباشرة.

أما رفع صوته بالقراءة على خلاف السنّة بالنسبة إلى صلاتي الظهر والعصر، فليعلّمهم أنّ الصلوات النهاريّة يَحْسُنُ أن يقرأ الإمام فيها بنحو هاتين السورتين من قصار السّور.

(٢) وسبق في سورة (الأعلى) لدى ذكر روايات حديث معاذ وتطويله في الصلاة على الناس، أن الرّسول ﷺ أرشده أن يقرأ: «واللَّيْلِ إذا يَغْشَىٰ» ضمن السور التي أرشده أن يقرأها، ليُبَيِّن له أن تطويل القراءة في الصلاة يفتن المتقدين ويُنَفِّرهم.



(٣)
دروس سورة «اللّيلِ» ووحدة موضوعها

تشتمل سورة «اللّيل» على ثلاثة دُرُوس يتفرَّع التالي منها عمّا سبقه ضمْن وحدة موضوع.

الدرس الأول:

يقسم اللّه عزّ وجلّ فيه ببَعْض ظواهر خلقه في كونه الدّالة على قدرته وعلمه وحكمته وغيرها من صفاته، على أن سَعْي الناسِ في الحياة الدّنيا مختلف اختلافاً كبيراً إلى حدّ التبايُنِ بين سَعْيٍ في الخير، وسَعْيٍ في الشّرّ، وسَعْيٍ إلى ذُرُواتِ الفضائل والمكارم، أو سَعْيٍ إلى حضِيضِ الرّذَائل والجرائم.

وهذا دليل على أنّ اللّهَ خَلَقَ الناس ذوي إرادات حُرَّةٍ، ليَبْلُوهُمْ في ظروف الحياة الدنيا، فالناس في هذه الحياة ممتحنون.

هذا الدّرْس اشتمل على الآيات الأربع الأولى من السورة:

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾.

الدرس الثاني:

وجاء الدرس الثاني مُتفَرّعاً عن الدّرْسِ الأوّل، واختير فيه بيان نوع من سلوك الناس الذي يختلفون فيه اختلافاً كبيراً إلىٰ حَدِّ التّباين، وهو سلوكهم فيما يملكون من أموال بَذْلاً في الخيرات أو بخلاً وإمْسَاكاً.

وعلى سبيل إدْماج التوجيه الدينيّ المقرون بالترغيب والترهيب، ضِمْنَ بيان اختلاف سلوكهم المالي، قال اللّهُ عَزَّ وَجلَّ في هذا الدرس:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

الدّرْس الثالث:

جاء فيه الإجابة على أسئلة مطويّة تَسْتثيرها في النفوس فقرات الدرسَيْنِ السَّابقَيْن:

السؤال الأول: كَيْفَ يعرفُ الناس ما هو مطلوبٌ منْهم في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، ليختاروا السلوك الذي يكونون فيه من المفلحين يوم الدين، يوم الجزاء الأكبر؟.

وجاءت الإجابة عليه بقول اللّه عزّ وجل يتحدّث عن نفسه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ بضمير المتكلّم العظيم، أي: نحن متكفّلونَ ببيان ذلك.

السؤال الثاني: ما الذي يجعَلُنا نُصَدِّقُ بأنّ نظام الحياة الدنيا إذا انتهىٰ، فلا بُدَّ أَنْ يأتي بَعْدَهُ نظام حياةٍ أخرى يكون فيها الحساب وفصل القضاء والجزاء؟

وجاء الجواب الرَّبّاني بأنَّ مَالِكَ الحياة الدنيا هو الذي وضع في خطته إيجاد حياة أخرى يكون هو مالكها والمتصرّف فيها، ودلّ على هذا الجواب قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

السؤال الثالث: كيف يكون عذابُ الآخرة لِمَنْ كفر بربّه ولم يسْتَجِب لدعوته؟ وجاء الجواب الرّبّاني بقوله تعالى:

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾.

السؤال الرابع: كيْفَ يكون حال من آمن بربّه واستجاب لدعوة رسوله؟ وجاء الجواء الرّبانيّ بقول اللّه عزّ وجل:

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

فموضوع السّورة يدور حول ابتلاء الناس من خلال حرّية الإرادة الممنوحة لهم، ومسؤولياتهم عن أعمالهم الإرادية تجاه ربّهم، وجزائهم يوم الدين بالثواب أو بالعقاب، مع الاهتمام في السورة ببيان مسؤولياتهم عن

سلوكهم المالي طاعة للّه أو معصية له، في جانبي العطاء ابتغاء مرضاة الله، والبخل مَعْصِيَةً له.



(٤)
التدبر التحليلي للدّرس الأول من السورة

الآيات من (١ ـ ٤)

قال اللّه عزّ وجلّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾.

تمهيد:

في هذا الدَّرْسِ الأوّل من دروس السورة أَقْسَم اللّهُ عزَّ وجَلّ بثلاث ظاهرات من ظواهر خلقه، الدَّالاَّتِ على طائفة مِنْ عظيم صفاتِهِ جلَّ جلاله، ومنها علمه وَقدرته وحكمته، وأداة القسم الَّتي استعملت فيه هي «الواو» والْمُقْسَمُ عليه هو أنّ سَعْيَ الناسِ في الحياة الدنيا مُخْتَلِفٌ اختلافاً كبيراً، إلى حَدِّ التَّنَاقُضِ بَيْنَ قِمَّةِ الْخَيْرِ وَحَضِيضِ الشرّ، وهٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللَّهَ جَلَّتْ حِكْمَتُه قَدْ مَنَحَهُمْ إرَادَاتٍ حُرَّةً، لِيَمْتَحِنهم في ظروفِ الحياة الدنيا، ولو كانوا مَجْبُورين في مجالاتِ أعمالهم الاختياريَّةِ، لكانوا كالملائكة أمَّةً واحدةً لا يَعْصُونَ اللّهَ مَا أَمَرَهُمْ ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون، لأنّ اللّهَ لاَ يَرْضى لعباده الكفر، ولا يأمُرُ بالفحشاء والمنكر ولا يَرْضَىٰ بهما، فلا يمكن أن يجعل عباده مجبورين على ما لا يرضاهُ منهم.

● قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾.

يَغْشَىٰ: أي: يُظْلِمُ، يُقَالُ لُغَةً: غَشِيَ اللَّيْلُ يَغْشَىٰ غَشاً، إِذَا أَظْلَم. واللّيْلُ ظُلْمَةٌ في الأَرض يُسَبّبُها غُروبُ الشَّمْسِ عَنْهَا، وهذه الظلْمَةُ مَوْجُودةٌ في كُلّ شيءٍ لا تُشرِقُ عليه أَنْوارٌ كاشفةٌ له.

ويُقَالُ لُغَةً: غَشِيَ الشَّيْءُ شَيْئاً آخر، إذا غَطَّاهُ وَجَلَّلَه فحجبَهُ وسَتَرَهُ، ولا اختار هنا هذا المعنى، لأنَّ اللَّيْلَ لا يأتي فيجلّلُ، بَلْ هُوَ ظُلْمَةٌ مَوْجُودَةٌ، نُدْرِكُهَا عِنْدَ انْعِدَام الأنوار الكاشفة، ولهذا قال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ۝٣٧﴾.

فشبّه اللّه النهار بِجِلْدٍ يُسْلَخُ عَنِ الأرض، فيجد أهل الأرض أنفسهم غارِقين في الظلام، بسبب فقدهم ضياء الشمس الكاشف للأرض وما عليها بعْدَ غروبها.

تَجَلَّىٰ: أي: انكَشَفَ ووَضَحَ وظهر، يُقَالُ لغة: جلّىٰ الضَّوْءُ الشيءَ للأنظار فَتَجلَّىٰ، أي: أظهره وأوضحه فتجلَّىٰ «مطاوع جَلَّىٰ».

والمراد من تجلّي النهار تجلّي الأشياء وظهورُها فيه، وهذا من إطلاق الزمان وإِرَادَةِ الأشياء التي تكونُ فيه، وهو من المجاز المرسل.

والنهار: اسم للزمن الذي تكون فيه الشمس مواجهةً بأشعّتِها وضيائها لما واجهته من الأرض، فحيث تكون المواجهة يكون النَّهار، وكلّما دارت الأرض حول نفسها تحوّل كلٌّ من النهار واللّيل إلى مواجهةٍ أخرىٰ بحسب دورانها، فكان للشمس مشارق ومغارب عليها، واختلفت عليها الأنْهُرُ واللّيالي معاً تبعاً للمواجهة والدوران.

ولفظ «النهار» يُطْلَقُ على الضياء الكائن ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ويجمَعُ علَىٰ «أَنْهرٍ ونُهرٍ».

● قول اللّه تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾.

أي: وَخَلْقِ الذّكر والأُنْثَىٰ، فكلمة «ما» مَصْدَريَّة تُؤوِّل ما بَعْدَها بمصدر. والمعنى: وأُقْسِمُ بخَلْقِ الذكر والأُنْثَىٰ.

إنّ الْقَسَم باللّيل إذا يغْشَىٰ وبالنهار إِذَا تجلَّىٰ قَسَمٌ بظاهرتَيْنِ من ظواهر تقدير اللّه المحكم العجيب لحركة الأرض حول نفسها تجاه الشمس، في نظامها اليوميّ، عَبْرَ ألوف الملايين من السنين، دون خَلَلٍ أو اضطرابٍ، وبدقَّةٍ بالِغَةِ الغاية.

هذا التنظيم المحكم فيه عناية بالغة بالناس، إذْ جعل اللّه الأرض المعدّة لسكناهم يتَدَاوَلُ عليها ليلٌ يَغْشَىٰ بظلامه، ونهارٌ يتجلَّىٰ بضيائه، فينتفعون من كليهما في مطالبهم المختلفة، ومصالحهم المتنوّعة، ومعلوم أنَّ بعض مصالح الناس مرتبط باللّيل إذا يَغْشَىٰ، وبعضها مرتبطٌ بالنهار إذا تجلّى وأشرقَتْ شَمْسُه، فالنبات وطاقة الحياة في الأرض، ومعاشُ الناس، وأمورٌ كثيرة جدّاً مرتبطةٌ بالنهار إذا تجلّىٰ وأشرقَتْ شَمْسُه، واستمدَّتْ من ضيائها وشلاّلاَتِ أشعّتها الضَّوْءَ والدِّفْءَ والطّاقة. أمّا الرَّاحَةُ والسُّكُونُ والسِّتْر وحَرَكَةُ الرِّياحِ وأمُورٌ كثيرة جدّاً فهي مرتبطَةٌ باللَّيْلِ وبَرْدِه، وابتعاد أشعّة الشمس عن الأرض فيه.

وإنَّ الْقَسَمَ بخَلْق الذكر والأُنْثَىٰ في تكامُلِهما، وحَاجَةِ كلِّ زَوْجٍ منهما لزوجه، من ظواهر إتقان صنعة الخالق الرَّبِّ العجيبة.

ودراسَةُ هٰذه الظاهرة مجالٌ فسيح ودقيق لعلماء البحث الكونيّ، وبها يكْتَشِفُونَ عَجَائبَ وغَرَائِبَ تُدَوَّنُ في مُجَلَّداتٍ كثيرة.

وظاهرةُ الذكر والأُنْثَىٰ تَعُمُّ عالَمَ الأحياء وعالم النباتات، وكُلٌّ من الزوجين يحتَاجُ إلى قرينه لإشباع الغريزة وتنامي الْخَلْق.

وقد خلق اللّهُ الأزواجَ كلَّها في الكائنات لينفرد بالوحدانية في كلّ

شيء، فهو سبحانه الكامل بذاته الذي لا يحتاج إلى شيءٍ، لأنّه هو وحْدَهُ الأزليُّ الأبديُّ بذاته وصفاته.

هذه الظاهرات الثلاث اللاّتي أَقْسَم اللّه بها، تشتمل على أَدلَّةٍ تهدي ذوي العقول الحصيفة النظيفة، إلى أن خالقها والمهيمن على الكون بربوبيته، لا بُدَّ أن يكون كامل القدرة، وشامِل العلم، وعظيم الحكمة، فالْقَسَمُ بها هو في الحقيقة قَسَمُ بما تَدُلُّ عليه من صفات اللّهِ الجليلة، وأسمائه الحسنى، وهكذا كُلُّ ما أقسم اللّه به في القرآنِ من كونه العجيب.

● قول اللّه عزّ وجل: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾.

هذا خطابٌ مُوجَّهُ لكلّ ذوي الإِرادات الحرَّةِ المسؤولين عن اختياراتهم وأنواع سلوكهم في الحياة الدنيا.

وجاءت الجملة مؤكّدَة بمؤكّدات ثلاثة: «إِنّ ـ والجملة الاسميّة ـ ولام الابتداء المزحلقة إلى الخبر».

شَتَّىٰ: أي: متفرّقون تفرُّقاً شديداً، وهو جَمْعُ مفرده «شَتِيت» بمعنى متفرّق ومختلف. يقال لغة: أشياء شتّىٰ، أي: متفرّقة مختلفة. وقومٌ أشتاتٌ: أي: متفرّقون، وأصل الشَّتّ الافتراق والتفريق. ويقال: شَعْبٌ شتِيتٌ، أي: مشتَّتٌ.

لقد أثبت اللّه عزّ وَجلّ في هذه الآية أنّ المكلّفين المخاطبين بها سَعْيُهم مختلف متفرّقٌ إلى حدّ التبايُنِ والتناقُضِ، مَا بَيْنَ أعلى ذُرُوات الفضائل، وأحطّ دَرَكَاتِ الرَّذَائل، وهذا لا يكون إلاّ إذا كانوا بخَلْق اللّهِ ذوي إراداتٍ حُرَّة. بخلاف المخلوقات الّتي لم يمنَحْهَا اللّهُ إراداتٍ حُرَّة، فإنّ سُلُوكَ كلّ صنف منها سلوكٌ متشابه متماثل، لأنّه يخضَعُ لنظام جبريٍّ ربّانيٍّ واحد، كالذَّرّة، والنّبات، والماء، والهواء، وغيرها.

وبالتأمُّل يهتدي الفكر إلى أن الإرادة الحرَّة في الناس إنما وهبها لكلّ

منهما، ليمتحنهم في ظروف الحياة الدنيا، ولا بُدَّ أن يكون لكلٍّ منهم سعْيٌ مُخْتَلِفٌ عن نُظَرائهِ، وهذا السلوك المختلف هو أثَرٌ لِحُرِّيَّةِ الإرَادَةِ في كُلٍّ منْهُمْ.

وبالتأمل يَهْتَدي الفكر الملاحِظُ لصفات اللّه الجليلة، ومنها حكمته، وتنزُّهُهُ عن العبث في الخَلْقِ، إلى أنّ الامتحانَ لا بُدَّ أَنْ يستَتْبِعَ الْحِسَابَ وَفَصْلَ الْقَضَاءِ وتنفيذَ الجزاء، بالفضل أو بالعدل، وأنَّهُ لا يُمْكِن أن يُسَوِّيَ الرَّبُّ العليم القدير الحكيم بين المسلمين والمجرمين، وبين من اختار في امتحانه الأعمال الصالحة، ومن اختار في امتحانه الأعمال السيئة.

ودلّ الواقع المشاهد لذوي الإراداتِ الحرَّة الموضوعين موضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، أنّهم متفاوتون في اختياراتهم تفاوتاً كبيراً، فمنهم سَعْيُه في الخير، ومنهم سَعْيُه في الشرّ، ومنهم سعْيُه مختلط، وتختَلِفُ بينهم النِّسَبُ والمقاديرُ اختلافاً لا يستطيع حصْرَه إلاّ الخالق البارئ المحيط بكلّ شيءٍ علماً، وهذا الاختلاف الكثير يتَطَلَّبُ دَرَجاتٍ ودَرَكاتٍ مِنَ الجزاء، فمنهم من يسْتَحِقُّ بفضل الله أنْ يُجَازَىٰ بالفردوس الأعلىٰ من جنَّاتِ النعيم، وَتتنازلُ المراتب والدَّرجات، حتَّىٰ أَدْنَىٰ الجنَّةِ. ومنهم مَنْ يَسْتَحِقُّ بِعَدْلِ اللّهِ أَنْ يُجازَىٰ بالدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النارِ، وتخفُّ الدَّركاتُ شيئاً فشيئاً حتَّىٰ مُسْتَوَىٰ الضَحْضَاح من دَار العذابِ يوم الدِّين، وأخفُّ العذاب فيها. ومنهم فريق يقتضي العدْلُ أنْ يكونوا على الأعراف، إذْ تساوَتْ سيِّئَاتُهُمْ وحَسَنَاتُهمْ، فالنار والجنَّة تتجاذبانه بقُوَّتَيْنِ متماثِلَتَيْن، فيقِفُ في مكان وسَطٍ بينهما، إلاّ أَنْ تَتَدَارَكَهُمْ رَحْمَةُ اللّه، فتدفع بهم، فيغْلِبُ جاذبُ الجنَّةِ جاذِبَ النّار، فَيُدْخِلُهُمُ اللّهُ في رحْمَته.

وهذا السَّعْيُ الْمُخْتَلِفُ في الناس إنَّما هُوَ مَظْهَرٌ لإراداتهم الحرَّة الّتي مَنَحَهُمُ اللّهُ إيَّاها ليَمْتَحِنَهُمْ، ومن أجْلِ هذا وضعهم في ظرُوف الامتحان

الأمثل، وأعطاهم من الصفات ما يجعلهم مؤهلين لاختيار الخير والعمل به، واختيار الشرّ والعمل به، فإذا اختاروا الخير أمدَّهم الله بعونه وتوفيقه، وإذا اختاروا الشرّ تركهم لما سخّرَ للناس من أسباب.

وقد جاء بَيَانُ أنَّ سَعْيَ المخاطبين بالآيةِ سَعْيٌ مختلف اختلافاً كبيراً، تمهيداً لبيان صُوَرِ الجزاء المختلفة المناسبة للسّعْي المختلف.



(٥)
التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من السورة

الآيات من (٥ ـ ١١)

قال اللَّهُ عَزَّ وَجلّ:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ (١١)﴾.

تمهيد:

تضمّن هذا الدرس من دروس السورة قضيتين:

القضيّةُ الأولى: الترغيب في العطاء من المال ابتغاء وجه الرَّبّ الأعلى، بشرط أَنْ يكون هذا العطاء ثمرة تقوى الله، التي هي من آثار التصديق بالملّة الحسنىٰ، التي يُبَلِّغُها الرسول محمد ﷺ عن الرّبّ جلّ جلاله.

والثواب المبشّرُ به هو التيسير للأمورِ الْيُسْرَىٰ، ولا سيما ما يكون منها يوم الدين.

القضيّة الثانية: الترهيبُ من البخل بإمساك المال عن مستحقّيه، المقرون بمشاعر الاستغناء عن الرّبّ جلّ جلاله، فهذه المشاعر الخسيسَةُ يتوَلّد عنها الطغيان، وَعَدَمُ الخوف من عذاب اللّه، والتكذيبُ بالملّة الحسنَىٰ الّتي يُبَلِّغها الرسول محمد ﷺ عن الرّبّ جلّ جلاله.

والعقابُ المنْذَرُ به هو التيسير للأمور الْعُسْرَىٰ، ولا سيما يوم لا يُغْنِي عن المعذّب ماله الذي استغنى به، فطغى، فكفَر.

وبالنظر إلى سُنَّة التدرُّج الرَّبَّانِيَّةِ في إنزال شرائع الدّين، نلاحظ أنّ العناية الرّبّانيّة في هذِهِ المرحلة الْمُبَكّرَةِ من تنزّلاَت القرآن، قد وجّهَتْ لقضايا الإيمان أوّلاً، وأتبعتها بالتوجيه للصلاة، فبالتوجيه للعطاء المالي مساعدةً للفقراء والمساكين وَذوي الحاجات، وهذا التوجيه للعطاءِ المالي في هذه المرحلة المبكّرة، فيه دليل على أنّ سدّ حاجات المحتاجين في المجتمع تَأْتي في التعليمات الإسلامية عَقِبَ التوجيه للصلاة، ولهذا اقترنَتِ الزكاة بالصلاة في معظم النصوص القرآنيّة، وهذا التوجيه في هذه المرحلة المبكّرة، قد جاء تمهيداً لفريضة الزّكاة الّتي تأخر تحديدُها، والإلزام بالمقدار الواجب بذلُه فيها إلى المرحلة المدنيّة.

وبالنظر إلى السُّوَر التي نزلت قبل نزول سورة «اللّيل» نلاحظُ أنّه قد جاء تمهيد خفيف جدّاً لقضيّة بذل المال في سورة (العلق) أوّل سُورَةٍ أُنزِلَت، ببيان أنّ مشاعر الاستغناء من أسباب طغيان الإنسان، إذ جاء فيها قول اللّه عزّ وجل:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾.

وبعدها جاء في سورة (المدثر) السّورة الثانية بحسب ترتيب النزول بيان أنّ من أسباب تعذيب المعذّبين في سقر أنّهم لم يكونوا يطعمون المساكين، فقد جاء فيها قولُ اللّهِ عزّ وجلّ حكايةً لسؤالٍ يُوجَّهُ لَهُمْ وهم يُعَذَّبُونَ في النارِ، وحكايةً للجواب الذي يجيبون به:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤﴾.

ثم جاء في سورة (الأعلى) السّورة الثامنة بحسب ترتيب النزول إلماح خفيفٌ إلىٰ هذا الموضوع ضمن قضية عامّة، فقال اللّه عزّ وجلّ فيها: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦﴾ ومعلومٌ أَنَّ إمْسَاكَ المال، والبخل ببذله للمساكين وذوي الحاجات من إيثار الحياة الدنيا.

أما سورة (اللّيل) السّورَةِ التاسعة بحسب ترتيب النزول، فقد جاء فيها الترغيب بإعطاء المال واضحاً وبقوَّة، وهو ترغيب مقرون بالوعد بالثواب. وجاء فيها الترهيبُ من البخل ببذل المال لمستحقيه، مع الإنذار بالعقاب على البخل.

● قول اللّه عزّ وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾.

الفاء في: ﴿فَأَمَّا﴾ دلَّت على أنَّ ما بعدها مُفَرَّعٌ عمّا دلَّ عليه الدّرْسُ الأول من السورة، وهو كون المخاطبين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ مَوْضُوعُونَ في الحياة الدنيا موضع الامتحان، فهم ذَوُو إراداتٍ حُرَّةٍ، فباستطاعتهم أن يختاروا لأنفسهم طريق الخير حتَّىٰ يكونوا سعداء بفَضْلِ اللّه، وباستطاعتهم أن يختاروا لأنفسهم طريق الشرّ وبه يكونون أشقياء بعَدْلِ اللّه.

وكلمة: [أَمّا] حَرْفٌ فيه معنى الشرط والتوكيد دائماً، وفيه معنَىٰ التَّفْصِيلِ غالباً، ويُكَرَّرُ غالباً حينما يحْمِلُ معنى التفصيل، كما جاء هنا في السّورة.

﴿مَنْ أَعْطَىٰ﴾ أي: مَنْ أعطىٰ عَطَاءً ماليّاً يبتغي به وجْهَ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ. حُذِفَ المفعولُ به ليَعمَّ كُلَّ عطاء مَالِي. ودلَّ على كونه عطاء ماليّاً مقابَلَةُ العطاء في السورة بالبخل، وذِكْرُ المال مرّتين في السّورة إحداهما في

الحديث عمّن بخل واستغنى، والأخرى في الحديث عن الذي يُؤتي مالَهُ يَتزَكّى، فالكلام في السّورة يدور حول إعطاء المال والبخل به. ودلَّ على ابتغاء وجْهِ اللّه بالإعطاء ما جاء في آخر السُّورة من بيان أنّ الناجي من النار هو الذي يُؤتِي مالَه يَتطهَّرُ بإيتائه من رجس البخل والمعصية وهو لا يبتغي بإيتائِه إلاّ وجْهَ رَبّهِ الأعْلَىٰ، ودلّ على أنّه أعْطَى مالَهُ في طاعة اللّه عطف فعل: [اتَّقَىٰ] على فِعْلِ: [أَعْطَىٰ].

﴿وَٱتَّقَىٰ﴾: أي: واتَّقَىٰ عَذَابَ اللّهِ فيما أعطىٰ، وفي كلِّ أقواله وأفعاله الإراديّة الظاهرة والباطنة، الجسَدِيَّة والنفسِيَّة.

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾.

أي: وجَزَمَ في قَلْبِه مؤمناً بأنّ بلاغاتِ الرسول عن اللّهِ حقٌّ وصِدْقٌ، ومعلوم أنّ بلاغاتِ الرّسُولِ عن اللّه تَشْمَلُ العقائد الإيمانية، ووصايا اللّه وأوامره ونواهيه لعباده في هذه الملّة، من كُلّ أنواعِ السُّلوكِ الظاهر والباطن، الجسديّ والنفسيّ، وهذه كُلُّها حُسْنَىٰ، فاقَتْ في حُسْنِها كُلَّ ما يُخالِفُهَا.

الْحُسْنَىٰ: مؤنث «الأحْسَن» أي: المفضَّل في الْحُسْن. وقد جاء لفظ [الْحُسْنَىٰ] في الآيَة صفةً لموصوف محذوف، فاختلَفَ أهل التأويل في تقديره، إذْ لم يَرِدْ عن الرسول ﷺ بيانٌ يُعَيِّنه، فقيل: الجنة. وقيل: لا إلَه إلاّ اللّه. وقيل: الصلاة. وقيل: الزكاة.

لكنّي رأيْتُ أنَّ المحذوفَ المقدّرَ ذِهْناً هو الملَّةُ، أو الشريعة، أو الديانة أو الرسالة الّتِي يُبَلِّغُهَا الرَّسُولُ ﷺ عن ربّه، فهي المقدَّرُ ذهْناً في دعوته، ولا يحتاج إلى التصريح به، وهذا المحْذُوف المقدر على الوجه الذي رأيتُهُ، يَشْمَلُ كُلَّ أقوال أهل التأويل وزيادة، وهو المطلوب الإيمان به واتّباعه من الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان.

ولدى تتبُّع مَا جاء في هذه الرسالة المحمّديَّة الخاتمة لرسالات اللَّهِ السابقات، نُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ بَيَانٍ، وكُلَّ حُكْم، وكُلَّ تَوْجِيهِ، وكُلَّ وَصِيَّةٍ، وكُلَّ نُصْحٍ، وكلَّ تَعْلِيم، هُوَ الأَحْسَنُ من كُلِّ ما خالفه، فهٰذِهِ الرّسَالَةُ بكلِّ ما جاء فيها هي الْحُسْنَىٰ المفضّلَةُ في الْحُسْنِ على كلّ ما سواها ممّا اشتمل على الموضوعات التي جاءت فيها.

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾.

هذا وعْدٌ من اللَّهِ لِمَنْ أعطَىٰ واتَّقَىٰ وصَدَّق بالْحُسْنَىٰ، بأن يُيَسِّرَهُ في المستَقْبَلِ القريب للْيُسْرَىٰ.

الفاء واقعة في جواب أداة الشَّرْط [أمَّا] وحرف التنفيس «السين» للدلالة على المستقبل القريب.

وفعل: «نُيَسِّرُه» هو بمعنى: نهيّئُه ونُعْطِيهِ من المعونات والتوفيقات والإمدادات بالقوى الجسديَّة والنفسيَّة ما يُهَوِّنُ عليه سلوك الصراط المستقيم، الذي يَسْتَحِقُّ به الْيُسْرَىٰ.

وتحليل معنى فعل: «نُيَسِّرُهُ» سبق في سورة (الأعلى) لدى تدبّر قول اللّه لرسوله فيها: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾ فلا داعيَ للإعادة.

ويظهر لي أنّ المراد من الْيُسْرَىٰ هنا في سُورة «اللّيل» الأمورُ الْيُسْرَىٰ الَّتي يُكَافِئ اللَّهُ بها عبْدَهُ المؤمن الذي أَعْطَىٰ واتَّقى وَصَدَّقَ بالْحُسْنَىٰ، وهذه الأمور الْيُسْرَىٰ ينالُ منها نصيباً في الحياة الدنيا، وَينال منها نصيباً في البرزخ بين الموت والبعث إلى يوم الدين، وينال منها في يوم الحشر والحساب وفَصْلِ القضاء، وينال منها الجزاء الأوفىٰ الخالد في جنّاتِ النعيم.

فيوم الْحَشْرِ والحساب وفصل القضاء يومٌ عَسِيرٌ على الكافرين، لكنَّهُ على أهل الإيمان والعمل الصالح يَسيرٌ غير عَسِير، كما قال اللَّهُ عزّ وجلَّ في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول):

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾.

وكما قال اللَّه عزّ وجل في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾.

أي: لكنّ المؤمنين لا يجدونه عسيراً فلا يقولون: هذا يومٌ عَسِرٌ، بل يجدونه عليهم يسيراً.

وكما قال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

❃ ❃ ❃

● قول اللّه عزّ وجل: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

في هذه الآيات بيان للقسم الثاني من النّاس، وهو الْقِسْمُ المضادُّ لقسم: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾

فهو قِسْمٌ بَخِلَ بما يَمْلِك من مَالٍ على الفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وشَعَر بأنّه اسْتَغْنَىٰ بأمْوالِه عَنْ رَبّه، مُتَوَهِّماً أنَّ أمْوالَهُ تَقْضِي له كُلَّ حاجاته ومطالِبِهِ من الحياة، فَطَغَىٰ، وكَفَرَ بأَنْعُمِ اللَّهِ عليه، وكذَّبَ بالرِّسَالَةِ التي يُبَلِّغها رسولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ رَبّه، فلم يؤمن بها، مع أنها الْحُسْنَىٰ، وتَفَوُّقُها في الْحُسْنِ عَلَىٰ كُلِّ مَا يُخَالِفُها شاهِدٌ دائِمٌ على أنّها رسالَةٌ رَبَّانِيَّة حقًّا وصِدْقاً.

وفي مقابل تَيْسِيرِ الْقِسْمِ المؤمِنِ لِلْيُسْرَىٰ، قال اللَّهُ عَزَّ وجلَّ بشأنِ هذا

القسم المضادّ المكذِّب بالرّسالة الْحُسْنَىٰ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ أي: فَسَنُهَيِّئُهُ فِي نَفْسِه وجَسَدِهِ وقُدْرَاتِهِ المختَلِفَةِ، لاختيار الْأَسْبَابِ والوسائلِ المسخَّرَةِ للناسِ في ظرُوفِ الحياةِ الدنيا، ولسُلُوك مَا يشَاءِ من مَسَالِكَ وسُبُلِ ضِمْنَ السُّنَنِ الكَوْنِيَّةِ العامّة، الّتِي تُعْطِي عَطَاءَهَا الْمُقَدَّرَ لَهَا، مَنْ آمَنَ بالله، ومَنْ كَفَرَ به، حتَّىٰ تَنْتَهِي به مسيرتُه في حياته للأمور الْعُسْرَىٰ، الَّتِي يُعَاقِبُ اللَّهُ بهَا عبادَهُ الكافرين، والْعُصَاةَ المجرمين، الذين بَخِلُوا واسْتَغْنَوْا وكذّبوا برسالة اللَّهِ الْحُسْنَىٰ. وهذه الأمور الْعُسْرَىٰ يَنَالُون منها مقداراً ما في الحياة الدنيا، ويَنَالون منها مقداراً مَا في البرزخ بين الموت والبعث إلى يوم الدين، وينالون منها مقداراً ثالثاً يوم الحشر والحساب وفصل القضاء، ثم ينالون منها العقاب الأوفىٰ، في دار العذاب، جهنَّم وبئْسَ المصير، وعندئذٍ يُذرِكُونَ أنَّ الْأُمُورَ الّتي نزلَتْ بهم هي الْأُمورُ الْعُسْرَىٰ الّتي لاَ يُوجَدُ أَعْسَرُ مِنْها.

الْعُسْرَىٰ: أي: الزَّائدَةُ على كلّ ما سواها في الْعُسْر، إذِ الْعُسْرَىٰ مؤنَّث «الأَعْسَر» الوزن الموضوع للتفضيل، أي: للدلالة على زِيَادة الموصوف به في صفته على غَيْرِهِ.

وحين تَنْزِل به الأمور الْعُسْرَىٰ فَهَلْ تَرُدُّ عنه أَوْ تَرْفَعُ عَنْهُ شيئاً أَمْوَالُهُ الَّتي يَسْتغنِي بها، أو الَّتِي كان قد اسْتَغْنَىٰ بِها.

فقال اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾.

إِذَا تَرَدَّىٰ: أيْ: إذا سَقَطَ وَخَرَّ في هَاوِيَةِ العذاب والأُمُورِ الْعُسْرَىٰ. التَّرَدِّي: السُّقُوط منْ شاهِقٍ في هُوّةٍ، شُبِّهَ مَسُّ العذاب بالتردِّي.

وَمَا يُغْنِي عَنْهُ: أي: ومَا يَصْرِفُ عنه مَالُهُ ما يَنْزِلُ به منْ عذابٍ وعُسْرٍ، ومَا يَكْفِيهِ مَالُهُ مِنْ أُمورِهِ حينئذٍ شيئاً.

لَقَدْ وَجَدْنَا أغنياء وافِري الغنى من الناس، لَمْ تَنْفَعْهُمْ أَمْوَالُهُمْ شيئاً،

حينَ نَزَلَتْ بِهِمُ الأُمُورُ الْعَسِيرة منْ أَمْرَاضٍ، أو مصَائبَ في أهْليهم وذويهم ممّا لا يَمْلِكُ دفْعَه ولا رَفْعَهُ إلاَّ اللَّهُ جلّ جلاله.

فكيف بالأمور الْعُسْرَىٰ في البرزخ بين الموت والبعث، وبالأمور الْعُسْرَىٰ في موقف الحشر والحساب وفَصْلِ القضاء، وبالأُمور الْعُسْرَىٰ في جهنّمَ دَارِ عَذَابِ المجرمين؟!!



(٦)
التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة

الآيات من (١٢ ـ ٢١)

قال اللَّهُ عزَّ وَجل:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٣) فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)﴾.

تمهيد:

بالتأمل العميق يكتشف المتدبّر أنّ هذا الدرس الأخير من دُرُوس السورة الثلاثة، يتضمّن الإجابة على أسئلة تثيرها في أذهان المتفكّرين، قضايا تضمنها الدرسان الأول والثاني من دُروس السورة.

السؤال الأول المطويّ:

كيف يعرفُ الناس ما هو مطلوبٌ منهم في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، حتَّىٰ تُتَاح لهم الفرصة ليختاروا السلوك الذي يكونون فيه من المفلحين يومَ الدين، يوْمَ الجزاء الأكبر.

وقد جاءت الإجابةُ على هذا السؤال المطويّ بقول اللّه عزّ وجلّ يتحدّث عن نفسه بضمير المتكلّم العظيم:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢﴾.

هذه الجملة مؤكَّدة بثلاثة مؤكدات: «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ ولام الابتداء المزحلقة لاسم «إنَّ» المتأخر عن خَبَرِها».

لمّا كان من حقّ الموضوع موضع الامتحان، أنْ يُبَيَّن له طَريقُ الهُدَىٰ الذي عليه أن يَسْلُكَهُ في رحلة امتحانه، ليَنْجُوَ من العذاب يوم الدين، وليظْفَرَ بالنَّعِيمِ المقيم في جنّاتِ النعيم، قال اللّه عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢﴾ فأبَانَ جلَّ جلالُهُ الْتِزَامَه بدلاَلَة الناس على طريق هُدَاهم إلى الحقّ والخير والنجاح والفلاح، وتَكَفُّلَه به، وأَوْجَبَهُ تبارك وتعالَىٰ على نفسه، مؤكّداً هذا بعدّة مؤكّدات.

وتَتَحقَّقُ هٰذِه الهدايةُ البيانيّة، بإعلامهم بالحقّ والخير والفضيلة، وإبانة طريقِ الْهُدَىٰ لهم، حتَّىٰ لا يكون لهم عُذْرٌ بالجهل، وحتَّى لا يَتَعَلَّلُوا بأَنَّهُمْ لم تبلُغْهم بياناتٌ عمّا هو مطلوبٌ منهم في رحلة امتحانهم.

وهذا ما اشتملت عليه البيانات الدّينيَّة، الّتي تُعَرِّف الناس بما هُمْ مطالبونَ بِفِعْلِهِ من خَيْرٍ، وبما هم مطالبون بتركه من شَرٍّ، سواءٌ أكان اعتقاداً، أَمْ خُلُقاً، أَمْ سلوكاً نَفْسِيّاً، أمْ سُلوكاً جسَدِيًّا ظاهراً.

وتتالت بعْدَ سُورةِ (اللّيل) البيانات القرآنيّة، والبيانات النبويَّة، في العقائد والأخلاق والعبادات وأنواع السلوك النفسي والظاهر، الّتي بيَّنَتْ للنَّاس طريق هدايتهم، وسُبُل ضلالِهِمْ وانحرافهم.

السؤال الثاني المطويّ:

ولمّا كان الحسابُ والجزاءُ حقَّ الخالق الرَّبّ المالك لدار الابتلاء الّتي

هي الأولىٰ، ولدار الحساب والجزاء الّتي هي الأُخرىٰ، وكان من التوهُّمات التي قد تقع في النُّفوس اسْتِبْعَادُ وُجُودِ حياةٍ أُخْرَىٰ، كان من المناسب بيان أَنّ الرَّبَّ الممتَحِنَ مَالِكَ الحياة الأولىٰ، هو وحده مالِكُ الحياة الأُخْرىٰ، وتَقْضِي حكْمَتُهُ بأنْ يُحاسِبَ عباده ويُجَازيَهُمْ في الأُخْرَىٰ، كما ابتلاهُمْ في الأُولى، فقال اللّهُ عزَّ وجل:

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

وجاءت هذه الجملَةُ مؤكَّدَة بمؤكدات ثلاثة، كالجملة السابقة.

أي: وإنّ الآخرةَ والأُولَىٰ وَكلَّ ما فيهما، وكلَّ مَنْ فيهما مِلْكٌ لَنَا، وجاء التعبير باستعمال ضمير المتكلّم العظيم، والمعنى فَنَحْنُ الممتَحنُونَ في الأولى، ونَحْنُ المحاسبون والمجازون في الأخرىٰ، ونحن القادرون على إيجاد الأخرى.

السؤال الثالث المطويّ:

إذا كانت الحياة الدنيا هي حياة الابتلاء، وكانت الحياة الأخرى هي حياة الحساب وفصل القضاء والجزاء، فَكَيْفَ يكونُ عذابُ الآخرة لمَنْ كَفَرَ بربِّهِ، ولم يسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ رَسُولِهِ؟

وقد جاء الجوابُ الرّبّاني على هذا السؤال المطويّ بقول اللّه عزّ وجلّ في السّورة:

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾.

فأنذرتُكُمْ: الإنْذارُ هو الإعلام بما هو مُخوفٌ منه مستقبلاً.

تَلَظَّىٰ: أصلها: تَتَلَظَّىٰ، أي: تتلَهّبُ. ولَظَىٰ النّار هو لَهَبُها.

لاَ يَصْلاَها: أي: لا يَحْتَرِقُ بلَهَبِهَا، يقالُ لغة: صَلِيَ النَّارَ، وَصَلِيَ بِهَا، إذا احْتَرَقَ فيها، ولامَسَ لَهَبُهَا جَسَدَهُ مُحْرِقاً.

إلاّ الأَشْقَى: أي: إلاَّ الأَكْثَرُ شَقَاءً بسبَبِ كُفْرِهِ عناداً وإصراراً على الباطل وارتكاب الجرائم.

الّذي كذّب وتولّىٰ: أي؛ الَّذِي كَذَّبَ برسالة الرسول الحسنى، **وتولّىٰ**: أي: وأدبَرَ مُبْتعِداً عَنْ دَعْوَةِ الرَّسُولِ الرَّبّانِيَّة، فلم يُؤمِنْ بها، وَلَمْ يكْتَرِثْ لِمَا جَاءَ فِيها مِنْ بُشْرَيَاتٍ وإِنْذَارَاتٍ.

وَفِي هذا بيانٌ للأشقى وتعريفٌ بِهِ، فالأشقى هو الذي كذّبَ وَتولّىٰ.

فالإنْذَارُ بالْحَرِيقِ بالنّار هو لِمَنْ كَفَرَ وعَصَىٰ، وأبَىٰ طاعَةَ رسُولِ اللّهِ، وسُلُوكَ طَرِيقِ الْهُدَىٰ، وتَوَلَّىٰ مُدْبراً مُبْتَعِداً عن دعوة الرسول.

وهذا النَّصُّ يَدُلُّ على أنّه لا يُقاسِي حَرَّ لَهَبِ النّار، ولاَ يَذُوقُ لذْعَ سَعِيرِها الملامِسِ للْجَسَدِ إلاَّ الأَشْقَىٰ، وهو الكافِرُ الْمُجْرِمُ، أمّا مَنْ فيه شقاوَةٌ من دُونِ الكُفْرِ، ولم يبلُغْ دَرَكَةَ الأشْقَىٰ، فإنَّهُ إذا دَخَلَ النّار بعَدْلِ اللّه، فإنّه يُعَذَّبُ بأنواعٍ من عذابها غَيْرِ مُلاَمَسَةِ لَهَبِ النَّارِ لِجَسَدِهِ.

إنَّ الصَّلْيَ بلهَبِ النّار هو نَوْع من أنواعٍ كثيرة شديدة وخفيفة من عذاب النار.

فتوهُّمُ المرجئة الغالطين في فهم هذا النصّ آتٍ من أنَّهم لم يُحْسِنُوا تَدَبُّرَ دَلاَلَتِه، فانْحَرَفَ فِكْرُهُمْ عَنِ المعنَىٰ المراد.

السؤال الرابع المطويّ:

فكيْفَ يكونُ حالُ من آمَنَ بربِّهِ، واستجاب لدعوة رسوله، فآمَنَ بالرِّسَالة الْحُسْنَىٰ، وأعلن إسلامه؟

وقد جاء الجوابُ الرَّبَّانِيُّ عَلَىٰ هذا السُّؤَالِ المطويّ، بقول اللّهِ عزّ وجلَّ في السُّورَة:

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

أيْ: وسَيُجَنَّبُ النَّارَ، ويُبْعَدُ عَنْهَا، فَلاَ يُدْخَلُ فِيهَا، ويُوقَىٰ مِنْ كُلِّ أَنْوَاعِ عَذَابِها، الْأَتْقَىٰ.

الْأَتْقَىٰ: هُوَ الَّذِي بَلَغَ كَمَالَ التَّقْوىٰ، بِفِعْلِ كلِّ ما أوجَبَ اللَّهُ، وَتَرْكِ كُلِّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، لاَ الَّذِي فيه بَعْضُ التَّقْوىٰ وبَعْضُ الْعِصْيان، أي: فالَّذِي له معاصٍ نَقَصَ بها عن كمال مرتَبَةِ التَّقْوىٰ، فَقَدْ لاَ يُجَنَّبُهَا، بل قَدْ يُعَذَّبُ بِها، إلاَّ أَنَّهُ عَذَابٌ لاَ يَصِلُ إِلَىٰ دَرَكَةِ الصَّلْيِ، بَلْ هُوَ عذابٌ دُونَ ذَلِكَ.

وما دام التوجيه السلوكيُّ في السّورَةِ قَدْ أعْطَىٰ العناية الكبرى لبذل المال إِلَىٰ مستحقِّيه من المساكين، وذوي الحاجات، كان من المناسِب أن يَصِفَ اللَّهُ عزّ وجلّ الأتقَىٰ بقوله: ﴿ٱلَّذِى يُؤۡتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٍ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾.

يُؤْتِي مَالَهُ: أَيْ: يُعْطِي مَالَهُ.

يَتَزَكَّىٰ: أي: يتَطَهَّرُ بالعطاء من رذيلة البخل، ومِنْ إثم المعصية، ويَنْمُو بِهِ عند اللّه كمالاً، فالزكاة تدور حول مَعْنَيَي الطهارة والنَّماء.

وقد يُلاحَظُ أَنَّ إدْخال كلمة: ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ في عبارة الترغيب في العطاء، خلال هذه المرحلة المبكّرَة من تنزُّلاَتِ القرآن، هو من باب التوطئة لعنوان «الزكاة» الّتي ستُفْرَضُ على المسلمين فيما بَعْدُ.

وجاء قَوْلُ اللّه عزّ وجل: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٍ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾﴾ لبيان أنّ مقتضيات التقوىٰ تُوجب على الباذل لماله الذي يجب عليه أن يبذلَ من ماله ليتزكّىٰ، أنْ لا يجمع بَيْنَ المكافَأَةِ عَلَىٰ نِعْمَةٍ وَصَلَتْ إِلَيْهِ من أَحَدٍ مِنْ مستحقّي المساعدة الماليّة، وبين الزكاة، وذلِكَ بجعل المكافأَةِ هي زكاة ماله، فالمكافأَةُ يجب أَنْ تكونَ عطاءً مُنْفَصِلاً عَن إعطاء الزكاة لِمَنْ يَسْتَحِقُّها.

فالجملَةُ الْقرآنيَّةُ خاصَّةٌ ببيان أنَّ البذل ابتغاء وجْهِ اللّه لا يصحُّ أن يُدْمَجَ فيه إرادةُ مكافأة المنْعِم على إنعامه، وفي بَسْطِ هذا أقول:

وَما لأحَدٍ عنْدَهُ من نِعْمَةٍ كَانَ قَدْ أَنْعَمَ بها عليه، فَهُوَ يكافِئُهُ ويجازيه على نِعْمَتِهِ، من الّذِين يَبْذُلُ لهم ما يجب عليه أن يَبْذُلَهُ من ماله للفقراء والمساكين وذوي الحاجات.

فإن كان ببذله لما يجب عليه أن يبذُلَهُ من ماله مكافئاً صاحِبَ نِعْمَةٍ عليه، فإنَّهُ لا يُعْتَبَرُ مُؤَدّياً ما فرض اللّهُ عليه في ماله، فلا يتحقَّقُ بكمال التقوى، وَلاَ يُوصَفُ بوصْفِ الأَتْقَىٰ الّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتزَكَّىٰ، إذْ لاَ يَصِحُّ أنْ يُكافِئ باذِلُ المال ذَا نِعْمَةٍ على إنعامه عليه، ويحتَسِبَهُ من الصَّدَقة الَّتِي يُبْتَغَىٰ بِهَا وَجْهُ اللّهِ، كما لا يَصِحُّ أَنْ يَدْفَعَ أُجْرَةَ عَاملٍ يَعْمَلُ عنْدَهُ، ويَحْتَسِبها من الصَّدقة الّتي يجبُ عليه أن يَبْذُلَها.

إنّ صدقَةَ المال لا يَصِحُّ أنْ تكُونَ إلاَّ ابتغاء وجه اللّه عزّ وجل، وقَدْ جاء بيان هذه الحقيقَةِ الدينيَّة مع أوائل التّنزيل، للتنبيه على ضرورة كون العمل الديني خالصاً لوجه اللّهِ تَعَالَىٰ، ولا سيما كَوْنُ هذا البيان قد كانت له مناسبة كما ذكر المفسّرون، وهيَ أنّ أبا بكر الصّدّيق رضِيَ اللّهُ عَنْهُ لمَّا أعْتَقَ بلالاً رضي اللّهُ عنه قال المشركون: ما فَعَل أبو بكرٍ ذلِكَ إلاَّ لِيَدٍ كانَتْ لِبِلاَلٍ عِنْدَهُ، فَبرّأَ اللّهُ أبا بكر من هذا، بأسلوب الإيماء، وأثنى على أبي بكر بأنّه يَدْخُل في عُمُومِ الأَتْقَىٰ، إيماءً لا تَصْرِيحاً.

● قَوْلُ اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿إِلَّا﴾ هُنَا بمَعْنَىٰ «لَكِنْ» أي: وَما لأحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ، لكِنْ يُؤْتِي مَالَهُ ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ، وجاء وَصْفُ الرّبّ بِوَصْفِ الأَعْلَىٰ لدَفْعِ تَوَهُّمِ إطْلاَقِ كلمة «رَبّ» بمعنَىٰ المنعم الذي يَشْمَلُ الْمنْعِمَ من الناس في لغةِ العَرَب، فالمرحلَةُ التي نزلَتْ فيها السّورة مرحلة مبكِّرَةٌ، ولَمْ يَثْبُتْ بَعْدُ في أذهان الناس تخصيصُ الرَّبّ باللّهِ الخالِقِ جلّ جلاله، مع ما في ختم الآية بلفظ ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ من فَنِّيَّةِ مُرَاعَاةِ رؤوسِ الآيات في السّورَة.

● قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وَجَلَّ في آخِرِ السُّورَةِ: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وَلَسَوْف في المستقبل البعيد الذي سوف يأتي يَوْمَ الدِّينِ يَمْنَحُ اللَّهُ عَزّ وجلَّ الأَتْقَىٰ الذي يُؤْتِي مَالَهُ ابتغاء وجه ربِّه الأعلَىٰ ثواباً جزيلاً جدّاً، يجعله يَرْضَىٰ كُلَّ الرّضا، حتَّىٰ لا يَجِدَ في تَصَوُّرِهِ شيئاً يطلُبُه من ربّه، إذْ يَنَالُ مَزِيداً من عند رَبِّهِ فَوْقَ كلِّ ما يَشَاء.

وبهذا انتهى تدبُّر السورة على ما فتح اللّه به



(٧)
حول بلاغيات في سورة اللّيل

بفتح من الله استخرجت من سورة «اللّيل» الروائع البلاغيّة الإحدى عشرة التالية:

الأولى:

التلاؤم والتناسبُ الفكريُّ بين المعطوف والمعطوف عليه فيما أقسم اللّه به في مَطْلعِ السورة:

﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾﴾.

فاللَّيْلُ والنهار زَوْجَانِ مُتَكاملان في نظام الأرض، والذكر والأُنْثَىٰ زوجان مُتَكاملان أيضاً في نظام الأرْض، فعطف خلْقِ الذكر والأُنْثَىٰ في هذا النَّصّ على اللّيل إذَا يَغْشَىٰ والنهار إذَا تَجَلَّىٰ فيه الجمْعُ بين قسمين متلائميْن مُتَنَاسبَيْنِ من الكائنات، وهذا من الإبداعات الفكريَّة الجماليّة.

ويدخل هذا تحت ما يُسمَّىٰ «حُسْنَ النَّسَق» عند علماء البديع.

الثانية:

حذف معمول الفعل، لغرضَيْن: **الأول**: الإيجاز. **الثاني**: التعميم.

ونلاحظ هذا في فعل: [أَعْطَىٰ] أي: أعطى مقداراً ما من ماله. وفي فعل: [اتَّقى] أي: اتَّقَىٰ عَذَابَ رَبِّهِ بإعطائه من ماله. وفي فعل: [بَخِلَ] أي: بَخِل ببذْلِ ماله على وجه العموم.

الثالثة:

من المحسّنَاتِ البديعيَّة المعنويّة في السورة (الْجَمْعُ مع التقسيم).

وهو في قول اللّه عزّ وجلّ خطاباً للناس:

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾

فالجمع جاء في قوله تعالى خطاباً للناس: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾.

والتقسيم في: ﴿فَأَمَّا﴾ الأولى وما بعدها، وفي ﴿وَأَمَّا﴾ الثانية وما بعدها.

الرابعة:

الاستغناء بذكر الصفة عن الموصوف، وهو من الكنايات، وقد جاء هذا الاستغناء:

(١) في قوله تعالى: ﴿بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: بالرسالة الربَّانية الْحُسْنَىٰ.

(٢) وفي قوله تعالى: ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي: للأمور الْيُسْرَىٰ، ثواباً لمن أعطى واتَّقَىٰ وصدَّقَ بالحسنىٰ.

(٣) وفي قوله تعالى: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي: للأمور الْعُسْرَىٰ، عقاباً لمن بَخِلَ واستغنىٰ وكذَّبَ بالْحُسْنَىٰ.

الخامسة:

الاستعارة البديعة في فعل: ﴿تَرَدَّىٰ﴾ وأصل هذه الاستعارة تشبيه الكفر وما ينْتُجُ عنه من أعمالٍ سَيِّئَةٍ وجرائم بالتردّي، وهو السقوط من شاهقٍ في مَهْوَاةٍ إلى مصير يكون فيه التمزّقُ، والعذابُ الأليم.

السادسة:

اختصار اللّفظ في كلمة: ﴿تَلَظَّىٰ﴾ فأصْلُها: «تتلظَّىٰ».

السابعة:

استخدام اللَّفْظِ في مَعْنَيَيْهِ للإيجاز، وهو في قوله تعالى: ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ ففعل: «يَتَزكّىٰ» يأتي بمعنى يتكلّفُ من الأعمال الشّاقة ما يطهِّرُه من أرجاس البخل والمعاصي. ويأتي بمعنى يتكلّف من الأعمال الشَّاقة ما يُنَمِّي به نفسه، وينمّي به درجاته عند ربّه بالطاعات والقربات.

الثامنة:

الاعتماد على اللّوازم الفكريّة الّتي يُدْرِكُها المتدبِّرُ مِن النَّصّ، وتَرْكُ المتدبّر يفهم بنفسه اللّوازمَ الفكريَّة من الإبداعات القرآنيّة البارزة الكثيرة.

ومنه في السورة فعل [أعطى] الذي يشْمَلُ كلَّ عطاءٍ، حتَّىٰ في معصيةِ اللّه، لكنّ اقتران فعل [أعطى] بفعل: [واتَّقَىٰ] في النَّصّ يدُلُّ باللُّزُوم الذهني على أنّ الإعطاء مقيَّدٌ بطاعة اللّه وبالبعد عن معصيته، إذ البذلُ في معصية الله يتنافَىٰ مع مقتضيات التقوىٰ.

ومنه أيضاً في السورة فعل: ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي: وشَعَرَ بالاستغناء عن ربّه فَطَغَىٰ، فتورّط في اقتحام الموبقات وعَدَمِ اتّخاذ ما يقيه من عذاب اللّه، وهذا نقيض التقوى.

التاسعة:

بناءُ الكلام على أسئلة مطويَّةٍ تَسْتَثِيرها السّوابقُ في النّصّ في أذهان المتدبِّرين بعُمْق، والإجابةُ عليها، وهذه الأسئلة يتَنَبَّهُ إليها المتدبّر المتأنّي اللّمَّاحُ، وبإدْرَاكها ينكَشفُ له كثير من الترابط الفكريّ بَيْنَ فقَرَاتِ السورة.

وقد سبق لدى تدبّر سورة (الليل) التنبيه على عدّة أسئلة مطويَّة، جاءت الإجابة عليها في السورة. وباكتشافها ظهر لنا الترابط البديع بين اللَّاحق من دروس السورة، مع السابق منها، وبدون اكتشاف ذلك فقد يرى المتعجّل أنّه لا يوجد بين دروس السورة ترابُطٌ فكريٌّ، بل السورة تشتمل

على موضوعات مُفَكَّكَةٍ غَيْرِ مترابطة، وهذا من قِصَر النظر، والبعد عن حُسْنِ التدبُرِ الذي أمر اللَّهُ عزّ وجلّ به.

العاشرة:

من المحسنات البديعيّة في السورة:

(١) الطباق، في قول اللّه عزّ وجلّ في السورة: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ فالجمْعُ بين الذكر والأنثَىٰ فيه «طباق» وهو من المحسنات البديعية المعنَويَّة.

(٢) المقابلة، وهي طباقٌ مُتَعَدِّدُ عناصر الفريقين المتقابلَيْن.

فقولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ يُقَابِلُه قولُهُ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾ يقابله: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨﴾ «أعْطَىٰ» يقابلُهُ على الضدّ: «بخل» ـ «واتّقَىٰ» يقابله ما يلزم منه الضّدّ، وهو «وَاسْتَغْنَىٰ» إِذْ يلْزَمُ منه فكرياً طغيانه وعَدَم تقواه.

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ ... ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾.

فَمَعْنَى: «صَدَّقَ» يقابلُه: «كذَّب» ومعنى: «لِلْيُسْرَىٰ» يقابله: «لِلْعُسْرَىٰ».

الحادية عشرة:

تأكيد اسْتغْرَاق النفي بحرف الجرّ الزائد «مِنْ» في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩﴾.

وفي هذه الآيَةِ الْقَصْرُ الإضافي، أي وما لأحدٍ مِنَ الذين يَبْذُلُ لهم صَدَقَةَ ماله، وليس المقْصُودُ كُلَّ أَحَدٍ من الناس، ولا كُلَّ أَحَدٍ في الوجود.

هذا ما فتح اللّه علي باستخراجه، وقد يأتي من بعدي من يكتَشِفُ من بلاغيّاتِ السورة فَوْقَ هَذَا، واللَّهُ أَعْلَمُ.

❁ ❁ ❁

سُورَةُ الفَجْر

٨٩ مصحف ١٠ نزول



(١)

نصّ السورة وما فيها من قراءاتٍ من الفرش

سورة الفجر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ

---

٣ ـ ● قرأ حمزة، والكسائي وَخلف: [وَالْوِتْرِ] بكَسْرِ الواو.
● وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَالْوَتْرِ] بفتح الواو.
وهُمَا لغتان في الكلمة.

٤ ـ قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [إِذَا يَسْرِي] بإثباتِ الياء وصلاً.
● وقرأ ابن كثير، ويعقوب: بإثبات الياء وصلاً ووقفاً.
● وقرأ باقي القرّاء العشرة بحذف الياء وصلاً ووقفاً.
وهي وجوه من الأداء.

٩ ـ ● قرأ ورش: [بالوادِي] بإثبات الياء وصلاً. وحذفها في الوقف.
● وقرأ البزّي ويعقوب بإثبات الياء وصلاً ووقفاً.
● وقرأ قُنْبُل بإثباتها وصلاً، وروي عنه في الوقف روايتان: الإثبات والحذف.
● وقرأ الباقون بحذف الياء في الوصل والوقف.

فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴿٢٠﴾ كَلَّآۖ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾



١٦ ـ قرأ ابن عامر، وأبو جعفر: [فَقَدَّرَ] وقرأ الباقون: [فَقَدَر].

١٥ ـ ١٦ ـ ● قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [رَبِّيَ أَكْرَمَنِ ـ رَبِّيَ أَهَانَنِ] بفتح ياء المتكلّم. وقرأ باقي القرّاء العشرة بإسكان الياء مع مدّها، وأثبت ياء المتكلّم في [أَكْرَمَنِي ـ أَهَانَنِي] وصلاً نافع، وأبو جعفر. وأثبتها وصلاً ووقفاً البزّي ويعقوب. وحذف الياء في الوقف أبو عمرو، وله في الوصل الإثبات والحذف. وقرأ باقي القراء بحذفها مطلقاً.

١٧ ـ ١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠ ـ قرأ بياء الغائِبين في [يُكْرِمُون ـ يَحُضُّون ـ يأكلون ـ يُحبّون] أبو عَمْرو، ويعقوب. وقرأ بتاء الخطاب فيها: نافع، وابن كثير، وابن عامر. وقرأ باقي القراء العشرة [تُكْرِمُونَ ـ تَحَاضُّونَ ـ تأكلون ـ تحبُّونَ].

٢٥ ـ ٢٦ ـ وقرأ: [لاَ يُعَذَّبُ ـ وَلاَ يُوثَقُ] بالمبني للمجهول الكسائي ويعقوب. وقرأ الباقون بالمبني للمعلوم.

(٢)
ممّا ورد مما يتعلّق بالسورة

تعدّدت روايات الحديث الذي جاء فيه، أنَّ الرسول ﷺ قال لمعاذٍ رضي الله عنه، حين بلغه أنه يطوّل قراءته في إمامته للناس في الصلاة: «أفَتَّانٌ أَنتَ يا مُعَاذُ» وأرشده أن يقرأ من قصار السّور، مثل: «سبّح اسم رَبّك الأعلى - واللّيْلِ إذا يغشى -» وجاء في بعضها ذكر سورة «الفجر».



(٣)
دروس سورة «الفجر» ووحدة موضوعها

تشتمل سورة (الفجر) على أربعة دروس ضمن وحدة موضوع:

الدرس الأوّل:

يُقْسِمُ الله عزّ وجلّ فيه بأزمنةٍ جرَىٰ فيها إهلاك أُمَم من الأوّلين، بسبب كفرهم وطغيانهم، وتكذيبهم رسُلَ رَبّهم، والْقَسَمُ بهذه الأزمنة كناية عن الْقَسَم بصِفَاتِ عَدْلِهِ وانتقامه وجبروتِه، وانتصاره لأوليائه المرسلين والذين آمنوا بهم واتّبعوهم، بإهلاك الّذين عادَوْهُم وكادوهم وطغَوْا في الأرْض وبَغَوْا.

ويَدْخُلُ الْقَسَمُ بِالأَزْمِنَةِ في أساليب التعبير غير المباشر عن المقصود في الكلام.

وبعد الْقَسَمِ بِالأَزْمِنَةِ جاء ذِكْرُ بعض الأَقوام الذين أُهْلِكُوا فيها.

وجاء في آخر هذا الدرس بيانُ الْمُقْسَم عليه، وهو أنَّ الرَّبَّ الْعَدْلَ المنتقم الجبارَ الذي ينتصر لأوليائه، لَبِالمرصَادِ لكُلّ الأُمَمِ اللاَّحِقَةِ إلى أن تقوم الساعة، فمتَىٰ وصَلَتْ أُمّةٌ إِلَىٰ مثْلِ ما وصَلَتْ إليه الأُمَمُ الّتي سبَقَ

إهْلاَكُهَا أهلكَها اللَّهُ عزَّ وجلّ بحكْمَتِهِ وعَدْلِهِ، ضِمْنَ سُنَّتِهِ العامَّةِ الَّتي لا تَبْدِيلَ لها ولا تحويل.

وقد اشتمل هذا الدرس الأول على الآيات من الآية (الأولى) وحتَّىٰ غاية الآية (١٤).

الدرس الثاني:

يُبيّن الله عزّ وجلّ فيه أنّ الحكمة العظمىٰ من بَسْطِ الرزق لبعض عباده، وتضييقه وتقديره على آخرين من عباده، هو امتحان كُلٍّ منهما في ظروف الحياة الدنيا، لكِنَّ معظم الناس يخطئون في فَهْم المراد من بسط الرزق، فيتصَوَّرُونَ أنَّه إكرامٌ من ربّهم لهم، لأَنَّهُمْ يستحقّون هذا الإكرام لخصائص في ذواتهم، ويخطئون في فهم المراد من تضييق الرزق وتقديره عليهم، فيتصَوَّرُونَ أنَّهُ إهانةٌ من ربِّهِمْ لهم، وهُمْ لاَ يسْتَحِقُّون هذه الإهانة.

ويختم اللَّهُ هذا الدرس بزَجْرِ الفريقَيْن عن تصَوُّرِهِما المخالفِ للحقيقة بقوله لهم: ﴿كَلَّاۖ﴾.

وهذا الدرس الثاني من السّورة هو قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ فيها:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ﴾.

الدرس الثالث:

يوجّه الله عزَّ وجلّ فيه التوبيخ لذوي الأموال الذين يبْسُطُ اللَّهُ لهم الرزق، ليمتحنهم بالبذل لذوي الضرورات والحاجات في مجتمعاتهم كالبؤساء والضعفاء من اليتامى والمساكين، فلا يُؤدُّون ما يجب عليهم في أموالهم لدفع البؤس عن البؤساء، بل يبخلون ويشحّون، وهم مع بخلهم الشديد بما يجب عليهم بذْلُه، تتعلَّقُ نفوسهم بشَرَهٍ لحيازة الأموال الّتي

ليَسَتْ تَحتَ أَيْدِيهم من غير كدٍّ ولاَ جَهْدٍ، فيَترَقَّبُونَ مَوْت مُورِّثيهم، ليأكُلُوا التراثَ أكْلًا لمًّا، ويَسُرُّهُمْ ذَلِكَ ولَو كان الهالكون أحبَّ الناس إليهم، ويُحِبُّونَ المال حُبًّا جَمًّا أكْثرَ مِنْ حُبِّهم لِمُورِّثيهم، ولو كانوا من أقرب الناس إليهم، وحُبُّهُمُ الشديد للمال يجعلُهُمْ جَافِّي العواطف النبيلة، فلا يُشْعُرونَ بمشاعِرِ ذوي الضرورات والحاجات، ولا يُشَارِكُونَ الناس في آلامهم الناتجة عن الفقر والحاجة إلى المال.

ويختم الله عزّ وجلّ هذا الدرس بزجْرِ هؤلاء الباخلين، الذين يحبّون المال حُبًّا جمًّا، ويمنَعُونَ حقوق ذوي الحقوق في مجتمعهم، وهم مُتَحجِّرو القلوب، فلا تَنْدَىٰ بعاطفة كريمة، فيقولُ الله لهم: ﴿كَلَّآ﴾.

وهذا الدرس الثالث من السورة هو قول اللّهِ عزّ وجلّ فيها:

﴿..بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ..﴾.

الدرس الرابع وهو الأخير:

يَشْتَمِلُ عَلَىٰ عَرْضِ لَقْطَةٍ مِنْ أحداثِ مَا قَبْلَ يَوْمِ الدِّين، ولقَطَاتٍ مِنْ أحداث يَومِ الدين، رغْبَةً في استثارة نُفُوسِ من يريدُ الاستجابة لدعوة الحقّ من المتَلَقِّين، بوسيلتي الترهيب والترغيب، للإيمان بهذا الدين، والعمل بمطالب الله من عباده، في رحلة امتحانهم في ظروف الحياة الدنيا، ومن هذه المطالب ما جاء الاهتمام به، وإبرازه في السّورة من أفعال الخير، وهو الحثُّ على إكرام اليتيم، والحضُّ على إطعام المسكين، إذِ التَّعَاطُفُ والتَّراحُمُ الاجتماعيُّ منْ أَوْلَوِيَّاتِ السُّلُوكِ الدِّينيّ، بَعْدَ الإيمانِ باللّهِ والصَّلَاةِ له، والإخلاص له في الدّعاء والالتجاء.

واقترنَ بالحثّ على إكرام اليتيم، والحضّ على إطعام المسكين، التوجيه للتخفيف من تعلُّقِ النفوسِ بحُبّ الأموال حبًّا جمًّا، الذي يجعل

المتعلّق بها يبْخَلُ، فيمْنَعُ ما يجب عليه بذلُهُ، ممّا يضْمَنُ تكافل أفراد المجتمع وتضامُنَهُمْ.

موضوع السورة

فالسورة تدور حول إنذار المكذّبين برسالة الرسول ﷺ، وتحذيرهم من إهلاكٍ عاجلٍ في الحياة الدنيا، كما حصل لمكذّبي أهل القرون الأولى، وتَرهيبهم من عذابٍ مؤجّل إلىٰ يوم الدين، ويكونُ ذلك في جهنم دار عذاب المجرمين. معَ ترغيب المستجيبين لدعوة الرسول ﷺ في دخول جنَّة الله الّتي أعدها للمتقين فَمَنْ هم أعْلَىٰ مرتبةً منهم، وهم الأبرار والمحسنون.

واختير في السُّورة من أنواع السلوك الإسلاميّ المطلوب مع أوائل تنزيل القرآن توجيه العناية لقضيّة التكافل الاجتماعي، وضرورة حمل الموسّع عليهم في الرزق على أن يبذلُوا من أموالهم، لتحقيق هذا التكافل، ولدفع البؤس عن البؤساء، ومواساة الضعفاء، ورحمتهم بالعون والمساعدة. وفي توجيه العناية في هذه السُّورة لهٰذه القضيّة متابعة لما جاء في سورة (اللّيل) وخُطْوَةٌ مضافة إلى الخطوات الّتي جاءت حول هذا الموضوع في السُّوَرِ السابقة نزولاً، ضِمْنَ سُنَّة البناء المتدرّج في التعليم والتربية والتوجيه والنُّصْحِ والإرشاد.



(٤)
التدبُّر التحليلي للدرس الأول من السورة
الآيات من (١ ـ ١٤)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ

فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

القراءات:

● قرأ حمزة، والكسائيّ، وخلَفٌ: [وَالْوِتْرِ] بِكَسْرِ الواو، وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَالْوَتْرِ﴾ بفَتْحِ الواو، والْوَتْرُ والْوِتْرُ لغتان عربيتان في هذه الكلمة.

● وقرأ نافع، وأبو عَمْرٍو، وأبُو جَعْفر: [إِذَا يَسْرِي] بإثبات الياء وصْلاً. وقرأ ابْنُ كثير، ويَعْقُوب بإثبات الياء وصْلاً ووقفاً. وقرأ باقي القراءِ الْعَشْرَةِ بحذف الياء في الحالين.

وأصْلُ الفعل: «سَرَىٰ يَسْرِي» بإثبات الياء، فيقال لغة: سَرَىٰ اللَّيْلُ يَسْرِي، أي: مضىٰ يَمْضِي. ويقال: سَرَىٰ فلانٌ اللَّيلَ، وسَرَىٰ باللَّيْلِ: أي: قطَعَهُ بالسير. وحذفُ مثل هذه الياء من آخر الكلمة من لهجات العرب، وقد يُخْتارُ حَذْفُها لمراعاة القوافي والسَّجْعات. وحَسُنَ هنا في السورة حذفها لمراعاة رؤوس الآيات.

● وقرأ ورْشٌ: [بِالْوَادِي] بإثبات الياء وصلاً، وبحذفها في الوقف، وقرأ الْبَزّي ويعقوب بإثبات الياء وصلاً ووقفاً، وقرأ قُنْبَلٌ بإثباتها وصلاً، ورُوِيَ عَنْهُ في الوقف روايتان: الإثبات والحذف. وقرأ باقي القرّاء العشرة بحذف الياء في الحالتين: الوصل والوقف.

وحذف الياء في كلمة «الوادي» نظيرُ حذف الياء في كلمة «يَسْرِي».



المراد بالأزمنة التي أقسَم اللَّهُ بها في السورة:

(١) لم يَرِدْ عن الرسول ﷺ ما يدُلُّ على المراد من هذه الأزمنة الّتي أقْسَم اللَّهُ عزّ وجلّ بها، ولَسْنا مُلْزَمين بالآراء الاجتهاديَّة التي ذكرها أهْلُ التأويل.

(٢) وقد نَظَرْتُ فيما ذكره المفسّرونَ من أقوالٍ اجتهاديّةٍ، فلم أَجِدْ فيها قولاً يتضَمَّنُ مُناسبَةً بَيْنَ الأَزْمِنَةِ الّتي أقسم الله بها، وبين الحديث عن إهلاكِ عادٍ وَثَمُودَ وفِرْعَوْنَ وجنُودِهِ، فلم يَنْشَرِح صَدْرِي لقولٍ منها.

(٣) ثُمَّ تَتَبَّعْتُ في القرآنِ الأَزمِنَةَ الّتِي أَهْلَكَ اللَّهُ بها هَؤلاء الأَقْوَامَ وأشباههم، فَظَهَرَت المناسبةُ جَلِيَّةً واضحةً، وتَمَّ لدَيَّ بهذا الترابُطُ بَيْنَ الْمُقْسَمِ بِهِ، والْمُقْسَمِ عَلَيْهِ، والَّذِينَ أقْسَمَ اللَّهُ لتَأْكِيدِ إِنْذَارِه لهم بالإهْلَاكِ المعجّل في الدنيا.

وفيما يلي بيانُ هذا التتبُّع:

● لقد أهلك الله عزّ وجلّ عاداً قَوْمَ هودٍ عليه السلام بريحٍ صَرْصَرٍ عاتية، سَخَّرَهَا عليهم سبْعَ لَيَالٍ وثمانيةَ أيّام حُسُوماً، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾:

بِرِيحٍ صَرْصَرٍ: أي: بريحٍ باردَةٍ ذَات صَوْتٍ شدِيدٍ مخيف.

يقال لغة: صَرْصَرَ: أي: صَاحَ صِيَاحاً شديداً فيه صَرِيرٌ.

عاتية: أي: طاغيَة متجاوزة حدَّ الاحتمال، فهي مدمّرة، يقال لغة: عَتَا يعتُو عُتوّاً وعِتِيًّا وعُتيًّا، أي: طغىٰ واستكبر وجاوز الحدّ، فهو عاتٍ.

حُسُوماً: أي: متوالية متتابعة بالشرّ والتعذيب، فهي متوالية التدمير والتعذيب حتَّىٰ تَحْسِمَ مادَّتَهم وتقطَعَ أصلهم، وأصل الْحَسْمِ القطع، يقال: حَسَمَ الْعِرْقَ، أي: قَطَعَهُ وكواه لئلا يسيل الدّم منه.

ولفظ «حُسُوم» جمْعُ «حَاسِم» مثل: شاهد وشُهُود.

لقد كان إهلاكُ كفَّار عادٍ في ثمانية أيّام شَفْعٍ، وسَبْعِ ليالٍ وِتْر، ولا بُدَّ أنْ تكون قد بدأَتْ مع فَجْرِ اليوم الأوَّل منها، وانْتَهتْ مَعَ غُرُوبِ شَمْس اليومِ الثامن منها، فتكُونُ اللَّيالي بينهما سبعاً.

وجاء في النصّ تقديم اللّيالي على الأيّام، لأنَّ اليوم الأَخير اسْتَمَرَّتِ الرِّيح العاتية فيه بعد انتهاء اللّيالي، ولأنّ الإرْهابَ بِالبدْءِ بذكْر اللّيْلِ أَشَدُّ، ولأنّ الفجْرَ الّذِي بدأ عنده تَسْخِيرُ الريح الصَّرْصَرِ العاتية قَدْ كانَ عَقِبَ اللَّيْلِ السَّابقِ لَهُ مُبَاشَرَةً، فأَدَوَاتُ الإهْلاَلِ جاهزَةٌ مُعَدَّةٌ من اللَّيْل.

● وأهْلَكَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ ثَمُوداً قَوْمَ صَالِحٍ عَلَيْهِ السلام بالصَّيْحَةِ مُصْبِحينَ، أي: عند الفجر، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

وهكذا كان بَدْءُ إهلاك ثمود قوم النبيّ صالحٍ عليه السلام في وقْتِ الفجر، فاستحَقَّ أن يُقْسِمَ اللَّهُ بِهِ، كِنَايَةً عن صفات عَدْلِهِ وانتقامه وانتصاره لرُسُلِه والذين آمَنُوا معهم، باعتبار أنّه الوقْتَ المختار للبدْءِ بتوجيه أدوات الإهلال والتدمير.

الحِجْر: أرض ثمود التي كانوا يسكنُونها: وهي ظاهرة معروفة في طريق المسافر من المدينة إلى تبوك.

● ومن غير المذكورين في السُّورة هنا نُلاحظُ أنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ قَدْ أهْلَكَ قَوْمَ لُوطٍ مُصْبِحينَ، أي: بدأ بتوجيه أدوات إهلاكهم وتدمير بلدانهم، وجعل عاليها سافلها، في وقْتِ الْفَجر.

قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ بِشَأْنِهِمْ حكايةً لمقالة الرُّسُلِ من الملائكة المرسلين لإهلاكهم، لرَسُولِهم لُوطٍ عليه السلام، في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

وقال الله تعالىٰ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) بشأن لوطٍ عليه السلام وقومه:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: في وقْت دخولهم في الصَّبَاحِ. **الصباحُ**: أوَّلُ النهار، وبدْؤُهُ يكُونُ عِنْدَ الفجر. فَبَدأ تَعْذِيبُهُمْ مع الفَجْر، واسْتَمَرَّ حَتَّىٰ شُرُوق الشمس، فلَمَّا أشرقَتْ الشَّمْسُ أخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ الْمُهْلِكَة، وقَلَبَ اللَّهُ بلادَهم عالِيَها سافلها، كما قال الله تعالَىٰ في سورة (الحجر) أيضاً:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾:

السِّجيل: الطين المتحجّر.

● وسار بنو إسرائيل في ليالِ عَشْرٍ مِنْ أوّل المحرَّم فارّينَ من فِرْعَوْن

وَجُنُودِهِ، واتَّجَهُوا مِنْ مَساكِنِهِمْ عِنْدَ النّيل مُتَّجهِينَ شَطْرَ البَحْرِ الأَحْمَرِ[1]، فلمّا علم بأمرهم فرعون جَنَّدَ جيشهُ ولحقَ بهِمْ، حتَّىٰ تَراءىٰ الجمعان مُشْرِقين، أي: في وقْتِ شروق الشمس.

وذُعِرَ بنو إسرائيل من جَيْشِ فِرْعَوْنَ بعَدَدِهِ وعُدَّتِهِ، ورأَوْا أنَّهم مَحْصُورون بين عدُوِّهم والْبَحْر.

وكادت المواجهة القتاليّة تحدُثُ، ولعلّ اليوم قد كان التاسع من شهر المحرّم، وحطّ الجيش الفرعونيُّ رحالَهُ استعداداً لقتال الإسرائيليين من غدٍ، والإسرائيليُّون لا مَهْرَبَ لهم إلاّ أن يخوضوا البحر، والهلاك مُحَقَّقٌ فيه لمن خاضه في تصَوُّر فرعون وجيشه، وفي تصَوُّر عامَّةِ الإسرائيليين المذعُورين.

وأمر الله موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر، فأرسلَ ريحاً باردة شديدة، فشقت البحْرَ، وفلَقَتْهُ إلى شِقَّيْنِ، فكان كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العظيم، وجعلَتْهُ جليداً يابساً في مكان الفرق للْعُبُور[2].

ودخل موسى وهارون عليهما السلام، ومعهما بنو إسرائيل يَعْبرُون

---

(١) جاء في سفر الخروج (١٢) فقرة (٢٧) أنّ بني إسرائيل ارتحلوا من مَدِينَةِ «رَعَمْسِيس» وجاء في قاموس الكتاب المقدّس أنَّ موقعها الآن مدينة «صالحجر» أو «صان الحجر». والبحر الأحمر هو الذي ورد باسم بحر سوف في سفر الخروج.

(٢) جاء في الإصحاح (١٤) من سفر الخروج عند أهل الكتاب ما يلي:
٢١ ومدّ موسىٰ يَده على البحر، فأجرى الرّبُّ البحْرَ بريحٍ شرقيَّةٍ شديدَةٍ كُلَّ الليل، وجعل البحر يابسَةً وانْشقّ الماء ٢٢ فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة، والماءُ سورٌ لهم عَنْ يمينهم وعن يسارِهم، ٢٣ وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم، جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى وسط البحر ٢٤ وكان في هَزِيعِ الصبح أنَّ الرّبَّ أشْرَفَ على عسكر المصريين في عمود النار والسّحاب وأزعَجَ عَسْكَرَ المصريّين ٢٥... فقال المصريّون نهرب من إسرائيل. لأنّ الربّ يقاتل المصريّين عنهم. ٢٦ فقال الربُّ لموسى مدّ يدك على البحر ليرجِعَ الماءُ على المصريين على مركباتهم وفرسانهم ٢٧ فمَدَّ موسى يده على البحر فرجع البحْر عند إقبال الصبح إلى حاله الدّائمة.

البحر، وهالَ فرعونَ وجنُودَه أن يفْلَتَ الإسرائيليّون من أيديهم، وأوهموا أنفسهم أنّ الحدث قد كان ظاهرةً طبيعيَّةً تجمَّدَ بها الماء، ولم تكُنْ معجزةً ربَّانيَّةً منحها الله لموسى عليه السلام، فتبعوهم ليلاً، ودخَلُوا وراءهم مكابرين من حيث دخلوا، وانتهىٰ خروج أواخر بني إسرائيل قُبَيْلَ الفجر، واستكمل فرعون وجنوده الدخول في مكان الفَرْقِ من البحر، ملاحقين بني إسرائيل، والبحْرُ جامِدٌ ساكن، وأمَرَ اللَّهُ مُوسَىٰ أن يترُكَ البحْرَ رَهْواً، أي: ساكناً متجمّداً عند مكان العبور، إغراءً للعدوّ الملاحق، ثمَّ أمر الله موسىٰ أَنْ يضْرِبَ بعَصَاهُ البحر، فضربَهُ فذابَ الجليد، والتأم الماء، وغَرِقَ الجيشُ الملاحِقُ كُلُّهُ عند الفجر.

وكانت أحداثُ هذه اللّيالي العشر من أول المحرّم حتَّىٰ العاشر منه، الذي هو يوم الإنقاذ لبني إسرائيل، والإهلاك لفرعون وجنودِه أحداثاً عظيمة تَسْتَحِقُّ أن يُقْسم الله بها، كناية عن صفاتِ عدله، وانتقامه وانتصاره لرُسُلِهِ والَّذِينَ آمَنُوا معهم، باعتبارها الزمن المختار لتحقيق سنّةِ الله التي لا تبديل لها ولا تحويل.

ومن هذا التتبُّع ندركُ أنّ الْفَجْرَ هو الوقْتُ المختار من العزيز الجبار لبدء توجيه وسائل إهلاك عادٍ، وثمود، وقوم لوطٍ، وفرعون وجنوده.

فهذا الوقت جديرٌ بأن يُقْسِمَ الله به، على تقدير أنّ القسم به هو قَسَمٌ بحكمته في مقادير جزائه وعقابه المعجّل لمستحقّي العقاب في كثير من وقائع إهلاكِهِ لكفّار أهل القرون الأولىٰ.

وبالنظر في نُصوص القرآن نلاحظ أنّ إنْزال البأسِ وإجراء الإهلاك أو التعذيب بَيَاتاً، أي: حين دخول الناس في الليل، ولا سيما في أواخره مع دخول الفجر، أو حين قيلولة الناس وسكونهم بعد الظهر هو السُّنَّةُ المفضّلة في مقادير الله للإهلاك، وقد يكون في وقْتِ الضحىٰ وهم يلعبون.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾﴾:

بياتاً: أي: وهم داخلون في اللّيل، وربّما يكونون نائمين فيه.

قائلون: أي: وهم نائمون في وقت القيلولة.

وقال الله عزّ وجلّ فيها أيضاً:

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

• ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾﴾: قَسَمٌ بِوَقْتِ انْبِعَاث نور الصبح لانتهاء اللّيل وبَدْءِ النهار. وهو الوقت الذي بدأ فيه إنْزَالُ بأس الله، لإهلاك عَدَدٍ من الأمم الّتي كذَّبَتْ رُسُلَ رَبّها، وطغَتْ وبَغَتْ، كما سبق بيانه.

• ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾ هي فيما ظهر لي العشر الأوائل منْ شهْرِ المحرَّم، الّتي سار فيها بنو إسرائيل بقيادة موسى وهارون عليهما السلام، خارجين من مصر في اتّجاه البحر الأحمر إلى سيناء، كما سبق بيانه، وقد أقسم الله بها.

وحذفت الياءُ من ليالي للتنوين، تخلُّصاً من اجتماع ساكِنَيْن كما هي القاعدة.

• ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾﴾: **الشّفْعُ** في اللّغَةِ: مَا كانَ عَدَدُه زَوْجاً. **والْوَتْر**: مَا كان عددُه فرداً. وقد ظهر لي أن المراد سبْعُ اللّيالي وثمانية الأيّام التي أهلك الله فيها عاداً بريحٍ صَرْصَرٍ عاتية، سَخّرَها عليهم متتابعةً حُسُوماً، وقد أقسم الله بها، كما سبق بيانه.

• ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾: إِذَا يَسْرِي بإثبات الياء أو حذفها، أيْ: إِذَا

يَمْضي شيئاً فشيئاً، إِذْ قَدْ يكُونُ هو الوقْتَ المختار لإنزال بأس الله في الذين يقضي اللّهُ بإهلاكهم من أُمَمِ الكُفْرِ، وكم من قَرْيَةٍ كَفَرَ أَهْلُهَا وَظَلَمُوا وطَغَوْا وَبَغَوْا فجاءَهُمْ بَأْسُ اللَّهِ بَيَاتاً، وهم نائمون ليلاً.

يَسْرِي: أي: يمضي. وقد يكون من فعل «سَرَىٰ فلانٌ يَسْرِي» إذا مَشَىٰ ليلاً، وجاء وصف اللّيل هنا بأنّه يَسْرِي على معنَىٰ أَنَّهُ يُسْرَىٰ فيه، كما يقال: نهارُهُ صائم، ولَيْلُهُ قائم.

وهذا من المجاز العقلي، كما يقولُ كثيرٌ من علماء البلاغة، إذ جاء فيه إسناد الفعل إلى زمن فعلِ الفاعل، لا إلى الفاعل نفسه[1].

وفي الْقَسَم باللّيل إذا يَسْرِي إشارةٌ إلى تَبْييتِ الله الناس بالعذاب، إذا حَقَّتْ عليهم كلمةُ العذاب، لأنَّ اللَّيل هو الوقْتُ الذي يكثُرُ اختيار اللّهُ له، ولا سيما أَواخِرُهُ، ومَعَ انبعَاثِ الْفَجْرِ، لإِنْزَالِ العذاب وإِهْلاكِ مَنْ قَضَىٰ اللّهُ بإهلاكِهِمْ.

وفي هذا الْقَسَمِ وَعيدٌ للمجرمين المكذبين برسالة رسول اللّهِ، الَّذِين يعْمَلُونَ على اضطهَادِ المؤمنين وتَعْذِيبهِمْ والإفساد في الأَرْض، بأَنَّهُمْ يُعَرِّضونَ أنفُسَهُمْ لإِنْزَالِ عقابِ الله فيهم، وإهلاكهم كَمَا أَهْلَكَ نُظَراءَهم من مُجْرِمي القرون الأُولَىٰ.

ودلَّ على الوعيد استعمال لفظ «إِذَا» في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾ فهو ظرفٌ لما يُستقبَلُ من الزمن.

أي: فَسُنَّةُ اللّهِ في تبْييت الْمُجْرمين بالمعذِّبات والمهلكات سُنَّةٌ ثابتَةٌ، يجري تنفيذها كلَّما قَضَتْ حكمةُ اللّهِ بإهلاك مجرمين لاحقين، إلى أَنْ تقومَ

---

(١) انظر «تقسيم الإسناد في الجملة إلى حقيقي ومجازي» في كتاب: «البلاغة العربية» للمؤلف ج(١) ص(١٩٤).

السَّاعَة، فتسْرِي وسائل وأدواتُ الإهلاك ليْلاً، كالرّيح المدمّرة، والبراكين المتفجّرَة، والزلازل الْمُحْدِثَةِ للخراب، والفيضانات الآتيات بالعذاب، والنيران المحرقة، والسُّيول المغرقة، فيَصُبُّ اللَّهُ بها عذابَهُ على المجرمين، أثناء اللَّيْلِ، أوْ مَعَ الْفَجْرِ والإصباح، وعند الشروق وهم نائمون.

إنَّ الْقَسَمَ بأحداثِ إهلاكٍ سبقَتْ، وأحداثِ إهلاكٍ يُنْذِرُ اللَّهُ بإيقاعها مستقبلاً على المجرمين، قَسَمٌ بأمْرٍ عظيمٍ مُخِيفٍ، مَهُولٍ جدًّا، وهو يُنَبِّهُ ذَا الحِجْرِ على الخطر العظيم، فيجعله يَحْجُرُ على أهوائه وشهواته وَكِبْرِهِ وكلِّ نوازِغِهِ وَنَوَازِعِهِ الجانِحَة، بإرادة عاقلَةٍ رشيدة، فَيُؤْمِنُ باللَّهِ وَبرُسُلِهِ، وبكُلِّ ما جاء عن اللَّهِ من بيان وتكليف، ويؤمِنُ بالجزاء وبيومِ الدِّين، ويتَّبِعُ سبيل الْهُدَىٰ ضِمْنَ حُدُودِ استطاعَتِه.

● ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥﴾:

الحِجْرُ: هو العَقْلُ، وسُمِّيَ حِجراً لأنَّهُ يَحْجُرُ أهواءَ صاحِبِهِ وغَرَائِزَه وشهواته، ويَعْقِلُهَا بإرَادَةٍ قَوِيَّةٍ حازمَةٍ عاقِلةٍ رشيدة، حتَّىٰ لا تَسُوقَهُ إلى الموبقات، وتدفَعُ به إلى المهالك.

«هل» حرفُ استفهامٍ موضوعٌ للتَّصْدِيقِ الإيجابيّ(١).

والاستفهامُ هنا خارجٌ عن حقيقته وهو طلبُ الفهم، والغرض منه هنا التقرير، ويُسمَّىٰ عند البلاغيين استفهاماً تقريرِيّاً، والمرادُ به حمل المخاطب على الإقرارِ والاعترافِ بأمْرٍ يعْلَمُهُ، أو يَشْعُرُ به.

فذو الْحِجْرِ يقول: إنَّ الْقَسَمَ بأزمِنَةِ إهْلَاكِ اللَّهِ العزيزِ الجبّارِ

---

(١) **التصديق**: هو إدراكُ النسبة الحكميّة في الجملة، فلا يستفهم بحرف «هل» عن المفرد، **والإيجابي**: ضدُّهُ السلبي وهو المنفي، فلا يصحُّ أن يقال: هل لم يأتِ العيد، ولا هل لم يُرَ هلال شوال، بل تستعمل الهمزة في الجملة المنفية.

للمجرمين سابقاً ولاحِقاً قَسَمٌ عظيمٌ مَهولٌ، فيه وعيدٌ شدِيدٌ، لِمَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لدَعْوَةِ الْحَقِّ، ولم يَتّبِعْ صِرَاط الله المستقيم، الذي جاء به دِينُ الله للناس أجمعين.

وقد أقْسَمَ الله عَزّ وجل بهذه الأزمنة توطئةً لعَرْضِ إهلاكه لعادٍ وثمود وفرعون وجنوده، تحذيراً للمشركين في عصر الرسول محمد ﷺ، من أن يُنْزِل اللّهُ بهم مِثْلَ ما أنزل بالذين سلفوا، إذا وصلوا إلى مثل الحال الّتي وصلَ إليها السابقون المهلَكُون.

❁ ❁ ❁

● ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾؟!.

الاستفهامُ هنا خارجٌ عن أصل دلالته، وهو طَلَبُ الإفْهَامِ أو الإعلام، والمراد به التقريرُ، أو التلويمُ والإنكار، وهو موجَّهٌ للمكذّب الجاحد المنكر لرسالة الرسول.

فعلى معنى التقرير يُرادُ بالاستفهام حمْلُ المخاطَب على الإقرار والاعتراف بعلمه بما فعل الربُّ جلَّ جلالُهُ بهؤلاء القوم.

وعلى معنى التلويم والإنكار فالمرادُ به تحميله مسؤوليَّةَ المؤاخَذَةِ على عَدَمِ اتّعاظه بما يَعْلَمُ من سُنَّةِ اللّهِ في إهلاك الكافرين المكذبين، المعاندين المجرمين العاملين على قَمْعِ دعوات رسل الله، واضطهاد الّذين آمَنُوا بهم.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾؟: أي: ألم تَعْلَم، فالرُّؤيَةُ على هذا رؤيَةٌ علمية. ولا مانع من حَمْلِهَا على الرُّؤية البصرِيَّةِ أيضاً إشارة إلى أنّ بإمكان الرائي أن يَرَىٰ أرضهم وديارهم، ويَشهَدَ ما حلَّ فيها من دمار واعظٍ لمَنْ أرادَ أنْ يَتَّعِظ. وعَادٌ قبيلة من القبائل العربيّةِ البائدة، وهم من ذُرِّيةِ من نجا مع نوحٍ عليه السلام، وهي مسمّاة باسم جدِّها عاد.

﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾: إِرَم: اسم بلاد عادٍ، وإِرَم: هو في الأصل اسمُ جدِّ عاد، فهو كما يذكرُون واللَّهُ أعلَمُ: عادُ بْنُ عُوص بن إرَم بن سام بن نوحٍ نبيّ اللَّهِ ورسوله عليه السلام.

وأُطْلِقَ لفظ «إِرَمَ» على قبيلةٍ مِنها عادُ الأولى، وهي منْحَدِرَةٌ من جدِّها: «إرم بْنِ سَام». وهي قبيلةٌ من قبائل الْعَرَبِ البائدة، وهذه هي المرادة هنا.

وتوجد «عادٌ» ثانيةٌ، يقالُ: إنَّها مَنْ بَقِي من عاد الأولى، وهم ذُرّية من آمنوا بهُودٍ عليه السلام، أو من كانوا بعيدين عن مواطن إهلاك قومهم.

وجاء وصف «إرَم» بأنّها ذات العماد، إشارة إلى أَنَّهُمْ كانوا يقيمون مساكنهم على أعمدة.

و ﴿ذَاتِ﴾ إمّا وصْفٌ للبلاد، أو وصفٌ للقبيلة، فعلَىٰ أَنَّها وصف للبلاد، فالمعنى أنّ بلاد إِرَم هي البلادُ ذاتُ العِمَاد، أي: المتميّزةُ بهذا الوصف. وعلى أنها وصف للقبيلة، فالمعنى أنّ قبيلة إرمَ قبيلة مشهورة ومعروفة في زمانها بأنها ذات العماد.

﴿ٱلْعِمَادِ﴾: لفظة تأتي بمعنى الخشبة الّتي تقوم عليها الخيمة، فهي على هذا مفرد، وتأتي جمعاً للعِمَادَةِ، وهي الأبنية المرتفعة، وأهْلُ الْعِمَادِ هُمْ أصْحَابُ الأَبنيَةِ العالية الرّفيعة، وهذا الْمَعْنَىٰ هو المعنىٰ الملائم الذي جعل قبيلة إرَم تَتَمَيَّزُ بين قبائل عصرها بأنّها ذَاتُ العماد، إذْ جاء التعريف بـ «أل» في العماد، لبيان تميُّزِها وَتَفَوُّقِها بأبنيتها العالية الرفيعة بين القبائل الساكنة في البلاد العربيّة.

وربما كانت متفوقة بارتفاع أعمدة خيامها والله أعلم.

ولا أساس للأساطير التي يرويها القصَّاصُونَ عن مساكن عادٍ في الأحقاف[1].

---

(١) تقع الأحقاف في مكانٍ من الربع الخالي الآن في شبه الجزيرة العربية.

● ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾: قال المفسّرون: الضمير في: ﴿مِثْلُهَا﴾ يعود على «عاد» التي يُطْلَقُ عليها أيضاً لفظُ: «إرَمَ»، أي: لم يُخْلَقْ مثل قبيلة عادٍ في بلاد الدُّنيا، لأنّهم كانوا طِوالاً أشدّاء أقوياء، أو في البلاد العربية، والأوّل أظهر والله أعلم.

● ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾: وَقُرِئ في المتواتر [بِالْوادِي] بإثباتِ الياء المحذوفة اختصاراً ولمراعاة رؤوس الآيات، في قراءة من رواها بالحذف.

[ثَمود] هم قوم النبيّ الرسول صالحٍ عليه السلام، وهي قبيلةٌ عربيّة من القبائل البائدة. وكانت مساكنهم في وادي القُرى، الذي فيه مداين صالح المعروفة، وفيها آثارٌ باقية.

﴿جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ﴾: أي: قَطَعُوا الصَّخر، يقال لغة: جَابَ فُلانٌ الشيْءَ، أي: قطعه، ويُطْلَقُ على قطْعِ وسَطِ الشَّيْءِ. وعلى خَرْقِه. ويقال: جابَ الصَّخْرَ، أي: نَقَبَهُ.

وآثار «ثمود» في مداين صالح تَدُلُّ على أنّهم كانوا ينقبون الجبال، ويتّخذون لأنفسهم فيها بيوتاً.

● ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾: أي: وفرعون ذي المباني العظيمة التي تُشْبه الأوتاد (أي: الجبال) وقد كان للفراعنة اهتمامٌ ببناء الأهرامات التي تشبه الجبال في ارتفاعها، وقد يكون التعبير كناية عن قوّته وتمكُّنِهِ في سلطانه.

وجاء هنا ذكر «فرعون» دُون ذكر قومه، إشارةً إلَىٰ أنّه استخفَّ قَوْمَهُ فأطاعوه، فكان هو كُلَّ قومه، إذْ كانوا بمثابَةِ الملْحَقِين بأطرافه، فلا أَمْرَ إلاّ أَمْرُه، ولا رأيَ إلاّ رأيُه.

● ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢﴾:

هذا وصْفٌ لعادٍ وثمودَ وفرعَوْنَ وقَوْمِهِ، فكُلٌّ هؤلاء قَدْ طَغَوْا في البلاد، وأكْثَروا فيها الفساد، بظُلْمِهم وعدوانهم وسَيِّئَاتِ أعمالهم.

الطغيان: تجاوُزُ الحدّ المقبول أو المحتَمَل، إلى مستوى الإضرارِ الفاحش والإفساد الكثير، والظُّلْم والجَوْر والبغي والعدوان.

يقال لغة: طَغَىٰ يَطْغَىٰ طَغْياً وطُغْيَاناً، أي: جاوز الحدّ المقبول، وطغى الماء، إذا فاض وتجاوز الحدَّ فأفسد.

الفساد: التلَفُ، والعَطَبُ، وتحوُّلُ الشيء من كونه صالحاً نافعاً، إلى كونه غير صالح ولا نافع، بل رُبَّما يصيرُ ضارّاً كريهاً مفسداً للأشياء الصالحة. يقالُ لغة: فَسَدَ اللَّحْمُ إذا أنْتَنَ وصارَ ضارّاً، وكذلك كلُّ شيءٍ يتحوّلُ إلى كونه مؤذياً أو ضارّاً فقد فَسَد.

● ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾:

يقالُ لُغَةً: صَبَّ فُلَانٌ الماءَ على الأَرْضِ مثلاً، إذا سكَبَهُ وأَفْرَغَهُ دُفْعَةً واحدة من الإناء الذي هو فيه. فالصَّبُّ جعْلُ الشَّيْءِ يتهاوىٰ من عُلْوٍ بتتابُعٍ على أكثر ما لديْهِ من انْدِفاع وسُرْعَةٍ.

والسَّوْط: هو ما يُضْرَبُ بِهِ منْ جلْدٍ للتَّعذِيب.

في هذه الآية استعارة فِعْلِ «صَبَّ» للدلالة على إنزالِ العذاب بتتابُعٍ وعُنْفٍ كما يُصَبُّ الماء من الإناء علَىٰ رؤوس الذين يُصَبُّ عليهم، واسْتعارةُ لفظ «سَوْطٍ» للأدوات الرّبّانيّة الّتي أهلَكَ اللَّهُ بها هؤلاء الأقوام، إذْ شُبِّهَ إنْزَالُ العذَاب عليهم بتتابُعٍ بحركَةِ الصّبِّ، وَشُبِّهَتْ أَدَواتُ التعذيب الرّبّانيّة بالسَّوْط. وأضيفَ لفظ «سَوْطٍ» إلى كلمة «عَذَابٍ» لبيان أنْ إهلاكهم لم يكُنْ مجرَّدَ إماتَةٍ لم تقْتَرن بشُعورِهِمْ بآلَامِ العذاب النازل عليهم، بل كانت مقرونةً بإذَاقتهم عذاباً شديداً.

وبهذا استكْمَلَتِ الصورَةُ تعبيراتها المقصودة بالبيان.

هذا أوّلُ عَرْض قرآنيٍّ نَزَل بشأن إهلاكِ أُمَمٍ ماضيَةٍ كذّبت رُسُلَ ربّها، وطغت في البلاد، وأكثرت في الأرض الفساد، وهو عرضٌ موجزٌ غاية الإيجاز، ثمّ نزلت في القرآن بعد هذا تفصيلاتٌ متتابعاتٌ، كلٌّ منها يلائم المناسبة التي ورد بشأنها.

● ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾:

هذا هو الْمُقْسَمُ عليه في السورة، إذْ بدَأَتْ بالْقَسَمِ بالفجر، وليالٍ عشر، والشَّفْعِ والوَتْرِ، واللَّيْلِ إذا يَسْرِ.

الْمِرْصَادُ: هو مَكانُ الرَّصْدِ أو طريقُه، الرَّصْدُ هو المراقبةُ التامَّةُ لأمْرٍ ما، دون سَهْوٍ أو غفلة، لئلا تَمُرَّ لحظات يفْلَتُ فيها المرصودُ ويخْرُجَ عن سَاحَةِ المراقبة.

فراصِدُ النجم يُتابعُ حركَته وظهوره واختفاءه، والأسَدُ يرصُدُ فريسته، والْحُرّاسُ يَرْصُدُون الطرقات من حولهم يترقَّبُون، حتَّىٰ لاَ يُداهِمَ المحروسَ عدُوٌّ أوْ لِصٌّ.

وهذا التّعبير القرآنيُّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ كنَايَةٌ عَنْ مُرَاقَبةِ اللَّهِ للمجرمين دواماً، في كلّ الأزمانِ حتَّىٰ أقْصَرِ وَحَدَاتِها وأصغرها، مع شمولِ عِلْمِه لكلّ حركةٍ وسَكَنَةٍ من حركاتهم وسكناتهم، وبما أنَّهُ حكيمٌ عَدْلٌ مُنْتَقِمٌ جبَّارٌ، ولَهُ سُنَّةٌ في عبادِه ثابتَةٌ لاَ تبديلَ لَهَا وَلا تحويلَ فيها، كما جاء التصريح به فيما نزل من قرآنٍ بعد هذا في عِدَّة سُوَر، فإنَّهُ سيُنْزِلُ عذابَهُ وإهلاكَهُ على المجرمين اللاّحقين، كما أنزله على المجرمين السابقين.

وفي هذا إلماحٌ إلى إنذارٍ ووعيدٍ بعذابٍ وإهلاكٍ لكلِّ المجرمين، متَىٰ وصلَتْ حالتهم إلى مثل الحالة التي وصل إليها المعذّبون المهلكون الغابرون.

(٥)
التدبُّر التحليليّ للدرس الثاني من السورة

الآيتان: (١٥ و ١٦) وكلمة «كلّا» من الآية (١٧)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ...﴾.

القراءات:

● وقُرِئ: [أكرمَنِي] بإثباتِ ياء المتكلم. وقُرِئ: [أَهَانَنِي] أيضاً بإثبات ياء المتكلم.

● وقُرِئ: [فَقَدَّرَ عَلَيْهِ] بتَشْدِيد الدّال. وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، إذْ من النّاسِ مَنْ يضَيِّقُ اللَّهُ عليه الرزْقَ تضييقاً غَيْرَ شدِيدٍ، وقد دلَّت على هذا قِرَاءَةُ: [قَدَرَ] ومن الناس من يُضَيِّقُ اللَّهُ عليه الرّزْقَ تضييقاً شديداً، وقد دلَّتْ على هذا قَراءَةُ [قَدَّرَ] بتشديد الدال، إذْ زيادة المبنىٰ بالتضعيف هنا تَدُلُّ على الزيادة في المعنى.

يُقَالُ لغة: قَدَرَ اللَّهُ على فُلاَنٍ الرّزْقَ، وَقَدَّرَهُ، إذا ضيَّقَهُ وقلَّلَهُ عَنْ حاجته وحاجَةِ عياله، وهذا أحد معاني هذا الفعل.



تمهيد:

في هذا الدرس بيان خطأ النّاس في مفهوماتهم حول قضيَّة بسْطِ الله الرزق على بعض عباده، وَتضييقه الرّزق على آخرين، مع بيان حكمة الله في ذلك، وهي ابتلاء كلِّ فريقٍ منهما بما يلائم خصائصه النفسيَّة التي فَطَرهُ الله عليها.

وقد يمتحن الله بعض عباده بالتضييق فالبسط، أو بالبسط فالتضييق، وقد يجعل بعض عباده يتقلَّبُ بين البسط والتضييق.

وامتحان الإنسان مُتَابَعٌ برَصْدِ تصرُّفاته الكواشِف لبواطنه، وتسجيلها عليه، تمهيداً لمحاسبته فمجازاته يوم الدين.

إنّ الامتحان ببسط الأرزاق والسَّعَةِ في امتلاك الأموال، أو بتَضييقها وتقليلها، امتحانٌ صعْبٌ، وهو من أكثر الامتحانات كشفاً لكوامن النفوس، ولتوجُّهِ الإرادات الحرَّةِ في اختياراتها الدافعات إلى السَّيْر في طريق الخير، أو السَّيْر في طريق الشر، أو التردُّد بينهما في مسيرة الحياة، أو الانحراف ثم الاستقامة، أو العكس.

وفي هذا الدرس من سورة (الفجر) متابعة لسلسلة الحديث عن الأموال، وواجب الإنسان الممتحن في الحياة الدنيا تجاهها، الّذي تعرّضت له سُوَرُ «العلق، والمدثر، والأعلى، واللّيل» فيما سبق من تنزيل.

- ففي سورة (العلق) جاء بيان أنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى.

- وفي سورة (المدّثر) جاء بيان أن من أسباب التعذيب في سقر يوم الدين عدم إطعام المسكين.

- وفي سورة (الأعلى) جاء إلماح ضمني إلى حرص الناس على المال وشُحّهم به، ضمن قضيّةٍ عامّة، وهي بيان أنّهم يؤثرون الحياة الدنيا.

- وفي سورة (الليل) برز التَّوجيه بقوّة للعطاء الماليّ، المبني على قاعدة الإيمان بالله واليوم الآخر، والتحذيرُ من البخل وإمساك المال عن مستحقّيه.

❀ ❀ ❀

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾:

الفاء في: ﴿فَأَمَّا﴾ دلّت على أنّ ما بعدها مفرَّع عن شيءٍ جاء بيانه في الدرس الأول من السُّورة.

وبالتأمُّل يظهر لنا أنّ قول الله عزّ وجلّ في آخر الدرس الأول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ دلَّ على أنّ الناس لو لم يكونوا موضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان لَمَا كان اللَّهُ لهم بالمرصاد.

وكون الناس موضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، يقتضي أنْ يكونوا ممتحنين بقضيّة بَسْطِ الرزق وتوسعته، أبو بتضييقه وتقليله، وذلك بحسب خصائصهم النفسيّة الّتي فَطَرَهُمُ اللَّهُ عليها، ضِمْنَ أمُور كثيرة جدًّا امتحنهم الله ويمتحنُهُمْ بها، ولكنَّ البيان هنا وجَّهَ العناية لقضية الأرْزاق لأهمّيتها عند الناس، وللحاجة إليها دواماً، ولأنّ بذل المال ابتغاء مرضاة الله من المطالب الأولى في سلوك الإنسان المؤمن المسلم، ويأتي بعد الصلاة لله مباشرة.

أي: فتفريعاً على كون الناس ممتحنين بكُلِّ عطاءٍ من اللَّهِ أَوْ مَنْعٍ في ظروف الحياة الدنيا، يُشَاهِدُ المتتبّع الخبير أَنَّ الناسَ غافلون عن حكمةِ اللَّهِ في ابتلاء الناس، ويتوهَّمُونَ أَنَّ توسعةَ الرزْقِ لبعض الناس تكريمٌ من اللَّهِ لهم، وأَنّ تضييقه على بعض عباده إهانَةٌ من اللَّهِ لهم.

وكلمة: [أمَّا] حَرْفٌ فيه معنى الشرط والتوكيد دائماً، وفيه معنى التفصيل غالباً، وتُكرَّرُ كثيراً حينما تحمل معنى التفصيل، كما جاء هنا في السورة.

إنّ الحكمة من الْبَسْطِ والتَّضْيِيقِ هي الابتلاء، أي: الامتحان والاختبار. لكِنَّ الإنسان أخطأ الفهْمَ عن الله، وأخطأ في تعليل تصاريفه في خَلْقِهِ، فأَبْعَدَ عن ذِهْنِهِ حِكْمَةَ الامتحان وقَدَّمَ من تَوَهُّمِهِ تَعْلِيلاً تفصيليًّا آخر، فزعَمَ أَنَّ بَسْطَ الرِّزقِ تكريمٌ من اللَّهِ لعَبْدِهِ، وأَنَّ تَضْيِيقَهُ إهانَةٌ من الله له.

وكلا التوهُّمَيْنِ باطلٌ يَسْتَحِقُّ صاحبُهُ عليه الزَّجْر والرّدْعَ.

والمرادُ من الإنسانِ الجنسُ الَّذي ينطَبِقُ على معظم أفراده، ولا يُرادُ به مَنْ آمَنَ بالله وأسْلَمَ له، وفَهِمَ حقيقةَ حِكْمَةِ اللَّهِ في عطائه ومَنْعِه، ونِعَمِهِ وَمصائبه، في ظروف الحياة الدنيا، وأنَّ القاعدة العريضة في كلّ ذلِكَ الابتلاء، فهذا الإنسانُ لا يجري وراء توَهُّمَاته، فَلاَ يقول مقالة الجاهلين.

ولا تشمَلُ عبارة (الإنسان) هنا الكافر والملحد الذي يرى أنه نال أمواله بعلمه ومهارته، أو بمصادفة حظ.

• ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾: أي: إذا امْتَحَنَهُ اللَّهُ رَبُّه المهيْمِنُ عليه بسُلْطانِ رُبُوبيّتِه، و «ما» بعد إذا تأكيديَّةٌ لمعنى الشرط، أو لفعل الشرط.

مادة الابتلاء تدُلُّ في أصل معناها على الامتحان والاختيار، لكشف ما لدى المبتَلَىٰ من صفاتٍ كامناتٍ، بعَملٍ إراديٍّ ذي أثر يُدْرَكُ في النفس، أو في حركات وتصَرُّفاتِ الْجَسَدِ الإراديَّة، ويكون الابتلاء بالنعم وبالمصائب.

• ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾: **فأكْرَمَهُ**: أي: فجعَلَهُ بعطاءاته له مترفّعاً عن الحاجة إلى الناس، واستجداء صدقاتهم ومعوناتهم.

ونَعَّمهُ: أي: جعلَهُ يتنَعَّمُ بما أعطاه من وسائل التَّرَفُّهِ في الحياة الدنيا، يقال لغة: نَعَّمَ الله الإنسانَ، أي: أفاض عليه نِعماً وأَرزاقاً وخيراتٍ، جعلَتْهُ يستمتع بلذَّاتها في حياته.

ومن فعلي: «أكرمه ونعَّمَهُ» ومقابلتهما بقوله: [وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ] نفهم أنّ المراد وسَّعَ له رزقه.

• ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ وفي قراءة [أَكْرَمَنِي]: أي: أعطاني ما أَنا لَهُ أهْلٌ مِنْ تكريمٍ وتعظيم ومكانةٍ عالية.

يقال لغة: أكْرَمَ فُلاَنٌ فلاناً إذا عظَّمَهُ وَنَزَّهَهُ وَشَرَّفه. والعبارة تَدُلُّ بإيحائها على أنّ القائل يَشْعُر باستحقاقه لهذا التكريم.

● ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ وقُرِئ: [فَقَدَّرَ] وقد سبق بيان تكامل القراءتين في الدلالة على المراد.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾: سبق شرح نظيرها.

﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾: أي: فضَيَّقَ عليه رزقه ولم يَبْسُطْهُ له.

﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ وفي قراءة [أَهَانَنِي] بإثبات ياء المتكلّم.

أهانني: أي: أَذَلَّنِي. وهذه العبارة تَدُلُّ بإيحائها المستفاد من القرائن في النّصّ، على أَنَّ قائلها يَشْعُرُ بأَنَّ ربَّهُ ظلمه فلم يُعْطِهِ ما هو له أهل.

﴿كَلَّا﴾: أداةُ رَدْعٍ وزَجْرٍ، ويجوز الوقوف عندها في كُلِّ الأحوال. وقد جيء بها لزجْرِ ورَدْعِ صاحِبَي المقالتين.

والمعنى: لا بَسْطُ الرزق للإنسان تكريمٌ له، ولا تضييقُه عليه إهانة له، بل كُلٌّ منهما لابتلاء الإنسان وامتحانه في ظروف الحياة الدّنيا. فيا صاحِبَ المقالة الأولى، ويا صاحِبَ المقالة الثانية، كُفَّا وامْتَنِعَا عن مقالَتَيْكُمَا، فهي مقالةٌ باطلةٌ لا أَساس لها من الصِّحَّة، إنَّ الله ليس بينه وبين أحد من عباده نَسَبٌ ولا قرابة ولا مصاهرة، فلا يُحَابِي فريقاً منهم ببسط الرزق، ولا يَجُورُ على فريقٍ منهم بتضييقه عليه.



(٦)
التدبر التحليليّ للدرس الثالث من السورة

الآيات من (١٧ ـ ٢٠) وكلمة «كلَّا» من الآية (٢١)

قال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿. . بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ . .﴾.

القراءات:

- وقُرِئ: [يُكْرِمُونَ ـ يَحُضُّون ـ يَأْكُلُونَ ـ يُحِبُّون] بياء الغائِبين.
- وقُرِئ: [تَحُضُّونَ] كما قُرِئ: [تَحَاضُّونَ] وبين هاتين القراءتين تكامل في المعنى، فَتَحُضُّونَ ليس فيه معنى المشاركة في الحضّ، وهذا يناسِبُ حال أصحاب القيادة الفكريّة في مجتمعهم الذين ينْصَحون العامة، وتَحَاضُّونَ فيه معنى المشاركة، وهذا يناسب أحوال الناس بشكل عامّ.

وبين القراءتَيْنِ التي بتاء الخطاب وبياء الغائب تكامل بياني، إذْ الخطاب يلائم فريقاً من الناس، والحديث عن الغائب يلائم فريقاً آخر من الناس، وهم المعرضون والمدْبِرون.



تمهيد:

بعد بيان حكمة الله عزّ وجلّ في توسعة الرزق لبعض عباده، وتضييقه على بعض عباده، وهي حكمة الابتلاء، وبعد زَجْرِ الّذين يتوهَّمُونَ خلاف هذا، لا بُدَّ أن يُدْرِك ذو التفكير السليم، الذي عرف أنّ الغرض من كُلٍّ منهما الابتلاء، أنّ المطلوب في هذا الابتلاء الرَّبَّانيّ من الَّذِينَ وسَّعَ اللَّهُ لهم في الرزق، أنْ يَبْذُلُوا من أموالهم لرفْعِ البؤس عن الَّذِينَ ضَيَّقَ اللَّهُ عليهم أرزاقهم، وفي طليعة هؤلاءِ البؤساءُ من اليتامَىٰ والمساكين.

لكنّ واقع حال الجمهور الأَعظم من ذوي الْيَسار والسَّعةِ، أنّهم قُساةُ الْقُلُوب والنفوس، فلا تُحرّكُهُمْ نحو البؤساء عاطفة نبيلة، فلا يُؤَدّون ما يحثُّهُمْ عليه الواجب الإنساني، وما يأمُرهُمْ به التكليفُ الرّبّاني، من بَذْلِ بعْضِ أموالِهِمْ لتخفيف البؤس عن البؤساء، والعطف على الضعفاء، بل يزيدون على هذا حبًّا شديداً للمال، وشَرَهاً للاستزادة منْه ولو بالمكاسب الظالمة الآثمة.

• ﴿بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾:

أي: فهل تُؤَدُّونَ يا ذَوِي اليسار ما يجب عليكم في أمْوالكم لِذَوِي الاستحقاق في مجتمعكم من البائسين وذوي الاضطرار؟.

والجواب: لا. بل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ مُجَرَّدَ إِكْرَامٍ معنويٍّ وَلَوْ لَمْ يُكلّفكُمْ مالاً تبذلُونه، إذْ تَشْعُرُونَ بِالتَّرَفُّع والاستعلاء عن إكرام اليتامَىٰ الضعفاء البؤساء، بل تعاملُونهم بالإهانة والإذْلال، ومن كان منكم وليًّا عليه وعلى أمواله أكل ما له بغير حقٍّ، واستغلّه وأذلّه، وهضم حقوقه.

أكرَمَ فُلَانٌ فُلَاناً: أي: رفع من قَدْرِهِ وأعطاه ما يُحِبُّ من مكانة، ولم يجعله يشْعُر بانتقاص ولا مهانة، ضدّ أَهانه.

اليتيم: الصغير الذي مات أبوه من الناس.

وإذا كان اليتيم فقيراً فإنّه يدخُلُ أيضاً في عموم المسكين الذي جاء الحديث عنه في الآية التالية:

• ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨﴾ وقُرِئَ: [وَلاَ تَـحُـضُّـونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ]:

ولا تَحاضُّونَ، ولا تَحُضُّون: الحضُّ على الأمْرِ الحثُّ عليه، وهو طلَبُهُ بشدّة وإلحاح. يقال لغة: حضَّ الرَّجُلُ صَديقَه على فِعْل الخير، إذا حثَّهُ عليه وطلب منه فعل الخير بإلْحاح. ويقال المؤمنان تَحَاضًا على فعل الخير والبعد عن الشر، إذا ألح كُلٌّ منهما على أخيه أنْ يَفْعَل الخير ويبتعد عن الشرّ، فصيغة تفاعل تدلُّ على المشاركة.

على طَعَامِ الْمِسْكِين: أي: على إطعام المسكين، استُعْمِل اسم المصدر «طَعَام» بدل المصدر «إطعام» والمعنى واحد.

الْمِسْكِين: هو في الحقيقة الفقير الذي تدلُّ ظواهر حاله على فقره،

فالمسكنةُ: هي ما يَبْدو من ظواهر وأماراتٍ دالاّت على الفقر والحاجة. ورُبَّما تكون هذه الظواهر مصطنعة وذاتَ دلالة كاذبة، وبهذا يظهر الفرق بين الفقير والمسكين كما حَقَّقْتُه في كتاب «قواعد التدبر الأمثل».

والمرادُ من المسكين جنْسُ المساكين، وهم الفقراء الذين تدلُّ ظواهر أحوالهم على فقرهم، وهٰذه الظواهر تستعطف ذوي القلوب التي تشعر بالرحْمَةِ نحو ذوي الحاجات والضرورات.

أي: ولا تقومُونَ بواجبكم الاجتماعي نحو ذوي الضرورات والحاجات، ولا تُثِيرُ مشاعر قلوبكُمْ رحمةٌ بهم، فلا تَنْهَضُون متعاونين مع القادرين، فيَحُضّ بعضكم بَعْضاً لسدّ حاجات ذوي الحاجات والضرورات، حتَّىٰ الضرورة إلى الطعام الذي تتوقَّف عليه الحياة.

• ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩﴾:

استعير فعلُ الأكل للدلالة على معنى الحيازة والامتلاك، لأنَّ الأَكْلَ أكْثَرُ الأعْمَال الدَّالّة على الامتلاك والانتفاعِ والاستهلاك.

التُّرَاثُ: مَا يُورَثُ ممّا كان للميّتِ من مالٍ تركَهُ، أَوْ مَجْدٍ أَو غير ذلك من أمور مادّيَّةٍ أَوْ مَعْنَوِيَّة، ويقال فيه: الميراث، والإراث، والإِرْث.

اللَّمُّ: الجمع المستغرق، يقال لغة: لَمَّ الشيءَ يَلُمُّهُ لمًّا، إِذَا جَمَعَهُ جَمْعاً شديداً. وجاء وصْفُ «أَكْلًا» بالمصْدَرِ «لَمًّا» للدلالة على زيادة الشَّرَهِ في حيازة الميراث وامتلاكه. أي: تأكلون التراث بشَرَهٍ، جَامعين لأنفسكم منه صغائرهُ وَحَذَافِيرَه.

وهذا أمْرٌ مشاهَدٌ عند معظم الوارثين.

هذه الآية تدلُّ على أنّ الناس بوجهٍ عامٍّ، لديهم شَرَهٌ شديدٌ لامتلاك الأموال دون بذْلِ جَهْدٍ، أو عَمَلٍ مكافئٍ، رغْبةً في تحصيل الثروات والاستكثار منها دون كسْبٍ ذاتيّ، ونموذَجُهُ الظاهر للجميع أَكْلُ الميراث أكلاً لمًّا جامعاً كلَّ صغير وكبير فيه.

وهٰذا التعلُّقُ النفسيُّ الشديدُ بالأموال يُبَلِّدُ حِسَّ الإنسان تُجاهَ الآخرين من ذوي الحاجات والضرورات، فلا يتحرَّكُ قلبُه برحْمَةٍ ولا بعاطفة كريمة، فكيْفَ يبْذُلُ للمسكين، أو يحضُّ على إطعامه.

● ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾:

الْجَمُّ: هو الكثير من كلّ شيءٍ، أي: وتحبُّون المال حُبًّا كثيراً.

وهٰذه الآيَة تَدُلُّ على أنّ من صفات الناس أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا كثيراً، ولو كان ما جمعوه منه زائداً عن حاجاتهم مهما طالت أعمارُهُمْ في الحياة الدنيا.

وفي هذا البيان كناية عَنْ أنّ بُخْلَهُمْ بأموالهم، وإمساكَهُمْ لَهَا، وحرمانَ ذَوِي الحقوق من حقوقهم سببُهُ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جمًّا، حتَّىٰ يكون داءُ حبِّهِمْ للمال غَيْرَ مُرْتَبِطٍ بِحَاجَتهم إليه لقضاء مطالبِهِمْ من الحياة الدنيا وزينتها.

● ﴿كَلَّآ﴾ كلمة رَدْعٍ وَزَجْرٍ لَهُمْ عَنْ كلِّ الصفات الذميمة، الَّتي تجعَلُهُمْ لاَ يُؤَدُّون مَا هُوَ مطلوبٌ منهم في رحلة ابتلائهم، حتَّىٰ يَتَعَرَّضُوا بسببها لعذاب اللَّهِ يوم الدّين، ويَحْرِمُوا أنفسهم بسببها من الظفر بجنّاتِ النعيم.



(٧)
التدبُّر التحليلي للدرس الرابع من السورة

الآيات من (٢١ ـ ٣٠)

قال اللَّهُ عزَّ وجل:

﴿. . إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ

لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

القراءات:

● قرأ الكسائي ويعقوب: [لاَ يُعَذَّبُ] و [وَلاَ يُوثَقُ] بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، أي: لاَ يُعَذَّبُ وَلاَ يُوثَقُ أَحَدٌ كما يُعَذَّبُ ويُوثَقُ الإنسان الكافر المسوق إلى جهنم.

وقرأ باقي القراء العشرة: [لاَ يُعَذِّبُ] و [وَلاَ يُوثِقُ] بالبناء للمعلوم، أي: لا يُعَذِّبُ عذَابَ اللَّهِ أحدٌ ولا يُوثِقُ وَثَاقَ اللَّهِ أحد، وبين القراءتين تكاملٌ بياني ظاهر وتكاملٌ في المعنىٰ.

تمهيد:

في هذا الدرس عرض لمشهَدٍ يكون قبل موقف الحشر، وعرْضٌ لمشهد يكون يوم الدين تمهيداً للحساب وفصل القضاء، وإشارة إلى حَدَثين، أحدهما يتعلّقُ بمن يُسَاقُ إلى عذابه في جهنم، والآخر يتعلَّقُ بمن قضىٰ الله له بأنْ يكون من أهل جنته، مع عَرْضٍ وَمْضَةٍ من مشاهد من يُساقُ إلى عذابه.

ويتضمّنُ هذا العرض بياناً لنتيجة الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، وهو ما جاء في السُّورة بيانُه، فالامتحان يقتضي حتماً المحاسبةَ، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء. وهذا الجزاء يوم الدين يكون في دار العذاب جهنّم، أو في دار النعيم الجنّة، وبهذا يَتِمُّ تكامل حبَّاتِ عِقْد السورة.

● ﴿.. إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾:

الدَّكُّ: الدقُّ والتكسير والحطْمُ، وجاءَ تكرير ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ وهو مفعول

مطلق لفعل: ﴿دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ للدلالَة على أنَّ حركَةَ الدَّكِّ تأتي متكرّرَةً متتابعة، أي: دكًا فَدَكًا فَدَكًا حتى يتحقَّق المطلوب، وربما تكونُ وسيلة الدك الزلازل التي يحدثها اللَّهُ بها.

ويتحقَّقُ بدَكِّ الأرض تكسِيرُ جبالِهَا ومرتفعاتها، وتسوية سطح كُلّ الأرض، حتى تكون كسَطْحِ الْبُحَيْرَةِ الساكنة التي لا أمواج تتحرّكُ فيها. ويتحقّق بدَكِّ الأَرْضِ أيضاً رَصُّهَا حتَّىٰ لا تكون فيها فراغاتٌ وتجويفاتٌ، ويتمُّ هذا الحدث لحشر الخلائق جميعاً على سطح الأرض في صعيد عامّ، قبل تمييزهم وفصلهم إلى فريق أصحاب اليمين، وفريق أصحاب الشمال، وفريق أصحاب الأعراف الذين هم وسَطٌ بين الفريقين.

أمّا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾.

فهو فيما أرىٰ محمولٌ على الدَّكَّةِ الواحِدَة، الَّتي تكون عند حملهما ورفعهما وإلقائهما على بَعْضِهما، وتتبعُها حركاتُ دَكٍّ فَدَكٍّ لتسوية عُمُومِ الأرْضِ حتَّىٰ تكونَ كالبساطِ الممدود لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ولا عِوَجَ ولا هُشُوشة.

● ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾:

أي: وجاء ربُّكَ اللَّهُ الخالِقُ البارئ المصوّر المهيْمِنُ بصفات ربوبيّته مجيئاً يليق بجلاله وعظيم سلطانه.

والغَرَضُ من المجيء الحضورُ لموقف الحساب وفَصْلِ القضاء والأمْرِ بتنفيذ الجزاء.

والملَكُ: التعريف بـ (أل) لتعريف الجنس، فالمراد الملائكة الَّذِين جعلَ الله من وظائفهم الحضور مُصْطَفين صفوفاً لموقف الحساب وفصل القضاء، وتنفيذ ما يأمُرهم الله به.

صَفًّا صَفًّا: أي: وجاءت الملائكةُ مُرَتَّبِينَ أو مُنْتَظِمِينَ صُفُوفاً، فاللفظان معاً في موقع حال تقديره: مرتبين أو منتظمين.

هذا الحضور والانتظام في صفوف، هل يكونُ لكلّ الملائكة، أمْ يكونُ لطوائف منهم يأْمُرُهُمُ اللَّهُ بهذا الحضور المنتظم، ويبقى آخرون قائمين بوظائفهم في الجنَّة أو في النار، أو مرافقين لأهل المحشر من الإنس والجنّ؟

الجواب: ليس في النصّ ما يُعَيِّنُ المراد، واللّفظ محتمل لكُلٍّ من الأمرين، وقد أُرَجّح الاحتمال الثاني، لأنّ أداة التعريف في لفظ [الْمَلَك] تُشْعِرُ بإرادة طوائف متميّزة من الملائكة، وهم الْعَالُون الذين يَجِيئون مع مجيء الرَّبّ، وهم الذين تَشَقَّقُ عنهم السماء، ويُنَزَّلُونَ إلى موقف الحساب تَنْزِيلاً، كما جاء في بعض نصوصٍ قرآنيَّةٍ أخرى.

أمّا الملائكة الآخرونَ فقِسْمٌ منهم موجودُون مرافقون للإنْسِ والجنّ في موقف الحشر منذ بعثهم، وقبل حَدَثِ مجيء الربّ والْمَلَكِ صَفًّا صَفًّا. والله أعلم.

● ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ..﴾:

جَهَنَّمَ: اسم علَمٌ من أسماء النار الّتي أعَدَّها اللَّهُ لعذاب الكافرين والعاصين يوم الدين، وهو ممنوعٌ من الصرف للعلميّة والتأنيث.

ويقال لِلقَعْرِ البعيد جَهَنَّم. وبئر جهنَّمُ: أي بعيدة القَعْر.

هذه العبارة دلّت على أَنَّ جهَنَّمَ تكونُ في موقعٍ بعيد عن موقف الحشر، ولكن يُؤْتَىٰ بها حتَّىٰ تكون قريبة من الأرض، من الجهة التي يُجْمَعُ فيها الكافرون، الذين سيُقْضَىٰ عليهم بأن يُعَذَّبوا فيها عذاباً أبديًّا.

روى الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُؤْتَىٰ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا».

الزِّمَامُ: ما يُقَادُ به من سَبَبٍ ونحوه، وهو تعبير مستعارٌ للوسيلة التي تُقَرَّبُ بها جهنَّمُ لموقف حشر الخلائقِ يوم الدين.

● ﴿... يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾:

أي: يومَ إذْ تحدثُ هذه الأحداث الجِسَام يوم الدين، يتذكَّرُ الإنسانُ كلَّ مَا كان قد كَسَبَه في سَعْيِه من خير أو شرٍّ في رحلة الحياة الدنيا، كما جاء التصريح بهذا في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) بقول الله عزّ وجل فيها:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾.

الطَّامَّة الكُبْرَىٰ: أي: القيامة للحساب والجزاء. وأصل الطامَّة الداهية الكبرى التي تفوق ما سواها. والطَّامُّ الشيء العظيم، والماءُ الكثير، ويقالُ: طَمَّ الشيءُ إذا كثُر وعَظُم، أَوْ عَمَّ.

وإثبات هذا التذكُر يَدُلُّ على أنَّ النَّفْسَ الإنسانيَّة، تَحْتَفِظُ بما سجَّلَتْهُ ذَاكرتُها من كُلّ مكْتَسبَاتِها في الحياة الدنيا، من العلوم والمعارف، والأفكار، والأخبار، وأنّ عارض الموت يشبه عارض النوم والإغماء، فهو لا يَمْسَحُ من ذَاكِرَتها ذلك، بل جَعَل اللَّهُ عزَّ وجلَّ بقدرته وحكمته من خصائص النفس الإنسانيَّة أَنَّ المسَجَّلاَتِ فيها لا تُمْحَىٰ، وأنَّ النسيان الذي يَعْرِضُ لها في الحياة الدنيا هو بمثابَةِ الأغشية الساترة، وهذه مثل السُّحُب تنقشِعُ في الآخرة، فالنسيانُ ليْسَ مَحْواً كاملاً من الذاكرة.

ولكنَّ الإنسان إذا تذكَّرَ يَوْمَ الدّين، مَا كَانَ قد سَعَاه في الحياة الدّنيا، فهل تنفَعُهُ هذه الذِّكْرىٰ في تَدارُكِ ما فات، وإصلاح السيئات، بفعل الحسنات؟!

الجواب: أَنَّ هذه الذكْرىٰ لاَ تنفَعُهُ، فقد انتهىٰ زمَنُ الابتلاء، وجاء زمَنُ الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

وقد دلَّ على هٰذا قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾:

﴿وَأَنَّىٰ﴾: اسم استفهام يأتي بمعنىٰ: «مِنْ أَيْنَ؟». ويأتي بمعنى: [كَيْفَ؟] وهو هنا استفهام يُرادُ به النفيُ مع الإنكار على من يتوهَّمُ الإثبات، وفيه أيضاً معنىٰ التعجيب مِنْ حالِ مَنْ يَتوهَّمُ أَنَّ التَّذَكُّرَ يومئذٍ ينفع صاحبه في تدارُكِ ما فات والمبادرة إلى فعل الحسنات والخيرات.

الذِّكْرَىٰ: اسْمُ بمعنَىٰ التذكُّر.

فمعنىٰ العبارة على هذا:

● من أَيْنَ يأتي له نَفْعُ التّذكّر. أو كيف لَهُ أنْ ينفَعَهُ التذكُّر، وقد انْتَهىٰ زمَنُ الابتلاء الذي ينفَعُ العمل الصالح فيه، وجاء زمَنُ الحساب وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء، الذي لا يَنْفَعُ الْعَمَلُ الصالِحُ فيه؟!!.

● ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾:

أي: حين يتذكّر الإنسان الكافر ما سعَىٰ في الحياة الدنيا، ويعلَمُ أنَّ تَذَكُّرَه لا يُجدِيه نفعاً في تدارُكِ ما فات، لا يبقَىٰ لديه إلاّ الندم على ما فرّط في جنب الله، وتَمنّي أنْ يكون قد قَدَّم إيماناً صادقاً صحيحاً، وعملاً صالحاً يُنْجيه من عذاب الله، ويجعله من أهل جنّاتِ النّعيم.

أمَّا الندم فلا يرفَعُ عنه شيئاً من العذاب، وأمّا التَّمنّي فلا يُحقِّقُ له شيئاً من أمانيه، مهما أطال في تمنّيه العبارة، ومدَّها بالنداء الطويل، لكنَّهُ لا يَمْلِكُ أكثر من إطلاق عبارة التَّمنّي، فيقول: يا ليتني قَدَّمْتُ لِحَيَاتي.

﴿يَٰلَيْتَنِي﴾: «يا» حرف نداء داخل على عبارة التَّمنّي: «لَيْتَني» فأيَّ شيءٍ يُنادِي؟.

ذكر المفسّرون عدّة آراء، منها أنّ المنادى محذوف، مثل: يَا رَبِّ ليتني.

أقول: حرف «يا» في مثل هذا الاستعمال أشبه بأن يكون حرْفَ نُدْبَةٍ وتحسُّرٍ وتفجُّعٍ أَوْ تَوَجّع. فالذي ينادي مثل هذا النداء فإنَّه يُعْلِنُ تفجُّعَهُ أو توجُّعَهُ من أجْلِ أُمْنِيَّةٍ تجاوزَتْ حَدَّ الممكنات، ودخلَتْ ضمن المستحيلات، أو الأمور التي لا يُسْتَطاعُ الحصولُ عليها.

﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾: أي: يا ليتني قَدَّمْتُ في حياتي الدُّنْيا لحياتي الباقية الخالدة الأخرىٰ ما أكونُ بِهِ من الفائِزينَ المفلحين، الْمَجْزِيِّينَ في جنَّات النعيم.

جاء في القرآن استعمالُ فِعْلِ «قَدَّمَ يُقَدِّمُ» بمَعْنَىٰ: عَمِلَ في الحياة الدنيا ما يَنَالُ عليه جزاءَهُ في الآخِرَة، نظراً إلى أنَّ الإنسان حين يَعْمَلُ وهُوَ مُكَلَّفٌ عملاً إراديًّا يُجْزَىٰ عليه عند رَبِّهِ، يكون قَدْ قَدَّمَهُ قَبْلَهُ لآخِرَتِهِ، إذْ صَارَ مُسَجَّلاً لَهُ أو عليه في كتاب عمله الّذِي يُؤْتَاهُ يَوْمَ الدِّين، فهو عمل يَسْبِقه لآخِرَته.

ولمَّا كانت الحياة الدنيا حياةً قصيرَةً زَائِلَةً لاَ خُلُودَ فيها، وكانت بمثابَةِ الْجِسْرِ الذي يَمُرُّ عليه المسافِرُ لدار إقامته الدائمة، لَمْ تكُنْ جديرةً بأن تُعْتَبَر هي الحياة ذَات القيمة.

ولمّا كانت الحياة الأخرىٰ يوم الدّين هي الحياة الأبديَّة الّتي لا نهاية لها، كانت هي الجديرة بأن يُطْلَقَ عليها اسْمُ الحياة، وعلى هذا يقول صاحبُ هذا التمنّي: «يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتي».

ولهذا وصَفَ اللَّهُ الدّار الآخرَة بأنّها هي الحيوان، أي: هي الحياة الّتي تسْتَحِقُّ هذا الاسم المستجمع لكل عناصره.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

لَهِيَ الْحَيَوانُ: أَيْ: لَهِيَ الْحَيَاةُ الحقيقيَّةُ الخالِدَةُ الَّتي لا لَهْوَ فيها ولا لعب، بل كلُّ ما فيها حقٌّ وجِدٌّ.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: فَيَوْمَئذٍ لاَ يُعَذِّبُ مثل عَذَابِ الله أحد، ولا يُوثِقُ مثلَ وَثَاقِ اللَّهِ أَحَدٌ.

وقُرِئ: (لا يُعَذَّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلاَ يُوثَقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ):

أي: لاَ يُعَذَّبُ مثل عذاب الإنسان الكافر أحَدٌ، ولا يُوثَقُ مِثْلَ وَثَاقِ الإنسانِ الكافِرِ أحَدٌ، ببناء فعل «يُعَذَّبُ» وفعل «يُوثَقُ» لما لم يُسَمَّ فاعله.

والغرضُ شِدَّةِ الترهيب من عذاب اللَّهِ يَوْمَئِذٍ، لأَنَّ الْمُلْكَ يَوْمَئذٍ للَّهِ وحْدَهُ، فلا تَعْذِيب إلاّ تعذيبه، ولا وَثَاقَ إلاّ وَثَاقه.

يقال لغة: عَذَّبَ تَعْذِيباً، أي: عاقَبَ وَنَكَّلَ. والعذابُ اسْمُ للعقاب والنَّكال، فهو اسم للمصدر.

ويقال لغة: أوثَقَ الأَسير إيثاقاً، إذا شَدَّ عليه الْوَثَاق، بفتح الواو وكسْرِها، وهو ما يُشَدُّ به الأسيرُ من حَبْلٍ أو غيره.

والْوَثَاقُ أيضاً اسم للإيثاق الذي هو مصدر «أَوْثَقَ» وهذا هو المراد في النصّ هنا.

والتّعبيرُ كلُّه كنايةٌ عَنْ أخذ الإنسان الكافر يومئذٍ إلى دار التعذيب جَهنّم.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

في مقابل أخذ الكافر إلى جهنم دار عذابِه الأبديّ، يقتضي البيان الحكيم تَوْجِيهَ حديثٍ عَنْ مَصِير المؤمن المسلم يومَئذ.

واختير في البيان هنا اقتطاع لَقْطَةٍ من مَشَاهِدِ توجيه المؤمنين المسلمين إلى دُخول الجنَّةِ دَارِ نعيم المتقين.

ويُسْمَعُ من هٰذه اللَّقْطَةِ الْمَحْكيَّة المقتطعَة من المستقبل للحاضر، حتَّىٰ كأنّ السامعَ أو التالِيَ حاضرٌ هذا المشهد المستقبليّ، يَسْمَعُ مَا يقالُ لكلِّ نفس مؤمنة مسلمةٍ، حينَ الإذْنِ لها بدخول الجنة، فتُنَادَىٰ نداءً تكريميًّا بنَفَسٍ طويل:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾:

تُخَاطَبُ نَفْسُ الْمُؤمِنِ الْمُسْلِم، لأَنّ نَفْسَ الكائنِ الحيِّ هي حقيقة ذاته، والحامِلَةُ لصِفَاتِه، والكاسِبَةُ لأعماله، وفيها خريطَةُ وُجودِه، أمّا أعْضاءُ الجسَدِ فأدواتٌ تَظْهَرُ فيها حركاتُ النفْسِ واختياراتُها، وأمّا الروحُ فطاقة الحياة، كالكهرباء في الآلاتِ الّتي تُحرِّكها القوة الكهربائية.

ولمَّا كان النداء للنفس المؤمنة المسلمة التي قضىٰ الله لها بأن تكون من أهل الجنَّةِ يومئذٍ، جاء فيه وصْفُهَا بصفة «المطمئنَّة».

الطُّمَأْنِينَةُ: غايَةُ السُّكونِ والارتياح، والاستقرارِ الخالي من التوتُّرِ والقلَقِ والاضطراب.

يُقال لغة: طَمْأَنَهُ طَمْأَنَةً إذَا سَكَّنَهُ ودفع عنه القلق والاضطراب، واطْمَأَنَّ يَطْمَئِنُّ اطْمِئْنَاناً، إذا سَكَنَ واستقَرَّ بلا تَوَفُّزٍ وَلا قَلَقٍ، فهو مُطْمَئِنٌّ.

والمؤمن الْمُسْلِمُ الذاكر لربّه قد يصل في الحياة الدنيا إلى مرتَبَةِ

الطُّمَأْنِينة، كما قَال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

وعند الموتِ يَرَىٰ مَقْعَدَهُ من الْجَنَّةِ بِشَارَةٌ لَهُ فَيَطْمَئِنُّ عَلَىٰ مصيره، وقد ثبت هذا بدلالة القرآن وصَرِيحِ الحديث عَن النبيِّ ﷺ.

وفي موقف الحشر يَسْتَلِم كتابَ أعماله بيمينه فيطْمَئِنُّ إذْ يُدْرِكُ أَنَّ مصيره إلى الجنَّة. ويُفْرَزُ المؤمِنُونَ إلى جهة الجنة عن الكافرين، وعن أهل الأعراف، فيزيدُ طُمَأْنِينَةً.

وبعد الحساب وفصل القضاء يَصْدُرُ الحكْمُ الرَّبَّانِيُّ بأنَّهُ مِنْ أهْلِ الجنَّة، فيزْدَادُ طُمَأْنِينَةً وارْتياحاً، ويَتَرَقَّبُ أَنْ يُنَادَىٰ بأنْ يَدْخُلَ الجنَّةَ.

فأكْثَرُ الأَوْصَافِ مُلاَءَمَةً لحالَةِ هذه النَّفْس المؤمنة، أَنْ يُقَالَ لها عِنْدَ الإذْنِ لها بدخول الجنَّة: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾:

أي: ارْجعي إلى المكان المشْمُولِ برَحْمَةِ رَبّكِ إنْعَاماً وإكْراماً.

وهُنَا يَتَسَاءَلُ الْفِكْرُ: لمَاذَا جَعَلَ اللَّهُ هٰذَا رُجوعاً، ومَعْلُومٌ أَنَّ الرجُوعَ إلى الشيءِ هو عَوْدٌ إليه بَعْدَ الخروج منه؟!.

وأقول: لَقَدْ أَدْخَلَ اللَّهُ آدم وزوجَهُ الجنَّةَ إدْخالَ ابتلاء، لا إدْخال استقرار أَبَدِي، وحرَّمَ عليهما أن يأكُلاَ من شَجَرَةٍ معيَّنَةٍ، فلَمَّا أكلا منهما متأثِّرَيْنِ بوساوس إبليس وتسويلاته، أَخْرَجَهُمَا اللَّهُ منها، وأهْبَطَهُما إلَىٰ الأَرْض، فخرجا من الدَّار المشمولة برحْمَةِ الله إنْعَاماً وإكراماً.

وقَدْ كان في ظهر آدَمَ سَلاسِلُ ذُرِّيَّتِهِ، فَإِخْرَاجه من الجنَّةِ إخراجٌ له

ولكلّ ذُرّيته منها، ودُخولُ الجنَّة يَوْمَ الدّين بَعْدَ رِحْلَةِ الابتلاء في الحياة الدُّنيا هو رُجُوعٌ إلى المكان المشمول برَحْمَةِ الرَّبِّ إنْعاماً وإكْرَاماً، وهذا رجُوعٌ خاصٌّ بالمتّقين.

وقد أُطْلِقَ الرُّجُوعُ إلى اللَّهِ في القرآن بمعنى الرجوع إلى الحياة بعد الموت، لتلَقّي وَعْدِ اللَّهِ بالحساب وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، وهذا رجوعٌ عَامٌّ لكلّ الخلائقِ.

أمّا النفس المطمئنّة، فيُؤْذَنُ لَهَا يَوْم الدين بعد الحساب وفَصْلِ القضاء بأن تَرْجع إلى الجنَّةِ الّتي كان فيها آدم عليه السلام، وفي ظهره ذُرّيَّتُه، وأُخْرِجَ مِنْها بسبب معصيته ربَّه، وقد جعل الله الرجوعَ إلى الجنّة مَشْرُوطاً بالإيمان الصحيح المقبول عنده، وإعلان الإسلام له، مع ما يَدُلُّ عليه من عَمَلٍ صالح.

رَاضِيَةً مَرْضِيَّة: أي: رَاضِيَةً بِكُلِّ شيءٍ هي فيه من الجنَّةِ، نَعيماً وتكريماً ورِضواناً من اللَّهِ عليها. ومَرْضِيَّةً من الله جلّ جلالُهُ، إذْ رضيَها وقَبِلَها للدخول في رحمته والتَّنَعُّمِ في جنّته.

يُقَالُ لُغَةً: رَضِيَهُ، ورضِيَ بِهِ، وَرَضِيَ عَنْهُ، ورضِيَ عَلَيْهِ، يَرْضَىٰ رِضاً، ورضاءً، ورِضْواناً، ومَرْضَاةً، أي: قَبِلَهُ واخْتاره وجعل له عنْدَهُ مكانَةً وحُظْوَةً.

واسم الفاعل من هذا الفعل «راضٍ» واسْمُ المفعول «مَرْضِيٌّ» أصْلُهُ مَرْضُويٌ. أي: قد رضِيَهُ اللَّهُ.

وهٰذا القولُ الْمُصَدَّرُ بالنداء: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾.

يَحْتَمِلُ أن يكونَ صادراً عَنْ مَلَكٍ مَأْمُورٍ بأنْ يقولَهُ، ويحتَمِلُ أَنْ يكون قولاً يقولُهُ اللهُ لعبده، وهٰذا هُوَ الأرجَحُ فيما أرىٰ، لقَوْلِ اللَّهِ بَعْدَهُ: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

ولا فرْق بَيْنَ أَنْ يقولَهُ مَلَكٌ حِكَايَةً عن اللَّهِ عزَّ وجلَّ، أَوْ يَقُولَهُ اللَّهُ لِعَبْدِهِ مُبَاشَرَةً على ما يليق بِجَلَالِهِ سُبْحانَهُ.

وحصَل في العبارة الالتفاتُ من الغيبة في: [رَبِّكَ] إِلَىٰ التَّكَلُّم في: ﴿عِبَٰدِى﴾ وفي ﴿جَنَّتِى﴾ وَمِثْلُ هذا التَّفنن الالتفاتي البديع كثير في القرآن المجيد.

﴿فَٱدۡخُلِى فِى عِبَٰدِى ٢٩﴾: أي: في عبادِي المكرمين الذين تحقَّقُوا عن طريق إراداتهم الحرّة بعبوديّتهم لي، فَشَرَّفْتُهم بإضافتهم إليّ، وَجَعَلْتُهُمْ ضِمْنَ المكَرَّمِين المشرَّفِين برُبُوبيَّتِي وفيوض عطاءاتي بإنْعَامي عليهم، وإكرامي لهم.

أمّا الذين رفضوا في الحياة الدنيا ربُوبيتي لهم، ولم يتحقَّقُوا بعُبُودِيَّتِهم الإراديَّةِ لي، فإنَّني لا أُدخِلُهُمْ ضِمْنَ عبادي المكرمين المشرّفين بالانتماء إليّ.

﴿وَٱدۡخُلِى جَنَّتِى ٣٠﴾: أي: واذْخُلِي مع عبادي المكرّمينَ، جنَّتِي الَّتِي أعتَدْتُها لمستحقي دخولها بفضلِي، وهم الذين يجتازونَ رِحْلَةَ امتحانِهم في الحياة الدنيا بنجاح.

وقد دَلَّ على هذه الإضافات الشارحات نصُوصٌ أُخْرَىٰ من القرآنِ الكريم، فَنُصُوصُ القرآن يُكَمِّلُ بعْضُها بعضاً، لأنَّ المعاني مُوَزَّعَةٌ فيها توزيعاً تكامُلِيًّا.

وبهذا تمّ تدبُّر سورة الفجر والحمد لله على فتحه وعظيم فضله ومنّته

(٨)
ملحق
حول «بلاغيات في سورة الفجر»

باستطاعة المتأمّل البلاغي أن يكتشف في هذه السورة عدّة اختيارات بلاغيّة حكيمة، منها ما يلي:

الأولى:

استخدام الكناية عن صفات عدل الله، وعظيم قُدْرته، وجليل حكمته، وشمول علمه بكل أحوال عباده الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، وعَنْ ثباتِ سُنَّته في عباده التي لا تبديل لها ولا تحويل، بالْقَسَم بأزمِنَةٍ تَمَّ فيها إهلاكُ أُمَمٍ مِنْ أهْلِ القرون الأولى، لأنَّهم كذَّبوا رُسُلَ رَبِّهم وَطَغَوْا في البلاد، وأكْثَروا فيها الفساد.

فاللَّوازِم الفكريَّة تتنقَّل بالمتفكّر من أوقاتِ إهْلاك الأُمَم المهلكة إلى إدْراك السَّبَب الذي دعا إلى إهلاكهم، فإلى معرفة أنَّ ذَلِكَ قد حصل بخلْق الله، فإلى إدْراكِ حكمته تعالى في ذلك، وثباتِ سنّته في عباده، وما يقتضي هذا الإهلاك من علْمٍ شاملٍ وقدرة عظيمة، إلى غير هذه الصفات من كمالات الله جلّ جلالُه.

الثانية:

الكناية عن التهديد بالعقاب بعبارة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

الثالثة:

بناء الكلام على محذوفات في اللّفظ ومطوياتٍ تقتضيها المذكورات، ويستطيع المتدبّر أن يُدْرِكَها ذهناً، وهذا من بدائع الإيجاز في القرآن.

ولقد سبق لدى تدبُّر السورة اكتشاف عدّة أمثلةٍ لهذا.

الرابعة:

الاستفادة من تَعَدُّدِ القراءات فيما ثبتَ متواتراً، لإضافة معاني دلَّ عليها النَّصّ بما تَعَدَّدَ فيه من قراءات، وهذا الإجراء في القرآن قد أغْنَىٰ عن إنشاء جُمَلٍ أو آيات في السورة، لإفادة المعنى الذي يُرادُ الإعلامُ به، مع كمالِ الإيجاز.

الخامسة:

استخدام الكناية عن أخذ الكافر إلى مكان تعذيبه في النار، بعبارة: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ۝٢٤ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ۝٢٦﴾.

فهٰذه العبارة تَدُلُّ باللُّزُوم الذهْنِي عَلَىٰ أَنَّ الكافر قد أُخِذَ به إلى دَرَكَة عذابِهِ في جهَنَّم، فَهُو يُعَذَّبُ فيها هذا العذاب، وهو موثُوقٌ فيها لا يَسْتَطِيعُ الخروج ولا التحوّل.

السادسة:

اقتطاع الحدث من المستقبل دون تغيير في صيغته، وتقديم عبارته للمتلقّي كأنَّه واقع مشهودٌ الآن.

وهذا ممّا انفرد به القرآنُ قبل ظهور فُنونِ الأَفْلَامِ السينمائيَّةِ ووسائلها.

السابعة:

الالتفات من الغيبة إلى التكلّم في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾.

- ﴿إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ كلامٌ عَنِ الغائب.
- ﴿فِي عِبَٰدِي﴾ و ﴿جَنَّتِي﴾ حديث المتكلّم عن نفسه.



سُورَةُ الضُّحَىٰ

أَوْ

سُورَةُ وَالضُّحَىٰ

٩٣ مُصْحَف ١١ نزول



(١)
نصّ السّورة
سورة الضحى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

(٢)
مما جاء في السُّنّة حول سورة الضُّحَىٰ

(١) روى البخاري بسنده عن جُنْدُب بن سفيان الْبَجَلِيّ، قال: اشْتَكَىٰ[١] رسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أو ثلاثاً، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ فقالَتْ: يَا مُحَمَّدُ، إِنّي لأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاثاً، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عزّ وجلَّ عَلَيْهِ:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾.

---

(١) **اشتكىٰ**: أي: مرض.

ونظِيرُهُ عِنْدَ مُسْلِمٍ وغيره.

وجاء في أحاديث أخرىٰ بيان المرأة التي جاءت إلى الرسول ﷺ وقالَتْ له هذه المقالة، وأنّها: أمُّ جميلٍ امْرَأةُ أبي لَهَبٍ حاملة حَطَبِ العداء للرسول ﷺ ودعوته.

(٢) وروى الحاكم من طريقِ إسرائيل عن أبي إسحاق، عن زَيْدِ بْنِ أرقم، قال: قالَتِ امرأةُ أبي لهَبٍ، لمَّا مَكَثَ النبيُّ ﷺ أيّاماً لم يَنْزِلْ عليه الوحْيُ: يَا مُحَمَّدُ، مَا أَرَىٰ شَيْطَانَكَ إلاَّ قَدْ قَلاَكَ[1]. فنزلت:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾.

(٣) وروى ابْنُ جَرِيرٍ والطبراني وابْنُ مَرْدَوَيْهِ، عَنْ جُنْدُبٍ، قال: أبْطَأَ جِبْرِيلُ عن النبيّ ﷺ، فَقَالَ المشركون: قَدْ وُدِّعَ مُحمَّد، فَنَزَلَتْ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴿٣﴾﴾.

(٤) وأخْرَج الطبرانيُّ عن جُنْدُب قال: احْتَبَسَ جِبْرِيلُ عَنِ النبيّ ﷺ، فقالَتْ بعْضُ بناتِ عَمِّهِ: ما أَرَىٰ صاحِبَكَ إلاَّ قَدْ قَلاَكَ، فَنَزَلَتْ:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾.

ويَبْدُو أنَّ امرأة أبي لهَبٍ بدأت تُذيعُ هذه المقالة في مكّة، فأنزل الله على رسوله سورة (الضحى) وأتبعها بإنزال سُورةِ «الشّرح» فقابَل مُكايَدَتَها لرسوله ببيَانٍ يشُقُّ مَرارَتها، ويمزِّقُها غَيْظاً.

(٣)
مواقف العداء ضدّ الرسول ودعوته في مراحل التنزيل السابقة حتى سورة الضُّحى

تولَّىٰ اللَّهُ عزَّ وجلَّ الدِّفاع عن رسُولِهِ فيما يُنَزِّلُ عليه من قُرْآن كَمَا جَاءَ في المتابَعَاتِ التَّالِيَاتِ:

---

(١) **قَلاَكَ**: أي: أبغضك.

(١) ففي سورة (الْعَلَق/ ١ نزول) واجَهَ اللَّهُ عزّ وجَلَّ الّذي نَهَىٰ الرسُولَ ﷺ عن الصلاة (وهو أبو جَهْلٍ) بقوله:

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾.

(٢) وفي سورة (المدّثر/ ٢ نزول) تولّى الله عزّ وجلّ مُواجَهَةَ من فكّر وقَدَّرَ، وأدْبَر واستكبر، واتَّهَمَ الرّسُول ﷺ بأنّه سَاحر، وقَالَ عن القرآن إِنْ هٰذا إلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَر، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ فيها بشأنه، وهو الوليد بْنُ المغيرة خطاباً لِرَسُولِهِ:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾.

(٣) وفي سورة (القلم/ ٤ نزول) تولّىٰ اللَّهُ عَزّ وجلَّ الدِّفاعَ عن رَسُولِهِ، ضِدَ الَّذِينَ اتَّهَمُوهُ بالْجُنون، فقال اللَّهُ عزَّ وجل في صَدْرِها خطاباً لِرَسُولِه ﷺ:

﴿نٓ ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

(٤) وفي سورة (المسَد/ ٦ نزول) تولّىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ الدّفاع عن رسوله ﷺ، ضدّ شتيمة عَمّه «أبي لَهَبٍ» له وضدّ إساءَاتِ امرأة هذا الخاسر «أمّ جميل» له، فأنزل الله سُورة «المسَد»:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾.

(٥) وفي سورة (التكوير/ ٧ نزول) واجَهَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ المشركين بالدِّفاع عَنْ رسُولِه ﷺ فقال لهم:

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾.

(٦) وفي سُورَةِ (الضحى/ ١١ نزول) الّتي نُعَالِجُ في الصفحات التاليات تَدَبُّرَهَا، أَقْسَمَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ بِمَظْهَرَيْنِ منْ مظاهِرِ قُدْرَتِهِ في كَوْنِه، وإتقانِهِ لهما، وعنايته بخَلْقِه، هُمَا تَدَاوُلُ إشراقِ الضُّحَىٰ واللَّيلِ إذا سَجَىٰ، أَنَّ رَبَّهُ ما ودَّعَهُ ولا قَلاَهُ، عَلَىٰ خلاَفِ مزاعِمِ امرأة عَمِّهِ أبي لهَبٍ، وفي هذا الْقَسَمِ ما فيه من تكريمٍ للرَّسُول، ومُكايَدَةٍ لمروِّجَةِ الفرية ومَنْ معها.

واقتصر الدِّفاعُ هُنَا على مقابلة المكايَدَة الّتِي وجّهتْهَا «أُمُّ جَميلٍ» بمكايَدَةٍ تغيظُها، ولكِنْ بأسْلُوب اسْتِعطافِ الرّسول بقَسَمٍ يَفِيضُ بالتَّودُّدِ والتَّحَبُّبِ، وفيه نَفْيٌ لمقُولَةِ مَنْ كايَدَهُ، مع الإعْرَاض عَنِ القائل وعدَمِ مواجَهَتِه، اسْتِهَانَةً بِه، واحتقاراً له، وفيه استعراضٌ لسَوَابق الإكرام والإنْعَام الّتي أكرم الله بها رسوله، وأنْعَم بها عليه، مع بيان ما فيها من التَّرَقّي الصّاعِد، الدّالّ على أنّ العطاء الارتقائيَّ سَيَظَلُّ مُسْتَمِرّاً من الله لرسوله طَوال الحياة الأولى، الّتي سيُصِيبُ منها خيراً كثيراً، أمَّا الآخِرَةُ فهي خَيْرٌ وأجَلُّ وأعظَمُ له من الأُولىٰ، إكراماً وإنعاماً وتمجيداً، ومقاماً كريماً ودَرَجَةً رفيعةً.

فلْتَتَميَّزْ «امْرَأَةُ أَبِي لهَبٍ» ومَنْ كان على شاكلتها غيظاً وكمداً، فإنّ الله جلَّ جَلاَلُهُ إذا شاء إكرام عَبْدٍ من عبادِهِ لَمْ تُوقِفْ عَطَاءاته مقالاتُ المكايدين والْمُكَايدات، ولا حَسَدُ الحاسِدِين والحاسدات، ولا يَنْفَعُهُمْ شيئاً ترصُّدُهُمْ للعوارض الّتي يَمْتَحِنُ الله بها عبادَه، ولا يُعْفِي منْها صفْوَةَ خلْقِه وخيرَتَهُمْ، لأنَّ هؤلاء الصَّفْوَة على معراج الصعود بإذن اللَّهِ وَتَوْفيقه وفُيُوضِ عطاءاتِه، ولا بُدَّ للصاعد من أن يتعرّض في بعض درجاته لبعض العوارض الّتي تُرَبِّيه على الثبات، وتمنَحُهُ الْعَزيمةَ والصُّمود، وتشحنُهُ بالْهِمَّةِ والمقاومة

والتحدِّي، وتزيدُهُ طُمُوحاً، وتَجْعَلُه أَكْثَرَ حِرْصاً على الاحتفاظ بمواقعه الّتي بلَغَ إلَيْها، لأنَّها ثمراتُ كِفاحٍ وَجِلادٍ وصَبْر.

أمَّا أعداؤه الحاسدون فموقعهم يظَلُّ في الحضيض، وليْسَ لهم من درَجاتِ مِعْراج الصعود حظٌّ غير النظر إلى المحظُوظين بالتّرقّي، والتمزُّقِ غَيْظاً وحسداً.

وامرأَةُ «أبي لَهَبٍ» صاحبَةُ المقالة أَقْدَرُ النَّاس على إدْراك هذه الأمور الَّتي تُمزِّقُ نَفْسَها، وتَزِيدها غيظاً وحَسَداً.



(٤)
موضوع السورة

(١) دفاع من الله عزّ وجلّ عن الرسول ﷺ ضِدَّ من أشاع أنّ الله ودّعَهُ أو قَلاَه، بإثبات عكْسِ ذلك، مع وعد الله له بمستقبل باهرٍ يُرْضيه.

(٢) تذكير الله رسوله بما كان عليه منذ أوائل نشأته حتَّىٰ بعثته، وكيْفَ أنعم ربُّه عليه، بأنّه كان يتيماً فآواه، وكان جاهلاً فعَلَّمَهُ وهداه، وكان عائلاً فقيراً فأغْنَاهُ، فلْيَطْمَئِنَّ إلى وعْدِ اللَّهِ له بما يُرضيه مستقبلاً.

(٣) تكليف الله رسوله بأن يَشْكُرَ نِعَمَ اللَّهِ عليه، بأنْ لا يَقْهَرَ اليتيم، وبأن لا يَنْهَر السائل، وبأنْ يدعو إلى دين الله بأسلوب محادثة الناس بما أوحَى الله إليه من قضايا الدين، ومن آياته البيّنات، الَّتِي هي نِعْمَةٌ عظيمة منَ اللَّهِ عَلَيْهِ وعَلَىٰ النَّاسِ أجمعين، لا بأسلوب الخطبة أو غيرها من وسائل البيان.

فالسورة بهذا تشتمل على ثلاثة دروسٍ متعانقة في وحدة موضوع، وهذه الوحدة الموضوعيَّة لا تحتاج إلى بيانٍ وشرح، لأنّ عناصرها ظاهرة التماسُك والترابط لكلِّ متدبّر.

فالدرس الأول: هو الآيات من (١ ـ ٥).

والدرس الثاني: هو الآيات من (٦ ـ ٨).

والدرس الثالث: هو الآيات من (٩ ـ ١١).



(٥)
التدبر التحليلي للدرس الأول

الآيات من (١ ـ ٥)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾.

- ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾:

أقْسم اللَّهُ عَزَّ وجلّ لِرَسُولِهِ بالضُّحَىٰ وباللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ، وهُوَ قَسَمٌ ببَعْضِ ظَواهِرِ خَلْقِهِ في كَوْنِهِ، وإِتْقَانِ صُنْعِهِ، وعِنَايَتِهِ بسُكَّانِ الأَرْضِ مِنْ عبادِهِ، إِذْ تَرْتَبِطُ مصالحُ كثيرةٌ لَهُمْ بأَنْ يَتَداوَلَ على الأرضِ نَهارٌ يُشْرِقُ فيه ضياءُ الشَّمْسِ، ولَيْلٌ ساتِرٌ يحْتَاجُ الأحياءُ فيه إلى السِّتْر والسُّكُونِ والراحَةِ والْبُعْدِ عَنْ وَهَجِ الشَّمْس.

وإِقْسَامُ اللَّهِ عزَّ وَجلَّ بظواهِرِ خَلْقِهِ في كَوْنِهِ، كِنَايَةٌ عَنْ إِقْسَامِهِ بصِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ، وَحِكْمَتِهِ السَّامِيَة، الّتي من آثارِهَا هٰذِهِ الظَّواهِر، ومَعْلُومٌ أَنَّ الظَّواهِر الكونيّةَ آيَاتٌ دَالأَتٌ في الكَوْنِ علَىٰ صفاتِ الله خالِقِها، وإِثْبَاتُ الصِّفَاتِ يلْزَمُ عنه عقلاً إثباتُ الذَّاتِ المتّصفَةِ بها.

الضُّحَىٰ: يُفْهَمُ من أقوال أهل اللُّغَةِ أنّه الوقْتُ يَوْمِيّاً من ارْتِفَاع الشَّمْس حتَّىٰ زوالها عن كَبِدِ السماء وسط النهار، أو إلى ما قَبْلَ الزوال.

وقيل: الضُّحَىٰ ساعَةٌ من سَاعَات النهار.

ولفظ «الضحَىٰ» مقصورٌ مؤنث، قال الجوهريّ: ويُذَكَّرُ.

وجاء عند المفسّرين أنّ المُرَادَ من الضُّحَىٰ في هذه السُّورَةِ النهارُ كُلُّهُ، وأنَّ المرادَ منَ اللّيْلِ إِذَا سَجَا اللَّيْلُ كُلُّه، لكِنّي لم أجِدْ دليلاً على هذا.

فَما جاء في القرآن من استعمال كلمة «الضُّحَىٰ» في غير هٰذِهِ السّورة ظاهرٌ في أنَّ المراد أوّل النهار من ارتفاع الشَّمْس إلى الزوال.

ففي سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) يقول اللّٰهُ عزّ وجَلَّ:

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

فَدَلَّ هذا على أنَّ الضُّحَىٰ الّذِي هو وقْتُ اللَّعِب يَكُونُ قَبْلَ مُنْتَصَفِ النَّهار.

وفي سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قال الله عزّ وجلَّ حكايَةً لقَوْلِ موسى عليه السلام جواباً لفرعون إذْ طلَبَ منه تَحْدِيدَ موعد التحدِّي بين آياته وسِحْرِ السَّحَرة.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾.

وعادة الملُوكِ في المهرجانات الكبرى العامّة أن يجمعوا النّاس في أوّل النهار بعْدَ ارتفاع الشمس، وقبْلَ منتَصَفِه، وقبْلَ دُخُولِ وقْتِ الهاجرَة الّتي تشتَدُّ مَعَها حَرارَة الشَّمْس.

ولا داعِيَ لإخراج اللَّفْظِ عَنْ أصل دلالته اللُّغَوِيَّة، فَقَدْ أقْسَم اللَّهُ عزّ وجلَّ باللّيل عموماً، وأقْسَمَ بالنّهارِ عموماً، وأَقْسَم بالضُّحَىٰ على وجْهِ الخصوص، وأَقْسَم باللّيْلِ إذا سَجَا على وجْهِ الخصوص، فلا داعِيَ لإخراج

دلالات الألفاظ الخاصّة عن خصوصها في الاستعمالات القرآنيّة، ما أمْكن عقلاً وشرعاً حملها عليها، فلِلأَلْفَاظ العامّةِ دلالاتٌ تُقْصَدُ من جهة عمومها، وللألفاظ الخاصَّة دلالاتٌ تُقْصَدُ من جِهة خُصُوصِها.

● ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾:

وفي هذا قَسَمٌ باللَّيْلِ إذا سَجا، أي: في وقْتٍ من أوقاتِهِ وهو وقْتُ سُجُوِّه.

ومادّة: «سَجَا يَسْجُو سُجُوّاً وسَجْواً» تدور في اللُّغَةِ حَوْل معنَيين: السُّكُون. وتغْطِيَةِ الأَشْيَاء. ومع معنَىٰ السكون يأتي معنَىٰ الاستمرار والدّوام.

يُقَالُ لغة: سَجَا الشَّيْءُ إذَا سَكَنَ. ويقالُ سَجَا الثوبُ الجسَدَ إذا غَطَّاهُ. ويُقَالُ فيهما أَسْجَىٰ. ويُقَالُ: سَجَّىٰ الميّتَ إذَا غَطَّاهُ. وجاءت كلمة «سَجَا» في الكتابة القرآنيّة بالألف المقصورة مراعاة للنظائر في السُّورة، مع أنّ القاعدة الإملائية تقتضي كتابتها بالألف لأنّ أصْلَها واو.

ولِلْقَسَم بالضُّحَىٰ، وباللّيْلِ إِذَا سَجَا، مَعْنَيانِ مقصُودَانِ فَوْقَ كوْنِهِما آيَتَيْنِ من آيات الله في كَونِه، وهٰذَان المعنيان قَدْ رُوعِيَ فيهما الْمُقْسَمُ عَلَيه، إِذْ رُبَّما كانَ وقْتَا الضُّحَىٰ واللَّيْلِ إِذَا سَجَا في تِلْكَ المرْحَلة من مراحل رِسَالةِ الرسول محمّد ﷺ هما الوقتان المختاران لنُزولِ الوحْي عليه، فالضُّحَىٰ يكُونُ فيه الناسُ مُنْصَرِفين إلَىٰ أعمالهم وأسواقِهِم، فيَخْلُو فيه مُسْتَقْبِلُ الواردات الرَّبَّانِيَّة لِرَبّهِ، دُونَ أنْ يَجد ما يُعَكِّرُ صَفْوَه، ويُفْسِدُ عليه خَلْوتَهُ. واللَّيْلُ إذا سَجَا، أيْ: إِذَا سَكَنَ وأظْلَمَ وَكانَ ساتراً، هو وقْتُ صَفَاءِ الْقُلُوبِ والنُّفُوسِ والأَفْكارِ، وَوَقْتُ تَنَزُّلِ واردات المعارف الرَّبّانيَّةِ، والرّحَماتِ الْقُدْسِيّة.

فهٰذَان الوقتان الملائمانِ لِلْمُقْسَمِ عَلَيْهِ في السُّورَةِ، وهُوَ أَنَّ الله ما وَدَّعَ

رسُولَهُ وَمَا قَلاهُ، كما أشاعَ المكايِدُون والمكايِدَاتُ، والحاسِدُونَ والحاسِدَات.

● ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾:

أي: ما ودَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلاَكَ، كما زعَمُوا، وقَدْ حُذِفَ ضمير قَلاَك إيجازاً ولمراعاة التناظر.

هذا هو المقْسَمُ علَيْهِ في السُّورَةِ بالضُّحَىٰ وبِاللَّيْلِ إذا سَجَا.

ودَّعَ: أَيْ: فارَقَ غَيْرَ كَارِهٍ لِلّقَاء. فالمودِّعُ هو مَنْ يفارقُ وهُوَ مُتعلّقٌ بمَنْ وَدَّعه لَمْ يَكْرَهْ لقاءَه.

قَلَىٰ: يُقَالُ لُغَةً: قَلَىٰ فُلاَنٌ فُلاناً قِلىً، أي: أَبْغَضَهُ وهَجَرَهُ، فالْقَالي هو المبغض الكارِهُ، فإذَا فارَقَ فارَقَ عَنْ كراهيةٍ وَبُغْض.

ففي قول اللّهِ عزّ وجلَّ لرسُولِهِ مُقْسِماً بالضُّحَىٰ وباللّيل إذَا سَجَا: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ نَفيٌ شامِلٌ لكُلِّ صُوَرِ إنْهَاءِ صلة الوحي به، وأدناها التوديعُ مع بقاء الرّغبة في اللقاء، وأشَدُّها المفارقةُ مع البغضِ والكراهية.

ويظْهَر للمتدَبِّر أنَّ تَقْدِيمَ نَفْي التَّوْديعِ مع أنَّهُ أخَفُّ الأَمْرَيْنِ، علَى نَفْي القِلَىٰ وهُوَ أَشَدُّهُمَا قد كَانَ لمُرَاعاةِ حِكْمَتَيْن:

الأُولَىٰ: أنَّ فِعْل «قَلَىٰ» مُلاَئِمٌ لرُؤُس الآيات في السُّورة، دون فعل «وَدّع».

الثانية: أنَّ انْتِشَارَ شائِعَةِ: أَنَّ رَبَّ محمّد ودَّعَهُ قَدْ كَانَ أَكْثَرَ من انتشار شائِعَةِ: أنَّهُ قَلاَهُ، فاسْتَدْعَى هذا من البيان تقديمَ نَفْي ما هو أوْسَعُ انتشاراً، على نَفْيِ المقولَةِ الأُخْرَىٰ الّتي كان انتشارُهَا قَلِيلاً، واللّهُ أعلم.

● ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾:

في هٰذِهِ الآيَةِ طَمْأَنَ اللّهُ رَسُولَهُ عَنْ مُسْتَقْبَلِهِ بالْوَعْدِ الْكَرِيم، مَعَ

التلْويحِ لأعدائِه بأسْلُوب التَّعْرِيضِ، كيْ يتَمَيَّزُوا غَيْظاً في أَنْفُسِهم، فالنَّصُّ قَدْ أَعْرَضَ عَنهُمُ اسْتِهَانَةً بهم، وطَمْأَنَ اللَّهُ فيه رَسُولَهُ بخطابٍ مُبَاشِرٍ، مُبَيّناً لَهُ فيه أنَّ تَرَقّيَهُ في مِعْرَاجِهِ الأَبَدِيِّ الصاعِدِ مستمِرٌّ إِلَىٰ غاياتِ التَّنْعِيم والتَّكْرِيمِ والمقامِ المحمود، في دَارِ الْخُلودِ.

أيْ: فَإِذَا كُنتَ في الأُولَىٰ الرَّسُولَ المجتَبَىٰ المفضَّلَ على كُلِّ النَّاسِ، فإنَّكَ في الآخِرَةِ سَتَكُونُ المفضَّلَ أيْضاً، وستكُونُ الآخرةُ خيراً لَكَ إنْعاماً وإكراماً وتفضيلاً عظيماً.

وجاء تأكيدُ هذا الوعْدِ بمؤكّدَين: «لام الابتداء والجملة الاسميّة».

● ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾:

في هٰذه الآية مُتَابَعَةٌ للْوَعْدِ الكريم الوارِدِ في سابقَتِها ببيَانٍ فيه شَيْءٌ مِنْ تفْصِيلِ مُجْمَلِها، فكَوْنُ الآخِرَةِ خيراً للرسول من الأُولَىٰ كَلَامٌ مُجْمَلٌ، لكنَّهُ يعُمُّ كُلَّ مَا يُسْعِدُهُ فإنَّ اللَّهَ سَيُعطِيهِ من أَنواعِ الخيرَاتِ والسَّعَادَاتِ والمنازِلِ الرَّفيعَةِ والدَّرَجاتِ الْعَالِيَاتِ حتَّىٰ يَرْضَىٰ رضاً تامًّا، فَلَا يَجدَ في نَفْسِه مَطْلَباً إلاَّ نَالَ أَكْثَرَ مِنْهُ، ممَّا لَمْ يكُنْ يخْطُر في بَالِه.

إنَّ الوعْدَ بالْعَطَاءِ مع الإطلاق يشْمَلُ عطاءً لا حُدودَ لَهُ منْ كلِّ جنْسٍ ونَوْعٍ وفَضْلٍ وصِنْفٍ، بحَسَب رغائبِهِ صلَواتُ الله عليه.

ولـمَّا كانَ العطاءُ فوق مدَىٰ الطَّلبِ والأمانيّ قالَ اللَّهُ لرسُولِه في الآيةِ: ﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾ فجاء العطْفُ بالفاء الّتي تَدُلُّ على الترتيب مع التعقيب. ولو كانت العطاءاتُ دون أمانيه صلواتُ اللَّهِ عليه، لكانَ المناسبُ أنْ يكونَ التعبير: «حَتَّىٰ تَرْضَىٰ» فَدَلَّ الأداءُ البيانيُّ بدقَّتِه على أنَّ فيْضَ العطاء الرَّبَّانِيِّ له أَوْسَعُ مِنْ حُدودِ أَمَانيه صلوات اللَّهِ عليه، وقد تفرَّدَ الرسُول ﷺ بهذا الوَعْدِ الكريم في بيانات القرآن.

وَجاء توكيد هذه الجملة بمؤكّدَيْن: «لام الابتداء وحرْف سَوْف».

(٦)
التدبُّر التحليلي للدرس الثاني

الآيات من (٦ ـ ٨)

قال الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾؟

لَيْسَ الْغَرضُ من هذا الاستفهام الوارد في صدر هذه الآيات طَلَبَ الإفهام، بلْ هو استفهامٌ تقريريٌّ.

وفي هذا الاستفهام التَّقْرِيريّ، تَذْكِيرٌ من اللّهِ عزَّ وجلَّ لرَسُولِهِ بِمُتَابَعاتِ العِنَايَةِ به مُنْذُ نشْأَتِه، حتَّىٰ اصطفائِه لَهُ بالنُبوَّةِ والرّسالة.

وفي هٰذَا التّذكيرِ توجيهٌ ضِمْنِيٌّ لَهُ أَنْ يَقيسَ مُجْرَيات الوقائع، الّتِي أَثارتْ ضدَّهُ مُؤْذِيَاتِ الْمُكَايِدِينَ والْمُكايدات، ومُجْرَيَاتِ المسْتَقْبَلِ القرِيب والْبَعِيد، على وقائِعِ الماضي المشحُونِ بدَلائِلِ العنايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ به، إذْ لَمْ يَطْرأْ تَغْيِيرٌ وَلاَ تَقْصِيرٌ مِنَ الرسول ﷺ يقتضي تغييراً من قِبَلِ رَبِّهِ له، في رعايتِه ومُتَابعةِ العِنايَةِ به.

إذَنْ: فعلَيْهِ أنْ لا يَتَأَثَّرَ بالأَصْواتِ الإعلاميَّةِ الموَجَّهَةِ ضِدَّهُ من أعْدَاءِ رِسالَتِه، ولا بأَصْدائها، ما دامَ حظُّهُ من عنايَةِ رَبِّه بِه حظًّا وفيراً وعظيماً.

وانتقَىٰ اللّهُ عَزَّ وجَلَّ مِنْ صُوَرِ العِنَايَةِ السّابقَةِ بِهِ أهَمَّها، وَأَجْمَعَها، وأشْمَلَها، ممَّا هُو لدُنْياهُ، وممَّا هُو لآخِرَتِه.

فالأولى: إيواؤُهُ وهُو يَتِيمُ الأَب، ثُمَّ يَتِيمُ الأبوَيْن.

والثانية: هدايتُهُ في مسيرته في حياته، ثم هدايته لمعرفة الحقائق الدينيَّة الكبرىٰ، ولمعرفة صِرَاط النجاة والسَّعادة الخالدة في الفردوسِ الأعلَىٰ من جنَّاتِ النعيم.

والثالثة: تَيْسِيرُ سُبُلِ إغْنَائِه بما يَسُدُّ حاجاتِ عَيْشِهِ فِي حياته، وكانَ قَدْ نشَأَ فقيراً لا مَالَ لَهُ ولا مواريث.

فَحَمَىٰ نشْأَتَهُ، وسَدَّدَ طَرِيقَهُ بالهداية، ويَسَّرَ لَهُ من سُبُلِ العيْشِ ووسائِله ما يكْفِيهِ ويُغْنِيه عن المسألة.

• ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾﴾:

استِفْهَامٌ مُسَلَّطٌ علَىٰ النَّفْيِ، وجَوَابُهُ هُنَا: بلَىٰ، لأنَّ محمّداً قَدْ كَانَ يَتِيماً فآواه ربُّهُ جلّ جلالُه مُعْتَنِياً به.

وفي عِبارَةِ ﴿يَجِدْكَ﴾ مع أَنَّ اللَّهَ هو الّذي بحِكْمَتِهِ وقَضَىٰ وَقائِعَ يُتْمِهِ، تَعليمٌ من الله جلَّ جَلاَلُهُ الأدَبَ في عَدَمِ نِسْبَةِ مَا هُو مكْرُوهٌ إلَى الله تعالى في العبارة الكلاميَّة، وإنْ كان سبْحَانه هُوَ الّذِي قَضَىٰ وقَدَّرَ وَخلَقَ.

وتَمَشّياً مَعَ هذا الأدَب في العبارة قالَ سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلاَمُ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ كما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول).

يَتِيماً: اليتيمُ من النّاس من ماتَ أبوه، ويظَلُّ يتيماً حتَّىٰ يبْلُغَ الْحُلُمَ.

فآوَىٰ: أي: فآوَاكَ، والمَعْنَىٰ: فضَمَّكَ وأحاطَكَ بعِنَايَتِه، تقولُ لُغَةً: أَوَيْتُ فُلاَناً إلَيّ، وآوَيْتُهُ إليَّ، إذا ضَمَمْتَهُ إلَيْكَ وأحطْتَه بعنايتك وَرِعَايَتِك، وحُذِف ضمير آواك إيجازاً، ولمراعاة التناظر.

وُلِدَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَتِيم الأب، فكفَلَهُ جَدُّه عَبْد الْمُطَّلِب، وألْقَىٰ الله حُبَّهُ في قلْبه، فكان أَحبَّ إليه من سائِر ولَدِه.

وأخبارُ طفولته ورضاعه في السيرَة النبويَّةِ شواهِدُ علىٰ أَنَّ عِنايَةَ اللَّهِ به كانَتْ عظيمةً جدًّا، فلَمْ تُفارِقْهُ لحظةً واحدة.

وتُوُفِّيَتْ أُمُّهُ آمِنَةُ وهو ابنُ سِتِّ سِنِين، فكَانَ عِنْدَ جدِّه عَبْدِ المطلب،

وكان يَخُصُّه بتكريم لا يَخُصُّ بِهِ أحداً من أبْنَائِه، وكَانَ يتفرَّسُ له بمُسْتَقْبَلٍ عظيم فيقولُ: واللّهِ إنَّ لَهُ لَشَأناً.

ثُمَّ تُوُفِّيَ جَدُّهُ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِي سنين، فكفَلَهُ عمُّهُ شقيق أبيه «أبو طالب» فَضَمَّهُ إِلَيْهِ عملاً بوصيَّةِ أبيه عبْدِ المطَّلب. وألْقَىٰ اللّهُ حُبَّهُ في قَلْبِ عمِّه أبي طالِبٍ، حتَّىٰ كان يُحِبُّهُ أكْثَرَ من وَلَدِه، وكانَ لاَ ينَامُ إلاّ إلىٰ جَنْبِه، وكان يخصُّهُ بالطَّعَام دون بَنِيهِ، وكانَ هذا من مظاهِرِ المِنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ الأولَىٰ عَلَيْهِ.

● ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾:

ضَالاً: اسم «فاعل» من فِعْل «ضَلَّ» وهذا الفعل يُسْتَعْمَلُ بمعنى: «ضَاعَ، وغَابَ، وخَفِي» ويستَعْمَلُ متعدِّياً بنفسه، فتقُولُ: ضَلَلْتُ الطَّرِيقَ، إذَا بَحَثْتَ عنْهُ، فاشْتَبَهَتْ علَيْكَ السُّبُل، إمَّا لأنَّك لم تكُنْ تَعرفُه، وإمَّا لأنَّكَ نسيتَهُ. ويستَعْمَلُ متعدِّياً بحرف الجرّ «عَنْ» فتقول: ضلَلْتُ عن الطريق، وضلَّتْ عَنِّي دراهِمي.

والمناسبُ لحال الرسول ﷺ من هذه المعاني، هو المعنَىٰ الّذِي يدُلُّ على سابِقِ جهْلِهِ بطريقِ الهداية، وبحْثِه عنْهُ، واشتِبَاهِ السُّبُلِ عليْهِ، لكِنْ كانَتْ تُتَابِعُهُ الْعِنَايَة الرّبّانِيّة بالهِدَاية دون إبطاء، بَدَليل قول الله له: ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي: فهداك، إذ دلَّ العطفُ بالفاء على أنَّ هِدَاية اللّهِ له كانَتْ تَتَدَارَكُهُ دون تَرَاخٍ زَمَنِيٍّ، فالْفَاءُ تَدُلُّ على التَّرْتِيب مع التعقيب.

وهكذا كان واقِعُ حَال سيّدنا محمَّد ﷺ، فَلا إشْكال يَقتضي صَرْفَ لفظ «ضالاً» إلىٰ معاني ذكرها بعْضُ المفسِّرين.

ومعلومٌ أنَّه وُلِدَ خَاليَ الذِّهْنِ من المعارفِ والعلوم، وأنَّ اللّهَ كَانَ يفْتَحُ لَهُ أبوابَها، ويُرَقِّيه صاعداً في مَعَارِجها داوماً، ويُحيطُه بحِمَايَتِهِ وحِفْظِهِ، حتَّىٰ يَسْلُكَ مَهْدِيًا على صِراط الحقّ والخيْرِ والكمال.

لقد أَضاء الله له آفاق التفكير وَالتَّأمُّل، وأنْزَلَ عليه فُيُوضَ المعارف، وأَلْهَمَ قلْبَه ونفْسَه حُبَّ الحقّ والخير والفضيلة، فكان يرَىٰ الخلُقَ الكَرِيم، والسُّلُوكَ القويمَ، فيَلْتَزِمُ بِهما مُحَاطاً بِعنايَةِ الله وتوفيقه، وكان يَرَىٰ قبائح الجاهليّة ووَثنيَاتِها، فَتَعْزِفُ نَفْسُه عنها، حتَّىٰ اللَّهْوُ الَّذِي لا شَرَّ فيه وَلا ضُرَّ لَمْ يكُنْ له به تعلُّق، وهذا من عناية الله بِه، وتأديبِهِ له، وهدَايَتِهِ وتَوْفيقه.

وظلَّ كذلك في مراحِلِ نشأتِه، حَتَّىٰ كَانَ الرَّجُلَ الَّذِي يُشارُ إليه بالأَمَانَةِ وَكَمَالِ الخلُق في قوْمِه.

ثُمَّ اصطفاه الله بالنُّبُوَّةِ، ففتَحَ عَلَيْهِ فيوضَ العلم والهدايةِ، ثمَّ بعَثَهُ رَسُولاً، وصَارَ الوحْيُ يأْتِيه، وتَتَنَزَّلُ عليه آيَاتُ اللَّهِ، وتفيض على قَلْبِهِ وَارِدَاتُ الحِكْمَة.

وكلُّ هٰذا من مظاهِرِ المنَّةِ الثّانية الّتِي امْتَنَّ اللَّهُ بها عليه في قولِهِ لَهُ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾.

فإذا رَجَعَ إلَىٰ وِجْدَانِهِ يتفكَّرُ في هٰذِهِ المنَّةِ فإنَّه لا بُدَّ أنْ يكُونَ على ثِقَةٍ تامَّةٍ، وَيَقِينٍ رَاسِخٍ بأنَّ ربَّهُ لَنْ يتَخَلَّىٰ عنه، فلَنْ يُودِّعَهُ، ولَنْ يهْجُرَهُ قالِياً.

- ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾:

عائلاً: أي: فقيراً، يُقَال لُغَةً: عَالَ فُلانُ يَعِيلُ عَيْلاً وَعَيْلَةً، أي: افْتَقَر، فهُوَ «عائِلٌ وعَيِّلٌ» أي: فقير، والجمْعُ «عالَةٌ وعُيَّلٌ».

فأغنَىٰ: أي: فأغْنَاكَ، حُذِف الضمير إيجازاً ولمراعاة رُؤوس الآيات في السورة، يُقَالُ لغةً: أغْنَىٰ اللَّهُ فُلاناً، أي: جَعَلَهُ غنِيًا.

ويقالُ: غَنِيَ فُلَانٌ يَغْنَىٰ غِنىً، أيْ: كَثُرَ مالُهُ فهو غَانٍ وَغَنِيٌّ، إذْ صَارَ مكْتَفِياً به لسَدِّ حاجاتِ مَعَاشه.

هذه المنَّةُ الثالثَةُ الّتي امتَنَّ اللّهُ بها على رسولِه محمّد ﷺ في السّورة.

لقد نَشَأ محمَّدُ فقيراً فكفَاهُ اللّهُ معَاشَه ببَعْضِ كَسْبِه، ثُمّ أرسلَتْهُ التّاجرة السيّدة الكريمة خديجَةُ بنْتُ خُوَيْلِد بتجارة لَهَا إلى الشّام، فأنْعَمَ الله علَيْهِ بتجارَةٍ لخديجة رابحَةٍ جدًا، وَكانَ فيها الأمينَ وذَا الْخُلُقِ العظيم.

ثُمَّ أنْعَمَ الله عليه بالزّواج منْها، وهي الغنيَّةُ الثَّرِيَّةُ الحسيبَةُ النسيبةُ، فأغناه الله، وقد نزلَتْ سورة (الضحى) وهو في بحبُوحة العيش والغنىٰ عن الناس، مع زوجته الكريمة الحسيبة العاقلة الحكيمة الودود الولود، خديجة بنت خويلد.

هٰذه هيَ أهَمُّ وَأَجْمَعُ وأشْمَلُ صُورِ عنايَةِ اللّهِ بِه فيما سَبَقَ من حَيَاتِهِ قَبْلَ إنْزَالِ هذه السّورَةِ عليه.

وهي أماراتٌ دالأتٌ علَىٰ أنَّ مستقبلَهُ أجَلُّ وأعظَمُ وأرْجَىٰ لَهُ من ماضيه، بعْدَ اصطفائِه بالنُّبُوَّةِ والرّسَالة.

أي: وإذْ كانَتْ سَوابِقُ عنايَةِ رَبِّكَ بك أنّهُ وَجَدَكَ يَتِيماً فآوى، ووجَدَكَ ضالاً فهدَىٰ، ووجَدَكَ عائِلاً فأغْنَىٰ، فكُنْ على يقينٍ راسِخٍ بِأَنَّ اللّهَ لَنْ يتَخلّىٰ عن مُتَابعَةِ عِنايتِهِ بك، فلَنْ يُوَدّعَكَ ولَنْ يَهْجُرَكَ.



(٧)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث

الآيات من (٩ - ١١)

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾.

تمهيد:

بعد أَنْ طَمأَن الله عزّ وجلّ رسُولَهُ محمّداً ﷺ حوْلَ أمور مُسْتَقْبَلِه ومُتَابعَةِ عناية اللَّهِ به، عن طَرِيق تذكيره بسوابق عنايته به، الّتي لم تُفَارِقْهُ منذ نشأته، حتّىٰ اصطفائه بالنُّبُوَّةِ والرّسالة أجلِّ نِعَمِ الله عليه، وأرْفَعِها مقاماً، وأوْصَلِها إلى المقام المحمود يوم الدين، صار من المناسب في تربية الله لَهُ أن يُكلّفَهُ تكليفاتٍ مَبْنيَّاتٍ عَلىٰ كُلِّيَّاتِ النِّعَمِ الّتي أنْعَم بها عليه، وذكَّرَهُ بها، ليكُونَ عبْداً شَكُوراً لرَبّه.

فجاء في التَّكليفِ مُقَابلَةُ كُلِّ نِعْمَةٍ جاءَتْ في التَّذكير بتَكْليفٍ من جنسها.

• ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾:

جاء هذا التكليف للرسول ﷺ في مقابلِ قولِ الله عزّ وجلّ له في التذكير بسوابقِ النِّعَم: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾.

﴿فَأَمَّا﴾: الْفَاءُ عاطفةٌ للتفريع على ما سبَق، وفي هذا التفريع دلالة على أنَّ النّعمةَ تقتضي تلقائيًّا الشّكْرَ عليها بَعَمَلٍ من جِنْسِها، أي: فإيواءُ الله لك من الْيُتْم الذي وجدَكَ فيه، يقتضي منك أن تشكُرَ رَبّكَ الذي آواك بأنْ تُكْرِمَ اليتيم إذا وجَدْته، وتذكُرَ فيه نفْسَك حينما كُنْت مِثْله.

[أمّا]: حرْفُ شرط، وتوكيد، وتفصيل غالباً. ويَظهر كوْنها شرطاً من لزوم الفاء بعْدَها، وقد رأى علماء العربيّة أنّها تفيد التوكيد. وكوْنُها للتفصيل هنا ظاهرٌ من تكرارها بجانب القسمَيْنِ الآخَرَين في هذا الدرس.

ويُفْصَلُ بين «أمّا» وجوابها بواحدٍ من أشياء، منْها اسْمٌ منْصُوبٌ بجوابها مُقَدَّمٌ عليه، كمَا جاء هنا.

﴿ٱلْيَتِيمَ﴾: هنا مفعولٌ به مُقَدَّمٌ على فِعْلِه وهو: ﴿تَقْهَرْ﴾.

﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾: الفاء واقعةٌ في جواب الشرط. و «لا» حرفُ نَهْي يجزم الفعل المضارع، وهو هنا: «تَقْهَرْ».

الْقَهْرُ في اللّغة: الغَلَبَةُ، والأَخْذُ من فَوْقٍ، والْمَقْهُور هو المأخُوذ من غيْرِ رضاه. وقد كان المتبادِرُ إلى الذهْنِ أن يكون التوجيهُ للأمْرِ بإكرام اليَتيم، لا إلى النّهي عن قَهْرِه، فما هي الحكمة ممّا اختير في النّصّ؟

أقول: لمَّا كان المتبادر مِنْ مَعْنَىٰ الإكْرام الإعطاءَ والبذلَ، وهذا قد يكونُ مع التَّعَالي والإشْعَارِ بالتَّفضُّل، وفي هٰذَيْنِ نَوْعٌ من الغلَبَة الّتي لا تُرْضي آخِذَ العطاء حينما يأخُذُه اضطراراً أَوْ عَنْ حاجَةٍ، كانَ من المناسِبِ التصريحُ بالنهْي عن قَهْرِه، وفي هَذا إعلامٌ ضمنِيٌّ لغيْرِ الرسُول بأن لا يقْهَرَ اليتيم ولو كان يُعطيه وَيَبْذُلُ لَهُ مالاً أَوْ معُونةً أو خِدْمةً ما.

علىٰ أنّه قد سبق في سورة (الفجر/ ١٠ نزول) زَجْرُ الَّذِين لا يُكْرِمُونَ اليتيم، فكان من المناسب في سورة (الضحى/ ١١ نزول) التّصريحُ بالنّهْي عن قَهْرِه، ولَوْ مع مَعُونته والإنْعامِ عليه.

ولتطبيق هذه المحمَدَةِ وجوهٌ كثيرة لا تخفى على أهْلِ الذكاء، ومنها إقامَةُ دُورٍ لِرِعايَة اليتامَىٰ لا تظْهَرُ فيها وُجُوهُ المحسنين.

وقد جاء التوجيهُ لإكرام اليتامَىٰ والنَّهْي عن قَهْرِهم في المراحِلِ الأولى لتنزيل سُور القرآن، اهتماماً بالمستَضْعَفِين المحرومين من الحنان، الّذين يَشْعُرون بأنّهم في حياتهم مغلوبُونَ مَقْهُورُونَ، ورَبّما كانوا مع ذلك ذوي حاجةٍ فقراء، وهذا يضاعفُ من آلامهم.

إنّ اليتيم تزْدَحِم في نفسه تصوُّراتُ أنّه مغلُوبٌ مَقْهُورٌ، إذْ هو مَحْرومٌ من أبيه الّذي لو كان حيًّا لكان به معزّزاً كريماً مَكْفِيًّا، ومَحْبُوباً مُدَلَّلاً، وأنَّ من يُحْسِنُ إليه يَفْعَلُ ذٰلِكَ شفقةً عليه، لا حُبًّا لَهُ.

فكيْفَ بمَنْ يُذِلُّه، ويطْرُدُهُ، ويَدُعُّهُ دَعًّا، ويسْتَوْلي على ماله، ويُكَلِّفُه من الأعمال فوق تكليف أترابه ونظرائه من غَيْر اليتامَىٰ.

● ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾:

وجاء هذا التكليف من الله عزّ وجلّ للرسول ﷺ في مُقابِل قول الله له في التّذْكير بسَوابِق النِّعَم: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾.

جملَةُ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ معطُوفَةٌ علىٰ جُمْلة: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾. والجملتان مُتَماثلان تركيباً وإعراباً، فلا حاجة للإعادة.

﴿ٱلسَّآئِلَ﴾: هو في العرف العامّ طالِبُ الصّدقَةِ من الناس، والأصْلُ في لفظ السّائل أنّه ينطَبِقُ علىٰ كلّ مَنْ يُوَجّه سؤالاً ما، ولو لمعرفة خبَرٍ أو عِلْمٍ أوْ غيْرِ ذلك.

﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾: يقال لغةً: نَهَرَ فُلانٌ فُلاناً إذَا زَجَرَهُ وأغْضَبَهُ، فالنَّهْرُ الزَّجْرُ المثير للغضب.

جاء فيما سبقَ من تنزيل القرآن التوجيهُ للعطاء والأمْرُ به، إذْ أمر الله فيه رسُولَهُ بأنْ يمُنَّ غَيْر مُسْتكْثِر، وذَمّ الكافرين بأنّهم لا يَحُضُّون على إطعام المسكين، أي: فمِنْ خلائق المؤمنين أنَّهُم يُطْعِمُونَ المسكين، ويحضُّونَ على إطعامه.

إذنْ فالْخَصْلَة الحميدةُ الّتي يحْسُنُ التوجيه لها، بعْدَ هذه السَّوابِق حوْلَ موضوع العطاء، هي عَدَمُ نَهرِ السَّائل، والسَّبَبُ في هذا أنّ السَّائِلِينَ لأنفُسِهم في أغلَبِ الأحوال والأفْرَادِ إنَّما يسْألُون للاستكثار من الأموال، وعن غَيْرِ حاجة، إذْ غَدَتِ المسألَةُ لديْهِمْ بمثابةِ مِهْنةٍ امْتَهَنوها، فالسَّائلُ منهُم في الغالب المعتاد مظِنَّةُ غَنِيٍّ مُتَمَسْكِنٍ مُسْتكْثِر، وحينما يَغْلِبُ في تَصوُّر الناسِ هذا المعنىٰ فَإنَّ الحريصَ على بذْلِ العطاء لمستحقّيهِ يَضِيقُ بالسّائِل تِلْقَائيًا فَيَنْهَرُهُ ويَزْجُره.

لكِنَّ هذا الظّنَّ قَدْ لاَ يُوافِقُ حالَ السَّائِلِ، فيكُونُ نَهْرُهُ إيذاءً بالِغاً لقَلْبِه، وطَعْناً في مَكانِ جراحَتِهِ الّتي تُؤلِمُهُ، فكَانَ من الحكمة لِصيانَةِ

السَّائِلين ذوي الحاجَةِ الحقيقيَّةِ المجهولين، وإنْ كانُوا قَلِيلِينَ، توجيهُ النَّهْي عن نَهْرِ كُلِّ سائلٍ، حتَّىٰ لاَ يَمَسَّ النَّهْرُ سَائِلًا صادقاً.

ونأخذ من هذا قاعدة عامّة، وهي: لزوم الابتعاد عن أُمُورٍ كثيرةٍ غير ممنُوعَةٍ بجملَتِها، ولا يُؤَدِّي الابتعاد عنها إلى ارتكاب محرَّم أو ترْكِ واجب، مَخافَة الوقوع بمَمْنُوعٍ ضارٍّ مختَلِطٍ فيها، ولا يُسْتَطاع تمييزُه.

• ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾:

جاء هٰذا التكليف من الله عزّ وجلّ لرسوله في مقابل قَوْلِ اللَّهِ لَهُ في التذكير بسوابق النِّعَم: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾.

ظهر لي أنَّ المراد بنِعْمَةِ رَبِّهِ في هٰذه الآية هي نِعْمَةُ تَعَالِيم دين الإسلام الّتي هَدَىٰ الله بها رسُولَهُ، وعلَّمه إيَّاها، ونِعْمَةُ آيَاتِ الْقُرآن الَّتِي يَنْزِلُ بها عليه الوحْيُ من الله عزّ وجلّ.

ويَدُلُّ على هذا الفهم نُصُوصٌ قرآنيّة متَعَدِّدة، منها النصوص التالية المشتملَةُ على دلالات واضحات:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول) خطاباً لرسوله وردّاً على متّهميهِ بالجنون من قومه:

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾:

أي: بنِعْمَةِ الهدايَةِ والإسلام وما يتنزَّلُ عليك من القرآن.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الطّور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) خطاباً لرسوله أيضاً:

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: فَمَا أَنْتَ بما يُنْزِلُ اللَّهُ عَلَيْكَ من نِعْمَةِ القرآن وشرائع الإسلام بكاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ، وفي هذا رَدٌّ على ما اتَّهَمه به بعض مشركي قومه.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) بشأن مُشْرِكي مكّة:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

أي: أَفَبِالْبَاطِلِ الّذِي هُوَ الشِّرْكُ وَلوازِمُهُ الجاهليّة يُؤمِنُون، وبنِعْمَةِ اللَّهِ الّتِي هِيَ شرائِع دينِ الإسلام وآياتُ الْقُرآنِ يكْفُرُونَ؟!

(٤) وقول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾:

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾: أي: ويُتِمَّ علَيْكَ إنزالَ القرآن وبَيان شرائِع الإسلام وأحكامه، وكان هٰذا تمهيداً وَتوطِئَةً لما أنْزَلَ الله عليه في سورة (المائدة/ ١١٢ نزول) في الآية الآتي بيانُها، وسُورَةُ (الفتح) من أواخِر السُّور القرآنيّةِ في تَرْتيب النزول.

(٥) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا...﴾.

هٰذه الآية كانت آخِرَ آياتِ الأحكام الدينيّة نزولاً، نزلَتْ في حجّة الوداع يوْمَ الجمعة عَشِيَّة عَرَفَةَ كَمَا جَاء عند البخاريّ ومُسْلِمٍ وغيرِهما، وعاش الرسول بعدها (٨١) يوماً وقبضه اللَّهُ إليه بعْدَ ذلك.

فالنِّعْمَةُ المرادة هُنَا هي نِعْمَةُ شَرَائِعِ الإسلام، وأحكام الدِّين ونِعْمَةُ

الهداية إلى صراط اللَّهِ المستقيم، وهي التي تُلائِمُ امْتِنَانَ اللَّهِ عليه بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾.

فقولُ اللَّهِ عزّ وجلّ لرسوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ تكليفٌ من اللَّهِ لَهُ أَنْ يُحَدِّثَ النَّاسَ، بما أَنْزَلَ اللَّهُ عليه من نِعْمَةِ هَذا الدِّين، وأَنْ يُقَابِلَ مِنَّةَ اللَّهِ علَيْهِ بالهداية إِلَىٰ الدِّينِ الحقّ، وإلى سُلُوكِ الصراط المستَقِيم، بالدَّعْوَةِ إلى عَنَاصِرِ هذا الدّين، شُكْراً لِلَّهِ على ما مَنَّ بِهِ علَيْهِ من هداية.

ودَلَّ قَوْلُ اللَّهِ لرسُولِهِ ﴿فَحَدِّثْ﴾ علَىٰ أَنَّ أسْلُوبَ الدَّعْوَةِ إلى دين اللَّهِ وَصِرَاطِهِ المستقيم في هٰذهِ المرحلَة الَّتي نزلَتْ فيها سورةُ (الضُّحَىٰ) هو أسْلُوبُ الْحَدِيث، لاَ أسْلُوبُ الْخُطْبَةِ والموعظة العامَّة ونحوهما.

والعامَّةُ من المسلمين يَفْهَمُونَ مِنْ هٰذهِ الآيَةِ أنّ المطلوب التحدُّثَ بما يُنْعِمُ اللَّهُ به على عَبْدِه من أرْزَاقٍ وأموالٍ ونَحْوِها، وهذا كما ظهر غير مَقْصُودٍ هنا.

على أن المطلوب من النّاس أَنْ يَحْمَدُوا الله على ما أَوْلاهم منْ نِعَمٍ ظاهرة وباطنة، وأَنْ يَشْكُروا اللَّهَ عليها بأعمالهم وأقوالهم، أخذاً من نصوصٍ أخرى، ولا يُشترط التحدُّثُ عنها بالتفصيل للناس، فقد يثير هذا حسد الحاسدين، ومطامع الباغين.

ويلاحظُ في السّورة أَنّه جاء التّرْتيب في تفصيل المطلوبات في التكليف، علَىٰ خلاف الترتيب الّذِي جاء فيه تَعْدَادُ مِنَنِ اللَّهِ على رَسُوله، الَّتي سبَقَ أن امْتَنَّ عليه بها، والتي جاءت عناصر التكليف مُقَابِلَةً لها، ويسمَّىٰ هذا عند البلاغيّين النَّشْرَ على خِلاَف اللَّف.

والحِكْمَةُ من هذا الإجراء تظهَرُ لنا بملاحظة ما يلي:

أوّلاً: لقد جاء ترتيب المِنَن الَّتي امتنّ الله بها على رسوله موافقاً للترتيب الطبيعي:

(١) فالإيواءُ من اليُتْم قَدْ كانَ أوّلَ المِنَن، إذْ مَاتَ أبوه قَبْلَ وَلاَدَته.

(٢) وبَعْدَهُ بدأَتْ رِحْلَةُ الهداية والتعليم التي استمَرَّت.

(٣) وبَعْدَهما جاءت مِنَّةُ الإغناءِ من الْعَيْلَة.

ثانياً: أمّا مُقَابِلاتُها في التَّكْلِيف، فَقَدْ رُوعِيَ فيها الْبَدْءُ بإكرام اليتيم وعَدَمِ قَهْرِه، وإتباعُ هذا بِعَدَمِ نَهْرِ المسكين، لأنَّ العطْفَ علَىٰ ضُعَفَاءِ المجتمع وبائِسيه، من الوسائل الَّتي تَمْلِكُ القلوب، وتأسِرُ النُّفُوس، فَيَنْبَغِي أَنْ تكُونَ مُقَدَّمَةً علَىٰ الدَّعْوة إلى دين اللَّهِ والهداية إلى الصراط المستقيم، وهٰذِه الدَّعْوَةُ تَتَضَمَّنُ الحثّ على مخالفة التقاليد والعادات وأهواء النفوس وشهواتها، فلا بُدَّ لها من وسَائِلَ تَسْبِقُهَا، من شأنها أن تستعطف القلوب والنفوس، وتُلَيِّن ما تَصَلَّبَ فيها ضدَّ الحقّ والخير والفضيلة، وهذا إنما يكون عن طَرِيقِ مَحَابِّ النفوس، ومُرْضيات حاجاتها، وضروريات حياتها، وإشعارها بما في هذا الدين من خدمات اجتماعيَّةٍ جليلة، وعواطف إنسانيَّة نبيلة.

وبهذا تمّ تدبُّر سورة (الضحى) والحمد لله على توفيقه وفتحه

❁ ❁ ❁

(٨)
الملحق الأول
حول إسناد فعل: «وَجَدَ يَجِدُ» إلى الله في القرآن

تتبَّعْتُ الآيات القرآنيَّة التي جاء فيها إسناد فعل: «وَجَدَ يَجِدُ» إلى اللَّهِ عزّ وجلَّ، فظهر لي أنَّ هذا الإسْنادَ يكونُ في الأنواع التالية:

النوع الأول:

الأمور الّتي تكُونُ استمراراً لأصْلِهَا الّذي هو الْعَدَمُ في الوجود، ولاَ يَتِمُّ فِيها خَلْقٌ مَقْصُودٌ بالإرادة.

ومِنْ أمْثِلَةِ هذا النوع قولُ اللّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (الضُّحَىٰ) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾.

إنَّ الأَصْلَ في كلّ مَخلُوقٍ أَنْ يكونَ جاهلاً غَيْرَ عَارِفٍ سَبِيلَ هِدَايَتِهِ، فَهُو يَحْتَاجُ هدايَةً من الله تَهْدِيه سبيلَ رَشادِه وسعادته العاجلة والآجلَة.

وقَدْ هدَىٰ اللّهُ محمّداً، وزادَه فجعَلَهُ نَبِيًّا رَسُولاً، وحَمَّلَهُ أتَمَّ رِسَالَةٍ وَأكْمَلَ دِينٍ، وجعَلَهُ خاتم الأنبياء والمرسَلِين.

وإنّ الأَصْلَ في كُلِّ مَخْلُوقٍ أنْ يكونَ عائِلاً فقيراً، فإذا شَاءَ الله أن يُغْنِيَهُ أغْنَاهُ من فَضْلِه وَأَعْطَاه ما يكفيه أو زاده.

وقد كان محمَّدٌ عائلاً فقيراً، فأغْنَاهُ الله، إذْ هيّأَ لَهُ مِنْ وسائِلِ العيشِ ما يكفِيهِ ويغنيه عن المسألة.

النوع الثاني:

الأمورُ الّتي تَحْدُثُ لُزُوماً نتيجَةً لأَعْمَالِ خَلْقٍ مَقْصُودَةٍ لذواتِها في خطَّةِ التكوينِ، كإمَاتَةِ الوالدَيْنِ لانتِهاء أعْمَارِهما، وهذه الإماتَةُ يلْزَمُ عنْها تلْقَائِيًّا يُتْمُ أَوْلادهما الصغار الذين هم لم يَبْلُغوا الْحُلُمَ.

ومن أمْثِلة هذا النوع قول الله عزّ وجلّ في سورة (الضُّحَىٰ) أيضاً خطاباً لرسوله:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾.

ويُقَاسُ علىٰ هذا اللازم نظائرُه.

النوع الثالث:

الأمور الّتي تكونُ نتيجة إرادة المخلوقِ واختيارِه الحرّ، إذَا كَانَ مِمَّنْ مَنَحَهُمُ الله إرادةً واختياراً ليَبْلُوَهُمْ في ظروف الحياة الدنيا.

ومن أمثلة هذا النوع ما يلي:

(١) قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ بشأنِ آدم عليه السلام في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾:

أي: لم نَجِدْ لدَيْهِ إرادَةً قوِيَّةً من مستوى العزمِ، تجعَلُهُ يُحَافظ على عَهْدِه، ويَرْعَاه ويَسْتَمْسكُ به، وكانَ هٰذَا من لوازِمِ تخييرِه ومَنْحِهِ الإرادةَ الحرَّة ليبلوَه، وتسخير المسخرات الكونية للنّاس.

(٢) وقول اللَّهِ عزّ وجلّ بشَأْنِ أَيُّوبَ عليه السَّلام، في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾:

إنّ صَبْرَ أيُّوبَ قَدْ كان نَاتجاً عَنْ قُوَّةِ إرادَتِهِ في تَحَمُّلِ الآلام والمصائب، وهذا من لوازم تخييره ومَنْحِهِ الإرادة الحرَّةَ ليبلُوَه.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأنِ أهْلِ القرى الّتي أهْلَكَهَا الله بسبب كُفْرِها وتكذيبها رُسل رَبِّها وفِسْقِها:

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

ولهذا أَبَانَ الله عزّ وجلّ أَنَّ من صفات المنافقين، أَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ ما يُصِيبُهُمْ من أذىً على أيدي الكافرين، مِثْلَ عَذَابِ اللَّهِ الذي يُنْزِلُه ببَعْضِ عبادِه، غيْرَ نَاظِرِين إلَىٰ أَنَّهُ أَثَرٌ مِنْ آثارِ تخيير الله لَهُمْ، وتمكينِهِمْ من استخدام المسخَّرَاتِ للناس في الكون، لامتحانهم في ظروف الحياة الدّنيا، فقال اللَّهُ عزّ وجَلّ في سورة (العنكبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

(٩)

الملحق الثاني
حول «بلاغيات في سورة الضّحىٰ»

باستطاعة المتأمّل البلاغي أن يكتشف في هذه السّورة عدّة اختيارات بلاغية حكيمة، منها ما يلي:

الأولى:

جاء في عبارة: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ اختيار الاسم الظاهر المضاف إلى ضمير المخاطب وهو الرسول، ووَضْعُه مَوْضِعَ ضمير المتكلّم: «ما وَدَّعْتُكَ» لدواعي بلاغيّة، منها:

(١) مطابقةُ ما جاء في جملة النفي القرآنية لما جاء في الإشاعة المفتراة، إذْ قال المشركون: إنّ ربّ محمّد ودَّعه وقلاه.

(٢) التذكير بسوابق فضل رَبّه عليه، إذْ كان في ربوبيته له منذ نشأته يُتَابعُهُ بالمِنَنِ والمنَح والعناية الفائقة، فلفظ «ربّ» يُشْعِر بكلّ معاني الربوبيّة أخذاً من أصل وضع الكلمة ومشتقاتها، الدّالّ على معنَىٰ التربية.

(٣) إيثار الجمال التعبيري في السُّورة، الملائم لصِيَغ آياتها.

الثانية:

استخدام أدوات التأكيد في عدّة مواضع:

(١) تأكيد جملة: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ بالْقَسَم، لأنّ حال الرّسول النفسيّة تَستَدْعي تأكيد الخبر له، بعد إشاعة خصومه أنّ ربَّهُ وَدّعَهُ أو قلاه، مستغلّين تأخُّر الْوَحْيِ عَنْه قليلاً، بَعْدَ أن كان متواليَ الاتّصال به، ولا سِيمَا أنّه ما زال في أوائل بعثته رسولاً.

(٢) تأكيد وعد الله لرسوله بأنّ الآخرةَ خَيْرٌ لَهُ من الأولى، بلام الابتداء، وبالجملة الاسميّة، مراعاةً لحالته النفسيّة يومَئذٍ، ولإغاظة خُصُومه.

(٣) تأكيد وعد الله لرسوله بأنّه سوف يُعْطيه حتّىٰ يُرْضيه، بلام الابتداء، وبحرف التنفيس «سوف» كما يقول البلاغيون، إذْ قال له: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾.

وجاء هذا التأكيد أيضاً مراعاةً لحالة الرسول النفسيّة يومئذٍ، وإغاظةً لخصومه، من مُكَايِدِيه وحاسديه.

الثالثة:

الإيجاز بحذف ضمير الخطاب في: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ وفي ﴿فَهَدَىٰ﴾ وفي ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ مع مراعاة التناظر في رؤوس الآيات في السورة، وهذا من الزيناتِ اللّفظيّة المحبَّبَةِ للسَّمْع.

الرابعة:

تتابُع دُرُوس السّورة تَتَابُعاً تفريعيًا، فالدرس الأول منها يَشْهَدُ لِمَضْمُونِه مضمونُ الدَّرْس الثاني، إذْ هو بمثابة الدّليل عليه، والدرسُ الثاني منها يَسْتَدْعِي تكليفَ الرسولِ العمَلَ بمضمون الدرس الثالث، شُكْراً لِلَّهِ على سَوابقِ مِنَنِ اللّهِ عليه، وبهذا تتجلّىٰ للمتدبّر وحْدَةُ مَوْضوع السورة، وبناءُ السّورة بناءً تكامليًا تفريعيًا.

وانتهى تدبر سورة (الضحى) بفضل الله ومعونته



سُورَةُ الشَّرْح

أَوْ

أَلَمْ نَشْرَحْ

أَوْ

الانشراح

٩٤ مصحف ١٢ نزول



(١)
نص السورة وما فيها من فرشيات القراءات
سورة الشرح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

٥ - ٦ - قرأ أبو جعفر: [فَإِنَّ مَعَ الْعُسُرِ يُسُراً * إِنَّ مَعَ الْعُسُرِ يُسُراً *] بضَمِّ السِّينِ في الكلمات الأرْبَع.

وقرأ باقي القرّاء الْعَشَرَةِ بإسْكَانِ السِّينِ في كُلٍّ مِنْها.

الضَّمُّ والإسْكانُ لُغَتَانِ في السّين من كَلِمتَي الْعُسْرِ والْيُسْرِ.

(٢)
موضوع السورة

تـكـادُ تـكُـون سـورة (الـشَّـرْح) تـتـمَّـةً لـسـورة (الـضُّـحَـى) أوْ درْسـاً مـن دروسِها، بيْدَ أنَّها سُورَةٌ منفصلَةٌ، نزلَتْ بعْدَ (الضحى) خطاباً للرسول

محمّد ﷺ، والأسلوبُ البيانيُّ والتربويُّ والتكليفيُّ فيها مُشابهٌ لأسْلُوبها، مع فارق بيانيٍّ استدعى فَصْلَها.

وهي تشتَمِلُ علَىٰ استفهامٍ تقريريّ بما امْتَنَّ اللَّهُ به علَيْهِ مِنْ مِنَنٍ تَتَّصِلُ بوظيفته الّتي حمَّله الله أَعْباءَهَا، وهيَ كوْنُهُ نبيًّا رَسُولاً، سَيُواجِهُ لَدَىٰ قِيامِهِ بتَأْدِيَةِ رسَالَتِهِ في قومِهِ صُعُوبَاتٍ يُذَلِّلُهَا اللَّهُ لَهُ، ويُعِينُهُ عَلَيْهَا، ومَسَالِكَ ومُواجَهاتٍ وأعْمَالاً فيها عُسْرٌ يُيَسِّرُهُ اللَّهُ لَهُ بأَلْطَافِهِ الْخَفِيَّةِ، ومَعُوناتِهِ غَيْرِ المنْظُورة، فعليه أَنْ يُتَابعَ كُلَّما فَرَغَ من عَمَلٍ من أعْمَاله الجهاديَّة الدَّعَوِيَّةَ، مَهْمَا شاهَدَ في المنْظُورِ عُسْراً، فَالْيُسْرُ غَيْرُ المنظورِ مرافِقٌ لِهَذَا الْعُسْرِ مِنْ جَانِبَيْهِ، وهو كفِيلٌ بأَنْ يَضْغَط علَيْهِ ويَجْعَلَ سَبِيلَ الرَّسُولِ مَيْسُوراً، وهُوَ يقُومُ بأداءِ وظائف رِسالَتِه، وعَلَيْهِ أَنْ يَرْغَبَ إِلَىٰ رَبّه، داعِياً مُلْتَجِئاً يَسْتَمِدُّ مِنْهُ الْعَوْنَ والتوفيقَ والتَّسْدِيدَ والتأييدَ والنَّصْرَ والحِفْظَ دواماً، كُلَّمَا فَرَغَ مِنْ عَمَلٍ، واتَّجَهَ لِعَمَلٍ جِهادِيٍّ آخَرَ يَنْصَبُ فيه ويَتْعَبُ.

فالسُّورَةُ دَرْسٌ وَاحِدٌ مُكمّلٌ لِدُرُوس سُورَة (الضحى).

وما جاء فيها من توجيهٍ تكليفِيٍّ للرّسُول هو مُوَجَّهٌ أيضاً لِحَمَلَةِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمّتِهِ.



(٣)
التدبر التحليلي لآيات سورة الشرح

● ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ خطاباً للرّسُول ﷺ بضمير المتكلم العظيم:

أَلَمْ: اسْتِفْهَامٌ مُسَلَّطٌ على النَّفْي، وجوابُهُ هُنَا: بلَىٰ، لأَنَّ محمّداً ﷺ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَه، أي: بلَىٰ لقد شرحْتَ صَدْرِي.

وهذا من قبيل الاستفهام الذي يُرَادُ به التّقرير بالامتنان، لا طَلَبُ الإفْهَام، فهو ممّا خرج عن أصْل دلالَتِه، كنظيره الذي جاء في سورة (الضحى)، ويُقالُ فيه: استفهامٌ تقريري، كما هو مقرّر عند البلاغيين، ويُؤْتَىٰ به لانتزاع الإقرار بنقيض النفْي المستَفْهَم عنه.

فالمعنىٰ: لَقَدْ شَرَحْنَا لَكَ صَدْرَكَ، وهكذا مَا عُطِفَ عَلَىٰ فِعْل ﴿نَشْرَحْ﴾ من السُّورَةِ، وهو: [وَضَعْنَا] و [رَفَعْنا].

● ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾.

لمَّا كانَ حَرْفُ النَّفْي «لَمْ» الجازم للفعل المضارع يَقْلِبُ مَعْنَىٰ الفعل المضارع من الحال والاستقبال إلى الماضي جاء العطْفُ عَلَىٰ فِعْلِ ﴿نَشْرَحْ﴾ بِفِعْلَيْن مَاضِيَيْنِ، وهما: [وَضَعْنَا] و [رَفَعْنا] والمعنى: وَأَلَمْ نَضَعْ عَنْكَ وزرَكَ، وأَلَمْ نَرْفَعْ لَكَ ذِكْرَكَ.

﴿نَشْرَحْ﴾: الشَّرْحُ في اللُّغَةِ: يأتي بمَعْنَىٰ: قَطْعِ اللَّحْمِ وشَقِّه، فالشَّرْحَةُ والشَرِيحَةُ هي القِطْعَةُ الْمَشْرُوحَةُ من اللَّحْم.

ويأتي الشَّرْحُ بمَعْنَىٰ: الْبَسْطِ والتَّوْسِعة، ومِنْهُ شَرْحُ الصَّدْرِ للإسلام، وشرْحُ الصَّدْرِ يكون بانفراجه وسُرُورِه، وذهَابِ ضِيقِ الْهَمّ والْغَمّ والْحُزْنِ عنه.

ويأتي الشرْحُ بمعنَىٰ: الكَشْفِ والإيضاح، فالمسألةُ المشكلَةُ أو الصَّعْبَة يكُونُ شَرْحُها بتَوْضِيحِ وكَشْفِ ما هو غامِضٌ فيها.

وهذه المعاني كُلُّها تَنْطَبِقُ على حالِ الرَّسُول محمّد ﷺ:

(١) فقد شرَحَ اللّٰهُ صَدْرَه إذْ أَجْرَى لَهُ عمليَّةَ شَقِّ الصَّدْرِ كمَا ثبَتَ في الصّحيح، ونزَعَ من قَلْبِه حظَّ الشَّيْطان، وكانَ هٰذا إكراماً من اللّٰهِ له، وقَدْ أجراه اللّٰهُ على خلاف مَجْرَىٰ العادات، إذْ تولاّهُ رُسُلٌ من الملائكة، في عَمَلِيَّة جراحِيَّةٍ ملكِيَّة، تَمَّ فيها شَقُّ صَدْرِه، وإخراجُ قَلْبِه، ونَزْعُ حَظِّ

الشَّيْطَانِ منه، ثُمَّ أُعِيدَ قَلْبُهُ إِلَىٰ مَكانِهِ وَضُمَّ صَدْرُهُ بَعْضُهُ إلى بَعْضٍ عِنْدَ مكانِ الشَّقِّ، والْتَأَمَ مَكَانُ الشَّرْح.

وهٰذِه الحادثة الّتي جرَتْ للرَّسُولِ على خلاف مجرى العادات، صَارَتْ في عَصْرِنا من العمليات الجراحيّة الطبيَّة المنتشرة المعروفة عند كُلِّ شُعُوب الأرض، ولكن يَتِمُّ بها عِلاَجَاتٌ جَسَدية بحت، لا تَصِلُ إلى مراكز الإرادات والعواطف والمعارف.

وقد ورد في وصف حادثة شقِّ صدْر الرسول ﷺ روايات متعدّدة، منها ما يلي:

● روى مسلمٌ عن أنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ أتَاهُ جبريلُ عليه السّلام وهو يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَان، فأخَذَهُ فصرَعَهُ فشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، واسْتَخْرَجَ منْهُ علَقَةً سَوْداءَ، فقال: هَذا حظُّ الشَّيْطَان، ثُمَّ غَسَلَهُ في طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بمَاءِ زمْزَمَ، ثُمَّ لأَمَهُ، ثُمَّ أعَادَهُ في مَكانِهِ، وجاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إلى أُمِّهِ (أي: مُرْضِعَتِهِ ومُرَبّيَتِهِ) فقَالُوا: إنَّ مُحمَّداً قَدْ قُتِلَ، فاسْتَقْبَلُوهُ وهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْن».

مُنتَقِعُ اللَّوْن: أي: متغيِّرٌ مُصْفَرٌّ ممَّا حَدَثَ لَهُ من الخوف.

قال أنَسٌ: وقَدْ كُنْتُ أَرَىٰ أَثَرَ ذَلِكَ الْمَخِيطَ في صِدْرِه.

● وروى أَبو نُعَيْم والإِمَامُ أحْمَدُ وصحَّحه الحاكم عن عُتْبَةَ بْنِ عبد اللّهِ، أنَّ رجُلاً سَأَلَ النبيَّ ﷺ فقال: كيْفَ كَانَ أَوَّلُ شَأنِكَ يَا رسُولَ الله؟. قال:

«كَانَتْ حاضِنَتِي مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، فَانْطَلَقت أَنَا وابْنٌ لَهَا فِي بَهْمٍ[1] لنا، ولَمْ نَأْخُذْ مَعَنا زَاداً، فَقُلْتُ: يَا أَخِي[2]، إذْهَبْ فَأْتِنا بِزَادٍ مِنْ

---

(١) **الْبَهْمُ**: جمع البَهْمَةِ، وهيَ الصغيرُ من الضأن (الذكر والأنثى فيه سواء).

(٢) كان أخاه من الرّضاعة.

عِنْدِ أُمِّنا، فانطَلَقَ أخِي، ومكَثْتُ عِنْدَ البَهْمِ، فَأَقْبَلَ طَائِرَانِ أَبْيَضَانِ كَأَنَّهُمَا نَسْرَانِ، فَقَالَ أحَدُهُما لصاحِبِهِ: أَهُوَ هُو؟ قَالَ: نَعَمْ. فَأَقْبَلاَ يَبْتَدِرَانِي[١] فَأَخَذَاني، فَبَطَحَانِي لِلْقَفَا، فَشَقَّا بَطْنِي، ثُمَّ اسْتَخْرَجَا قَلْبِي، فَشَقَّاهُ، فَأَخْرَجَا مِنْهُ عَلَقَتَيْنِ سَوْدَاوَيْنِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: ائْتِنِي بِمَاءِ ثَلْجٍ، فَغَسَلاَ بِهِ جَوْفِي، ثُمَّ قَالَ: ائْتِنِي بِمَاءِ بَرَدٍ، فَغَسَلاَ بِهِ قَلْبِي، ثُمَّ قَالَ: ائْتِنِي بِالسَّكِينَةِ، فَذَرَّاهَا[٢] في قَلْبِي. ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: خِطْهُ، فَخَاطَهُ، وَخَتَمَ عَلَىٰ قَلْبِي بخَاتَمِ النُّبُوَّة. فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: اجْعَلْهُ فِي كِفَّةٍ، وَاجْعَلْ أَلْفاً مِنْ أُمَّتِهِ فِي كِفَّةٍ، فَإِذَا أَنَا أَنْظُرُ إِلَىٰ الأَلْفِ فَوْقِي، أُشْفِقُ أَنْ يَخِرَّ عَلَيَّ بَعْضُهُمْ. فقالَ: لَوْ أَنَّ أُمَّتَهُ وُزِنَتْ بِهِ لَمَالَ بِهِمْ.

ثُمَّ انطَلَقَا فَتَرَكَانِي، وَفَرِقْتُ فَرَقاً شَدِيداً[٣]. ثُمَّ انطَلَقْتُ إِلَىٰ أُمِّي، فَأَخْبَرْتُهَا بالَّذِي لَقِيتُ، فَأَشْفَقَتْ أَنْ يَكُونَ قَدْ لُبِّسَ بي، فقالَت: أُعِيذُكَ باللَّهِ، فَرَحَّلَتْ بَعِيراً لها، وحَمَلَتْنِي عَلَىٰ الرَّحْلِ، وَرَكِبَتْ خَلْفِي، حَتَّىٰ بَلَغْنَا إِلَىٰ أُمِّي[٤]، فَقَالَتْ: أَدَّيْتُ أَمَانَتِي وَذِمَّتِي، وحَدَّثَتْهَا بِالَّذِي لَقِيتُ فَلَمْ يَرُعْهَا. وقَالَتْ: إِنِّي رَأَيْتُ خَرَجَ مِنِّي نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ».

● ورأىٰ طائِفَةٌ من الْمحقِّقين أنَّ حَادِثَةَ شَقِّ الصَّدْرِ قَدْ تَكَرَّرَتْ فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ ﷺ، جمعاً بيْنَ الروايات المتعدّدة المثبتَةِ حُدُوثَها في أزمنَةٍ مختَلِفَةٍ مُتَباعِدَة.

هذا الشَّرْحُ الّذِي هو بمعنَىٰ الشَّقِّ قَدْ كانَ إحْدَىٰ الْمِنَنِ الَّتِي امْتَنَّ اللَّهُ بها على رسُوله، إذْ أخْرَجَ من قَلْبِهِ حظَّ الشيطان، فكان بإخراجِهِ منه مُنْشَرِحاً لأفْعَالِ الخير والبِرِّ والتحلّي بالفضائل والكمالاَت.

---

(١) **يَبْتَدِرَاني**: أي: يُسْرِعَانِ إليَّ.
(٢) **فَذَرَّاها**: أي: فَأَجَالَهَا فِي قَلْبِي كما تفعَلُ الريحُ إذْ تُطِيرُ الأَشْيَاءَ بِسُرْعَةٍ.
(٣) **فَرَقاً شَدِيداً**: أي: خوْفاً شديداً.
(٤) أي: إلى أمّهِ التي ولدته آمنة.

(٢) وَأَمَّا الشَّرْحُ بمعنَىٰ الْبَسْطِ والتوسعَة، فَهُوَ ما أَنْعَمَ اللَّهُ به عَلَىٰ رسُولِه من إزالة الضِّيْقِ عن صَدْرِه، الّذي يُحْدِثُهُ عادَةَ الْهَمُّ والْغَمُّ والحزَنُ، وألَمُ النَّفس الّذي يَحْدُثُ بسبَبِ عدَمِ تَحْقِيق المطالِبِ التي تَتعلّقُ بها طُمُوحَاتُها، ونحو ذلك.

ويدخُلُ في هذا المعنىٰ أيْضاً انشراحُ صدْرِهِ لِفِعْلِ الخيْرِ والبرِّ وطاعَةِ اللَّهِ في كُلِّ أَمْرٍ، والتَقرُّب إلَيْهِ بِمَحَابِّه، بما أعطاه الله من مشاعِرِ لذةِ العمل الصالح.

ويَدْخُلُ فِي هذا المعنى أيْضاً انْشِرَاحُ صَدْرِه صلواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لوارداتِ المعارفِ والْعُلُومِ والمفهومات الصحيحات السَّاميات، بإشراقٍ لا ظُلْمَةَ معَهُ ولاَ غَبَشَ فِيه.

وعلىٰ هذا المعنىٰ من معاني الشَّرْح ورَدَتْ نصُوصٌ قرآنيَّةٌ مُتعدّدة، مِنْهَا النُّصوص التالية:

● ما جاء في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) حكايَةً لِدُعَاءِ مُوسَى عليه السّلَام، إذْ أَمَرَهُ اللَّهُ بأنْ يَذْهَبَ لدعوة فرعون إلى الإيمان والإسلام، وتَرْكِ مَا هُو فيه من طغيان، فقال اللّه عزّ وجلَّ فِيها حكايَةً للقصّة:

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾.

فدلَّ دعاء موسىٰ عليه السلام ربَّهُ، بأنْ يشرح له صدْرَه، علَىٰ أنَّ شَرْحَ الصَّدْر لحَمَلَةِ رِسَالة الدَّعْوة إلى اللّه، والنُّصْحِ والإرشاد، والأَمْرِ بالمعروف والنهْيِ عَنِ المنكر، من المطالب المهمَّةِ، المساعِدَةِ على القيام بوظائف الرسالة بثباتٍ وحِكْمَةٍ ورُشْدٍ، وبَصِيرةٍ مستنيرة، وهِمَّةٍ عالية، وعَزِيمَةٍ قَوِيّة.

● وقولُ اللّه عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

أي: وَمن يُرد اللّه أن يَهْدِيَهُ لسُلوك صراط الإسلام مُعَاناً، بسَبَبِ سَوابقِ إيمانه الصّادِقِ الصّحيح، يَشْرَحْ صَدْرَهُ للقيام بالتطبيقاتِ الإسلاميَّة العمليَّةِ الْجَسَدِيَّة والنفسيّة، فَهُو يَنْطَلِقُ في حياتِه مَهْدِيّاً مُعَاناً.

ومَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ عَنْ سُلُوك الصِّراط المستقيم صِرَاطِ الإسلام العملِيّ في تطبيقاته، بِسَبَبِ عَدَمِ إيمانِهِ الذي هو الأسَاسُ والقاعِدَةُ لكلّ سُلُوكٍ إسْلَامِيٍّ، يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضيّقاً حَرَجاً يكادُ يختَنِقُ كأنّما يَصَّعَّدُ في السّماء، كلَّما وَجَدَ نَفْسَهُ مُلْزماً بأنْ يَقُومَ ببَعْضِ التطبيقات الإسلاميّة، مخالفاً فيها هواه أو شَهَواتِه، لأنَّ هٰذه التطبيقات غَيْرُ مبنيَّةٍ على إيمان صحيح صادق. وتنْطَبِقُ هٰذِهِ الحالَةُ على المنافقين الّذين يجدُونَ أنْفُسَهُمْ مضطرّين لِمُمَارسَةِ أعمالٍ إسلاميّة بين المؤمنين الصادقين.

وسمَّىٰ اللّهُ هذا الضّيق والحرَجَ في الصَّدْرِ رِجْساً، وأَبَانَ أنَّهُ يَجْعَلُهُ على الَّذينَ لاَ يُؤْمِنُونَ.

وهذه من سُنَنِ اللّهِ في كَوْنه، فَمَنْ آمَنَ بقضيَّةٍ ما إيماناً صحيحاً صَادِقاً، انْدَفَعَ إلَىٰ القيام بأعْمَالها مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ، مُتَفائلاً بتحقيقِ نتائجَ يطْمَعُ بتحقيقها ممّا يُحِبُّ. ومَنْ لم يُؤْمِنْ بها انقبضَتْ نَفْسُه، ولم يَنْشَرِحْ صَدْرُهُ للقيام بالأعمال الَّتي تتطلَّبُها أَوْ تَدْعُو إلى القيام بها.

وسُوءُ تَدَبُّرِ هٰذِهِ الآيَةِ يأتي مِنْ عَدَمِ الانتِبَاهِ إلَىٰ قول اللّهِ في آخرها: ﴿... كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وعَدَمِ مُلاحَظَةِ الفَرْقِ بَيْنَ الإِسلام الّذِي يُرادُ به التطبيقاتُ العمليّة، وبَيْنَ الإيمان الذي هو

الإذْعَانُ والاعْتِرَافُ الْقَلْبِيُّ والتَّصْدِيقُ بمَا جَاءَ عَنِ اللَّهِ ورسولِه من حقائِقَ علميَّةٍ اعتقاديَّة.

وسوءُ تدبُّرِ هذه الآية يوقع في المفهومات الجبرية الباطلة.

● وقول الله عزّ وجل في سُورَة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: أفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَه للتطبيقات الإسلاميّة بسبَبِ إيمانه الصحيح الصّادقِ وذِكْرِهِ للَّهِ وَلليوم الآخر، ولما هو مطلوبٌ منه في رحلة امتحانه للفَوْز، فَهُو علىٰ بَيِّنَةٍ من رَبِّهِ في مَسِيرَتِهِ في حياته، كَمَنْ كَفَرَ فلَمْ يَشْرَحِ اللَّهُ صَدْرَهُ للتطبيقات الإسلاميّة، لعَدَمِ إيمانه الّذِي يَجْعَلُ قَلْبَه قاسِياً مِنْ جِهَةِ ذِكْرِ اللَّهِ ومطلوبَاتِهِ منه في رِحْلَةِ امتحانه؟! وحينما لاَ يَنْشَرِحُ صَدْرُه للتطبيقات الإسلاميَّةِ يَكُونُ حَتْماً في ضَلاَلٍ مُبِينٍ، بَعِيداً عَنْ صراط اللَّهِ المستقيم.

(٣) وأمَّا الشَّرْحُ بمَعْنَىٰ الكَشْفِ والإيضاح فانْطِبَاقُهُ علَىٰ حال الرسول ﷺ أمْرٌ ظاهر، إذْ كشَفَ اللَّهُ لَهُ وأوْضَحَ الحقائقَ وَالمعارِفَ الكُبْرَىٰ المتعلّقَةَ بمَسَائِلِ الدِّين، فهِيَ وَاضِحَةٌ جَلِيَّةٌ في عُمْقِ قَلْبِهِ الَّذِي في صَدْرِهِ، وهذا من إطْلاَقِ المَحَلِّ وإرَادَةِ الْحَالِّ فِيه، إذْ إنّ هذه الحقائِقَ والمعارفَ الرّبَّانِيَّةَ حالَّةٌ في صَدْرِهِ بجَلاَء ووضوحٍ، ومُحَاطَةٌ بأنْوَارٍ مِنَ اللَّه، والمرادُ بشرح الصَّدْرِ على هذا المعنىٰ إيضَاحُ وتجليَةُ الحقائِقِ الرّبَّانيَّةِ الحالَّةِ فيها.

● ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ﴾: أي: أَزَلْنا عَنْكَ، وألْقَيْنا عَنْكَ، عِنَايَةً بِكَ وَتَخْفيفاً.

﴿وِزْرَكَ﴾: الوِزْرُ في اللُّغَةِ: الحِمْلُ الثَّقِيل. وأُطْلِقَ الوِزْرُ عَلَىٰ الذَّنب،

لأنَّ الْمُذْنِبَ يَحمِلُ تَبِعات ذَنْبِهِ إلى رَبِّهِ حتَّىٰ يُحَاسِبَهُ عليها يوم الدّين. وَجَمْعُ وِزْرٍ «أوْزَار».

﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾: أي: جَعَلَ فِقَراتِ ظَهْرِكَ تُعْطِي صَوْتاً باحتِكَاكِ بَعْضِها ببَعْضٍ، من ثِقَلِ الْحِمْلِ الّذي علىٰ ظَهْرِك.

النقيضُ من الأصْوات: مَا يَكُونُ لمفاصِلِ الجسْمِ حينَ تُعْطِي صَوْتاً من ثِقْلٍ يَقَعُ عليها، والناسُ يَضْغطون على الأصابع عند المفاصِلِ فتُطْلِقُ صَوْتاً، هٰذَا الصَّوْتُ يُطْلَقُ عليه في اللُّغَة اسْمُ: «نَقِيض».

ويُطْلَقُ النقيض أيضاً على أصوات الفراريج، والوزَغ، والضفادع، ونحوها.

فعِبَارَة: ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ كِنَايَةٌ عن ثِقَلِ الْحِمْلِ الَّذِي كان محمَّدٌ ﷺ يَحْمِلُه، وهُوَ حِمْلٌ مَعْنَوِيٌّ قَدْ وَضَعَهُ اللّه عنه، ولاَ يُشْتَرَطُ أَنْ يَحْصُلَ منْهُ نَقِيضٌ يُسْمَعُ.

فما هُوَ هذا الْحِمْلُ الّذي وضَعَهُ اللّهُ عزّ وجلَّ عَنْهُ ﷺ؟

أمّا مَعْنَىٰ الذّنب لكَلِمة «الوِزْر» فغير وارِدٍ هُنَا حَتْماً.

إنَّ الدليلَ العقليَّ والدّليلَ النقلِيّ يُثْبتَانِ خِلاَفَ ذَلِكَ دُونَ شكٍّ وَلا إشكال.

أمّا قَبْلَ النبوّة والرّسالَةِ فلَمْ يَكُنْ لدَىٰ محمّدٍ تكاليف عمليَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ حتَّىٰ يُخالفها بالذُّنوب، وثَبَت أنّه صلوات الله علَيْه وسلاماته لم يُشْرِكْ برَبّه أحداً، ولم يكُنْ يدعو شيئاً من الأوثان مثْلَ قومه، حتَّىٰ إنَّه لم يكُنْ يَحْفِل باللّهْو الّذي كان يشْغَلُ شبَابَ أهْلِ مكّة، ولم يُعْرَفْ عنهُ إلاَّ كَمَالُ الخلُق، فتصَوُّرُ الذنُوب منه قبْلَ بعْثَتِهِ تَصَوُّرٌ لاَ مَحَلَّ له، وهو مُجافٍ للواقع تماماً.

وأمّا بعْد النبوّة والرّسَالة، فالْعِصْمَةُ تُنَافي احْتِمَالَ وقوعِ ذُنُوبٍ منْهُ

تُنْقِضُ ظَهْرَه، ولا سيما أنّ هذه السُّورة قَدْ نَزَلَتْ وهو ما زال في أوائل قيامه بوظائف رسالته، وفي المراحل الأولى من دعوته، فكَيْفَ تَتَراكَبُ عليه ذُنُوبٌ تُثْقِلُ ظهرَهُ وهُو في هذا الحال. إنَّ هٰذا لأَمْرٌ مرفوضٌ قطعاً، وحَمْلُ الوِزْرِ على الذنب هنا حَمْلٌ مُنْكَرٌ من الْقَوْلِ وزُور.

فما هو الحِمْلُ الثقيلُ المرادُ من كلمة الوِزْر الواردة في هذه السُّورة؟

أقول: لدَىٰ التفكّر المتأنّي في حالَةِ محمّد ﷺ، بحْثاً عمّا يمْكِنُ أَنْ يكون لدَيْه منْ حِمْلٍ ثقيلٍ ينوءُ بِهِ ظهرُه، تَظْهَرُ لنا حقيقَةُ طُمُوحاتِه، وهِمَّتِهِ العليّة، وآمالِه الواسعة، وهُمُومِهِ الكُبْرَىٰ، لإِصْلَاح قَوْمِهِ، وإِنْقاذِ البشرِيَّةِ من خبائِثها وشُرُورها وظُلْمِها وفسَادِها العريض.

فقَدْ بَدأ يحْمِلُ هُمُومَ إصْلَاح أحوال أهله وأسْرَته ومَنْ حَوْلَهُ منْ عَشِيرَته، ثُمَّ تنامَتْ هُمُومُهُ بالرَّغباتِ الملِحَّاتِ فيه لإصلاح قَوْمِهِ كُلِّهِم في جَمِيعِ الأراضي العربيّة، فكان كثير التفكير في ذلِكَ، الأمْر الذي جعله مُثْقَلاً بالهُمُوم، باحِثاً عن وسائل الإصلاح، متفكِّراً بالمبادئ الّتي يَجِب أن يقومَ عليها الإصلاح، وبالمنهاج الذي يجب أن يَسِيرَ عليه قومُه.

ولا بُدَّ أن تكون قد تنامَتْ هُمُومُهُ بالرَّغبات الْمُلِحَّاتِ في الإصلاح العامّ الشامل، حتَّىٰ صَارَ يَحْمِلُ هُمُومَ إِصْلَاح شُعُوبِ الأرْضِ جميعاً، عَرَبِهِم وعَجَمِهِم، وصَارَ يُجْهِدُ مَلَكَاتِهِ الذهنيَّةِ في التأمُّل والتفكير والبحث، وطَرْحِ الاحْتِمَالاَتِ، ومحاولَةِ استخراج المبادئ والمناهج ووسائل التنفيذ، فمن كان مثْلَهُ ذا فِطْرَةٍ عالية، ونَفْسٍ كبيرة، وفِطْنَةٍ فَذّة، وهمّةٍ رَفيعَةٍ، وَتَحَلٍّ بأكْرَم الصِّفَاتِ البشريَّةِ والْخُلقِ العظيم، فلا بُدَّ أن تكون له هِمَّةٌ نَفْسِيَّةٌ عظيمةٌ جدّاً، تُكلِّفُه أن يَحْمِلَ من هموم الإصلاح البشريّ مَا يُثْقِلُ ظَهْرَهُ ويُنْقِضه.

وإِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَاراً تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الأَجْسَامُ

ولمّا كانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَحْمِلُ هذا الْحِمْلَ الْعَظِيمَ من الْهَمّ الكبير، لَمْ يَجِدْ لِنَفْسِهِ الكبيرَةِ السّامِيَةِ، وقَلْبِهِ العظيم، إلاّ الْخَلْوَةَ بربِّه في ذروة جَبل حراء، عِنْدَ غارٍ صَغِيرٍ هناك، فصَار يَتَعَبَّدُ فيه اللَّيَالِيَ ذوات العدد، ثمّ يعودُ إلىٰ أَهْله ليَأْنَسَ بِهِمْ أيّاماً، ثُمَّ يَدْفَعُهُ همُّهُ العظيم، وشَوْقُهُ المتوهّج إلى الْخَلْوَةِ بربّه، فيأْخُذُ زادَه، عَوْداً إلىٰ الغار في ذروة حِرَاء، فيَعْبُدُ ربَّه، ويَسْبَحُ في تَأَمُّلاَتِه، مُعَانياً هُمُومَ إصْلاحِ الناس جَميعاً.

وظلَّ كذلِكَ حتَّى اصطفاه اللّه بالنُّبُوة الّتِي كان قَدْ أعَدَّهُ لها، ثم بالرِّسَالَةِ الخاتمة، إذْ أرسَلَ إليه الملَك جبرِيلَ عَلَيْه السّلام، وَبدَأَ يُلْقِي عَلَيْهِ ما يأمُرُهُ اللّهُ به، وَيُتَابِعُهُ ببيان أركان الإيمان وعناصِرِ مِنْهَاج السُّلُوكِ، وَوَسَائِلِ التبليغ، وأساليب التربيَةِ والإصلاح، وبهذا أَلْقَىٰ اللّهُ عزّ وجلّ عن ظهر محمّد ﷺ كُلَّ هُمُومِهِ، فَتوجَّهَ لتَلَقِّي التَّعْلِيمات والأَوامر الرّبّانِيّة، مَهْدِيًّا بِهَدْيِ رَبّه، مُلْقِياً عَنْ ظَهْرِهِ أَعْبَاءَ رَسْمِ مِنْهَاجِ عَمَله، يتَرَقَّبُ ما يُسْعِفُهُ اللّه به عن طَرِيقِ الوحي.

وتحقَّقَتْ بهذا مِنَّةٌ عظيمة من مِنَنِ اللّهِ عليه، إذْ وَضَعَ عنهُ وِزْرَهُ الّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَهُ.

- ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾:

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ﴾: أيْ: وَأَعْلَيْنا لَكَ. فَرَفْعُ الشَّيْءِ يكون بإعْلائِه، حتّىٰ يَراهُ جَمِيعُ الرَّائين، فلاَ يكُون محجوباً عن أَحَدٍ منهم، ومنه رفْعُ الرّايات، ورفع المنارات، ورَفْعُ المباني، ومنه الإذْنُ برفع بُيُوت اللّهِ حتّىٰ تكون أعْلَىٰ من سائر المباني حولَها، للاهتداء إليها.

﴿ذِكْرَكَ﴾: أي: صِيتَكَ الحسَنَ بيْنَ كُلِّ ذَوِي الإدْراك، إنَّ انتشارَ الذكْرِ الحسَنِ بَيْنَ الخلائق من أجَلِّ عناصِرِ المجْدِ الّتِي يَحْرِصُ عليها كِرامُ النّاس وعُظَماؤهم.

فأبان اللّه عزّ وجلّ لرسوله في هذه الآيةِ مِنَّةَ تكْرِيمِهِ بِمَجْدِ الذِّكْرِ الحسَن، والصّيتِ العظيم، والثناء الرَّفيعِ بيْنَ أهل الأرض، وبين أهل السّماوات السَّبْعِ والْعَرْش والكرسيّ.

ولهذا التكريم وقائع وتطبيقات كثيرات، منها ما يلي:

- ذِكْرُ صِفَاتِه والبِشَارَةُ بِهِ في التوراة والإنجيل، وعلى ألسنَةِ كثيرٍ من الأنبياء والمرسَلِين.
- اقترانُ اسْمِه باسم اللّه جلّ جلالُه في الشهادتين.
- أنّ له الشّفاعة يوم القيامة، حينَ يتخلّىٰ عنْها جميع الأنبياء والمرسلين.
- ثناء اللّه عليه بقولِه له كما جاء في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف): ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

ونَلْمَحُ من هَذا أنّ حامل رسالة الدعوة إلى اللّه والنُّصْحِ والإرشاد والأمْرِ بالمعروف والنَّهْي عن المنكر، بحاجَةٍ إلى شيْءٍ من الغذاء النَّفْسِيِّ التّشْجِيعِيّ، يَتَّصِلُ بالتكريم، ومَجْدِ رفْعِ الذِّكْرِ بيْنَ الخلائق.

- ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾.

الْعُسْرُ والْيُسْرُ: ضدّان، فالْعُسْرُ: الشّدّةُ والصُّعُوبة، من ضِيقِ المسالِكِ ووُعُورَتِها، وضِيقِ المداخل، وكثرة العقبات. واليُسْرُ: السُّهولَةُ واللّينُ والمطاوعةُ والانقياد، بسبب انفراج المسالك، واتّساع المداخل، ومُطَاوعَةِ الأشياء وانقيادها، والخلُوّ من العقبات والموانع والمؤذيات، والمشَقّات.

وقد وعَدَ اللّه رسولَه بأنّه كُلّما واجَه عُسْراً في مَسِيرَتِه، قائماً بوظائف رسالته، أحاطَهُ اللّه بِيُسْرٍ عَنْ يَمِينِه وعَنْ شِماله.

ولا يخفىٰ على المتدبّر الرَّبْطُ بين التقرير بما امْتَنَّ اللّه به على رسوله من شرح الصَّدْر، وَوَضْعِ الْوِزْر، ورفعِ الذِّكْر، وترتيب الْوَعْدِ بتيسير ما يَعْتَرِضُه في مَسِيرَتِه من صُعُوباتٍ وشَدَائد.

إنّ هٰذه المِنَن الّتي طَلَبَ اللّٰهُ عزّ وجلّ من رسوله وضْعَها في ذاكرتِه والإقرار بها، تتطلَّبُ منهُ أن يُجاهِدَ في حَمْلِ الرسالة الّتي كلّفَهُ اللّه إيّاها، وأَمَرَهُ بتَبْلِيغِها، وحمَّلَهُ مسؤوليّةَ قيادةِ أمّتِهِ وسياسَةِ النّاس.

لكِنَّ هذا التكليف قد طُوِي في السُّورَةِ، وذُكِرَ لازِمُهُ الّذِي على الرسول أنْ يتحمّله، وهُو مقابَلَةُ الْعُسْرِ الّذِي سَيُعانِي منه في مسيرته في دعوتِه وأداء رسالته، بالصَّبْر، مع الطَّمَعِ بالتَّيْسِير الرّبّاني، الّذي يَحُفُّ عَقَباتِ الْعُسْرِ.

أخرج عبد الرّزّاق وابْنُ جرير والحاكم والبيهقيّ عن الْحَسَنِ قال: خَرَجَ رسولُ اللّه ﷺ يوماً فرِحاً مسروراً وهو يضحك ويقول:

«لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مع الْعُسْرِ يُسْراً»[١].

وذكر علماء العربيّة في بيان سبَبِ هذا القول، أنّ الْعُسْرَ جَاءَ مُعَرَّفاً في الجملة الثانية فهو عيْنُ الْعُسْرِ الذي جاء في الجملَة الأولى، أمّا الْيُسْرُ فقد جاء في الجملَتَيْنِ مُنَكّراً فَهُما متغايران، فصارا يُسْرَيْن.

ودلَّ أيضاً على هذا التكليف المطْوِيّ خطابُ اللّهِ لرسوله بقوله:

- ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧﴾:

﴿فَانصَبْ﴾: فِعْلُ أمْرٍ مِن فعل «نَصِبَ» أي: تَعِبَ وأعْيَا. يقالُ لغةً: نَصِبَ يَنْصَبُ نَصباً إذا تَعِبَ وأَعْيا.

---

(١) هذا الحديث مرسل، وروي نحوه مرفوعاً.

والنَّصَبُ يكونُ عادةً من أثر عَمَلٍ فيهِ جِدٌّ واجتهاد.

وفراغُ الإنسانِ يَكُونُ عادةً إِذَا انْتَهَىٰ من عَمَلٍ كانَ يَعْمَلُه، ويُقَال: فَرَغَ من الشيء إذا أتمَّهُ.

فمعنى الآية بعْدَ هذا التحليل: فإذا فَرَغْتَ من عَمَلٍ من أعمال الخير، كأعمال الدّعْوةِ إلى اللّه، وأداء مُهِمَّةٍ من المهمّاتِ الّتي كُلِّفْتَهَا في رسالَتِكَ، فأنْشِئْ عمَلاً آخرَ تُجَاهِدُ فِيه قائِماً بوظائفِ نُبُوَّتِكَ، ووظائِفِ رسالَتِك حتَّىٰ تنصَبَ مُتْعباً، وَلاتَنِ بفُتُورٍ وكَلَلٍ، وهذا نَظِيرُ قَوْل اللّهِ عزّ وجلّ لموسىٰ وهارون عليهما السلام كما جاء في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾.

أي: ولا تَفْتُرا ولاَ تَضْعُفَا عَامِلَيْنِ كَادِحَيْنِ في القيام بأعباء رسالَتِكُمَا المشتملةِ على ذكْرِي، فذِكْرُ اللّه بالنسبة إلى حامل الرسالة، يكون بالدعوة إلى الإيمان به، والاستمساك بالدِّينِ الذي اصطفاه الله لعباده.

فقول الله لرسوله محمّد ﷺ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾﴾ يتضَمَّنُ أمْرَهُ بمواصَلَة الْمُجَاهَدَةِ في أداء وظائف رسالَتِهِ، فكُلّما فَرَغَ من عَمَلٍ من أعْمَالها، فإنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَعْمَلَ في عمل آخَرَ حتّىٰ ينْصَبَ فيه مُتْعَباً.

وأرْشَدَهُ اللّهُ عزّ وجلّ بعد هذا إلى الدَّواء الّذِي يُمِدُّ بالْعَوْنِ والْقُوَّةِ والنَّشَاطِ، لِيُتابعَ مُجاهَدَتَهُ في مَسِيرَتِهِ الرَّبَّانِيَّةِ وهُو دَوَاءُ الدُّعَاءِ والالْتِجاء إلى ربّه أنْ يُمِدَّهُ بالْقُوَّةِ والْعَوْن والنَّشاطِ، ما كان منها مادّيًا، وما كان مِنْهَا معنويّاً، فقال له:

• ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾:

أي: وَإِلَىٰ رَبِّكَ فابتَهِلْ وَتَضرَّعْ دَاعِياً سَائِلاً حتَّىٰ يُيَسِّرَ أمْرَكَ، ويَدْفَعَ عَنْكَ الْعُسْرَ، ويُمِدَّك بما تحتاجُ إلَيْهِ من قوّةٍ ومَعُونَةٍ ونَشَاطٍ، وحتّى يَقْضِيَ لَكَ بالتوفِيق والتَّسْدِيد والتأْيِيد والنَّصْر.

يُقَالُ لُغَةً: رَغِبَ الْعَبْدُ إلى رَبِّه إذَا سَأَلَهُ طالباً مُبْتَهِلاً مُتَضَرِّعاً.

إنّ الروابط الفكريَّة بيْنَ الآيَاتِ تَدُلُّ على المقصود ضمناً بقَوْله تعالى لرسوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾. كما دَلّتْ اللّوازم الفكريَّة على أن المقصود بـ: ﴿فَٱنصَبْ﴾ الأمْرُ بأعْمالِ المجاهدة في تأديَةِ وظائِفِ الرسالة حتَّىٰ الشُّعُورِ بالنَّصَبِ وهو التَّعَب. وكَمَا دَلَّتِ اللّوازمُ الفكريَّة على أنَّ من يَقُومُ بتأدِيَةِ رِسَالَةِ الدَّعْوَة إلى اللّه في مجتمعات جاهليّة، لا بُدَّ أَنْ يَتَعَرَّضَ لعَقَبَاتٍ ومَضَايِقَ فِيها عُسْرٌ يحْتَاجُ مَعَها إلى تَيْسِيرٍ من اللّه جلَّ جَلاَلُهُ، أَخذاً من قول اللّهِ في السُّورَةِ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾.

الفاء في ﴿فَٱنصَبْ﴾ واقعة في جواب الشرط [إذا]. والفاء في ﴿فَٱرْغَب﴾ واقعة في جواب شرط يفهم من مضمون الكلام، تقديره: وإذا توجهت للعمل الجديد فارغب إلى ربك سائلاً أن يمُدَّكَ بالعون والتوفيق.



(٤)
ما يُستَفادُ للدّعْوَة والدُّعَاة من سُورَتي الضُّحَىٰ والشّرْح

نستطيعُ أن نستَنْبِط من سُورَتَي الضُّحَىٰ والشَّرْحِ للدّعْوَة والدُّعاة، أنَّ التأهِيلَ لِحَمْلِ رسالَةٍ عُظْمَىٰ ذَاتِ مَسْؤُوليّاتٍ كُبْرَىٰ، فيها تبليغٌ ودَعْوَةٌ وجهادٌ وكفاحٌ وقيادةٌ ومُواجَهَةٌ لخُصُومٍ وأعْدَاء، ذوي كيْدٍ وحَسَدٍ، قد يَصِلُ كيدُهُمْ إلى محاولاتِ السّجن أو القتل أو الإخراج من البلد، يتطَلَّبُ التأهِيلَ والإعدادَ بنَوْعَيْنِ أساسيَّيْن:

النوع الأوّل:

ما يتعلّق برعايته في أمُور ثلاثةٍ:

الأوّل: نَشأَته في طُفُولته.

الثاني: تربيَته الفكْرِيّة.

الثالث: تأمِينُ معاشِه.

وقد أبانت سورة (الضحى) ما يتعلّق بهذا النوع:

- فرعايتُه في نَشأته قد كان بإيوائه إذْ كان يتيماً، وقَدْ آواه اللّه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾.
- وتربيتُه الفكريَّةُ قد كانَتْ بِهدايَتِهِ وتَعْلِيمِه، إذْ كان جاهلاً ضالاً سبيل الهدى غير عارفٍ به، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾.
- وتَأْمِينُ مَعَاشِهِ قَدْ كانَ بإغْنائِهِ وتَيْسِيرِ وسائِلِ كفايَتِه، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾.

النوع الثاني:

ما يتعلَّقُ بإعدادِه النَّفْسِيّ، ويتطلَّبُ هذا الإعداد النفسِيُّ أربعة أمور:

الأوّل: أن يكونَ ذا صَدْرٍ مُنْشَرِحٍ متَّسِعٍ منفتح للحياة وتَحمُّلِ الْمُهمّات، والاضطلاع بالمسؤوليّاتِ الكُبْرَيَاتِ، ولا يكونُ الصَّدْرُ مُنْشَرِحاً إلاّ إذا كان خالياً من كلّ ضِيقٍ وكَرْبٍ وقلَقٍ وهُمُومٍ ضاغطة، وكلّ ما يَدْخُلُ في باب الْعُقَد النفسيّة، وخالياً من نوازغ الشيطان، ورَغباتِ الإثم والْعِصيان، ومطالب الشرّ والبَغْي والْعُدوان، ونحو ذلك.

وقد تَوَلَّىٰ اللّه عزّ وجل شرح صدر الرسول ﷺ، ليكفِيَهُ هذا الجانب الذي يُعْتَبرُ من أهَمّ الشروط اللاّزمة لإعداده وتهيئته للمُهِمَّاتِ الجسيماتِ الَّتي يجب عليه أن يحمِلَها وهو يؤدّي رسالات ربّه، كما قال اللّهُ له في سُورَة (الشرح): ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾.

وبهذا الشرح أزال اللّه عن صدْره الهموم والغموم والكروب والمقلقات، ونزع منه حظّ الشيطان، فصفا، وانفتحتْ آفاق نفسه لواردات المعارف الربّانيّة الصافية، الخالية من شوائب النَّفْسِ الأمَّارَة بالسّوءِ،

وأشرقَتْ فيها الأنوار الرّبّانيّة، وتحرَّكَتْ هِمَّتُهُ لحمْلِ أجَلّ المهمّات، وأخَذَتْ فيوضُ العطاء تَنْبُعُ من داخلِه ثرَّةً وفِيرَةً.

الثاني: أنْ لاَ يكونَ مُثقلاً بحِمْلِ طُمُوحَاته الكُبْرَىٰ، الَّتي كانت تَشْغَلُ فِكْرَهُ ونفسَهُ مِنْ أجلِ إصلاح قَوْمِه والنّاسِ أجْمَعِين، وهو لا يَدْري ماذا يَفْعَلُ لتحقيق هٰذِه الطُّمُوحَاتِ العظيمة الجسيمة، حتَّىٰ وَضَعَ اللَّهُ عنْهُ هذا الْحِمْلَ الثقيل بالوحْيِ إليه، وجَعْلِهِ نبيّاً، فَرَسُولاً لقَوْمِهِ وللنّاسِ أَجْمَعين، كما قالَ اللّه له: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾.

الثالث: تغذيَةُ نَفْسِه العظيمة الطَّمُوحَةِ بِما يُرْضِيها من تكريم وتشجيع، يُرافقانِ مَسِيرَتَهُ في أَدَاءِ رسالَةِ رَبّه الَّتي يجاهِدُ فيها دُونَ فُتُورٍ ولا انقطاع.

وقد منَحَهُ اللَّهُ في هذا مجْدَ الذكْرِ الْحَمِيد والشَّرَفِ الرَّفِيع، كَمَا قال اللَّهُ لَهُ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾.

الرّابع: تَهْيِئَتُه لاستقبال الصعوباتِ الَّتي سيتَعَرَّضُ لها، وأنواع الْعُسْر الّتي يُواجهها، في مسيرته وهو يؤدّي وَظَائِف رسالته، بصَبْرٍ وَتَفَاؤُلٍ وَثِقَةٍ بأَنَّ اللَّهَ العزيزَ الحكيم سَيَجْعَلُ لَهُ مَعَ كلّ عُسْرٍ يُسْرَيْنِ يُذلِّلانِه، يُسْرٍ من ذَاتِ الْيَمِين، ويُسْرٍ من الشّمال، فما علَيْه إلاّ أن يُتابعَ العَمَل والكدْحَ والكفاحَ، حاملاً رسالة رَبّه، مترقّباً كثيراً مِنَ العُسْرِ في مَسِيرَته، راجياً من اللّهِ التّيْسير، ملتجئاً إلَيه بالدّعاء والابتهال، ثُمَّ عَلَيْهِ كلَّما فَرَغ منْ عَمَلٍ في دَعْوَتِه وكفاحه، أن يَعْمَلَ حتّىٰ ينصَبَ في عَمَلٍ آخر ضمْن مهمّاتِ رسالته، فقال اللّهُ له؛ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾.

وتم بحمد الله وتوفيقه ومعونته تدبّر سورة «الشرح»



(٥)

ملحق حول «بلاغيات في سورة (الشرح)»

من بلاغيات هذه السورة ما يلي:

الأولىٰ:

الإطناب للإبهام المحرّك للشوق والّذي يَتْبَعُه الإيضاح المؤكِّدُ للفكرة، والمثبِّتُ لها.

ونجد هذا الإطناب في ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾؟ ففي هذه الجملة زيادة عبارة ﴿لَكَ﴾ إذِ المساواة تقتضي أن يقال: ألم نَشْرَحْ صَدْرَك؟

ونجده أيضاً في ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ ففي هذه الجملة زيادة عبارة: ﴿عنك﴾ والمساواة تقتضي أنْ يُقال: ووَضَعْنا وِزْرَكَ.

ونجده أيضاً في ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ ففي هذه الجملة زيادة عبارة: ﴿لَكَ﴾ والمساواة تقتضي أنْ يقال: ورفعْنا ذِكْرَك.

قال البلاغيون هذه الزيادات في هذه الجمل تُفِيد الإبْهامَ أوّلاً، فَتَسْتَشْرِفُ النَّفْسُ للإيضاح، وتتشَوَّقُ للتفسير، فتأتي عبارات: [صَدْرَكَ - وِزْرَكَ - ذِكْرَكَ] فيَرْتَفِعُ الإبهام، ويرتوي ظمأ النفس إلى المعرفة، هذا الظمأ الذي أثاره التشويق، فتتمكَّنُ المعرفةُ وتثبُت، مع ما في: «لَكَ» و«عَنْكَ» من تأكيد وتمكينٍ، وإشعارٍ بالتمييز والتخصيص، إذ المقامُ مَقَامُ امتنانٍ سَبقَتْ دواعيه.

الثانية:

استعمال ضمير المتكلّم العظيم، وهو ضمير الجماعة مع أنّ المتكلّم واحِدٌ أحَدٌ في: «نَشْرَحْ - ووضَعْنَا - ورَفَعْنَا» للإشعار بأنّ المِنَنَ التي امتَنَّ اللّهُ بها على رسوله مِنَنٌ عظيمة تُناسِبُ عظمة واهِبها، وللإطماعِ بتحققِ الْمِنَنِ الموعود بها، فَمُقَدَّمُ الوعْدِ عظيمٌ جليل.

ولم يأت مثْلُ هذا الاستعمال في سورة (الضحى) لأنّ الموقف فيها مَوقف إيناسٍ واستعطافٍ من الرَّبّ لرسوله، في مقابل ما أشاعَ بعضُ أعدائه وحُسَّادِه من أنّ رَبَّهُ وَدّعَهُ أَوْ قلاه، ومِثْلُ هذا الموقف يُلائِمُهُ حَدِيثُ الْخَلِيلِ لخَلِيله دُونَ استعمال ضمير المتكلّم العظيم.

الثالثة:

تقْدِيمُ المعمول على عامله لإفادة التخصيص والحصر في: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾ فَعِبارة [إلى ربّك] معمولٌ للفعل في [فَارْغَبْ] إذ الجار والمجرور متعلقان به، وهما مقدّمان عليه لإفادة الحصر والتخصيص، أي: وإِلَىٰ رَبِّك وحْدَه فابْتَهِلْ وَتَضَرَّعْ داعياً سائلاً، ولا تجعل معه شريكاً، ولاَ تَدْعُ غَيْرَه.

مع ما في هذا التقديم من مراعاة الجمال التناسقي بين آيات السورة، والتلاؤم في الفاصلة بين الآيَتَيْنِ الأخيرتَيْن منها: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾.

الرابعة:

خروج الاستفهام في السورة عن طلَبِ الإفهامِ إلى إرادَة التقرير والامْتنان.

الخامسة:

التعبير غير المباشر، بذكر الكلام الذي يُقْصَدُ به لوازمه الفكرية، وهو في هذه السّورة من أبدع الكنايات.

نلاحظ هذا في: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ أي: فقم بوظائف رسالتك، وستَلْقَىٰ في مسِيرَتِكَ هٰذهِ عُسْراً، يذلّله اللّهُ لك، بتَيْسِير مُضَاعفِ أقوى منه، فلا تَضعَفْ ولا تثبّطْكَ المسالِكُ الوعْرَةُ، ولا المداخل الضيقة، ولا العقباتُ الْعَسِرَة، ولا المشكلاتُ المتداخلة المعقّدة.

السادسة:

البناء على المطويّات غير المصرّحِ بها في ألفاظ السورة، ولكنْ يستطيع الفَطِنُ اللبيب إدراكها، حتّىٰ كأنّها مذكورة صراحة، وقد يُسَمّي الأدباء المعاصرون مثل هذا رَمْزِيّة، إلاّ أنّه في التعبيرات القرآنيَّةِ عُمْقٌ يحتاج استخراجُه إلى فِطْنَةِ المتدبّر، وذكائه، وقُوّة التقاطه الأفكار باللّمح.

نلاحظ هذا في: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ أي؛ فاجتهد في أداء وظائف رسالتك عاملاً مُجِدّاً، وكلّما فَرَغْتَ مِنْ عَمَلٍ فاجْتَهِدْ في القيام بعَمَلٍ آخر حَتَّىٰ تَنْصَبَ فِيهِ وتَتْعَبَ.

السابعة:

السَّجْعُ المتوازي، وهو أن تكون الكلمتان الأخيرتان من السجعتين، أو الكلمات الأخيرة من السجعات، متّفِقَةً في الوزن وفي الحرف الأخير منها، وهذا من المحسّنات الجمالية اللّفظيّة الداخلة عند البلاغيين في علم البديع.

نلاحظ هذا السّجْع المتوازي في الآيات الأربعِ الأولىٰ من سورة (الشرح).

وفي الآيتين الأخيرتين منها.

أمّا الآيتان الخامسة والسادسة فهما بمثابة الجملة المكرَّرة.

الثامنة:

سَلاسةُ بناء الآيات القصار في السورة، وتتابُعها بانْسياب سَهْل على اللّسان، لَيِّن في السّمع، كجريان جَدْولٍ من الماء الصافي الرَّقراق الجاري بهدوءٍ، على دَرَجاتٍ متساويات الأبعاد.

ولم يؤثر على عموم السلاسة اجتماع «القاف والضاد والظاء» بتتابُع في: ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ فهي في لسان العربي الفصيح سهلة، على أنّها في عُمُوم السلاسة السائغة الشراب كحبّاتٍ من اللّوز تقضَمْنَ مَعَه.

❀ ❀ ❀

سُورَةُ العَصْر

أو

سُورَةُ وَالعَصْر

١٠٣ مُصْحَف ١٣ نزول

(١)
نصّ السورة
سورة العصر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

❋ ❋ ❋

(٢)
مما ورد من آثار بشأن هذه السورة

(١) كان الرجلانِ من أصحاب رَسُولِ اللّه ﷺ إذا الْتَقيا لم يتفرقا إلاّ عَلَىٰ أنْ يقرأ أحَدُهما على الآخر سورة العصر إلَىٰ آخِرها، ثُمَّ يُسَلِّم أحدهما علىٰ الآخر[1].

ذكره الطبراني من طريق حمّاد بن سلمة عن ثابت عن عبيد الله بن حصْن.

(١) عن ابن كثير في تفسيره.

(٢) وقال الشافعيّ رحمه الله: لو تَدَبَّر النَّاس هٰذِهِ السورة لَوَسِعَتْهُمْ[1].



(٣)
موضوع السورة

سورة العصر تُبَيِّن قيمةَ الوقْتِ، في حياة الإنسان الموضوع مَوْضِع الامتحان في ظروف هٰذه الحياة الدنيا، وأنَّ عُمْرَهُ فيها هو من رأسِ مَاله، وأجزاءُ عُمْرِهِ تَنْطَلِقُ عنه إلى غير رجْعَةٍ ولا تعْويضٍ زمَنِيٍّ، فهو خاسِرٌ لحظةً في كلِّ لحظة، وساعةً في كلِّ ساعةٍ، ويوماً في كُلِّ يَوْم، وشهراً في كلِّ شَهْرٍ، وهكذا. باستثناء من يستطيع أنْ يغْتَنِمَ في عُمْره ما يُحَقِّقُ له تَعويضاً عِنْد ربّه يوْمَ الدِّين، سعادةً خالِدَةً، ونعيماً أبديّاً، بأنْ يُؤْمِنَ إيماناً صحيحاً، ويَعْملَ صالحاً، وبأن يُؤَدِّي مع بني جنسِه وظِيفَةَ التَّواصي بالحقّ، والتَّواصِي بالصّبْر.

فهي درس واحِدٌ من ثلاث آيات هُنَّ نُجُومُ هداية.



(٤)
البناء الفكريُّ التدرجي
في سوابق نجوم التنزيل حتى نزول سورة العصر

سبق في السّوَر التي نزلَتْ قبل سورة (العصر) الاهتمامُ ببيان القضايا التالية:

---

(١) عن ابن كثير في تفسيره.

القضيّة الأولى: التوجيه للقراءةِ والتَّعلُّم واكتساب العلم.

القضية الثانية: بيان حاجة الإنسان حتَّىٰ لا يطغى إلى الدين، الشامل للبيان الرَّبّاني للناس، وبيانِ الرّسولِ المبلِّغ عن ربّه، وقانُونِ الجزاء، ويَوْمِ الدين.

القضية الثالثة: الحثّ على عبادة اللّه بالصلاة والدّعاء، وعلى البذل والعطاء للمساكين وذوي الحاجات.

وبعدها جاء في سورة العصر بيان قيمَةِ الوقْتِ بالنسبة إلَىٰ الإنسان المكلّف.



(٥)
التدبر التحليليّ لآيات سورة العصر

قول الله عزّ وجل:

● ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾.

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾ الواو هي واو الْقَسَم، **الْعَصْرُ**: هو الزّمن السَّيَّالُ الذي لا ثَبَاتَ له، كنَهْرٍ يَجْرِي من غَيْبِ المستقبَلِ إلَىٰ غَيْب الماضي، ولا نَعِيشُ منْهُ إلاَّ لحظَةَ الحاضِر، فمن لم يغْتَنِمْ لحظة الحاضِرِ بما هو مُفِيدٌ يُدَّخَرُ له، فَهُو إنسانٌ خاسِرٌ.

أقْسَمَ رَبُّنَا بتَقْدِيره لِأَعْمَارِ مخلوقاته في الْعَصْرِ، الّذي هو الزَّمَنُ السَّيَّالُ بلا تَوَقُّفٍ، علَىٰ أنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. أي: هو في واقِعِ خُسْرٍ دائِمٍ مُحِيطٍ به.

باستثناء الّذِين آمَنوا وعَمِلُوا الصّالحاتِ وتواصَوْا بالحقّ وتواصَوْا بالصَّبْر.

﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾: «أل» هنا هي «أل» الجنسيّة الاستغراقيّة، والمرادُ استغراق جنْسِ الإنسانِ البالغ مَبْلَغَ التكليفِ في ظروف الحياة الدنيا، أمّا غيْرُ المكلّف فهُوَ مستثنىً عقلاً، وبِدَلاَلة نصوصٍ أُخْرَىٰ.

﴿لَفِى خُسْرٍ﴾: أي: لَهُو مُحَاطٌ بِخُسْرٍ، كالْغَرِيق في وَحْلٍ حيَوَانَاتُهُ تأكُلُ منْهُ باسْتِمْرار. **الْخُسْرُ**: النقْصُ ممّا يَمْلِكُ المالِكُ، من ماله، أو جِسْمِه، أو عُمْرِهِ، أو لذَّاتِهِ وسَعَادته، أو نحوها، والنَّقْصُ أيضاً مِمَّا يَسْتَطِيعُ أنْ يغنَمَهُ ففاتَهُ بإهْمالِهِ وَتقصيرِه.

وجاء تأكيد كوْنِ الْإنسانِ في مُحِيطٍ به من الْخُسْرِ، بالْقَسَم بالْعَصْر الّذِي يَدُلُّ علَىٰ أنّه يَخْسَرُ من عُمْرِهِ طَوَالَ لحظاته. وبحَرْفِ التوكيد «إنَّ» وبـ«الجملة الاسميَّة» وبـ«لام» الابتداء المزحلقة إلىٰ الخبر.

وقَدِ احتاجت هذه القضيَّةُ كُلَّ هٰذِهِ المؤكِّدَاتِ لغرابتها، وبُعْدِهَا عن تَصَوُّرَاتِ الناسِ، فَحَالَتُهُمْ حَالَةُ من هو شاكٌّ فيها أو مُنْكِرٌ لها.

هٰذه القضيَّةُ الكلّيّةُ الّتي قرَّرها رَبُّنا عزَّ وجلَّ مُؤَكَّداً، تَجْعَلُنَا نُمْعِنُ التَّدَبُّر، ونَبْحَثُ في واقع وجُودِ الإنْسَان وحَيَاته، لنَكْتَشِفَ حقيقتها.

وبالبحث والتدبُّر في مبدأ الإنسان ونشْأتِه ومصيرِه، ورحْلَتِه في هٰذهِ الحياة الدنيا، ووظيفته فيها، نُلَاحظُ أنّ رأسَمَالِه في حياتِه الدّنيا أمران:

الأمْرُ الأوّل: لحظاتُ عُمْرِهِ الّتي تَنْتَهي بانتهائِهَا حيَاتُهُ في رِحْلَةِ امتحانه.

الأمر الثاني: ما وَهَبَهُ اللّهُ من طَاقَاتٍ مادّيَّة ومعنويَّة يستطيعُ أَنْ يَعْمَلَ بها خيْراً أَوْ شرّاً، أو يُعَطِّلها ويُضَيِّعَها ويُتْلِفَها بلا فائدةٍ يَجْنِيها منْها.

ونُلَاحِظُ أيضاً أَنّ لحظاتِ عُمْرِهِ ممتَزِجَةً بها طاقاتُه مخبّأَةٌ في خَزَّانِ المستقْبَلِ، كَمَاءٍ سيَّالٍ، وهذا الخزَّانُ وما فيه محْجُوبٌ عنْ علْمِ الإنسانِ، إذْ

يَفْصِلُ ما بيْنَهُما جدارُ الغيب، ومَا في هذا الخزّانِ يجْري من ثَقْبٍ لا يُمْكن إقْفالُهُ، ولا يُمْكن الانتفاعُ به إلاّ لحظَةً فلحظَةً، إذْ ما يجري من هذا الثَّقْبِ المفتوحِ يبتَلِعُهُ الماضي فلاَ يُمْكِنُ اسْتِرْجاعُه.

ذلِكَ هُوَ الوقْتُ وَما يُصَاحِبُهُ من طاقاتٍ، يَجْريَانِ معاً، ويمضيانِ معاً.

إنَّه العصْرُ الذي هو نَهرُ الزّمَنِ السَّيَّال من المستقبل إلى الماضي، والذي لا يستطيع الإنسانُ أن يَنْتَفِعَ منْهُ إلاَّ بموجَةِ الحاضِرِ الْقَصِيرة، وما ينْتفع منه بموجَةِ الحاضر هو المقدارُ الّذي لا يكون خاسراً له من رأسِ ماله، وهو المقدار الذي يحوّلُه من الزّمَنِ السَّيَّالِ وما امْتزَجَ به من طاقاتٍ، فيَجْعَلُه شَيْئاً ثابتاً مُعَوَّضاً عمّا ابتلَعَهُ الماضي، فإذَا حوَّلَهُ وثَبَّتَهُ فِي نَفْعٍ خالِدٍ، كَانَ كَمَنْ استَطَاعَ أنْ يجمِّدَ الوقْتَ الحاضِرَ ويَجْعَلَهُ شيئاً متزايداً متنامياً بلا انقطَاعٍ، إذْ يَدَّخِره اللّهُ لَهُ ويُرَبِّيهِ لَهُ، حتَّىٰ تكُونَ الذَّرَّةُ منْهُ كَجبَلٍ عظيم في بعض الحالاَتِ الْمُرْضِيَاتِ للرَّبِّ جلّ جلالُه.

ولمَّا كان مِقْدارُ الانْتِفاعِ بمَوْجَةِ الوقْتِ الحاضِرِ في الخيراتِ والأعمال الصالحات يخْتَلِفُ بيْنَ المنتفِعين اختلافاً عظيماً، فَمِنْهُمْ من ينْتَفِعُ منْها بمقدار ذرَّةٍ فما فَوْقَها، حتَّىٰ ينتَفِعَ بعضُهم بمقدار جَبَلٍ من خيراتِ المستقبل، أَمْكَنَ لنا أنْ نَفْهَمَ أَنَّ مَوْجَةَ الوقْت الحاضِرِ مَعَ تَساوِي طُولِها بين المنتَفِعين، إلاَّ أنَّها ذاتُ عرْضٍ وعُمْقٍ مختَلِفَيْنِ اختلافاً كبيراً.

فلحْظَةُ سُلْطانٍ عادِلٍ مُحِبٍّ للخيْر، يُوَقِّعُ فيها عَلَىٰ أَمْرٍ يَعُمَّ نَفْعُه شعْباً بأَكْمَله، ويَجْرِي خَيْرُه ما بقي نفاذُ هذا الأمْر، هي من جهة الطّول تُساوي اللّحظة التي انتفَع فيها إنسانٌ بحَكِّ رأسه، لكِنَّ عَرْضَها وعُمْقَها بمثابةِ بَحْرٍ عَرِيضٍ عميقٍ.

وفرقٌ كبيرٌ بيْن لحظةٍ يَمْلأُ فيها مالئٌ كأساً، ولحظةٍ يملأُ فيها مالئٌ بِرْكةً، ولحظةٍ يملأُ فيها مالئٌ بَحْراً. إنَّ أطوالهنَّ الزمنيَّةَ واحدةٌ، ولكن اختَلَفْنَ عَرْضاً وعُمْقاً.

وفرقٌ كبيرٌ بيْنَ لحظَةٍ تَقْطَعُ فيها دُوَيبَّةٌ مِقْدار عرْض شَعْرَةٍ من الأرض، ولحظة يَقْطَعُ فيها فرسٌ عدَّةَ أذْرُعٍ، ولحظةٍ تقْطَعُ فيها طائرةٌ أمْيالاً، في حين يجتاز فيها الضوءُ مئاتِ الألوف من الأميال.

ويُمْكِنُ أنْ نقول: إنّ العرْضَ في لحظَةٍ إنْسَانٍ يعْمَلُ فيها عمَلاً نافعاً يأتي من شمول الخير وكثرته، أمّا الْعُمْقُ فيأتي من بقاءِ جريان الخيْرِ في المستقبل.

ولهذا كانت الصّدَقَةُ الجاريةُ، والعِلْمُ الذي يُنْتَفَعُ به، من الأعمال الّتي يعْمَلُها المؤمِنُ فِي وَقْتٍ عَرِيضٍ عَمِيقٍ. أَمّا طولُه فهو يساوي طول أَيِّ وقْتٍ آخَرَ جرَىٰ فيه عمَلٌ ضئيلُ النَّفْع قليلُ القيمة، أوْ مَرَّ ضائِعاً إسرافاً وتَبْذِيراً، لكنَّه مختَلِفٌ في عَرْضِهِ وعُمْقه، بمقدار شمول النَّفْع، وبقاء الجريان.

فمَنْ تصدَّقَ بصَدَقَةٍ جارِيَةٍ، أو نَشَرَ عِلْماً نافعاً، فقَدِ استَفَادَ من عَرْضِ وقْتِهِ وعُمْقِه، إذْ يبقَىٰ أثَرُ عَمَلِهِ فيه ولو مات، هذا ما تعلَّمْنَاهُ مِنْ كلام الرَّسول ﷺ.

روىٰ مسلم عن أبي هُرَيْرَة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ؛ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

من هذا التحليل الفكريّ يتبَيَّنُ لنَا بوضوحٍ أنَّ رأس مَالِ الإنْسانِ في الحياة الدنيا أوقاتُ عمره وطاقاتُهُ المادّيّة والمعنويَّة المقترنَةُ بها اقتراناً يشبه الامتزاج.

ورأسُ المال هذا هو مِنحةٌ من اللّهِ عزَّ وجلَّ للإنسان فِي الحياة الدُّنيا ليمْتَحِنَه، وهو مسْؤولٌ عنْهُ يوم القيامة، كما جاء في الصحيحِ ممّا رُوِيَ عن الرسول ﷺ.

روى الترمذيُّ عن أَبِي بَرْزَةَ أَنّ رسول الله ﷺ قال:

«لاَ تَزُولُ قَدمَا عَبْدٍ حَتَّىٰ يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ؟. وعَنْ عِلْمِهِ مَا فَعَلَ فِيه؟. وعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟. وعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ؟».

ولمَّا كانَتْ مقَادِيرُ انتفاع النّاس بلَحَظَاتِ أعْمَارِهِمْ متفاوتَةً تفاوُتاً كبيراً، حتَّىٰ يَصِلَ إلَىٰ مِثْلِ التّفاوُتِ بيْنَ القَطْرَةِ والبَحْرِ، وكانَ الإِنسانُ في مُعْظَمِ أحْوَالِهِ ما بَيْنَ مُسْتَهْلِكٍ أوْقاتَ عُمُرِهِ في نَفْعٍ قليلٍ ضئِيلٍ، أو فيما لاَ نَفْعَ فيه مُطْلقاً، أو فيما يَحْمِلُ بِه أوزاراً، كانَ في وضْعٍ دائمٍ من الْخُسْرِ، كُلَّمَا أمْضَىٰ لَحْظَةً ممَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِنْ عُمْر، مَا مَرَّ علَيْهِ حِينٌ مَا مِنَ الْعَصْرِ، وحَامِلُ الأوزار في لحظاتِ عُمْرِهِ خَاسِرٌ ومَدِينٌ، على حِسَابِ أوقاتِ خلُودِهِ يوْمَ الدّين.

فمِنَ الحقّ والدّقَّةِ الرائِعَةِ في البيان، أَنْ يُقْسِمَ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ بالْعَصْرِ علَىٰ أَنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ.

والمناسبةُ بيْن العصْرِ الذي هو الزمن السيّال، والذي تُحَدَّدُ بأجزاءٍ منْه أعمارُ الناس، وبين كون الإنسان في خُسْرٍ من رأسماله في حايته الدّنيا، كلَّما انْصَرَمَ من عُمُرِهِ زمَنٌ ما، مناسبة ظاهرة.

وفي الْقَسَمِ بالعصْرِ إشارةٌ إلى أن الإنسان هو الإنسان مهما اختلفت عليه الأزمنة، في خصائصه النفسية التي تدفعُه إلى أن يعبّر عنها بأنواع من السُّلوك تُؤدّي به إلى الخُسْرِ في أكثر أحواله، منذ عهد آدم وإلى أن تقوم الساعة.

● قول الله تعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾.

استثنَىٰ اللَّهُ عزّ وجَلَّ بهذِه الآية من عُمُوم كَوْنِ الإنْسَان المكلَّفِ، الذي يَعِيشُ هٰذه الحياة الدنيا، في مُحِيطٍ به من الْخسْر، فريقاً منَ النَّاسِ لا

يكونُ الْخُسْرُ مُحِيطاً بِهِمْ من كلّ جوانبِ وُجودِهم، وهُمُ الّذِين اتّصَفُوا بصِفَاتٍ أرْبَع:

الصّفةُ الأُولَىٰ: الإيمانُ الصَّحِيحُ الصَّادقُ بعناصر القاعدَةِ الإيمانيَّة في الإسلام، دلَّ عليها قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

الصفة الثانيةُ: القيامُ بأعْمَالٍ صَالِحَاتٍ، مُعَبِّرَاتٍ في السُّلوك النَّفْسِيّ والجسَدِيّ، عَنْ وُجودِ الإيمان الصحيح الصادِق في القلْبِ. إذ الإيمانُ الصحيحُ الصادِقُ ذُو دَوافِعَ تَظْهَرُ في أنواعٍ من السُّلُوكِ، هِيَ من لَوَازِمِه وآثارٌ من آثاره.

وهٰذِهِ الأعمال التَّعْبيريَّةُ عن كوامِنِ الْإِيمان تكُونُ في دائرة الحرَكَةِ الذاتِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ، من ذاتِهِ لِذَاتِهِ، دُونَ مُلاحَظَة غَيْره، وهٰذِهِ هِيَ الحركَةُ التِّلْقائيَّةُ الأُولىٰ في سُلوكِه، وقد دلّ عليها قولُهُ تعالى في الآيَةِ: ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: وعَمِلُوا من الصَّالحاتِ ما يَدُلُّ علَىٰ صِحَّةِ إيمانِهم في قُلُوبِهم وصِدْقِهِ، فـ«أل» في الصالحاتِ ليسَتِ استغراقيَّة، بدلالَةِ نصوصٍ أخرى كثيرَةٍ، تَدُلُّ على أنَّ الذي يَعْمَلُ بعْضَ الصالحاتِ مع صِدْقِ إيمانه وصِحَّتِهِ لا يكونُ الْخُسْرُ محيطاً بِهِ من كلِّ جوانبه.

الصِّفَةُ الثالثة: قِيامُ الإنْسَانِ بواجبٍ عليه تُجَاهَ غَيْرِهِ من النَّاسِ الْخَارِجِينَ عن دائرةِ الحقّ، والخائضين في أرْجَاسِ الباطل، أو الضالّين الجاهِلِين الّذِين لم يَرَوُا الحقَّ حتَّىٰ يُؤمِنُوا به، ويَسْتَمْسِكُوا بحَبْلِهِ، وَيَسْلُكُوا صراطَهُ المستقيم.

والواجِبُ بالنسبَةِ إِلَيْهِم يتحقَّقُ بتَعْرِيفِهِمْ بالْحَقّ ونُصْحِهِمْ بالإيمان به، ومُتَابَعَةِ تَوْصِيتهم بالاستمساك بحَبْله، وسُلوك صراطِهِ المستقيم.

وحين يَقُومُ النَّاسُ بهٰذا الواجب، تظْهَرُ في المجتمع الإنسانِيّ ظَاهِرَةُ التواصِي بالْحَقّ.

هذا ما دلَّتْ عليه في الآية عبارَةُ: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾.

الوصِيَّةُ: بيانٌ مَقْرُونٌ بنُصْحٍ مؤكَّدٍ بعَهْدٍ. وليسَتْ مجرَّدَ بيانٍ عابرٍ، ولا مُجَرَّدَ نُصْحٍ باردٍ أو فاتر، بل هي نُصْحٌ مشدَّد مؤكَّدٌ بعَهْد.

وبهذا المعنى نَفْهَمُ قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) في معرض الحديث عن إبراهيم عليه السلام:

﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

والتَّواصِي: تَشَارُكٌ في تَوْجيه الوصيَّة، أي: يُوصِي شخصانِ فأكْثرُ بعْضُهُمْ بعضاً.

والحقُّ: هو الْبَيَانُ أو التَّصَوُّرُ المطابِقُ للواقعِ، وضدُّه الباطل. وأوّلُ حقٍّ في الوجود هو اللّهُ جلّ جلالُه، وصفاتُه العليّة وأسماؤه الْحُسْنَىٰ، ثُمَّ ما يقْضِيهِ اللّهُ ويُقَدِّرُه، ثُمَّ ما يَخْلُقُه، وما يُبَيِّنُه ويأمُر بالإيمانِ به.

وأوّل ما تُوَجُّهُ لَهُ جُمْلَةُ: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾ القيامُ بوظيفة دعْوة غير المسْلِمين إلى قضايا الإيمان، والاستمساك بدين اللّه الحقّ، ويأتي من بعد هذا الدَّعْوةُ والتوصِيَةُ بكلِّ حقٍّ من حقوق اللّه، أو حقوقِ العباد، والتوصيَةُ بالاعترافِ بأيِّ حقٍّ تُوصِلُ إليه المعرفَةُ الصحيحة، والْعَمَلُ بما يقتضيه ذلِكَ الحقّ، وهذه التوصِيَةُ تُوجَّهُ للمسلمين ولغيرِ المسلِمين.

الصفة الرّابعة: قيامُ المؤمن المسلم بواجبِ عليه تُجَاه غَيْرِه من الْمُؤْمِنِينَ المسلمين.

وواجبُ المسلم تُجَاه أَخِيه المسْلِم أن يُعَلِّمَهُ ما يَجْهَلُ من أوامر اللّه ونواهِيه، في الدِّين الذي اصطفاه لعباده، وأن يَنْصَحَهُ بفِعْلِ ما أَمَر اللّه

بفعله، واجتنابِ ما نهَىٰ اللَّهُ عنه، وأنْ يُوصِيَهُ بالصَّبْر على فعل الواجبات وتَرْكِ المحرَّمات.

فإذا قام الْمُسْلِمُون بهذا الواجب انْطَبَقَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يَتَوَاصَوْن بالصَّبْرِ.

ومعلُومٌ أَنَّ التواصِيَ بالصَّبْر لا بُدَّ أَنْ يكُون مَسْبُوقاً بالتَّعْرِيفِ بما أَمَرَ اللَّه به عبادَهُ من أعمالٍ ظاهِرَةٍ وباطنة، وبما نَهَىٰ اللَّهُ عنه عبادَهُ من أعمالٍ ظاهِرَةٍ وبَاطِنَةٍ، ومَسْبوقاً بالنُّصح بطاعة اللّه فيها، والإرشادِ إِلَىٰ أنّها هي الصراط المستقيم الموصل إلى سعادتي الدنيا والآخرة.

ولمّا كانَتِ الأَوامِرُ الدينيَّةُ تُحَمِّلُ فاعِلَها مشقَّةَ أدائِها، ولا يخْفى أَنَّ تَحَمُّلَ هٰذِهِ المشقَّةِ يتَطَلَّبُ صَبْراً.

ولمَّا كانت النَّواهِي الدِّينيَّةُ تُحَمِّلُ الحريصَ على الطاعَةِ مشَقَّةَ مخالَفَةِ شَهَواتِ نفسِه وأهْوَائِها، ولا يخْفَىٰ أَنَّ تحمُّلَ هذه المشقَّةِ يتطلَّبُ صبْراً أيضاً.

كانت الفقَرَةُ الأخيرَةُ من القيام بهذا الواجب هي التوصِيَةُ بالصَّبْر، وظاهر أَنَّ تَشَارُكَ المؤمنين المسلمين بالقيام بهذا الواجب هُوَ الذي يُبْرِزُ في المجتمع الإسلاميّ ظاهِرَةَ تَعْلِيمِ أحْكَامِ الدِّينِ والنُّصْحِ والإرشادِ، والأمْرِ بالمعروفِ والنَّهْي عَنِ المنكرِ، والتَّواصِي بالصَّبْرِ.

فالتواصِي بالصَّبْرِ يَدُلُّ باللُّزُومِ الذهْنِيّ على ما يَنْبَغِي أن يكُونَ سَابقاً له، من الأَمْرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عَنِ المنكر، الْمَسْبُوقَيْنِ بالنُّصْحِ والإرْشادِ، اللَّذَيْنِ قَدْ حصَلَ قَبْلَهُما البيانُ والتَّعْلِيمُ والتَّبْلِيغُ لأحكام دينِ اللَّهِ.

وعلى سبيل الإيجاز والاقتصاد في العبارة اقتصر النصُّ على عبارة: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ إذْ هِيَ تَدُلُّ باللُّزُوم الذِّهْنِي علَىٰ مَا يَنْبَغِي أَنْ يكُونَ سابقاً لمضمونها، وهذا من أَبْدَعِ الإيجاز الّذِي لا يستقيمُ تَدَبُّرُ آياتِ كتابِ اللَّه ما لَمْ يُلَاحِظْهُ المتدبّر، إذْ هُوَ يعْتَمِدُ على اللّوازِمِ العقليَّة الّتِي يكْتَشِفُهَا أولُوا

الْأَلْبَابِ الباحِثُونَ في الْعُمْقِ، الّذِينَ لا يَقْتَصِرُونَ على السُّطُوحِ، فكِتَابُ اللّهِ بَحْرٌ عَمِيقٌ، لا يكْفِي فِي تَدَبُّرِهِ التَّوَقُّفُ عنْدَ السُّطوحِ، دون الغَوْصِ في الأعماقِ عن طريقِ اللّوازم العقليَّةِ.

فما تُوجّه لَهُ جُمْلَةُ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ هُو القِيامُ بوظيفةِ تعليمِ أحكام الدّين للمسلمين، والنُّصْحِ بها والإرْشادِ إلى الاستمساكِ والْعَمَلِ بمقتضاها، والسَّيْرِ على صِرَاطها المستقيم، والأمْرِ بالمعروف والنَّهْي عن المنكر، معَ التوصيَةِ بالصَّبْرِ على فِعْلِ ما أمَر اللّهُ به، وتَرْكِ ما نَهىٰ اللّهُ عَنْه.

الصَّبر: قُوَّةٌ خلُقيّةٌ من قُوىٰ الإرادة، تُمَكِّنُ الإنسانَ منْ ضَبْطِ نَفْسِهِ، وحَبْسِها، لتَحَمُّلِ المتاعب والمشقّاتِ والآلام، وضَبْطِها وحَبْسِهَا عن الاندفاع بعوامل الضَّجَر والجزَعِ، والسَّأم والْمَلَلِ، والعَجلَةِ والرُّعُونَة، والْغَضَبِ والطَّيْشِ، والخوفِ والطَّمَعِ، والأهواء والشهواتِ والغرائز.

سؤال وجوابه:

السؤال: هل الاستثناءُ في السورة بقول اللّه عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ يُخْرِجُ كُلَّ مَنْ آمَنَ وعَمِل صالحاً وأوصَىٰ بالحقّ وأوصَىٰ بالصَّبْرِ مِنْ كُلِّ خُسْرٍ، ولو كانَ مِنَ المسْرِفين على أنفُسِهم بالمعاصِي وارتكاب الكبائر، الظالمين لأَنْفُسِهِم بها، أَوْ كان من المقتَصِدين الذين يَقْتَصِرُونَ على فِعْلِ الواجبات وتَرْكِ المحرّمات، ولا يسْتَزيدون من نوافِلِ القرباتِ وفِعْلِ الخيرات؟؟

الجواب: لدَىٰ تَدَبّر قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾: أي: في وَحْلٍ مُحِيطٍ بِه من الْخُسْرِ، فلَوِ اسْتَمَرَّ فيه لكان من الخالدين يوْمَ الدّين في العذابِ، يتَبَيَّنُ لَنَا ما يلي:

أوّلاً: أمَّا مَنْ كان من المؤمنين المسرفين على أنفُسِهم في ارتكاب المعاصي من دون الكُفر، والظالمين لأنفسهم بها، فإنَّهُ يُخْرِجُ نَفْسَه بعْضَ

إخراجٍ من محيط الْخُسْرِ، فلا يكونُ من مستَحقي الْخُلُودِ في دار العذابِ يوْمَ الدين، وخسارتُه تكونُ في حُدُودِ ما تَعَرَّض لَهُ من عذابٍ، وما تعرَّضَ لَهُ من خَسَارة منازل في الجنة، كان باستطاعته أن يرقَىٰ إليها لو كان من المتقين المقتصدين، الذين يقتصِرُونَ علىٰ فعل الواجبات وترك المحرّمات، أو كان من الأبرار أو المحسنين السابقين في الخيرات من نوافل القربات بإذن اللّه.

ثانياً: وأمّا مَنْ كَانَ من المؤمنين المقتصدين، الذين يقتصرون على فعل الواجبات وتَرْكِ المحرَّمَاتِ، دون الاستزادة من نوافل القرُباتِ الَّتي يرفَعُهُ اللَّهُ بها في درجات جنَّاتِ النعيم، فإنَّه يُخْرِجُ نَفْسَهُ من الْخُسْرِ الذي يستَحِقُّ بِهِ العذاب، فيكونُ بفضل اللّهِ من أهل جنَّاتِ النَّعيم دُونَ أنْ يُعَذِّبَهُ اللَّهُ في دار العذاب، إذْ كان من المتقين عذابَها بإيمانه وعَمَلِه.

لكنَّه يكونُ خاسراً منازلَ عاليةً في الجنَّةِ كان باستطاعَتِهِ أَنْ يَرْتَقِي إليها بفضل اللَّهِ، لَوْ كان من المستزيدين من نوافل القربات الّتي استزادَ مِنْها الأبْرارُ والْمُحْسِنُون.

ثالثاً: وَأَمَّا مَنْ لا يَخْسَرُ شَيئاً ممَّا كان باستطاعته أَنْ يغنَمَهُ من مَنَازِلَ في جنَّاتِ النَّعِيم، فَهُوَ الذي يكُون من أَهْلِ الفردوس الأعْلَىٰ في الجنَّة، مع النبيّينَ والصّدّيقين والشُّهَداء والصالحين، بفضل اللّه وغُفْرانِهِ وَعَفْوِه، بسَبَب ما قَدَّمَ من نوافل الصالحات والقربات الَّتي اكْتَسَبَ بها رضوان اللّه عزّ وجلّ.

رابعاً: وَبَيْنَ مَنْ هُمْ في الفِرْدَوْس الأعْلَىٰ، ومَنْ هُمْ في أدْنَىٰ مراتب الجنَّةِ ودَرَجاتها خاسِرُون بمقدار نزولِ دَرَجَةِ كلٍّ منْهُمْ عن مرتبة الفردوس الأعْلَىٰ، إذ قَصَّرُوا فلم يقوموا بأعمال صالحة كان بمقدورهم أنْ يَعْمَلُوها، وكان تقصيرهم ناتجاً عن تهاونٍ، أو كَسَلٍ، أوْ إيثارٍ لمتاعِ الحياة الدنيا،

على ما أعَدَّ اللَّه للأبرار والمحسنين السّابقين بالخيرات بإذنه، من منازل رفيعَةٍ في جنَّاتِ النعيم.

❁ ❁ ❁

(٦)
نظرة عامة إلى الوقت

لقد دلّتْنَا سُورَة (العصر) على القيمة العظيمة لنهر الوقت السَّيَّال، الذي لا يَمْلِكُ أحَدٌ من الخلْقِ إمْهَالَهُ، أو تَطْويعَهُ للانتظار، وإنَّما يَمْلِكُ أنْ يغْتَرِفَ فيه نفعاً، أَوْ يَصِيدَ من كلِّ مَوْجَةٍ مارَّةٍ منْهُ صَيْداً ثميناً.

ولا يَحْمِي نَفْسَهُ من خسارة عُمْرِهِ، إلاَّ مَنْ حوَّلَ وَقْتَهُ إلى قِيمَةٍ ثابتَةٍ، وأعظَمُ التحويلِ قيمَةً مَنْ يُحَوِّلُ وقْتَهُ إلى قِيمَةٍ يسْتَثْمِرُها نعِيماً خالداً، في دار النعيم يوْمَ الدِّين.

ومَنْ خَسِرَ أوقَاتَ عُمْره الممتزجَةَ بطاقَاتِهِ المادّيَّةِ، والمعنويَّة فَقَدْ خَسِرَ نَفْسَهُ، وهو في الحقيقة أَخْسَرُ الخاسِرِينَ.

ما فائدة إنسانٍ سَعَىٰ كادحاً حَتَّىٰ مَلَكَ جبلاً من ذهَبٍ، وحِينَ ملكَهُ سَقَطَ علَيْهِ ميّتاً.

لكنَّ الأخْسَرَ منه مَنْ ضيَّعَ عُمْرَهُ فيما لا خيْرَ فيه، والأخْسَرُ منْهُمَا من حَمَلَ أوزاراً وآثاماً رمَتْ بِهِ خالداً في عذاب النار، أو مُقِيماً بها إقامَةً طَويلة.

هذا هو مفهومُ الوقْتِ، وهذه هي قيمته في دلالات سورة (العصر).

هذه الحقيقة الجليَّةُ بكُلِّ أبْعَادِها لا يُدْركها معظم الناس، فلا يكاد الباحثُ المتتبِّعُ يَجِدُ إلاَّ ظالِماً لِنَفْسِهِ خاسراً، يُبَدِّدُ عُمْرَهُ وطاقاته بإسْرافٍ وتبذيرٍ، فلا يُحْسِنُ الاستفادة منهما في نافعٍ له خالد، بلْ يُتْلِفُهُما في متاعٍ

فانٍ، أو في أوهامٍ وأحلامٍ من أحْلام اليقظة، أو فيما يحْمِلُ به أوزاراً وآثاماً، فَيَقَعُ في مُرَكَّبِ الْخُسْرَان، إذْ يَخْسَرُ رأسَ مالِهِ من جِهَةٍ، ويَحْمِلُ ديُوناً وَتَبِعَاتٍ من جِهَةٍ أُخرىٰ، وهٰذِهِ لا يَجِدُ لَهَا تَسْدِيداً إلاَّ مِنْ عذَابٍ في الحياةِ الأُخْرَىٰ، حيَاةِ الحساب وفَصْلِ القضاءِ وتنفيذِ الجزاء.

وشَرْطُ النجاةِ من الْخُسْرِ المطارِدِ للإنسانِ مع لحظات عُمْرِه، كَمَالُ الإيمان، وكمالُ الْعَمَلِ الصالحِ في دائرة ذاتِهِ، وكمالُ التوصية بالحقّ والتوصية بالصَّبْرِ في دائرته مع دوائر غيره من الناس على مقدار استطاعته.

وشرحُ هذه الفضائل المنجية من الخسر، جاءَ بَعْضُهَا فيما نزل قبْلَ سُورَةِ «العصر» من قرآن، أوْ شرحه الرسولُ ﷺ من بيان، وجاء بعْضُها الآخَرُ فيما نزل بَعْدَ سورة (العصر) من قرآن، وفيما شرحه الرسولُ بعدها من بيان.

ولمَّا كان فعلُ الْخَيْر والْعَمَل الصالح، وتَرْكُ الشَّرِّ والعَمَل السّيِّئ يتطلَّبَانِ مُجَاهَدَةً للنَّفْسِ، وهذه المجاهَدَةُ لاَ تتحقَّقُ إلاّ بالصَّبْرِ، اكتفَىٰ النصّ بذكر التواصِي بالصَّبْرِ، ليدُلَّ على اللوازم الفكرِيَّةِ الّتي يستَخْرِجُها أولوا الألباب بالتدبُّرِ المتأنّي.



(٧)
الملحق الأوّل
حول بلاغيات في سورة «العصر»

من بلاغيات هذه السورة ما يلي:

الأولى:

تأكيد خبَرِ كون الإنسانِ في محيط به من الخسْرِ باستثناء الذين جاء

بيانهم في السّورة بالمؤكدات التاليات: «القسم بالعصر ـ حرف التأكيد «إنّ» ـ الجملَةُ الاسمية ـ اللاّم المزحلقة».

والداعي للتأكيد بهذه المؤكدات غرابَةُ الخبَرِ، وبُعْدُهُ عن أذهانِ الناس، حتَّىٰ كأنَّه مشكوكٌ فيه، وإنكارُ أهْلِ الشركِ والكُفرِ له. وجاء البدْءُ بالقسم لتنفتح النفس باهتمام لمعرفة المقْسَمِ عليه.

الثانية:

ربط أوّل السّورَةِ بآخِرِها في سَجْعٍ واحدٍ، مع عدم التزامه وسَطاً، إذْ لو الْتُزِم وسطاً لتناقَصَ مُسْتَوَىٰ جمال اللّفظ في السّورة، ولصار شبيهاً بسَجْع الكُهّان. ولو تُرِكَ السّجْعُ في آخِرهَا لاسْتَرْسَلْتِ النَّفْس تتطلَّبُ المزيدَ من الكلام، ولم تَشْعُرْ بانْتِهَاء السورة، فمجيء السَّجْعِ قَدْ كان بمثابَةِ حرف الروي في آخرِ الشّعْرِ، الذي يُشْعِرُ بانتهاءِ البيت، أو القصيدة، أو المخمَّسِ، أو نحو ذلك.

الثالثة:

توازُنُ الفقراتِ بعْدَ الْقَسَمِ، مع ملاحظة أن كلَّ فقرة منها هي عنوان موضوع كامل مترامي الأطراف، ذي شُعَبٍ كثيرة، وقد جاءت الفقرات كموجات هادئات في جَدْولٍ يجري جرياناً رفيقاً ليّناً.

الرابعة:

جاء في السُّورَةِ الحديث عن خسارة الإنسان بصفة عامّة، لتتطلّع النفوسُ باستغرَابٍ ودَهْشَةٍ، ثمّ جاء الاسْتثناءُ بعد أن صارت النفوسُ مستعدّة للتفكر بأَنَاة وتعمُّقٍ، وتدبُّرٍ تُحْشَدُ لَهُ طاقات الفكر وأطرافٌ من المعرفة تناسبُ الموضوع.

الخامسة:

لمّا كانت «ال» في «الإنسان» لاستغراق كلّ المكلفين من الناس، كان

اللفظ بمثابة الجمع، أي: كلُّ الناس المكلفين، ولهذا صحَّ استثناء فريقٍ منه، فجاء في السورة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.



(٨)

الملحق الثاني

«الإنسان مملكة»

يعيش الإنسان في ذاتِ نفسه كأنَّهُ مملكَةٌ معقَّدَةٌ تشتمل على كلِّ عناصر المملكة وصفاتها وخصائصها، فمن أحْسَنَ سياسَةَ مَمْلكَةِ ذاتِه، فسلَّم أمْرَ القيادة والتوجيه إلى أهْلِهِ رَبِحَ وفاز، ومن أساء سياسة مملكته، فسَلَّم أمر القيادَة والتوجيه إلىٰ غَيْرِ أَهْلِه خَسِرَ وجرَّ لنفسه فساداً عظيماً، وعذاباً أليماً.

فلدىٰ المقارنة بين صفات الإنسان وخصائصه النفسيّة، وبين الممالِكِ في المجموعات الإنسانيّة الكبرى، نلاحظ ما يلي:

● ففي داخل الإنسان جهازُ عقْلٍ باحِثٍ، وفِكْرٍ متأمِّلٍ، قادرٍ على أن يَزِنَ الأمور بميزان المصلحة والمفسدة، والمنفعة والمضرَّةِ، العاجل من كلِّ ذلك والآجل، مُسْتَرشداً بهُدَىٰ اللّهِ الذي أنزله لعباده.

فإذا استخدَمَ الإنسانُ هذا الجهازَ فيما خُلِقَ له، وكان سليماً من العطَب أو الخَلَل، بَصَّرَهُ بالحقّ والباطل، والخير والشرّ، والصالح والفاسد، والنافع والضارّ، وكان لدَيْهِ بمَثَابَة السلطة التشريعيَّةِ، وكانت وظيفتُه أنْ يُصْدِرَ القوانين والأحكام التشريعيَّة الهاديَةَ إلى الصراط المستقيم في الحياة، صراط اللّه العزيز الحميد العليم الحكيم.

● وفي داخل الإنسان جهازُ إرادةٍ حُرَّةٍ، وتَقَعُ تَحتَ سلْطَةِ هذه الإرادة جَمِيعُ قُوىٰ الإنسانِ المؤثِّرَةِ في إنجاز الأفعال.

وهذه الإرادة الحرَّةُ في داخل الإنسان هي بمثابة السلطة التنفيذيَّة، الّتِي تُوجّه أوامِرَها ليَتِمَّ التَّنفِيذُ مباشرةً، ضمن حدود الطاقات والقدراتِ التي تستطيع توجيهَها لتنفيذِ المرادات.

● وفي داخل الإنسان دوافع كثيرةٌ مختَلِفَةُ الأشكال والخصائص، متعدّدة الجهات، وبعْضُها مورُوثٌ ومُسْتَقِرٌّ في الغريزة، وبعْضُها مكتَسَبٌ من البيئة.

وهٰذه الدوافع هي بمثابة الرّعيَّة في المملكة، الّتي يجب تنظيمُها والتنسيقُ فيما بينها، حتَّىٰ لا يطغَىٰ بعضُها على بعضٍ في داخل مملكة الإنسان، وحتَّىٰ لا تَطْغَىٰ في الْفَرْد جُمْلَةُ هٰذِهِ الدّوافع فتُسَبّب له أنْ يطْغَىٰ على أخيه الإنسان في مملكته الأخرى.

وإذَا أُهْمِلَتْ هٰذه الدّوافع عاشَتْ في داخل الإنسان في حَياةِ فوضَىٰ، وجعَلَتْ تأمُرُهُ بكُلِّ سُوءٍ وشر، وتكون في داخله بمثابة جمهورٍ فَوْضويّ تُحَرِّكُه رُعُونَةُ الشهوات والأهواء والغرائز الثائرة الهائجة بطيشٍ وحماقة، ولو كانت تَسُوقُ أو تقودُ الإنسانَ إلى المهالِكِ والموبقاتِ، وتهبِطُ به إلى أوديَةِ العذابِ والشقاء.

هذا هو شأن غرائز الإنسان ودوافعه في داخل ذاته، إذا أُهْمِلتْ، ولم يكُنْ لها ضابطٌ من إرادةٍ مَهْدِيَّةٍ بهَدْيِ من دينٍ ربَّانيٍّ صحيح، وعَقْلٍ مُدْرِكٍ للحقّ والخير والفضيلة، ومُدْرِكٍ لأضدادها الضارّة الفاسدة المفسدة في عاجل أمْرِ الإنسانِ أو آجله.

لكن متَىٰ تمّ تنظيمها والتنسيقُ بيْنَها وضَبْطُها بضوابط الحقّ والخير والفضيلة، استطاع الإنسانُ أَنْ يعيش في أمْنٍ وطمأنينة وسعادَةٍ مع نَفْسِه، وأن يَعِيشَ في سِلْم وطُمأْنِينَةٍ وَتَعَاوُنٍ مع أمثالِهِ من الناس.

ومن أراد أنْ يُحْسِنَ سِياسة مملكته النفسيَّة ليكُونَ إنساناً مثاليّاً، أو سالكاً في مدارج الإنسان المثالي، فليوزّع السلطات في داخل نَفْسِه وفْقَ القانون الطبيعيّ السابق، وعليه في هذا أن يُسَلِّم السُّلْطَةَ التشريعيَّةَ إلى القدرات الفكريّة المهديَّة بالهداية الرّبّانيّة، وأنْ يُبَاعِد بين هذه القدرات وبين مؤثرات الأهواء والشهوات والغرائز والدوافع النفسيّة، حتّى لا تَجْنَح بها عن صراط الحقّ والعدل، وعليه أن يُطْلِق قُدْراته التفكيريّة في ميادين البحث عن الحقائق، ويُثِير فيها الشَوْق إلى الوصول إليها، وكلّما وصَلَتْ إلى طائفة من شرائع الحقّ والعدل الرّبانيّة، فيجب عليه أنْ يؤمن بها، ويجعلَهَا موجِّهةً لإرادته المالكة للسُّلْطَةِ التنفيذيّة داخل مملكة ذاته.

وهذه السلطة التنفيذيّة، تَتَعَرَّضُ لضغوط غوغائيَّة من قِبَلِ جُمْهور الأهواء والشهواتِ والغرائز، الّتي تطالِبُ بما هو زائِدٌ على أنصِبَتِها النافعَةِ في الحياة، لتَسْتَمتع باللّذاتِ العاجلات، غَيْرَ عابئَةٍ بالمضرَّاتِ الآجلاتِ، الجالبات للآلام وأنواعِ العذابِ الجسَدِيّ والنفسيّ.

فإذا وَجَدَ من إرادَتِه ذاتِ السُّلطة التنفيذيَّةِ داخل مملكَةِ ذاتِه ضعفاً، أو ميْلًا للاستجابة لمطالِب جماهير أهوائه وشهواته وغرائزه الجانحة عن صراط الحقّ والخير والفضيلة، صراط اللّهِ المستقيم، فعلَيْه أن يُمِدّ إرادَتَهُ بقُوىً تشُدُّ عزْمها وحزْمَها، من مخازن الإيمان في عُمْقِ قَلْبِهِ، ومن كوابِحِ الخوْفِ من سُوءِ المصير، ومن دوافِعِ الطَّمَعِ بثواب اللّهِ، المعجَّلِ من ذَلِكَ والمؤجّل، وعليه أن يَجْعَلَ شِعَارَه دواماً: الحقُّ فَوْقَ الجميع، وعندئذٍ يَجِد من معونة اللّه جلَّ جلالُهُ ما يجْعَلُ إرادته ذاتَ عزْمٍ يُسْكتُ صَخَبَ جماهير الأهواء والشهوات والغرائز الجانحة، ويقْمَعُ طيشَها، ويُلْجِمُ دوافعها الرَّعْناء.

والإنْسَانُ أمام جماهير أهوائه وشهواته وغرائزه الجانحة، التي تَنْبَحُ

داخِلَ مملكة ذاته، بحاجةٍ إلى حصْنٍ حَصِينٍ من الصَّبْر، حتَّىٰ يقيَهُ ضعْفَ الإرادة وخَوَرَ العزيمة.

لكنَّ الجمهور الأعظم من النّاس تتحكّم بإراداتهم أهواؤهم وشهواتُهُم وغرائزهم الجانِحَةُ عن صراط اللّه المستقيم، ثُمَّ تكونُ السُّلْطة التشريعيَّةِ في ذواتهم مُسَخَّرَةً لخدمَةِ هذه الأهواء والشهوات والغرائز، فتَعْمَىٰ عن إدْرَاكِ الحقّ والخير والفضيلة، وبَدَلَ أَن تُؤَدِّيَ القدراتُ الفكريّةُ فيه وظيفتها الفطريَّةَ في خِدْمَةِ الحقّ والخيْر والفضيلة، تؤدِّي وظيفةَ تَقْدِيم وسَائِل الْغَوَايَةِ والشرِّ والضَّرّ والإفساد في الأرض، بألوان من المكر والتحايُلِ والكيْدِ الشيطانيّة، وتجتالُها الشياطين وتَهِيم بها في كلِّ وادٍ قَذِرٍ وخيم، وعندئذٍ ينغمس الإنسانُ في الخسرانِ المبين، في الدنيا دار الابتلاء، وفي الآخرة دارِ الحساب وفصْل القضاء وتنفيذ الجزاء.

ربّنا آتنا رُشْدَنا ولا تجعلْنا من الخاسِرِين.

وبهذا انتهى تدبّر سورة «العصر» بفتح من الله ومعونة وتوفيق





سورة العاديات

١٠٠ مصحف ١٤ نزول



(١)
نصّ السورة
سورة العاديات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

(٢)
مما رُوي بشأن هذه السورة

(١) أخرج أبو عُبَيْد في فضائله عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا زُلْزِلَتْ تَعْدِلُ نِصْفَ الْقُرْآنِ، والْعَادِيَاتُ تَعْدِلُ نِصْفَ الْقُرْآن»[١].

«هذا الحديث مرسل».

(٢) وأَخْرَجَ مُحمَّد بْنُ نصرٍ من طرِيقِ عَطَاءِ بن أبي رباحٍ عن ابن عباسٍ مرفوعاً مِثْلَهُ، وزاد:

---

(١) عن فتح القدير للشوكاني.

«وقُلْ هُوَ اللَّهُ أحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآن، وقُلْ يا أَيُّها الْكَافِرُونَ تَعْدِلُ رُبْعَ القرآن»[١].



(٣)
موضوع السورة

تُعالجُ هذه السورة تخليصَ المجتمعات الجاهليّة، من قبيحةٍ خَطِيرَةٍ من القبائح الّتي كانتْ شائعةً في البيئَة العربيَّة الجاهليّةِ، بيْنَ قبائلهم الّتي يَجْمَعُها جَدٌّ واحِدٌ، ولُغَةٌ عربيّةٌ واحِدَةٌ، وكانَتْ شائعةً عنْدَ غَيْرِ الْعَرَبِ، وهيَ قبيحَةُ غَزْوِ النَّاس بَعْضِهِمْ لبَعْضٍ للسَّلْبِ والنَّهْبِ والسَّطْوِ على الأَمْوال عُدْواناً وظُلْماً، وهُمْ يتفاخَرُون بذلك، ويَجِدُونه حقّاً مَشْروعاً للأقوياء على الضُّعَفاء، ويَسْتَخْدِمُونَ فيه إحْدَىٰ نِعَمِ اللَّه على النّاسِ، وهي نِعْمَةُ الْخَيْلِ المهيّأة بالتَّدْبير الرَّبّاني تَهْيِئَةً ملائِمَةً بعِنَايَةٍ فائقَةً للقِتَال في سبيل اللّه، وإعلاء كَلِمتِه، وإقامة الحقّ والعدل.

ولكِنَّ النَّاسَ يسْتَخْدِمُونَها بجُحُودهم وكُنُودِهِمْ لربِّهِمْ، وبِحُبِّهِم الشّدِيد للحصُولِ علىٰ الأموالِ الّتي لا حَقَّ لهم بها، في البَغْي والطُّغْيانِ، والظُّلْم والْعُدْوَان، وهُمْ يُفَاخِرُونَ بمُمَارَسَةِ هٰذِهِ القبيحَةِ، ويَتواضَعُونَ على قَلْبِ مفْهُومَاتِ الحقّ والْعَدْلِ، والْبَغْي والظُّلْم، فَيَجْعَلُونَ الباطِلَ حقًّا، والظُّلْمَ والْعُدْوانَ بُطُولَةً ومجداً وَشَرَفاً، غَافِلِينَ عَنْ سلطانِ الرّبّ الْجَليل، الّذي سوْفَ يُحاسِبُهُمْ على أعمالهم يوْمَ الدّين، وسَوْف يُجَازيهم عليها، ويُقيم بَيْن النّاسِ العَدْلَ، فيقْتَصُّ من الظالِمِينَ الباغِين المعتدين، ويُحاسِبُهم ويجازيهم عَلىٰ كُفْرِهم وكنُودِهمْ، وجُحودِهِمْ حقَّ بارئهم عليهم في الإيمان والإسلام وفعلِ الصالحاتِ واجتناب السّيّئات، على مقدار استطاعاتهم.

---

(١) عن فتح القدير للشوكاني.

ويُقاسُ على نِعْمَةِ الْخَيْلِ كُلُّ نِعَم اللَّهِ الَّتِي يُمْكن استخدامُها في القتال في سبيل اللّه، لنَشْرِ دينِه، وإعلاً كَلِمتِه، إذْ يسْتَخْدِمُهَا النّاس في الظُّلْم والعدوان، والبَغْي والإثْمِ والطُّغْيان.

ولدى النظر في مَضْمُون سورة «العاديات» وما نَزَلَ قَبْلَها من سُوَرِ القرآن، نُلاحِظُ ما يلي:

بعْدَ القضايا التي عالجتها السُّوَرُ الّتي نزلَتْ قَبْلَ سُورة «العاديات» والّتِي اهْتَمَّتْ بقَضَايا العلم، وحرِّيَّةِ الإرَادَة لدى الإنسان المكلّف، وقضايا الإيمان والإسلام، وعبادة اللّه بالصَّلاة، وقضَايَا الْبَذْلِ والعطاء لذوي الضروراتِ والحاجاتِ في المجتمع، جاء دَوْرُ معالَجةِ قَبِيحَة غَزْوِ النَّاسِ بعْضِهِمْ لبعْضٍ، بُغْية سَلْبِ ونَهبِ أمْوالهم، والسَّطْوِ علَىٰ مُمْتَلَكاتهم، ولو نَجَمَ عن ذَلِكَ سَفْكُ الدِّماء، وإزْهَاقُ الأرْواح، وتَخْرِيبُ العمران، نظراً إلَىٰ أَنّ هذا الْغَزْو قَدْ كانَ إحْدَىٰ الظواهر السلوكيَّة الشنيعَةِ من سلوكيّات الجاهليات العربيَّة وغيْرِ العربيَّة، ومَا الاستعمارُ الّذِي تَقُومُ به الإمبراطوريَاتُ والدُّوَلُ الّتي تَعْتَزُّ بما لَدَيْها من قُوىً عَسْكَرِيَّة إلاّ إحدىٰ صُوَرِ هذا الغزْوِ القبيح الشَّنيع.

فالسورةُ بهذا التحليل لموضوعها درْسٌ واحِدٌ متماسِكُ الأفكار، مترابطُ العناصر، وأمْرُ وحْدَةِ مَوْضوعها لا يخفىٰ على متدبِّرٍ ذي أناة، وهو ما سبق بيانه.



(٤)
التدبُّر التحليلي لآيات سورة «العاديات»

قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾.

• ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١﴾: «الواو» واو القَسَم. [الْعَادِيات] جَمْع «الْعَادية» وهي الجاريَةُ بسُرْعَة، منْ «عَدَا يَعْدُو عَدْواً وَعُدُوًّا» إذا جرَىٰ بسُرْعة. ولفْظُ [الْعَادِيَاتِ] وَصْفٌ لموصُوفٍ مَحْذُوف، وأَوْلَىٰ مَا ينْطَبِقُ علَيْهِ هذا الوصْفُ الْخَيْلُ، فالأوصَافُ الّتي جاءَتْ بَعْدَهُ من الأوصَاف البارزة في الْخَيْل، دُونَ غَيْرها ممّا يُسْتَعْمَلُ في الرُّكوب للإغارةِ عَلَىٰ ظُهُورِهَا في الغَزَوات.

والاستِغْنَاءُ بذِكْرِ الصّفات عَنْ ذكْرِ اسْم الموصوف بها، من الكنايات البديعَة الشائِعَةِ في اللِّسَان الْعَرَبيّ، وهُو من أساليب التَّعْبير غيْرِ المباشِرِ عنِ المقْصُود.

﴿ضَبْحًا﴾: الضّبْحُ يأتي في اللُّغة العربيَّةِ بمعْنَيَيْن:

المعْنَى الأول: الْعَدْوُ الشّدِيدُ إذا بلَغَ مدَاه الأقْصَىٰ في مُسْتَطاعِ الْعَادِي أو العادية، فَضَبْحُ الْخَيْلِ عَدْوُها حتَّىٰ تَصِيرَ أَيْدِيها وأرْجُلُها معَ أَبْدانها مُمْتَدَّةً طُولاً في جَرْيِها، كأنّها علَىٰ خَطٍّ أُفُقِيّ.

جاء في كتاب الخليل على ما نقَلَ ابن منظور: الضَّبْحُ: أَنْ يمُدَّ الفَرَسُ ضبْعَيْه إذَا عَدَا حتَّىٰ كأنَّهُ علَىٰ الأرْضِ طُولاً، يُقَالُ: ضَبَحَتْ وضَبَعَتْ.

الضَّبْعُ: ما بيْن الإبْط إلى نِصْفِ الْعَضُد من أعلاه، وهما في الإنسان والحيوان ضبْعَان. يقال لغة: ضَبَعَ الفرسُ يَضْبَعُ ضَبْعاً وضُبوعاً، أي: مَدَّ ضَبْعَيْهِ في جَرْيِهِ مُسْرِعاً.

والضَّبْحُ مثْلُ الضَّبع، تَقُول لغة: ضَبَحَتِ الْخَيْلُ في عَدْوِها تَضْبَحُ ضَبْحاً، وضَبَعَتْ تَضْبَعُ ضَبْعاً.

المعنى الثاني: الضَّبْحُ صَوْتٌ يُسْمَعُ مِنْ صُدُور الْخَيْلِ عِنْدَ الْعَدْو، وليس هو الصَّهيل الذي تُطْلقه حناجرُها.

وكلمة: [ضَبْحاً] منصوبةٌ على أنّها مصْدَرٌ مؤكِّدٌ لاسم الفاعل: [الْعَادِيات] على معنَى أنّ الضَّبْحَ هو الْعَدْو الشديد البالِغ مَدَاهُ الأقْصَىٰ. أو مَصْدَرٌ في موضع الحال، تنزيلاً للْمَصْدَرِ مَنْزِلَة اسْم الفاعل، أي: ضَابِحَاتٍ، وهذا يُنَاسِبُ المعنَيَيْن للضَّبْحِ، الْعَدْوِ الشديد، والصَّوْتِ الذي يُسْمَعُ من صُدُورِها.

وأرَىٰ حَمْلَ اللّفْظ على مَعْنَيَيْهِ معاً، وهو ما عليه جُمْهُور عُلماء أصُولِ الفقه، إذْ يَرَوْن أنّ من أساليب اللّغة استعمالَ اللّفظِ في معنَيَيْهِ أو معانيه إلاّ عند التعارض، وهذا من روائع العربيّةِ في إيجازها البديع، وقد تكرَّر اسْتِخْدَامُهُ في القرآن المجيد، إذْ هُو قائِمٌ على استخدام لفظ واحدٍ في جُمْلَةٍ لِيَدُلَّ على معنَيَيْن فأكثر، ويُسْتَغْنَىٰ بهذا الإجراء عن جُمْلَتَيْن فأكْثَر، وهو يَنِمُّ عَنْ ذَوْقٍ رَفيع في أساليب البيان العربيّ.

وقد أقْسَمَ اللّه عزّ وجلّ بإحْدَىٰ نِعَمِهِ على عبادِه، وهي نِعْمَةُ الخَيْل الّتي تَعْدُو في جَرْيها حَتَّىٰ تكُونَ كالسَّابحة في الرِّيحِ، وتُطْلِقُ من صُدُورها أصْواتاً تُلْقِي الذُّعر فيمن تُغِيرُ عَلَيْهم، وهو في الحقيقة قَسَمٌ ببعض صفاته الّتي من آثارها هذه النّعمة.

جملة ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١﴾ تُقَدِّمُ اللّقطة الأولَىٰ من مشاهد الصُّورَةِ البيانيّة البديعة لحركة الخيْلِ الْمُغيرَة بفُرْسَانها على مواقع مَنْ تُغِير عليهم بشَرّ.

● ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾: هٰذه هي اللّقطة الثانية من مشاهِدِ الصُّورة البيانيّة البديعة لحركة الْخَيْل المغِيرَة بفُرْسانها على مواقع من تُغيرُ عليهم بشرّ.

[الْمُورِيات] جمع الْمُورية، اسْمُ فاعل من «أوْرَىٰ يُوري فهو مُورٍ» يُقَالُ: لغةً: أوْرَىٰ الزَّنْدَ إذَا أخْرَجَ منه النارَ بالْقَدْح.

الزَّنْدُ: الْعُودُ الأعْلَىٰ الّذي تُقْدَحُ بِه النار، إذْ يُضْرَبُ عَلَىٰ الزَّنْدَةِ الّتي هي الْعُودُ الأسْفَل.

يقالُ لُغَةً: قَدَحَ بالزَّنْدِ قَدْحاً، إذَا ضَرَبَ بِهِ حَجَرَهُ لتَخْرُجَ النارُ منه، ويقالُ: قَدَحَ النّارَ من الزَّنْدِ، إذا أخْرَجَها منه.

والخيلُ في عَدْوِها الشديدِ تُورِي النار والشَّرَرَ بسنابكها، إذْ تَضْرِبُ بحَوَافِرِها على الأرض، فتُصِيبُ بها أحجاراً منبثَّةً فيها، فتقْدَحُ شَرَرَ النار.

وفي هذا تَصْوِيرٌ للَقْطةِ من مَشْهَدِ إغارة الخيول في أرْضٍ غَيْرِ مُمَهَّدَةٍ لِعَدْوِ الخيلِ، وفي هٰذهِ الأرض حجارَةٌ وصخُورٌ تَقَعُ عليها حوافر الخيْل فتَقْدَحُ ناراً وتُطْلِقُ شرَراً، فِعْلَ قادِحِ الزَّنْدِ الْمُورِي بقَدْحِهِ ناراً.

القَدْحُ: ضَرْبُ عودٍ على عُودٍ، أو حَدِيدَةٍ على حجَرٍ، أو غير ذلك، ممّا تُسْتَخْرج شرارةُ النارِ بضَرْبِ أحَدِهما على الآخر منهما.

ويقال لغة: أوْرى النّارَ إذا أوْقَدَها وأشْعَل اللَّهَبَ فيها.

[قَدْحاً] مصدرٌ منصوبٌ على الحال تنزيلاً له منزله اسم الفاعل، أي: قادحات، أو مفعولٌ مطْلَقٌ لفعلٍ محذوف تقديره: تَقْدَحُ قَدْحاً، أي: فتوري النار بهذا القَدْح.

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾: هذهِ هي اللَّقْطةُ الثالثة من مشاهد الصورة البيانيَّةِ البديعَةِ لِحَرَكَة الْخَيْلِ المغيرَةِ بفُرْسَانها على مواقع من تُغِيرُ علَيْهم بشرّ.

وبهذه اللَّقْطَةِ تحدَّدَت الغاية من حركة الخيول العاديات، وعلى ظهورِها فُرْسانُها، وتَحَدَّدَ الوقْتُ وهو وقْتُ الصُّبْح.

المغيرات: جمع «المغيرة» اسم فاعلٍ للمؤنّث من فعل «أغَارَ يُغِيرُ إغارَةً».

الإغارة: هي الهُجومُ المباغِتُ لقَتْلٍ أَوْ أَسْرٍ أَوْ سَلْبٍ ونَهب، أو نحو ذلك من شرّ.

الصُّبْح: أوَّلُ النَّهار، وهو الوقْتُ الذي يَخْتَارُهُ الْغُزَاةُ، لمباغَتَةِ الْقَوْم الذين يُرِيدُون الإغارة عليهم للقَتْلِ والْأَسْرِ والسَّلْب. ويبدأ أوَّلُ النَّهار من طُلوعِ الفجر الصادق.

● ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾﴾: هٰذه هي اللَّقْطة الرابعة من مشاهد الصُّورة البيانيَّةِ البديعة لحركة الخيل المغِيرَةِ بفرسانها على مواقع القوم الذين تُغِير عليهم بشرّ.

﴿فَأَثَرْنَ﴾: الإثارة التَّهْيِيجُ والنَّشْرُ، ويكون باستخراج الشَّيْء من مواضع استقراره، ونَثْرِ أجزائِه ونَشْرها في مواضِعَ شتَّىٰ، كنَشْرِ التُّراب والْغُبار في الجوّ، وقد كان ساكناً مُسْتَقِرّاً في الأرض.

﴿بِهِۦ﴾ أي: بالعدْوِ المفهوم من العاديات، إذْ هو الذي تكون به إثارة النَّقْع.

﴿نَقْعًا﴾: النَّقْعُ هو الغُبَارُ السَّاطِعُ، وهذا أحَدُ معاني هذه الكلمة، وهو المراد بها هنا.

والمعنىٰ: فأثارات الخيولُ العادياتُ بِجَرْيها السَّرِيع عنْدَ إغارَتِهَا وضَرْبِ حوافِرِها على الأرْض، غُبَاراً سَاطِعاً في الجوِّ، يُحيط بهَا كأنَّهُ مُوَاكِبٌ لَهَا، فهو يسْتُرُها ويُخْفِي أعدادها، ويزيدُ في إلقاء الرُّعْبِ في قُلُوب الْقَوْم الَّذِين تُغِير عليهم.

● ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾: هذه هي اللَّقْطةُ الخامسَةُ من مشاهِدِ الصّورَةِ البيانيَّة البديعة لحرَكة الخيْلِ المغيرة بِفُرْسَانِها على مواقع الْقَوْمِ الَّذِينَ تُغِيرُ عَلَيْهِمْ بشَرٍّ.

﴿فَوَسَطْنَ﴾: أي: فصِرْنَ في الْوَسَط، وهو المكان الواقع بيْنَ طَرَفي الشيء، أو حول مركز دائرة الشيء.

يُقَالُ لغة: «وَسَطَ الشيْءَ يَسِطُهُ وَسْطاً وَسِطَةً» أي: صَارَ في وَسَطِه، فَهُوَ وَاسِطٌ. يُقالُ: وَسَطَ المكانَ، ووَسَطَ القوْمَ.

﴿بِهِ﴾: أي: بالْعَدْوِ المفهوم من العاديات.

﴿جَمْعًا﴾: أي: قَوْماً مُجْتَمِعِين، الْجَمْعُ في اللّغة: الجماعة. والقوْم المجتَمِعُونَ. والْجَيْشُ المجتمع.

لمَّا أَحسَّ الْقَوْمُ بهُجُومِ غارَةِ العدُوِّ عليهم، والْمُفَاجِئَةِ لَهُمْ عنْدَ الصَّباح، خَرَجُوا مِنْ مَنَازِلِهِمْ واجْتَمَعُوا للدِّفَاعِ، أو لمعرفةِ ما يَحْدُثُ، أو للتشاوُرِ، فباغَتَهُمُ المغِيرُونَ حَتَّىٰ دَخَلُوا فِي جَمْعِهِمْ، وكانُوا وَسَطَهُمْ يقْتُلُونَ وَيَأْسِرُون ويَسْلُبُونَ وينْهَبُون.

وتَوَقَّفَ عرْضُ المشْهَدِ عنْدَ هٰذِهِ اللَّقْطَةِ الأخيرة، ليذهَبَ الذِّهْنُ والتَّخيُّل في تكْمِيلِ مَشْهَدِ الغارَة، وتصوُّرِ مَا يَحْدُث عادَةً من قَتْلٍ وسَلْبٍ وأسْرٍ، في غَزْوِ النّاس بعْضِهم لبعْضٍ.

وجاء التعْبيرُ بالفعل الماضي في ﴿فَأَثَرْنَ﴾ وفي ﴿فَوَسَطْنَ﴾ معطوفَيْن عل اسْم الفاعل الدَّالّ على حَرَكة الحال المتجدّدة في: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ وفي: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ﴾ وفي ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾ للدَّلاَلَةِ على أنَّ إثارَةَ الغبار استمرَّتْ آثارُهَا فَهِيَ فِعْلٌ مضَىٰ ولَكِنْ بقِيَتْ آثارُه، وللدّلاَلَة عَلَىٰ أَنَّ دُخولَ الخيُولِ في وَسَطِ الْجَمْعِ قَدْ تحقَّقَ وصَار أثَراً قائِماً في الواقِع من آثار عَدْوٍ مضَىٰ وانْتَهَتْ حَرَكَتُه.

ولا يخفىٰ على البليغ أنَّ اللقَطاتِ الْخَمْسَ، قَدْ وَصَفَتْ مَشهداً علَىٰ تقديرِ أَنَّ أحْداثَهُ تَجْري مَعَ فِقَراتِ التَّعْبير، حَدَثاً فَحَدَثاً، كما يَفْعَلُ الْمُعَلِّق علىٰ مَشْهَدِ سِباقِ الْخَيْل، وهِي تَجْرِي في مضمارِها.

وجاء العطفُ بالفاء في اللَّقطاتِ البيانيَّةِ الْخَمْس، للدَّلاَلَةِ على التعاقب السَّريعِ في مَشَاهِدِ اللَّوْحَةِ البيانيَّة الرائعة.

كلُّ هذا الذي دَلَّ عليه الوصْفُ التعبيريّ الرائِع لحركاتِ الخيول العاديات الموريَات بسُرْعتها لشرَر النار، الذي ينشأ عن قَدْحِ حوافِرِها

لحجارَةٍ في الأرض تُطْلِقُ الشَّرَر، والمغيراتِ في وقْتِ الصُّبْحِ لمباغَتَةِ قَوْمٍ فِي مَنازِلِهِمْ، فتَتَوَسَّطُ جَمْعَهُمْ، ليُحَقِّقَ الغزاةُ على ظهورها مقاصِدَهُمْ من الغزْو، لَمْ يكُنْ لِيَتَحَقَّقَ للنّاسِ لَوْلا التَّسْخِيرُ الرَّبَّاني، الّذي سخَّرَ اللَّهُ فيه هذا الصِّنْف من المخلوقات للإنسان، وهو صِنْفُ الخيْلِ، وأَمَرَهُ أَنْ يسْتَعملَهُ في طاعَة اللّه أو فيما أذن له به، ونَهَاهُ عن استعماله في الْبَغْي والطغيان، والإثْم والظُّلْم والعدوان.

ولكِنْ كَيْفَ كان حَالُ الْإنسان؟ هلْ كان شاكراً نعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ فاسْتَعْمَل هٰذِه النّعمَةَ المسخَّرَةَ لَهُ في مَرَاضيه، أو فيما أذن له به. أمْ كان كنوداً كفُوراً؟؟.

لقد جاء الجواب على هذا السؤال المطويّ داخل ثنايا السورة في المقطع الثاني منها، وهو المقْسَمُ عليه فيها، وهو المقطَعُ التالي:

● قولُ اللّه عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾.

هذا هُوَ الْمُقْسَمُ عليه في السّورة، والمناسَبَةُ بيْنَ الْمُقْسَم بِه والْمُقْسَم عَلَيْهِ ظَاهِرَةٌ، أي: أُقْسِمُ بنِعْمَتِي علَيْكَ أَيُّها الإنسانُ إذْ سَخَّرْتُ لَكَ الْخيْلَ بكلِّ ما فيها من صِفَاتِ ملائِماتٍ لِنَشْرِ ديني وإعْلاَءِ كَلِمَتِي، علَىٰ أَنَّكَ كَنُودٌ كَفُورٌ بنِعْمَتِي، تَسْتَعْمِلُ ما سَخَّرْتُ لَكَ في مَعْصِيَتي بالْبَغي والطُّغْيان، والإثْمِ والظلم والعدوان.

﴿لَكَنُودٌ﴾: أي: لَجحُودٌ وَكَفُورٌ بالنّعْمة. يُقَالُ لغةً: كَنَدَ النّعْمةَ يَكْنُدُهَا كُنوداً، أي: كَفَرَها وَجَحَدَها. وكلٌّ من الذكَرِ والأنْثَىٰ يُقَالُ فيه: كَنُودٌ. ويُقَالُ: كَنَدَ رَبَّهُ، أي: جَحَدَ نِعْمَتَهُ عليه، وكفر بها. وصيغة: كنود، من صيغ التكثير والمبالغة.

أي: فهُو بدَلَ أن يستعمِل نِعْمة اللّه عليه بتسخير الْخَيْلِ، في طاعة اللّه ومراضيه، وفيما أذِنَ لَهُ به، يَسْتعملها في الإغارَةِ على الآمِنينَ عُدْواناً وظُلْماً، للسَّلْب والنّهب والسَّطْوِ الآثم.

والمراد من الإنسانِ مُعْظَم أفراد النَّوع لا جَمِيع أفراده.

﴿لِرَبِّهِۦ﴾: متعلّقٌ بـ«كَنُود» إذْ هو يعمَلُ عَمَل الفعل، واللاّم لتقوية عَمَلِ «كَنُود» إذ الفعل يتعدّى بنفسه.

وقد جاء في الآية تأكيد خَبَرِ كَوْنِ الإنسان كَنُوداً بالمؤكدات التاليات: «إنّ، والجملة الاسميّة، ولام الابتداء المزحلقة إلى الخبر» ويفيد تقديم: ﴿لِرَبِّهِۦ﴾ على عامله التّأكيد أيضاً، مع التّنبيه علَىٰ شناعَةِ كنُودِ الإنسان، فهو لرَبّه الذي يُمِدُّه دواماً بعطاءاتِ رُبُوبيَّتِه لَه لكَنُودٌ.

● ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾: أي: وإنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ الكُنُودِ الذي يُمارِسُهُ دواماً لشَهيدٌ بِهِ علَىٰ نَفْسِه، إذْ يجاهِرُ به، ويُكابِرُ فيه، ويُفَاخِرُ بفِعْله، إذْ يَزْعُمه عملاً مَجيداً، كَمَا هُوَ عادَةُ الْغُزاةِ فيما يقومون به من غاراتِ الْقَتْلِ والتّدْمِير للسَّلْبِ والنَّهْبِ والسَّطْوِ على ما لَيْسَ لهم به حقٌّ، فَهُو علَىٰ نَفْسِهِ بذلِكَ شَهِيدٌ، يَقُول: إنّي فَعَلْتُه وأفْعَلُه، مُجَاهراً مكابراً مُفَاخِراً، قائلاً: إنَّ الأَقْوَىٰ والأغْلَبَ، هو صَاحِبُ الحقّ ولَوْ سَلَبَ ونَهَبَ، وبَغَىٰ وظَلَم، وعَدَا وَأثِمَ، وطغَىٰ وَأجْرَم.

وقد جاء تأكيد هذه القضيّة في هٰذِه الجملَةِ بمثل المؤكدات الّتي اشتملت عليها سابقتها، وفي هذا التأكيد إشارة إلى مكابرة النّاس في استحسان ما يفعلون من ظلم وعدوان، وبغيٍ وطغيان.

● ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾: في هذه الآية إشارةٌ إلى أهَمّ الأسباب الّتي تَدْفَع الإنسان للقيام بغزوات السَّلْب والنّهْبِ والسَّطْو، وهو حبُّهُ الشديد للمال.

أُطْلِقَ لفظ «الخير» في هذهِ الآية على المال، تمَشِّياً مع استعمال العَرب، الّذين كانوا يُسَمُّون المال خيراً، مع أنّه وسيلَةٌ من الوسَائل الّتِي تُسْتَعْمل في الخير، وتُسْتَعْمَلُ في الشرّ، كما أبان الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري الّذي قال فيه الرسول:

«لاَ واللَّهِ مَا أخْشَىٰ عَلَيْكُمْ أيُّها النّاسُ إلاَّ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنيَا».

فقال رجُلٌ: يا رَسُول الله، أيَأتِي الْخَيْرُ بالشَّرّ؟ تصوُّراً منه أن المال خير.

فقال الرسول: «أوَ خَيْرٌ هو؟!» أي: هو وسيلة وليس خيراً محضاً[(١)].

فمعنَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ وإنَّهُ ليُحِبُّ الْمَالَ حُبّاً شديداً يَدْفَعُهُ إلى السَّطْو على الأموال الّتي لا حَقَّ لَهُ بها، بالظلْم والعدوان، والبغي والطغيان.

أي: وإنَّه لأجل حُبِّهِ المالَ لَشَدِيدٌ قَوِيٌّ في الْبَغْي والظُّلْم والعدوان، والجرأَةِ على الحقّ بالْبَاطل، والجرأَةِ علىٰ رَبِّهِ بالكُنُودِ والعصيان، وحُذِفَ معمولُ شديدٍ ليشمَل كلَّ قبائح الجاهليّة الّتي تُفْرِزُهَا رَغَبَاتُ غَزْو الناس بعضِهم لبعض طمعاً بالاستيلاء على أموالهم.

بعْد هذا البيان عن واقع حال الإنسان الذي يَسْتَخْدم نِعْمَةَ اللَّه عليه بتسخير الخيل، في ضدّ مَا أُعِدَّتْ له، جاءَ دَوْرُ التَّحذِيرِ من عاقبة هذا السُّلوك الشَّنِيعِ، من سُلُوك الجاهليّاتِ البشريَّةِ، في رِحْلَة امتحان الناسِ في ظروف الحياة الدنيا، وهذا ما دَلَّ عليه البيانُ في المقطع الأَخِيرِ من السُّورة، وهو:

قول اللَّه عزّ وجلّ:

---

(١) انظر شرح الحديث الثاني في كتاب «روائع من أقوال الرسول» للمؤلف.

﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

● ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾: في هذه العبارة استفهام، وفاء عطْفٍ، وفعلٌ فاعله ضميرٌ يعود على الإنسان، والمفعولُ به محذوفٌ اقتصاداً وإيجازاً في العبارة، لإمْكان إدْراك معناه من السِّباق.

أمّا الاستفهام فهو استفهامٌ مُسْتَعْمَلٌ في التقرير، وفيه مع التقرير الذي يُنْتَزع به الإقرار والاعْتِراف، التلويمُ والتوبيخ، على عدَم العمل بمقتضىٰ العلم.

وفاء العطف فيما أرى فصيحةٌ تَعْطِفُ علَىٰ محذوفٍ يُمْكِنُ بالتأمُّل استِخْرَاجُهُ من مقتضىٰ الحال، والتَّقْدِير: أهُوَ منَ الأَنْعَام، أمْ نشَأَ مُنْعَزِلاً عَنِ المجتَمَعَات البشرية فَلاَ يَعْلَمُ شيئاً عَنِ الحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاء وَتَنْفِيذِ الجزاءِ في الآخِرَةِ يَوْمَ الدِّين، ولا يعْلَمُ من دَلاَئِلِ حِكْمَةِ اللّهِ المرشدة إلَىٰ ضرورَة الْيَوْمِ الآخِرِ للحساب والجزاء، أنّه لاَ بُدَّ من مُلاَقاةِ رَبّه يَوْمَ الدِّين للحسَاب والْقَضَاء والجزاء.

● ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾: أي: أفلا يَعْلَمُ حقائِقَ يَوْم الدِّين الّتي بلّغَها المرسَلُونَ، وسبَقَ في نجوم التنزيل بيانٌ عَنْهَا، وهٰذِهِ تكونُ يَوْمَ البعْثِ إذا بُعْثِرَ مَا في الْقُبُورِ، أي: اسْتُخْرِجَ ما في الْقُبُورِ مِنَ الموْتىٰ إلى الحياة الأُخْرَىٰ، بحَرَكَةٍ سَرِيعَةٍ فِيها إثارةٌ وَنَثْرٌ وتَفْرِيقٌ، ولعَلَّ السَّبَبَ في هذا أنّه لمّا كَانَ الْقَبْرُ الواحِدُ رُبَّما يَحْوي آلاف الموتىٰ الّذِينَ بَلِيَتْ وفَنِيَتْ أجْسَادُهم، إذْ صار قبْراً آلاف المرات، كان استخراج ما فيه بوقْتٍ واحِدٍ يحتاجُ بعْثَرَةً، حتّىٰ يتَفَرّقَ الخارجُون إلى الحياة الأُخرى أجْسَاداً، فَلاَ يتزَاحَمُوا عنْدَ الخروج.

تقولُ لغة: بَعْثَر فلانٌ الشَّيْءَ، إذَا قلَبَهُ وفرّقَه ونَثَرَهُ على غَيْرِ نظام.

وفي سُورَة (القارعة) شبَّه اللَّهُ عزّ وجلَّ النّاسَ مع هٰذِه الْبَعْثَرَة بأنَّهُمْ يكُونُون كالْفَراشِ المبثُوثِ.

● ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾: أي: وكُشِفَ وَبُيِّنَ ومُيِّزَ وفُصِلَ مَا فِي الصُّدُور الّذي كانَ مضمراً فيها.

والشيْءُ الّذِي كان في الدُّنْيا مُضْمراً في الصُّدُور، هي النيَّاتُ والمقاصِدُ والغاياتُ من الأعمال المُسَجَّلةِ تَسْجيلاً كامِلاً، وكذلِكَ العقائِدُ المستقِرَّةُ فيهَا من إيمانٍ وَكُفرٍ، ونِفَاقٍ، ومَا تُضْمِرُهُ الصُّدُور من حُبٍّ وكراهية وبُغْض، وحِقْدٍ وحَسَدٍ، ونحو ذلك.

فما في الصُّدُور هو مَنَاطُ الحسَابِ الأَكْبَر.

تَحْصِيلُ الشيْء لُغَةً يكُونُ بكَشْفِه وتَبْيينه وتمييزه وفَصْلِ بعضِه عن بغضٍ، ويكُونُ بجَمْعِه.

وهذا المعْنَىٰ قد جاء بيانُه أيضاً في سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول) بقول اللّه عزّ وجلّ:

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾.

﴿تُبْلَى﴾: أي: تُكْشَفُ.

﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾: جمْعُ «السَّرِيرَة» وهي ما يُكْتَمُ وَيُسَرُّ في الصُّدور.

ويَوْمَ تُبْلَىٰ السَّرائر هُوَ يوْمُ الدّين الذي يكون فيه الحسابُ وفَصْلُ القضاء، وتَنْفِيذُ الجزاء.

● ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾.

﴿بِهِمْ﴾: مُتعلِّقٌ بخَبير، وقُدِّم علىٰ عامله لمراعاة رؤوس الآي في السّورة.

﴿يَوۡمَئِذٍ﴾: أي: يومَ إذْ يُبَعْثَرُ مَا في الْقُبُور، ويُحَصَّلُ مَا في الصُّدُور، والتنوينُ في «إذٍ» هو تَنْوينُ الْعِوَضِ عَنْ جُمْلَةٍ مُقَدَّرَةٍ ذِهْناً بعْدَ «إذْ».

﴿لَّخَبِيرٌۢ﴾: أي: لَعَالِمٌ عَنْ خِبْرَةٍ، والخِبرَةُ هي الْعِلْمُ بالشيْءِ الناتج عن مُشَاهَدَةٍ أو مُمَارَسَةٍ، والخبيرُ هو العالم بظواهر المعلوم وبواطِنِه، وكلِّ أجْزَائِهِ ودَقَائِقِهِ.

وقد جاء تأكيد مَضْمُون هٰذِهِ الجملَة الخبَريَّة بالمؤكّدات التالية: «إنّ، والجملة الاسميّة، واللاّم المزحْلَقَة».

وبيانُ كَوْنِ ربِّ المبعوثين ليوم الدّين خبيراً بهم يومئذٍ، هو كناية عن محاسبة اللّه لهم محاسبَةً دقيقةً عادلةً لاَ ظُلْمَ فيها وَلاَ فَوْتَ، لأنّ الخبير الحكيم القديرَ الْعَدْل لاَ بُدَّ أنْ يُحَاسِبَ المجرمين بمقتضىٰ صِفاته وأسمائه الحسنىٰ، وهذا يُسْتَدَلُّ علَيْه باللُّزُوم الْعَقْلِيّ.

ومثل هذا التعبير هو من الكنايات البديعة الّتي تكْثُرُ نظائِرُها في القرآن المجيد، ومن أسَاليب التعبير غير المباشر عن المقصود.



(٥)
نظرة عامّة إلى السورة

اشتملت هذه السورة على درْسٍ واحدٍ ذي ثلاث مقاطع:

فالمقطع الأوّل اشتمل على قَسَمٍ من اللّه عزّ وجلّ بنعْمَة الخيل التي أنعم بها على نوع الإنسان، وأوْرَدَ منَ الْمُقْسَمِ به خَمْسَ لَقَطاتٍ منْتزَعَاتٍ من مشْهدِ عَدْو جماعَةٍ غازية من الخيول بأقصىٰ سُرْعَتها، وعلى ظهورها فرسانُها، حتّىٰ صارت سنابكها تُطْلِق شَرَرَ النار، حينما تضربُ ببعض حجارة في الأرض المنطلقة عليها، ولمَّا اقتربت عند الصُّبْح من منازل القوم المقصودين بالغزو أغارت عليهم مفاجئةً لهم إغارَةً عنيفةً أثارَتْ غبَارَ الأرْض

فسَتَرَتِ الموقِعَ به، وأخرجَتِ القومَ منْ مَنازِلهم مَذْعُورِين قد أصابهم الذهول من هَوْل المفاجَأة، فتَوَسَّطَتْهُمْ، وصار الغزاةُ يسْطُونَ قتلاً وأسراً وسَلْباً.

هذا مَشْهَدٌ ممّا يَفْعَلُه النَّاسُ بعضُهم بِبَعْضٍ بغياً وطغياناً، وظُلْماً وعُدْواناً، في غزوات السَّلْب والنَّهْب والسَّطْو على أموالٍ لا حقّ لهم بها، عرَضَ المقطع الأوّل من السورة فيه لَوْحَةً رائعةً من لوحات حركات الخيل الهجوميّة، وعلى ظهورها فرْسَانُها الغزاة.

ولهذا المشْهد دَلالَتَان:

الدلالة الأُولَىٰ: أنّ الخيلَ بصِفاتها الممتازة الّتي تُقَدِّمُ مثْلَ هذه اللَّوْحَة الْهُجُومِيّة الرائعة، بتَسْخِيرِ اللّه إيَّاها للإنسانِ، هي من نِعَم اللّهِ عليه الّتي يجب عليه أن يُقَابلها بالشُّكْر، فَيَسْتَعْمِلها في طاعة اللّه ومراضيه وما أذن له به، لا في معصيته بالبغي والطغيان، والظلْم والعدوان، فمِنْ وظائفِ الخيْلِ الجليلَةِ الَّتي هيّأها اللّهُ لها اسْتِعْمالُها في نَشْرِ دين اللّه، وإعلاءِ كلمة الله، وإقامَةِ الحقّ والْعَدْلِ بيْنَ النّاس.

الدلالة الثانية: أنّ الإنسان قد كان كنُوداً كفوراً، فاستخدم تسْخيرَ الخيْلِ له في معصية اللّه مُسَخِّرِها، فَطَغَىٰ وبغَىٰ، وظلَمَ وَاعْتَدى على ظُهورِها، وتجبَّرَ وقَتَلَ وأَسَرَ فَغَلب، وسَطَا وسلَبَ ونَهَب.

أمّا الدلالةُ الأولى فتَسْتَحقُّ أن تكون هي المقْسَمَ به لأنَّها من آثار إنعام اللّه على عباده، وهُوَ من مظاهر صفاتِه في قضائه وقَدَره وحكمته وخَلْقه.

وأمَّا الدلالَةُ الثّانيةُ فَتَسْتَحِقُّ أَنْ تكُونَ هيَ الْمُقْسَمَ عليه، لأنّ الواقِع البشَرِيَّ في ظاهرات سلُوكِ مُعْظَم النّاس المتكرّرَة، قَدْ أثْبَتَ أنّ أكْثَر النّاس هُمْ من صنف الكَنُود الجَحُود الكفور بنعمة اللّهِ علَيْه.

ولَمْ يقتَصِرْ أمْرُ الإنسان (والمرادُ معظم أفراد هذا النوع) على استعماله لهذه الوسيلة الحربيّة، التي هي الخيل، في غزوات السَّلْب والنَّهب، والظلم والعدوان، والاستعلاء في الأرض بالْبَغْي والطغيان، بل جعل ذلك قانوناً محموداً، وحقّاً للأقْوياءِ على الضُّعفاء، وقاعدةً متعارفاً عليها من قواعد المجتمعات البشريَّة، وتقليداً مُتَّبعاً، وحُكْماً سائداً، لا يَعِيبُ فيه الناس بعضُهُمْ على بعض، فقَلَبَ الإنسان بهذا مفاهيم الحقّ والباطل، فهو يفْعَلُ ما يفْعَلُ من الجرائم متفاخراً، شاهداً على نَفْسِه بما يَفْعَل، مُفَرِّقاً بين جرائمِهِ الشّنيعَة وبين اللُّصُوصيَّةِ وأشباهها، إذْ يزعُمُ أنَّ الغزو للسَّلْبِ والسَّطْو والْقَتْلِ والْأَسْرِ حقُّ الأقْوَىٰ عَلَىٰ الأَضْعَف.

وهذا غايةُ الكُنُود والجحود والكُفْران، والسَّبَبُ الباعِثُ حبُّهُ الشديد للمال.

وقد جاء الْمَقْطَعُ الثّاني من السُّورة بجُمَلِهِ الثلاث الموجزاتِ، مبيّناً بصريح الكلام وبلوازمه الفكريّة هذه القضايا عن واقع حال الإنْسَان، فقال اللّه عَزَّ وجَلَّ في الْمُقْسَم عليه في السورة:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

جُمَلٌ ثلاث، كلُّ جُمْلَةٍ منها آية، كأنَّها دُرَّاتٌ في عِقْد نَفِيسٍ، والروابِطُ بينها روابِطُ أشِعَّةٍ وظلال، وروابِطُ مفهومات فكريّة، يستَخْرِجُها التَّدبُّر الواعي، والتأمُّل العميق.

ونُلاحِظُ هُنَا أنّ رَصْفَ هٰذِهِ الْجُمَل المنتَقَياتِ بحكْمةٍ عظيمةٍ، دون إبْرَازِ الروابط بينها بعبارات كلاميّة، أسْلُوبٌ مُخْتارٌ لإعطاء القرآنِ المجيد صِفَةَ الْعُمْقِ من وراءِ دلالَاتِ السَّطْح.

وهذه الجمل هي بمثابَةِ عنوانات مباحثَ يُحيطُ بها مَوْضُوعٌ واحدٌ شامل، وتفصيلُها يأتي في كُرَّاسَات.

وبالنظر في السُّوَرِ الّتي نزَلَتْ قبل سُورَةِ (العاديات) مع هذه السورة نُلاحظ أنَّ اللَّهَ عزَّ وجَلَّ قَدْ وصَفَ الإنسان، والمرادُ معظم النَّوْع بما يلي:

(١) في سورة (العلق/ ٩٦ مصحف/ ١ نزول) وصَفَ اللّه الإنسان بقوله:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾.

(٢) وفي سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) وصف اللّه الإنسان بقوله:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا...﴾.

(٣) وفي سُورَة (العصر/ ١٠٣ مصحف/ ١٣ نزول) وصفَ اللّه الإنسان بقوله:

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾.

(٤) وفي سورة (العاديات/ ١٠٠ مصحف/ ١٤ نزول) وصف الله الإنسان بقوله:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾.

وفي هذه الأوصاف تكامُلٌ في التعريف بالإنسان المحتاج إلى دين يهديه إلى الحق والخير والفضيلة، ويبشّرُه ويحذّره ويُنْذِرُه.

وأمّا المقطع الثالث من السورة فيشتمل على تحْذِيرٍ ووعيدٍ للإنسان الطاغي الباغي الظالم، الذي يسْتَعْمِل نِعَمَ اللّه عليه في مخالفة أوامره ونواهيه، وفي الظلم والعدوان، والبغي والطغيان، والفساد والإفساد في الأرض، لتحقيق أهوائه وشهواته ومطالبه من الحياة الدنيا بغير حقّ.

وجاءتْ آياتُ هذا القسم لقطاتٍ مُنْتَقيات من أحداث البعث ويَوْم الدّين، متضمّنَةً الإشارةَ إلى سائر الأحداث الّتي تَدُلُّ عليها اللّوازم الفكريّة، ويستخرجها المتدبِّر من العُمْقِ القرآني.

وبهذا انتهى تدبر سورة (العاديات) والحمد لله على فتحه ومعونته وتوفيقه



(٦)
ملحَق
حول بلاَغِيّاتِ في سورة «العادِيات»

من بَلاغيّات هذه السورة ما يلي:

الأولى:

التصوير الفنّيّ البديع في التقاط لقَطاتٍ من مشْهَدِ غزوةٍ جاهليّة، قام بها غُزاةٌ على ظهور خيولهم، وقد جَعَلُوا خُيولهم تَعْدُو بأقْصىٰ ما لدَيْها من عَدْوٍ طويلِ الخطوات سريع، حتّىٰ أغارُوا صُبْحاً على قوم آمِنِينَ، مُبَاغتين لهُمْ، فتوسَّطُوا جمْعَهُمْ، وجعَلُوا يقْتُلُونَ وَيأسِرُون ويسْلُبُون، والغايَةُ من غزوهم السَّطْوُ الظالِمُ للسَّلْبِ والاستيلاء على ما ليْسَ لهم به حقّ.

وقَدْ قُدِّمَتْ هٰذِهِ اللَّقَطَاتُ بأسْلُوبِ حدَثٍ يَجْري مرافقاً لتوجيه العبارة البيانيّة، كتَصْويرٍ بآلات تصوير لاقطات للصُّور، يُلاحِقُ حرَكاتِ حدَثٍ قائم، مع الابتعاد عن حكايةِ أمْرٍ مضىٰ، وهذا من أبْدَع البيان الكلاميّ الذي هو من مبتكرات القرآن، قبل اكتشاف أدوات التصوير الّتي تُثَبّت الصُّوَرَ على أشرطة تَسْجِيل لاقطة.

وهذه اللّقطاتُ الّتي جاءت في البيان القرآنيّ غيْرُ شاملاتٍ لكلّ أحداث الغزوة الجاهليّة المباغتة، إذْ فيها فراغاتٌ تملَؤُها تصوُّراتُ المتلقّي

الأديب، الّذي يُحْسِنُ ملْءَ الفراغات بيْنَ اللّقَطَات التصويريّة غَيْر الشاملات لكلّ عناصر المشهد العامّ.

الثانية:

مراعاة المطابقة بين الصورة التعبيريّة، وبين واقع الأحداث.

● فالأحداث الّتي تجري وتنقضي لحظة فلحظة جاء التعبير عنها باسم الفاعل المشابه في دلالته للفعل المضارع الذي يفيد التجدُّد، وهذا نلاحظه في: «والعاديات ـ فالموريات ـ فالمغيرات».

● والأحداثُ الّتي تجري وتبقىٰ لها آثارٌ في المشهد، كالغبار الذي يُثِيرُه الْعَدْو وَتَبْقَىٰ آثاره في الجوّ مُدَّةً بَعْدَ إثارته، قد جاءَ التعبيرُ عنها بالْفِعْلِ الماضي، في: «فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ـ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً».

الثالثة:

العطف بالفاء في: «فالموريات ـ فالمغيرات ـ فأَثَرْنَ ـ فَوَسَطْنَ» للدَّلالة على الحركات المتتابعات الّتي يَعْقُبُ بَعْضُهَا بعضاً دُونَ فواصلَ زمنيّة.

الرابعة:

تناسُقُ وتعادُلُ آيات كلّ مَقْطَعٍ من مقاطع السورة الثلاثة، حتّىٰ كأنَّها جدَاوِلُ تَجْرِي على مُدَرَّجَاتٍ متناظِرَات الدرجات.

الخامسة:

السَّجْعُ المحَبَّبُ غَيْرُ المتكلِّفِ، والذي تَسْتَسِيغُهُ النَّفْسُ، فتَثْبُتُ الفِقَراتُ الّتي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ في الذاكرة.

السادسة:

تأكيدُ كون الإنسانِ كَنُوداً، وشهيداً على كُنُودِهِ، وتأكيد كونه شديد الحبّ للمال، بالْقَسَم في أوّل السورة، وبحرْف التوكيد «إنّ» وبالجملة

الاسميَّة، وبلام الابتداء المزحلقة إلى الخبر، في الآيات: «٦ ـ ٧ ـ ٨ ـ ١١» لأنّ المتلقين ينكرون هذه الحقائق.

السابعة:

الاستفهام المستعمل في التقرير مع التلويم والتوبيخ في الآية (٩) وهذا من خروج الاستفهام عن أصل دلالته إلى معاني أُخرىٰ، لدواعي بلاغيّة.



سُورَةُ الكوثر

١٠٨ مصحف ١٥ نزول

(١)
نص السورة
سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

٣ - قرأ أبو جعفر [إِنَّ شَانِيَكَ] في الوقف والوصل.
وحمزة في الوقف فقط وقرأ الباقون: [إِنَّ شَانِئَكَ] بتحقيق الهمزة.

❁ ❁ ❁

(٢)
مما رُوي بشأن هذه السورة
وسبب نزولها

(١) روى البخاريّ في صحيحه من حديث شيبان بن عبد الرحمن عن قتادة عن أنس بن مالكٍ قال: لمّا عَرَجَ النبيُّ ﷺ إلى السماء قال:

«أَتَيْتُ عَلَىٰ نَهرٍ حَافَّتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ الْمُجَوَّفِ، فَقُلْتُ: مَا هَٰذَا يَا جِبْرِيلُ؟.

قَالَ: هَذَا الكَوْثَرُ».

(٢) وجاء في رواية عند البخاري ومسلم عن شَرِيك بن عبد الله أنّه قال: سمعت أنس بْنَ مالِكٍ يقول (ضِمْنَ حديث الإسراء والمعراج):

«ثم مَضَىٰ بِهِ (أي: مضىٰ جبريل عليه السلام بالنبيّ ﷺ) فِي السَّمَاءِ فَإِذَا هو بِنَهْرٍ آخَرَ، عليه قَصْرٌ من لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَد، فَضَرَبَ يَدَهُ، فَإِذَا هُوَ مِسْكٌ أَذْفَرُ[١]، قال: ما هذا يَا جِبْرِيلُ، قال:

هَذَا هُوَ الكَوْثَرُ الَّذِي خَبَّأَ لَكَ ربُّكَ».

(٣) وروى الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك قال: أغفىٰ رسول اللّهِ ﷺ إغفاءةً، فَرَفَعَ رَأْسَهُ مُبْتَسِماً، إِمَّا قَالَ لَهُمْ، وإِمَّا قالُواله: لِمَ ضَحِكْتَ، فقال رسولُ الله ﷺ:

«إِنَّهُ أُنزِلَتْ عَلَيَّ آنِفاً سُورَةٌ» فَقَرَأَ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ» حتَّىٰ خَتَمَهَا، فقال:

«هَلْ تَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟».

قالوا: اللَّهُ ورسولُه أعلم. قال:

«هُوَ نَهْرٌ أَعْطَانِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي الجنَّةِ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدَ الكَوَاكِبِ، يُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ[٢]، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ».

(٤) وذكر ابن كثير في تفسيره، أنّ الرّوايات الّتي تضمَّنَتْ أنَّ الكَوْثَر نَهَرٌ في الجنَّةِ أعطاه اللّه رسولَهُ محمّداً ﷺ، قد جاءت من طُرُقٍ كثيرة مُتَوَاتِرَةٍ تُفِيدُ القطع عند كثير من المحدّثين، وكذلك أحاديث الحوض.

---

(١) مِسْكٌ أَذْفَرُ: أي: طيِّب الرائحة بالغ بطيبه حدّ الغاية.

(٢) يُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ: أي: يُنْتَزَعُ ويُبْعَدُ عَنه فلا يُسْمَحُ لَهُ بأنْ يَرِد مع الواردين، أو هو يَخْتَلِجُ: أي: يَنْكَمِشُ ويَبْتَعِدُ لأنه ليس من أهل الورود.

وقال: وَقَدْ وَرَدَ في صِفَةِ الحوْضِ يوم القيامة، أنَّهُ يَشْخُبُ فيه ميزَابَانِ من السَّماء من نَهرِ الكَوْثَر، وأنَّ آنيَتَهُ عدد نجوم السماء.

(٥) ورُوي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: نزلت ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ فقَالَ رسُولُ اللّه ﷺ.

«الكَوْثَرُ نَهرٌ فِي الجنَّةِ حَافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، يَجْرِي عَلَىٰ الدُّرِّ والْيَاقُوتِ، تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، ومَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ، وأَحْلَىٰ مِنَ الْعَسَلِ».

(٦) وأخرج الْبَزَّار وابْنُ جَرِيرٍ وابْنُ أَبي حَاتِمٍ وابْنُ مَرْدَوَيْهِ عن ابن عبّاس قال: قَدِمَ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ مَكَّةَ (وهو من عظماء اليهود) فقالت له قريش: أنتَ خَيْرُ أهل المدينة وسيِّدُهم، ألاَ تَرَىٰ إلَىٰ هٰذَا الصَّابئِ المُنْتَبر من قومِه يَزْعُمُ أَنَّه خَيْرٌ مِنَّا، ونَحْنُ أهلُ الحجيج وأَهْلُ السِّقَاية وأهْلُ السِّدَانة، قال: أَنْتُمْ خَيْرٌ مِنْهُ، فنزَلَت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾..

(٧) وأخرج الطبراني وابْنُ مَرْدَوَيْه عن أبي أَيُّوب قال: لمَّا مات إبراهيم ابن رسول الله، مَشَىٰ المشركون بعضُهُمْ إلى بعْضٍ فقالوا: إنَّ هذا الصابئ قَدْ بُتِرَ اللّيلَةَ، فأنزَل الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

(٨) وأخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبيّ عن أبي صالح عن ابْنِ عباس قال: كان أكبر ولد رسول الله ﷺ القاسم ثم زينب، ثُمَّ عبد الله، ثمّ أم كلثوم، ثمّ فاطمة، ثمّ رُقيَّة، فمات القاسم، وهو أوَّلُ ميّتٍ من أهله وولده بمكة، ثم مات عبد الله، فقال العاص بن وائل السهميّ قد انقطع نَسْلُه فهو أَبْتَرُ، فأنزل الله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

(٩) ورُوِيَ عَنْ شَمَّرِ بْنِ عَطِيَّةَ، أَنَّ عُقْبَةَ بْنَ أبي مُعَيْطٍ كان يقول: إِنَّهُ لاَ يَبْقَىٰ لمحمَّدٍ وَلَدٌ ذَكَرٌ، وهُو أبْتَرُ.

❋ ❋ ❋

(٣)
موضوع السورة

ظاهرٌ أنّ موضوع سورة (الكوثر) هو الامتنان من اللّه عزّ وجلّ على رسوله بما أعطاه من خَيْرٍ كثير جدّاً، وتَكْليفُه أن يعبُد ربّه وحْدَه لا شريك لَهُ في صلاتِه ونُسُكه، والدفاعُ عنه ضدّ بعض مقالات شانئيه فيه، ضِمْن سلسلة قذائفهم الإعلاميّة.

يرى مشركو مكة وغيْرُهم من العرب أنّ الرجُلَ الذي لا يَبْقَىٰ لَهُ من صُلْبِهِ وَلَدٌ ذكرٌ هو أَبْتَرٌ، أي: هو مقطوع الأَثَر من الخيْر.

وقد أَطْلَقَ بعضُ المشركين ومنهم أبو جَهْلٍ والعاص بن وائل السَّهْميّ على الرسُول ﷺ أنّه أبتر لمّا مات ولده القاسم، ثُمّ ولدُهُ عبد الله، وكانَ لهذه القذيفة الإعلاميَّةِ أَثَرٌ غَيْرُ حَسَنٍ في نفس الرسول ﷺ، فنزلت سورة (الكوثر) تُبَيّنُ له ولمطْلِقي المقالة المشعرة بعَدَم عناية اللّه به، أنّ اللّه عزّ وجلّ مُعْتَنٍ به عِنَايةً عظيمةً جِدّاً، وأَنّه قَدْ تَفَضّل عليه بخير كثيرٍ جدّاً أعظم من إبقاء ولَدٍ ذكر له يبلغ مبلغ الرجال، وهذا يتضمَّن أنّ الحكمة الرَّبّانيّة اقتضَتْ أن يجعله الله مُنْجِباً للذكور، واقتضت أن لا يبقي له ولداً ذكراً يظلُّ حيّاً حتَّىٰ يبلغ مَبْلَغ الرجال.

ومن هذا الخير الكثير الذي أعطاه الله لرسوله نَهَرٌ في الجنَّةِ حافَّتَاهُ من ذهب، وعلى جانبيه قبابُ اللُّؤلؤ المجوّف كما جاء في بعض الروايات، وهو يجري على الدرّ والياقوت والمرجان واللُّؤلؤ، وتُرْبَتُه أَطْيَبُ من ريح المسْكِ الأذفر، وماؤه أشدّ بياضاً من اللَّبَن، وأحلَىٰ من الْعَسَل، وهذا النَّهر يُمِدُّ الحوضَ الذي خصَّ اللّه به رسوله في موقف الحشر، ومن شرب من هذا الحوض فإنّه لا يظْمأ بعد ذلك أبداً.

ومن هذا الخيْرِ الكثير النُّبوّة العظيمة، والرسالة الخاتمة، والقرآن

المجيد، ورفع ذكره، وما خصّه اللّه به من شفاعة في موقف الحساب، وما خصّه به من الإسراء والمعراج، وطائفة من المعجزات الباهرات، وإنّ أمّتَهُ أكثر الأمم وخَيْرُها، إذْ هي الأمّة المصطفاة التي أورثها اللّه الكتاب، وجعلها أمَّةً وسطاً عدولاً يشْهَدُونَ على النَّاسِ يوْمَ الدين بأنّهم بلّغوا رسالة ربّهِم خاتمة رسالاته للناس أجمعين، فقال اللّهُ له: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾.

ولمّا كان المشركون يتقرّبون إلى شركائهم في دعائهم وصلواتهم إذا صَلّوا، ويتقرّبون إلى أوثانهم فيما يذبحون أو ينحرون من أنعام، كان من الحكمة أن يأمُرَ اللّهُ رَسُولَه بأنْ يتقرَّب إلى اللّه ربّه وحْدَهُ في صلاته التي تشتمل على الدعاء، وفي نُسُكه الذي يُعْتَبَرُ نَحْرُ الْإِبِلِ أفضل صُوَرِهِ عند العرب، تحقيقاً لعبوديّته لرَبّه، وقياماً ببَعْضِ ما يجب عليه من شكْرٍ له، فقال اللّهُ له: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ أيْ: وانْحَرْ نُسُكَكَ من الإبلِ لربِّكَ.

وجاء في السورة الرّدّ على مَنْ أطْلَقَ عبارة أنّ محمّداً ﷺ أبْتَرُ، بأَنّ شانئه (أي: مُبْغِضَه) هو الأبْتَرُ، أي: الأقْطَعُ من كُلِّ خَيْرٍ، لأنَّه صائِرٌ إلى عذابٍ شديدٍ في نَارِ جهنَّم، وبذلك يكون هو الخاسر، لِخَسَارَتِهِ سعادته، وتحَمُّلِه شقاءً أبَدِيّاً، فقال اللّه عزّ وجلّ له: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.



(٤)
سلسلة القذائف الإعلاميّة الموجّهة ضد الرسول من بذء التنزيل حتى نزول سورة (الكوثر)

لدى متابعة القذائف الإعلاميّة، التي وجّهها المشركون ضدّ الرسول محمّد ﷺ، منذ بدْءِ التنزيل حتّى نزول سورة (الكوثر) يظهر لنا ما يلي:

(١) اتَّهَمَ بعض المشركين الرسول بالكذب في ادّعائه النبوة والرسالة، وزعموا أنّ القرآن الذي ينزل عليه سحرٌ يُؤْثَرُ، وكان الوليد بن المغيرة

حامل لواء هذه المقولة، فأنزل اللَّهُ عزَّ وجلّ بشأنه في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) قوله:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾.

(٢) ثمّ اتّهم بعض كبراء مشركي مكة الرسول ﷺ بالجنون، فأنزل اللَّهُ عزّ وجلَّ في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول) ما يدحَضُ هذا الاتّهام، فقال اللّه عزّ وجلّ فيها:

﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾.

وخاطبهُ معرّفاً بأن المجنون هو في فريق متّهميه بالجنون فقال تعالى:

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾.

دون تعيين ذلك المجنون فيهم لحكمةٍ تربويّة.

(٣) ثُمَّ وَاجَهَهُ عَمُّه «أبو لهب» وامرأتُه «أمُّ جميل» بالشتيمة والنميمة والأذىٰ، فأنزل اللّه عزّ وجلّ عليه سورة (المسَدِ/ ١١١ مصحف/ ٦ نزول) فقال تعالى:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾.

(٤) ثُمَّ أَصرَّ بعضُ المشركين على شتيمتِهِمْ للرسول ﷺ بالجنون، فأنزل الله عزّ وجلّ قولَهُ في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول) مواجهاً لهم بالخطاب:

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾.

(٥) ثم أشاع بعض المشركين أَنَّ ربَّه قد هجره وقَلَاهُ، بسبب انقطاع الوحي عنه أيَّاماً معدودات، فأنزل اللّه عزّ وجلّ عليه قوله في سورة (الضحىٰ/ ٩٣ مصحف/ ١١ نزول):

﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾.

فواسَىٰ اللّه رسوله، وأرضَىٰ نَفْسَهُ وقَلْبَهُ، وأغاظَ بالتَّعْرِيضِ أَعْدَاءه.

(٦) ثُمّ استَغَلَّ بعضُ المشركينَ موْتَ ولديه الذكرين القاسِمَ وعَبْدَ اللّه، فأطْلَقُوا أَنَّهُ أبْتَرُ، أي: مقطوع من الأولاد الذكور من صُلْبه، فهو بسبب ذلك مقطوعٌ من الْخَيْر، فأنزل اللّهُ عزّ وجل عليه سورة (الكوثر/ ١٠٨ مصحف/ ١٥ نزول):

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾.



(٥)
التدبُّر التحليلي لآيات سورة (الكوثر)

قولُ اللّه عزّ وجلَّ خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

● ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ﴾: جاء في هذه الجملة استعمال ضمير المتكلّم العظيم، للإشعار بأنّ ما أعطاه الله لرسوله عظيم يناسب عظمة المتكلّم العظيم جلّ جلاله.

أعطيناك: أي: وَهَبْنَاكَ وَجعَلْنَا لَكَ. يُقَالُ لُغَةً: أعْطَىٰ فُلَانٌ فُلاناً الشَّيْءَ، أي: ناوَلَهُ إيَّاهُ فتناوله. وهذا الإعْطَاءُ قَدْ يكونُ على سبيلِ الهِبَةِ والمِنَّةِ، تمليكاً

أو تمكيناً من الانتفاع، وقد يكونُ في المادّيات، وقد يكون في المعنويّات، وعطاء اللّه لعباده من الخير هو دائماً هِبَةٌ وامْتِنَان، وجودٌ وإحسان.

﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾: على وزن «فَوْعَل» من الكثرة، والواو زائدة، لإفادة التكثير والمبالغة، ومعنى «الكوثر» في اللّغة الخيْر الكثير، والكثير جدّاً من كلّ شيءٍ، يقال لغة: **تَكَوْثَرَ الْغُبَارُ**، أي: كَثُرَ كَثْرَةً زائدة. ويقال: **رجُلٌ كَوْثَرٌ**، أي: كثير العطاء والخير. **والكَوْثَرُ**: السّيّد الكثير الخيْر.

وصَحَّ في السُّنَة كما سبق بيانه في المقدّمات تَفْسِيرُ الكوثر في هذه الآية بالنَّهرِ الّذي أعطاه اللّهُ رَسُولَهُ في الجنّة، وهو الذي يُمِدُّ حوضَه الذي تَشْرَبُ مِنْهُ أُمَّتُهُ في موقف الحشر، كما سبَقَ بيانه.

ويدخل في عموم الكوثر مع نَهْرِ الكوثر الذي أعطاه الله رسوله في الجنة، كلُّ خير كثير أعطاه اللّه إيَّاه، كالنبّوة العظيمة، والرسالة الخاتمة، والقرآن المجيد، ورفع ذكْرِه، وما خصّه به من خصائص سبق بيان بعضها في المقدّمات، وهذا ما ذهب إليه ابْنُ عبَّاسٍ في بعض ما رُوي عنه، وهو لا يتعارض مع ما جاء في البيان النبويّ، لأنّ البيانات النبويَّةَ في التفسير قد تذكر بعض أفراد اللّفظ العامّ، ولا يُرادُ بها الْحَصْر، فيبقَىٰ اللّفْظ العامّ شاملاً لعُمُوم الأفراد الّتي يَنْطَبِقُ عليها، ومنها وبالدرجة الأولى ما جاء في بيان الرسول.

واختلفت أقوال المفسرين في المراد بالكَوْثر، فذكر بعضهم حوض النبيّ ﷺ في الموقف، وذكر بعضهم النبوّة، وذكر بعضهم القرآن، وذكر بعضهم غير ذلك، لكنّ هذه الأقوال تندرج تَحْتَ عُمومِ كلّ خَيْرٍ كثير أعطاه اللّه رسوله محمّداً ﷺ.

وقد جاء في الآية تأكيد الخبر بمؤكدين: حرف التأكيد (إنّ) والجملة الاسميّة لدفع مقولة مُبْغضي الرسول ﷺ، ولتسلية الرسول.

قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾:

«الفاء» في ﴿فَصَلِّ﴾ سببيَّةٌ غير عاطفة كما ذكر ابن هشام في كتابه: «مغني اللّبيب»[1].

فَصَلِّ: الصلاةُ هي العبادة المخصوصة التي فيها قيام وركوع وسجود ودعاءٌ وذكر. قال ابن الأثير: وأصلها الدُّعاء في اللغة، فسمِّيَتْ ببعض أجزائها.

وقال ابن الأعرابي: الصلاة من اللّه رحمة، ومن المخلوقين الملائكة والإنْسِ والجنّ القيام والركوع والسجود والدعاء والتسبيح، والصلاة من الطير التسبيح.

وجاء في كتب اللّغة: أنّ الصلاة الدعاء والاستغفار، والعبادة المخصوصة التي فيها قيام وركوع وسجود وتلاوات وذكر ودعاء.

وكلُّ صلاةٍ لغير اللّهِ عزَّ وجَلّ هي من الشَّرْكِ الذي لا يغفر اللّه عزّ وجلّ لمن مات عليه دون توبة، بإيمان صادقٍ صحيح.

ولهذا أمر اللّه رسولَهُ محمّداً الذي هو أول المؤمنين المسلمين من الأمَّةِ الخاتمة، بأنْ يُصَلِّيَ لرَبِّهِ لا يُشْرِكُ به أحداً، في العبادة المخصوصة، أو في الدعاء، أو في الذكر، أو في الاستغفار، أو في التسبيح.

وأمَرَهُ بأَنْ يكونَ نُسُكُهُ بذبح ذبائح الهدي، أو الأضاحي، أو النذور وسائر ما يُتقرّبُ به من الأنعام عن طريق الذبح أو النَّحْرِ، للّه وحده لا شريك له.

---

(١) قال: وتأتي الفاء للسببيّة المحضة دون أن تكون عاطفة مثل: [إنّا أعطيناك الكوثر فصَلّ لِرَبّك وانحر] ونحو «ائتني فإنّي أكرمك». قال: إذ لا يُعْطَفُ الإنشاء على الخبر ولا العكس، ولا يحْسُنُ إسقاطها ليَسْهُل دعوى زيادتها.

النَّحْرُ: طريقَةُ الذَّبحِ الخاصّةُ بالإبل، ولمّا كانت الإبل أكرم الأموال عند العرب، وكان تقديمُهَا للّه عزَّ وجلّ أفْضَلَ صُوَرِ النُّسُكِ، كَانَ الأمْرُ بالنَّحر أمْراً بأفضَلِ صُور النُسُكِ الَّتي تُقَدَّم قَرَابِينَ، ويُلْحَقُ بالنحْرِ ذبْحُ سَائِرِ الأنْعَام من بقَرٍ وغنم، أي: فَصَلِّ لِرَبِّك وانْحَرْ واذْبح لرَبّك.

مع ما في لفظ «وانْحَرْ» من تطابُقِ رُؤوس الآيات بحرْفِ الراء، مع الاتفاق في الوزن، فيما يُسمَّى بالسَّجْعِ المتوازي، عند علماء البديع، وهو في السورة سجْعٌ غيْرُ متكلّف.

وقد كان المشركون يُصَلُّون بالدُّعاء والتعظيم، ويتقربُون بالقرابين لشركائهم الّتي يتخذون لها أمثلة من الأوثان، فناسَبَ ذلِكَ الْبَدْءُ بتغيير هذه العادة الشركيّة في تعليمات اللّه لرسوله ولسائر المؤمنين بأن تكون صلاتُهُمْ وأنساكهم للّه ربِّهِمْ.

واختير الاسم الظاهر بدل الضمير وهو لفظ «ربّ» في ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ للإشعار بأنّ من له صفَةُ الرُّبُوبيَّة الّتي لا يُشاركه فيها أحد هو المستحقّ وحده بأنْ تكون له الصلاة والنُسك، فأغْنَىٰ هذا المعنىٰ عن استعمال صيغة من صيغ الحصر، للدلالة على وجوب إفراد اللّه عزّ وجَلّ بالصلاة والنُّسُك.

كما جاء في قول الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾.

النُسُك: يُطْلَقُ في اللّغة على الذبيحة الّتي يُتَقَرَّبُ بها إلى المعْبُود. ويُطْلَق على كلِّ تَزَهُّدٍ وَتَعَبُّد.

وأنا أول المسْلمين: أي: وأنا أوّل المستسلمين لأوامر الله، المطيعين الممتثلين.

قول الله عزّ وجل خطاباً لرسوله:

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾:

﴿شَانِئَكَ﴾: أي: مُبْغِضَكَ، يُقَالُ لُغَةً: شَنَأَهُ يَشْنَؤُهُ شنئاً، أي: أبْغَضَهُ وتَجَنَّبَهُ، فَهُو شانِئٌ لَهُ. ويُقَالُ: تَشانَؤُوا، إذا تَبَاغضوا.

الأَبْتَرُ: هو الأقْطَعُ مِنْ كلّ خير. وكلُّ أمْرٍ انقطع أثَرُهُ من الخير فهو أبْتَر. والأَبْتَرُ الَّذِي لا عَقِبَ له، والْمُعْدِمُ، والخاسر، والذي ليس له ولَدٌ ذَكَرٌ يَبْلُغَ مَبْلَغَ الرِّجال يكون مُعِيناً له وقوة وسنداً.

وقد جاءت هذه الآيَةُ تسليَةً للرَّسُولِ محمّد ﷺ، ودفاعاً عنه، وردّاً لمقالة من قال من المشركين: مُحَمَّدٌ أَبْتَرُ لا يعيشُ له ولد ذكر، بعد أن مات ولداه القاسم وعبد الله، كما سبق بيانه في المقدمات.

وجاء في الآية استخدام لفظ (الأبتر) بمعنى المقطوع من كلِّ خير، لا بمعنى الذي ليس له ولَدٌ ذكر يبلُغُ مَبْلغَ الرّجال ويكون مُعيناً له وقوةً وسَنداً، وهو دفاعٌ أشدُّ وأقوى من الهجوم، مع استخدام اللفظ نفسه الذي أطلقه مبغضو الرسول ﷺ.

وقد جاء في هذه الآية تأكيد الخبر الذي تضمَّنَتْه بمؤكدات ثلاثة: حرف التأكيد «إنّ» والجملة الاسميّة وضمير الفصل.

وفي الآية قَصْرُ قلْبٍ، أي: ليس محمَّدٌ أَبْتَرَ إذْ لَمْ يُبْقِ اللَّه له ولداً ذكراً يَبْلُغ مَبْلَغَ الرجال، فاللّه قد أيَّدَهُ بنصره وبالمؤمنين، ولحكمةٍ عظيمة أمَاتَ أولادَه قبل أن يبلغوا أن يكونوا رجالاً، ولكنَّ مُبْغِضَهُ هو الأبْتَرُ المقطوعُ الأثر من كلِّ خير، والخالد في الشقاء الأبديّ بسبب كفره..

أي: فليس الأبتر في الحقيقة من لا عقب له، ولا من ليس له ولَدٌ يبقَىٰ حتَّىٰ يكون رجلاً يشدُّ أزر أبيه، إنّما الأبتر هو من لا عقب له من الخير عند الله عزّ وجل في آخرته يوم الدين.

فمبغض الرسول ﷺ هو في الحقيقة أبتر، وقد جاء هذا البيان الرّباني بصيغة قَضِيَّة عامّة، يدخل في عمومها الذين شنَّعُوا على الرسول ﷺ بأنّه أبتر. ونفهم من هذا أنّ من يُبْغِض الرسول محمّداً ﷺ في كلِّ عصر وفي كلّ مصر هو أبتر عند الله عزّ وجلّ، منقطع الخير، ذو عاقبة وخيمة.

فمن نزَعَتْ نفسه إلى أَنْ يكون من مبغضي رسول الله ﷺ، فليتَرقَّبْ أن يَجْعَلَهُ اللَّهُ أبتر منقطع الخير، والعياذ باللّه عزّ وجل.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ من البديع محسّن استخدام لفظ «الأبتر» بمعنىً غير المعنى الذي أطلقه بعض المشركين، وطريقه هنا القصر، الذي تضمن إبطال قول المشركين، وردّ اللفظ بمعنى آخر أشْنَع من المعنى الذي قصدوه، وهذا أحد طُرق الاستخدام، كما ذكره بعض المحققين من البلاغيين.



سورة التكاثر

١٠٢ مصحف ١٦ نزول



(١)

نصّ السورة وما فيها من فرشيات القراءات

سورة التكاثر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

٦ ـ قرأ ابن عامر والكسائي [لَتُرَوُنَّ] بضم التاء.

وقرأ باقي القراء العشرة: [لَتَرَوُنَّ] بفتح التاء.

والقراءتان متكاملتان في المعنى، إذْ هُمْ يُرَوْنَها، فيَرَوْنَها.

❁ ❁ ❁

(٢)
مما رُوي بشأن هذه السورة

(١) روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عبد الله بن الشخّير عن أبيه، قال: انْتَهيْتُ إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إلاَّ ما أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أو لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَبْقَيْتَ؟». [ورواه مسلم، والترمذيّ، والنَّسائي].

(٣)
موضوع السورة ودروسها

يدور موضوع هذه السورة حول بيان العلَّة النفسيّة، الّتي جعلت الكافرين يستَبْعِدون عن أجهزة التَّفكُّرِ فيهم التَّفكُّرَ بيَوْم الدِّين، وما فيه من عقابٍ ملازمٍ في الجحيم للكافرين المجرمين، وما فيه من نَعِيم مقيم في جنَّاتِ النَّعيم للمؤمِنين المتّقين.

إنَّها علَّة التَّلَهِّي بالتكاثر من الأموال ومن لذّاتِ الحَياة الدنيا وزينَتِها ومتاعِهَا الفاني، والكَدْحِ لامتلاكِ أكثَرِ وأعْظَم مقدارٍ من الأموال، والقصور، والمراكب، والحرث والجنّات والبساتين، والاستحواذِ على أكثر وأعظم مقْدارٍ من الْجُنْدِ والأنصار والأعوان والخدَمِ ووسائل الرفاهية والقوّة.

وكلٌّ كادحٍ مِنهم يُلْهِيهِ عن الآخرة تكاثُرٌ علَىٰ قَدْرِه، ويتنافس الكافرون فيما بيْنَهُمْ في هذا التكاثر، ويظلُّ الواحد منهم كذلك كادحاً لاهِثاً حتَّىٰ تَأْتِيَهُ مَنِيَّتُهُ، ويسْتَقْبِلَ حِسَابَه وفصْلَ القضاء بشأنه، ويُلاَقِيَ جزاءَه يوْمَ الدّين.

وعند مَوْته يعْلَم مَصِيرَه في الجحيم عِلْمَ اليقين، إذْ ينكشف له منزله فيها، ثُمَّ يَراه رؤيا الْعَيْن حينَ يُحْشَر إلى جهة النار في موقف الحشر، ثمّ يَرَاه رؤيا الإحساس بالعذاب في الجحيم حينَ يُلْقَىٰ فيها، إذْ يكونُ إدراكه لها عيْنَ اليقين وحقَّ اليقين. ثُمَّ يُسْأَلُ وهو في الجحيم عن النعيم في الجنَّة

الذي كان يُنكِرُه ولاَ يَعْبأُ به في الدنيا، فيُقَالُ لَهُ: أليس نعيمُ الآخرة في الجنَّةِ حقًّا؟ فيقول: بلى.

وجاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) أنّ أصْحَاب النار يُنادُون أصْحَابَ الجنَّةِ أنْ أفيضوا علينا من الماء أو مِمّا رزقكم الله، وأنّ أصْحَابَ الجنّة يقُولُون لهم: إنَّ اللَّهَ حرَّمَهُمَا علَىٰ الكافرين الّذين اتَّخَذُوا دينَهُمْ لَهْواً ولِعباً، وغَرَّتْهُمْ الحيَاةُ الدُّنيا.

ويُلاحَظُ من عُمُوم ما جاء في السورة، مع النظر إلى بعض التوجيهات النبويّة أنّ صفة التَّلَهِي بالتكاثر من متاع الحياة الدنيا، تؤثّر في مداها الأقْصَىٰ علَىٰ سُلُوك الإنسان حتَّىٰ تُفْضِيَ به إلَىٰ الكُفر، وتُؤَثِّرُ أيضاً على سلوك المؤمن تأثيراً قد يَصِل به إلى ارتكاب المعاصي والموبقات هبوطاً في دركاتها إلى ما قَبْلَ دَرَكَة الكفر.

فالتَّلْويمُ على صفة التَّلَهِي بالتّكاثر، والتَّحذِيرُ منها يتناول في السورة الكافرين أوّلاً، لأنّهم هم المخاطبون بما جاء فيها، ثم يتناول أيْضاً بإيحَاءَاتِ ظلالِ السُّورة المؤمنينَ الذين قَدْ يقَعُ منهم وهم في دائرة الإيمان والإسلام، نَظِيرُ ما يَقَعُ من الكافرين وهم في حضيض أودية الكفر.

فقد نجد مؤمنين مسلمين كثيرين يُلْهِيهُم التَّكاثُرُ من متاع الحياة الدنيا، فَيُنْسِيهم كثيراً من واجباتهم تجاه ربّهم، ويجعلهم يقعون في الغَفَلات، ويَرْتكبون المعاصِيَ والآثام حتّى دركاتِ الكبائر، لكنّهم قد لا يَصِلُونَ إلى حضيض الكفر، ومن وصَلَ منهم إلى الكفر صار من زُمْرَة الّذِين يتناولهم ما جاء في السُّورة تناوُلاً أوّليًّا.

ونَظِيرُ صِفَةِ الالْتِهَاءِ بالتّكاثر من متاع الحياة الدنيا، سائِرُ الصِّفَات النفسيَّة والسُّلوكيَّة الّتي كانت السَّبب في إسقاط الكافرين في مهاوي الكفر، فقد تُسْقِطُ هذه الصِّفَاتُ نفسُها المؤمنين المسلمين في مهاوي المعاصي والآثام حتَّىٰ الكبائر من دون دَرَكَةِ الكفر.

فليحذر المؤمنون من التلَهِّي بالتكاثر من متاع الحياة الدنيا وزينتها.

وهذه السورة تشتمل على درسين:

الدرس الأول: قولُ الله عزّ وجلّ فيها: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾.

الدرس الثاني: قول الله عزّ وجلّ فيها: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

❀ ❀ ❀

(٤)
التدبُّر التحليلي لآيات الدرس الأول من سورة التكاثر

الآيتان (١ ـ ٢)

قول الله عزّ وجلّ خطاباً للكافرين في منطوق النصّ، وتتناول ظلالٌ منه بعض المؤمنين:

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾:

﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾: الخطابُ في منطوق اللّفظ مُوجَّهٌ للكافرين، لأنهم هم الذين يَرَوْن الجحيم يوْمَ الدّين رُؤيَا عَيْنِ اليقين، إذْ يكونون مَعذَّبين بنارها، وهم الّذين يُسْأَلُونَ بَعْدَ ذَلِكَ عن النّعيم الذي حُرِمُوا منه بسبب كفرهم، إلاّ أنّه يتناول بظلاله بعض المؤمنين، وهم الذين يُلْهيهم التكاثر.

أَلْهَاكم: أي: شَغَلكم وصَرفكم عن التفكُّر فيما هو سَبَبُ سعادتكم، فكفَرْتُمْ بيَوْمِ الدّين، الّذي جاءكم به الخبرُ عن ربّ العالمين، على لسان الرسول الأمين.

يقال لغة: ألْهاه، أي: شغَلَهُ. ويُقال: لَهَا يَلْهُو لَهْواً، والْتَهَىٰ يَلْتَهِي الْتِهَاءً. وتَلَهَّىٰ يَتَلَهَّىٰ تَلَهِّياً، أي: تَشَاغل.

واللَّهْوُ: الاشتغالُ بأمْرٍ غَيْرِ ذي شأن والانصرافُ به عمَّا يَجِبُ توجيه الْجَهْد والْعَمَلِ له، كالاشتغال بما لا حاجة له من زينة الحياة الدنيا عن العمل للآخرة.

﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾: تفاعُلٌ من الكثرة، ولهذه الصيغة معاني تُقْصَدُ بها، ومعناها هنا حُصُولُ الكثرة فالكثرة بتَتَابُع متدرّجٍ دون توقُّفٍ عند حدّ.

والتكاثر المحَبَّبُ للناس والمزيّن لهم هو التكاثر في الأموال والأولاد، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول) يعظ المؤمنين:

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

فالتكاثُرُ في الأموال على اختلاف أنواعها وأصنافها، والتّكاثُرُ في الأولاد ويُلْحَقُ بهم الأعوان والأنصار لتحقيق العِزَّة والمجدِ من أعظم الملْهِيَات عن الاشتغال للآخرة والسعادة الأبدية فيها، وقرينة الحديث عن الآخرة في السورة دلَّتْ على أنّ التكاثُر من أمور دُنيَاهم الفانية قد ألهاهم عن أمور آخرتهم الباقية الخالدة.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ **حَتَّىٰ**: هُنَا حرفُ عطفٍ يدُلُّ على انتهاء الغاية، أي: استمرَّ إلْهَاءُ التكاثر لكم حتَّىٰ ابتداء زيارتكم المقابر.

زُرْتُمُ المقابر: أي: صِرْتُم مَوْتَىٰ مُهَيئين للدفن في المقابر بصفة زائرين زيارة مؤقتة.

فالمرادُ بزيارة المقابر مَوْتُهم، وتهيُّؤ أجْسَادِهم للدَّفْن في المقابر، وعبارَةُ: ﴿زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ كنايةٌ عَنِ الموْت، وتضمَّنَتْ هٰذِه الكناية بالإضافة إلى الدَّلالة على الموتِ الدَّلاَلَةَ على الْبَعْثِ بَعْد الموت، باسْتِعْمَال فعل: «زُرْتُمْ» الذي يَدُلُّ على الحضور المؤقَّت والّذي يَنْتَهي بالبعْثِ إلى الحياة الأخرى، والانتقال إلى الدَّار الآخرة، لأنَّ من يَزُورُ مكاناً يحضُرُ فيه حُضوراً مؤقَّتاً، ويَنْصرِفُ بعْدَه عنه إلى مكان إقامته، وكذلك من يَزُور إنْسَاناً يَمُرُّ به، أو يحْضُرُ عنده، بصفَةٍ مؤقَّتة لا بصفةٍ دائمة، وتضمَّنَتْ التوجيه لدفن موتى الناس في القبور إذ هو من محاسن الأمور.

فجاء في هذه الكناية البديعة، إدْمَاجُ الدّلالة على معنى البعث في الدَّلالة على معنى الموت، وإدماج التوجيه الحميد لدفن موتى الناس في المقابر، تكريماً لأجسادهم، ورعايةً لصحّة الأحياء من الناس.

رَوىٰ ابن أبي حاتم بسَنَده عن ميمون بن مهران، قال: كنْتُ جالساً عند عُمَر بن عبد العزيز فقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ فلَبِثَ هُنَيْهَةً ثُمَّ قالَ: يَا مَيْمُونُ، ما أرَىٰ المقابِرَ إلاَّ زيارةً ومَا للزَّائِرِ بُدٌّ مِنْ أن يَرْجِعَ إلى مَنْزِلِهِ.

وجاء عند ابن كثير في تفسيره أنَّ بعْضَ الأعراب سَمِعَ رجُلاً يَتْلُو قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ فقال: بُعِثَ الْقَوْمُ وَرَبِّ الكعْبَة.

وأصْلُ معنى القبر: الدفن في الأرض، يقال لغة: قَبَرَ فلانٌ الميّتَ إذا دفنه.

التكاثُر الملْهِي من الفانيات، الصارِفُ عَنِ العمل للنّعيم الخالد

كُلُّ ما يزيد عن حاجة الإنسان، وحاجةِ أُسْرَته في الحياة، بدافع الرغبة في التكاثُر من زينة الحياة الدُّنيا ومتاعها وأموالها، فإنْفَاقُ الوقْتِ فيه من التَّلَهِّي عمّا يَنْبَغِي للإنسان أن يغتنم منْهُ ثواباً عظيماً في نعيم مقيم.

فالْعَمَلُ ابتغاء التكاثُر من زينة الحياة الدُّنيا، دون حاجة الحياة إلى الزائد، هو لَهْوٌ بما لا خَيْرَ فيه للمتكاثر، ولا نفْعَ له منه، وانْصِرَافٌ عَمّا هو لَهُ خَيْرٌ وأعْظَمُ وأجَلُّ في آجِلِ أمْرِه، وقد يكُونُ لَهْواً أيْضاً عَمَّا هو خيرٌ لَهُ في عاجلِ أمْرِه، كَصَلاح الْبَالِ، وطُمَأْنينة الْقَلْب، وراحَةِ الضمير، ورضا النفس، والاستمتاع بما أعطاه الله ويسَّر له من مُتَعِ الحياة الدُّنيا، مع القناعةِ بأنَّهُ الخير له والأفضل، إذْ هو المختارُ له بقضاء الله وقدره.

فكَمْ من كادٍّ كادحٍ مُسْتكْثِرٍ من جَمْعِ الأموال، واقتناء تُحَفِ الدّنيا، محرومٌ من الاستمتاع بما يَجْمع في حياته، ومحرومٌ من حظِّ الآخرة عند الله في جنّاتِ النعيم، ومُضيِّعٌ عُمْره في التَّلَهّي بما لا خيْرَ له منه، هذا إذا استطاع في جَمْعِه واقتنائه واستكثاره أنْ يسْلَم ممّا يَحْمِل به إثماً، أو يجني به جُرْماً، أو يَغْرَمَ به غُرْماً، أو يَظْلِمَ به ظُلْماً، أَوْ يُعَذِّبَ بِهِ نَفْسَهُ همًّا وغمًّا.

وكذلك الكادّون الكادحون للظفر بجاهٍ أو سلطانٍ في الأرض، والكادّون الكادحون لبناء القصور والجنّاتِ، أوْ جَمْع القناطير المقنطرة من الذهب والفضّة، أو اغْتِنَام الكَثِير من اللّذّاتِ، إنَّهُمْ يُنْفِقون أعْمَارَهم في التَّلَهّي بالتكاثر عمَّا هو لهم خيرٌ وأفْضَلُ، ممّا يُحَقِّق لهم السعادة والهناء، في الدنيا دار الابتلاء، وفي الآخرة دار الجزاء، دون أن يحْصُلوا من العاجل الأدنى على ما يُسْعِدهُمْ، ويورثهم الراحة والطمأنينة.

كثيرٌ من الناس يكْدَحُونَ لامْتِلاكِ أموالٍ كثيرة لا يَحْتَاجُونها في حياتهم، فلا ينفقونَها فيما هو متاعٌ لَهُم، وتحقيقٌ لمنافع ولذّات، وحريٌّ بهؤلاء أنْ يكونوا هم المملوكين لأموالهم، يُثَمِّرُونها ويحفَظُونها، لا المالكين لها، لأنَّها سَتَصِير إلَىٰ غَيْرهم. وهذا المعنى نجدُه فيما ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة الأحنف بن قيس[1]، أنّه رأى في يَدِ رَجُلٍ

(١) نقلاً عن ابن كثير في تفسيره لسُورَة التكاثر.

دِرْهماً، فقال: لِمَنْ هذا الدرهم؟. فقال الرجل: لي. فقال له الأحنف بن قيس: إنَّما هو لَكَ إذا أنفقته في أجْرٍ، أو ابتغاء شكر، وأنْشَدَ متمثلاً قول الشاعر:

أنْـتَ لِـلْـمَـالِ إذَا أمْـسَـكْـتَـهُ   فَـإذَا أنْـفَـقْـتَـهُ فَـالْـمَـالُ لَـكْ

إنّ طُلَّاب الدنيا يظلُّونَ لاَهِينَ عَنِ الخيْرِ الجليل العظيم الباقي، بما يكدحون في الحياة ابتغاء التكاثر، وحين تسعفهم المقادير الرَّبّانيّة يكْرَعُون مستكثرينَ دون أن يرتَوُوا، كالظامِئ الّذي يكْرَعُ من ماءٍ مِلْحٍ أُجَاجٍ، وكالمريض الذي يشرب ولا يرتوي، ويأكُلُ ولا يشبع، ويضاعفون كدَّهم مستكثرين، رجاء أن يَصِلُوا إلى الارتواء ممّا يستكثرون من أشياء، فلا يَصِلُونَ، وتأتيهم مناياهم، فيأخُذُهُمُ الموتُ من أشيائهم الّتي اسْتكْثَرُوا منها، دون أن تكونَ سبب سعادتهم في الحياة الدنيا، ثُمَّ يَجِدُون أنفسَهم محرومين في الآخرة من الزّاد الذي كانَ علَيْهم أن يتزوّدوا منه، ويَجِدون أنفسهم محمَّلِين بأثقالٍ من الأوزار الّتي جنَوْها طَمعاً في التكاثُر.

إنّهم يَزُورُون مقابِرَهُمْ وقد تلَهَّوْا في حياتهم عمَّا يَنْفَعُهم فيها، بجلب نعيم أو دفع عذاب، ثمّ تَنْتَهِي زيارتُهُمْ للْقُبور بالبعْثِ إلى يوم الحساب والجزاء يوم الدين، الذي لا ينفع فيه مالٌ ولا بَنُون، إنّما ينْفَعُ فيه العملُ الصالح ومَنْ أتَىٰ اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، ويومَئِذٍ يَرَوْن أنَّهم قَدْ ضيَّعُوا أعمارهم في اللَّهْو، إنْ لم يكونوا قد ضيَّعوها في الاشتغال بحَمْلِ الأوْزار، وسلوك مسالك الفجّار.

أليسَتْ هذه الحقيقة حول أعمار الناس في الحياة الدنيا، التي ينفقونها في التَلَهِّي بالتكاثر، جَدِيرةً بأن يُنْزِل اللّهُ عزَّ وجلَّ في بيانها سورة (التكاثر) ليبيّن فيها دافع الرغبة في التكاثر الذي يخسر به الإنْسَانُ أوقات عمره المحدود، في اشتغاله بأشياء لا خيْرَ له منها، فيُلْهِيهِ اشتغاله بها عمّا هو له

خيْرٌ من كلّ باقٍ حَمِيد جليل يناله السَّاعون للآخرة وما فيها من نعيم مقيم بعْدَ رحلة الحياة الدنيا، رحلة الابتلاء.

وإذا ربطنا فكرة سورة (التكاثر/ ١٠٢ مصحف/ ١٦ نزول) بفكرة سورة (العصر/ ١٠٣ مصحف/ ١٣ نزول) السابقة في النزول، والتي أبان الله عزّ وجلّ فيها أنّ واقع حال الإنسان في خُسْرٍ دائم، لأنه يُضَيِّع وقته الذي هو رأسُ مَالِه مع طاقته في الحياة الدنيا، فيما لا خير له فيه، باستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوْا بالحقّ وتواصَوْا بالصَّبْر، وضَحَ لَنَا أنّ سورة (التكاثر) تُبَيِّن دافع رغبة الإنسان في التكاثر من فانيات الحياة الدُّنيا، الّذي هو أحد أسباب انغماس الإنسان في واقع الْخُسْر الدائم مع لحظات عمره، الذي جاء بيانه في سورة (العصر).

ثمّ إذا تأمَّلْنا ما جاء في سورة (العاديات/ ١٠٠ مصحف/ ١٤ نزول) التي نزلت بعد سورة (العصر) وقبل سورة (التكاثر) وجَدْنا أنّها قد تحدّثت عن حُبّ الإنسان الشديد للمال، في قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾:

لحُبِّ الخير: أي: لِحُبِّ المال، إذْ يَرَىٰ الناسُ المالَ خيراً.

ومن هذه السُّوَر الثلاث نَسْتخلص أنّ دافع حُبِّ المال حُبًّا شدِيداً، مع رغبة التكاثر منه ومن الأولاد وسائر زينة الحياة الدنيا، ومع توجيه الْجَهْدِ والطّاقة خلال مرور ساعات العمر، للجمْع من الدنيويّات الفانيات، من أعظم أسباب وقوع الإنسان في الْخُسْرِ، ما تَتَابَعَ عليه مرور العصر، الذي هو الزمن السّيّال، وعُمْرُ الإنسان مقطع سيَّالٌ منه.

وهكذا يتكامَلُ بنَاءُ الأفكار المعرفيّة في القرآن، مع مراحل التنزيل، لَبِنَةً فَلَبِنَةً، وضمْن هذا المنهج التدرُّجيّ تَتَكَامَلُ الموضوعاتُ القرآنيّةُ جامعةً كُلَّ عناصرها.

استعمال صيغة الفعل الماضي في الآيتين دون الفعل المضارع

لمّا كانت الرغبة في التكاثر من الأموال والأولاد ونحوهما من زينة الحياة الدنيا، تُلْهِي الناس عن العمل للآخرة، وكان هذا حاصلاً في كلّ زمَنٍ من أعمارهم «الماضي والحاضر والمستقبل» كانت الصِّيغةُ الملائمة لبيان هذا الواقع صِيغةَ الفعل الماضي الدّالَّةَ على تحقُّق الحدوث والوقوع، والمتجرّدَةَ من الدَّلاَلة على الزمن.

ودلالَةُ صِيغَة الفِعْلِ الماضي على مُطْلَقِ تحقُّقِ وجود الأمر دون الدَّلاَلَة على زَمَنٍ مُعَيَّنٍ قَدْ جاء في القرآن المجيد نظائر كثيرةٌ لها، ومنها ما يلي:

- ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [٤ النساء].
- ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [٤ النساء].
- ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [١٧ الإسراء].
- ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [١٨ الكهف].

فالمعنى: قد تحقّق فيكم أيُّها الناسُ إِلْهَاءُ التَّكاثُرِ لَكُمْ، طَوالَ أعْمَارِهم، عن الْعَمَلِ لما فيه سَعَادَتُكُمْ في أُخْراكُمْ، بسبب حُبّكُمُ الشديد للأموال التي تُسَمُّونها خيراً، ورغبتكم في التكاثر منها، فتقعُون دواماً في الْخُسْر، ما مَرَّ عليكم زَمَنٌ من الْعَصْرِ، فيمَا حُدِّدَ لكُمْ من عُمْر.

ويستثنى من عموم الناس الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوْا بالحقّ وتواصَوْا بالصَّبْر.

(٥)

التدبر التحليلي لآيات الدرس الثاني من دروس سورة التكاثر

الآيات من (٣ ـ ٨)

قول الله عزّ وجلّ:

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ

ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾:

● ﴿كَلَّا﴾ في المواضع الثلاثة أداة رَدْعٍ وزَجْر. والمراد رَدْعُ وزَجْرُ المخاطبين الذين ألْهاهُمُ التكاثُر عن تَلهِّيهم الذي يصرفهم عن السّعي لسعادتهم في أُخْراهم.

● ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: سَوْفَ: حَرْفُ اسْتِقبالٍ مثل «السِّين» في نحو: «سَتَعْلَمُون» ويُعْجبني قول من قال من علماء العربيّة: إنّ «سَوْفَ» أوْسَعُ استقبالاً من «السّين» فقد نظرت في استعمالاَتِ «سَوْفَ» في القرآن فرأَيْتُ مُعْظَم الزَّمَنِ الّذي تشير إلَيْه ما يكُونُ يوْمَ الدِّين، أو فيها إشعارٌ بعدم إرادة تقريب زمَنِ وقوع الفعل الّذي دخَلَتْ عليه، أمّا «السِّين» الاستقبالية فمعظم استعمالاتها قد جاءت في القرآن لما هو موعودُ الوقوع في الحياة الدنيا، أو لما هو قريب الوقوع فيها، أو لما هو منزَّلٌ منزلة قريب الوقوع للتخويف والمبالغة في التحذير، ولو كان وقُوعُه مُؤَجَّلاً إلى ما بعد الموت.

فالمعنى هنا: سَوْفَ تَعْلَمُونَ بعد انتهاء رحلة الحياة الدنيا أنّ ما كنتم فيه من التَّلَهّي بالتّكاثُر قد كان ضِدَّ مَصْلَحَتِكُمْ، إذْ قد جنَىٰ عليكم خَيْبَةً وخُسْراناً عظيماً، وعذاباً أليماً، دون أَنْ تَظْفَروا من دُنياكم بما فيه سعادةٌ لَكُمْ، في عاجل أمركم وآجِلِهِ.

● ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ دَلَّ حَرْف العطف «ثُمّ» الذي يدُلُّ بوضعه اللّغوي علىٰ التَّرتيب مع التراخي على أَنَّ حصول الْعِلْم الذي جاء بيانُه في الآية الرابعة، غَيْرُ الْعِلْم الّذِي جاء بيانه في الآية الثالثة من السورة، فهما عِلْمَانِ، فما هُمَا هذان الْعِلْمَان؟ وكَيْفَ يَحْصُلان؟ وهَلْ بعدهما عِلْمٌ ثالث؟

مراتب العلم الثلاث وأدلتها:

لدى تتبّعِ النُّصُوص من القرآن والسُّنَّةِ يتبيَّنُ لنا أنّ مُنْكِري عذاب النار

يوم الدين وهُمْ في رحلة الحياة الدنيا، يَتَحقَّقُ لهم العلم بما كانوا له منكرين في ثلاث مراحل، وكلُّ مَرْحَلةٍ منها تقع في مرتبة من مراتب العلم:

المرتبة الدُّنيا: مرتَبَةُ تحقُّقِ العلم النَّفْسِي، وهذا الْعِلْمُ يكونُ منْذُ مُلاَمَسَتِهِم عتَبَةَ الموت، ويُرَافِقُهم طوال مّدة البرزخ، ويُسمَّى هذا العلمُ عِلْمَ اليَقين لأنّ أدلّته في نفوسهم تفيد اليقين.

المرتبة الوسطى: مَرْتَبَةُ العِلْمِ القائم على الشُّهُود والْمُعَايَنَة، وهذا العلم يكون في موقف الحشر بعد البعث للحياة الأخرى، إذْ يُحْشَرُونَ إلى قُرْب النّار فيشاهدونها، ويسَمَّىٰ هذا العلم عَيْنَ اليقين، لمعَايَنَتِه.

المرتبة العليا: مرتبة العِلْم القائم على الإحساس الجسَدِيّ الكامل حين يَذُوقُون عذاب النَّار في الجحيم، فتشترِكُ كُلُّ حواسِّهِمْ في إدراك هذه الحقيقة الْعِلْمِيَّة، ويُسَمَّىٰ هذا العلم حَقَّ اليقين، لتحقّقه في الواقع تحقُّقاً تامّاً لا يحتملُ دُخُول التوهم فيه.

من أدلّة المرتبة الدّنيا (عِلْم اليقين)

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿... وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

فحين يَشْهَدُ الظَّالِمُونَ هذا المشهد وهم في غَمَرَاتِ الْمَوْتِ، يَعْلَمون عِلْمَ اليقين أنّ ما أُنْذِرُوا به من عذاب الجحيم يوم الدين حقٌّ، ولو لَمْ يشْهَدُوه بعد.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) بشأن الكافرين المكذبين بيوم الدّين:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

إنّ الكافر لا يَطْلُبُ الرَّجْعَةَ إلَىٰ الحياة الدنيا عند موته ليَعْمَلَ صالحاً، ما لَمْ يَكُنْ قد شَهِدَ مَا يُورثُه عِلْمَ اليقين بأنّ عذاب الجحيم يَوْم الدين حقّ.

(٣) وقولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

هذا الواقع الذي يَشْهَدُه الكافرون عند الموْتِ وعقِبَه، يُعْطِيهِم عِلْمَ اليقين بأنَّ عذابَ الجحيم يوْمَ الدين حقّ.

(٤) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول) بشأن المنافقين:

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

هذا النصّ في المنافقين نظير نصّ (الأنفال) بشأن الكافرين.

(٥) وروى البخاري ومسلم عن عبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَر رضي اللَّهُ عنهُما أنّ رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ، عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بالْغَدَاةِ والْعَشِيّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هٰذَا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

هذا العرض بعد الموت يُعْطِي الكافر والمنافق عِلْمَ اليقين بِأَنَّ عَذَابَ الجحيم يَوْم الدّينِ حقٌّ.

والأدلَّة من السُّنَةِ كثيرةٌ في هذا الموضوع.

من أدِلَّةِ المَرْتَبَةِ الوُسطَىٰ (عَينِ اليقين)

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفُرْقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

إنَّ الكافرين إذَا حُشِرُوا هذا الحشْرَ إلى قُرْبِ جهَنَّمَ يَصِلُ عِلْمُهم بأنَّ عذاب الجحيم حقٌّ إلَىٰ عَيْنِ اليقين، إذْ يشْهَدُون جَهَنّم عِيَاناً.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

إنّ إيقاف الكافرين المكذبين بعذاب جهنم على النار يعطيهم علماً بما كانوا يكذبون به هو من نوع عين اليقين.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (فصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

إلى النّارِ فَهُمْ يُوزَعُون: أي: فهم يُجْمَعُونَ في مكانٍ قَرِيب من النّار، وأصْلُ الوَزْعِ الكَفُّ والحبْس.

إنّ أعداء اللّهِ وهُمُ الكافرون والمنافقون حين يُجْمَعُونَ هذا الجَمْع في مكان قريب من النار، يَصِلُ علْمُهُم بأنّ عذابَ الجحيم حقٌّ إلى عَيْنِ اليقين، **إذْ** يَشهَدُونَ جهَنَّمَ عِيَاناً.

من أدلة المرتبة العليا (حقّ اليقين)

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ...﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

(٣) وقول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

وظاهر أنّ المعذَّبين فِعْلاً في جَهَنَّمَ قَد ارْتَقَىٰ عِلْمُهم بما كَانوا به يُكَذِّبُون إلى مَرْتبة حَقِّ اليقين، إذْ صار اليقين العلمي حقيقة واقعةً يذوقون آلاَمَها بكلّ ما لديهم من حواسّ، مع حضورهم فيها، وشهودهم التامّ لكلّ ما يجري فيها.

وقد دلّ على أنّ العِلْم الذي بلغ هذه المرتبة يُسَمَّىٰ في البيان القرآنيّ حَقَّ اليقين آيتان:

الأولى: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾.

فالمعذّبُون في الجحيم يَصِلُ عِلْمُهُمْ بما يَذُقونَهُ من عذاب إلى مَرْتَبَةِ حَقِّ الْيَقِين، إذْ صَار بالنسبة إليهم حقيقةً واقعةً يذوقونها بحواسّهم، ويُدْرِكُونَها بكلّ ما لَدَيْهِم من قدرات إدراك.

الثانية: قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾:

أي: وحِينَ يدخُلُ المكذّبُونَ النَّارَ يَصِلُ عِلْمُهُمْ بها إلى مرتبة حَقِّ اليقين، بدليل ما جاء في النصّ السابق.

ومراتب العلم الثلاث يشير إليها قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿. . .وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

- **قول الله عزّ وجلّ**: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾﴾:

﴿كَلَّا﴾: أداة رَدْعٍ وزجْرٍ عَلَىٰ ما سَبَق بيانه في الآيتين (٣ ـ ٤).

﴿لَوْ﴾: تأتي هذه الكلمة في اللّسان العربي لعدّة معاني: فمنها أن تكون شَرْطِيّة كأدوات الشّرط. ومنها أن تكون للتمنّي أو الترجّي وهذه لا تحتاج إلى جواب كما تحتاج الأدوات الشرطيّة إلى جواب. ومنها أنْ تكُونَ للعَرْضِ وهذه أيضاً لاَ تحتاج إلَىٰ جواب.

● أمّا الذين رَأوْا من المفسّرين أنّها شَرْطِيَّةٌ في هذه فقالوا: إنّ جواب الشرط محذوف، وله نظائر في القرآن المجيد، والتقدير عندهم: لَوْتَعْلَمُونَ الأَمْرَ الذي أنتم صائرون إليه عِلْمَ اليقين، لَمَا أَلْهَاكُمُ التكاثُر، ولسَعَيْتُم لآخِرَتكم سَعْياً يُحَقّق لكم النجاة من عذاب الجحيم، والظَّفَرَ بجنّاتِ النّعيم.

● ويصْلُحُ في هذه الآية اعتبار «لو» للعَرْضِ الذي هو دعوةٌ إلى أمْرٍ ما برفق، وهذه لا تحتاج إلى جواب، ويكون المعنىٰ نَعْرِضُ عليكم أَنْ تَعْلَمُوا عِلْمَ اليقين، بما لديكم من أدلّة على يوم الدين، حتّى تَعْمَلُوا الصَّالِحَات لآخِرَتِكُم، ولا يُلْهِيَكُمُ التكاثُر مِمّا لا خَيْرَ لَكُمْ فيه، وفي العبارة مع العَرْض إشعارٌ بالرغبة، أي: نرغب في أن تعلموا علم اليقين.

● أمّا معنى التّمنّي فلا يليق بجلال الرَّبّ تبارك وتعالى. ولكنْ قد يُراد بأداة «لو» التَّرَجّي، وهو طلب أمْرٍ مرغُوبٍ فيه، وهذا المعنى مقبولٌ، لأنّ الله جلّ جلاله يَرْضى لعباده الإيمان، ولا يرضى لهم الكفر، فهو يطلب من عباده الكافرين أن يكونوا مؤمنين بيوم الدِّين، لأنّ إيمانهم ممّا رَضِيَه الله لهم، فهو يَرْغب فيه، ويأمُرهم به، ولا يُجْبِرُهم ولا يُكْرِهِهم، بل يُكَلّفهم أن يكون إيمانهم عن طريق اختيارهم الحرّ.

﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾: مفعولٌ مطلق لبيان نوع العلم. **اليقين**: مضافٌ إليه.

واليَقِينُ: هو العِلْمُ الذي لا شَكَّ فيه، وأدنى مراتبه ما اعتمد على أدلّة نظريَّة أو خَبَرِيّة صادقة. **والعِلْم**: يُطْلق على ما هو يقين وعلى ما هو دون اليقين، كالعلم المبنيّ على دليلٍ ظَنّي.

● **قول الله عزّ وجلّ**: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾﴾:

﴿لَتَرَوُنَّ﴾: اللاّم واقعة في جواب قَسَمٍ مُقَدَّر، والنُّونُ في آخر الفعل هي نون التوكيد الثقيلة، وهذا التوكيد واجب، لأنّ الفعل جاء مُثْبتاً

مستقبلاً، جواباً لقَسَمٍ غير مفصول عن لامه تقديراً. والرُّؤيةُ المرادة هنا الرؤيَة البصرية.

﴿ٱلْجَحِيمَ﴾: اسم من أسماء دار العذاب يوم الدين، وكلُّ نارٍ عظيمة في مَهْواةٍ يقال لها في اللّغة جحيم.

والمراد برؤيَةِ الكافرين الجحيمَ في هذه الآية، ما يُعْرَضُ عليهم من مقاعدهم بعد الموت، وفي مدّة البرزخ، في الجحيم التي سيدخلونها يوم الدين بعد البعث والحشر والحساب وفصل القضاء، وهذه الرؤية تفيدهم عِلْمَ اليقين.

● **قول الله عز وجلّ: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾:**

جاء العطف في هذه الآية بحرف «ثُمَّ» للدلالة على أنّ هذه الرؤية سوف تكون في زمان متأخر بفاصل طويل عن الرؤية التي دلّ عليها قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ وهذه الرؤية المتأخرة سوْفَ تكون في موقف الحشر، حينما يُحْشَرُ الكافرون إلى جهة الجحيم وعلَىٰ مَقْرُبة منها، حيث يشهدونها شُهُودَ مُعَاينة، وتمتاز هذه الرؤية بأنّها تفيدهم العِلْمَ من مرتبة «عَيْنِ اليقين» إذْ هو عِلْمٌ قائمٌ على الشهود والمعاينة، وتحليل ﴿لَتَرَوُنَّهَا﴾ نظير ما سبق في: ﴿لَتَرَوُنَّ﴾.

والخطاب ما زال موجّهاً للكافرين بيوم الدِّين والكافرين بعذاب الجحيم، تكذيباً لأخبار الأنبياء والمرسلين، المبَلِّغين عن ربّ العالمين.

● **قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾:**

يَدُلُّ حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ على أنَّ السُّؤالَ الّذي تضمّنّة ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ يكون متأخراً بفاصل زمنيٍّ طويلٍ نِسْبيًّا عن رُؤيَتِهِمُ الجحيمَ رؤيةً مِنْ مَرْتَبَةِ «عَيْنِ اليقين» وتحليل ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ نظير تحليل: ﴿لَتَرَوُنَّ﴾.

والمتدبّر الحصِيفُ يُدْرِكُ أنَّهم يُسْأَلُونَ عَنِ النعيم، وهُمْ في باطن الْجَحِيم يُعَذَّبُون، إذ الخطابُ ما زال مُوَجَّهاً للكافرين المكذبين بيوم الدِّين.

إنّ سُؤال أصحاب الجحيم وهم في باطِنِها، عن النعيم الذي يَتَنعَّمُ به أصحابُ الجنَّة وهم فيها، إنَّمَا هُوَ سُؤَالُ تَحْسِيرٍ وتنديم على ما كانوا به في دنياهم يُكَذِّبونَ، فإذا سُئلوا عن النّعِيم ازدَادُوا حَسْرَةً ونَدَامَةً وألَماً، علَىٰ ما فَاتَهُم من السَّعَادة بِسَبَبِ كُفْرِهم وتكذيبهم، وسُلُوكهم سُبُلَ المجرمين.

وبقليلٍ من التأمُّل نُدْرِكُ أنّ سُؤالَهُمْ يكُون على نحو ما يلي:

أليس نعِيمُ الْجَنَّةِ حقًّا، بَعْدَ أنْ وَجَدتُّم أنّ عَذَابَ الجحيم حقٌّ فيقولون: بلَىٰ، وبذلك يزدَادُون حَسْرَةً وندامةً وألَماً.

وجاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بيان أنّ أصْحَابَ الجنّة يسْأَلُون أصحابَ النار في موقف الحشر، قبل أنْ ينصرف أهل الجنّة إلى الجنة، وأهلُ النار إلى النار، فيقولون لهم: قَدْ وجدْنا مَا وَعَدنا رَبُّنَا حقًّا، فَهَلْ وَجدتُّم ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حقًّا، فيقول الكافرون أصحاب النار: نعم. ويكون هذا السؤال تبْكيتاً لهم وزيادةً في حسرتهم وندامتهم. قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

وأكّدَ عِندِي هذا الفهم لقول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ أنَّ كلَّ ما جاء في القرآن المجيد من النعيم فالمراد به نعيم الجنَّة، مثل: [جنَّات النعيم ـ نعيم مقيم ـ جنَّة النعيم ـ في جنَّاتٍ ونعيم ـ إنّ الأبْرار لفي نعيم ـ تَعْرِفُ في وجوههم نَضْرَة النَّعِيم ـ جنّة نعيم ـ وإذَا رأيْتَ ثَمّ رَأيْتَ نَعِيماً ومُلْكاً كبيراً].

أمّا لذّاتُ الدّنْيَا وكلُّ ما فيها من زينة فقد جاء التعبير عنها في القرآن

المجيد بأنَّهَا مَتَاعٌ واستمتاع أو تَمَتُّع، ولم يأت التعبير عنها بلفظة «النعيم» أو بلفظة «نعيم».

والمتاعُ والاستمتاع والتمتُّع في اللّغة هو ما يُنْتَفَعُ به مُدّةً من الزّمن، ثمّ يَفْنَىٰ ولا يكون له بقاء.

أمّا النّعيمُ فهو مقيم متَجَدِّدٌ باقٍ خالدٌ يَوْمَ الدين، في جنّات النّعيم.

وبسبب ترك هذا الاستقراء لآيات القرآن، وتَرْكِ النظر في وحدة موضوع السورة، وترابط آياتها حول موضوعها توجّهَتْ أنظار معظم المفسرين إلى أن المراد بالنعيم في الآية لذّاتُ ومنافعُ الحياة الدّنيا، وعُذْرُهم أنّ أحاديث مَرْوِيّةً عن الرسول ﷺ لم تَبْلُغْ مبلغ الصحّة جاء فيها أنّ الناس يُسْأَلُونَ يَوْمَ الدّين عن كلّ نِعْمَةٍ أنْعَمَ اللَّهُ بها عليهم في الحياة الدنيا، إلاّ أنّ شيئاً منها لم يُحَدِّدْ أنّ المراد بالنّعيم في الآية الثامنة من سورة «التكاثر» هو لذّاتُ الحياة الدنيا، وقد توسَّع الرُّواة في استعمال لفظ «النعيم» فحملوه على متاع الحياة الدنيا.

علىٰ أنّ متاعات الحياة الدنيا إنَّمَا يُسْألُ عنها في موقف الحساب، وما دلّت عليه الآية هو ما بعد موقف الحساب.

قال الحسن: لا يُسْأَلُ عن النعيم إلاّ أَهْلُ النار.

ترابط درسي السورة:

إن توجيه التثريب والتلويم للمخاطبين بقول الله عزّ وجلّ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ يستثير سؤالاً في النفوس، وهو: فما العلاج للتخلّص من هذا الداء؟، وكيف تَصِحُّ مسيرة الإنسان في حياته الدنيا، حتّىٰ يُلْجِم دافعه إلى التكاثر من زهرة الحياة الدنيا، وحتّىٰ لا يُلْهِيَهُ التكاثر عن العمل لتحقيق سعادته الأبديّة الخالدة؟.

وقد جاء في الدرس الثاني ما يتضمّن بيان العلاج بأسلوب غير مباشر، ومنه نستفيد الجواب.

إنّ تصحيح مسيرة الإنسان في حياته ينبغي أن يبدأ بأن يعْلَم عِلْمَ اليقين الغاية من رحلة الحياة الدنيا، والمصير الذي هو صائر إليه بعدها، وأن يقتنع بذلك اقتناعاً تامًّا، وأن يؤمن به إيماناً صحيحاً راسخاً قويًّا، حاضراً على الدوام غير غائب، باعثاً على تقويم السلوك وتصحيح المسيرة بقوّة، وشدِّ لجام المطامع في متاع الحياة الدنيا وزينتها، وتنبيه النَّفْسِ عند غفلاتها.

فجاء الدرس الثاني من السورة مُبَيِّناً أنَّ علم الناس بالدار الآخرة وما فيها من عذاب في الجحيم، ونعيم خالد في جنّات النعيم، سيتحقق في واقع لا يستطيعون ردّه ولا تغيير أي شيءٍ فيه، ويكون تحقُّقُ هذا العلم على مراحل، عند الموت وعَقِبهُ في مدّة البرزخ، ثُمّ عند البعث والحشر والحساب وفَصْل الحكم بالجزاء، ثم عند تنفيذ الجزاء، وكلُّ عِلْمٍ يتحقَّقُ لاحقاً هو أقوى وأشدّ من سابقه.

واقتضى توجيهُ التثريب والتلويم في الدرس الأول تكرير الرَّدْعِ والزجْر بكلمة «كلاّ» ثلاث مرّات في الدرس الثاني منها.

● فجاء الإعلام الضمني بأنّ هذا العلم المطلوب سيتحقَّق في أدوات الإدراك لديهم في قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾.

● وجاء الإعلام الضمنيّ بأن «عِلْمَ الْيَقِين» سيتحقّق لديهم، في قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ أي: نرْغب لسعادتكم في أن تعلموا عِلْمَ اليقين بأنّ عذاب النار حقّ.

● وجاء الإعلام الصريح بأن «عِلْمَ عَيْنِ الْيَقِينِ» سيتحقَّقُ لديهم في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾.

● وجاءت الإشارة إلى أن «عِلْمَ حَقِّ الْيَقِينِ» سيتحقَّقُ لديهم في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ أي: وأنتم في دَارِ العذاب تذوقون بكلّ أحَاسِيسكم آلامَهَا.

وتم بحمد الله تدبّر سورة التكاثر



(٦)
ملحق
حول بلاغيات في السورة

في سورة التكاثر اختيارات بلاغيَّةٌ تثير الإعجاب، منها اللّطائف التالية:

الأولى:

الكناية عن البعث، بالتَّعْبير عن الْفَاصل بين الموت والبعث للحياة الأخرى، بأنَّهُ زيارةٌ للقبور، ولَيْس إقامة دائمة.

الثانية:

استعمال حرف «لَوْ» بمعنى الرَّغْبَة والرضَىٰ، وهي عنْد عُلَماءِ العربية بمعنى التمنّي والتَّرجّي، وهٰذان لا يَلِيقان بمقام اللّٰهِ عزّ وجلّ.

الثالثة:

تأكيدُ تَحقُّقِ عِلْم الْيَقِين، وعِلْم عَيْنِ اليقين، وعِلْمِ حَقِّ اليقين، مستقبلاً، بمؤكّدَاتٍ مُتَعَدِّدَة، اللاّم الواقعة في جواب قسم محذوف، نون التوكيد الثقيلة.

الرابعة:

الدّقّة في استعمال الكلمات لتأدية المعاني المرادة «زُرْتُمْ ـ سَوْف ـ ثُمَّ ـ لَوْ ـ عيْن اليقين ـ النعيم».

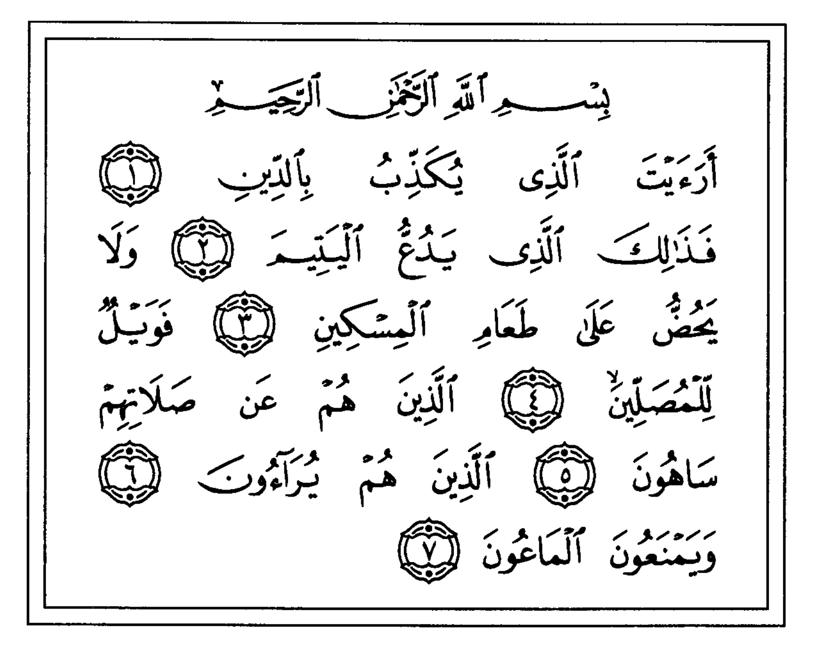


سُورَةُ الماعُون

١٠٧ مصحف ١٧ نزول



(١)
نص السورة
سورة الماعون


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
أَرَءَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)

(٢)
موضوع السورة

تبيّن سورة «الماعون» بعض الظواهر السلوكيّة القبيحة الّتي يتّصف بها الّذين يُكَذِّبُونَ بقانون الجزاء الرّبّاني العاجل منه والآجل، وهُمُ الكفّارُ حتماً، وظلال معاني هذه السورة تتناول بعض المؤمنين الّذين يَغِيبُ عن تصوُّرهم الجزاء الرّبّاني المعجّلُ في الدنيا، والمؤجّل إلى الآخرة.

وقد جاء في السورة اختيار أقبح الظواهر السلوكيّة الاجتماعيّة للّذين يُكَذِّبون بالدّين، أي: بالجزاء الرَّبّانيّ، وهي:

(١) دَعُّ اليتيم، أي: دفْعُهُ دَفْعاً عنيفاً، وقهْرُه وإذْلاَله، إذْ هو من الضعفاء الّذِين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، ولا يقْوَوْنَ على المطالبة بحقوقهم وأخذها، ويَشْعُرون دواماً بإنكسارهم وذُلِّهم.

(٢) قَسْوَةُ الْقَلْب تُجاهَ المسكين، وهو الفقير الذي يَبْدُو من حاله ما يدُلُّ على شدّة فقره، وأنّه جائع شديد الحاجة إلى الطعام، فالمكذّب بالدِّين الّذي لا يؤمن به تَشِحُّ نفسه عن إطعام المسكين، ولا تنْدَىٰ بكلمة طيّبة في الحضّ على إطعامه.

(٣) مُرَاءاةُ النّاس ببعض الظواهر الدينيّة الّتي لا تُكلّفُهم بذْلَ مالٍ، كصَلاةٍ يخادعون بها الناس لتحصيلِ منافع دنيويّة.

(٤) منع إعارة الماعون (وهو اسم جامع لأَدَوات البيت كالقِدْرِ والفأس والقَصْعةِ والرَّحا ونحوها) مع أنّه لا خسارة في إعارتها، إلاّ أنّ التكذيب بالدِّين يزيد في شُحّ النفوس، وجفاف عواطفها الاجتماعية.



(٣)
سوابق الحديث عن الجزاء الرّباني في نجوم التنزيل

نجد في القرآن المجيد عناية عظيمة جدًّا ببيان قانون الجزاء الربّاني للموضوعين موضع الامتحان في الحياة الدنيا، ما كان منه معجّلاً في الحياة الدنيا، وما كان منه مؤجّلاً إلى يوم الدين، وتأكيد الإعلام به، بأساليب مختلفة، وصُورٍ متعدّدة، والتذكير به، والتحذير منه، وبيان آثار عدم إيمان الناس به في سلوكهم، وكَوْنِه مظهراً من مظاهر حكمة الله في كونه، ومظاهر عدله وفضله.

فالإيمان بقانون الجزاء الرَّبّانيّ هو المحرِّضُ الأعظم، والدافعُ الأَقْوَىٰ في النفوس لالتزام صراط الله المستقيم، صراط الحقّ والخير والفضيلة والجمال والكمال، والملْجِمُ الأقوىٰ والأشدّ للكَفِّ عن الظلم والعدوان، والبغْيِ والإثم والطغيان، ومعصية الله ورسوله بِتَرْكِ ما أَمَرَا به، وفعل ما نَهَيَا عنه.

ولدى تتبع ما نزل قبل سورة (الماعون) الّتي تدور حول بيان بعض آثار التكذيب بالدّين في سلوك الناس، نجد بدء الحديث ومتابعته حول موضوع الجزاء الرّبّاني في السّور التالية:

(١) في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول).

(٢) وفي سورة (المزمّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول).

(٣) وفي سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول).

(٤) وفي سورة (المسد/ ١١١ مصحف/ ٦ نزول).

(٥) وفي سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول).

(٦) وفي سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول).

(٧) وفي سورة (اللّيل/ ٩٢ مصحف/ ٩ نزول).

(٨) وفي سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول).

(٩) وفي سورة (الضحى/ ٩٣ مصحف/ ١١ نزول).

(١٠) وفي سورة (العاديات/ ١٠٠ مصحف/ ١٤ نزول).

(١١) وفي سورة (التكاثر/ ١٠٢ مصحف/ ١٦ نزول).

هذه العناية بقانون الجزاء الرّبّاني (= الدين) وأعظمه ما ادَّخَره الله إلى يوم الدين، في الآخرة دار الحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء، يَدُلُّ على الأهميّة البالغة لركن الإيمان باليوم الآخر من أركان الإيمان السّتّة، وأنّه المحرّض والرادع الأكبر في حياة الإنسان المكلّف المدرك، لالتزام سلوك صراط الله المستقيم، واجتناب سلوك سُبُل الضلالة.

ولهذا نجد كثيراً من النصوص القرآنية قد اقترن فيها ذكر الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر.



(٤)
التدبّر التحليلي لآيات سورة (الماعون)

● **قول الله عزّ وجلّ:** ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾:

﴿أَرَءَيْتَ﴾: الخطابُ مُوجَّهٌ لكلِّ مؤهَّل لأنْ يرَىٰ. وفيه استفهامٌ تعجيبي من حالِ المكذّبِ بأخبار قانون الجزاء الرّبّاني. والمراد بالرؤية الرؤية البصريّة. وقد يكون المراد بالاستفهام هنا الإعلام ببعض صفات المكذب بالدين والتنبيه عليها، أي: انظر تَرَ من صفاته كذا وكذا.

﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾: **الدّين**: المراد به هنا الجزاء الرّبّاني، ولا سيما ما يكون في الآخرة، والّذي يكذّب بالدّين اسم جنس يَعُمُّ كلَّ المكذبين.

والتكذِيبُ به هو تكْذِيبُ الرَّسُولِ بما أخبر به من أنباء الجزاء الرّبّاني، وتكذِيبُ ما جاء في القرآن من ذلك.

والمعنى: تعجَّبْ أيّها الرائي المؤهَّلُ لأنْ يَرَىٰ ويتفكر من حال المكذِّب بأخبار قانون الجزاء الرَّبّاني المعَجل منه في الدنيا، والمؤجَّل إلى يوم الدين. أو انظر تَرَ من صفات الذي يكذب بالدين أنه يدُعُّ اليتيم، ولا يحضّ على إطعام المسكين.

● **قول الله عزّ وجلّ:** ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾:

﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾: أيْ: يَدْفَعُه دَفْعاً عَنِيفاً بجفَاء وغلْظَة.

الْيَتِيم: الصغير الذي مات أبوه من الناس، ويَظَلُّ يتيماً حتَّىٰ يبلُغَ الحُلُم.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ﴾: أي: ولا يحُثُّ على، يقالُ لغة: حضَّ يحُضُّ حَضًّا. والحضّ على الأمْر: هو الحثّ عليه وطَلَبُهُ بِشدَّةٍ وإلحاح. وتحاضَّ الرجلان على أمْرٍ إذا حضَّ كلٌّ منهما صاحبه عليه.

﴿طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾: أي: إطْعَام المسكين، **طعام**: اسْم مصدر، إذ المصدر هو «إطعام» تقول لغة: أطْعَمْتُ الجائِعَ أُطْعِمُهُ إطْعاماً. وإنّما كان «طعام» اسماً للمصدر، لأنَّ حروفه نقصَتْ عن حروف فعْلِه، كما يقولُ عُلَماءُ العربيَّة.

وجاء اختيار اسم المصدر بدل المصدر إيجازاً في اللّفظ، وربَّما كان لحكْمةٍ أخرى تتصّل بحروف القرآن وأعدادها، والله أعلم.

المسكين: هو من يظهر الفقر، ولو لم يكُنْ في واقع حاله الخفيّ فقيراً، وأمّا الفقير فهو من كان في واقع حاله فقيراً، ولو لم يَكُنْ يُظْهِرُ فَقْرَه وحاجته[1].

والمراد بالمسكين هنا في الآية من كان في واقع حاله فقيراً، مع مسكنته الظاهرة، فهو مسكين صادقٌ في مسكنته الدالّة على فَقْره.

وجاء استعمال اسم الإشارة الخاصّ بالمشارِ إليه البعيد في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ﴾ للدلالة على أنّ الذي يكَذِبُ بالدّين قانون الجزاء الرّبّاني، بعيدٌ جدًّا عن رحْمَةِ اللّهِ الّتي وسِعَتْ كلَّ شيءٍ يَسْتَحِقُّ أنْ تشْملَهُ، إذْ قد أَخْرَج نفسه بتكذيبه وكُفْرِه أو حَجَبَها عن أَنْ تشملَهُ.

---

(١) هذا ما انتهيت إليه في التفريق بين الفقير والمسكين، انظر القاعدة (١٦) من كتابي «قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ».

وقد دلّت هاتان الآيتان على أنّ من الأمراض النفسية الخبيثة للتكذيب والكفر بقانون الجزاء الرَّباني، جفافَ عاطِفَةِ الرحمة في نفس المكذّب الكافر.

ومن الظواهر السلوكيّة لهذا الداء دعُّ اليتيم بدفعه دفعاً عنيفاً بشدّة وغلظة، إذْ هو من أضعف الضعفاء في المجتمع الْبَشَرِي، فماله من يدافع عنه ويَحْمِيه ويحفظ حقوقه.

ومن الظواهر السلوكية لهذا الداء أيضاً عدَمُ الحضّ على إطعام المسكين، ذي الحاجة التي أفضت به إلىٰ الجوع.

وهاتان الظاهرتان في السُّلوك تَدُلاَّن على أمثالهما، وتدلاّن من باب أولى على ظواهر سلوكيّة قبيحة أخرى.

إنّ مَنْ يُكَذّب بالدّين (= قانون الجزاء الرَّباني) وباليوم الذي أعدَّه الله عَزَّ وجلّ لتحقيق الجزاء الأمثل، تَمُوتُ الرحمة في قلبه، إذْ هو لا يَرْقُبُ حساباً ولا عذاباً ولا ثواباً، فتُنْزَعُ من قلبه الخشية من العقاب، ويُنْزَعُ من قلْبه الطَّمَع بالثواب، فتنْمُوا في نفسه الأنانيّة الضيِّقَة المسرفَةُ المقيتة، حتَّىٰ تَقْطَعَهُ عن النظر إلى الآخرين، وعن الشعور بمشاعرهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ قال:

«لاَ تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إلاَّ مِنْ شَقِيٍّ». [حديث حسن رواه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم وابن حبان].

ومن أشنع مظاهر مَوْتِ الرحمة وانتزاعها من قلْب الإنسان، أنْ يكون ظَلاَّماً للضعفاء الذين لا يَجِدون حيلةً يُدافعُونَ بها عَنْ أنفسهم.

وأضعف الضعفاء في أفراد المجتمع من كان صغيراً يَتِيماً، إذْ هو ضعيفٌ لا حيلَةَ له، وليْس له نصير يدافع عنه ويَحْنو عليه.

والمكذّب بالدّين لا يقتَصِرُ على أَنْ يأْكُلَ مَالَ اليتيم، بَلْ يُغْلِظُ عليه ويعنُفُ ويشتَدّ، فإذا أقبل عليه لأمْرٍ ما، أو سأله من حقّه، لم يَرُدَّهُ بلُطْفٍ ورِفْقٍ ورَحْمَةٍ، بلْ يَدُعُّهُ دعًّا، ويطْرُدُهُ ويُهينُه، ويَقْهَرُهُ ويظْلِمُه، ولا يعطيه مع ذلك حقَّه الذي هو لَهُ من ميراثه.

ومن أشنع مظاهر موْتِ الرحمة وانتزاعها من قَلْب الإنْسان، أنْ تكِزَّ نفْسُهُ شُحًّا، فلا ينْفَع بنافعةٍ ذا حاجَةٍ أو صاحِبَ ضرورة، لاَ من نَفْسِه، ولا بكَلِمة حضٍّ لغيرِه على نَفْعِه، وأشْنَعُ هذا الأشْنَع أَنْ لا يُطْعِم الجائع المسكين، ولا يَحُضَّ غيْرَهُ علىٰ إطعامه، فهو في أَحَطِّ دركاتِ الشُّحِ إذْ لا يبْذُلُ من نَفْسِه، ولاَ يُحضُّ غيْرَهُ على بذل ما يجب عليه بذلُه.

لقد فَقدَ الرَّحمةَ وظِلاَلَها وآثارَها في قلْبِه ونفْسِهِ، بسَبَبِ كُفْرِه بقانون الجزاء الرَّبَّاني العاجل منه والآجل.

● قــول الله عــزّ وجــلّ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

تتابعُ السّورَةُ الحديثَ عن المشركين المكذبين بالدّين، وبيوم الحسَاب، وفصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، عند ربّ العالمين، ولمّا كان المراد بالذي يكذّب بالدين كلَّ من يتصف بهذه الصفة كان من المناسب ذكرهم هنا بالجمع.

﴿فَوَيْلٌ﴾: الفاء حرف عطفٍ يفيد الترتيب مع التعقيب.

وَيْلٌ: كلمة عذَاب، وفيها معنىٰ الوعيد بحلول عقاب اللّهِ الشديد، وورَدَ أنّ كلمة «وَيْل» اسم علَمٌ على وادٍ في جهنم.

وَيْلٌ: مبتدأ، والمجرور بعدها باللام الخبر، وسوّغ الابتداء بها لأنّها تحمل وصفاً مقدّراً، أي: عذابٌ شديد، وإذا كانت اسماً لوادٍ في جهنم فهي مَعْرِفةٌ بالعلميّة.

والمعنى: فيترَتَّبُ علىٰ المكذبين بقانون الجزاء الرَّبَّاني عَذَابٌ شديد في وادي «ويل» في جهنم.

واختير في السورة وصْفُهم بالمصَلِّينَ، بدَلَ الكناية عنهم بالضمير، وكان الظاهر يقتضي أن يقال: فويلٌ لهم، ولكن عُدِلَ عن هذا لبيان بعض أعمالهم ذواتِ المظهر الدينيّ الموروث عن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، الّتي يَعْمَلُونَها رِئَاءَ النّاس، كالصَّلَاةِ على ما وَرِثُوا من دين إسماعيل الّتي خلطوا بها شِرْكيّاتِهم، وأعمالَهُم الجاهليّة الكثيرة، وكالطواف حول البيت، والسَّعْي بين الصفا والمروة، والحجّ في موسمه، وكالْعُمْرة.

وقد كان القرشيُّون يقولون: نَحْنُ أهْلُ الحجيج، وأهْلُ السِّدَانَة، وأهْلُ السِّقاية، ويفتخرون بهذه الأعمال من العبادات على سائر العرب.

فإذا وَرَدَ سُؤَالٌ: كيْفَ يُؤَدّي المشركون الذين يُكَذِّبُونَ بالدّين، وهم على شركهم وتكذيبهم، عباداتٍ كالصَّلاة بركوعٍ وسُجُودٍ على ما وَرِثُوا من دينِ إسْمَاعيل؟

والجواب: إنّهم يُراءُونَ بها النّاس، للمحافظة على مكانتهم المتميّزة بَيْن العرب، إذ هم أهل الحرم، وسدَنَة بيت الله فيه، والقائمون بوظائفهم الدينيّة على ما ورثوا من إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقيامهم بها يُعْطِيهم أمجاداً دنيويّة ومنافع.

لكنَّهم سَاهُونَ عمَّا تَقْتَضِيه عبادَةُ الله جلّ جلاله، من الإيمان بحكمته وعَدْلِه، وما يلزم عنهما من إقامة حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا، للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

واقتضى الإبداع البياني التنويع في الأسلوب، ليكون للقرآن المجيد تميُّزُهُ المعجز، إذْ لم يأت بأسلوب، وإنَّهُ قد يُصَلِّي على مواريثه الدّينيَّة، إلاّ أنَّه يُرَائي الناسَ بصَلَاتِهِ فويلٌ له. بل جاء التعبيرُ شاملاً كلَّ المشركين المكذبين بالدّين،

الذين قد يُصَلُّون ويعملون أعمالاً هي من مظاهر دين الله الموروث لديهم، إلاّ أنهم يراءُون بها، ويخلطون شرْكيّاتهم بها، وابتدأتِ الْجملَةُ بإثبات العذابِ الشديد لهم في وادي ويل، أحَدِ وِدْيَان جهنَّمَ، لبيان استحقاقهم هذا العذاب ولو كانوا من المصلِّين على مَوْرُوثٍ من دين صحيح.

﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾: أي: عمّا تَقْتضيه منهم صلاتُهُمْ غافلون تاركون، وهو الإيمان الصحيح، والأعمال الصالحات ابتغاء مرضاة الله.

يقال لُغَةً: **سَهَا عَنِ الشيْءِ، وسَهَا فيه**: أي غَفَلَ فترَكَ.

وقيل: **سَهَا فيه**: إذا تركه عن غير عِلْم. **وسَهَا عَنْهُ**: إذا تَرَكَهُ عن علم.

ويمكن ربْطُ بَيَانِ سَهْوِهم في هذه السُّورة، بقول الله عزّ وجلّ في سورة (التكاثر) السابقة لها في النزول خطاباً لهم: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ أي: حُبُّ الدنيا ورَغْبَة التكاثر منها، قد ألهاكم طَوال حياتِكُمْ، فغفلْتُهم وسَهَوْتُمْ عمّا تقتضيه منكم صلاتكم الّتي ورثْتُمْ أداءَها عن دينٍ صحيح، جاءَ به إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

● ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾: أي: يُرُونَ من أنفسهم أنّهم يتَّصِفُون بالقيام بالأعمال الصالحة، كالصلاة والحجّ والعمرة والسّقاية ونحوها، وغرضهم منها مصالح ومنافع دنيويَّة لدى الناس.

يقالُ لغة: رَاءَى الرجّلُ يُرَائي مراءاةً، ورِءَاءً، ورِيَاءً، أي: أرَىٰ من نفسه أنّه متصف بالخير والصلاح، على خلاف ما هو عليه في واقع الأَمْر.

وقد دَلَّ النّصُّ على أنّهم لا يَنْتَفِعُون عند الله من أعمالهم الصالحة، الّتي يُرَاءُونَ النّاسَ بها، لأنّها لم تقترِنْ بإيمان صَحِيحٍ، ولم يُبْتَغَ بها وَجْهُ اللّهِ عزّ وجلّ، بل يَكُونُ لهم عند الله ويْلٌ، عذابٌ شديدٌ في وادي ويْلٍ بجهنَّم يوْمَ الدِّين.

﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ۝٧﴾: **الماعون**: اسم جامع لأدوات المنزل، كالقدر، والفأس، والقصعة، والرحا، ونحوها.

ولفظ الماعون يُطْلَقُ في الجاهليّة على المنفعة والعطيّة، وكُلِّ ما يُنْتَفَعُ به، مما يأتي عفواً، ويُطْلَقُ على أمتعة البيت، فالماعون: كلُّ معُونة ومنفعة وعطية لا تكلّف باذلها إلاّ يسيراً، وهي عند الناس تكون عفواً من غير تكلُّف ولا منّة.

ورُوِي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: **الماعون**: الزكاة.

أي: والمكَذِبُونَ بقانون الجزاء الرَّبَّانيّ يَمْنَعُون إعارة الماعون، ويمْنَعُونَ بَذْل المعونات اليسيرات، الّتي لا يَغْبأ الناسُ بمقاديرِ قِيَمِهَا وأثمانِها، عن ذوي الحاجات لها من جيرانهم ومعارفهم، ولا يَخْجَلُون مِنْ مَنْعِها، ويفعلون هذا إضافَةً إلى كونهم يدُعُّونَ اليتامَىٰ، ولا يَحُضُّون على إطعام المساكين الفقراء الجائعين.

ودَلَّ تأخير بيان صفَةِ مَنْعِهم للماعون إلى آخر آية في السورة، للإشعار بأنّ المراد بالمصلِّين السّاهين عن صلاتهم هم المكذّبون بالدِّين أنفسهم، وهم الكفرة المشركون، وأنَّ صلواتهم وعباداتهم إنّما هي تقاليد وعادات يفعلونها محافظةً على بعض مواريثهم من دين إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، كمناسك الحجّ الّتي يُؤدُّونها على جاهلياتهم وشِرْكيّاتهم ووثنياتهم.

ويُقاسُ على هذه الصفات الّتي ذكرتها السورة أشباهها من قبائح السلوك.

وسورة «الماعون» تتّسِقُ بمضامينها مع المرحلة الأولى من مراحل التنزيل الّتي نزلت فيها، فالاهتمام فيها مُنْصَبٌّ على أُسُس العقيدة، وأركان الإيمان، وفضائل الأخلاق، ومحاسِنِ التعامل الاجتماعي الكريم.

وإذا كانت هذه السُّورَةُ تكشف بعض صفات المكذّبين بقانون الجزاء الرَّبّاني، فإنَّ قَدْراً ما من مضامينها يُلْقِي ظلالَهُ على المرائين من المؤمنين، الذين يَعْمَلُون ظواهر أعمالهم الصالحات ابتغاء الدنيا، لا ابتغاء ثوابِ الله ورضوانِه، ولاَ رَجاءَ ظَفَرهم بالنعيم المقيم الخالد، في جنّاتِ النعيم يوم الدّين.

(٥)
بلاغيات في السورة

● جاء استعمال الفعل المضارع في «يُكذِّبُ ـ يَدُعُّ ـ ولا يحُضُّ ـ يُراءُونَ ـ يَمْنَعُونَ» على أنّ الْمَعْنِيِّن في السورة يُجَدِّدُون دواماً ممارساتهم في التكذيب، والدَّعّ، وعدم الحض، والمراءاة، والمنع، لأنّ صيغة الفعل المضارع تدُلُّ على التكرار والتجدّد كما ذكر علماء المعاني.

وأرى أنّ اسم الفاعل نظيرُ الفعل المضارع في هذه الدلالة.

وانتهىٰ تدبر سورة «الماعون» بفضل الله وتوفيقه ومعونته وله الحمد والمنة





سورة الكافرون

١٠٩ مصحف ١٨ نزول

(١)
نص السُّورة وفرشيات القراءات فيها
سورة الكافرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

٦ - ● قرأ نافع، وهِشَامٌ، وحفص، والْبَزّي في أحَدِ الوجهين عنه، [وَلِيَ] بفتح ياء المتكلّم.

● وقرأ يعقوب بإسكانها في الوصل والوقف، مع إضافة ياء المتكلم لكلمة «دين» فتكون قراءته: [وَلِيْ دِينِي].

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَلِيْ دِينِ] بإسكانِ ياء المتكلم في «لِي».

(٢)
ممّا ورد في سبب نزول السورة

(١) أخرج ابن جرير وابْنُ أبي حاتم والطبراني عن ابن عباس:

«أنّ قريشاً دَعَتْ رسُول الله ﷺ إلى أن يُعْطُوهُ مالاً فيكون أغْنَىٰ رجُلٍ بمكّة، ويُزَوّجُوهُ ما أراد من النساء، فقالوا: هٰذَا لك يا مُحمّد، وكُفَّ عن

شَتْمِ آلِهَتِنا ولا تذكُرْها بسُوءٍ، فإنْ لم تَفعلْ فإنَّا نَعْرِضُ علَيْك خَصْلَةً واحدةً، ولَكَ فيها صَلاحٌ.

قال: ومَا هي؟

قالوا: تَعْبُدُ آلِهَتِنا سَنَةَ اللاَّتَ والْعُزَّىٰ، ونعْبُدُ إلَهكَ سَنَةً.

قال: حَتَّىٰ أَنْظُرَ مَا يأْتِينِي مِنْ رَبّي.

فجاء الوحي من عند الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ ...﴾ إلى آخر السّورة.

وأنزل اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾. (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول).

ليَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ: أي: ليَبْطُلَنَّ عَمَلُكَ الصَّالح الذي عَمِلْتَه. يقالُ لغة: حَبِطَ الْعَمَلُ، إذَا بَطَلَ.

هذه الآيات من سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) فيظْهَرُ أنّ المشركين ظلُّوا يُتَابعونَ عرضهم، ولم يكتفوا بما نزل في سورة (الكافرون) فأنزل الله على رسوله هذه الآيات من سورة (الزمر).

(٢) وأخرج ابن جرير بسنَدِه عن محمّد بن إسحاق، قال: حدّثني سعيد بْنِ مينا مولَىٰ البَخْتَرِيّ وَكذلك ابن أبي حاتم وابن الأنباري عن سعيد بن مينا مولى البختري أيضاً، قال:

«لَقِيَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَة، والعاصُ بْنُ وائل، وَالأَسْوَدُ بْنُ المطّلِب، وأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، رسول الله ﷺ فقالوا:

يَا مُحَمَّدُ، هَلُمَّ فَلْنَعْبُدْ مَا تَعْبُدُ، وتَعْبُدْ مَا نَعْبُدُ، ونُشْرِكَكَ في أَمْرِنَا كُلِّه،

فإنْ كَانَ الَّذِي جِئْتَ بِهِ خَيْراً مِمَّا بأيْدِينا، كَنَّا قَدْ شَرِكْنَاكَ فيه، وأخَذْنَا بِحَظِّنَا مِنْهُ، وَإنْ كَانَ الَّذِي بأيْدِينَا خَيْراً مِمَّا في يَدَيْكَ، كُنْتَ قَدْ شَرِكْتَنَا فِي أَمْرِنَا، وأخَذْتَ مِنْهُ بِحَظِّكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ حتَّىٰ انقضت السورة».

(٣) وأخْرَج عبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وابْنُ المنْذِر وابْنُ مَرْدَوَيْهِ عن ابْنِ عبَّاس: أَنَّ قُرَيْشاً قالَتْ: (أي: للنبيِّ ﷺ):

«لَوِ اسْتَلَمْتَ آلِهَتَنَا لَعبَدْنَا إِلَٰهكَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١...﴾ السورة كُلَّها.

فعلّم اللَّهُ رَسُولَهُ أنْ يُبَيّن لِلْمُشْرِكين الَّذِينَ عَرَضُوا عليه مفاوضاتهم التوفيقيّة بين الإيمان والكفر، أنَّ الإيمان لا يقْبَلُ التبعيض، لأنَّهُ حقٌّ كُلُّه، وهو لا يَقْبَلُ الاخْتِلَاطَ والامْتِزاجَ بالباطل، ومَتَىٰ امْتَزَجَ بالباطِلِ لم يَعُدْ صَحيحاً ولاَ طَهُوراً، ولَمْ يَعُدْ مقبولاً عند الله عزّ وجلّ.

والإيمان الصحيح الّذي لم يَخْتَلِطْ بالباطِلْ حقُّ اللَّهِ على عباده.



(٣)
ممّا ورد في فضائل السورة

(١) أخرج محمد بن نصر والطبرانيُّ في الأوسط عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

«﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تَعدِلُ ثُلُثَ الْقُرآنَ و ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ تَعْدِلُ رُبْعَ القرآن، وَكَانَ يَقْرأُ بِهِمَا في رَكْعَتَي الْفَجْر».

ومضمون ما جاء في هذا الحديث قد جاء في عدّة أحاديث أُخرَىٰ.

(٢) وأخرج ابْنُ أَبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذيّ والنسائي والحاكم وصححه وغيرهم من فروة بن نوفل بن معاوية الأشجعيّ عن أبيه

أنَّه قال: يَا رَسُول الله، عَلّمْنِي ما أقولُ إذَا أَوَيْتُ إلى فِراشِي، قال:

«إقْرَأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ ثُمَّ نَمْ عَلَىٰ خَاتِمَتِهَا فإنَّها بَراءَةٌ من الشِّرْك».

ومضمون ما جاء في هذا الحديث قد جاء في عدّة أحاديث أخرى.

(٣) وأخرج البزّار والطبراني وابنُ مردَوَيْهِ عن خَبَّابٍ، أَنَّ النبيّ ﷺ قال:

«إِذَا أَخَذْتَ مَضْجِعَكَ فَاقْرَأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾».

قال خَبَّاب: وإنَّ النبيّ ﷺ لم يأتِ فِراشَهُ قَطُّ إلاَّ قَرَأَ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ حَتَّىٰ يَخْتِمَ.

(٤) وأخرج أبو عُبَيْد في فضائله، وابنُ الضّرِيس عَنْ أبي مسعود الأنصاري قال: مَنْ قَرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ في لَيْلَةٍ فقد أكْثَرَ وأطَابَ.



(٤)
التدبّر التحليلي لآيات سورة (الكافرون)

قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾:

﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: هُمُ الْجَاحِدُونَ لِلْحَقّ الدِّينيّ الرَّبَّاني، الّذي جَاءَ بِه رُسُلُ اللَّهِ تَبْلِيغاً لمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بتبليغه للنّاس.

الكُفْرُ: يأتي في اللُّغة بمَعْنَىٰ جُحودِ النِّعْمَة، وهو ضدُّ الشكر، وأصْلُ الكُفْر في اللّغة تَغْطِيةُ الشيء تغطيَةً تَسْتَهْلِكُهُ، وكُلُّ من كفر شيئاً فقد سَتَرَه، ولهذا يقال للزارع كافِر، لأنه يُلْقِي الحبّ في الأرض ويسْتُرُه بالتراب، وتُسَمِّي العرب الزُّرَّاعَ كُفّاراً، لأنهم يكْفُرون الحبّ المبذور بتُراب الأرض.

وعلى هذا فالكافر في الدّين هو الذي سَتَرَ أدلّة الإيمان والإسلام وجحَدَها بعْدَ أنْ وضَحَتْ له.

وليس الكافر من كانَ خاليَ الذهن من أدِلَّة الإيمان والإسلام، ولا الباحثُ عنها، ولا المتريّثُ حتَّىٰ تتّضِحَ له الأدلّة، بل هو العارف بحقائق عناصر الإيمان والإسلام السّاتِرُ لَها والجاحد بها.

فالكَفْرُ في الدين: هو موقف الرَّفْضِ والجحود، بعْدَ مَعْرفة الحقّ بأدلّتِه المثبتة له، وهذا ما تدلُّ عليه الاستعمالات القرآنيّة المختلفة.

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾:

العبادة: هي الخضوع والطاعة والانقياد والقيامُ بما يُرْضِي المالِكَ المعْبُودَ، وتَرْكُ ما لا يرضيه من كلّ سُلُوكٍ إراديّ.

والعبادة في الدين: هي كلُّ ذلِكَ مُوجّهاً للرّبّ المالِكِ غيْرِ المدْرَكِ بِالْحَواسّ، ورأسُ عِبَادتِهِ تَوْجِيه الدُّعاء له، لتحقيق مطالب الدنيا والآخرة، والصّلاةُ له، والقيامُ بأعمال قلبيّة ونفسيّة وجَسَدِيَّة تُعبّر عن إفراده بالرُّبُوبيّة والإلَهِيَّة. وهذه العبادة لا تكون إلاّ للخالقِ الرّبّ جلّ جَلالُه، فهو وحْدَهُ الذي يسْتَحِقُّها، ولا شيءَ سواه له رُبُوبيَّةٌ أو إلَهِيَّة، فمن عَبَدَ بهذه العبادة غيْرَ الله فقد كفر بالله.

والعبادة قسمان: جَبْرِيَّةٌ واختيارِيَّة.

فالجبْرِيَّةُ هي الطاعة التامَّة لأوامر التكوين، وهذه لا فضْلَ فيها لِمَنْ تَجْرِي فيه أو علَيْه، ويخضع لها كُلُّ ما سوىٰ اللَّهِ في الوجود.

والعبادة الاختيارية: هي السُّلوك الإراديُّ الواعي المحقِّق لمطلوب الرَّبِّ من عبْدِه، أو لما يُرْضيه منه، على ما شرَع، مع قَصْدِ عبادته وحده لا شريك له، وهذه العبادة هي الّتي كلّف اللَّهُ عِبَادَهُ أن يؤدُّوها في رحلة امتحانهم في الحياة الدّنيا، وهي الّتي رتّبَ عليها الثواب العظيم الخالد في جنّات النعيم، يوم الدين، مع ثوابٍ مُعَجَّلٍ في الدُّنيا قد يَمْنَحُهُ اللَّهُ عباده.

وقد عَلِمْنَا من روايات أسباب نزول السورة، أنّها نزلَتْ بمناسبة ما عرضه مشركو قريشٍ على الرسول ﷺ، من الْمُصَالَحة الدّينيَّة، فَيَعْبُدَ آلِهَتَهُمْ سنةً، ويَعْبُدوا إِلَهَهُ سنَةً، أو يخْلِطُوا الدّينَيْن، فَيَعْبُدوا هُمْ ما يَعْبُدُ ويَعْبُد هو ما يعبُدون.

وقَدْ حَسَمَ اللَّهُ الأَمْرَ بتًّا، فأنْزَلَ على رسوله هذه السورة، وهي تتضمَّن توجيهاً للرَّسُول ﷺ، ولكلّ مؤمن مُسْلمٍ من بَعْدِه.

فبدأ الله عزّ وجلّ السُّورة بأمْرِ التكليف ﴿قُلْ﴾ وعلَّمَ رسُوله وسائر المؤمنين المسلمين أَنْ يُنَادوا المكذّبين الجاحدين بوصفهم المشتَقِّ من الكُفْر، فَيُوَاجِهُوهُمْ بالنّداء التالي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وأنْ يُعْلِنُوا لهم بكلّ حَزْم وعَزْمٍ وإصرارٍ رَفْضَ المساومة في الدِّين قولاً واحداً.

إنّ عرْضَ المشركين يتضَمَّنُ مُفَاوَضَةً توفيقيَّةً بَيْنَ الإيمان والكُفْر.

والتعْلِيمُ الرَّبَّانِيُّ بشأن هذه المفاوضة يتضمَّنُ أن الإيمانَ والإسلام لا يقْبَلاَنِ التَّبْعِيض، لأنَّهُما الجامعان لدين اللَّهِ الذي اصطفاه لعباده، ودَينُ اللَّهِ حقٌّ كُلُّه، فلا يَقْبَلُ التبعيض ولا الاختلاط والامتزاج بالباطل، ومتَىٰ امتزج بالباطل تنجَّسَ فَلَمْ يَبْقَ طَهُوراً ولاَ طاهراً، ويُمْسِي غير مقبولٍ عند اللَّهِ عزَّ وجلّ.

ويتضمّن هذا التعليم الرَّبَّانيُّ أنّ عِبادَة اللَّهِ عزّ وجلّ لاَ تقْبَلُ الشِّرْكَ به، فَمَنْ أشْرَكَ بعبادته أحداً غير الله لَمْ يَكُنْ للَّهِ عابداً، إذْ يَرُدُّ اللَّهُ عليه عبادته، فهو أغنَىٰ الشركاء عن الشِّرْك.

وعبادَةُ غير الله إمَّا أن تكون على معنى أنّ غير الله لَهُ مُشاركةٌ لله في رُبوبيّته، وهذا كُفْرٌ بالله وباطل، لأنّ الله عزَّ وجلَّ هو الرَّبُّ وحْدَهُ في الوجود، وليْسَ له شريكٌ في ربُوبيّته، وإمّا أن تكونَ على معنَىٰ التَّقرُّب إلى اللَّهِ عزّ وجلّ بعبادة الشركاء، وهذا لا يكون إلاّ بأمْرٍ أو بإذْنٍ من اللَّهِ الرَّبّ الخالق الرازقِ المحيي المميت المحاسِب والمجازي على الأعمال الاختياريّة، صاحِبِ الحقّ وحْدَه بالعبادة.

لكِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْ ولَمْ يَأْذَنْ لأحَدٍ بعبادة غَيْرِه، فَقَدْ أوْحَىٰ لكُلِّ رسُولٍ ونبيٍّ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ كما جاء في سورة (الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: بل اللَّهَ وَحْدَهُ فَاعْبُدْ وكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ بعبادتِكَ لَهُ، على ما أنعم به عليك من نِعَمٍ جَليلة.

فالمساوَمَة على الدّين، والمصالحَةُ فيه مرفوضة رفْضاً كُلّيًا، إذْ لَيْسَ مِنْ حَقِّ أَحَدٍ من المخلوقين أنْ يُسَاوِم أو يُصَالح على دين الله الحقّ.

إنّ الدّين دِينُ الله، والدّين عند الله هو الإسلام لله عزّ وجلّ وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ له، ومَنْ يبْتَغِ غَيْرَ الإسْلام ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ منه، وهُوَ في الآخِرَةِ من الخاسرين.

ويتضَمَّنُ هذا التعليم أن يُعْلِنَ الرَّسُولُ وكلُّ مؤمن مسلم من أمَّتِه للكافرين الانفصالَ التامَّ بيْنَه وبيْنَهُمْ، وأنَّه لاَ تَلاقِيَ بين الحقّ والباطل، ولا خلط ولا مزْجَ ولا مُهَايَأَةَ ولا مصالحةَ مطلقاً، فلهم دينُهُمُ الباطل، ليس للمؤمن المسلم منه شيْءٌ، ولَهُ دينُهُ الحقُّ ليْسَ لهم منه شيءٌ، إلاّ أَنْ يَتْرُكُوا باطلهم ويتَّبِعُوا ما أنزل اللَّهُ على رسوله.

أمّا التكرار في عبارات: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥﴾.

فَيَحْتَمِلُ وُجوهاً:

(١) فمنها أنّ العرْض الّذي عرضُوه يقْتضِي تقسيم العبادة بيْنَ الله وبين الشّركاء على نوبَاتٍ زمنيّة، وهذه تقتضي التكرار لدى التطبيق، فقابلها التعليمُ الرّبّانيُّ برفضٍ متكرّر، ليُقَابلَ الرَّفْضُ صورة العرض، وهذا لوْنٌ بديعٌ من فُنُون البيان، مذوقٌ ومُسْتَعْمَلٌ تلْقائِيًا في نحو هذا من إجابات الرفض على مثل العرض الذي عَرَضَهُ المشركون.

(٢) ومنها تأكيد الرفض على عادات النّاس في تكرير المفردات والجمل للتأكيد، وله نظائر كثيرة لدى الأدباء والشعراء، وقد نَصَرَهُ الشّوْكَانيّ.

(٣) ومنها حَمْلُ أَحَدِهِمَا على الحال، وحمْلُ الثاني على الاستقبال.

(٤) ومنها حَمْلُ أَحَدِهِمَا علَىٰ المعبود، إذا اعتبرنا لفظ «ما» فيه اسم موصول، وحَمْلُ الآخر على نوع العبادة، إذا اعْتَبَرْنا أنّ لفظ «ما» فيه حرْفٌ مصدريٌّ يكُونُ هو وما بَعْدَهُ في تأويل مصدر، أي: لا أعْبُدُ عبادتكم، ولا أنتم عابدون عبادتي.

(٥) وأضيف وَجْهاً خامساً بَدَا لي، وتفصيله كما يلي:

● **أنّ الجملة الأولى:** ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ هي على معْنَىٰ: لاَ أُنْشِئُ أيَّ عِبادَةٍ لمَا تَعبدُون من شركائِكُمْ، حاضراً ولا مستقبلاً، فالْعَرْض مرفوضٌ كُلُّهُ قَوْلاً واحداً.

● **وأنّ الجملة الثانية:** ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ هي على معنىٰ: أنّكم لو عَبدتُّمُ اللّهَ مَعِي، في النَّوْبَةِ الّتِي تقرّرُونها لعبادته، أو

عَبَدتُّم الله مع عبادتكم شركاءكم، فأنتُمْ لاَ تَزَالُون على عقيدتكم من الشِّرْك، لذلِكَ فإنكم لاَ تكونون عابدين في الحقيقة مَا أعْبُدُ، لأَنَّ العبادة الصحيحة لله عَزَّ وجلَّ شَرْطها صحَّةُ الاعتقاد، في «لا إلَه إلاّ الله» الّتي تفرض توحيد الإلَهيَّة لله عزّ وجلَّ، وهذه غير حاصِلَةٍ لديْكُمْ، فعبادتكُمْ للَّهِ مُنْعَدِمَة، ولو زعَمْتُم أنَّكُمْ تَفْعَلُونها، ولو صَدَقْتُم في ذلِكَ ولم تُنَافِقُوا.

● وأنّ الجملة الثالثة: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾ هي على معنىٰ: أنَّنِي لو تظَاهَرْتُ لكُمْ بِمُسَايَرَةِ عَرْضِكُمْ لاجْتِذَابكم - على سبيل فرض المحال الذي لا يكون فقد سبَقَ رَفْضُهُ بتًّا - فإنَّنِي لا يُمْكِنُ أنْ أكُون في الحقيقة عابداً ما عبدتُّمْ، إذْ لا أُومِنُ بشُرَكائكُمْ، فهي في عِلْمي واعتقادي باطل، وعبادَتُها شِرْكٌ بالله، ومُحْبِطٌ للأعْمَالِ، واللَّهُ لاَ يَغْفِرُهُ.

● وأنّ الجملة الرابعة: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾ هِيَ علَىٰ معْنَىٰ: أنَّكُمْ لو تظاهرتم بعبادة ما أعْبُد، فإنَّكُمْ في الحقيقة ستكونُون منافقين كاذبين، لا تَعْبُدونَ حَقيقةً ما أعبُد، لمخالفة هٰذه العبادة لمَا تتعلَّقُونَ به من شركائكم.

فالموقف الإيمانيّ الإسلاميّ تجاه عرض المشركين الكافرين موقفٌ واضِحٌ مُحَدَّدٌ، لَهُمْ دينُهُمْ، فَلَيْسَ لنا منه شيءٌ يخالِفُ دينَنَا، ولَنَا دِينُنَا، فلَيْسَ لهم منْهُ شَيْءٌ ما دامُوا على شركهم.

● ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾: بحذف ياء المتكلّم، أي: ولِيَ ديني، ومثل هذا الحذف الإيجازيّ في اللّفظ شائع في العربيّة، وله نظائر كثيرة في القرآن المجيد.

بهذا التفصيلِ في دلالات الْجُمَل تكونُ كُلُّ جُمْلَةٍ ذَاتَ دَلاَلَةٍ خاصَّة، واللَّهُ أعْلَمُ بمراده.

ولا أرَىٰ لزوماً لما ذكره بعْضُ المفسّرين من حمْلِ الخطاب في

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ على أَنَّه عامٌّ أُرِيدَ به خُصُوصُ من عَلِمَ اللَّهُ أنّه سيموتُ كافراً لأن الخطاب للكافرين مقصودٌ به من اتصف بالكفر ما دام كافراً، كما يُقَالُ للعاصي وهو مُتَلَبِّسٌ بالمعصية يا أيُّها العاصي، لكنّه قد يَتُوبُ ويُقْلِعُ عَنْ معصيته، وكما يُقالُ للنائم يا أيُّها النائِمُ استيقظ، فإذا استيقظ لم يَصِحَّ أن يُقَالَ له ذلك، وكذلِكَ إذا آمَنَ الكافر خرجَ من الخطاب بعبارة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ تلقائيًا بإيمانه وليس المقصود بالخطاب أفراداً بأعيانهم يلزمهم الخطاب دواماً، إذ السورة تتحدَّثُ عن المبادئ، ومناسَبَة ما عرضه المشركون على الرسول ﷺ قد استثارت الحديث عن المبدأ حول موضوع العرض، ولم تَنْزل لمعالجةِ شَخْصِيَّةٍ لأشخاص بأعيانهم فقط.

إنّ عرض بعض كبراء مشركي قريش يتضمّن تأليف دين جديد مختلط من حقٍّ وباطل، في مزيج أو خليط متنافر، تتنافر عناصره أوّلاً، ثمّ تهدأ ليتألّفَ مِنْهَا باطِلٌ جديد، تضيع عناصر الحقّ فيه وتفسد.

إنّ صراط الحقِّ واضحٌ بيّن، محدّدُ المعالم، مستقيمٌ لا اعْوِجَاجَ فيه، وأيُّ عبَثٍ فيه أو انحرافٍ عنه يجُرُّ إلى الباطل فالتَّهْلُكَةِ لا محالةَ.

والخطابُ للكافِرين في السُّورة يَتَضَمَّنُ أعْنَفَ مُواجَهَةٍ للمساومين على الباطل، المداهِنين للحقّ، الذين يُفَاوِضُونَ للخلط بين الحقّ والباطل، بغية إقَامَةِ مُصَالَحةٍ توفيقيَّة بين متناقضات لا يمكن اجْتِماعُها، إذْ يَصِفُهم بدون مقدّماتٍ ليّنَةٍ بأنَّهُمْ كافرون، أي: مبطلون يجْحَدُونَ الحقّ، ويسْتُرُونَ جحودهم بالمعاذير الكلامية، والْعِلَلِ السَّاقطة، الّتي لا تَنْهَضُ بها حُجَّةٌ مقبولة.

وتتضمَّنُ هذه المواجهة عدّة مفهومات:

المفهوم الأول: أَنَّ ما نُؤْمِنُ بِهِ وَنَدْعُو إليه حقٌّ لاَ شَكَّ فيه، ولا شبْهَةَ حوله.

المفهوم الثاني: أَنَّ ما عليه المشركون الكافرون باطل واضح البطلان، دُونَ شكٍّ، وما على الكافرين إلاّ أن ينبذُوه.

المفهوم الثالث: إعلام الكافرين بأنّ ما هم عليه باطل حتماً، ولكنَّهُمْ يسْتُرُونَ باطِلَهُمْ بما يَصْطَنِعُونَ بألسنتهم من زيوف، ويسْتُرُونَ الحقَّ وأدلَّتَهُ البرهانيّة بزُخْرُفِ من القول.

إنّ هذه المساومة الصلحيَّةَ في الدين التي جاء بها فريق من قادة كفّار قريش، أسْلوبٌ شيطانيٌّ خبيث، يُخْفُون فيه مزلقاً من المزالقِ الماكرة الخطيرة، الّتي تفضي إلى وأدِ الحقّ على أيْدي دُعاته ورُوّادِه، وحَامِلي لوائه، إن استجابوا لها.

وكثيراً ما يَغْتَرُّ بْعضُ الناس بمِثْلِ هذا العرْض، بحُجَّةِ المحافظة على وَحْدَةِ الصَّفّ، وجَمْعِ الكَلِمَة، ودَرْءِ الْفِتَن، وحِمَايَةِ المجتمع من التفكُّكِ تُجَاهَ الأعداء من خارج البلاد، فَيسْتَجِيبون له، منزلقين إلى الباطل فالخيبةِ والخسران المبين.

إنّهم متَىٰ استجابوا منزلقين إلى قبول شيءٍ من الباطل سقطَتْ دعوتهم، وانهارت أبنيتهم الفكريَّة، وبدا لخصومهم أَنَّهُمْ أصحاب منافع ومصالح دُنيويَّة، لا أصحاب مبادئ حقٍّ يدعُونَ الناسَ إليها، ويكافِحُونَ من أجْلِها، ولا يَقْبَلُونَ المساومة عليها.

والأمْرُ يشْتَدُّ خطراً حينما تكونُ المساومة والمصالحة على حساب دينٍ ربّانيّ، لاَ يَمْلِكُ الناسُ فيهِ إلاّ الإيمان والاتباع، للظفر بنجاتهم من عذاب الله، والسعادة الخالدة في جنَّات النّعيم.

إنّ المبادئ الحقّ في الحياة لا تَقْبَلُ التّنْصِيف، ولا المساومة عليها، والمصالَحةَ فيها، قطعاً.

ذلك لأنّ أوّل خطوة من خطوات المساومة والمصالحة في أمْرِ

المبادئ والحقائق الاعتقادية، هي أوّل خطوة في طريق الضعف والوهن والانحراف. ولأنّ أيَّ تنازل عن جزء من الحقّ الّذي يمثّل وحدة اعتقاديّة متكاملة هو تنازُلٌ عن الحقّ كُلّه، الشامل لكلّ عناصره، مهما كانت الذرائع، إذ المبادئ والحقائق الاعتقاديّة هي الجوهر والأصل الثابت، وما عداها من مصالح شخصيّة أو غايات مرافقات لها فإنّها خَارِجَةٌ عنها، وغَيْرُ دَاخِلَةٍ في عناصرها.

إنّ وحدة الصف لا ترقى بحالٍ من الأحوال إلى مستوى وحدة المبدأ الحق، فوحدة الصف الذي لا تجمعه وحدةُ مبدأ حقٍّ يُكَوِّنُ صَفًّا خليطاً من أصحاب مبادئ متنافرة، وعقائد متباينَة، ومصالح متخالفة، وما أسرع ما تدبُّ خلافات المصالح الفرديّة فيه، فَتُفكّكُهُ وتمزّقه وتشتّته.

إنّ الذي يقبل المساومة والمصالحة من الحقوق إنما هي الحقوقُ الشخصيَّة، الّتي ترتبط بها مصالح دُنيويّة، فلِلْفَرْدِ أَنْ يُسَاوِمَ وَيُصَالِحَ على حقٍّ مالِيٍّ له، فيتنازل عنه أو عن جُزْءٍ منه، ويسامح بسائره، حرصاً على وحدة الصّفّ، وجَمْعِ الْكَلِمة، واستبقاء الألفة والمحبّة بين الإخوة.

فالحفاظ على وحدة الصّفّ وجمع الكلمة أجَلُّ وأسْمَىٰ من المصالح الشخصيَّة الفردية، وتنازل الفرد عن حقّه الشخصيّ من أجل وحدة صفّ الجماعة فضيلةٌ خلقيّة عظيمة، وإيثارٌ محمود.

وربّما تحْسُنُ المساومة والمصالحة في الطّرُق المؤديّة إلى الغاية الواحدة المشتركة، إذا اختلفت الاجتهادات في أسْهَلها أو أقربها أو أكثرها سلامةً وأمْناً، مع احتفاظ المتنازل عن العمل باجتهاده في الطرُق والوسائل بما رأىٰ، على أنه فكرةٌ موقوفة التنفيذ إذْ وافق على العمل برأي غيره، حرصاً على وحدة الصّفّ، الّتي تتكاثَرُ بها الْقُوىٰ لتحقّقَ الغاية، إذْ لو تفرّقَ أصحابُ الآراء، فَعَمِلَ كلُّ واحد منهم بما رأىٰ في اجتهاده الخاصّ،

لتبَدَّدَتِ الطاقات، وخاب العاملون جميعاً في الوصول إلى الغاية المنشودة لهم جميعاً، أو لفشلوا بسبب تنازعهم، وعلى هذا يُحْمَلُ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)﴾:

فَتَفْشَلُوا: أي: فتَضْعَفُوا وتجبُنُوا.

وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ: أي: وتذهَبَ قُوَّتُكُمْ، ولا يكونُ لكم النَّصْر والغلبة.

أمّا أصحاب الحقّ الاعتقاديّ، وأصحاب الباطل، فالنزاع قائم بين الفريقين لا محالة، وأيَّةُ محاولة للتوفيق بين الحقّ والباطل، إنّما هيَ تقوية للباطل على الحقّ، وتكثيرٌ لسواده، وتجميع لقواه، حتَّىٰ ينقضّ على البقيّة الباقية من الحقّ فيغتالها.

وبهذا تمّ بحمد الله وتوفيقه تدبر سورة الكافرون



الفهرس

الموضوع	الصفحة

سورة المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول

الموضوع	الصفحة

سورة المزّمل
/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

سورة الفاتحة / ١ مصحف/ ٥ نزول

الموضوع | الصفحة

سورة المسد/ ١١١ مصحف/ ٦ نزول

سورة التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول

الموضوع	الصفحة

سورة الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول

الموضوع	الصفحة

سورة اللّيل/ ٩٢ مصحف/ ٩ نزول

الموضوع | الصفحة

سورة الضحى/ ٩٣ مصحف/ ١١ نزول

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

سورة التكاثر/ ١٠٢ مصحف/ ١٦ نزول

سورة الماعون/ ١٠٧ مصحف/ ١٧ نزول

سورة الكافرون/ ١٠٩ مصحف/ ١٨ نزول

